رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

نِسَاءٌ

مِنَ المَشْرِقِ العَرَبِيِّ

تأليف
أحمد خليل جمعة

اليمامة
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - بيروت

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

نساء
من المشرق العربي

حقوق الطبع والتصوير محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

اليمامة
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - برامكة - جانب الهجرة والجوازات - ص.ب ٣٧٧ - تلفاكس ٢١٢٢٠٥٩ - ٢١٢٣٢٤٥

بيروت - ص.ب ٥٤٨٨ / ١١٣ - تلفاكس ٤٧٥٨٥٧ ١٠ - جوال ٨٥٣٥٨٦ ٠٣

البريد الالكتروني: alyamama@scs-net.org

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

نساء من المشرق العربي

تأليف

أحمد خليل جمعة

اليمامة
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - بيروت

الإهداء

إلى التي رعتني صغيرًا

وهذبتني كبيرًا

إلى التي علمتني حب العلم

وهمس الحنان

أمي الحبيبة

أحمد

يا أحمد جوزيت خيرا

تاريخُنا يزهو مدى الأزمان	بجهود أهل العِلْمِ والعِرفان
نَشَرَ الأفاضلُ في الدُّنا أعلامه	وسعى له جمعٌ من النّسوان
والسِّفرُ هذا مُنصفٌ ومؤرِّخٌ	لِذواتِ أهل الفضل والإحسان
ومُبيِّنٌ مَنْ قد عُرِفْنَ بحكمةٍ	وبقولِ فصلٍ أو بليغِ بيان
منهنَّ صائبةُ المقالِ «بُهَيْسَةٌ»	مَنْ أصلحتْ عبْسًا إلى ذُبيان
و«عُفَيْرةٌ» أو «عِنْبَةٌ» كلتاهما	رمزُ الإباءِ و«زوجةُ النّعمان»
وكذا كمُ «ماويّةٌ» مَنْ زوجُها	عَرْفُ السَّخاء وشاعر الفرسان
وفتاتُه «سفَّانةٌ» قد أسلمتْ	وتميّزتْ بِفصاحةٍ ولسان
وكذلك «الخنساءُ» يحلو ذكرُها	بِعُذوبةِ الأشعار والإيمان
«هندٌ» و«فارعةٌ» هما مِنْ نسوةٍ	لهما مكانٌ في ذُرا التّبيان
والعالماتُ مِن النّساء «تقيّةٌ»	أو «مَنْ تُجيبُ النّاسَ بالقرآن»
أو «شهدةٌ» أو «فِضّةٌ» و«كريمةٌ»	و«الفاطماتُ» عُرِفْنَ في الأعيان
وكذاك «سِتُّ زمانها» مشهورةٌ	و«الزّينباتُ» ذواتُ فضلٍ ثان

و« سعادُ » ثمّ « ودادبنتمحمدٍ » وهناك « آمنةُ » النّدى الهتّان

في كلِّ وادٍ قدحلَلْنَ رِياضَهُ جَلَّيْنَ عن علمٍ ورِفعةِ شان

سِفْرٌ أبانَ لهنّ كلّ فضيلةٍ تُتلى لهنّ على مدى الأزمان

وأجاد في أوصافهنّ محقّقٌ تعبيرُه أندى من الألحان

هو « أحمدُ » نجلُ الخليلِ عرفتُه متألّقًا في النّثرِ والأوزان

قدكان في أخبارِهنّ مُباعدًا عمّا يشينُ أمانةَ الإنسان

ومُخالفًا لِرغابِ أربابِ الهوى ومُعاديًا لِرغائبِ الشّيطان

فلقدأعادَ الحقَّ أبلجَ زاهيًا وأبان زيفَ الزُّورِ والبهتان

وإذا بتاريخِ النّساءِ موثّقٌ ومُنضّرٌ بالصّدقِ والبرهان

يا « أحمدُ » جُوزيتَ خيرًا بالّذي قدّمتَ مِن عملٍ بكلّ تفَنان

أهديتَ للفُضلاءِ علْمًا نافعًا ونفائِسًا تعيْا على الحُسبان

فالمخلِصون لدى الحساب جزاؤُهم حُسْنُ المقامِ بِواحةِ الرّحمان

فاهْنأْ بأجْرٍ زائدٍ يا « أحمدُ » عند المليكِ بجنّةِ الرّضوان

همسات شعريّة من محبّ مهداة إلى الأديب الكبير أحمد خليل جمعة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

وبـهِ أَعْـتَـزُّ

المُقدّمَةُ وَعَرضُ الكِتَاب

* الحمدُ للهِ الذي شرحَ صَدْرَ منْ تأدَّب ، ورفعَ قَدْرَ منْ تأهَّل للعِلْمِ وتأَهَّب ، وأكْرَمَ مَنِ ارتدىٰ لباسَ الفَضْلِ وتَدرَّب ، وعرفَ سِيَرَ نساءِ المشرقِ العربيِّ المُحبَّب .

* أَحْمَدُهُ على نعمهِ التي جعلتِ العُلومَ بالآدابِ روضاً مُثمِراً ، وأعْلَتْ همّةَ منْ كتَبَ بالقلمِ واتَّخذَ الأناملَ منْبَراً ، وأَغْلَتْ قيمةَ جواهرِه فكانت ثمناً تُباعُ به القُلوبُ وتُشْتَرىٰ . . .

* أَحْمدُهُ سبحانَهُ فهوَ القويُّ القَادر ، الوليُّ النَّاصر ، الكريمُ الغَافِر ، الباطنُ الظَّاهر ، الأوَّلُ الآخر ، الذي جعلَ العَقْلَ أرجحَ الكنوزِ والذَّخائر ، والعلْمَ أربحَ المكَاسبِ والمتَاجرِ ، وأشرفَ المَعالي والمفَاخِر ، وأكْرَمَ المَحامِدِ والمآثِر ، وأحْمَدَ المواردِ والمصَادر ، فتزيَّنَتْ بسماعهِ المحاريبُ

والمَنابر ، وتقدَّم بشرفهِ طُلاَّب العلْمِ فصَاروا من الأكَابر ، واستضَاءَتْ ببهائِهِ الأسرارُ والضَّمائر ، وتنوَّرَتْ بأنوارِه القُلوبُ والبصَائر. . .

* والصَّلاةُ والسَّلامُ على محمّدٍ رسوله ذي العنْصرِ الطَّاهر ، والمجدِ المُتظَاهِر ، والشَّرفِ المُتناصِر ، والكَرَم المُتقاطِر ، المؤيّدِ بالقرآنِ المجيدِ الذي لا يملُّهُ سامعٌ ولا آثر ، ولا يدركُ شأْوه ناظمٌ ولا ناثر ، ولا يحيطُ بعجائبه وصْفُ واصِف ولا ذِكْرُ ذاكِر. . .

* فهو ﷺ أفصحُ ناطِق ، وأبلغُ صادِق؛ إذ كلماتُه روحُ الحياة وحياةُ الرّوح ، وبلاغتُه وأنفاسُه تندّي الرّوح ، وقد:

أَهَانَتِ الدُّرَّ حتّى ما لَهُ ثَمَنٌ ... وأَرْخَصَتْ قِيْمَةَ الأمْثَالِ والخُطَبَا

وَ:

تَزِيْنُ مَعَانِيْهِ أَلْفَاظُهُ ... وأَلْفَاظُه زَائِنَاتُ المَعَاني

* يا ربّ ، أَسْبِلْ علينا ستْركَ الجميل ، وأسبغْ علينا عطاءَك الجزيل ، وامْنَحنا رضاكَ الذي هو غايةُ التّأميل ، واحْرُسْنا بعينِكَ ، وأيّدْنَا بعونكَ ، واكْنُفْنَا بعزّكَ ، وصُنَّا بحِرْزِكَ ، ووفّقْنا لِذِكْرِك ، وأعِنّا على حَمْدِك وشُكرِك ، فإنَّه لا توفيقَ إلاّ منْكَ ، ولا عونَ إلا بكَ ، ولا حراسةَ إلا لمن شملَتْه عِنايتُكَ ، ولا سعادةَ إلاّ لمن وسعَتْه رحمتُك. . .

* اللهمّ شَفِّعْ فينا خاتمَ أنبيائِك محمّداً الذي شرَّفْتَ قَدْره ، وشرحْتَ بالنُّور صَدْره ، ورفَعْتَ ذِكْره ، وأذْهَبْتَ عُسْرَه ، وأَثْبَتَّ يُسْرَه ، وملأْتَ بالنُّور سِرّه وجَهْره. . .

* اللهمّ صَلِّ عليه صلاةً تزيدهُ نوراً على نُور ، واجعلْها ـ يا ربّ ـ لنا تجارةً لن تبُور ، إنّك أنتَ العزيزُ الغفور.

وبَعْد:

وَمَا زَالَ أَهْلُ الغَرْبِ يَدْرونَ قَدْرَنَا   مَدَىٰ الدَّهْرِ مَا أَبْدَوا مِنَ الفَضْلِ معْجمَا
مَتَىٰ يَذْكُرِ الأَفْضَالَ فيْهِمْ خَطِيْبُهُمْ   عَلَىٰ منْبَرٍ صلَّى عَلَيْنَا وسَلَّمَا[1]

وَ:

للشَّرْقِ فَضْلٌ في البَرِيّةِ إنَّهُ   يأْتي الوجُودَ بِكُلِّ حُسْنٍ معْجبِ
والغَرْبُ أَظْلَمُ مَا يَكُونُ لأَنَّنَا   نَشْقَىٰ بِفُرقَةِ شَمْسِنَا في المَغْرِبِ

وَ:

الشَّرْقُ شَيءٌ مَلِيْحٌ   فَقُلْ لِمَنْ يَزْدَرِيْهِ
الشَّمْسُ تَطْلُعُ مِنْهُ   وَالبَدْرُ يَكْمُلُ فِيْهِ[2]

* نَعمْ أحبّائي ، إنَّهُ في الذَّاهبينَ الأوّلينَ منَ القُرون لنَا بَصائر ، وفي آثارِ التّفكُّرِ في أعمالِهم وأحوالِهم ما يصلحُ الظَّواهرَ والضَّمائر؛ وإنَّ الوقوفَ علىٰ أخبارِ المَشرقيّاتِ منَ النِّساءِ ، ومَا وصَل إلينا عنهنَّ منْ أنباءٍ وأسْماء ، ممّا تتشوّقُ النُّفوسُ إلى الوقوفِ عليه ، وتتشوّقُ بجملتِها إليه؛ فالتَّاريخُ النَّسوي المشرقيّ ـ بخاصة ـ لا يملّه مَنْ يطالعُه ، ولا يَسْأَمُه مَنْ يُراجعه ، ولا يخلو مَنْ يقِفُ على التَّواريخِ من فائِدة ، ولا يطْوي صحفَها إلاّ حصَلَ منها على صِلَةٍ وعَائِدة ، فإذا راجعَ التَّواريخَ كان كمَنْ شَاهدَ مَنْ مضىٰ ، وعايَنَ ما جرىٰ بهِ القَدَرُ عليه وقَضَىٰ ، و:

كُنْ عَارِفاً بِأحادِيثِ الأُلىٰ سَلَفُوا   يـزِيْـدُكَ العـرفُ آدَابـاً عَلـىٰ أَدَبِ

---

(١) منادمة الأطلال؛ لعبد القادر بدران.

(٢) ولكي نُرضي أَهْلَ المغربِ ، كما أرضَيْنا أهلَ المشرقِ نقولُ لهم:

الغربُ أحْسَنُ منهُ   ولِيْ بهذا أدلّه
الشّمسُ تسعى إليهِ   ومنْهُ تبدو الأهلّه

أو:

للغربِ فَضْلٌ شَهيرٌ   ولِيْ بذاكَ أدلّه
الشّمسُ تغربُ فيهِ   ومنه تبدو الأهلّه

فَـرُبَّ نَفْـعِ غَـزيـرٍ لَسْـتَ تُـدْرِكُـهُ   مضَىٰ بِمَا أَغْفَلَتْه سَالِفُ الحقبِ

و:

ارقُـــمْ بِـــرأسِ القَلَـــمِ   مَـــا تَلْتَقِـــي مِـــنْ حِكْـــمِ
فـــالعِلْـــمُ صَيْـــدٌ فَـــاغْنَـــمِ   والخَـــطُّ قَيْـــدٌ فـــارْقُـــمِ

* وفي رِحْلَتي مع نساءِ المشرقِ العربي[1] ، جمعتُ في كتابي أخبارَ نساءٍ منَ الزَّمنِ الغابر ، ثمَّ عَرَّجْتُ على جملةٍ من أخبارِ نساءٍ في العَصْرِ الحاضِر ، وأودعتُ فيهِ فوائد جمّة ، ومعلوماتٍ مهمّة ، تشرحُ صَدْرَ العالِمِ والأديْب ، وتُؤنِسُ قَلْبَ المُفارقِ والحبيب ، وتُرضي البعيدَ والقريب . . .

* قالَ عبدُ اللهِ بنُ قُتيبةَ : «مَنْ أرادَ أنْ يكونَ عالِماً فَلْيَطْلُبْ فنّاً واحداً ، ومَنْ أرادَ أنْ يكونَ أديباً فلْيتَّسِعْ في العُلوم» .

* فالكتابُ خيرُ جَليسٍ ، وأفضلُ أنيسٍ ، لا يملُّ من محادثتهِ الأنيْس ، وهو أسمحُ كريمٍ بما عنْدَهُ منَ الدُّرِّ النَّفيس ، وفي هذا الكتابِ للجليْس :

مَعْنـــىً بَـــديْـــعٌ وَأَلْفَـــاظٌ مُنَقَّحَـــةٌ   غَـــرِيْبَـــةٌ وقَـــوَافٍ كُلُّهـــا نُخَـــبُ

* وقَدْ ذَهَبتِ المكارمُ إلا منَ الكتابِ؛ لأنَّ فيهِ لبَّ اللُّباب ، وهو نزهةُ الأَلْبَاب ، يحتوي لطائفَ منْ نُزْهَةِ الآداب ، ويحمي صاحِبَه من شرِّ الأعداءِ والأصْحَاب ، وقديماً قيل : «لمْ أَرَ أسْلَمَ منَ الوحْدَةِ ، ولا آنسَ منْ كتَاب» والكتابُ هو :

سَمِيْـــري لا يَنَـــامُ ولا ينـــمُّ   حفيـــظٌ للّـــذي يَلْقَـــىٰ كَتُـــومُ

* بل إنَّ :

---

(١) لكي لا يأخذ أهلُ المغربِ على خاطِرهم منّا ، فإنّا سنقوم بإعدادِ موسوعة جميلةٍ طريفةٍ بعنوان : «نساء من مصر والمغرب العربي» ، وسيكونُ بإذن الله مُوازياً لهذا الكتاب .

كِتَـابـي فيْـهِ بُسْتَـانـي وَرَاحِـي ... ومنْـهُ سَمِيْـرُ نَفْسِـي والنَّـديْـمُ
يُسَـالِمُنِي وكُـلُّ النَّـاسِ حَـرْبٌ ... يُسَلِّيْنِـي إِذَا عَـرَتِ الهُمُـومُ
وَيُحْيِـي لِـيْ تَصَفُّـحُ صَفْحَتَيْـهِ ... كِـرَامَ النَّـاسِ إِن فُقِـدَ الكَـرِيْـمُ
إِذَا اعْـوَجَّـتْ عَلـيَّ طَـريـقُ أَمْـرِي ... فَلِـيْ فِيْـهِ طَـرِيْـقٌ مُسْتَقِيْـمُ

* لَقَدْ نَهجْتُ في هذا الكتاب نهجاً متميّزاً لإبرازِ دورِ المرأةِ في المشْرِق ، ولإظهارِ ألوانِ آثارِها وعمِلِها المونق ، ونهلْتُ منْهُ منْ ينابيعِ البراعةِ ما جرىٰ ، وأوْدَعْتُ فيهِ من سِحْرِ البلاغَةِ ما تَرىٰ :

فَجَـاءَ الكِتَـابُ كَسِحْـرِ العُيـون ... بِمَـا رَاحَ يَسْبِـي عُقُـولَ الـوَرَىٰ

* وسَلَكْتُ في طريقةِ عَرضِهِ ما تلذُّ لهُ العيونُ والأَسْمَاع ، وما يملأُ القلوبَ بالسُّرورِ والإمتَاع ، وفيه :

مَعَـانٍ كـالعُيـونِ مُلِئْـنَ سِحْـراً ... وأَلْفَـاظٌ مُـورَّدةُ الخُـدودِ

* ولكَي يكونَ كِتابُنا جميلاً كالبدرِ ليلةَ التَّمام ، قَسَمْتُهُ أربعةَ أقْسَام ، لِيَحْلُوَ الحديثُ ويكونَ أجْمَل ، وَلِتَتَوضَّحَ صُورةُ المرأةِ المشرقيّةِ بشكْلٍ أفْضَل .

* وكانَ كُلُّ قسْمٍ منَ الأَقْسَام الأربعةِ يمثِّلُ عَصْراً منْ عصورِ البشَرِ ، عاشَتْهُ المرأةُ وسجَّلَتْ فيهِ دوراً يُذْكَرُ ، ومَجْداً يُروىٰ ويُؤْثَرُ . ورحتُ منْ خلالِهِ أصحِّحُ كثيراً من المفاهيمِ المغلوطةِ التي وصلَتْ إليْنَا عنْ طريقِ المصَادرِ ، وأثْبتُّ الحقَّ والحقيقةَ لِذَوي العُقولِ والبَصَائر ، ليكونَ المطَّلعُ عليه رضيَّ النَّفس ، مَسْرورَ الخَاطِر . . .

* ففي حديثِنَا عنِ النِّساء في العَصْرِ الجاهليّ والعَصْرِ القديم ، وقَفْنا مع خمسِ نسوةٍ لكلِّ واحدةٍ منهنَّ سِمَةٌ بارزةٌ ودورٌ كريمٌ ، يدلُّ عليهَا ، ويشيرُ بأناملِ الفَضْلِ إليها . . .

* فقد كانتْ «بُهَيْسَةُ بنْتُ أوس» مثالَ المرأةِ العَاقِلَةِ والزَّوج الحَصَان ، التي تنظرُ إلى الأمورِ بحكْمَةٍ وبيَان ، لذلكَ كانتِ السَّبَبَ في إصْلاحِ ذاتِ البين بينَ عَبْس وذُبْيَان ، بعد حربٍ ضَروس دمَّرتِ الشِّيْبَ والشُّبَّان. . .

* وفي سيرة «عُفيرةَ بنتِ عبّاد» تظهرُ المرأةُ التي ترفضُ الضَّيمَ والذُّلَّ والجَور ، وتدعو قومَها إلى التَّخلُّص من الظُّلم والحيفِ والزُّور. . .

* وكانت «عنبةُ بنتُ عَفيْف» ـ أمُّ حاتم الطَّائي ـ نموذجاً للجودِ والبذْلِ والسَّخاء ، والعَطْف على ذوي الحاجاتِ وأهْلِ الشَّقاء ، فطبَّقَتْ إذْ ذَاك شُهْرتُها الجوزَاء ، وَوَرِثَ ابنُها حاتمٌ عنهَا صفةَ الجُود والعَطَاء ، فبلغ بذلكَ عنانَ السَّمَاء ، وكان أشْهَر عَصْرِه منَ الكُرماء.

* وتظهرُ «ماوِيَّةُ بنْتُ عَفْزَر» ـ امرأةُ حاتم ـ بأنَّها امرأةٌ ذاتُ رأيٍ وحزْمٍ ، وذاتُ ذكاءٍ وحصَافَةٍ وفَهْم ، وذاتُ تدبيرٍ وقَرارٍ وعَزْمٍ.

* وَأمَّا «المتجرِّدَةُ امرأةُ النُّعْمان» فكانت مثالَ المرأةِ العفيفةِ الحَصَان ، وقد تحدَّثْنا بالتَّفصيل والتَّحليل عمّا رانَ على سيرتها منَ الأقَاويْل ، ونَبَذْنا تلكَ الأشياءَ التي لا تليقُ بامرأةِ مَلِكِ العَرب ، وتلك الأمورَ الخارجةَ عن موضوعِ الغيْرَةِ والأدَب. . .

* وفي مُتابَعةِ رحْلتِنا النّسويّةِ الجميلةِ مع نساءِ المشرقِ العربيّ ، وقَفْنا في عَصْر المُخضْرمين وقفةً لطيفةً مع أربعِ نسْوةٍ ، كان لهنّ كبيرَ الأثرِ في مجالاتِ الفضائلِ والمكارمِ والمحامدِ ، كالجهادِ ، والجودِ ، والأدب ، والشِّعْـر ، وروايـةِ الأخبـارِ ، ومقـابلـةِ سيِّـد الأَخيـارِ ، النَّبـيّ المُخْتـارِ محمّدٍ ﷺ ، وهؤلاء النّسوةُ الأربعُ اللّواتي اخترتُ سِيَرهُنّ هنَّ : «الخنْساءُ» شاعرةُ بني سُلَيم وأميرةُ شاعراتِ قومها ، و«الفارعةُ بنتُ أبي الصَّلْت» أختُ الشَّاعر الشَّهير أميّة بن أبي الصَّلْت؛ و«سَفَّانَةُ بنتُ حاتم الطَّائي» التي

كانت سبباً في إسلام أخيْهَا عديّ بنِ حاتم ونَظْمِه في سِلْكِ دُررِ صحابةِ رسولِ اللهِ ﷺ؛ و«هندُ بنْتُ أثاثَة» التي قارعَتْ بِشِعْرِها مشاهير النّساء في عَصْرِها ، وكانت من الأصواتِ النّسويّةِ التي نافَحَتْ عنِ الإسلامِ وأهْلِهِ.

* ولما وضعتُ سيرةَ الخنْساءِ تحتَ مجْهر البحثِ ، تحدّثْتُ عن نشأتِها وحياتِها ، ومن ثمَّ رحْتُ أشيرُ إلى بعضِ الرِّواياتِ المضطربةِ التي أُلْصِقَتْ بسيرتها ، وأفردْتُ أكثرَ من فقْرةٍ لتَصْحيحِ مفاهيمَ مُلْتوية ومشوشَة ورَدَتْ في ترجمتِها ، وقد أصبحتْ عند كثيرٍ منَ النَّاس ومنَ القرّاء حقائقَ لا جَدَلَ فيها ، ولا تجوزُ المناقشةُ فيها أيضاً ، بل ولا السُّؤال عن حقيقتِها أو عن كُنْهِهَا.

* ومَنْ ذَلكَ قصّةُ حُضُور الخَنْساءِ معركةَ القادسيّة الشَّهيرة في تاريخِ المعَاركِ الإسلاميّةِ في المشرقِ العربيّ ، وزعمَ الزَّاعِمُون أنَّها شَهِدتْها معَ بنيها الأربعةِ الأبْطَال ، وفوقَ ساحةِ القَادسيّة كان كلُّ واحدٍ منْهُم ينشِدُ شِعْراً بل رجَزاً متكَلَّفاً لا رُوحَ فيهِ ولا معنى ، بل هو ضعيفُ الأسلوبِ والمبْنَى ، وأشرتُ إلى أنَّ الخنْساء لم يكنْ لها أربعةُ بنين منْ أبٍ واحدٍ ، وأنَّ هذه القصَّةَ هي روايةٌ بلْهَاءُ شَوهَاءُ عرجَاء ، تتناقلَها بعضُ الكُتب والألْسِنة دونَ تحقيقٍ أو تمحيصٍ أو مناقشة ، وأظهرتُ بالدَّلائلِ والحقائقِ والقرائنِ أنَّ الخنْسَاء السُّلَميّة لم تكنْ أُمّ البنين الأربعة الذين حَضَروا القادسيّةَ ، وخاضُوا غِمارَها وشَروا وباعُوا ، وقاتَلُوا وقُتِلُوا ، وحظُوا بالشَّهادة ، وفازُوا بالسَّعادة ، ومن ثمّ تَحْمَدُ الخنْسَاءَ اللهَ عزَّ وجلَّ على استشهادِهم ، وتقولُ قَولَتَها المَشْهورة المزعُومة لما أنَّ بلغَها خبرهم: «الحمدُ للهِ الذي شرَّفَني بقَتْلِهم ، وأرجو من ربّي أنْ يجمعَنِي معهم في مُستَقَرِّ رحمَتِه»!!..!!.

* ولم تكُنْ تلك المرأةُ التي شَهِدَتِ القادسيّة هي الخنْساءُ ، وإنما التي شَهدتْها امرأةٌ خَثْعَمِيَّةٌ ، قد حضَرتْها مع أولاَدِها الأربعةِ ، وقد ظَهَرتْ

هِمَّتُها يومذَاكَ ، إذْ راحتْ تخطبُ في بَنِيْهَا وتُحمِّسُهم ، وتُضْرِي بخطابِها الجنودَ أيضاً فقالَتْ لأَوْلادِها: «أيّ بنيَّ! إنّكم أسْلَمْتُمْ فَلَمْ تبدّلُوا ، وهاجرتُم فلمْ تَثُوبُوا ، ولم تَنْبُ بكمُ البلادُ ، ولم تقْحَمكمُ السّنَةُ ، ثمّ جئْتُم بأمِّكم؛ عجوزٍ كبيرةٍ ، فوضعتمُوها بين أيدي أهْل فارس؛ والله إنّكم لَبَنُو رجُلٍ واحِدٍ ، كما إِنّكم بنو امرأةٍ واحدةٍ ، ما خُنْتُ أباكم ، ولا فضَحْتُ خالكم ، فانطلقُوا ، فاشْهَدوا أوّلَ القِتَالِ وآخِرَهُ ، ومُوتُوا كِراماً».

* وانطلقَ بنُوها الأربعةُ كَأُسْدِ الغَابةِ يخوضُون وطيْسَ المَعْركةِ ، فلمّا غابُوا عنها رفَعَتْ كفَّيْها إلى السَّماء ، وراحتْ تدعو الله عزَّ وجلَّ وتقولُ في دعائِها: «اللهمّ ادفعْ عن بنيّ ، ولا تَجْعَلْ يومَهم قَبْلَ يَومِي». فرجعُوا إليها وهَمْ سَالمون وقدْ جاهَدُوا في اللهِ حقَّ جهادِه ، وأحسنُوا القتالَ ، ولم يُجْرَحْ واحدٌ منهم.

* ومنْ هَاهُنا اختلطَ الأمْرُ على الرُّواةِ ، فنسَبُوا هذه القصّةَ إلى الخنْساءِ ، ومنْ ثمَّ جعلُوا منها ومنْ أولادِها أبطالاً وشُهداء في القادسيّة ، وخرَّبُوا بذلك تاريخَها ، وخَلَطُوا الأُمُورَ ، وقلَّبُوا للنَّاسِ الأحداثَ وفْقَ أهوائِهم ، وما تشتهيهِ أنْفُسُهم التي تَشْتهي التّمويهَ والإثارة.

* ولمْ يكْتَفِ هؤلاءِ المتخصّصُون بروايةِ الأباطيْلِ لقضاءِ الأوقاتِ بالأَسْمَار ومنعرجِ الأَخْبَارِ ، بل خَلَعُوا ـ أيضاً ـ علىٰ الخنْسَاءِ صفَةَ النَّاقدِ الخبيرِ البصير بالشِّعْر ، وذلك في قصّةٍ منْفُوخَةٍ محشوَّةٍ بالتَّهويلِ والأوْهَامِ ، وزعمُوا في حبْكةٍ غيرِ محبوكةٍ قصّةَ اجتماعِها بالشَّاعِرَيْن الشَّهيرَيْن البليغَيْن؛ حسَّانَ بنِ ثابت ، والنَّابغة الذّبياني في بعضِ المواسِمِ بِسُوقِ عُكَاظ ، ومن ثمَّ حكَمَتْ على قصيدةِ حسَّانَ التي أنْشَدَهَا أمامَ النَّابغةِ بأنَّها ضعيفةُ النَّسْجِ ، وأنَّ حسَّانَ قد أسَاءَ استخدامَ الكَلامِ ، ولمْ يضَعْهُ في مواضِعِه الصَّحيحةِ ، وتبدو الخنْسَاء ـ كما أرادَ الرّواةُ في هذه القصّة ـ

متغلّبةً على حسّانَ الذي أفْحمتْهُ ، وأسكتَتْهُ فلَمْ يحرْ جَواباً .

وقد بيَّنّا بالأدّلةِ العقليّةِ القاطعةِ بأنَّ هذه الأُقْصوصَةَ المنفوخةَ مكذوبةٌ مصنوعةٌ في مصانعِ بعضِ الرُّواة ، والتي لم تُحسِنْ إخراجَها إخراجاً سليماً ، وأشرنا إلى أنَّ بعضَ الأدباءِ وبعضَ المصنّفين قد توارثُوها عنِ الرُّواة والأخباريّين دون تحقُّق أو تثبُّتٍ ؛ إنَّها أمْسَتْ عند كثيرٍ منَ أهْلِ الأدبِ والأسْمار حقيقة مُسَلَّمة لاشِيَةَ فيها ، بل لا تقبلُ الرَّدَّ ، أو الطَّعْنَ ، أو حتّى الشَّكَّ ! ! . . .

* وكانتْ شخصيّاتُ النِّساء المشرقيّات من العصرِ الإسلاميّ هي القِسْمُ الثّالثُ من هذا الكتاب ، وهي تُقارِبُ نصْفَ الكتاب ، فقد دار الحديثُ ليرسم شخصيّةَ بضْع عشْرةَ امرأة استغرقَتْ بضْعَة قُرون ، وكان لكلٍّ واحدة منهنّ نصيبٌ في تاريخِ الإسلامِ ، ولكلّ واحدةٍ منهنَّ فضيلةٌ وسِمَةٌ تُعْرَفُ بها .

* فقد تحدّثْتُ ـ مثَلاً ـ عن فضَّةَ النُّوبيّةِ ـ وهيَ منْ عصْرِ الصَّحابة ، وكانت جارية سيّدتنا فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها ـ وأزحتُ السِّتار عمّا اكتنَفَ سيرتَها منْ أوهامٍ وخُرافَات ، ومنها قصَّةٌ مزعومةٌ تشيرُ إلى أنَّها صامَتْ ثلاثةَ أيّامٍ كَوامِلَ ، مع سيِّدتها الزَّهْراء ، وسيّدها عليّ ، وطفلَيْه الحسنِ والحُسينِ ، وأشَرْتُ إلى أنَّ تلكَ القصّة قد صُنِعَتْ في غفْلَةٍ عن أعيُنِ النُّقّاد وذوي البصَائر ، كما أنّني أشَرْتُ إلى أنَّ مثل هذا القَصصِ الموضُوع لا يزيدُ من رصيدِ فضَّة ولا رصيدِ سيّدتها الزَّهراء شيئاً ، بل لا تُوجد فائدةٌ من تلكُمْ وهاتيكم الأَشْعَارُ المشْعُورة المبتورةُ الممهورةُ بختْمِ الوضّاعين ، وتلكم الأرجازُ المكسورةُ والسَّقيمةُ التي حشُوا فيها تلكم الأقصوصة السَّاذجة المُهلْهَلة ، بل زعم بعضُهم أنَّ فضَّةَ النُّوبيةَ رضي الله عنها كانت لا تكلِّمُ النّاس إلاّ رمْزاً ، وإلاّ بآياتٍ منَ القُرآن الكريم والذِّكْرِ

الحكْيمِ ، ونسجُوا حولَ ذلك قصّةً سُدَاهَا الوهْمُ ولحمتُها الخَيالُ لتدلَّ على سَذَاجتِهم ، ولا ترفَعُ من مقْدارِ فِضَّة شيئاً ، فهيَ رفيعةُ القَدْرِ أصْلاً ، حظيَتْ بخدمةِ البَيْت الفاطميّ العَلويّ الحَسني الحُسينيّ ، مِنْ أكرمِ بيوتِ الدّنيا وأجلّها مقاماً ومكانةً عند رسولِ الله ﷺ . .

* وفي مضْمَارِ الحديثِ عنِ التّمويهِ في سِيَرِ نساءِ العَصْرِ الإسْلاميّ ، ترجمتُ للْمرأةِ المتكلّمةِ بألْفَاظِ القُرآنِ الكريمِ ، تلك المرأةُ الغامضَةُ الهابطةُ منْ فَضَاءِ الخَيالِ ، والتي لا نعرفُ لها اسْماً ولا رسْماً ولا وطَناً ولا أرضاً ، وإنّما وُجِدَتْ هكذا في حياةِ بعضِ المشَاهيرِ من العُبَّاد والزُّهَّاد ، وذَكَرتُ بأنَّ قصَّتَها أطروفةٌ منسوجةٌ ، قد نَحتَها صانعُو القَصَصِ ونَسبُوهَا إلى بعضِ المشَاهيرِ ، ولكنَّه قد ثبتَ بأنَّ هؤلاء النَّسَّاجينَ والنّحّاتين لا يُجيدون صَنْعَتَهم، ولا يحسنون روايةَ الأخبار ، ولا تنْسِيقَها .

* ويجدُ القارىءُ الكريمُ أنَّ أمثالَ هذا القَصَصِ يخالفُ الدِّيْنَ ، ويخالفُ المعقولَ والمنقولَ ، وإلاّ فما معنىٰ أنْ تجيبَ امرأةٌ عن أيِّ سُؤالٍ بآيةٍ منَ القُرآنِ قد لا تتوافَقُ مع مضمونِ السُّؤالِ وصيغتِهِ؟! فهلْ هذا يُعَدُّ منَ البلاغةِ والحكْمةِ وفَصْلِ الخِطَاب؟! أو يُعَدُّ منَ المفاخرِ والكراماتِ الجَليّة أو المقامَاتِ العَليّة؟! .

* وممّا يدعو إلىٰ العجبِ والاستغرابِ أنّ كثيراً من النَّاس ، ممّنْ تهوي أفئدتُهم إلى مثلِ هذا القَصصِ الأجوفِ الطَّنَّان ، وتهوىٰ أمثالَ هذه الحكاياتِ المُسليةِ ، وممّن يدَّعُون الثَّقافةَ والاطّلاعَ ، قد انطلَتْ عليهم حكـايـةَ المـرأةِ المتكلّمـةِ بـالقُـرآن ، واستحـوذَتْ عليهـم ، وحظيَـتْ باسْتِحْسَانِهم ، فاسْتَظْهَروها ، وتَفَاصَحُوا بِهَا في بعضِ الجلسَاتِ والمُنَاسَبَات؛ لا بلْ إنَّ بعضَهم قد صنَعَ منها مادَّةً دسمةً ، ورواهَا على المنبرِ في خُطبةٍ منْ خُطَبِ الجمُعَةِ ، وكانتْ ـ بزعمهِ ـ خطبةً قَعْسَاء ، هزَّ

فيها قُحوفَ المصلّين هزّاً ، وشدَّ أنفاسَهم وحركاتِهم فلا تكادُ تَسْمَعُ لهم رِكْزاً ، وجعلَهم يُعْجَبُون ويَعْجَبُون من هذهِ المرأةِ الأعجوبةِ التي سجَّلَتْ ـ كما أرادَ الرُّواة ـ هذا الأثَرَ المؤثِّرَ والأثيرَ في التَّاريخ النّسوي المشرقيّ ، بل سجَّلَتْ أثراً في نفوسِ المشَارقةِ والمغَاربة . ! !

* ومثْلُ هذا كثيرٌ في دُنيا النَّاس وحياتِهم ، وأستطيعُ أنْ أضربَ أمثلةً كثيرةً على ذلك ، من مثلِ قصّة أبي يزيد البسْطَامي مع الرَّاهب ، وهي قصَّةٌ منسوجةٌ متكلَّفَةٌ لا طائلَ من ورائِها ، وتشبه ـ إلى حدٍّ ما ـ ما نراهُ في أيّامنا هذه منْ مسابقاتٍ ومفاجآتٍ في التّلفزيون والمحطّاتِ الفضائيّةِ العديدةِ ، أو وسَائلِ الإعلامِ الأخرىٰ المتنوّعة . . .

* ومنَ الغريبِ والأَغْربِ في هذا الأَمْرِ أنّني سمعْتُ أحدَ الخُطَباءِ الذين مَلؤُوا الدُّنيا بأصواتِهم ، وشغَلُوا النَّاسَ بنبراتِهم ، يشْدو بِقصّةِ أبي يزيد البسْطامي على المنبر ، ويُبيِّنُ ما فيها من إعجازٍ وإنْجازٍ حقَّقَهُ أبو يزيد! ! ! ولعلَّ جمهورَ المُصَلّين كان يعضُّ شفتَيْهِ إعجاباً بهذهِ الأقْصُوصةِ والأكذوبةِ المصنوعةِ ، والموشّاةِ بالطَّرافةِ والمُفاجآت ، وكذلك نجدهم معجبين بأكذوبةِ المتكلّمةِ بالقُرآن ، أو صائِمةِ الدَّهْر ، أو شَافيةِ المرضىٰ ، أو مَنْ سَعَتْ إليها الكعبةُ فطَافَتْ حولَها ، أو ما شابَه أمثالَ هذه الأشياء من تَهْويلٍ وتدجيلٍ ، واستخفافٍ بالعُقول ، وللهِ درُّ محمد منير الحَمويّ الشَّاعر المِفَنّ حيثُ يقول :

لَكِـــن الحُسَّــادَ بَغْيــاً زَعَمُــوا — صَادِقَ الطُّهْرِ تَرَدَّىٰ في الضَّلَال
زَوَّرُوا الــدُّنْيــا سِجِــلاً بَــاهِتــاً — فَشَكَـا التَّـاريـخُ مِـنْ ذاكَ المـآل
هـذِهِ الـدُّنْيـا سَلُـوهَـا شَـاهِـداً — عَــنْ نِسَـاءٍ كُــنَّ رَمْـزاً لِلْكَمَــال
قَــدْ تَــزَيَّــنَّ بِجِلْبَــابِ التُّقَــىٰ — وَامْتَلَكْنَ الفَضْلَ في طيبِ الخِلَال

* وفي مَعْرِضِ الحديثِ عنِ النِّساءِ المشرقيّاتِ من العَصْرِ الإسلاميّ ،

أوردتُ ترجماتٍ لِطَائفةٍ منَ النّسْوةِ اللواتي حلّقْنَ في فَضَاءِ العِلْم ، وحفلْنَ في روايةِ الحديثِ النَّبويّ الشَّريف ، وروايةِ صحيح البُخاري ، وكان لهنَّ أكبرَ الأثرِ في عَصْرهنَّ وغيرهِ ، وتخرّجَ آلافٌ منَ العُلماءِ في مَدارسهِنّ التي تُعَدُّ جامعات للْعِلْمِ والمعرفةِ؛ كما أنّني نوَّهْتُ إلىٰ أدبِ بعضِهنَّ ، وإلى ما جادَتْ به قرائحهنَّ في مَيْدانِ الشِّعْرِ وروايةِ الأَخْبارِ والآثارِ ، وإملاءِ الكُتُبِ والمصنَّفَاتِ النَّافعة ، من مثل: «شُهْدةُ بنت الإبْريّ» ، و«فاطمةُ بنتُ الأَقْرع» التي اشتهرتْ بجودَةِ الخطّ وجمالِهِ ، حتى ضربَ النَّاسُ المثَلَ بخطِّها ، ونسجُوا على منوالِهِ.

* ومنَ الجديرِ بالذّكْر أنَّني قد لفتُّ النَّظرَ إلى الخطّاطَاتِ منَ النِّساء عبْرَ تاريخهنَّ المشرقيّ ، وأشرتُ إلى اللائي اقتفينَ أثَرَ «فاطمةَ بنتِ الأقرع» ومثيلاتها في مجالِ الخطّ ، وروايةِ الحديثِ النّبويّ الشَّريف ، وذكرتُ جماعةً ممن برعْنَ في التَّحديثِ والرِّواية ، كالفَواطِمِ من مثلِ: «فاطمةُ بنتُ أحمد الحرازيّة» ، و«فاطمةُ بنتُ إبراهيم البطائحيّة» ، و«فاطمةُ بنتُ سَعْد الخير» ، و«فاطمةُ بنتُ سُليمان الأنصاريّة»؛ ومن الزَّيانب: «زينبُ بنتُ أحمد المقدسيّة» ، و«زينبُ بنتُ محمّد الغزيّة» ، وكذلك نساء أخريات عالمات من مثل: «تقيّةُ بنتُ غيث الصُّوريّة» ، و«ستُّ الوزراء بنت عمر التّنوخيّة» ، و«كريمةُ بنتُ أحمد المِروزيّة» ، وغيرهنّ ممن ستجلُو هذه الصَّفحاتُ سِيرهنَّ في مختلفِ الفَضَائلِ ، وممن جمعْنَ عُليا الشَّمائل ، كـ«شُهدةَ بنتِ أحمد الإبريّ» الملقّبة بفخرِ النِّساء ، والتي برعَتْ في ميادينَ شتّى من المعارفِ والمكارمِ ومحاسنِ الخصَائِل والحصَائِل ، فقد كانت شُهدةُ هذه ورعةً ، عالمةً ، محدّثةً ، كاتبةً ، خطّاطةً ، أديبةً؛ وكانت أستاذةً لأكابرِ علماءِ الدُّنيا في عَصْرِها من مثل: «الحافظ ابن عسَاكر ، وابن الجَوزي ، والسَّمعاني» ، وغيرهم ممن نَبَهَ صِيْتُهم ونبغَ شأْنُهم في شتّى

ميادين العُلوم. ويُضَاف إلى ذلك كلّه أنّ لِشُهدةَ مروياتٍ حديثيّة تَصِلُ بِسَندِها إلى رسولِ الله ﷺ ، وكانت كذلك شاعرةً محسنةً تجيدُ النَّظمَ وفنونَه ، ولها في هذا المجال آثارٌ حِسَانٌ تدلُّ على بلاغتِها ونباهتِها.

* وممَّا يُسْتَحسنُ ذِكْرُه في هذهِ المقدّمةِ ، أنّني قد ضمَّنْتُ كِتابي جُملَةً صالحةً لا بأْسَ بها مِنْ أَشْعارِ النِّساءِ ونَفَثَاتِهِنَّ ونفحاتِهِنَّ وهَمَساتِهِنَّ وأقوالِهِنَّ ، من مثل: «الخنْساء» الشَّاعرة الصَّحابية المشهورة بفنِّ الرِّثاءِ والفخرِ والحمَاسِ. و«هند بنت أُثَاثة» الصَّحابية المُؤمنة المُجاهدة ، والتي نافَحتْ عن الإسلامِ بلسانِها ، ونَقَضَتْ شِعْر غيرِها منَ النّساء لتكونَ رايةُ الإسلامِ عاليةً خفَّاقَةً مشرفةً مشرقةً. و«عُفيرة بنت عبّاد» الشَّاعرة الثَّائرة البليغة ، والتي كان لشعرها أثرٌ في إشْهارِ السُّيوفِ والرِّماح. و«فاطمة بنت الأَقْرع» الأديبة الحصيْفَة صاحبة البيان المونق. و«تقية بنت غيث الصّورية» ذات المشاعر الرّقيقة ، والشِّعْر العذبِ الأنيقِ الرّقيق الذي يشبهُ أنْسامَ الرّبيع في روضٍ مُزْهر. و«زينب بنت محمّد الغزيّة» العالمة الكاتبة القارئة الشَّاعرة. واختتمتُ عقْد الشَّاعرات بترجمة «زينب بنت يوسُف فواز» الأديبة النَّاظمة النَّاثرة ، المؤلّفة ، حيث أوردتُ كثيراً من أشعارِها في مختلفِ الفُنون ، وسائرِ المُناسباتِ.

* وبهذا يضمُّ كِتَابنا هذا أشعاراً نسويّةً يمكنُ أنْ يُسْتخلصَ منها كتابٌ وحْدَهُ ، يجمعُ الأنْفاسَ الشِّعريّةَ النِّسائيةَ ذات الأغراضِ المختلفة ، والألوان المتعدّدة.

* ويُضافُ إلى هذا أيضاً أنَّ كتَابنا احتَوى بعضَ الآثارِ النَّسويّة في مجالِ النّقْد ، وفَنِّ النّثر[1] ، والمقالة ، والحكمَةِ الصَّادرةِ عن ربَّاتِ الخُدورِ ،

---

(١) من الناثرات في هذا الكتاب: فاطمة بنت الأقرع، وشهدة بنت الإبري ، وزينب بنت=

وقد وشَّيْتُ بها أكْنَافَ الكتابِ ، بحيثُ يصبحُ تحفةً نادرةً ، وسِفْراً عسيرَ المنَال ، نادرَ المِثَال. لذلك أذكِّرُ أحبابي القُرّاء ، وأذْكُرُ لهم قولَ القائِل ، إذا ما أعارُوا هذا الكتاب ، أنْ يقولُوا لِلْمُستَعير :

إذَا اسْتَعَرْتَ كِتَابي وانْتَفَعْتَ بِهِ فَاحْذَرْ وقيْتَ الرَّدَىٰ مِنْ أَنْ تُغَيِّرَهُ
وَارْدُدْهُ لِي سَالِماً إنّي شُغِفْتُ بِهِ لَوْلا مَخَافَةُ كَتْمِ العِلْمِ لَمْ تَرَهُ

* وفي القِسْمِ الرَّابعِ والأخيرِ من كتابِنا كان الحديثُ عن اثنتين من نساء العَصْرِ الحاضِر ، حيثُ تحدّثْتُ عنهما ، وعن دور كلّ واحدةٍ منهما في الحياةِ ، وفي المجتمعِ الذي تعيشُه وعن الآثارِ المباركةِ الطَّيِّبة التي خلَّفتْها .

* وفي الرِّحْلةِ النِّسويّة مع نساءِ المشرقِ العربيّ المُعاصِرات ، جذَبَتْني ثَنايا الآدابِ الزَّينبيّةِ الفوّازيّةِ ، فأبْحرَتُ مع الأديبةِ الفاضلةِ في الأدبِ والمعرفةِ السّيدة «زينت بنت يوسف فوّاز» ، التي أَبْحَرتْ في النَّثر والشِّعْر ، فكانَتْ من الأوانِسِ الكاتباتِ الشَّاعرات الرَّاويات المؤلّفات الأديبات المترسّلات الواعيات؛ وكانت من ذواتِ الأَثر الطَّيِّب في أديباتِ عَصْرِها ممن كُنَّ في الشَّام ولُبْنان ومصْرَ وغيرِها. وقد جمعتُ من أخبارِهَا وآدابِهَا شيئاً يبلُّ الصَّدىٰ ويروي الغلَّةَ ، ومن ثمَّ يُعْطي صورةً واضحةَ الملامحِ والمَعَالمِ عن هذهِ المرأةِ التي ملأتْ دُنيا الأَدَبِ ، وشغَلَتْ بمقالاتِها ورسائِلها صفحاتِ المجلّات ، كما شغَلَتْ أقلامَ الأدباءِ ، فانْهالُوا عليها بالمديحِ والثَّناء ، وتقريظِ ما تُؤلِّفُ من كتُبٍ ورواياتٍ ومقالاتٍ متنوّعة. وسيجدُ القارىءُ في سيرتها أشياءَ أخرى تسرُّهُ ، وتضيفُ إلى رصيدِه المعرفيّ ما تلذُّ له عينُه .

* وقد كانَ الحديثُ شائقاً جميلاً عن سيِّدةِ النَّاثراتِ النَّاقداتِ

= يوسف فواز ، ووداد بنت محمد سكاكيني ، وقد أوردت للأخيرتين نماذج تبلّ الصدىٰ .

«وداد بنت محمّد سكاكيني»[1] أميرة قاصّاتِ العَصْر ، وسيّدة النِّساء في النَّقْدِ والنَّثْر ، فقد كانتِ الرِّحْلةُ في رياضِ أدبِها رحلةً مفيدةً مزْهرةً ، اجتَنَيْنا من آدابِها ما نعطِّرُ به المجالسَ الأدبيّةَ ، وما نزيّنُ بهِ الآدابَ النَّسويّة ، وتعرَّضْنَا إلى ذِكْر مناهِلِ ثقافتِها ، وإلى أساتذتِها الأعْلامِ ، وأفَضْنَا الحديثَ عن آثارِها التي تشهدُ لها بعلوِّ المكانةِ الأدبيّةِ والثَّقافيّةِ ، وبالتّمكّنِ من ناصيةِ العربيّةِ وخصوصاً التّراث القديم ، وهذا كلُّه جعَلَها من رائداتِ الأدبِ النّسوي في المَشْرقِ العربيّ ، ومن مشاهيرِ النِّساء في عالَم المعرفةِ ، بل كان لها أوليّاتٌ مشرقةٌ لم تبلغْها امرأةٌ مشرقيّةٌ معاصرةٌ. ويكْفيها منَ الفَخْرِ أَنَّها انتقدتْ نقداً علميّاً صحيحاً كِبارَ الأدباءِ والنُّقّاد في مصْرَ والشَّام ، ولن أذهبَ ببهاءِ سيرتها الآن ، فسيجدُ القارىءُ عنها ما يزيدُه إكباراً لها بإذن الله .

* والآن ، فإنّني أرجو اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ أكونَ قد وُفّقْتُ في نَظْمِ هذه الباقَةِ الجميلةِ المُزهرة ، من رياضِ نساءِ المشرقِ العربيّ في مختلَف العُصُور والأزمان ، فلقد حرصتُ كلَّ الحرصِ أنْ تكونَ هذه الأزاهرُ مُنْتَقَاةً انتقاءً مَدروساً وهَادفاً ومُفيداً ، وأنْ تكونَ هؤلاء النِّسوةُ ـ وخصوصاً اللواتي عشْنَ في ظِلالِ الإسلام ـ قدوةً طيّبةً لِنِسائِنَا وبناتِنا وأخواتِنا وكافّةِ نساءِ عَصْرِنا وما يتْلُوهُ من عُصور ، وأنْ يقتفيْنَ آثارهنَّ الحِسَان ، فيكُنَّ منْ ذَوَاتِ الشَّأن ، على مرّ الأَزْمَان.

* كما أنّني أرجو الله عزَّ وجلَّ أنْ ينفعَ بهذا الكتابِ ، وأنْ يجعلَه في صحيفةِ أعْمَالي ، وأعمالِ أحبّائي القُرّاء الذين يحبّون الحقَّ وأهْلَه ، والحقيقةَ وأهلَها؛ ويسْعَون وراءَ الحقَائقِ يَسْتجلونَها ، ويبثُّونَ مشَاعِرَهُم

---

(١) هناك معلومات مهمة عن هذه الأديبة الكبيرة ، وافتني بها ابنتها الأديبة الحصيفة السيدة سماء زكي المحاسني ، فلها مني الشكر الجزيل.

الصَّادقةَ الرَّقيقةَ عبْرَ رسائِلهم ، أو عبرَ الهاتِفِ ، وآمُلُ أنْ يجدُوا في هذا الكتابِ النَّفعَ والفائِدةَ ، والخيرَ والبركةَ ، وأنْ يتابعُوا معي طريقَ الحقّ ، فيبعثُوا بِنَقْدِهم عمّا عَزبَ عنّي أو فاتَني ، أو فيما وقَعْتُ فيهِ من خَطأ ، لأنَّ الإنسانَ مهما حرصَ على العِلْمِ ، فسيجدُ مَنْ يفوقُهُ ، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسُف : ٧٦].

* وأوَدُّ في هذا العرضِ أنْ أُذَكّرَ أَهْلَ العِلْمِ والمعرفةِ[1] ـ ممّن يُنْزِلُونَ النَّاسَ منازِلَهم ـ بالعَناءِ الذي تَجشَّمْتُهُ في تأْليفِ هذا الكتابِ وجَمْعِ أشتاتِهِ ، وبالزَّمَنِ الذي قضيتُه بينَ المصَادرِ والمراجِعِ ـ ولا أنيسَ سواهَا ـ في الليَالي الطَّويلةِ التي يسْتَسلِمُ فيها النَّاسُ إلى النَّوم ، وفي الأوقاتِ التي يخلُدون فيها إلى الرَّاحَةِ والهدوء.

* فقد عُدْتُ إلى مئاتِ المصَادرِ والمراجعِ ومظانّ المعرفةِ ، ليخرجَ

(١) كما أنّني أذكّرُ أولئكَ الذين يَسْطونَ على فِكْرِ أهْلِ العِلْمِ ، وتمتدُّ نفوسُهُم قَبْلَ أيديهم إلىٰ أعمالِ غيرِهم ، وهم يَحْسَبُون أنّهم يحسِنُون صُنعاً ، وأنَّهم سيكونون منْ ذَوي المكانةِ العِلْميّةِ في مجتمعِهم وبين معَارفهم ، وربّما يتأبّطُ أحدهُم محصولَ ما سَطَا عليهِ في كتابِ عليهِ اسْمُه ، ومن ثمَّ يعرضُهُ علىٰ بُسَطاءِ النَّاس ليوهمهم بعلمِه وسعَةِ اطّلاعه. ولكنّا نقولُ لهؤلاء الذين عجزوا عن التّأليف : ماذا لو عرفَ أهلوكم ومعارفكم حقيقةَ أمركم؟ فهلْ تكونُ المكانة هيَ هيَ ، أو قريبةٌ منْ هي؟!
ونذكّرُ هؤلاء أيضاً بقولِ الله عزَّ وجلَّ : ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران : ١٨٨].
ـ صحيحٌ بأنَّ العلْمَ مشَاعٌ لمن يطلبُه ، ولكنْ ليسَ على حسابِ من يَسْهرُ الليالي ، ويتعبُ ويجتهدُ ، ليخرجَ مصنَّفاته للنّاس على صورةٍ تُرضي الله أولاً ، ثمّ لما ينفعُ النّاس وينتفعُ به طلاّب العِلْم.
ـ إنَّ بعضَ المُتعالمين الآن ممّن يغيرونَ على أعمالِ غيرهم ، سيكونون عالةً على النّاس ، فضلاً عن أهل العلْمِ ، فليتقِ اللهَ هؤلاء ، فإنَّ حبْلَ الكذب قصير ، والنّاقدَ بصير ، وإلى الله المصير . . .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

هذا الكتابُ في ثوبٍ قشيبٍ ، ومضمونٍ مُفيد.

* وكانَ في أوّلِ المصَادر وفي مقدمتها: كتابُ الله عزّ وجلّ القرآنُ الكريمُ ، حيثُ كتابُ اللهِ هو الموردُ الأهْنَىٰ ، والمنهلُ الأسمىٰ ، والمعينُ الأَسْنَى ، ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فُصّلَت: ٤١ ـ ٤٢].

* ثمّ قفّيتُ بِكُتُبِ التّفسيرِ ، إذ هي معينٌ وموردٌ ثرٌّ تروي الظّمآن إلى المعرفةِ والعِلْم ، وفيها كثيرٌ من الفوائدِ المُهمّةِ ، والقَبَساتِ القيّمةِ التي تجلُو الحقائقَ ، وتزيدُ من قيمةِ الكتابِ ، وتوضّحُ ما اسْتَغْلَقَ علينا فَهْمُه ، وتدلُّ على منابعِ الخيراتِ ، ومطالعِ المَسَرّات ، وكان في مقدّمتِها: تفسير الطّبري ، الماورديّ ، القرطبيّ ، الخازن ، البغويّ ، الكَشّاف ، ابن كثير ، البحر المحيط ، التّفسير الكبير للرّازي ، وفتح القدير للشّوكاني ، وغير ذلك من التّفاسيرِ العديدةِ التي ذكرتُها في حواشي الكتاب ، بالإضافةِ إلى المصادرِ المتنوّعة التي تُعنى بعلومِ القرآن الكريم وأحكامِهِ.

* وكان ثالث المصَادر المهمّة في عَملي: كتب الحديثِ النّبويّ الشّريف وعلومه ، فهيَ الموردُ العذْبُ الفُراتُ ، واليَنْبُوعُ السّلسبيل ، بعد التّنزيل ، وهي تحفلُ بكثيرٍ من الفوائدِ والمعارفِ التي تجلو الحقائقَ ، وتُلقي عليها الأضواء ، وبالتّالي فإنّها ترفعُ من قَدْرِ الكتابِ ومكانتِهِ ، وكان في مقدّمتها: الصّحيحان ، كُتب السُّنن الأربعة ، المسَانيد ، المصنّف ، مجمع الزّوائد ، وغيرها من دواوين الحديث النّبوي وعلومه.

* وتأتي كتبُ السِّيرة النّبويّة مورداً غنيّاً في هذهِ الموسوعةِ ، حيثُ وقفْنا وقفاتٍ كاشفاتٍ عند بعضِ الأحداث ، وعند بعضِ القَصصِ التي وردَتْ في ثنَاياها ، والتي أوضَحَت معالمَ وصورَ شخصياتٍ نسويّة أردْنا إبرازَها.

وذلك ليكونَ كتابنا أوثق وأقربَ إلى الدّقَّة والصِّحَّة. ومن أهمّ كتُب السِّيرة التي وشّينا بها كتابنا: السّيرةُ النّبويةُ لابن هشام، وعيونُ الأَثَر لابن سيّد النّاس، والسّيرةُ الحلبيّةُ، بالإضافةِ إلى كتُبِ المغازي، وما يتّصل بالسِّيرة النّبويّة من شروحاتٍ لها، ودراسات حولَها، وما يتعلَّقُ فيها من فِقْه وأحْكَام.

* ورجَعْنا إلى كتُبِ الطَّبقَات والسِّيَرِ والتَّراجمِ، وسَبَرْنَا أغوارَها، وامتطَيْنا متْنَها، وتنقَّلْنَا فيما بينها، وعشْنَا زمَناً في فنائِها، فهي مصادرُ في غايةِ الأهمّية لبناءِ شخصيّات النِّساء في هذه الصَّفحات، وفيها معلوماتٌ أساسيّةٌ لا غنى للباحثِ عنها، لأنّها ترسمُ المعالمَ العامَّةَ للشَّخصيّةِ المترجمة، وتوضّحُ كثيراً من الأحداثِ في حياتها، وتبرزُ أهمَّ السِّمات فيها من علْمٍ، وفقْهٍ، وروايةٍ، وأدبٍ، ورحلةٍ في طَلَبِ العلْمِ، وما شابهَ ذلك، وكانت هذه المصادر المهمّةُ هي هيكلَ الكتابِ وبناءه، وروضَهُ ورياضَهُ، وهي كثيرةٌ جدّاً لا تُحْصَرُ في هذا التَّقديم وهذا العَرض، إلا أنّنا نذكرُ منها: طبقات ابن سَعْد، والاستيعاب لابن عبد البرّ، وأسُد الغابة لابن الأثير، والإصابة لابن حَجر، وسِيَر أعلامِ النُّبلاء للذّهبيّ، ووفيَات الأعيان لابن خَلِّكَان، ومعجم الأدباء لياقوت الحمويّ، والوافي بالوفيَات للصّفديّ، وتهذيب الأسماءِ واللغات للنّوويّ، وفوات الوفيَات لابن شاكر الكُتبيّ، وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، وتاريخ بغداد للخطيب البغداديّ، والمُنتظم لابن الجوزي، وشذرات الذّهب لابن العماد الحنبليّ، وتهذيب التّهذيب لابن حجر، وأعيان العَصْر وأعوان النَّصرِ لصلاح الدّين الصَّفدي، وأنساب الأشراف للبلاذريّ، والرّوضة الفيحاء لياسين العمريّ، والدُّرّ المنثور لزينب فواز، وأعلام النّساء لكحّالة، ثمّ طبقات الحنابلةِ وذيله، والعبر وذيله، ومرآة الزّمان وذيله، وغير ذلك

كثيرٌ جدّاً ممّا يجدُه القارىءُ الكريمُ مبثوثاً في حنَايَا الكتابِ وثناياهُ ، وبينَ أضَالعِه وزوايَاه.

* وأمّا كتُبِ الأدبِ فهي بستانُ هذا الكتابِ وأيكُه ، وزهرُ أقاحيهِ وثمرُ مُشْتَهيه ، وينبوعُه الثَّرُّ العذْبُ ، وغديرُه السَّلسبيل ، فقد حفلتِ المصادرُ الأدبيةُ بِزَهْر الآدابِ وثمرِ الألباب ، وروضةِ المحبّين ونزهةِ المشتاقين ، كما أنّها اهتمّتْ بكثيرٍ منَ الأخبارِ والأحداثِ المهمّة التي تُغْني كتابَنا ، وتجعلُه غزيرَ المادّة ، كثيرَ الفائدة ، وكم من فائدةٍ وشاردَةٍ قبَسْتُها من كتُبِ الأدب لَم أجِدْهَا في المصادرِ الأخرى! ومنَ المصادرِ الأدبيّة التي رجَعْنا إليها: الأمالي للقَالي ، وسمْطُ اللآلي للبكريّ ، والكاملُ للمبرّد ، وعيون الأخبار لابن قتيبة، والبيانُ والتّبيين للجاحظ، والعِقْدُ الفريد لابن عبد ربّه ، وزهرُ الآداب للحصريّ ، والعمدةُ لابن رشيق ، والأغاني للأصفهاني ، ومعاهد التَّنصيص لعبد الرحيم العبّاسي ، ونهايةُ الأرب للنّويري ، وغيرها كثير جدّاً ، ولا يمكنُ أنْ يُحْصَرَ هنا أو حتّى في قائمةِ المصَادرِ والمراجع؛ ولكنّا ذكرنا أشْهَرها لِيَتفَكَّهَ القارىءُ بها ، ويشمّ شذاها ، ويستمتعَ بعبيرِها وأندائها.

* ولمَّا كان التَّاريخُ هو المعْيَارُ والمقْياسُ لِرسْمِ شخصيّات وتراجمَ الكِتَاب ، فإنَّا قد حفلنا بِمصَادرِ التَّاريخ ، وجعلنَاهَا الميزانَ لِعَملنَا ، فَكُتُبُ التَّاريخِ مادّةٌ دسِمةٌ ، وجانبٌ مهمٌّ؛ إذْ لا يستَغْني أيّ باحثٍ عنها ، بل لا يستطيعُ أنْ يغْفلَها أو يتجاوزَهَا ، لأنَّها تضيءُ أمامَه معَالمَ الطَّريق في إبرازِ الشَّخصيّات ، وتُعطي صورةً جليةً للْعَصْر الذي عاشَتْ فيه الشَّخصيَّةُ التي يُتَرجَمُ لها ، وكذلك تُعيْنُه في ربْطِ الأحداثِ وتوثيقِها وتقريبِها إلى الأذهانِ ، بل تُعينُه أيضاً في رسْمِ الملامح العامّةِ للشَّخصيّة ورسْمِ أبرزِ قسماتِها ، وما أحاطَ بها من شخصيّات أخرىٰ ، وآراء وأحداث وأمور تفتحُ

كثيراً من مبْهَمات التَّرجمة. ومن المصَادرِ التي رافَقْناهَا واعتَمْدنَا علَيْها: تاريخ الطَّبريّ، والكامل لابنِ الأثير، والبداية والنِّهاية، وتاريخ الإسلامِ للذّهبيّ، ومروج الذَّهْب للمَسْعُوديّ، وتاريخ اليعقوبيّ، وجمهرة أنسابِ العربِ لابن حَزْم، والمفصّل في تاريخِ العرب قبلَ الإسلام لجواد علي، وغيرها كثيرٌ كثيرٌ.

* وتمثِّلُ كتُبُ اللّغةِ والمعاجمِ جانباً مُهمّاً في هذه الرِّحلة في عالَم النِّساء المشرقيّات؛ إذْ فيها توضيحٌ لبعضِ المفرداتِ، وإيضاحٌ لبعض المعَاني، وشرحٌ لبعضِ الأعلام والأسماءِ واللّغاتِ والأمَاكنِ، كما أنَّ في بعضِها مفاتيح لرسْمِ الشَّخصيّات المترجمةِ ونُبذة عنها، ومن هذه المصَادر: القاموسُ المُحيط، وتاجُ العروس، والصّحاحُ للجوهريّ، ولسانُ العرب، ومُجمَل اللّغة، والمقاييسُ في اللغة، وأساسُ البلاغة، والمصباحُ المنيرُ وغيرُهَا.

* وفي واحَاتِ دواوين الشُّعراءِ والشَّاعراتِ، وكُتُبِ الحَماسةِ، كانتْ لنا محطَّاتٌ أنيقةٌ، ووقفاتٌ كثيرةٌ، حيثُ اقتطفْنَا من أَزَاهرِهَا ما زَيَّنَّا به الكتابَ، وقد وثَّقْنا ما قبسنَاه منْهَا، فدواوينُ الشُّعراءِ والشَّاعراتِ تُمثِّلُ شطْراً مُهمّاً من مصَادرِنا في بناءِ هذهِ الموسوعةِ، ولا يمكنُ للباحثِ في هذا المجَال إلا أنْ يبحرَ معَها، ويغوصَ في أعماقِها، ويستخرجَ منْ لُؤلؤِها ومرجانِها ودُررِهَا ما ينظمُ به حليةً جميلةً يتزيَّنُ بها مَنْ أحبَّ أنْ يزيدَ في رصيدِه الأدبيّ والمعرفيّ، وكانتِ الدَّواوينُ كثيرةً جدّاً، أثْبَتْنا بعضَها في ثَبْتِ المصَادر بنهايةِ الكتابِ، وأشرنَا إلى بعضِها في الحواشي والتَّعليقات.

* وهناك مصَادرُ كثيرةٌ جدّاً، وفيها معارفُ متنوّعةٌ، وكانت من الأساسيّاتِ في عملنا، ولا نستطيعُ أنْ نغفلَها، لأنَّ أثرهَا كبيرٌ في ثنايا الكتابِ ومنها: كتبُ الأمثالِ، وكتبُ المعارفِ، وخزانةُ الأدبِ، وشرحُ

مقَامَاتِ الحريري ، والآدابُ الشَّرعيةِ ، وسرحُ العيون ، والجليسُ الصَّالح الكافي ، والغيثُ المُسْجَم ، ومعجمُ البُلدان ، ومعجمُ ما استعجم ، والأمكنةُ والأزمنةُ ، وغيرُ ذلك ممَّا لا يُسْتَقْصىٰ في هذا المقَام ، ولكن يجدُ القارىءُ الكريمُ بغْيَتَه في الكتاب .

* ولا بدَّ منَ الإشارةِ إلى مصادرَ وينابيعَ ثقافيّةٍ مهمّةٍ في عصْرِنا الحاضِر ، وهي : المجلاّتُ ، والجرائدُ ، والإصداراتُ ، ووسائلُ الإعلامِ المتنوعة الكثيرة التي غدتْ جزءاً منْ حياةِ النَّاسِ في هذه الأيّامِ ، بل غدتْ روح حياةِ كثيرين ، فهي حديثُ مجالِسهم ومجالسُ أحاديثهم. وقد أصبحَتْ هذه الأشياءُ من مكملاتِ الأبحاثِ والكُتُبِ والمصنَّفَات ، وقد عُدْنَا إلى كثيرٍ منها ، وكُنَّا نَجدُ صعوبةً كبيرةً ومشقّةً بالغةً في العُثُور على بعضِها ، وخصوصاً عندما رسمْنَا شخصيّةَ زينَب فوّاز ، ووداد سَكَاكيني ، ولكنَّا قد حصَلْنا على بعضِ الوثائقِ المُفيدة منها في توضيحِ ورسْم شخصيّة هاتَيْن الأديبتَيْن المعاصرتَيْن. وسيجدُ القارىءُ الكريمُ مصداقَ ذلك عندما يقرأُ ترجمتهما في هذا السِّفْرِ المُسْفر عمّا تحمّلنَاه من عنَاءٍ وجهدٍ في تنسيقِهِ بهذهِ الصُّورة التي يراهَا أمامَه ، وذلك لكي يأخذَ كتابُنا ـ كأَسْلافهِ ـ مكانه ومكانَـتَه في قلُوب أهلِ الحقّ ونفوسِ أهلِ الحبّ ، وفي المكتبةِ النَّسويّةِ التي لا تزالُ تشكو من الهُزَالِ إلى عَصْرِنا الحاضر ، عصْر المعلوماتِ وغزارةِ العُلُوم والمعَارف .

* ويُضَافُ إلى ذلك كُلّه ، أنّني عندما بدأتُ أجمعُ معلومات هذا السِّفر ، أخذتُ أطوفُ على المكتباتِ العامّة هنا وهناك ، وأذهبُ من مدينةٍ لأخرى ، وكنتُ ألاقي الألاقي ومراراتِ العذاب ـ أحياناً ـ وأنا أسعىٰ وراءَ جَمْعِ المعَارف والمعلومات ، بيد أنَّ حلاوةَ البحثِ كانت تسهِّلُ الطَّريقَ وتيسّرُ الأمْر ، وتجعلُ مرارةَ العذاب تتلاشىٰ عندما أظفرُ بما أبتغيه .

* ولم يتوقفْ عملي هذا عند ذلك الحدّ ، بل كنتُ أستقي المعرفةَ من مكتباتِ العُلَماء والأدبَاءِ ، وأستفيدُ من تجاربِهم ، وأقبسُ من معارِفهم ، فكم من عَالِمٍ باحثٍ قدّمَ إليَّ بعضَ المعلوماتِ بِنَفْسٍ راضيةٍ ، وهو يرجو مرضاةَ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وكمْ من أديبٍ نفحني بمعارفَ كانت خافيةً عليَّ وغائبةً عنّي ، فأزالَ عنها السِّتار ، وقرَّبَها وقدَّمَها مجلوةً في أبهى صُورة[1] . . فجزاهمُ اللهُ خيرَ الجزَاء . .

* وأودُّ أيضاً أنْ أشيرَ إلى ناحيةٍ مهمّةٍ وجميلةٍ في هذا الكتابِ ، فأَلْفِتَ نظرَ القارىء إلى التّعليقاتِ والحواشي التي تزخرُ بالمعرفةِ ، بل إنَّ هناكَ بعض المعلوماتِ والمعارفِ الجديدة والمُفيدةِ التي سيلحظُها القارىءُ الكريم ، بالإضافةِ إلى بعضِ تراجمِ الأعلامِ التي تزيدُ من رصيدِ الكِتَاب المعرفيّ ، وتزيدُ من قيمتِهِ الأدبيةِ والعلميّةِ ، وخصوصاً بعض الشَّخصيّاتِ المعاصرة منَ الرِّجال والنِّساء ، ممن وجدتُ صعوبةً بالغةً في الحُصولِ على معلوماتٍ وافيةٍ وصحيحةٍ عنهم ، وقد جُبْتُ كثيراً من الأماكنِ الثَّقافية ، وزرتُ عدداً من المتخصّصين في المعرفةِ رجالاً ونساءً من أجلِ ذلك ، ومَنْ شاءَ أنْ يجرِّبَ ما لقيتُه من عناءٍ وجهدٍ ومالٍ ، فَلْيَنْتَضِ قلَمه ، وليُرهفْ تفكيرَهُ ، ولْيَسْعَ وراءَ الكتُبِ والمصَادرِ والمعارفِ المتنوّعةِ والمتباعدةِ ليجدَ مِصْدَاق ما قُلتُه ، وسيصادفُ ما صادفْتُه ، وسيلقى المتاعبَ والمصاعبَ ، وشُحَّ المراجعِ ، وصعوبةَ البحث فيها ، واستخراج المعلوماتِ المناسبة في هذا المجالِ الذي يبدو سهلاً قريبَ المتَناول بادىء الأمرْ ، ولكنَّه عسيرُ المنال ، صعبُ المُرتقى ، متشعّبُ السُّبل ، وعندها

---

(١) من هؤلاء الأدباءِ والباحثين الأساتذة: يوسُف علي بديوي؛ وراضي صدّوق ، وهزاع عيد الشّمّري؛ وغيرهم كثيرون. وإن كنتُ أنسىٰ فلا أنسى الأديبة الحصيفة السّيّدة سماء زكي المحاسني ابنة وداد سكاكيني التي قدّمت شيئاً كثيراً ومفيداً.

يدركُ تماماً مدى ما أجدُ في نظْمِ هذه الكتُب التي يجدُهَا سهلةً هينةً لينةً ، قريبةَ المتناوَلِ بين يديه ، تُعطيه من رحيقِ شَهْدِها ما يغذّي الألْبَاب ، ويتحفُ بها ذوي الأحْسَاب والأنساب.

* وختَاماً أودُّ من القارىءِ الكريم أنْ يخصَّني بدعوةٍ صالحةٍ منه في ظَهْرِ الغيب إنْ وجَدَ فائدةً في هذا الكتاب ، كما أرجو منه أنْ يتجاوزَ عن الزَّلل ، فالإنسانُ خطَّاءٌ ، والكمالُ للهِ وحْدَه ، وقد حرصتُ على اتّباعِ الصَّواب وتحرّيه قَدْرَ المُستطاع ، طالباً من اللهِ العونَ والتَّوفيقَ والسَّداد.

* اللهمَّ علِّمنا ما ينفعنا ، وانفَعْنا بما علّمْتَنا ، وزِدْنا عِلماً يا ربَّ العَالمين.

* اللهمَّ وفّقْنا لِما فيهِ مرضاتك ، ولما فيهِ الخير والفَلاح ، في حياتِنا ومعادنا ، واغفرْ لنا وارحمنا.

* اللهمَّ اجعلنا ممّن يستمعون القولَ فيتّبعون أحْسَنه.

* اللهمَّ اهْدِنا إلى الطَّيِّبِ من القَول ، واهْدِنا إلى الصِّراطِ الحميد..

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

دمشق ـ حرستا ـ حي الشيخ موسى
٦ ذي الحجة ١٤٢١ هـ

وكتب
أحمد بن خليل جُمعة
الحرستاني الدمشقي

الباب الأوّل

نساءٌ من العصر الجاهلي

بُهيسة بنت أوس

عُفيرة بنت عبّاد

عِنبة بنت عفيف

ماويّة بنت عفزر

المتجرّدة امرأة النّعمان

بُهيسة بنت أوس

* عاقلة ، حصيفة ، مُنجبة ، ذات شأن ومكانة مرموقة .
* زوجها الحارث بن عوف ، سيد العرب ، والمحب للسلام ، والداعي إلى الصفاء والإخاء .

الـمَـرْأَةُ والـزَّوجُ الكُـفْء:

* كان العربُ في عَصْرِ الجاهليّة يَجْرونَ على نظامِ الزَّواجِ منَ العشيرةِ، ومن غيرِ العشيرةِ، بَيْدَ أنَّهم كانُوا في بعضِ الأحايين والأوقات يُؤْثرونَ الاغتِراب، لأنَّ الغرائبَ أنْجَبُ.

* وممّا رغَّبَ العربَ الأقحاحَ في التّسرّي، أنَّ أولادَ القريباتِ عندهم ضَاويُّون ـ أي نِحافٌ مَهْزُولُون ـ، وفي الحديث: «اغتربُوا لا تَضْووا»؛ أي تزوّجُوا الغَرائبَ لئلا تَضْوىٰ أولادُكم وتضعُف وتَهْزُل، وقيل: معنى الحديث: انكِحُوا في الغَرائب دونَ القرائب، فإنَّ ولدَ الغريبة أنجبُ وأقوىٰ، وولدَ القرائبِ أضعفُ وأضوى» ومنه قولُ الشَّاعر:

فَتـىً لَـمْ تَلِـدْهُ بنْـتُ عـمٍّ قـريبـةٌ ... فَيضْوىٰ وقَدْ يَضْوىٰ سليلُ الأقَاربِ

* وقيل: معناه تزوّجوا في الأجنبيّات، ولا تتزوّجوا في العمومة، وذلك أنَّ العربَ تزعُم أنَّ ولدَ الرَّجُلِ من قرابتهِ يجيءُ ضَاويّاً نحيفاً، غير أنّه يجيء كريماً على طبعِ قومهِ، قال الشَّاعر يدعو على شخصٍ اسمه عُبيد تزوَّجَ قريبتَه «ميّة»:

ذاكَ عُبيـدٌ قَـدْ أصَـاب ميّـا ... يـا ليتَـه أَلْقَحَهـا صَبيّـا

فحملـتْ فـولَـدَت ضَـاويّـا

* وقال الشاعر:

تَنحيتُهـا للنَّسْـلِ وهـيَ غـريبـةٌ ... فجَاءَتْ به كالبَدرِ خِرقاً مُعَمَّما(١)

* ومعنى: «لا تضووا»: أي لا تأْتُوا بأولادٍ ضاوين، أي ضُعفاء، الواحدُ ضَاوٍ، ومنه: «لا تنكِحُوا القرابةَ القريبـةَ فإنَّ الولدَ يُخْلَقُ ضاويّاً»(١).

---

(١) لسان العرب (١٤/ ٤٨٩)؛ ومحاضرات الأدباء (١/ ٣٢٩)، مع الجمع والتصرف. ومعنى «خرق» كريم الخليقة. و«معمم»: سيد.

* وفي أمثالِهم: (النَّزائعُ لا القَرائب). قالَ ابنُ السِّكِّيت: (النَّزيعةُ: الغريبةُ، لأنَّ الغريبةَ أنْجَب).

* ونظرَ عمرُ بنُ الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ إلى قومٍ من قريش صغارِ الأجْسَام، فقال: (ما لكم صغرتُم)؟

قالوا: قُرْبُ أمّهاتِنا من آبائنا.

قال: (صدقْتُم، اغترِبُوا). فتزوّجُوا في البُعداء فأَنْجبوا[1].

* وممّا جادت به قرائِحُهم في الزَّواج من النَّجيبات الغريباتِ قولُ شاعرِهم:

فتىً لم تلدْهُ بنْتُ عمّ قريبةٌ ... فيضْوَىٰ وقَدْ يضْوى رديدُ القَرائبِ
تعلَّمَ مِنْ أعْمامِهِ البأسَ والنّدى ... وورَّثَه الأخوالُ حُسْنَ التّجارِبِ
هوَ ابنُ غريباتِ النِّساءِ وإنمّا ... ذوو الشَّأْن أَبناءُ النّساءِ الغَرائبِ[2]

* وقال آخر:

أنذرَ مَنْ كانَ بعيدَ الهمّ ... تزويجُ أولادِ بناتِ العمّ
فَلَيسَ نَاجٍ مِنْ ضَوى وسُقمِ ... وأنْتَ إنْ أطعَمْتَه لا ينْمي[3]

* وقال غيره:

ألا فَتىً نَالَ العُلا بهمِّهِ ... ليسَ أبوهُ بابْنِ عمٍّ أَمَّهِ
تَرَىٰ الرّجَال تَهْتدي بِأَمِّهِ[4]

---

(١) محاضرات الأدباء (١/ ٣٣٠).
(٢) انظر: جمهرة الأمثال (١/ ٥٣) بتصرف يسير.
(٣) انظر: محاضرات الأدباء (١/ ٣٣٠)، والمعاني الكبير لابن قتيبة (١/ ٥٠٢) مع الجمع والتصرّف.
(٤) تاج العروس (١٠/ ٢٢١)، ومعنى «أَمّه» هنا: قَصَده من: أَمَّ.

* وافتخرَ شاعرٌ بأنّ أُمَّه غريبةٌ ولكنَّها نجيبةٌ:

مَكّنني بيتٌ رفيعُ وجُرْأةٌ ... وخَالٌ كعُرْبَانِ النّجومِ نَزيْعُ[1]

* ولعلَّ السَّببَ الرّئيسَ الذي زيّنَ للعربِ الأقحاحِ أنْ يغتربُوا، هو عقيدتُهم أنَّ الاغترابَ يقويّ النَّسل جسميّاً وعقليّاً، وأنَّ الاقترابَ يضعفُه؛ يقول الدّكتور علي عبد الواحدِ وافي ما مفادُه: (وهذا النِّظامُ الذي سارَ عليه العربُ في الاغترابِ في الزَّواج، يشبهُ ما كانَ سَائداً في بعضِ الدُّولِ المسيحيّةِ الأوربيّةِ، إذ كانت تحرّم التّزاوُجَ بينَ أولادِ الأعْمامِ والعمّاتِ، والأخوالِ والخالاتِ، وما زالَ العرفُ الأوربيُّ ـ بعد إباحةِ الزَّواجِ بِهِنَّ ـ يفضّل غيرهنّ عليهنّ)[2].

* وقد دلّلَ على صَوابِ الاغترابِ أبو حيّان التَّوحيدي، وذكر (بأنَّ ترابَ الأرضِ إذا حُوِّل وقُلِّب زكَتِ الزُّروع، فإذا كان الاغترابُ يُؤثّر منَ التُّراب إلىٰ التُّراب، فالأوْلىٰ أنْ يؤثّرَ الإنسانُ بالاغترابِ، لأنَّ الإنسانَ أيضاً من تُراب)[3].

---

(١) المعاني الكبيرة لابن قتيبة (١/ ٥٠٢)، ومعنى: «خال كعربان النجوم»: أي: واضح النسب شهير كالنجم السافر.

ـ ومن المفيدِ ذكْرُهُ هنا أنَّ العربَ كانوا يُؤثِرون الغريبةَ المنجبةَ، وليستِ الأمة الجارية، فقد حكىٰ أبو عبيد أنَّ سليمانَ بنَ عبد الملك قد نَدِمَ عند موتِهِ، وكان أرادَ أنْ يجعلَ الخلافةَ في ولده، فلم يكنْ له يومئذٍ منهم مَنْ يصلُحُ لذلك، إلا مَنْ كان من أولادِ الإماء، وكانوا لا يعقدُون إلا لأبناء المهائِر الحرائر. قال الجاحظ: «كان بنو أميّة يرون أنَّ ذَهَاب ملكهم يكونُ على يدِ ابن أمّ وَلَد، ولذلك قال شاعرهم:

ألَمْ تَرَ للخلافةِ كيفَ ضَاعَتْ ... بأنْ جُعِلَتْ لأبناءِ الإماءِ».

(مجمع الأمثال ١/ ٢٢) بتصرف يسير.

(٢) الأسرة والمجتمع (ص ٤٧)، مطبعة البابي الحلبي بالقاهرة، ١٩٤٥ م.

(٣) الإمتاع والمؤانسة (١/ ٩٥).

* ثمَّ جاءَ العلمُ الحديثُ ، فعزَّزَ ما عرفَهُ العربُ بالتّجرِبةِ ، ذلك بأنَّ الوراثةَ في رأي كثيرٍ منَ العُلماء أعظمُ مؤثّرٍ في الحياة ، بل هي مجرىٰ الحياة نفسه ، لأنَّ كلّ كائنٍ حيّ نتاجُ أبوَيْن؛ وما أصدقَ قول (منْتَاني): (يا لَها من قوةٍ خطيرةٍ تلك القطرةُ المنوّيةُ الدَّقيقةُ التي تتكوّن منها ، فتنقلُ إلينا صفات آبائنا الجسميّة وأفكارهم وميولهم)[1] .

* وإذاً ، فقد كان العربُ على صوابٍ في إيثارِهم الاغتراب في الزَّواج ، يقولُ العالم النّفسي (إلْدِنْ مُور) Elden Moore (يجبُ علىٰ الرّجُل أنْ يحذرَ حين يتزوّج ابنةَ عمّهِ أو عمّته أو خالِهِ أو خالتِهِ ، لأنَّ هذا الزَّواجَ الدَّاخلي قد يسبّبُ ضعفاً في الجسمِ أو العَقْلِ ، أو يجرُّ بعضَ الأمراضِ كالسِّلّ وغيرِه؛ والسَّببُ الذي يوجبُ الحذر في الزَّواج أنَّه إذا كان الزَّوجان جيدي الصّحة والعقل كان النَّسلُ مثلَهما ، وإذا كانا ضعيفَي الجسم ، أو غبيين ، أو بهما نَقْصٌ ما نَسَلا أولاداً ضِعافاً أو مُخْدَجين)[2] .

* ومن خلالِ درسِنا ودراستنا للزَّواج عند العربِ ، اتَّضح لدينا أنَّ لاغترابِ العربِ في الزَّواجِ دوافعَ ذات أهمّية كبرىٰ في حياتِهم ، إذْ إنَّ المصاهرةَ بين قبيلتَيْن تَصِلُهما برباطٍ من المودّة والتّحالف ، أو ربما تزيدُ ـ في بعض الأحايين ـ ما بينهما من محبّةٍ وتآلف .

* وقد يكونُ الزَّواجُ ـ أحياناً ـ من قبيلةٍ أخرى دليلٌ على الفتوّةِ ، وعلى الرّجولةِ ، وحسنِ الأُحْدوثة ، كما سنقرأُ ذلك في سيرة الحارثِ بنِ عوف المرّي الذي تزوَّج بُهَيْسةَ بنتَ أوس بن حارثةَ الطّائية[3] ، ضيفتَنا اليوم ،

---

(١) في التربية لعلي عبد الواحد (ص ١٥٥) .
(٢) نقلاً عن المرأة في الشعر الجاهلي (ص ١٦٣) .
(٣) الأغاني (١٠/ ٣٤٣ ـ ٣٤٦)؛ والمستطرف (٢/ ٢٢٢ و٢٢٣) ، وأعلام النّساء (١/ ١٥٥ ـ ١٥٧) ، ومصادر أخرى كثيرة .

تلك المرأة التي أسفرتْ عن عَقْلٍ وذكَاءٍ ، وحكمةٍ وهُدوء.

* ومن المُطربِ والمثيرِ في أخبارِ العرب في العصور السَّالفة قُبيل الإسلام ، أنّهم قد بالغُوا في تخيّر الأزواج لبناتِهم ، وقد دقّقَتِ الفتياتُ أيضاً في اختيارِ واصطفاءِ أزواجهنّ ، كما تحرّىٰ الرّجال أيضاً زوجاتٍ متّسماتٍ بصفاتِ النَّجابة والأصَالة ، والذّكاء والفضائل ، وحذّروا من وجودِ صفاتٍ مذمومةٍ في الزَّوجة(١).

* وكانت الفتاةُ العربيّةُ الحصيفةُ ، وآلُها الحكماءُ يهشّونَ للخاطبِ الكُفء ، وينزلونَه في بيوتهم منزلاً كريماً لطيفاً ، ويلبّون خطبتَه ، ولا يردّونه خائباً إذ هو ذخر لفتاتِهم ، وحصنٌ حصينٌ لها ، وعزٌّ لهم.

---

(١) من الصِّفاتِ المذمومةِ في الزَّوجةِ: السَّفَاهة والحُمق ، فقد تحامىٰ العربُ المرأة الحمقاءَ ، لأنّها تلدُ الحمقىٰ؛ جاءَ في وصيّةِ أكثم بن صيفي إلى طيىء قوله: «. . . وإياكم ونكاحُ الحمقاء ، فإنَّ نكاحَها غَرَر ، وولدها إلى ضَياع». وكذلك قال الحارثُ بنُ كعب لبنيه: «إياكم والورهاء وتجنّبوا الخَرقاء». وفي الحديث الشّريف: «لا تتزوّجوا الحمقاءَ ، فإنَّ صحبتَها بلاءٌ ، وفي ولدها ضَياع» و«لا تسترضعوا الحمقَاءَ فإنَّ لبنها يغيرُ». وقال عمرُ بنُ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «لم يقمْ جنينٌ في بطنِ حمقاءَ تسعةَ أشهرٍ إلا خرجَ مائقاً». (السُّنن الكبرى للبيهقي ٧/ ٤٦٤)؛ و(المبسوط للسَّرخسي ١٥/ ١١٩).

ـ وتحامىٰ العربُ كذلك نوعاً منَ النِّساءِ يخدعُ مظهرهُ ، ويسوءُ مخبره ، وهذا النَّوع هو النّسوةُ اللائي مُنِحْنَ وسامةً وقَسَامةً ، لكنهنَّ نشأنَ في بيئةٍ لا تُغَذّىٰ بأخلاقٍ فاضلة. يقول أكثمُ بنُ صيفي: «لا يغلبنّكم جمالُ النّساء على صراحةِ النَّسب ، فإنَّ المناكحَ الكريمةَ مدرجةُ الشّرف». ويحسّ الشّاعر أنَّ الخسّة قد تأتي منَ الأمّ والخالة ، لأنَّ وراثة الشّرّ قويّة ، فيقول:

فـأدركْنَـهُ خـالاتُـه فخـذلْنَـهُ ألا إنَّ عِـرقَ السُّـوء لا بـدّ مـدركُ

ـ وحذّر أكثمُ بنُ صيفي ابنَه منَ الزَّواج بالمرأةِ الثّرية النّاشئة في لؤم وخسّة فقال: «يا بني إيّاك واختيار اللئيمة بما عندها منَ المالِ ، فإنَّ المالَ يذهبُ به ، ويبقى في حالك اللؤم الذي لا يغنيه شيء».

بذلك نصحَ حصنُ بنُ حذيفة بنِ بدر أولادَه عندما قال لهم: (أنكحوا الكفءَ الغريبَ ، فإنّه عزٌّ حادث).

* وأوصى قيسُ بنُ زهير النّمرَ بنَ قاسط بعد أن تزوَّج منهم وجاورهم بقوله: (لا تردُّوا الأكْفَاء عن النِّساء فتخرجوهنّ إلى البلاءِ ، فإنْ لم تجدوا الأكْفَاء فخيرُ أزواجهنّ القبور).

* وكانتِ المرأةُ العربيّةُ الحصيفةُ تراعي أنْ يكونَ الزَّوجُ عربياً عزيزَ الجانب؛ لأنَّ العربَ كانوا ذوي حميّةٍ وأنفةٍ واعتدادٍ بالنفس والجنسِ إلى حدٍّ كبير ، فقد كانوا ـ وما زال بعضهم ـ يرون أنّهم أرقىٰ الأممِ وأصْفاها ، فليس هناك شعبٌ بكفءٍ لأنْ يصهرَ إليهم ويناسبَهم.

* وكان كثيرٌ من الأممِ يجري في ذلك مجرىٰ العربِ الأقحاح في ذلك ، فالعبريون ـ مثلاً ـ كانوا يحرمون تزويجَ الكنعانيين وغيرهم؛ لأنهم اعتقدوا أنّهم شعبُ اللهِ المختار. واليونانيون كانوا أيضاً لا يزوّجون شعباً آخر ، لأنَّهم أطلقوا على غيرهم منَ الشُّعوب كلمة (بربر) ، ونظروا إليهم على أنَّهم دونَهم؛ وأيّد فلاسفتُهم هذه النَّظرية ، فأرسطو يرى أنَّ اليونانَ وحدهم مزوّدون بالعقلِ والشَّجاعة ، ومَنْ عَداهم منَ الشُّعوبِ (بربر) مزوّدون بالشَّجاعةِ وحدها. وكذلك كان الرُّومان ، فقد أصدرَ الإمبراطور (فالنتيان) قانوناً بعقوبةِ الإعدامِ على كلّ رومانيّةٍ تتزوج بغيرِ روماني[1].

* وتشدَّدَ العربُ في حظرِ تزويج غير العربي الصَّريح وإن كان مَلِكاً مُطاعاً ذا تاجٍ وصولجان ، ومن أمثلةِ ذلك أنَّ النُّعمانَ ملك العرب رفضَ بإباءٍ وكبرياء أنْ يزوّج ابنته حرقة بنت النّعمان لملكِ الفُرسِ كسرى بن هرمز ، وكان من نتائجِ هذا الإباء النُّعمانيّ العربيّ الأبيّ أن قتلَ كسرى

---

(١) انظر كتاب: الأسرة والمجتمع (ص ٣٣ ـ ٣٥) بتصرف يسير.

النُّعمانَ ملك العرب ، ثم قامتْ حربُ ذي قار التي انتصرَ فيها العرب وأظهروا مكانتهم[1] .

* وكان العربُ إذا أقدمَ عربيٌّ على تزويج عِلْجٍ سخرَ منه العرب واحتقروه ، ولاموه لوماً عنيفاً ، وازدروا فعلتَه ، قال الأسعرُ الجُعْفي في هجاءِ أبي حُمْران :

بـاعُـوا جَـوَادهـمُ لِتَسْمَـنَ أمُّهـم ... ولكـي يعـودَ علـىٰ فـراشِهـمُ فَتَـى
علْـجٌ إذا مـا بـزَّ عَنْهـا ثَـوبَهـا ... وتخـامَصَـتْ قـالَـتْ لـه مـاذا تَـرىٰ

* وظلَّتْ هذه النُّزعَةُ ساريةً عند بعضِ النَّاس حتى في الإسلام[2] ، علماً بأنَّ الإسلامَ قد قضىٰ على نزعةِ العصبيّة الجنسيّة ، وأحلَّ محلَّها الدِّيْنَ في الكفاءَةِ والتَّقْوى . . .

* وكانت ذكيّاتُ النِّساء منَ العربِ في عَصْر الجاهليّة يعرفْنَ من أين تُؤكَلُ الكتِفُ في الزَّواجِ ، فقد كانتِ المرأةُ وأهلُها يتوخّون فيمن يخطبُ إليهم مميزات خاصّة أيضاً ، لأنَّ الزَّواجَ رباطٌ وثيقٌ مأمولُ الدَّوامِ ، ولأنَّه

---

(١) للمزيد من خبر هذه المعركة راجع تاريخ الطبري (٢/ ١٥٠).
(٢) منْ أمثلةِ ذلك أنَّ عقيلَ بن عُلَّفة كانَ شديدَ العجرفةِ والبذْخِ بنَسَبهِ في بني مُرّة، لا يرىٰ أنَّ له كفئاً ، وقد صاهرتْه قريشٌ وحلفاؤُها وأشرافُها ، منهم : يزيدُ بنُ عبدِ الملك ، وسلمةُ بنُ عبد الله بن المغيرة، ويحيىٰ وخالدُ والحارثُ أبناء الحكم بن أبي العَاص.
ولما خطبَ إليهِ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ لأحدِ بنيه ، وكانت لعقيل إليه حاجةٌ ، قال : أما إذ كنتَ فاعِلاً فجنبْنِي هجناءَكَ.
فهو لا يرفضُ غيرَ العربي فحسب ، وإنّما يرفضُ مَنْ أمُّهُ غير عربيّة . وكذلك يرفضُ أحدَ الأغنياء لأنّه هجين ، وإنْ كانَ ذا مالٍ كثيرٍ ؛ وفي هذا يقول :

لعمري لئنْ زوّجْتُ منْ أجلِ مالِهِ ... هجينـاً لقـد حُبِّـتْ إلـيَّ الـدّراهـمُ
أأنكـحُ عبـداً بعـد يحيـىٰ وخـالـدٍ ... أولئـك أكفـائـي الـرّجـال الأكـارمُ
أبـى لـي أنْ أعطـي الـدّنيـة أنّنـي ... أمـدَّ عنـانـاً لـم تخُنْـه الشّكـائـمُ

عِشْرةٌ بين الزَّوج وزوجته. وفي الصَّفحات التَّاليات نقرأُ ونرى مصداقَ ذلك . . .

مَشُورَةٌ وَذَكَاءٌ:

* في قصصِ العربِ في عَصْر الجاهليّة أحاديثُ شائقة عِذَاب ، تنمُّ عن مكانةِ المرأةِ العربيّةِ الحصيفَةِ عندهم؛ من حيثُ الاستماعِ إلى كلامِها ، وأَخْذِ رأيها في كثيرٍ من الأمور الاجتماعيّة ، وأحياناً السّياسية؛ ولا يُعدُّ ناقصاً منَ الرِّجال من يستمعُ مشورةَ المرأةِ الزَّوجة؛ لأنَّ العشرةَ التي يتعاطىٰ الزّوجان صَفْوَها ، ويتبادلان فيها الثّقة والإعزاز جديرة بأنْ تمهّد للزَّوجةِ أحياناً سبيلَ المشورةِ على زوجِها فيما يعودُ عليهما بالنَّفع والخيرِ والمكانة والرّفعة؛ وهو بدورهِ لا يجدُ غضاضةً في أنْ يستمعَ إليها ، ويحقّقَ لها ما تريدُ ، بل ويأخذ بكلامِها ويطبّقُه.

* وكثيراً ما كانتِ الزَّوجةُ الحصيفةُ العاقلةُ ذاتَ أثرٍ عظيمٍ في تشجيعِ زوجها ، وحفْزِ همّته ليكونَ في حَلْقَةِ القومِ ، وفي سدّة كِرامِهم وكرمائِهم.

* وهذا ما حَدَثَ فعلاً لزوجِ أوسِ بنِ حارثة التي أظهرتْ من مشورتها ووفرةِ عقلها وحسنِ تربيتها لابنتها ما جعلَها من النِّساء العاقلات اللائي سجّلْنَ أضوأ الآثار في تاريخ المرأةِ المشرقيّةِ العربيّة ، ثم حذَتْ ابنتها بُهيسةُ حَذْوَها ، فكانت سبباً لِصُنْع السَّلام ، وحقْن دماءٍ ظلَّت تسيلُ قرابة أربعينَ سنة ، وكادت تطحنُ قبيلتَين من أكبرِ قبائلِ العرب عَصْر ذلك.

* والآن ، دعونا نتعرّفُ أكثرَ وأكثرَ حوادث القصّة ومجرياتها ولُحمتها وسُدَاها.

* ففي ليلةٍ طابَ هواؤُها ، ورقَّت أنْسَامُها ، وراقت نجومُها ، كان

الحارثُ بنُ عوف المريّ مع سمّاره وأصحابِه ومحبّيه ، وفيهم خارجةُ بنُ سِنَان ، وكانوا يجلسون أمام خيمةِ الحارثِ ، وراحُوا يتجاذبُون الأحاديثَ فيما بينهم عن الحروبِ التي كادَتْ تفني أوائِلَهم ، وتأتي عليهم ، هذه الحروبُ التي بدَّدتْ ثرواتِهم وأموالَهم ، وأهلكتْ فرسانَهم وأبطالَهم وأشداءهم ، وزادت نيرانَ الحقدِ بينهم وبين قبيلة عَبْس.

* وتجاذبَ الحارثُ بنُ عوف وصَحْبه أطرافَ حديثِ العزّة والمنعةِ والثروةِ والقوةِ ، وشرّقُوا وغرّبُوا بالأحاديث في تلكم الليلة الهامسةِ النَّسمات؛ وهناك أخذتِ الحميّةُ والأنفةُ الحارثَ بن عوف وقال لجلسائِهِ: معاشرَ العربِ ، أترونَ أنّي أخطبُ إلى أحَدٍ من العربِ فيردّني خائباً؟!

فابتدرَ خارجةُ بنُ سِنان وقال له على الفورِ: نعم يا حارثُ. وتعجَّبَ الحارث بنُ عوف وقال في لهجةٍ حائرة: ومَنْ هو هذا يا خارجةُ ، وأنا الحارثُ بنُ عوف من أسيادِ ذبيان؟!

قال خارجةُ: على رسْلكَ ، الذي أعنيه هو أوسُ بنُ حارثة بن لأم الطَّائي[1] ، فإنَّ له أنفةً وعزّةً وشَرفاً ومكانةً بينَ العربِ جميعهم.

* وتعجَّبَ الحارثُ بنُ عوف أكثر وأكثر ، وعلمَ صِدْق ما يقوله خارجة ، ولكنّه هو الآخرُ شريفٌ منْ أشرافِ العربِ ، وحليمٌ من حلمائِهم ، وسيّدٌ من ساداتِهم ، ولا يَجهلُ أحدٌ مكانَتَه بينَ القبائل. . .

* وقبل أنْ ينفضَّ صَحْبُ الحارثِ قال لخارجةَ: سأذهبُ إلى أوسِ بنِ حارثةَ وأخطبُ ابنتَه ، فاركبْ بنا إليهِ إنْ شئتَ. . .

قال خارجةُ: نعم ، سأكونُ رفيقَكَ في هذه الرّحلة.

---

(١) ستأتي ترجمته بعد قليل.

* ولما تبسّمَ فجرُ تلك الليلة ، وأزمعَ الليلُ على الرَّحيل ، كان الحارثُ وخارجةُ يمتطيان جوادَيْهما بعد أنْ أمرَ الحارثُ غلامَه أنْ يُجهزَهما ويعلفَهما في الليل. ورحلَ الحارثُ وخارجةُ إلى أوسِ بنِ حارثة الطّائي[1]

---

(١) أوسُ بنُ حارثة بن لأم الطّائي ، وأمُّه سُعدى ، ويُقال له: ابنُ سعدى ، كان سيّداً مِقداماً فاضلاً له أخبارٌ مطربةٌ في الجودِ والكرمِ وحُسْنِ الأحدوثة. منها: «أنَّه كانَ بينَ حاتمِ الطّائي وبينَ أوسِ بنِ حارثة ألطفُ ما يكونُ بين اثنين؛ فقال النّعمان بنُ المنذر لجلسائِهِ: والله لأفسدَنَّ بينهما. قالوا: لا تقدرُ على ذلك. . .
قال: بلى ، فقلّما جرتِ الرّجالُ في شيءٍ إلا بلغتْه. فدخلَ عليه أوسُ ، فقال: يا أوسُ ما الذي يقولُ حاتم؟ قال: وما يقول؟!
قال: يقول: إنّه أفضلُ منك وأشرفُ.
قال: أبيتَ اللعن ، صدقَ ، واللهِ لو كنتُ أنا وأهلي وولدي لحاتم لأنْهَبنا في مجلسٍ واحد؛ ثم خرجَ وهو يقول:

يقولُ لي النّعمان لا من نصيحةٍ — أرى حاتماً في قولهِ مُتطاولا
له فوقنا باعٌ كما قال حاتم — وما النّصح فيما بيننا كان حاولا

- ثمَّ دخلَ عليه حاتمٌ ، فقالَ له مثلَ مقالتهِ لأوسٍ؛ قال: صَدَقَ ، أينَ عسى أنْ أقعَ من أوس! إنّ له عشرة ذكُور أخسُّهم أفضل منّي ، ثمَّ خرجَ وهو يقول:

يُسائلني النّعمان كي يستزلّني — وهيهاتَ لي أنْ أُستضامَ فأُصرَعا
كفانيَ نقصاً أنْ أضيم عشيرتي — بقولٍ أرى في غيرهِ متوسّعا

فقال النّعمانُ: ما سمعتُ بأكرمَ من هذيْن الرّجلين ، ونَفَلَ كلّ واحد منهما مئةً من الإبل».
- والوفاءُ بضاعةٌ نادرةٌ في كلّ زمانٍ ومكانٍ ، ومن أجملِ ما قيل في الوفاء الدّائم هذه الأبيات الجميلة:

النّاسُ بالنّاسِ ما دامَ الوفاءُ بهم — والعسرُ واليسرُ ساعاتٌ وأوقاتُ
وأسعدُ النّاسِ ما بينَ الورىٰ رجلٌ — تقْضَىٰ على يدِهِ للنّاسِ حاجاتُ
لا تقطعنَّ يدَ المعروفِ عن أحَدٍ — إنْ كنتَ تقدرُ فالأيّامُ تاراتُ
واشكُرْ صنيعةَ فَضْلِ الله إذْ جعلتْ — إليكَ لا لكَ للإنسانِ حاجاتُ
قد ماتَ قومٌ وما ماتَتْ فضائلهم — وعاشَ قومٌ وهم في النَّاس أمواتُ

وقال أحدهم: =

ومعهما غلامُ حارثة. وظلاّ يقطعان الفيافي والقفَار حتى وصلا مضاربَ بني طيىء ، وأتيا أوسَ بنَ حارثة في محلّه ، فوجداه في منزلِهِ.

* وأبصرَ أوسٌ الحارثَ بن عوف المريّ ، فبادرَ ورحَّبَ به أجملَ ترحيب ، وقال: أهلاً ومرحباً بكَ يا حارث... قال الحارثُ: وبك يا سيّد الكرام ، يا أوس بن حارثة[1].

= أخوكَ الذي لا ينقضُ النّأيَ عهدهُ ... ولا عند صرف الدّهر يزورُّ جانبُه
وليسَ الذي يلقاكَ في البشر والرّضا ... وإن غبتَ عنه لسعتْك عقاربُه

(١) كانَ أوسُ كريماً ، وكان ذا إباءٍ وأنفةٍ ، معروفاً في القبائل بذلك ، فمن أخباره ما يُروى «أنَّ النّعمانَ بنَ المنذر كان قد دَعا بحلّةٍ ، وعنده وفودُ العربِ من كلّ حيّ؛ فقال: احضُروا في غَدٍ ، فإنّي ملبسٌ هذه الحلّة أكرمكم. فحضرَ القومُ جميعاً إلا أوسَ بن حارثة؛ فقيل له: لِم تتخلف؟ فقال: إن كانَ المرادُ غيري ، فأجملَ الأشياءِ ألا أكونَ حاضراً ، وإن كنتُ المُراد ، فسأُطْلَبُ ويُعْرفُ مكاني.
فلمّا جلسَ النُّعمان لم يرَ أوساً ، فقال: اذهبُوا إلى أوسٍ ، فقولوا له احضُر آمناً ممّا خفتَ. فحضرَ ، فألبسهَ الحلّة ، فحسَدَه قومٌ من أهلِهِ ، فقالوا للحُطيئة: اهْجهُ ولك ثلاثمئة ناقة. فقال الحطيئةَ: كيفَ أهجو رجلاً لا أرىٰ في بيتي أثاثاً ولا مالاً إلا منْ عندِه؟ ثم قال:
كيفَ الهجاءُ وما تنفكُّ صالحةٌ ... من آل لأم بظهرِ الغيبِ تأتيني
فقال لهم بشرُ بنُ أبي خازم ، أحد بني أسدِ بن خزيمة: أنا أهجوهُ لكم ، فأخذَ الإبلَ وفعلَ ، فأغارَ أوس عليها فاكتسَحها ، فجعلَ لا يستجيرُ حيّاً إلا قال: قد أجرتكَ إلا منْ أوس.
وكان بشر بنُ أبي خازم في هجائه قد ذكرَ أمّ أوس ، فأتي به ، فدخلَ أوسُ على أمّه ، فقال: قد أتينا ببشرٍ الهاجي لكِ ولي. قالت: أو تطيعني؟ قال: نعم. قالت: أرى أنْ تردَّ عليه مالَه ، وتعفو عنه ، وتحبوه ، وأفعلُ مثل ذلك ، فإنّه لا يغسلُ هجاءه إلا مَدْحَه. فخرجَ فقال: إنَّ أمي سُعدى التي كنتَ تهجوها قد أمرتْ فيكَ بكذا وكذا! فقال: لا جرمَ ، واللهِ لا مدحتُ حتى أموت أحداً غيرك ، ففيه يقول:
إلى أوسِ بنِ حارثة بن لأمٍ ... ليقضي حاجتي فيمَنْ قضاها
فما وطىءَ الثّرى مثل ابن سُعدى ... ولا لبَس النّعال ولا احتذَاها»
(خزانة الأدب ٩/ ٤٠٣ و٤٠٤).

* وساد صمتٌ خيَّم علىٰ المكانِ ، ثمَّ قطعه أوسٌ قائلاً للحارث: ما جاء بك من بلادك يا حارث؟!

قال الحارثُ في هدوءٍ وأدب: جئتُك خاطباً يا سيّد الكرام. . .

فقال أوسُ بشيءٍ من الحدّة: لستَ هناك.

* فانصرفَ الحارثُ ولم يكلمْه كلمةً واحدةً بعدها ، وخرجَ إلى صاحبِهِ خارجةَ بنِ سنان ، ومن ثمّ قفَلا راجعَيْن نحو أرضِهما وبلادهِما ، والغيظُ يكادُ يمزّق جوفَ الحارث لما قَدْ بدرَ من أوسِ بنِ حارثة الطّائي. . .

* ودخلَ أوسٌ على امرأته مغضباً ـ وكانت من نساءِ عَبْس الحصيفات ـ فرأَتْه متغيّراً غاضباً ، وسمعتِ الحارثَ بنَ عوف آنفاً يتحدّث معه ثمّ ما لبَثَ أنِ انصرفَ؛ فقالت لأوس: مَنِ الرّجلُ الذي سلّمَ عليك فلمْ تُطِلْ معه الوقوفَ والكلام ، ولم يُطلْ هو معك ولم تكلّمْه أيضاً؟!

قال أوسُ: يابنة الكرام ، ذاك سيّدُ العرب الحارثُ بنُ عوف بن أبي حارثة المُريّ. . .

قالت امرأته: فما لكَ لم تستنزلْه وتحسن ضيافتَه ، وأنتَ المشهورُ بالجودِ والسَّخاء وإكرام الضَّيف؟!

قال: ويحكِ يا هذه ، إنّه استحمقَ واستهجنَني. . .

فقالت امرأتُه متعجبةً: وكيفَ وهو لم يكلمْك إلا بضع كلمات؟! قال أوس: جاءَني خاطباً ابنتي.

قالت امرأتُه في هدوءٍ وتعقُّلٍ: يا سيّد الكرام ، أفتريدُ أنْ تزوّجَ بناتك؟!

قال: نعم يا بنْتَ الأكارِم. . .

قالت: فإذا لمْ تزوّجْ سيِّدَ العَرب في زمانه ، فَمَنْ تزوّجْ؟!

قال الحارثُ وقد أدركَ صوابَ ما قالَتِ امرأتُه[1]: قد كانَ ذلك ، وبَدَرَ منّي ما بدرَ ، ولا أدري ما أنا صَانِعٌ. . .

قالت: يا سيّدَ الكِرام ، الأمْرُ سَهْل وبسيْطٌ. . .

قال: كيف؟

قالت: أسْرِعْ ، وتَدَارِكْ ما كانَ منْكَ ، وصحح الخَطَأَ الذي حَدَثَ ، واللقاءَ الذي كانَ جافاً.

قال أوسٌ: فبماذا وكيفَ؟!

قالت: الأمْرُ هيّنٌ ، تلحقُهُ فتردُّه إلىٰ بيتِكَ ، وتكرمُهُ وتحسنُ وفادتَه ونُزُلَه.

قال الحارثُ في تعجُّبٍ: يا هذه ، كيف لي أنْ ألحقَه وقد فرطَ منّي ما فرطَ إليه؟! ثم إنَّه يعزُّ على نفْسي ذلك!. . .

قالت له: يا أوسُ ، يا زيْنَ طيىء ، هوّنْ عليك ، تقولُ له: يا سيّدَ العربِ ، إنَّك لقيتَنِي وأنا مغضَبٌ لأمْرٍ ، فَلَكَ المعذرة فيما فرطَ منّي ، فارجعْ ولكَ عندي كلّ ما طلبتَ وأحببتَ ، فإنَّه سيفعلُ وسيعرفُ لكَ ذلك ، فهو حَصيفٌ ، وهو من السَّادة العُقلاء ، ولا ريبَ فعاداتُ السَّاداتِ سَادَاتُ العَادات ، أليسَ كذلك؟!

---

(١) المرأةُ الحصيفةُ العاقلةُ نعمةٌ كبرىٰ من نِعَمِ الله عزَّ وجلَّ علىٰ الرّجُلِ ، وإنْ جازَ التّعبير: فهي روضٌ أُنفٌ يجدُ المرءُ ما تشتهيهِ نَفْسُه ، وتلذّ عينُه ، لأنَّها تشدُّ أزْرَه في مهمّاتِ الأمورِ ، وتقوّمُ رأيه إذا ما اعوجَّ ، وترشدُه إلى ما يُصلِحُ حياتهما وحياةَ أولادِهما بل وأسرته وأسرتها.
ـ أما إذا كانتِ المرأةُ سفيهةً طائشةً خفيفةً متسرّعةً ، فإنّها بلاءٌ وعذابٌ وعقوبةٌ ومرضٌ ، وخصوصاً إذا كانتْ من بيئةٍ لا تُقيمُ للآدابِ الاجتماعية وزناً ، وهناك تكونُ الكارثةُ والعياذُ بالله تبارك وتعالى. . .

قال أوسٌ: بلىٰ ، جزاكِ الله كلَّ صالحةٍ ، فأنْتِ زوجةٌ صالحةٌ كريمةُ العقلِ ، طيّبةُ الأَصْل. . .

* وامتثلَ أوسٌ أمْرَ امرأتِهِ الصّائب ، واستنارَ برأيها الوضيء ، وركبَ في أثرِ الحارثِ بنِ عوف وخارجةَ بنِ سنان ، ومن ثمَّ غذَّ في سيرِه حتى لحقَهُمَا في الطَّريق. . .

* ويحدّثنا الآن خارجةُ بنُ سنان عمّا رأىٰ وسمعَ فقال: (فواللهِ ، إنّا لنسيرُ في الصَّحراء نحوَ بلادِنا ، إذْ حانَتْ منّي التفاتةٌ ، فرأيتُ أوسَ بنَ حارثة في أثرنا يعدو مُسرعاً على فرسِهِ ، فأقبلتُ على الحارثِ ـ وهو لا يكلّمني غمّاً ـ وقلت له: هذا أوسُ بنُ حارثة الطَّائي يعدو على فرسِهِ مُسرعاً في أثرِنا ولعلَّه يطلبنا. . .

قال: يا خارجة وما نصنعُ به الآن وقَدْ ردَّنَا شرَّ ردّ؟! امضِ بنا ولا تَقِفْ. . .

* ولمّا رآنا أوسٌ لا نَقِفُ ، ولا نلتفتُ إليهِ؛ قال بصوتٍ عالٍ: يا حارثُ أَرْبِعْ عليَّ ساعةً. . .

قال خارجةُ: فوقفْنَا له عندئذٍ ، وجاء أوسٌ فكلَّمه بالكلام الذي أشارتْ عليه زوجُه ، فرجعَ الحارثُ معه مَسْروراً ، وقد رضيَ بما اعتذرَ به أوسُ وبما قالَ له. . .

* ولمّا وصلنا بيوتَ أوسٍ ، كانت زوجهُ قد بذلتِ المطارفَ ، وأعدتِ الحشَايا ، وكلّ ما يرفعُ من قَدْر زوجِها وقَدْر الحارثِ بنِ عوف المُرّيّ)[1].

---

(١) انظر: الأغاني (١٠/ ٣٤٣ و٣٤٤)؛ والمستطرف (٢/ ٢٢٢) مع الجمع والتصرف.

ادْعِـي لـيْ بُـهَيْسَـةَ:

* جلسَ الحارثُ بنُ عوف وصاحبُه خارجة في بيتِ أوسٍ بنِ حارثة جلسةً مفعمةً بالألطافِ والتّكريم، والحفاوةِ والتَّرحيب؛ ومن ثمَّ دخَلَ أوسٌ علىٰ زوجتهِ وقال لها: (نِعْم الرأيُ رأيُكِ، هاقد عادَ الحارثُ مَسْروراً، فادعي لي فُلانة ـ لأكبرِ بناتِهِ ـ، فجاءَتْه على استحياء؛ فقال لها: أيْ بُنيّة؛ هذا الحارثُ بنُ عوف المريّ سيّدٌ من ساداتِ العربِ الأماجد، قد جاءَني طَالباً راغباً خاطباً، وقد أردتُ أنْ أزوّجكِ منه، فما تقولين؟!

قالت: (يا أبتِ لا تَفْعَل).

قال أوس: ولِمَ يا بنتي؟

قالت: (لأنّي امرأةٌ في وَجهي رَدَّة[1]، وفي خُلقي بعض العُهْدة[2]، ولستُ بابنة عمّهِ فيرعىٰ رحمي[3]، وليسَ بجارِك في البَلدِ فيستحي منك،

---

(١) «ردة»: بعض القباحة الممزوجة بشيء من الجمال...

(٢) «عهدة»: عيب.

(٣) إنَّ قولَ ابنةِ أوس هذه، يدلُّ على أنَّ معظمَ الفتيات عَصْر ذاك كُنَّ يؤثرنَ الزَّوج القريبَ، ويدلُّ على ذلك قولُ إحداهنّ تعبّر عن ذلك:

لَصَـوقٌ بـأكبـادِ النّسـاء وأصلُـه إذاما انتمىٰ من سِرّ أهْلي ومحتدي

ـ ونصحتْ أختٌ أختَها ألا تقبلَ غريباً زوجاً لها، وقالت لها: إنَّ شرَّ الغريبةِ يُعْلَنُ، وخيرُهُا يُدفَنُ، تزوّجي في قومكِ، ولا تغرنْكِ الأجْسَام. (مجمع الأمثال ١/ ١٢٤).

ـ وجاءَ في قولِ الخنساءِ بنتِ عمرو السُّلميّة لأبيها وأخيها أنّهما زوجاها في بني طيىء فقالت:

لا تحمـدنَّ الـدهـرَ أخـتٌ أخـاً لهـا ولا تـرثيـنَّ الـدّهـرَ بنـتٌ لـوالـدِ
هـمُ جعلـوهَـا حيـثُ ليسـتْ بحـرّةٍ وهمْ طرحوها في الأقاصي الأباعدِ

(أشعار النساء ص ٨٦). =

ولا آمن أنْ يرىٰ منّي ما يكرَه فيطلّقني ، فيكون عليَّ في ذلك ما فيهِ مَسبَّة).

قال أوسٌ لابنته: (قُومي باركَ اللهُ عليكِ).

* ثمّ قالَ أوسٌ لزوجتِه: (ادْعي لي فُلانة ـ لابنته الوسْطىٰ ـ فدَعتْها ، ثمّ قال لها مثل قولهِ لأختها)؛ فأجابتْه بمثلِ جوابها ، ثم قالت: (يا أبتِ إنّي امرأةٌ خرقاء ، وليستْ بيدي صناعة ، ولا آمنُ أنْ يرىٰ منّي ما يكرهُ ، فيطلّقني ، فيكون عليَّ في ذلك ما تعلمْ ، وليس بابنِ عمّي فيرعى حقّي ، ولا جارك في بلدِك فيستحييك).

قال: (قُومي باركَ اللهُ عليك).

* وبعدها قالَ أوسٌ لامرأتِهِ: (ويحك ادعي لي بُهيسة ـ وكانت أصغرهنّ سنّاً). فجاءتْه وسلّمتْ عليه في ابتسامةٍ جميلةٍ وطلاقةٍ محيّا ، وقال لها كما قال لأختيها؛ فقالت له: (يا أبي ، أنتَ وذاك).

فقال لها: (يا بُهيسة ، اعلمي أنّي قد عرضتُ ذلك على أختيك فلانة وفلانة فأَبَتاه ، ولم يذكرْ لها مقالتَيْهما).

فقالت له: (يا أبتِ ، لكنّي واللهِ أنا الجميلةُ وجهاً ، الصَّنَاعُ يداً ، الرّفيعةُ خُلُقاً ، الحسيبةُ أبـاً ، الحَسنَةُ سَمْتاً ، فإنْ طلّقني فلا أخلفَ اللهُ عليهِ بخير).

فقال أوسٌ لبُهَيْسةِ: (قُومي ، باركَ اللهُ عليكِ يا بُنية).

= ـ ونذكرُ هنا قصّة ميسون بنت بحدل الكلبيّة ، وكانت امرأةً بدوية ، فتزوّجها معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ ، وأقامت معه بالشّام في خفضٍ منَ العيش ، ونضرةِ الحضَارة ، ولكنها حنّت إلى مراتع صباها ، وعافتِ الحليَ والحلل ، والدّيباج والحرير ، وراحت تهتفُ بأبياتٍ تقولُ في آخرها:

خشـونـةُ عيشتـي فـي البـدو أشهـىٰ ... إلـىٰ نفسـي مـن العيـش الطّـريـف
فمـا أبغـي سـوىٰ وطنـي بـديـلاً ... فحسبـي ذاكَ مـن وطـنٍ شـريـف

* وسُرَّ أوسٌ منْ بهيسةَ ، وعلمَ أنَّ ما قالَتْه حقّاً ، وأنّها كفءٌ للحارثِ بنِ عوف المريّ سيّد العرب .

* ثمَّ إنَّ أوساً خرجَ إلى الحارثِ وقال له : (أبشِرْ يا سيّدَ العرب ، إنّي قد زوّجْتُك بُهيسةَ بنتَ أوس ، فأنتَ كفءٌ كريم) .

قال الحارثُ : (قد قبلتُ نكاحَها) .

* واتّفقا على ذلك ، واطمأنَّ أوسٌ إلى عَقْلِ ابنته وإلى حَصَافَتِها ، فهي التي ستكونُ حليلةَ سيّد العرب .

بُـهَيْسَـةُ العَاقِلَـةُ المُنْجِبَـةُ :

* أمرَ أوسُ بنُ حارثة زوجَه أنْ تأخذَ أهبتَها في زفافِ بُهيسة إلى الحارثِ بنِ عوف ، وأنْ تهيّئَها وتصلحَ من شأنِها ، ثمّ أمرَ ببيتٍ عالي العِماد ، فَضُرِبَ للحارثِ ، وأنزلَه إيّاه ، كما كانتِ العادةُ آنذاك .

* ولما فرغَتْ زوجتُه من أمْر ابنتِها وهُيئت ، بعثَ بها إلى الحارثِ ، فلما أُدخِلَتْ إليهِ ، لبث هُنيهةً ، ثم خرجَ إلى صديقهِ خارجةَ بنِ سِنَان ، فقال له : (أفرغتَ منْ شأنِك)؟

قال الحارثُ : (لا والله) .

قال : (وكيف ذاك) ؟ .

قال : (لمّا مَددْتُ يدي إليها قالت : مَه ، أَعِندَ أبي وإخوتي!! هذا واللهِ ما لا يكونُ أبداً) .

* يقولُ خارجة : (ثمَّ إنَّ الحارثَ أمرَ بالارتحالِ والذَّهاب إلى مضاربنا في أرضِ بني ذُبيان ، وهاتيك النَّواحي فارتحلنا ورحلْنَا بها مَعَنا ، وسرْنا ما شاءَ اللهُ لنا أنْ نسيرَ في أرضِ اللهِ ، ثمّ إنَّ الحارثَ قال لي : يا خارجة

تقدَّم عنّي قليلاً ، فتقدمتُ ، ثمّ إنّه عدلَ بها عنِ الطّريق ، فما لبثَ أنْ لحقَ بي ، فقلتُ : أفرغتَ؟

قال : لا واللهِ يا خارجة .

قلت : ولمَ يا سيّدَ العرب؟!

قال : قالت لي : يا هذا ، أَكَما يُفْعَلُ بالأمَةِ الجليبة ، أو السَّبيّة الأَخيْذَة؟! لا واللهِ يا بن السّادات الأكارم؛ حتى تنحرَ الجُزر ، وتذبحَ الغنم ، وتدعو العرب ، وتعملَ ما يُعمل لمثلي ، فأنا ابنةُ سيّد طيىء . . .

قلتُ : واللهِ يا سيّد العرب ، إنّي لأرىٰ لهذه المرأةِ همّةً وعقلاً ، وشأناً ومكانةً ، وأرجو أنْ تكونَ المرأةُ منجبةً) .

* ويتابعُ خارجةُ حديثَه فيقول : (فرحلنا حتّى جئنا بلادَنا ، ثم إنَّ الحارثَ بنَ عوف أحضرَ الإبلَ والغنمَ ، ثمَّ دخل عليها وخرجَ إليَّ ، فقلت : أفرغتَ؟!

قال : لا .

قلت : ولمَ؟

قال : دخلتُ عليها أريدها ، وقلتُ لها : قد أحضرنا من المالِ ما قد تَرين ، وصنعْنَا منَ الولائمِ ما طلبتِ . . . فقالت : واللهِ لقد ذكرتَ لي من الشَّرف ما لا أراهُ فيك . قلتُ لها : وكيف يا بُهيسة ، وأنا سيّدٌ مُطاعٌ كما تَرَيْن؟! فقالت : يا هذا ، أتفرغُ لنكاحِ النِّساء ، والعرب تقتل بعضَها؟! ـ وذلك في أيّام حرب عَبْس وذُبيان ـ .

قلت : فيكونُ ماذا يا بنتَ الكرام ؟ .

قالت: اخرجْ إلى هؤلاءِ القوم ، فأصْلِحْ بينَهم ، ثم ارجعْ إلى أهلكَ فلن يفوتَك ما تريدُ. . .

فقلتُ: واللهِ إنّي لأرى لها عقْلاً ورأياً سديداً وهمّةً كبيرةً ، ولقد قالت قولاً صحيحاً.

قال: فاخرجْ بنا؛ فخرجَ هو وهرمُ بن سنان ، ومشَيَا بين النَّاس بالصُّلْحِ فاصطلحوا على أنْ يحتسبوا القَتْلى ، فيؤخَذُ الفضلُ ممّن هو عليه ، فحملنا عنهم الدّيات ، فكانت ثلاثة آلاف بعيرٍ في ثلاث سنين ، فانصرفنا بأجملِ الذّكْر وأجلّه.

* ثمّ إنَّ الحارثَ دخل على بُهيسة ، فرحَّبَتْ به وقالت: أمّا الآن فنعم ، فأقامتْ عنده في ألذّ عيشٍ ، وقد ولَدَتْ له بنين وبنات)[1].

* وقد سجَّلَ زهيرُ بنُ أبي سلمى هذا الفعلَ الجميلَ لهما ، وشادَ بذكرهما في معلّقتِهِ الشَّهيرة التي مطلعُها:

أَمِنْ أمّ أوفىٰ دمْنَة لمْ تكَلَّمِ ... بحومانةِ الدُّرَّاجِ فالمتثلَّمِ[2]

* ومنها يذكرهما وينعتُهما بالسَّيّدَين:

يميناً لَنِعْمَ السَّيِّدان وُجدتُما ... علىٰ كلّ حالٍ من سحيلٍ ومبرمِ
تداركْتُما عَبْساً وذُبيان بَعْدمَا ... تفانَوا ودقّوا بينَهم عطْر منشمِ
وقد قُلْتُما إنْ نُدرِكِ السِّلْمَ واسِعاً ... بمالٍ ومَعْروفٍ منَ القَولِ نَسْلمِ
فأَصْبحتُما منها على خيرِ مَوطنٍ ... بعيدَيْن فيها من عقوقٍ ومأْثمِ
عظيمَيْنِ في عُليا معدّ هُديتُما ... ومَنْ يستبِح كَنْزاً منَ المجدِ يُعظمِ

---

(١) انظر: المستطرف (٢/ ٢٢٢) ، وأعلام النساء (١/ ١٥٦ و١٥٧) مع الجمع والتصرف ، وذلك نقلاً عن الأغاني.

(٢) «الدمنة»: ما اسودّ من آثار الدار. و«حومانة الدراج والمتثلم»: موضعان.

* لقد خلّد زهيرُ بنُ أبي سلمى هذيْن الكريمَيْن ، التي كانتْ بهيسةُ من وراءِ أحدهما ، وهو الحارثُ بنُ عوف .

* ولقد ظلَّ ذكْرُهُما في شِعْرِ زهير بن أبي سلمى الذي رأينا كيف تحدَّثَ عن هذين السَّاعيَيْن في الخيرِ ، المحبَّيْن للسَّلام ، الدَّاعيَيْن إلى الصَّفاء وإلى الإخاءِ ، فأشادَ بموقفِهما ، وأشارَ إلى ما قامَا به من عمَلٍ جليل ، وأشارَ إلى أنَّهما تحمَّلا ديّات القَتْلى في حربٍ ضروس أخذتْ مسَاحةً كبيرةً من الأيّام والأَزْمان ، وبسببها قُطِعَتِ الأرحامُ ، وتفرّقَ الأهلُ وتناحرَ الإخْوانُ ، فأَصْلَحا ما أفسدَ ، وجمعَا الشَّمل ، وأقسم زهير بالبيت الحرام قائلاً: إنّهما نِعْمَ السَّيّدان في جميع الأحوالِ ، وأنّهما أصْبَحا في أعلىٰ الدَّرجات بينَ العربِ جميعهم .

* وهكذا كانتْ بُهيسة بنتُ أوس الطّائية واحدةً من نساءِ المشرقِ اللواتي كُنَّ من ربَّات البلاغةِ والرأي الصَّائب والحكمةِ ، فهل تستفيدُ من قصّتها النّساء؟! . وهل تستفيد الأُمَّهاتُ الآن (الحَموات) من قصّةِ والدةِ بُهيسةُ ويحذيْنَ حذْوَها؟! ويكُنَّ من العاقلات؟!

* * *

عُفيرة بنت عبّاد

* من أعلام نساء المشرق العربي اللواتي أثرين التاريخ النسوي برقائق الأخبار ، وروائق الأشعار .
* كانت مضرب المثل في العفة والإباء .

الـمَـرْأَةُ والعِفَّـةُ:

* لم يُؤْثَر عنِ المرأةِ العربيّةِ في سالفِ الأزمانِ تَخَاضعٌ أو استخذاءٌ، بل كانت ذات إباءٍ وشَممٍ، واعتزازٍ بكرامتها واعتدادٍ بنفسها، وذلكَ في أغلبِ الأحايين.

* ومن المُتعالَم بين نساءِ عَصْر الجاهليّة أنَّ الأخلاقَ العربيّة قامَتْ على دعائمَ ثابتةٍ من مكارمِ الفضائلِ، وفضائلِ المكارمِ، ومنها: الاعتزازُ الشَّديدُ بالشَّرف الذي هوَ عنوانُ حياتهنّ، وكذلك الحرصُ على حُسْنِ الأحدوثةِ، وعلى سمعةِ الأسرةِ الطّيّبة، وصيانةِ المرأةِ صيانةً كاملةً، فكان لا بدّ للرّجالِ والنّساء من العفّة، ومن التّعفُّفِ؛ لأنَّ العدوانَ على العرضِ، والاعتداء على الشّرفِ قد يجرُّ ويلاً، ويشعلُ حرباً، ولأنَّ المجونَ ليس من سماتِ السَّادة وليس من عاداتِهم.

* ولذلك نجدُ في تراثِنا الأدبيّ أنَّ الرِّجال قد أكثروا من الفخرِ بعفّتهم، وافتخروا بصيانِتهم حرمةَ جيرانهم، بل نجدُ كثيراً من الشُّعراء قد مَدَحُوا ومُدِحُوا ورثوا بالعفّة.

* وقد عُرِفَ عن العربِ أنَّهم قومٌ غُيرٌ على النّساءِ إلى حدّ المغالاةِ والإغراقِ، وهم يبيحونَ للرّجل أنْ يذكرَ أي شيءٍ في حياتهم إلا النّساء، وقد وردَ في أمثالِهم قولهم: «كُلُّ شيءٍ مَهَهٌ ما خَلا النِّساء وذكْرِهنَّ»[1].

---

(١) انظر: مجمع الأمثال (٣/ ٥)، وجمهرة الأمثال (٢/ ١١٨). ومعنى «مَهَهٌ»: اليَسير الحقير. أيّ أنَّ الرجلَ يحتملُ كُلَّ شيءٍ حتى يأتي ذكْرُ حُرَمِهِ، فيمتعضُ حينئذ، فلا يحتمله.
قال أهلُ اللغة: «المَهَاهُ والمَهَهُ: الجمالُ والطّراوةُ، أي كلُّ شيءٍ جميلٌ ذكْرُهُ إلا ذكر النّساء» قال الميداني: «قلتُ: يجوزُ أنْ يكونَ المَهَاهُ الأَصْلُ، والمَهَهُ مقصورٌ=

* هَكذا كان معظمُ العربِ ، وهكذا كانت حياتُهم قائمةً على صيانةِ العفّةِ. وفي هذا المجتمعِ البسيطِ الذي يقدّرُ العفّة ، فيعفتُ فيه النّاس ، أو يتعفّفون ولا يجاهرون بالفحشَاء ، إلا قلّة من الشُّعراء المُجّان قد جاهروا بفحشِهم من مثل امرىء القيس ومَنِ اغْتَرفَ منْ بحره.

* في هذا المجتمعِ العربيّ النّقيّ كانت عفّةُ المرأةِ أعظمَ حُلاها ، وأفخرَ خلالها ، وكانتِ المرأةُ العفيفةُ الممنعةُ هي بغيةُ الرِّجالِ الأسوياءِ ، وهي المثلُ الأعلى عندهم؛ ولعلَّهم كانُوا ، أو كان معظمُهم يَعْرِفُ ما يُنسبُ إلى سيّدنا عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فيما ذكره ابنُ أبي الحديد من قوله: «خِيَارُ خِصَالِ النِّساءِ؛ شرارُ خِصَال الرّجال: الزّهو ، والجبن ، والبُخل. فإذا كانتِ المرأةُ مزهوةً لم تمكّن من نفسِها؛ وإذا كانت بخيلةً حفظتْ مالَها ومالَ بعلِها ، وإذا كانت جبانةً فَرِقَتْ من كلّ شيءٍ يعرضُ لها»[1].

= منه ، مثل الزّمان والزّمن والسَّقام والسَّقم ، ويجوزُ على الضّد من هذا ، وهو أنْ يكون المَهَهُ الأصلُ ، ثم زِيْدتِ الألفُ كراهةَ التَّضعيف ، والمَهَاهُ أكثرُ في الاستعمالِ من المَهَهِ ، قال الشَّاعر:

وليسَ لِعَيشِنا هذا مَهَاهٌ وليستْ دارُنا الدّنيا بِدَارِ

وقال آخر:

كفىٰ حزناً أنْ لا مَهَاهٌ لعَيْشِنا ولا عملٌ يرضىٰ بهِ اللهُ صَالحُ»

يريدُ لا جَمالَ ولا طراوةَ لعيشنا. (مجمع الأمثال ٣/ ٥).

ـ ومن عفّةِ العرب ما ذُكِرَ أنَّ الحطيئةَ لمّا نزلَ ببني مقلّد بن يربوع سألوه عمّا يرضىٰ وعما لا يرضىٰ ، جاء في قوله: «ولا تجعلوا فناءَ بيتي مجلِساً لكم ، ولا تُسْمِعُوا بناتي غناءَ شبابكم...».

ـ ولذلك افتخروا بحمايةِ زوجاتهم من أهل العُهْرِ ، يقول أحدهم:

حميتُ عن العُهَّارِ أطهارَ أمّه وبعضُ الرّجال المدّعينَ غُثاء

(١) شرح نهج البلاغة (٤/ ٣٤٦).

* وللعفّة مظاهرُ شتّى ، فقد تكونُ في أنْ تخالطَ المرأةُ الحرّةُ الرّجالَ وتحادثُهم شريطةَ أنْ تتصوّنَ ، فلا يسمعون منها ولا تسمعُ منهم غير العفّ من القولِ ، وفي ذلك يقول سُويد بن أبي كاهل اليشكريّ من قصيدتِه العينيةِ الجميلةِ التي مطلعُها :

بَسَطَتْ رابعةُ الحَبْلَ لنَا   فوَصَلْنَا الحَبْلَ منْها ما اتَّسَعْ

وهي قصيدةٌ طويلةٌ تبلغُ (١٠٨ أبيات) ومنها يصفُ عفّة صاحبته رابعة التي يتغزّل فيها فيقول :

تُسْمِعُ الحُدَّاثَ قَولاً حَسَناً   لو أرادُوا غَيْرَه لم يُسْتَمعْ[١]

* ويقولُ غيرهُ يصفُ عفّة المرأةِ العربيّةِ الحرّة :

ويخَالُها المَرِحُ السَّفيهُ تحبُّه   ونوالُها غيرَ الحديثِ بعيدُ

* وقد تكونُ المرأةُ عفيفةً ذاتَ هيبةٍ ووقَار، فتكونُ عفّتها ستاراً بينَها وبينَ النَّاس ، وهنا لا يجرؤُ أحدٌ أنْ يكلّمَها أو يشيرَ إليها ، وإذا ما غابَ عنها زوجُها حفظتْ غيبته ، وأرضَتْ أَوْبَتَهُ ، وقد تحدّث عن هذهِ الناحيةِ علقمةُ بنُ عبدةَ، وهو شاعرٌ جاهليٌّ مجيدٌ، كان من صُدورِ الجاهليةِ وفحولها، قال عنه ابنُ سلام الجمحيّ: «له ثلاثُ روائعَ جياد لا يفوقهنّ شِعْرٌ». وعلقمةُ هذا يصفُ «نعمةَ» صاحبتَه ويذكرُ حرصَها على سرِّ الزَّوجِ ورضاه ، ويشيرُ إلى عفّتها وإلى صعوبةِ الكلامِ معها فيقول من بائيتهِ الشّهيرة التي مطلعُها :

طَحَا بِكَ قَلْبٌ في الحِسَانِ طَرُوبُ   بعَيْدَ الشَّباب عَصْر حَانَ مَشيبُ

وهي قصيدةٌ طويلةٌ وجميلةٌ تبلغُ (٤٣) بيتاً ، ومنها قولُه في عفّةِ صاحبتهِ وحرصِها على حُسْنِ تبعّلِ الزَّوج في غيابه :

مُنَعَّمَةٌ ما يُسْتطاعُ كَلامُها   علىٰ بابِها مِنْ أنْ تُزارَ رقيبُ

---

(١) انظر : المفضليات (ص ١٩٠ ـ ٢٠٢).

إذا غابَ عنها البعلُ لم تفْشِ سرَّه   وتُرضي إيابَ البَعْلِ حينَ يَؤُوبُ[1]

* وقد نجدُ بعضَ النّساء العربيّات في ذلك العَصْرِ السَّحيق من عصرِ الجاهليّة يفتخِرنَ بعفّتهنَّ ، من ذلك القولُ الذي يُنْسبُ إلى الخنساء[2] يوم القادسيّة إذ زعموا أنّها خاطبت بنيها قائلةً ومذكّرةً لهم بعفّتها وصيانتها: « . . . واللهِ الذي لا إلهَ غيرهُ ، إنّكم لبنو رجلٍ واحدٍ ، كما أنّكم بنو امرأةٍ واحدة ، ما خنْتُ أباكم ، ولا فضحتُ خالكم ، ولا هجنتُ حسَبَكم ، ولا غيّرتُ نسبَكم . . »[3].

* وممّا نجدُه منثوراً بين جواهرِ الأدبِ في أخبارِ العرب وأسمارِهم ، ما جاءَ من أخبارِ صخر بن عمرو السُّلَميّ أخي الخنساء الذي أشادَ وأشارَ إلى عفّةِ أخته الخنساء حينما تسخّطت زوجتُه لأنه يقاسمُ أخْتَه مالَه ، ويعطيها خيرَ النّصفَيْن:

وَاللهِ لا أمْنَحُها شِرارَهَا   وهيَ حَصَانٌ قد كفَتْني عارَهَا[4]

* إنَّ القصصَ التي وصلَتْ إلينا عن عفّةِ المرأةِ العربيّةِ لا تتسعُ إليها مئاتُ الصَّفحات ، وكلُّها قَصصٌ مشرقةٌ تدلُّ على هذا الخُلقِ الذي جاءَ الإسلامُ فعزَّزه ، وممّا ورد عن العربِ المشارقةِ ونسائِهم المشرقيّات ما ذكره الميدانيُّ قال: «خرجَ سهلُ بنُ مالك الفزاريّ يريدُ النّعمان ، فمرَّ ببعضِ أحياءِ طيىء ، فسألَ عن سيّد الحيّ ، فقيلَ له: حارثةُ بنُ لأم ، فأَمَّ رحلَه فلم يُصِبْهُ شاهداً ، فقالت له أختُه: انزلْ في الرَّحبِ والسَّعَةِ؛ فنزلَ فأكرمَتْه ولاطفَتْه ، ثمّ خرجتْ من خبائِها فرأىٰ أَجْمَلَ أهلِ دهرِها

(١) المفضليات (ص ٣٩١).
(٢) اقرأ سيرة الخنساء في هذه الموسوعة ، وانتبه إلى الأخبار المزيفة التي دحضناها.
(٣) انظر كتاب: طهارة العرب (ص ١٥) لأحمد بن الأمين الشنقيطي.
(٤) تهذيب الكامل (٢/ ١٩٢).

وأكملِهم ، وكانت عقيلة قومها وسيّدة نسائِها ، فوقعَ في نفسهِ منها شيءٌ ، فجعلَ لا يدري كيفَ يُرسل إليها ولا ما يوافقُها من ذلك! فجلسَ بفناءِ الخباءِ يوماً وهي تسمعُ كلامَه ، فجعلَ ينشدُ ويقول:

يـا أخْـتَ خَيْـرِ البـدْوِ والحَضَـارَه كيـفَ تَـرَيْـنَ فـي فَتَـى فَـزَاره
أصبـحَ يهـوىٰ حـرّةً مِعْطـارَه إيّـاكِ أعنـي واسْمعـي يـا جَـارَه

فلما سمعَتْ قولَه عرفَتْ أنّه إيّاها يعني ، فقالت: مَا ذَا بِقَوْلِ ذي عَقْلٍ أريب ، ولا رأيٍ مُصيب ، ولا أنف نجيب ، فأقمْ ما أقمتَ مكرّماً ، ثم ارتحلْ متى شئت مسلَّماً. . . »[١].

* ولقد بلغتِ العفّةُ بها أنْ تبغضَ مَنْ يسيءُ الظَّنّ بها وإن كان زوجُها ، فقد وردَ أنَّ الفاكِهَ بنَ المغيرة قد شكَّ في زوجتِهِ هند بنتِ عتبةَ ـ وكانت بريئةً ـ وقضىٰ الكاهنُ ببراءتها ، في قصّةٍ طويلةٍ معروفةٍ ، وأرادَهَا الفاكهُ أنْ تعودَ إليه فرفضَتْه ، ومن ثم تزوّجها أبو سُفيان رضي الله عنهما.

* والمرأةُ العربيّةُ الحرّةُ تأنفُ من الزّنى ، وتكرهُ فِعْلَه وسماعَه ، وتُؤكِّد بأنَّ الحرّة لا تزني ، ومنْ هؤلاء اللواتي خَلَدهُنَّ التّاريخُ النّسويّ المشرقيّ: عُفَيرةُ بنتُ عبّاد الجَديسية[٢] ويقال: إنّ اسمَها الشّموسُ بنتُ عباد؛ التي كانتِ السَّبب في مقتلِ مَلكٍ خطيرٍ لأنَّه تعدّى على عفّةِ النِّساء.

---

(١) انظر: مجمع الأمثال (١/ ٨٠ و٨١).

(٢) الأغاني (١١/ ١٦٨ ـ ١٧١) ، وأعلام النساء (٣/ ٢٩٧ ـ ٢٩٩) ، والكامل في التاريخ (١/ ٣٦٨) ، ومروج الذهب (١/ ٢٤٣) ، والأخبار الطوال (ص ١٧) ، وأخبار النساء (ص ١٦) ، والمعارف (ص ٢١١) ، ومعجم البلدان (٨/ ٥١٦) مطبعة السعادة بمصر (١٩٠٦ م) ، والمحاسن والأضداد (ص ٢٧٠ ـ ٢٧٢) ، وخزانة الأدب (٢/ ٨٩) طبعة مصر ، وشمس العلوم لِنشوان الحميري (ص ١٧) ، ونهاية الأرب (١٥/ ٣٣٩ ـ ٣٤٤) والروضة الفيحاء ص ٣٠٤ و٣٠٥) ، وشاعرات العرب (ص ٢٥١ ـ ٢٥٣) ورغبة الآمل من كتاب الكامل (٦/ ١٣٠).

* ترى كيفَ كان ذلك؟ وكيفَ قضت عُفيرةُ على ملكِ طَسَم وجديس؟ هذا ما ستجلوه الصّفحات التّاليات . . .

مَلِـكُ طَسَـم الـظَّـالـم :

* من أسمارِ العربِ ما ذكروا أنَّ عِمْليقاً مَلِكَ طسم وجديس وهم العربُ العاربةُ ، على ما ذكرَ بعضُ المؤرّخين ، وكانتْ منازلهُم اليمامة[1] ، وكان اسمُها في وقتِهم جَوّ[2] ؛ وكان عمليقُ في أوّلِ مملكته غَشُوماً ظلوماً ركبَ طريق الظُّلم والغَشْم والسّيرة بغيرِ الحقِ ؛ لكنَّ ظلمه هذا قد تلاشىٰ واندثرَ في غضبةٍ مضريةٍ كان سَبَبها امرأةٌ .

* وذكروا أنَّ عمليقاً أتتْه ذات يوم امرأةٌ من جديس اسمُها هُزيلةُ بنتُ مازن مع زوجٍ لها اسمُه ماش أو قرقس ، وكان قد طلّقها ، وأرادَ أخذ ولدِه منها ، فخاصمته وترافعَا إلى عمليقٍ ليحكمَ بينهما ؛ فقالت هزيلة : «أيّها الملكُ ، هذا ابني حملتُه تسْعاً ، ووضعتُه دفعاً ، وأرضعتُه شَفْعاً ، ولم أنلْ منه نَفْعاً ، حتى إذا تمّتْ أوصالُه ، واستوتْ خِصَالُه ، أرادَ أنْ يأخذَه منّي قَهْراً ، ويسْلُبنيهِ سرّاً ، ويتركَ يدي منه صِفْراً» فقال عمليقُ لزوجها : «ما حجّتك أنت؟» .

فقال الزّوجُ : «قد أَخذَتِ المَهْر كاملاً ، ولم أنلْ منه طائلاً ، إلاّ ولداً جاهلاً ، فافعلْ ما كُنتَ فاعلاً» .

* فأمرَ عمليقُ بالغلام أنْ ينزعَ منهما ، وأنْ يُجْعَلَ في غلمانِهِ ، وقال لهزيلة : «ابْغِيهِ ولداً ، ولا تنكحي أحداً ، واجْزِيه صفداً» ، فقالت هُزيلة :

---

(١) «اليمامة» : مدينة بالبادية من بلاد العوالي ، وبها قد تنبأ مسليمة الكذاب ، وهي بلاد بني حنيفة . وهي من المدن الشهيرة قديماً وخرج منها كثير من النبلاء والنبيلات .

(٢) بلدة معروفة الآن تبعد عن مدينة الرياض حوالي (١٠٠ كم) .

«أمّا النّكاح فإنّما يكون بالمهرِ ، وأمّا السّفاحُ فإنّما يكونُ بالقَهر ، وما لي فيهما منْ أمْرٍ» .

* فلمّا سمعَ ذلك منها عِمليقُ ، أخذته سَوْرةُ الغَضب ، وأمرَ بأنْ تُباع هي وزوجُها ، فيُعطىٰ خُمْسَ ثمنها ، وتُعطى هُزيلة عُشْر ثمنِ زوجها ، وعندها أنشأَتْ هُزيلة تنشدُ وتقولُ:

أَتَيْنـا أخَـا طَسْـمٍ ليحكـمَ بيننـا ... فـأبـرمَ حُكْماً فـي هُـزَيلـةَ ظـالمـا
لَعَمـرِي لقـد حُكِّمْـتَ لا مُتَـورِّعـاً ... ولا فَهِمـاً عنـد الحكـومـةِ عَـالمـا
نَدِمْتُ فلمْ أقدْر علىٰ مُتَزَحْزَحٍ ... وأصبحَ زَوجي عاثِرَ الرّأي نَادِما

* فلما بلغَ عمليقاً ما قالَتْه هُزيلةُ فيه ، وعرفَ التّعريض به ، غضبَ غضباً شديداً ما عليهِ من مزيد ، وأقسمَ أنّه لا تُهدىٰ عروسٌ من جديس لبعلِها حتى يكونَ هو الذي يبدأُ بها قبلَ زوجها ، فلقُوا من ذلك جهداً وبلاءً وذُلّاً وقهراً. فلم يزلْ يفعلُ ذلك حتى زُوّجتْ عفيرةُ بنتُ عباد الجديسيّة إلى بعلِها ، وهنا بدأتْ نهايتُه ، وكانتِ السَّبب في قَتْله ، وفي السُّطور التّوالي نتابعُ أحداثَ العفّة مع العفيفةِ عُفيرة بنت عباد. . . ونرى كيف خلَّصَت قومَها من ظُلم عمليق ، وممّا أحدثه من فجورٍ وظلم وإذلال. . .

عُفَيـرةُ تُـحَـرِّضُ قَـوْمَهَـا لِيَـقْـتُـلُوا عِمْليقـاً:

* تذكرُ المصادرُ أنَّ عُفيرةَ بنتَ عباد أختَ الأسود بن عباد قد تزوّجتْ ، فلما أُهديَتْ إلى بعلِها وأرادوا حَمْلَها له ، انطلقوا بها ـ كالعادةِ ـ إلى عمليقِ كيما ينالَها قبله ، فَحُمِلَتْ إلى عِمليق ، ومعها القيان يتغنينَّ وينشدنَ ويضربْنَ بالدفوف وهن يَقُلن :

ابْـدي بِعِمليـقٍ وقُـومـي فـاركَبـي ... وبــادِري الصُّبــحَ لأَمْــرٍ مُعْجِــبِ
فســوفَ تلقيــنَ الــذي لــمْ تطلُبِي ... ومــا لِـبِكْــرٍ عنــده مــنْ مَهْــربِ

* فلمّا أنْ دخلَتْ على عِمليق ، افترعَها وخلّى سبيلَها ، فخرجَتْ على قومها في دمائِها في أَسْوأ حالٍ ، وأقبحِ منظر ، وأذلّ مَخْبر ، وكانت قد شقّت قميصَها من قُبُلٍ ومن دُبُرٍ والدمُ يسيلُ ، وجعلت تقولُ وترتجزُ :

لا أحــدٌ أذَلُّ مِــنْ جَـديــسِ   أهكَــذا يُفْعَــلُ بــالعَــروسِ
يــرضــىٰ بهــذا يَـالَقــومـي حــرُّ   أهْـدَىٰ وقـد أعْطَـى وسيْـقَ المَهْـرُ
لأخــذةُ المــوتِ كــذا لنَفْســه   خيــرٌ مــن أَنْ يفْعَــلَ ذَا بِعِــرسِــه

* ثمّ إنَّ عُفيرة لم تصبرْ على ما حلَّ بها ، وما أُتي إليها ، ومن ثم أخذتْ تحرّضُ قومَها جديساً على طسم بكثيرٍ من القصائدِ والأشعارِ ومن ذلك قولُها تحرضُ قومَها وهي تبكي وتقول :

أيصلُـحُ مـا يُـؤتـىٰ إلـى فتيـاتِكـم   وأنتـمْ رجـالٌ فيكـمُ عَـدَدُ النَّمـلِ
وتصبحُ تمشي في الدّماءِ عُفيرةٌ   صبيحةَ زُفّت في النِّساءِ إلى البعلِ
فإنْ كنتمُو لا تغْضبوا عند هذه   فكونُوا نساءً لا تفيقُ من الكُحْلِ
ودُونكُمـو طيـبُ العَروسِ فـإنّمـا   خلِقتمْ لأَثْوابِ العرائِس والغسْلِ
فلــو أنّنــا كنّــا رجــالاً وكنتــم   نســاءً لَكُنّــا لا نقــرُّ علــى الــذُّلِّ
فقُبحاً وسُحقاً للذي ليسَ دافعاً   ويختالُ يمشي بيننا مشيةَ الفَحْلِ
فمُوتُوا كِراماً واصْبِروا لعدوّكم   لحربٍ تلظّى بالضّرامِ منَ الجزْلِ
ولا تجزعوا في الحرب يا قوم إنّها   تقـومُ بـأقـوامٍ كـرامٍ علـى رِجْـلِ
فيهلـكُ فيهـا كـلُّ وغـدٍ مـواكـلٍ   ويسلمُ فيها ذو الطّعان وذو القتل
فللبيْنُ خيرٌ من مقامٍ على أذى   وللموتُ خيرٌ من مقامٍ على الذّلّ

* ولما رآها أخوها الأسودُ بنُ عبّاد ، وسمعَ مقالها ، نهضَ إليها ، وأدخلَها الخباءَ؛ وسمعتْ جديسُ شِعْرَ عُفيرةَ أيضاً فأنفتْ أنفاً شديداً ، وأخذتهم الحميّةُ؛ ومن ثمّ اجتمعت قبيلةُ جديس فقال لهم الأسودُ بنُ عفار ـ وكان سيّداً مطاعاً فيهم ـ : يا معشرَ جديس ، لَتُطِيعنّني فيما آمركم به ، أو

لأتكئنّ على سَيْفِي حتى يخرجَ من ظهري.

قالوا: يا أسود، فإنّا نطيعُك فيما تأمرنا به.

فقال الأسودُ: يا قوم، إنَّ طسَماً ليسوا بأعزّ منكم، ولكنَّ مُلْكَ صاحبهم علينا وعليهم هو الذي يُذْعننا إليهم بالطَّاعة، ولو امتنعْتُم منهم لكانَ لكمُ الحقُّ، ولولا عجزنا ومجاملتُنا لعمليق، ما كانَ له فضْلُ علينا، فأطيعوني فيما آمركم بهِ، فإنّه عزّ الدَّهر، وذهابُ ذلّ العمر، واقبلوا رأيي.

قالوا: يا أسود، إنَّ القومَ أكثر منّا عَدَداً وعُدداً، وهم أكثرُ وأحمىٰ وأقوىٰ أيضاً، وإنْ نحنُ بادأْناهم بالحربِ لم نَقْوَ عليهم لكثرةِ جندهم وأنصارِهم.

قال الأسودُ: أيُّها النَّاس، إنّي صانعٌ للملِكِ عمليقٍ طعاماً ثم أدعوهم له جميعاً، فإذا جاؤوكم متفضّلين في الحُلل يرفُلُونَ بها، نَهضنا إليهم بأسيافِنا، وهم غافلونَ فأَهْمَدناهُم بها وجعلناهُم كأَمْسِ الدَّابرِ.

فقالت عُفيرةُ لأخيها: لا تفعلْ فإنَّ الغَدْرَ ذِلّةٌ وعارٌ، ولكنْ كاثروا القومَ في ديارِهم فتظفروا أو تموتُوا كراماً.

قال الأسودُ: لا يا أُخيّة، بل نمكرُ بهم فنكون أمْكَنَ منهم.

* ثم إنَّ الأسودَ عزمَ على اغتيالِ الملك عمليقٍ وجنودهِ، وصنعَ طعاماً كثيراً، وأمر قومه أنْ يخترطوا سيوفَهم ثمّ يدفنوها في الرَّمْلِ.

* وبعد أنِ استوثقَ ممّا فعلَ، دعا الأسودُ عمليقاً وسألَهُ أنْ يتغذّىٰ عنده هو وأهلُ بيتهِ، وقومه، فأجابه، وخرجَ إليه مع أهلهِ يرفلُون في الحُلْي والحُلل؛ ثم إنّهم أخذوا مجالسهم ومدّوا أيديهم إلىٰ الطَّعام، وعندها استثارت جديس السُّيوف وأخذوها من تحتِ الرّمل، وشد الأسودُ على

عمليق وقتَلَه ، وكذلك شدّ كلُّ رجلٍ من جديس على جليسه حتى قتلوهم ، والأسودُ يرتجزُ ويقولُ:

يـا صُبحـةً يـا صُبْحـة العـروسِ حتّـى تمشَّـتْ بـدمٍ جميـسِ
يـا طَسمُ مـا لقيـت مـنْ جَـديس هلكـتِ يـا طسـمُ فهيْـس هَيْـس

* ولما فرغُوا من الأشْرافِ ، شدّوا على السّفْلَةِ وغوغاء النّاس ، فلم يدعوا منهم أحداً ، فقال الأسودُ في ذلك:

ذُوقـي ببغيـكِ يـا طَسْـمٌ مجلّلـةً فقد أتيتِ لَعَمري أعجبَ العَجبِ
إنّـا أبينـا فلـمْ ننفـكّ نقتُلهـم والبغـيُ هيَّـجَ منّـا سَـورةَ الغَضَـبِ
ولـنْ يعـودَ علينـا بغيُهـم أبـداً ولنْ يكونُوا كذي أَنْفٍ ولا ذَنبِ
وإنْ رعَيْتُـم لنـا قُـربـىٰ مـؤكَّـدةً كنّا الأقارب في الأرحامِ والنَّسب[١]

* وهكذا تخلّصَ النّاسُ من ظُلمِ عمليق ، وكانت عُفيرةُ هي السَّبب في القَضاءِ عليه ، وبعده قُضي أيضاً على الفطيون بسبب امرأة أيضاً في يومِ زفافِها[٢].

---

(١) انظر: المحاسن والأضداد (ص ٢٧٠ ـ ٢٧٢) ، ونهاية الأرب (٣٣٩ ـ ٣٤١) ، والروضة الفيحاء (ص ٣٠٤ و٣٠٥) ، والأغاني (١١/١٦٨ ـ ١٧١) مع الجمع والتصرف ، وانظر: شاعرات العرب (ص ٢٥٣).

(٢) الفِطيون ، أو الفيطون ، له قصة تشبهُ قصّة عمليق ، وجاءتْ في كتاب «المحاسنِ والأضداد» حيث قال: «ومثلُه ـ أي مثل عمليق ـ الفِطيون ، مَلِك تِهامة والحجاز ، فإنّه سَلَكَ مَسْلك عمليق في مُلْكِ طسم وجديس في أمرِ النّساء ، فأمرَ ألا تُزفَّ منَ اليهودِ في مملكته امرأةٌ إلا وبدؤوه بها ، فلبثَ على ذلك عدّة أحوال ، حتى زُوّجتِ امرأةٌ من اليهود من ابنِ عم لها ، وكانت ذات جمالٍ رائع ، وكانت أختَ مالكِ بنِ عجلان منَ الرّضاعة ، فلمّا أرادوا أنْ يُهدوها إلى زوجِها ، خرجت إلى نادي الأوسِ والخزرجِ رافعةً ثوبَها إلى سرّتها ، فقام إليها مالك بن العجلان فقال: ويحكِ ما دهَاك؟ فقالت: وما يكونُ منَ الدّاهية أعظم من أنْ يُنْطَلَق بي إلى غيرِ بعلي بعد ساعة؟ فأنفَ من ذلك أنفاً شديداً ، فدعا ببزّةِ امرأة فلبسَها ، فلمّا انطلقوا بالمرأةِ=

* ويعلّقُ الدكتور أحمد الحُوفي على ذَيْنِكِ القصّتَيْن: قصّة عمليق، وقصّة الفطيون، فيقول: «وهذه القصّةُ وتلك تغايران ما كان العربُ يأخذون أنفسَهم به من الأنفةِ والغيرة على النِّساء وشراء العِرض بالمُهَجِ والأرواح، فليسَ بمعقولٍ أن يصبروا على عهارةِ الملك وفجوره ببناتِهم حيناً من الدَّهْرِ، حتى يقيضَ الله لهم رجُلاً منهم يتنكّر ليغتالَ الملك العاهر. وإن كان الفطيون يهودياً فليس له أنْ يستبيحَ هذا العمل البشعَ المنافي لِدِينهِ، دون أنْ يجدَ حَرَداً ومقاومةً عنيفةً من شعبه ورجالِ دِيْنهِ، على أنَّ اليهودَ بالمدينةِ لم يكن عليهم ملك في أي عهد من عهودِهم. وبين القصّتيْن تشابه أو تماثل تامّ، فكلٌّ من الرّجُلين طاغية، وكل منهما يفترعُ العرائس قبل أزواجهنَّ، والنّاسُ يسكتون على هذا الجبروتِ ردحاً من الزَّمان، ثم تستثيرُ أخت أخاها في القصَّتَيْن، فيقتل الملك الظّالم... وهذا التّماثل التّام يحملُ على استبعاد القصّتَيْن كلتيهما بهذا التَّفصيل»[(١)].

* وعلى الرغمِ من أنّنا نوافقُ الدكتور الحوفي في رأيه أو فيما ذهبَ إليه من استنتاج، فإنّ العفّة رمزُ المرأةِ العربيّةِ، وشعارها، ولعلّ أحداً قد حاولَ أنْ يعتدي على عُفيرة بنت عباد، أو حاول أنْ يخدشَ شرفها

= إلى الفطيون صارَ كواحدةٍ من نسائِها اللواتي ينطلقنَ بها متشبهاً بامرأة وقد أعدّ سكّيناً في خفّه، فلما دخلتِ المرأةُ على الفطيون مالَ مالك إلى خزانةٍ في ذلك البيت فدخلَها، فلما خرجتِ النّساء، ودخلتِ المرأةُ قام إليها ليفترعَها، فخرجَ إليه مالك بالسّكين فوجأه فقتلَه، ثمّ قال لليهود: دونكم جنوده فاقتلوهم، فاجتمعتْ عليهم فقتلوهم عن آخرهم. (المحاسن والأضداد ص ٢٧٢ و٢٧٣).

(١) انظر: المرأة في الشعر الجاهلي (ص ٣٥٩ و٣٦٠). وهذا استنتاج جميل من الدكتور الحوفي، ونحن بدورنا نشك في صحة قصة عفيرة بنت عباد إذ لا يُعقل أن تستمر أعمال عمليق وفساده إلى أن يقتله أخو عفيرة...

فاستنجدت بأخيها الذي قضىٰ على المعتدي ، ثمّ جاءتِ الأخبارُ والرّوايات فجعلَتْ من الحبَّةِ قبّةً.

* على أنَّ قصصَ العربِ لا تخلو من ذِكْرِ مواقف عظيمة تَشهد للمرأةِ العربيّةِ وللمرأةِ المُسلمة بالعفّة والنّقاء والصَّفاء ، وفي تاريخِ المرأةِ المسلمةِ موقفٌ في غايةِ الحزْمِ والطَّهارةِ ، وذلك في المدينةِ المنوّرةِ في عَهْد سيّدنا وحبيبنا محمّد ﷺ.

* فقد قام يهودُ بني قينقاع بنقضِ العهدِ الذي بينهم وبين رسولِ الله ﷺ والمسلمين ، ويتلخّص أمرهُم فيما يلي حَسَب ما جاءَ في كتب السِّيرة والمغازي.

* ذكرتِ المصادرُ المتنوعة أنَّ امرأةً من نساءِ العرب ، قد ذهبتْ إلى سوقِ بني قَينقاع ، وكانت قد جَلَبت شيئاً تبيعُه هنالك في سوقِ أولئك الأوغاد الملاعين ، الذين رضعُوا الغدرَ والخيانة والخسّة والدّناءة والصَّفاقة ، فلما باعت تلك المرأةُ العربيّة ما جلبَتْه ، انطلقت فذهبت إلى صائغٍ يبيعُ الذَّهب والحلي والجواهر في السُّوق ، وهذا الصَّائغ يهودي أيضاً يحملُ الحقدَ بين جنبَيْه على العفّة والطَّهارة ، وعلى الرّسولِ ﷺ والمسلمين . . . كانتِ المرأةُ تريدُ شراء شيءٍ من الحلي من عند ذاك الصَّائغ اللعين.

* كانتِ المرأةُ العربيّة متنقبةً نقاباً كاملاً بحيثُ لا يظهرُ من وجهها شيءٌ مطلقاً ، كما هي عادةُ النّساء العربيّات اللاتي كُنّ يتنقبنَ صيانةً وعفَّةً؛ خلافَ اليهودِ واليهوديات الذين تمادوا في الشّرّ ، ولم يعبؤوا بالقيمِ الخلقيةِ ، والتَّقاليدِ العربيّة الكريمةِ؛ فقد كان عند الصّائغ اليهودي بعض اليهود الأخابثِ ممن سوّلت لهم أنفسُهم المشوّهةُ أمْرَ السُّوء ، فطلبوا منَ المرأةِ العربيّة أنْ تكشفَ النّقاب عن وجهها ليروه ، وجعلُوا يريدونها على

كشْفِ وجهها ، فأبَتْ ورفضت ، فعمدَ الصَّائغُ الملعونُ إلى عملٍ مشينٍ ، فقد عَقَدَ طرفَ ثوبها إلى ظهرِها وهي لا تشعرُ ، فلما قامَتْ انكشفَتْ عورتها ، فضحكوا منها وسخروا سخريةً شديدةً ، وأعجبهم ما صنعُوا من كَونهم استطاعُوا بخبثِهم أنْ يكشفُوا عورةَ امرأةٍ عربيةٍ حرّةٍ متنقّبةٍ ؛ ولا شكّ في أنَّه عبثٌ من قومٍ مفسدين في الأرضِ ، لا يقدّرونَ الأخلاق والمُثُل ، ولا يقدّرون عاقبةَ ما جَنَتْ أيديهم الغادرة ، ونفوسُهم الفاجرةُ المريضةُ الدّنيئة .

* ولما أحسَّتْ تلك المرأةُ العربيّةُ العفيفةُ أنَّ عورتَها قد كُشِفَتْ بفعلِ ذلك الصَّائغِ اللعين الحقيرِ الخبيثِ ، جلستْ ثانيةً مكانَها ، وصاحَتْ واستغاثت ، بينما كان أولئك اليهودُ العابثون يضحكُون منها ، ويسخرونَ ويستهزئون بها استهزاءَ الشَّامتين ، هنالك سَمعَ استغاثِتَها رجلٌ من المسلمين ، فوثبَ على الصَّائغِ اليهودي فقتلَه وجعلَه كأمْسِ الدَّابر ؛ وهناك تجمَّعُ اليهودُ الخبثاءُ على ذلكم الرجل المُسلم الشَّهم فقتلوه ، فاستصرخَ أهلُ المسلم المسلمينَ على اليهودِ الغادرين الخُبثاء .

* ولا تنسَ ـ أيّها القارىء الحبيبُ ـ ما لهذا العملِ الدّنيء من إثارةِ النّفوسِ العربيةِ التي جُبِلت على حمايةِ الأعراض ، وصيانةِ النّساء من مثلِ هذا العَبَث ، والاستهانةِ بكلّ شيء في سبيل الشَّرف والكرامةِ .

* وبسرعةٍ تنادىٰ المسلمون ، فجاؤوا سِراعاً للنَّجدة ، ولم يجدِ النَّبيُّ ﷺ بدّاً من غزوِهم ، وقد نقضُوا العهدَ بهذهِ الفعْلَة النّكراءِ والجريمةِ السَّوداء ، والطَّعنة الرّعناء ، وحاصرهم خمس عشرةَ ليلةً ، وتبيّن لليهودِ أنَّهم أمام قوّة محمديّةٍ لا قِبَلَ لهم بها ، وتذكّروا أنّهم مأخوذونَ بإساءتهم واعتدائِهم على امرأةٍ عربيةٍ مُسْلمة ، وقتْلهم أحدَ المسلمين .

* واستشارَ سيّدُنا وحبيبُنا رسولُ اللهِ ﷺ كبارَ أصحابِهِ ، فأشاروا

بقتلِهم ، وكان لهم حليفان: سيّدنا عبادةُ بنُ الصَّامت الأنصاريّ الخزرجيّ الـذي تبـرّأَ إلـى اللهِ ورسـولـه منهـم وقـال رضـي الله عنـه وأرضـاه: «يا رسولَ اللهِ ، أتـولّـى الله ورسولـه ، وأبـرأُ من حِلْـفِ هـؤلاء الكفّـار وولايتهم».

* وأمّا حليفُهم الآخر فهو عبدُ الله بنُ أبي ابن سلول زعيمُ المنافقين ورأْسُهم ورئيسُهم الذي ألحَّ على النَّبيِّ ﷺ فيهم حتّى قَبِلَ شريطةَ أنْ يخرجُوا من المدينةِ صاغرين ولهمُ النّساءُ والذّريّة ، وللمسلمين الأموال.

* واستسلم اليهودُ ، وألقوا أسلحتهم ، ورضُوا بالحكْمِ النّبوي ، وخرجُوا من المدينةِ ، ولنستمعْ إلى هذه التّغريدةِ الجميلةِ التي ترسمُ عدوانَهم وتتحدَّثُ عنِ استسلامِهم:

قـامَ اليهـودُ بنقْـضِ عَهْـدِ المصطفـىٰ متعمِّـديـن
إحـدىٰ النِّسـاء المسلمـاتِ غَـدَت لسـوقِ الفَـاسقيـن
بـاعَـتْ لمـا جلبَتْـه فـي سـوقِ اليهـودِ المُجـرميـن
ذهَبَـتْ إلـىٰ سـوقِ الجـواهـرِ تَشْتَـري أو تستبيـن
جلَسَــتْ إلــى أحــدِ اليهــودِ إذا بــهِ وغْــدٌ لَعِيــن
فـأرادَ كشْـفَ خمـارِهـا فـأبَـتْ إبـاءَ الـرَّافِضيـن
وهنـاكَ كـانُـوا خَلْفَهـا بعـضُ اليهـودِ الـواقفيـن
عقــدُوا لطــرفِ ثيـابِهـا مــنْ خلفِهــا مُتَسلّليــن
همّــتْ تــريــدُ الانصــرافَ لتــأْمَــنَ المُتطَـاوليـن
كشَفُــوا لعــورتهــا بِحِيلَتِهــم فَصَــاروا ضَـاحِكيـن
صــرخَــتْ فجـاءَ ملبّيـاً أحــدُ الــرّجـال المُسلميـن
فــي ســرعــةٍ قَتَــلَ اليهــوديَّ عبــرةً لــلآخــريــن
لكــنْ أحــاطَ بــه اليهــودُ فمــزّقُــوه كمُعْتــديــن

فــوراً تنــادىٰ المسلمــون فــأسْــرعُــوا متجمّعيــن
ولقــد أحــاطُــوا بــاليهــودِ وحــاصــروهــم قــاهِــريـن
بعــدَ الحصــار استسلمــوا بــالحُكْــمِ للهَــادي الأميـن

* وهكذا نرى أنّ العفَّةَ وطهارةَ الأثوابِ من سماتِ المرأةِ العربيّة ، بل إنَّ بعضَ النّساء اشتهرن بالعفّةِ ، وأصبحَ لقب العفّةِ يلتصقُ باسمهنّ ، فلا يُعرفن إلا به ، ومن أمثلةِ ذلك ليلىٰ بنت لكيز المعروفة باسم «ليلى العفيفة» ، وقد توسعنا بها في كتابنا «نساء في قصور الأمراء»[1] .

* أمّا ضيفتنا عُفيرة بنتُ عباد فلا نعلمُ منْ أخبارِها بعد تلكم الحادثة شيئاً ، وتسكتُ المصادر بعد ذلك عن أخبارِها ، لكنها تظلُّ من أعلامِ نساءِ المشرقِ العربيّ اللواتي أثرين التَّاريخ النّسوي برقائقِ الأخبار ورائقِ الأشعار؛ وكُنّ مضربَ المثلِ في العفّةِ والإباء.

* * *

(١) اقرأ سيرة ليلى العفيفة في كتابنا «نساء في قصور الأمراء ص ٤٧٠ ـ ٥٠٠) تجد عفة المرأة العربية في غابر الأزمان.

عِنبة بنت عفيف

* ابنها: حاتم الطائي؛ المشهور بالكرم والجود والسخاء، وكانت كابنها شاعرة، معطاء، سخيّة.
* كانت أقرى الناس للضيف، ولا تردُّ سائلاً، ولا طالب معروف.

المَـرْأَةُ وَالسَّخَـاءُ:

* في تاريخِ الجودِ تبرزُ أسماءُ نساءٍ كثيراتٍ في مشرِقنا العربيّ قد ضربن القـدحَ المعلّىٰ فـي هـذا المضْمَـار ، حيـث جُبِلْـنَ علـى الكـرمِ والجـودِ والسَّخاء ، فكان البذلُ سجيةً فيهنّ ، وطبعٌ لا تستطيعُ إحداهنَّ أَنْ تتخلّىٰ عنه ، بل تتحلّىٰ فيهِ ، وتعتبَرهُ أجْمَلَ من الحُليّ والحُلل.

* وفي تاريخِنا العربيّ أمثلةٌ على الكريماتِ اللواتي علمْنَ أنَّ اللهَ قد تكفَّل بالأرزاقِ ، وأنَّ على المرءِ أنْ يعطيَ ويجودَ ، فالمالُ غادٍ ورائحٌ ، ومنْ هؤلاء النّسوة الكريمات واحدة من شواعرِ العربِ وكرمائهنّ اللاتي يُضربُ المَثَل بجودهنّ وتدعى ثُبيتةُ بنتُ مرداس بن قحفان العنبريّة إحدى كريماتِ عصْرِها ودهرِها.

* كانت ثبيتةُ ابنة مرداس واحدةً من شاعراتِ العربِ وبليغاتهنّ ، وكانت شديدةَ الكرمِ ، كما كان زوجُها رجُلاً كريماً لم يوجدْ أكرمُ منه في زمانِه ، ويبدو أنَّه كان قريبها.

* قيل: إنّ أخا امرأته قد أتاهُ يوماً فأعطاهُ بعيراً من إبلهِ ، وقال لامرأتِهِ ثُبيتة: هاتي حَبْلاً يقرنُ بهِ ما أعطيناه إلى بعيره، ثمّ أعطاه بعيراً آخر، وقال: هاتي حَبْلاً، ثمّ أعطاهُ ثالثاً؛ فقال: هاتي حبلاً؛ فقالت: واللهِ ما بقيَ عندي حَبْلٌ...

فقال: عليَّ الجِمالُ ، وعليكِ الحِبَالُ.

فرمَتْ إليه خمارَها ، وقالت: اجعلْهُ حَبْلاً لبعضها ، فأنشأَ يقُول:

لا تَعـذُليني فـي العَطـاءِ ويسّري ⁂ لكـلِّ بعيـرٍ جـاءَ طـالِبُـه حَبْـلا
فَـإنّـي لا تَبْكـي علـيَّ أفـالُهـا ⁂ إذا شبعَتْ من روضِ أوطانِها بَقْلا
فَلَـمْ أرَ مثـلَ الإبـلِ مـالاً لِمُقْتَـنٍ ⁂ ولا مثـل أيّـامِ الحقـوق لهـا سُبـلا

فأجابَتْه ثُبيتةُ وأنشدتْ:

حَلَفْتُ يميناً يابنَ قُحفان بالذي ... تكفَّلَ بالأرزاقِ في السَّهْلِ والجبل
تزالُ حبَال المُحصدات أعدَّها ... لها ما مشَى منها على خُفّه جَمَل
فأعْطِ ولا تبخلْ لمنْ جاءَ طالِباً ... فعندي لها خطمٌ وقد زالتِ العِلل

* وتروي الأخبارُ أنّه كان هناك نساءٌ كريمات(١) وربّات أدبٍ ، وأنَّه قد نزلَ ببعضهنَّ ضيفان ، فأكرمْنَهم وأفضْنَ عليهم من جودهنَّ .

* ويذكرُ الأخباريّون أنَّ أختَ حارثةَ بن لأم الطَّائية قد فعلَتْ ذلك ، وكذلك أمّ شَذرة(٢) أمّ الزّبرقان بن بدر ، فقد أكرمتِ الحُطيئةَ الشَّاعر وأولادَه أيّما إكرام .

---

(١) منَ النّساءِ السَّخيات المشتهراتِ بالكرم في مشرقنا العربيّ : عوانَةُ بنتُ زيد الحنفية المعروفة باللافظة لِسَخائها ، وكذلك خبيبةُ بنتُ عبد العزّى الذّبيانية العوراء ، وهي شاعرةٌ منْ شواعرِ العرب ، وكانت تُوصف بالكرم والسَّخاءِ والجودِ ؛ ومن شعرِها :

إنّي وربّ الرّاقصات إلى مِنىٰ ... بجنوبِ مكّةَ هديهنّ مقلَّدُ
أولي على هُلك الطعام أليّة ... أبداً ولكنّي أبينُ وأرشدُ
وصّى بها جدّي وعلّمني أبي ... نفْضَ الوعاء وكلّ زادٍ ينفدُ

ـ ولعلَّ طرفةَ بنَ العبد البكريّ قصد اللافظة في شعرِه عندما قال :

يداك يدٌ جودُها يُرتجى ... وأخرىٰ لأعدائِها غائِظة
فأمّا التي خيرُها يُرتجى ... فأجودُ جوداً منَ اللافظة
وأمّا التي شرّها يُتّقى ... فنفسُ العدوّ لها فائظة

(٢) «أمُّ شذرة» : هي أمُّ الزّبرقان بن بدر ، وهي أيضاً عمّةُ الفرزدق همامُ بنُ غالب الشّاعر المشهور ، وهي بنتُ صعصعة بن ناجية المجاشعيّة ، واسمها هُنيدة . وتروي الأخبارُ التي وصلت إلينا أنَّ الشّاعر الحُطيئة نزلَ بها ؛ وكانَ الحطيئةُ دميماً سيىء الخلْقِ ، لا تأخذُه العينُ ، ومعه عيالٌ كذلك ، فلمّا رأت أمُّ شذرة حالَه هانَ عليها ، وقصَّرتْ به ، ولم تبلغْ ما يرضيه ، فنظرَ بغيضُ وبنو أنف النّاقة إلى ما تصنع به أمّ شذرة ، فأرسلوا إليه : أنِ ائتنا ، فأبىٰ عليهم وقال : إنَّ منْ شأنِ النِّساء التّقصير والغَفْلة . ولم يجبْهم إلى ذلك ، فدسّوا إلى هُنيدة أنَّ زوجَها يريدُ أن يتزوّجَ ابنَة الحطيئة وكانت جميلةً كاملةً ، وعندها ظهرتْ من أمّ شذرة هنيدة جفوة ، وهي في ذاك تُداري به . (الأغاني ٢/ ١٧٢ ـ ١٧٤) باختصار وتصرف .

* ومن هؤلاء الكريماتِ اللواتي عطّرنَ تاريخَ الكرمِ بجودهنّ ، وكُنَّ من أسخىٰ النّساء وأكرمهنّ عنبةُ بنتُ عفيف بن عمرو بن امرىء القيس الطّائية[1] ؛ أمّ حاتم الطّائي التي قيل بأنّها كانت أسخىٰ نساءِ العرب ، حيث كانت في منتهىٰ الجودِ والبذلِ والسَّخاء .

لا أَمْنَعُ سَائِلاً ما حَييْتُ :

* لم تكنِ المصادرُ كريمةً علينا كَكَرمِ عنبةَ أمِّ حاتم ، فقد ضنَّتْ علينا في كثيرٍ من أخبارِها ، ولم تنفحْنَا إلا بقطراتٍ لا تبلُّ الصَّدى ، ولكنّها كانتْ جميلةً كقَطْر النَّدى ، كما أنَّها تفيدُ في رسمِ بعضِ ملامحِ الكرمِ عند هذه المرأةِ السَّخيةِ الشّاعرةِ المعطاءِ المِتْلافِ للمالِ . . .

* فقد كانت عنبةُ ابنة عفيف في الجودِ بمنزلةِ ابنها حاتم ، وكانت لا تدخرُ شيئاً ، ولا يسألُها أحدٌ شيئاً فتمنعَه ، حتى غدتْ بذلك أشهرَ من نَجْم الثّريّا في قومِها ، وبينَ نساءِ العرب ، ولهذا فقد ملَّها أهلُها وحَجروا عليها ، وكرهُوا جودهَا وسخاءَها . قال ابن قتيبة : «وكانت عنبةٌ لا تليقُ سيئاً سخاءً وجُوداً»[2] .

* وفي سخائِها يذكرُ الأصفهاني قصَّةً مفادها : «أنَّ عنبةَ بنت عفيف وهي أمُّ حاتم كانت ذاتَ يسارٍ ومالٍ ، سخيّةَ اليد ، وكانت من أسخىٰ

---

(1) الشعر والشعراء (١/ ٢٤٢ و٢٤٣)، والأغاني (١٧/ ٣٦٥ و٣٦٦) ، وديوان حاتم الطائي وأخباره (ص ١٠)، وعيون الأخبار (١/ ٣٣٦) ، ومجمع الأمثال (١/ ١٢٣) ، والأخبار الموفقيات (ص ٤٣٨)، وسرح العيون (ص ١١٦ و١١٧)، وأعلام النساء (٤/ ١١ و١٢)، والمستجاد من فعلات الأجواد (ص ٧٠ و٧١)، وشاعرات العرب (ص ٢٩٠) وغيرها كثير .
وقد جاء في بعض المصادر أن اسمها «عِنَبة» بكسر ففتح ، وفي الأغاني «عتبة» وفي الأخبار الموفقيات «النوار» وفي بعض المصادر الأخرى «غنية» .

(2) الشعر والشعراء (١/ ٢٤٣) .

النَّاس وأجودِهم ، وأقراهم للضَّيف ، لا تردُّ سائلاً ، ولا طالبَ معروفٍ ، وكانت لجودِها لا تلقى شيئاً تملكُه ، بل تَهَبُ ما عندها للسَّائلين.

* ولما رأىٰ إخوتُها إتلافَها للمال ، وهِبَتَها لما تملكُ وسخاءها ، أفزعَهم هذا الجود ، وائتمروا بينهم أنْ يمنعوهَا مالَها ، ثم إنّهم حجروا عليها ولم يعطوهَا شيئاً ، وحبَسُوها في بيتٍ سنة.

* وظلّوا كذلك دهْراً لا يُدفعُ إليها منْ مالِها شيءٌ ، بل كانوا يطعمونَها قوتَها ، ولا يزيدون عليهِ ، وذلك بقدرِ ما يمسكُ الرّمقَ منَ المطعمِ ، لعلّها تكفُّ عمّا كانت عليهِ ، حتى إذا ظنُّوا أنّهم نجحُوا في خطّتِهم ، وأنَّ أختَهم عنبة قد وجدَتْ صعوبةَ ذلك وألَمه ، وأنّها قد ذاقَتْ وقْعَ العُسْرِ ، وطعمَ البؤسِ ، وعرفَتْ فَضْل الغنىٰ والمالِ ، لعلَّها تكفُّ وترعوي عن إتلافِ مالها؛ وعندها أخرجوها من محبسها ودفعُوا إليها صِرمة[1] من إبلها ، وما علموا أنَّ منْعَهم أختَهم من الجودِ ، وحرمانهم لها قرابة سنةٍ منَ الزَّمان قد زادَ من عزمها على أن تكونَ أسخىٰ يداً من ذي قبل ، وأشدّ كرماً ، ولا تُقَصِّر مهما كانتِ الأحوالُ والظُّروفُ ، وكيف تقلعُ عن الكرمِ والسَّخاء ، وقد ذاقتْ آلامَ كلّ محتاجٍ ، وما يقاسيه من أَلَمِ الفَقْر والعوز؟!

* ولم تمكثْ عنبةُ فترةً بسيطةً حتى أتَتْها امرأةٌ من قبيلةِ هوازن تستجديها ، وكانت هذه المرأةُ تأتيها كلّ سنةٍ تسألُها ، وقد عوَّدتْها عنبةُ بنت عفيف على العطاءِ حتى وثقتِ المرأةُ الهوازنيّةُ بذلك ، وأصبحَ عطاءُ عنبةَ لها عادة.

* ولما رأتْ عنبةُ المرأةَ ضحكَتْ واستبشرتْ وقالَتْ لها: يا هذهِ ، دونَك هذه الإبل فخُذِيْها جميعها ، فواللهِ لقد عضَّني الدَّهر بِنَابِه عضّةَ لئيمٍ ، ولقد مسّني منَ الجوعِ ما آليتُ معه ألا أمنعَ سائلاً شيئاً ما حييتُ. . . فأخذتِ المرأةُ الإبلَ وانطلقتْ تثني عليها بلسانِ الشّكْر. .

---

(١) «صِرمة»: الصرمة بكسر الصاد: القطعة من الإبل ما بين العشرين إلى الثلاثين.

* ولما انطلقتِ المرأةُ الهوازنيّةُ ، أنشأتْ عنبة تتحدَّثُ وهي تذكرُ كيفَ أنَّ الجوعَ قد نشبَ مخالِبَه بها وعضَّها عضّةً منكرةً ، ثمّ توجِّهُ خِطَابَها لأولئكَ اللائمين ، وأولئك العذّال الذين يمنعونَها من الجودِ الذي فُطِرَ ووُلِدَ معها ، فكيفَ تستطيعُ أنْ تتركَ طبيعةً وُلدَتْ معها؟ اسمعْ إليها تقول:

لَعَمري لَقِدْماً عَضَّنِي الجوعُ عضّةً ... فآليتُ ألا أمنعَ الدَّهْر جائِعا
فقُولا لهذا اللائمي الآن اعْفِني ... فإنْ أنتَ لم تَفْعَلْ فعضَّ الأصابِعا
فماذا عسَاكم أنْ تقولُوا لأختِكم ... سوى عذلِكم أو عذلِ مَنْ كانَ مانعا
وماذا تَرونَ اليومَ إلاّ طبيعةً ... فكيفَ بتركي يا بنَ أمِّ الطَّبائعا»[١]

* وبهذا التّصرّفِ الحسنِ الوضيءِ عَلِمَ إخوةُ عنبة أنَّ ما صنعوه كان وَبالاً عليهم ، فتركوها على سجيّتها.

* حقاً ـ عزيزي القارىء ـ كيف يتركُ المرءُ الطَّبائع[٢] ، لا سيما إذا كانتِ الطَّبائعُ طبائعَ جودٍ وسخاءٍ وكرم ؟![٣].

---

(١) انظر: الأغاني (١٧/ ٣٦٥ و٣٦٦) بشيء من التصرف. وانظر كذلك ديوان حاتم (ص ١٠) ، وسرح العيون (ص ١١٦ و١١٧) ، والشعر والشعراء (١/ ٢٤٢ و٢٤٣) ، وعيون الأخبار (١/ ٣٣٦) مع الجمع والتصرف.

(٢) من روائعِ ما يُذكَرُ في الطَّبائعِ المتشرِّبةِ بالجودِ ما وردَ عن يزيدَ بنِ المهلّب «أنّه كانَ مُسافراً بصحبةِ ابنه معاويةَ بنِ يزيد ، فمرَّ بامرأةٍ بدويّةٍ ، فاستضافتْهُما ، ومنْ ثمَّ أحسنَتْ نزُلَهما ، فذبحتْ لهما عنزاً ، فلمّا أكلا ، قال يزيدُ لابنهِ: ما معكَ منَ النَّفقة؟ قال: مئةُ دينار.
قال يزيدُ: أعْطِها إيّاها.
فقال له ابنهُ: هذه امرأةٌ فقيرةٌ ، يرضيها القليلُ وهي لا تعرفُك.
فقال يزيد: إنْ كانَ يرضيْها القليلُ ، فأنا لا يُرضيني إلا الكثير. . .
ثم أردفَ قائلاً لابنه: وإنْ كانتْ لا تعرفُني فأنا أعرفُ نفسي. . ».

(٣) ممّا جادتْ به القريحةُ هذه الجملة المليحة في الجودِ والسَّخاء وهي قولُنا: «لِلْجُودِ لذّةٌ لا يُدْرِكُهَا إلا الأسْخِيَاء».

عِـنَـبَـةُ وَابنُـهَا حَاتِـم :

* تذكرُ المصادرُ التي بين أيدينا أنَّ عنبةَ بنتَ عفيف هذه قد تزوَّجها عبدُ الله بن سعد بن الحشرج الطَّائي ، ولا نعرفُ شيئاً يُذكَرُ عن حياتِها مع عبدِ اللهِ هذا ، ولا نعرفُ كذلك شيئاً عن حياةِ عبدِ الله بن سعد الطّائي هذا ، ولعلَّ ذلك يعودُ إلى أنَّها لم تمكثْ معه طويلاً ، لأنّه قد ماتَ بعد أنْ ولَدَتْ له حاتماً ، وربّما ولدتْ له ابناً آخر فكان أخاً لحاتم .

* وتذكرُ المصادرُ أيضاً أنَّ جدَّ حاتم سعدَ بنَ الحشرج قد قامَ بأمْرِ عنبةَ ، وأمْرِ حفيده حاتم كذلك حتى شبَّ ، وذهبَ في الجودِ مذْهَبه المعروف المُتَعالم المشهور في دنيا الأَجْواد .

* وذكروا أنَّ عنبةَ أمَّ حاتم الطَّائي قد أوتيتْ وهي حُبْلىٰ في المنَام ، فقيل لها : «أغلامٌ سمحٌ يُقال له حاتم أحبّ إليك أمْ عشرة غِلمة كالنَّاس ، ليوثٌ ساعة البأس ، ليسوا بأوغال[1] ، ولا أنْكَاس»[2]؟

فقالت عنبةُ : بل حاتم[3] .

* ونـشأَ حاتمُ في كنفِ أمّه يتحلّى بأخلاقِ جودِها ، وورثَ عنها السَّخاء والكَرَم ، قال الميدانيُّ ـ رحمه الله ـ : «وزعَمَ الطَّائيّون أنَّ حاتماً أخذ الجود عن أُمّه غنيّةَ بنتِ عفيفِ الطَّائية ، وكانت لا تليقُ شيئاً سَخاءً وجُوداً»[4] .

---

(١) «الأوغال» : الوغل : الضعيف الدنيء المقصر ، والداخل على القوم في طعامهم وشرابهم دون أن يدعى .

(٢) «الأنكاس» : جمع نكس ، وهو الضعيف المقصر عن غاية الكرم .

(٣) هـذه القصة مبالـغ فيها ، ولعلها مـن تخيـلات الـرواة والقصـاص ، والله أعلم بالصواب .

(٤) انظر : مجمع الأمثال للميداني (١/ ٣٢٧) بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

* ويبدو أنَّ حاتماً قد وافَتْه المنيّةُ قبل أمِّه عنبة ابنة عفيف ، ولا تفصحُ الأخبارُ عن ذلك جليّاً ، ولكنَّ الباحثَ يستشفُّ ذلك من خلالِ النُّصوصِ والأخبارِ التي تتراءىٰ له في بعضِ المظانّ والمصَادر.

* فقد ذكرَ صاحب «التّذكرة الحمدونيّة» قصّةً مفادُها: «أنَّ بني طيىء قد عظُم عليهم موتُ حاتم ، فادّعى أخوهُ أنْ يخلفَه في جودِه وسخائِه ، وأنْ يقريَ للضّيوف كما كان حاتم يصنعُ ذلك. ونُمِيَ الخبرُ إلى أمّه عنبة ، فقالَتْ له: هيهاتَ هيهاتَ ، وأنّى لكَ ذلك؟! فشتّان ما بين خُلُقَيْكما ، لقد وضعتُ حاتماً ، فبقيَ سبعة أيّام لا يرضَعُ حتى ألقمتُ أحدَ ثديي طِفْلاً منَ الجيران!!! ، وكنتَ أنتَ راضعاً أحدهما وآخذاً الآخر بيدكَ ، فأنّى لك؟»[1].

* وهكذا طار صيتُ حاتم في ميدانِ الجود ، وكلُّ ذلك أخذَه عن أمّه التي كادَ تاريخُ النّساء أنْ ينساها ، أو يتركَها جانباً ، ويتحدّث عن سخاءِ ابنها حاتمِ الذي بلغَ بجودِه سَمْع الجوزاء ، وبلغَ به السّها.

* ويظلُّ الجودُ والسَّخاء خُلُقاً محموداً متوارَثاً بين النّساء العربيّات في العَصْر الجاهليّ ، ولما جاءَ الإسلامُ الحنيفُ أبانَ عن خلائق كثيراتٍ منهنّ ، وظهرنَ في أجملِ آياتِ الكرم وصُوره ، وذاعت أنباءُ كرمِ وسخاءِ كثيرات من المُسلمات المؤمنات.

* وإذا كان كرمُ الجاهليّة يُرادُ به أحياناً حُسْنَ الأحدوثة ، أو التّباهي بين النّاس ، وتجنّب اللؤم ، فإنَّ جودَ المسلمات وسخاءَهُنَّ وكرمهنَّ كان

---

(١) انظر: التّذكرة الحمدونية. وهذه القصَّةُ وإن كانَ مبالَغٌ فيها ، فإنّها تدلّ علىٰ أنَّ الجودَ فطرةٌ وسجيّةٌ في الإنسانِ منذُ ولادتِه ، وينمو ذلك عنده بحسبِ البيئةِ التي ينْشأُ فيها ، وبحسبِ ما عوَّده أبوه إنْ كريماً فكريم ، وإنْ بخيلاً فبخيل حقير.

ابتغاءَ وجْهِ العليمِ الخبير ، وكان عطْفاً على المحتاجين ، وامتثالاً لأوامر العزيزِ الحميدِ الذي له مُلْك السَّموات والأرض.

* وفي سماءِ الإسلام اشتهرتْ بالجودِ كواكبُ من النّساء لا يكادُ يحصيهنّ العادُّ ، من مثلِ أمّنا وسيّدتنا وسيدة نساءِ العالمين أمّ المؤمنين خديجةَ بنتِ خُويلد ـ رضي الله عنها وأرضَاها وحَشَرنا في معيّتها ـ وكذلك أمّنا عائشة الصِّدّيقة بنت الصّديق ، وأمّنا زينب بنت جَحْش ، ثمّ أسماء بنت أبي بكر الصِّديق رضي الله عنهنَّ جميعاً ، ثمَّ تلاهُنَّ جيْلٌ منَ السَّخيّات نذكرُ منهنَّ: عاتكةُ بنتُ يزيد بن معاوية، وسُكَيْنَةُ بنتُ الحُسين ، وزبيدةُ بنتُ جعفر زوج هارون الرّشيد ، وغيرهنّ كثيراتٌ كثيراتٌ في الماضي والحاضر(١).

* لقد قوّىٰ الإسلامُ المرأةَ في الفضائلِ ، وجعلَها قسيمةَ الرّجلِ في الأجْرِ والثّواب ، اقرأْ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨].

* ونعودُ إلى ضيفتنا عنبةَ بنتِ عفيف التي اشتُهرت في سماءِ الجودِ لنودّع سيرتَها اللطيفة ، وقد عرفنا شيئاً عن جودِها ، لكنّا لم نعرفْ متى

---

(١) ممّا يلفتُ الأنظارَ في الحاضرِ جودُ كثيراتٍ من النّساء المُعاصراتِ ، وقد رأيتُ بعيني كثيراتٍ منهنّ ، ومن أمثلةِ ذلك أنّه لما دعَا خادمُ الحرمَيْن الشَّريفين الملك فهد بن عبد العزيز في السّعودية إلى التّبرع لأبطالِ القُدس في الانتفاضةِ المباركةِ في هذه الأيّام من شَهر رجَب عام (١٤٢١ هـ) رأيتُ كثيراً من النّساء في السُّعودية وغيرِها يبعثنَ بالأموالِ الكثيرةِ ويرسلنَ بحليهنَّ الغاليـة الثّمن ، وقد سجّلتْ أجهزةُ الإعلام ذلك ، ومن الأشياءِ المطربةِ الجميلةِ أنَّ إحداهنَّ قد تبرعَتْ لهؤلاءِ الأبطالِ ببيتِها واسمُها «ثريّا» ، وقد أثارني هذا المشهدُ وأبكاني ، وبهذا سجّلتِ المرأة المعاصرةُ جُوداً يحاكي جودَ المُسلمات في عَصْر الرسالة. أمّا جود الرِّجال لأبطالِ القدس فكانَ شيئاً لا يُوصف سخاءً وكرماً فجزاهم اللهُ خيراً.

توفيت ، إلا أنّنا استطعنا أن نلقيَ بعضَ الضَّوء على سيرتها لتقتديَ النّساءُ بكرمها وجودِها ، بل لتقتدي النّساء بجودِ المسلماتِ في عَصْر صدرِ الإسلام وما تلاه من عصور .

* * *

ماويّة بنت عفزر

* زوجة حاتم الطائي ، الشاعر الجواد ، مضرب المثل في العطاء .
* كانت جميلة ، سخية ، حفظ لها التاريخ سجلاً ذهبياً .

مِـنْ نِـسَـاءِ الكُرَمَـاءِ :

* اشتُهِرَ العربيُّ الأصيلُ بكرمِهِ وسخائِهِ وجودِه ، كما اشتُهِرَ ببسالَتِهِ وفروسيّتِهِ ، وكانَ الكَرَمُ والشَّجاعةُ معاً الفضيلتَيْن العظيمتيْن في الحياةِ العربيّةِ والبدويّةِ .

* وممّا لا شكَّ فيه في تاريخِ نساءِ المشرقِ العربيّ أنّهنّ أَلِفْنَ الكرمَ كما كُنَّ يألفْنَ أزواجهنَّ ، وكانتِ المرأةُ العربيّةُ المشرقيّة كريمةً سخيّةً ، لكنَّها لم تبلغْ مبلغَ الرّجُلِ في جودِه وسخائِه وعطائِه .

* ولكنَّ هناكَ نساء مشرقيّات بلغْنَ السُّها في الجود والسَّخاء ، وبلغْنَ المنتهىٰ في الكرم؛ منهنّ عنبةُ بنتُ عفيف[1] أمّ حاتم الطَّائي ، وكانت من أسخىٰ النِّساءِ، وكذلك حفيدتُها سفَّانة[2]ابنة حاتم الطَّائي(١) ، وهُنيدة بنتُ صعصعةَ زوجُ الزِّبرقان بن بدر، وسيّدتنا وأمُّنا الطَّاهرة خديجةُ بنت خُويلد[3] ـ رضي الله عنها وأرضَاها وحشَرنا في معيّتها ـ وأمّنا الصِّدِّيقةُ بنتُ الصِّديق ، وأختُها أسماءُ بنتُ الصِّديق ، وغيرهنّ كثيرات ـ رضي الله عنهنَّ وأرضاهنّ ـ.

* ومنَ الطّبيعي في الحياةِ أنْ تكونَ المرأةُ ـ بشكلٍ عام ـ أقلَّ كرماً منَ الرّجُل ، وأقصرَ باعاً منه في هذا الميدان العظيمِ ، لأنَّ مالَها أقلُّ ، وهي في أكثر الأحيانِ لا مالَ لها إلا مال الزّوج أو مال الأب ، ثم إنّها ليست مختلطة بالرّجال الأجوادِ اختلاطاً يبعثُها على الكرَمِ ، ويمهّدُ أمامَها الطَّريقَ إلى الشّهرةِ به .

---

(١) اقرأ سيرتها وأخبارها في هذه الموسوعة الجميلة .

(٢) اقرأ سيرة سفانة في هذا الكتاب .

(٣) اقرأ سيرة أمنا الطّاهرة الكريمة السَّخية خديجة بنت خويلد في موسوعتنا الشهيرة المباركة «نساء أهل البيت» (ص ١١ ـ ٧١) ففي ذلك خير كثير وبركة بإذن الله .

* ونحنُ الآن أمامَ امرأةٍ من مشاهيرِ نِساءِ الكُرمَاء في سماءِ الكرم وفضَاء الجودِ، ولولا كرمُ زوجها لما خلَّدها تاريخُ النّساءِ المشرقيّات، ولا ذكَرَها، وربّما نسيَها كما نسيَ كثيراتٍ، أو تناسىٰ كثيراتٍ ممن اشتُهِرنَ في عصرهنّ، ثم غفلَ عنهنَّ غفلةً ذهبْنَ في طيّاتِها في أوديةِ النِّسيان.

* وزوجُ ضيفتنا اليوم منْ مشاهيرِ كرماءِ عَصْره، بل الدّنيا، وكان جَواداً شاعِراً جيّدَ الشِّعر، وكان حيثما نزلَ عُرِفَ منزلُه، وكان فارساً مغواراً له في ميادين الفروسيّة صولاتٌ وجولاتٌ، وكان ظَفِراً، إذا قاتلَ غلَبَ، وإذا غَنِمَ أنْهَبَ، وإذا سُئِل وَهَبَ، وإذا أسَرَ أطْلَقَ، وإذا سابقَ سبقَ، وذكروا أنّه قسَّم مالَه بضْعَ عشرة مرّة، وكان أقسمَ باللهِ لا يقْتُلُ واحدَ أُمِّهِ.

* هذا الكريمُ هو حاتمُ بن عبد الله بنِ سعد بن الحشْرجِ الطّائي، وأمُّه عنبةُ بنتُ عفيف الطَّائية من أسخىٰ نساءِ عَصْرِها.

* وأمّا امرأتُه التي خلَّدها التَّاريخُ النَّسويّ المشرقيُّ فهي مَاويَّةُ بنْتُ عَفْزر[1] التي شهدتْ كرَمَه وسخاءَه، وعرفتْ كذلك حالَه وأحْواله وأخبارَه.

* ومن هنا اشتُهِرتْ ماويّةُ في تاريخِ النّساء، وعرفَها النّاس من خلالِ زوجِها السَّخي حاتم، ذلك الذي خلَّدها في شِعْره ونظْمِهِ على مرِّ العُصُور والأعوامِ والأيّام، فهلْ أتاكَ خبرُ ماويّة هذه؟ وهل أتَتْكَ الأحاديثُ عنها وعن أحوالِها؟ وحياتها مع جودِ حاتم وسخائِه[2]؟!

---

(١) الشعر والشعراء (١/ ٢٤٢ و٢٤٤ و٢٤٦ و٢٤٧)، وسرح العيون (ص ١١٤)، وديوان حاتم وأخباره (ص ١٥٩ و١٦٥ و١٧٩ و٢٠٩ و٢١٠ و٢١٢ و٢٨٩) ومواضع أخرى متفرقة من الديوان؛ ومجمع الأمثال (٢/ ١٠٤)، والأغاني (٢/ ٦٣) و(٥/ ٣٧٧ و٣٧٨) و(١٢/ ٣٦٤) و(١٧/ ٣٦٢ و٣٧٩ ـ ٣٨٦ و٣٩٠)، وجمهرة الأمثال (١/ ١١٩ و١٢٠)، والمستجاد من فعلات الأجواد (ص ٧١) وغيرها.

(٢) قال أبو عُبيدة: «أجوادُ العرَبِ ثلاثةٌ: كعبُ بنُ مامَةَ، وحاتِم طيىء (وكلاهما ضُرِبَ=

مَاوِيَّـةُ وَحَاتَمُ :

* اشتُهرتْ ماويّة بنتُ عفزر هذه شهرةً عظيمةً في قصائدِ حاتم الطّائي ، ومن العجيبِ أنَّ اسمهَا وردَ في قصيدةٍ واحدةٍ له ثماني مرّات[1] ، كما أنَّ اسمَها قد وردَ في قصائد أخرى مرّاتٍ ومرّات ، وكلُّها موزّعة موجودة في ديوان حاتم[2] .

* وماويّةُ هذه امرأةٌ حفلتْ بأخبارِها كتبُ الأدبِ والنّوادر والتّأْريخ والتّراجم ، وأوردوا قصَّتها بألوان وأشكال متعدّدة ، وذكروا أحوالاً مختلفةً في صِلَتِها بحاتِم الطَّائي .

= به المثَل) وهرمُ بنُ سنان صاحب زُهير». (الشّعر والشّعراء ١/ ٢٤١).

ـ وكان لحاتم قدورٌ عظامٌ بفنائه لا تنزلُ عن الأثافي ، وإذا أهلَّ رجَبُ نحرَ كلَّ يوم وأطعمَ. وقال ابنهُ عديُّ بنُ حاتم عنه : «كان حاتمٌ رجلاً طويلَ الصّمت ، وكانَ يقولُ : إذا كان الشّيء يكفيكَه التَّركُ فاتركْهُ».

ـ وأخبارُ حاتمٍ بالجودِ أكثرُ وأشهرُ منْ أنْ تُذكَر هنا ، وممّا قالَه الشُّعراء في جُودِ حاتم؛ وفي سخائِهِ المشهور قول أحدِهم :

وحاتم طيّى إنْ طوىٰ الموتُ جسْمَه ... فنَشْرُ اسمهِ في الجودِ عاشَ مخلَّدا

ـ وقال أبو تمّام الطّائي يفخر بجودِ طيىء :

أنا ابنُ الذين استُرضع الجودُ فيهم ... وسمّـي فيهـم وهـو كَهْـل ويـافِـعُ
سَمـا بي أوسٌ في السّماحِ وحـاتـمٌ ... وزيـدُ القَنـا والأثـرمـان ونـافـعُ

ـ وقال أبو الشَّمقمق يهجو بخيلاً :

لمّـا سـألتُـكَ شيئـاً ... بـذلـتَ رشْـداً بغـي
ممَّـن تعلَّمـتَ هـذا ... أنْ لا تجـودَ بشـي
أَمَـا مـررتَ بعبـدِ ... لعبـدِ حـاتـم طـي

ـ ومثل هذا كثيرٌ جداً في أدبنا العربيّ الوضيء الوضّاء.

(١) انظر : خزانة الأدب (٤/ ١٩٨ و١٩٩) ، وأوّلها :

أمـاويَّ قـد طـالَ التجنّـبُ والهجـرُ ... وقـد عـذرتْنـي فـي طـلابكـمُ عـذْرُ

(٢) راجع ديوان حاتم بن عبد الله الطّائي وأخباره في مواضعَ متفرقة.

* فقد ذكرَ البغداديُّ في «خزانته» قصّةَ ماويّة نقلاً عن الزَّجّاجي في «أماليه» قال: «أخبرنا ابنُ دُريد قال: أخبرني عبدُ الرحمن عن عمِّه، وأبو حاتم عن أبي عُبيد قَالا:

* كانت امرأةٌ من العربِ من بناتِ ملوكِ اليمن ذات جمالٍ وكمَال، وحَسَبٍ ومال، فآلت أنْ لا تزوِّجَ نَفْسَها إلا منْ كريمٍ، ولئن خطبَها لئيمٌ لَتَجْدَعنَّ أنْفَه، فتحامَاهَا النّاسُ، حتى انتدبَ لها زيدُ الخيل[1]، وحاتمُ بنُ عبد الله، وأوسُ بن حارثة بن لأم الطّائيون، فارتحلُوا إليها، فلمّا دخلُوا عليها قالت: مرحَباً بكم، ما كنتُم زوّاراً، فما الذي جاء بكم؟

قالوا: جئْنا زوّاراً خُطّاباً.

قالت: أكْفَاء كِرام.

* فأنزلَتْهُم، وفرّقَتْ بينهم، وأسبغَتْ لهم القِرىٰ وزادت فيه؛ فلمّا كان في اليومِ الثّاني، بعثَتْ بعضَ جواريها متنكّرةً في زِيّ سائلة تتعرَّضُ لَهم، فدفعَ لها زيدٌ وأوسٌ شَطْرَ ما حُمِلَ إلى كلّ واحدٍ منهما، فلمّا صارت إلى رحْلِ حاتم دفَعَ إليها جميعَ ما كان من نَفَقَتِه، وحمَل معها جميع ما حُمِل إليه؛ فلمّا كان في اليومِ الثّالث دخلُوا عليها فقالت: ليصفْ كلّ واحدٍ منكم نفْسَه في شعرِه، فابتدرَ زيدٌ وأنشأ يقول:

هَلاّ سَأَلْتِ بني ذُبيانَ ما حَسَبي ... عنْدَ الطّعانِ إذَا ما احمرَّتِ الحَدَقُ
وجَاءتِ الخيلُ مُحْمَرّاً بَوَادِرُهَا ... بالماءِ يَسْفَحُ من لبَّاتِها العَلَقُ
والجَارُ يَعْلَمُ أنّي لَسْتُ خَاذِلَهُ ... إنْ نابَ دهْرٌ لِعَظْمِ الجارِ مُعْتَرِقُ
هَذا الثَّناءُ فإن تَرْضَيْ فراضيَةٌ ... أو تَسْخَطي فإلىٰ مَنْ تُعْطَفِ العُنُقُ

---

(١) اقرأ سيرة زيد الخيل بن مهلهل في موسوعتنا «فرسان من التّاريخ» ستجد خيراً بإذن الله.

وقال أوسُ بنُ حارثة: إنَّك لتعلمينَ أنّا أكرمُ أحساباً وأشهرُ أفعالاً، من أنْ نَصِفَ أنفسنا لك، أنا الذي يقولُ فيه الشَّاعر ـ بشْر بن أبي خازم الأسديّ ـ:

إلـى أوسِ بـنِ حـارثـةَ بـنِ لأمٍ ... ليقضـيَ حـاجَتـي ولَقَـدْ قَضَـاهَـا
فَما وطيءَ الحصىٰ مثْلُ ابنِ سُعْدى ... ولا لبِـسَ النِّعـالَ ولا احْتَـذَاهَـا

وأنا الذي عُقّتْ عقيقته، وأُعْتِقت عن كلّ شعرةٍ فيها عنه نَسَمة؛ ثم أنْشَأَ يقول:

فإنْ تنكَحي مَاويّةَ الخيرِ حَاتماً ... فمـا مثْلُـه فينَـا ولا فـي الأَعـاجِـمِ
فتـىً لا يـزالُ الـدَّهْـرُ أكْبَـرَ همِّـهِ ... فكَـاكُ أسيـرٍ أو معُـونَـةُ غَـارِمِ
وإنْ تنكَحي زَيْداً ففارسُ قومهِ ... إذا الحربُ يوماً أقْعَدت كلَّ قائِمِ
وصَـاحِـبُ نَبهـانَ الـذي يُتْقَّـى بـهِ ... شذا الأَمْر عنْدَ المُعْظِمِ المُتفَاقِمِ
وإنْ تنكَحيني تنكحي غيرَ فَاجرٍ ... ولا جَـارِفٍ جُـرْفَ العَشيـرَةِ هـادِمِ
ولا مُتَّقٍ يوماً إذا الحربُ شَمَّرتْ ... بـأنفسِهـا نَفْسـي كَفعْـلِ الأشَـاتِـمِ
وإن طارقُ الأضيافِ لاذَ برحلِهِ ... وجَدْتِ ابنَ سُعدى للقِرىٰ غيرَ عائِمِ
فأيَّ فتىً أهْدى لكِ اللهُ فاقبلي ... فـإنّـا كِـرامٌ مـن رُؤُوس أكـارِمِ

* وأنشأَ حاتمٌ يقولُ:

أمَاويَّ قَدْ طالَ التَّجنُّبُ والهَجْرُ ... وقَدْ عذَرَتْني في طِلابكمُ العُذْرُ

إلى أن انتهى إلى آخرِ القصيدة ـ وهي مشهورةٌ ـ فقالت: أمّا أنتَ يا زيدُ فقد وترتَ العرب، وبقاؤُك مع الحرّةِ قليل، وأما أنتَ يا أوسُ فرجلٌ ذو ضرائر والدّخول عليهنَّ شديد، وأمّا أنتَ يا حاتم فمرضيُّ الخلائقِ، محمودُ الشِّيم، كريمُ النَّفس وقد زوجتُك نفسي».

* ويروي «الأصفهاني» صاحب «الأغاني» هذه القصّة على غيرِ رواية «البغدادي» في «الخزانةِ»، فيقولُ ما مُفاده وما محصّله وملخّصه: «إنَّ

سيّدنا معاويةَ بنَ أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ تذاكروا عنده ملوكَ العربِ ، حتى ذكروا الزّبّاء وماويّة؛ فقال معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ: إنّي لأحبُّ أنْ أسمعَ حديثَ ماويّةَ وحاتم ، فقال رجلٌ من القوم: أفلا أحدّثك به يا أميرَ المؤمنين؟

فقال معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ: بلىٰ يا هذا .

فقالَ الرّجلُ: إنَّ ماويةَ بنتَ عفزر كانت ملكةً ، وكانت تتزوج مَنْ أرادت ، وإنّها بعثَتْ غِلْماناً لها ، وأمرتْهُمْ أنْ يأتوها بأوسمِ مَنْ يجدونَه في الحِيرةِ ، فجاؤوها بحاتِم الطّائي فأكرمته ودار بينهما حديثٌ أبانَ فيه حاتم عن عفّتهِ وطِيْبِ أَصْله ، ورحلَ عنها وهو ينشدُ قصيدةً رائية طويلة مطلعُها :

حَنَنْتُ إلىٰ الأَجْبَالِ أجْبَالِ طَيىءٍ وَحنَّتْ قُلُوصي أَنْ رأَتْ سَوطَ أَحْمَرَا

* وبعد أن انصرفَ عنها دعَتْه نفسُه إليها ، فأتاهَا يخطبُها ، فوجدَ عندها النَّابغةَ الذّبياني ، ورجُلاً من الأنصارِ من النَّبيت ، فقالتْ لهم: انقلبُوا إلى رحالِكم ، وليقلْ كلّ واحدِ منكم شِعراً يذكرُ فيه فَعَاله ومَنْصِبه ، فإني أتزوجُ أكرمَكم وأشعَركُم .

* فانصرفوا، ونحرَ كلُّ واحدِ منهم جزوراً، ولبستْ ماويّةُ ثياباً لأَمَةٍ لها، ومن ثم تبعَتْهم؛ فأتتِ النَّبيتيَّ ، فاستطعمته من جَزورهِ فأطعمَها ثيلَ جزوره ـ أي وعاء قضيبهِ ـ ، فأخذتْه ، ثم أتتْ نابغةَ بني ذبيان فاستطعمتْهُ ، فأطعمَها ذنَب جزورِه ، فأخذتْه ، ثمّ أتَتْ حاتماً ـ وقد نصَبَ قِدْرَه ـ فاستطعمتْه ، فقال لها: قِرِّي حتّى أعطيكِ ما تنتفعينَ به إذا صار إليكِ ، فانتظرتْ فأعْطاهَا من العجز والسّنام ومثلها من كاهِل البعيرِ ، ثم انصرفَتْ؛ وأرسلَ كلُّ واحدِ منهم إليها ظَهْر جَمَلهِ؛ وأهدى حاتم إلىٰ جاراتِها ما أهدىٰ إليها .

* وصبّحوها ، فاستنشدتهم ، فأنشدها النَّبيتي :

هـلاّ سَـأَلْـتِ النَّبيتيِّـن مـا حَسَبـي عنـد الشّتـاءِ إذا مـا هَبَّـتِ الـرّيـحُ

* وبعده ثلاثة أبيات ، ثم قالت له : لقد ذكرتَ مَجْهَدةً .

* ثم استنشدتِ النَّابغة ، فأنْشَدهَا يقولُ :

هلاّ سألتِ بني ذبيانَ ما حَسَبي ... إذا الدُّخانُ تغشَّى الأشَمطَ البَرمَا

* وبعده بيتان ، ثمّ قالت : ما ينفكُّ النَّاس بخيرٍ ما ائتدمُوا .

* ثم قالت : يا أخا طيّىء ، أنشدني ، فأنْشَدها :

أماويَّ قَدْ طالَ التَّجنُّبُ والهجرُ ... وقَدْ عذَرتْني في طِلابكمُ العُذْرُ

أمــاويَّ إنَّ المــالَ غــادٍ ورائــحُ ... ويبقىٰ منَ المالِ الأحاديثُ والذّكْرُ

* وبعده (١٦ بيتاً) ؛ فلمّا فرغَ حاتمٌ منْ إنشادِهِ دعَتْ بالغداءِ ، وكانت قد أمرتْ إماءَها أنْ يقدّمنَ إلى كلّ رجلٍ منهم ما كان أطعمَها ، فقدمْنَ إليهم ما كانت أمرتهنّ أن يقدمْنَه . فنكّسَ النّبيتيُّ والنّابغةُ رأسَيهما ، فلما نظر حاتم إلى ذلك رمىٰ بالذي قدمتْه إليهما ، وأطعمهما مما قُدِّمَ إليه ، فتَسلّلا لواذاً ، وقالت : إنّ حاتماً أكرمكم وأشعركم .

* فلمّا خرجَ النّبيتيُّ والنّابغةُ قالت لحاتم : خلِّ سبيلَ امرأتك ، فأبىٰ حاتمُ ذلك ، فزوّدَتْه وردَّتْه ، فلمّا انصرفَ ، دعته نفْسُه إليها ، وماتتِ امرأتُه ، فخطبَها فتزوّجَتْه ، فولدت له عديّاً ، وقد كان عديّ أسلمَ وحَسُنَ إسلامهُ ، وله أخبارٌ منثورةٌ في السِّيرةِ وكتبِ التّراجم»[١] .

* وهكذا دخلَتْ ماوّية[٢] حياةَ حاتم ، ومنذ ذلك الحين دخلتْ ماويّةُ في نساءِ التَّاريخِ ، وغدَتْ واحدة من مشَاهيرهنَّ .

---

(١) انظر : الأغاني (١٧/ ٣٧٩ ـ ٣٨٤) بتصرّف واختصار . ومن الجدير بالذكر أنَّ عديَ بنَ حاتم ليستْ ماويّةُ أمّه ، وإنّما أمّه النّوار امرأة حاتم ، والله أعلم بالصواب .

(٢) قالَ ابنُ قُتيبة : «إنَّ ماويةَ كانت من بناتِ ملوكِ اليمن» . (الشّعر والشّعراء ١/ ٢٤٧) . وقال أبو الفرج الأصفهانيّ : «إنّها ماوية بنتُ عفزر ، وتلقّبُ بالزّبّاء ، وكانت ملكة بالحيرة ، تتزوجُ مَنْ أرادتْ» (الأغاني ١٧/ ٣٧٩) . =

حَدِّثيني بِبَعْضِ عَجَائِبِ حَاتِم:

* تحتفي مصادرُنا الجميلةُ بأخبارٍ جميلةٍ عن نساءِ العرب، ومن ذلك ما ذكرَتْه امرأةُ حاتمٍ نفسُها، حيثُ قالت له يوماً: «يا أبا سفَّانة، إنّي أشتهي أنْ آكل أنا وأنتَ طعاماً وحدَنا، وليس عليه أحد.

قال: أفاشتَهيتِ ذلك؟

قالت: نعم.

قال لها: فوجِّهي، وبرّزي خيمتَكِ حيثُ اشتهيتِ، فحملتِ الخيمة إلى الجماعةِ على فرسخٍ، وأمرَ بالطَّعام فَهُيِّىءَ، وبنىٰ مَرْخاةً لِيَسْتَوِرَهَا عليها وعليه، فلما قاربَ نضج الطّعام، كشفَ عن رأسهِ ثمَّ قال:

فَلا تَطبُخِي قِدْري وسترُكَ دونَها ... علــيَّ إذاً مَــا تَطبُخيــنَ حــرام
ولكــنْ بهــذَاكَ اليَفَــاعِ فــأَوقِــدي ... بجَــزْلٍ إذا أوقَــدْتِ لا بضــرام[1]

= وفي ديوانِ حاتم أنَّ ماوية سَكُونيّة. (ديوان حاتم ص ١٦٥).
وذكر ابن عساكر «أنَّ ماوية هي بنت حجر بن النّعمان الغسّانية، كان مقامُها بدمشق وفدَ عليها حاتمُ وأوسُ وزيدُ الخيل يخطبونها». (تهذيب ابن عساكر ٣/ ١٥٧ و٤٢١).
وكان لحاتم زوجتان: ماويّة، والنّوار بنت ثرملة البحتريّة، ويبدو أنَّ حاتماً تزوَّج النّوار بعد ماوية، وجمعَ بينهما. قال أبو سورة السّنبسي: «كانتِ النّوارُ تعاتبُ حاتماً على إنفاقِ ماله، وتحثّه على ولده، وكانت ماويّة امرأته السّكونية تحضّه على نفسِها ولا تزالُ تعيب عليه في إيثار النّوار عليها. فقال لها حاتم:
أمــاويَّ قــد طــالَ التّجنّـب والهجـرُ ... وقـد عـذرتني فـي طـلابكـمُ العـذْرُ»
ويبدو أنَّ ماويّة تمادت فيما يبدو في تجنّيها، وأطالت هجرها، وأعانَها ابنُ عمّ لها يُقال له: مالك، وزيّن لها تركَ حاتم، وما زالَ بها حتى تركته ـ كما سنقرأ في سيرتها ـ.

(١) جاءتْ روايةُ البيتِ الأوّل في ديوانِه: «لا تستري قدْري إذا ما طبختها.. عليَّ إذاً ما..»؛ و«الجزْلُ»: الغليظُ منَ الحطبِ الذي له جمْرُ. و«الضّرام»: لا جمْرَ له مثل=

* ثم كشفَ السُّتور وقدّمَ الطَّعام ، ودعا النَّاس ، فأكلَ وأكلُوا ، فقالت له امرأتُه: ما أتممتَ لي بما قُلْتُ! . . فقال لها: ما بي لا تُطاوعني نفسي ، ونفسي أكرمُ عليَّ من أنْ تطاوعني علىٰ هذا»(١).

* ويبدو أنَّ جودَ حاتم وسخاءَه الشَّديدَ قد أثَّرَ أثراً عظيماً في نفسِ ماويّةَ بنتِ عفزر حتى كانت تحدّثُ بذلك مفتخرةً.

* ذكر الأصفهانيّ في «أغانيه» قصّةً عن ابن أخي ماويّة امرأة حاتم قال: «حدَّثَ الهيثمُ بنُ عدي ، عمّن حدَّثَه ، عن مِلْحانَ ابن أخي ماويّة امرأة حاتم قال:

قلت لماوية: يا عمّة ، حدّثيني ببعضِ عجائب حاتم.

فقالت: كلّ أمْرِهِ عجَب ، فَعَنْ أيّه تسأل؟

قلت: حدّثيني ما شئتِ.

قالت: أصابتِ الناسَ سنة ، فأذهبتِ الخفَّ والظّلفَ ، فإنّي وإيّاه ليلةً قد أسهرنا الجوعُ؛ فأخذَ عديّاً ، وأخذتُ سفَّانة ، وجعلنا نُعلّلهما حتى ناما ، ثمّ أَقبل عليَّ يحدّثني ويعلّلني بالحديث كي أنامَ ، فرققتُ له لما بهِ من الجهدِ ، فأمسكتُ عن كلامه لينامَ ، فقال لي: أنمتِ؟ مراراً ، فلمْ

= القصَب وما أشْبَهه. ويُقال: رجلٌ جزْلٌ: أي تامّ من الرّجال. والجزلُ أيضاً: الذي له رأيٌ فاضلٌ ، وامرأةٌ جزلة. و«الصّرام»: الرّقيق من كلّ شيء ، الواحد صَرْم. وقوله: «بهذاك اليفاع»: ما أشرفَ منَ الأرضِ.

(١) انظر: ديوان حاتم (ص ٣٢٦) نَقْلاً عن ابنِ عسَاكر (٣/ ٤٢٣ و٤٢٤).
وهكذا نلحظُ منْ هذا الخبرِ أنَّ الجودَ والسَّخاء طبيعةٌ وسجيّةٌ في نفسِ حاتم الطّائي الذي خالَطَتْ نفسُه الرأفة مع الكرمِ ، بل لم يرضَ أنْ توقدَ زوجته النّار بحطبٍ لا جمْرَ له ، وإنّما بحطبٍ له جمرٌ كبير ، وأنْ توقدَ على تلّ عالٍ ليراه النّاس فيأتوا ليأكلوا معه.

أجبْ ، فسكتُّ ، فنظرَ في فتقِ الخباء ، فإذا شيءٌ قد أقبل ، فرفعَ رأسه ، فإذا امرأةٌ ، فقال : ما هذا؟

قالت : يا أبا سفّانة ، أتيتُك من عند صبيةٍ يتعاوون كالذّئاب جوعاً .

فقال : أحضريني صِبْيانكِ ، فواللهِ لأشبعنَّهم .

قالت ـ ماويّة ـ : فقمتُ سريعاً فقلتُ : بماذا يا حاتم! فواللهِ ما نامَ صبيانكَ من الجوعِ إلا بالتَّعليل .

فقال : واللهِ لأشبعنَّ صبيانَك مع صبيانها .

* فلمّا جاءت ، قامَ إلى فرسهِ فذَبَحها ، ثم قدحَ ناراً فأجَّجها ، ثم دفعَ إليها شفرةً ، فقال : اشتوي وكُلي . ثم قال : أيقظي صبيانَكِ؛ فأيقظتْهُم ، ثمّ قال : واللهِ إنَّ هذا لَلُؤْم؛ تأكلونَ وأهلُ الصِّرْم حالُهم مثل حالكم! فجعلَ يأتي الصّرم بيتاً بيتاً فيقول : انهضُوا عليكم بالنَّار . فاجتمعوا حولَ تلك الفرسِ ، وتقنّع بكسائِه فجلسَ ناحيةً ، فما أصبحوا ومن الفرسِ على الأرضِ قليلٌ ولا كثير إلا عظمٌ وحافِرٌ ، وإنّه لأشدُّ جوعاً منهم ، وما ذاقه»[1] .

طَلِّقي حَاتماً :

* كانت ماويّةُ بنتُ عفزر من جميلاتِ النِّساء في عصرِها ، وكانت في

---

(١) الأغاني (١٧/ ٣٩٠ و٣٩١) . وتروى هذه القصّة بمعانٍ متشابهة عن زوجتِه النّوار وزادَ صاحب «الشّعر والشّعراء» عليها قوله : «فعَذَلَتْهُ على ذلك ، فأنشأ حاتمُ يقول :

مَهْـلاً نـوارُ أقلّـي اللـومَ والعَـذَلا ... ولا تقـولـي لشـيءِ فـاتَ مـا فَعَـلا
ولا تقـولـي لمـالٍ كنْـتُ مُهلكَـهُ ... مَهْلاً وإنْ كنتُ أعطي الجنَّ والخبَلا
يَـرى البخيـلُ سبيـلَ المـالِ واحـدةً ... إنّ الجـوادَ يـرى فـي مـالـه سُبُـلا
لا تعـذُلينـيَ فـي مـالٍ وصَلْـتُ بـهِ ... رَحْماً وخيرُ سبيـلِ المـالِ مـا وصـلا

ـ وهكذا كان حاتم يسارع إلى مكارم الأخلاق وإلى الجود والبذل والبر بجاراته وضيوفه ، لأن مكارم الأخلاق دليل النجاح وسبيله .

كنفِ زوجِها حاتم الطَّائي تعيشُ حياةَ الدَّعةِ في أفياءِ سخائِهِ وجودِهِ ، ولعلَّها قد وجدتْ في نفسِها شيئاً من هذا الجودِ الذي خرقَ العاداتِ ، وفاقَ كل جود.

* وكان هناك ابنُ عمّ لحاتمٍ يرقُب ما يفعلهُ حاتمُ عن جُنُبٍ ، وحاتمُ لا يشعرُ به ، ولعلَّه كان يحسدُ حاتماً حَسَداً شديداً ، فلا هو يستطيعُ أنْ يفعلَ مثل أفعالِه ، ولا هو كريمُ السَّجيةِ فيجودُ بماله ، وذات يوم دلفَ إلى ماويّة والحسدُ يأكلُ قلبَه ، وقال لها: «يا هذه ، ما تصنعينَ بحاتم؟ فواللهِ لئن مَلَكَ لَيُتلفنَّ ، وإنْ لم يملكْ ليتكلفنَّ ، ولئن ماتَ ليتركنَّ ولدك كلاًّ عليك ، وعيالاً على قومك ، وأنا لك ناصحٌ مشفقٌ ، ولكِ محبٌّ وامق ، فَطَلِّقي حاتماً ، فأنا أتزوجُ بك ، وأنا خيرٌ لكِ من حاتم ، لأنّي أكثرُ منه مالاً ، وأحسنُ منه حالاً ، وأنا أمسكُ عليك وعلى ولدك مالَهم ، وتعيشين معي عيشاً رغداً ، فمالي لك ، وأنا قعيد لك»؛ فلم يزلْ حتى طلَّقَتْ حاتماً ، وقالت: «لقد صدقتَ ، وإنَّ حاتماً لكَما ذكرتَ». .

* ترىٰ كيف طلَّقت ماويّةُ حاتماً ، وهل كانت سعيدةً مع مالك؟! هذا ما يرويه الأصفهانيّ في «أغانيه» فيقولُ: «وكان النِّساء ـ أو بعضهنّ ـ يُطَلِّقْن الرّجال في الجاهليّةِ[1] ، وكان طلاقهنّ أنّهنَّ إنْ كُنَّ في بيتٍ من شَعرٍ حوَّلْنَ

(١) كان بعضُ النّساءِ في العصرِ الجاهليّ قد امتَزْنَ بحقِّ التّطليق ، فقد ذكرَ الميداني نقْلاً عن حمزةَ في «الدّرةِ الفاخرة» (١/ ٢٢٤) قال: «كانتْ أمُّ خارجةَ ـ عمرةُ بنتُ سعد ـ ، ومارية بنت الجُعيد العبديّة ، وعاتكةُ بنت مرّة بن هلال بن فالج بن ذكوان السُّلميّة ، وفاطمةُ بنت الخُرشب الأنمارية ، والسّوّاء العَنْزيّة ثم الهزّانيّة ، وسلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد أحد بني النّجّار ، وهي أمُّ عبد المطلب بن هاشم؛ إذا تزوجتِ الواحدةُ منهنَّ رجُلاً ، وأصبحت عنده ، كان أمرُهَا إليها ، إن شاءت أقامَتْ ، وإن شاءَتْ ذهبت ، وتكون علامة ارتضائِها للزّوج أن تعالجَ له طعاماً إذا أصبحَ». (مجمع الأمثال ٢/ ١٣٣ و١٣٤). =

الخباء ، فإنْ كان بابه قِبَلَ المشرقِ حوَّلْنَه قبل المغربِ ، وإن كانَ بابه قبلَ اليمن حوَّلْنَه قبل الشّام ، فإذا رأىٰ ذلك الرّجلُ علمَ أنّها قد طلَّقَتْه فلم يأْتِها .

* وإنَّ ابنَ عمٍّ حاتم قال لماويّة ـ وكانت أحسن نساء النّاس ـ: طلّقي حاتماً ، وأنا أنكحُك ، وأنا خيرٌ لكِ منه ، وأكثرُ مالاً ، وأنا أمسكُ عليك وعلىٰ ولدك؛ فلم يزلْ بها حتّى طلَّقَتْ حاتماً ، فأتاها حاتمٌ وقد حولَتْ بابَ الخباءِ؛ فقال: يا عديُّ ، ما ترىٰ أمَّك عُدِيَ عليها؟

قال: لا أدري ، غير أنّها قد غيّرتْ بابَ الخباء ، وكأنَّه لم يفطنْ لما قال ، فدعاهُ فهبطَ به بطْنَ واد ، وجاءَ قومٌ فنزلُوا على بابِ الخباء كما كانوا ينزلُون ، فتوافوا خمسينَ رجلاً ، فضاقَتْ بهم ماويّة ذرعاً ، وقالت لجاريتها: اذهبي إلى مالك فقُولي له: إنَّ أضيافاً لحاتم قد نزلُوا بنا خمسينَ رجُلاً فأرسلْ بناقة نُقْرِهم ، ولَبنٍ نسقهم؛ وقالت لجاريتها: انظريْ إلىٰ جبينِه وفمهِ فإنْ شافَهك بالمعروفِ فاقْبلي منه ، وإنْ ضربَ بلحيتهِ على صدرِه ، وأدخلَ يدَهُ في رأسِهِ ، فاقْفلي ودعيه .

= ـ وقد وردَ في الشّعر الجاهليّ ما يثبتُ ذلك ، من ذلك قول الشّنفرى:

إذا ما جئْت ما أنْهاكِ عنه ولم أنكرْ عليكِ فطلّقيني

ـ ومنَ النّساءِ اللواتي طلقْنَ أزواجهنَّ ماويةُ بنتُ عفزر ـ ضيفتنا ـ فقد طلَّقت زوجَها حاتماً الطّائي لما تخرّقَ في كَرمهِ ، وضاقَتْ به .

ـ على أنَّ المرأةَ كانت لبقةً في تصرّفها بعصمتِها ، لا تطلّقْ زوجَها حماقةً وهوىً ، وإنّما كانتْ تحرصُ على رباطِ الزّوجيةِ ، لا تفصمُه إلاّ إذا لم تجدْ بداً من فَصْمه. فهؤلاء اللائي كانت العصمةُ بأيديهنَّ لم يتلاعبْنَ بها ، يدلُّ على ذلك أنَّ ماويةَ لم تطلّقْ حاتماً إلا بعدما يئستْ من كفّه عن التّخرقِ في كرمه ، ولخشيتها على مستقبلها ومستقبل بنيها إن أنجبت منه . ويدلّ على ذلك أنَّ رجلاً منْ آلِ أبي طالب غضبَ على امرأته يوماً فقال لها: أمركِ بيدك ، فقالت: أما واللهِ لقد كان في يدكَ عشرين سنة ، فحفظتَه وأحسنتَ صحبته ، فلا أضيعُه إذا كان في يدي ساعةً من نهار ، وقد رددتُ عليك حمقكَ ، فأعجبَه قولُها وأحسنَ صحبتها .

* وذهبتِ الجاريةُ وأتَتْ مالِكاً فوجدته متوسّداً سقاءَ لبنٍ ، وتحتَ إبطه آخر ، فأيقظَتْه ، فأدخلَ يده في رأسه ، وضربَ بلحيته على صَدْرِه ، فأبلغَتْه ما أرسلَتْها به ماويّة ، وقالت : إنّما هي الليلةُ حتى يعلمَ النّاس مكانَه .

فقال لها : اقرئي عليها السّلام ، وقُولي لها : هذا الذي أمرتُك أنْ تطلّقي حاتماً فيه ، فما عندي من كبيرة قد تركتِ العمل ، وما كنتُ لأنحرَ ناقةً صغيرةً ، وما عندي لبن يكفي أضيافَ حاتم .

* فرجعتِ الجاريةُ ، فأخبرتْ ماويّة بما رأَتْ وما سمعت منه ، وما قَال؛ فقالت لها : ائتِ حاتماً فقولي : إنَّ أضيافَكَ قد نزلُوا الليلة بنا ، ولم يعلموا بمكانكَ ، فأرسلْ لنا بناقةٍ ننحرها ، نُقْرِهم ، وبلبنٍ نسقهم ، فإنّما هي الليلةُ حتى يعرفوا مكانك .

* فأتتِ الجاريةُ حاتماً، فصرخَتْ به ، فقال حاتم : لبيك قريباً دعوتِ .

فقالت : إنّ ماويّةَ تقرأُ عليك السّلام وتقولُ لك : إنَّ أضيافَك قد نزلُوا بنا الليلة ، فأرسلْ إليهم بناقةٍ نَـنْحرها ولبنٍ نَسْقِهم .

فقال : نعم وأبي ، ثمّ قام إلى الإبلِ ، فأطلقَ ثِـنْـتَـيْن من عقالهما ، ثمَّ صاح بهما حتّى أتى الخباء ، فضربَ عراقيبهما ، فطفقَتْ ماويّة تصيحُ وتقولُ : هذا الذي طلقْتُك فيهِ ، تتركُ ولدكَ وليسَ لهم شيءٌ ، فأنشأَ حاتمٌ يقول قصيدة داليّةً مطلعُها :

هَلِ الدَّهْرُ إلا اليومُ أو أمسِ أو غدُ ... كـذاكَ الـزَّمـانُ بينَنَـا يتَـردَّدُ
يَـردُّ عَلينـا ليلـةً بَعْـدَ يـومِهـا ... فلا نَحْنُ ما نَبْقىٰ ولا الدَّهْر يَنْفَدُ

ومنْهَا :

فأقْسَمتُ لا أمشي على سرِّ جارتي ... يَـدَ الـدَّهْـر مـا دامَ الحَمـامُ يغـرِّدُ
ولا أشتـري مـالاً بِغَـدْرٍ علمتُـه ... ألا كـلُّ مـالٍ خـالَطَ الغَـدْرَ أنكـدُ

إذا كانَ بعضُ المالِ ربّاً لأهْلِهِ　　فإنّي بحمدِ اللهِ مالي مُعَبَّدُ
يُفَكُّ بهِ العاني ويؤكَلُ طيِّباً　　ويُعْطىٰ إذا ضنَّ البخيلُ المُصَرِّدُ
إذا ما البخيلُ الخِبُّ أخْمَدَ نارَهَ　　أقولُ لمن يَصْلىٰ بناريَ أوقدوا
كذاكَ أمورُ النّاسِ راضٍ دنيةً　　وسامٍ إلى فرعِ العُلا متورِّدُ
فمنهم جَوادٌ قد تلفَّتَ حولَه　　ومنهم لئيمٌ دائمُ الطَّرفِ أقودُ»(١).

* وهكذا عرفتْ ماويّةُ فَضْل حاتمِ الأجواد، وسخي الفُرسان، ولقد وضح الآن أنَّ جودَ حاتم هو سجيّة، وليس سخاؤه مجلبةً لحمدٍ أو تصيُّداً لِثَناءٍ، فقد رأيناه كيفَ أغاثَ ماويّة وضيفانها، وكان شعارُه:

لا تَعْذُليني علىٰ مالٍ وصَلْتُ بهِ　　رحماً وخيرُ سَبيلِ المالِ ما وَصَلا(٢)

* إنَّ حاتماً الطائي الرَّجلَ الفارسَ لا يستطيعُ مهما نزلَ به الحدثان ألا يعطي ممّا عنده، أو كلّ ما عنده، يتكلّفُ لذلك كلّ التّكلّف، ويتكىءُ على نفسهِ وأهلهِ، ولو لمْ يفعلْ لَشَانَهُ ذلك وعابَه؛ يقول:

وإنّي لأُعْطِي سائِلي ولَربّما　　أُكلَّفُ ما لا أستطيعُ فأُكْلَفُ
وإنّي لمذمومٌ إذا قيلَ حاتمٌ　　نَبَا نبوةً إنَّ الكريم يُعنَّفُ

---

(١) الأغاني (١٧/ ٣٨٥ ـ ٣٨٧) بتصرف يسير جداً. وانظر: الأخبار الموفقيات (ص ٤٣٠ ـ ٤٣٣).

(٢) ديوانه (ص ٢٠١) ومطلع القصيدة:

مَهْلاً نوارُ أقلّي اللومَ والعذلا　　ولا تقولي لشيءٍ فاتَ ما فَعَلا
ولا تقولي لمالٍ كنتُ مُهلكهُ　　مهلاً وإن كنتُ أعطي الجنَّ والخَبِلا
يرىٰ البخيلُ سبيلَ المالِ واحدةً　　إنَّ الجوادَ يرى في مالِه سُبُلا
إنَّ البخيلَ إذا ما ماتَ يتبعُه　　سوءُ الثّناءِ ويحوي الوارثَ الإبلا
فاصدقْ حديثَك إنَّ المرءَ يتبعُه　　ما كان يبني إذا ما نعشُه حُمِلا
ليتَ البخيلَ يراه النّاسُ كلُّهم　　كما نراهُ فلا يُقري إذا نَزَلا

والقصيدةُ مؤلّفة من (١٨ بيتاً) وهي من عيونِ شعرِ حاتم.

سآبىٰ وتأبى لي أصولٌ كريمةٌ وآبـاءُ صِـدْقٍ بـالـمـروءةِ شـرّفُـوا
وأجْعَلُ مالي دونَ عِرضي وإنّني كـذلكـمُ ممّـا أفيـدُ وأُتْلِـفُ[1]

* وكانَ ما كانَ من تكلّفِ حاتم أنْ فَقَدَ ماويّة بنت عفزر ، وقد تكاتفَتْ ماويّةُ مع النَّوارِ زوجةِ حاتم الأخرى ـ رغمَ ما يكونُ عادةً بين الضُّرّتَيْن من التّباعد والتّباغض والتّحاسد ـ على عذلِ حاتم وعلى لومهِ ، فقد رأت كلتاهما في جودِهِ خطراً يهددهما جميعاً ، فاشتدّتا عليه ، وألحّتا على أنْ يغيرَ من عاداتِهِ التي تعوَّدَ ، ولما تسامرتا الحديثَ بياضَ النَّهار ، فضيّقَتا عليه طرفاً منَ الليل ، فاسمعْ إليه يقول :

وعَـاذلتَيْـن هبَّتَـا بَعْـدَ هجعـةٍ تلُـومـان مِتْـلافـاً مُفيـداً مُلَـوّمـا
تلـومـانِ لمـا غـوَّر النَّجـم ضلَّـةً فتىً لا يرىٰ الإتلافَ في الحمدِ مَغْرما
فقلتُ وقد طَالَ العتابُ عليهما وأَوعَـدَتـانـي أنْ تبينـا وَتصْـرِمـا
ألا لا تلُـومـانـي علىٰ مـا تقـدَّمـا كفىٰ بِصُروفِ الدَّهر للمرءِ مُحْكِما
فـإنّكمـا لا مـا مضـىٰ تُـدْركَـانِـهِ ولَسْـتُ علـى مـا فـاتَنـي متنـدّمـا
فنفسـكَ أكـرمْهـا فـإنَّـك إنْ تَهُـنْ عليكَ فلَنْ تلقىٰ لها الدَّهر مُكرِما

والقصيدة طويلة وجميلةٌ تعدُّ (٤٢ بيتاً) ومنْها :

وذو اللّب والتّقوى حَقيقٌ إذا رأىٰ ذَوي طَبَـعِ الأَخْـلاقِ أنْ يتكـرَّمَـا
فَجاوِرْ كريماً واقتدحْ منْ زنادِهِ وأسنـدْ إليـهِ إنْ تطـاولَ سلّمـا
وأغْفِرُ عَوراءَ الكريمِ اصطناعَهُ وأصْفَحُ عن شَتمِ اللئيمِ تكرُّمَا[2]

(١) انظر ديوانه (ص ٢٢٤ و٢٢٥) من قصيدة تعد (١٦ بيتاً) آخرها :
وإنّـي وإنْ طـالَ الثّـواء لميـتٌ ويَضْطُمنـي مـاويّ بيـتٌ مسقّـفُ
وإنّـي لمجـزيٌّ بمـا أنَـا كـاسـبٌ وكـلّ امـرىءٍ رهْـنٌ بمـا هـو متْلِـفُ
و«يصطمني» : يضمني ويواريني.
(٢) انظر : ديوانه (ص ٢٣٥).

* بيد أنَّ ماويّةَ بنتَ عفزر زوجَهُ لم تقنعْ بما قالَ حاتم ، ولم تخلفْ وعيدَها ، وحاولَ حاتمُ على ما يبدو أنْ يترضَّاها ، فأعرضَتْ وأبتْ ، فلمْ يُبالِ حاتمُ بها هو الآخر ، فكيفَ يردُّ سائلاً أتاه؟! أو رجلاً يطلبُ نداه؟! وما ينفقهُ اليوم يأتي به الغدُ ، والإنسانُ رهْنٌ بفعالهِ ، ولن يبقىٰ له إلا ما قدّمَ من حَسَنٍ أو قبيحٍ؛ يقول لماويّة:

أمــاويَّ إنَّ المــالَ غــادٍ ورائــحُ ... ويبقىٰ منَ المالِ الأحاديثُ والذِّكْرُ
أَمــاويَّ إنّــي لا أقــولُ لســائــلٍ ... إذا جاءَ يوماً حلَّ في مالِنا نَزْرُ
أمــاويَّ إمّــا مــانــعٌ فمبيِّــنٌ ... وإمّــا عطــاءٌ لا ينهْنهُــه الــدَّهْــرُ
أَماويَّ ما يُغني الثّراءُ عن الفتىٰ ... إذا حَشْرَجَتْ نفسٌ وضاقَ بها الصّدرُ(١)

* أمّا زوجُه النّوار، فلم تهجرهُ كما هجرتْهُ ماويّة بنت عفزر، وإن أكثرتْ من لومهِ ، وأطالَتْ في عَذْلهِ ، ورأت أنَّ أهلَه وعيالَه أحقُّ بما يعطيه النَّاس ، فما الذي يخلفُه عليه هذا البذلُ؟ لا يا نوّار، سيأخذُه غيره إذا مات ، ولنْ يبقىٰ له غير سوء الثّناء كلّما ذُكرَ لبُخْلهِ وامتناعِهِ عن عونِ المُحتاج ، يقول:

إنَّ البخيــلَ إذا مَــا مــاتَ يتبعُــه ... سُوءُ الثَّناء ويحوي الوارثُ الإبلا(٢)

* ولكنّ النّوار لم تتمهّلْ ، ولم ترعوِ وتستمعْ إليه ، فهي ترى أنَّ حاتماً قد ضَلَّ الطَّريق ، وأوردَ نَفْسَه مواردَ الهلاكِ والبوار ، فلقد أهانَ مالَه وأفْنَاه ، وقد كنزَه الناس وعظّموه ، فأي منطقٍ تتفوهينَ به أيّتُها العاذلة؟!

* إنَّ من الخُسران أنْ تقارنَ النّوار حاتماً بأولئكَ الرّجال ، فما يكنزُ مالَه إلا كلّ مُمْسكٍ بخيلٍ شحيحٍ ، لئيم راغبٍ عن حميدِ الفعَال ، وماذا يجديهم المالُ إذا ماتوا؟ وهل الجودُ سيفضي بحاتمٍ إلى الموتِ هُزْلاً وجُوعاً؟!

---

(١) ديوانه (ص ٢١٠).
(٢) ديوانه (ص ٢٠١).

* أيتُها العاذلة ، هذا خُلُقي وخليقتي ، فلا تجعلي لسانك كالمبردِ فوقي ، فأريني جَواداً ماتَ جوعاً ، بل أريني بخيلاً قد عاشَ مخلّداً! يقول:

وعـاذلـةٍ هبَّـتْ بليـلٍ تلـومُنـي ... وقَـدْ غـابَ عَيُّـوقُ الثُّـريـا فعـرَّدَا
تلُـومُ علىٰ إعطـائيَ المـالَ ضلَّـةً ... إذا ضَـنَّ بـالمـالِ البَخيـلُ وصـرَّدا
تقـولُ ألا أمْسِـكْ عليـكَ فـإنّنـي ... أرىٰ المالَ عند المُمسِكينَ معبّدا
ذَرينـي ومـالـي إنَّ مـالـك وافـرٌ ... وكل امرىءٍ جارٍ على ما تعوَّدا[1]
أعـاذِل لا آلـوكِ إلّا خلقتـي ... فلا تَجْعلي فَوقي لِسَانَكِ مبردَا
أريني جَـواداً مـاتَ هُـزلاً لَعلَّني ... أرىٰ مـا تـريـنَ أو بخيـلاً مخلّـدا
وإلّا فكفّي بعض لومكِ واجْعَلي ... إلى رأيِ مَنْ تلحينَ رأيكِ مُسندا[2]

* إنَّ لكلّ كريمٍ عادةٌ نبيلةٌ تَعوَّدها منذ فُطِرَ ، ومنذ أنْ رأتْ عيناهُ نورَ الحياةِ ، ولا يألو جهداً في إتيانها مهما كلّفَتْه ، ولذلك يخاطبُ حاتمٌ من تقول له: لقد أهلكتَ في سخائِكَ وجودكَ مالَـنَا ونفسَك؛ ولكنَّ حاتماً يصحّحُ لها مفهومَها ، ويخبرها بأنَّ لكلّ امرىءٍ كريم من دهرِه ما تعوّدا ، وإنَّ له عادةً يستعيُدها:

وقائلةٍ أهلكتَ في الجودِ مالَنا ... ونفْسَكَ حتى ضرَّ نفسَك جُودهَا
فقلـتُ دعينـي إنَّمـا تلـك عـادةٌ ... لكـلّ كـريـمٍ عـادةٌ يستعيـدُهَـا[3]

---

(١) يذكرني هذا البيت ببيت جميل للمتنبي وهو مطلع قصيدة له حيث يقول:
لكـلّ امـرىءٍ مـن دهـرِهِ مـا تعـوّدا ... وعاداتُ سيفِ الدّولةِ الطّعنُ في العِدَا
(٢) ديوانه (ص ٢٢٩ و٢٣٠) والقصيدة مؤلّفة من (١٥ بيتاً)؛ ومعنى «العيوق»: كوكبٌ أحمرُ مضيءٌ بحيالِ الثّريا في ناحيةِ الشّمال، يطلعُ قبل الجوزاء ، وسمّي بذلك لأنَّه يعوقُ الدبران عن لقاءِ الثّريا. و«عرّد»: عرّد النّجم: غَار. و«صرد»: أعطىٰ القليل. و«لا آلوك»: لا أدّخر عنك شيئاً إلا خليقتي. و«لسانك مبردا»: أي تؤذيه وتأخذُه بلسانها.
(٣) ديوانه (ص ١٨٧) ، و«عادة يستعيدها»: يتعوّدها؛ والمعنى: إنّما هي شيمتي ، ولكلّ كريمٍ شيمةٌ يُعرفُ بها.

* إنّه يجبُ عليها أنْ تلومَه إذا لم يطعمْ ويكرمْ ضيفَه :

فَلُــومينــي إذَا لَــمْ أقْــرِ ضَيفــي وأكْـرمْ مُكْـرمـي وأُهِـنْ مُهينـي[1]

* وكمْ عاذلةٍ لامَتْه على جودِه ، فأخبرها بأنَّ اللهَ يخلفُ الإنفاق :

يا رُبَّ عاذلةٍ لامَتْ فقلتُ لها إنَّ علــىٰ اللهِ ممّــا ننفــقُ الخَلَفــا
لمّـا رأتْنـيَ أعطـي المـالَ طـالِبَـه فـلا أُبـالـي تـلاداً كـان أو طَـرِفـا
عدَّتْ سَماحيَ تبذيراً ولَسْتُ أرىٰ ما يجلبُ الحمدَ تبذيراً ولا سَرفا[2]

* وهكذا كانتْ حياةُ حاتم ، حياةً مفعمةً بالسَّخاءِ والجودِ ، وهذا التّصرف لم تطربْ له زوجُه ماويّة ، فكان منها ما كانَ ، وظنَّتْ أنّه سيغدو فقيراً ، فتركَتْه ، ولكنّها عرفَتْ فَضْلَه في تلك الليلة التي ضافَها عددٌ من الرّجال الذين تعودوا على جودِ حاتم و[وفي الليلة الظّلماء يُفْتَقدُ البدر] .

* ويسكتُ التّاريخُ فلا يحدثنا عن ماويّة ، وعلى الرّغم مما بدَرَ منها ، فإنَّ اسمَها سيظلُّ علَماً بارزاً بينَ النّساء .

* * *

---

(١) ديوانه (ص ١٦٠) .
(٢) ديوانه (ص٢٨٠ و٢٨١) .

المتجرّدة امرأة النّعمان

* من أعظم نساء العرب جمالاً وكمالاً ومكانة أثيرة.
* مثال المرأة العفيفة، على الرغم مما نُسِجَ حولها من قصص وأساطير.

الـمَـرْأَةُ الجَميْلَـةُ:

* اشتهرتْ هذهِ المرأةُ في عَصْرِها وما تلاه بالملاحةِ ، وبأنَّها كانت منْ أعظمِ نساء العَربِ جَمالاً ودَلالاً وكَمَالاً ، وقد داخَلَ سيرتَها وحياتَها كثيرٌ منَ الأخبارِ والرِّواياتِ المُضْطَربةِ المُريبةِ ، كما تعدَّدتِ الأهواءُ والرّواياتُ في حياتها ، واختلطت اخْتلاطاً عجيباً ، وتنوَّعَت تنوُّعاً غريباً.

* هذه المرأةُ الجميلةُ هي المُتجرِّدَة[1] امرأةُ النّعمانِ بنِ المُنذر ، تلك المرأةُ التي ملأتْ دُنيا بعضِ شُعراء عَصْرِها بجمالِها الفاتنِ ، وشغلَتْ قلوبَهم وألسنتَهم ونفوسَهم؛ كما جاءت بذلك الأخبارُ والحكاياتُ والرّواياتُ من أفواهِ الرُّواة، وكما جمعتْ بعضُ مصادرِ الأدبِ أَغْزَال الشُّعراء بالمتجرّدة[2].

---

(١) انظر: خزانة الأدب (٢/ ١١٩ و٣٩٦)؛ ولسان العرب (١١٦/٣) مادة: «جرد» ، وشرح ديوان امرىء القيس وأخبار المراقسة والنوابغ (ص ٤٢٩ و٤٣٤) ، وعيون الأخبار (٢/ ١٨٩)، والشعر والشعراء (١/ ١٦٦ و٤٠٤) ، والدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص ٤٨٨) ، وزهر الآداب (١/ ٢٢٨) ، وتاريخ الأدب العربي لعمر فروخ (١/ ٦١ و١٦٨ و١٧٩) دار العلم للملايين ـ بيروت ط ٤ ـ١٩٨١ م؛ وطبقات فحول الشعراء لابن سلام (١/ ٦٧) تحقيق محمود محمد شاكر ـ مطبعة المدني ـ مصر ـ دون تاريخ؛ والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٣/ ٢٨٨ و٤٢٠) و(٤/ ٦٣١) و(٩/ ٤٨٥ و٥٩١ و٥٩٣) ، والأغاني (١١/ ١٠ و١١ و١٤ و١٧) و(٢١/ ٥ و١٠ و١٢) ، والمحاسن والأضداد للجاحظ (ص ٢٨٠) تحقيق محمد سويد ـ دار إحياء العلوم ـ بيروت ط ١ ـ ١٩٩١ م؛ وجمهرة أنساب العرب (ص ٢٨٩) ، وتزيين الأسواق (٢/ ١٤) تحقيق د. محمد التونجي ـ عالم الكتب ـ بيروت ط ١ ـ١٩٩٣ م ، ومعاهد التنصيص (١/ ٣٣٤) ، وديوان النابغة (طبعات مختلفة) ، وغيرها كثير.

(٢) ذكرتْ كتبُ الأدبِ والأسمار أنّ المتجرّدةَ اسمها «هند بنت عمرو بن هند». وقال الأصفهانيّ: «اسمُها ملوية» ، وقيل: هند بنت المنذر بن الأسود الكلبيّة. (الأغاني ٢١/ ٦).

* ولعلَّ للبيئةِ الجاهليّةِ أثراً كبيراً في مَيْدَانِ الغَزَلِ بالمرأةِ ، فلم تكنِ البيئةُ آنذاك تجيزُ التَّغزُّلَ بالعذارىٰ ، حتى إنّهم حرّمُوا على الفتى أنْ يتزوَّجَ فتاةً تغزَّلَ بها فشَهَرها .

* ومنَ الملاحظِ أنّنا نقرأُ شَطراً كبيراً من الغزلِ الجاهليّ في النّساء المتزوّجات ، ونجد هذا اللونَ من الأغزالِ عند امرىءِ القَيْس كقوله :

فمِثْلكِ حُبْلىٰ قَدْ طَرقْتُ ومُرضعٍ   فأَلهيتُها عَنْ ذِي تَمائِمَ مُحْوِلِ[1]

* وكذلك عنْد الأعْشَى عندما يقول :

وَقَـدْ أُخـالِـسُ رَبَّ البَيْـتِ غَفْلتَـه   وقَـدْ يُحَـاذِرُ مِنّـي ثُـمَّ مَـا يَئِـلُ[2]

* وممّا لا ريبَ فيه أنَّ الشَّاعرَ الجاهليَّ ، كانَ يتغزَّلُ بالعذارىٰ ، بيدَ أنَّه كانَ أجرأَ علىٰ المتزوّجات[3] .

* وكان بعضهم غَزِلاً في زوجتِهِ ، إذ حَملَه الغَزَلُ على ذلك ، وهو وإنْ خالفَ المُتَعارَف المألوف ، ولكنَّه حَصَلَ ، فما حيلةُ الشَّاعرِ المحبّ الوَلِهِ الوامقِ إذا كان يحبُّ زوجتَه حبّاً جمّاً كما يحبُّ حبيبته؟!! . .

* تغزّلَ زهير بنُ أبي سُلمى في زوجتِهِ الأثيرة أمّ أوفى ، بل بدأَ معلَّقتَه الشَّهيرة الجميلة بالغَزَل في زوجته :

أَمِـنْ أُمِّ أوفـىٰ دمنـةٌ لَـمْ تكَلَّـم   بِحَـومَـانَـةِ الـدَّرَّاجِ فـالمُتَثلّـم

---

(١) انظر : شرح المعلقات العَشْر للشّنقيطي (ص ٦٠) ، وهذا البيتُ من معلّقته المشهورة والتي مطلعها :

قِفـا نبـكِ مـن ذكـرىٰ حبيـبٍ ومنـزلِ   بِسِقْـطِ اللـوى بيـنَ الـدَّخُـولِ فَحـومَـلِ

(٢) انظر : المرجع السّابق (ص ١٣٣) ، وهذا البيتُ من معلّقةِ الأعشى الشّهيرة ، والتي مطلعُها :

ودّعْ هُـريـرةَ إنّ الـرّكـبَ مـرتحـلُ   وهـلْ تطيـقُ ودَاعـاً أيّهـا الـرّجـلُ

ومعنى «يئل» : ينجو .

(٣) انظر : تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ (١/ ٦١) بتصرف .

* وتغزّلَ أميرُ شعراءِ العَصْر الجاهليّ وحاملُ لوائِهم في زوجته أمّ جُنْدَب ، ووصفَ جمالَها وطيْبها وإنْ لم تطيّب:

خَليليَّ مُرَّا بي عَلىٰ أُمِّ جُنْدَبِ　　لِتُقْضَى لُبَانَاتُ الفُؤادِ المُعذَّبِ
فَإنّكما إنْ تَنظرانِي سَاعةً　　مِنَ الدّهرِ تنفعْنِي لَدىٰ أمّ جنْدبِ
أَلَمْ تريَاني كُلّما جئْتُ طَارِقاً　　وَجَدْتُ بِهَا طِيْباً وإنْ لَمْ تَطَيَّبِ
عقيلةُ أترابٍ لها لا دميمةٌ　　ولا ذَاتُ خَلْق إنْ تأمّلتَ جانبِ[1]

مَعَ غَزَلِ الشُّعَرَاءِ:

* الغزلُ هو التّصابي والاستهتارُ بمودّاتِ النّساء ، وقد تحدَّثَ أهلُ اللغةِ عن الغَزَلِ ومعانيهِ ومُرادِفَاته كالنَّسيب والتَّشبيب والتّغزّل.

* ففي «مُخصّصه» يقولُ ابنُ سِيْدَه: «إنَّ الغَزَلَ تحديثُ الفتيان الجواري؛ والتّغزّل: تكلُّف ذلك ، والنَّسيب: التّغزّل بِهنّ في الشِّعر ، والتَّشبيب مثله»[2].

* وفي «اللسان» يقول ابنُ منظور: «إنَّ الغزَلَ حديثُ الفتيانِ والفتياتِ واللهوِ مع النّساء؛ ومغازلتهنّ: محادثتهنّ ومراودتهنّ ، والتّغزّل: التكلّف لذلك ، وفي المَثَل: هو أغزلُ من امرىءِ القَيْس»[3].

* ويرى ابنُ رشيق في «عُمدته» أنَّ: «التَّغزُّلَ والنَّسيبَ والتشبيبَ كلّها بمعنى واحد ، وأنَّ الغزلَ إلفُ النِّساء والتّخلّق بما يوافقهنّ ، وقد أوضحَ قدامةُ في كتابه «نَقْد الشِّعر» أنَّ الغَزَلَ غير التّغزّل»[4].

---

(١) شرح ديوان امرىء القيس للسّندوبي (ص ٦١ و٦٢) والقصيدة طويلة تبلغ (٦٦ بيتاً).
(٢) انظر: المخصص (٤/ ٥٤ و٥٥).
(٣) لسان العرب (١١/ ٤٩٢) ، وانظر: مجمع الأمثال (٢/ ٤٢٨) مع الجمع والتصرف.
(٤) العمدة (٢/ ٩٤).

* ومن المعروفِ أنَّ الشَّاعر الغَزِلَ يتغزّلُ ليعبّرَ عن عاطفةِ الحبِّ للمرأةِ التي احتلَّتْ قلبه ، واحتوتْ على لُبّه بجمالِها الذي عبرَ إلى قلبهِ ومسَّ شغافَه مسّاً رفيقاً رقيقاً ، فراحتِ الكلماتُ الهامسةُ تنطلقُ مرفرفةً على لسانهِ تصفُ مشاعره وتكشفُ عما يختلجُ بقلبهِ ويعتلجُ بنفسهِ .

* والشّاعرُ الغَزِلُ المحبُّ يعبّرُ عمّا بنفسهِ بهذا الشِّعر الحارِّ الصَّادقِ الرّائع المُتناغم ، فالعربُ أمّةٌ شاعرةٌ تمتلك ناصيةَ البلاغةِ الممزوجة بجميعِ الألوانِ والعواطفِ ، والشِّعرُ هو الفنُّ الرحبُ اللطيفُ الذي ترجموا من خلالهِ عن عواطِفِهم ، وأبحروا من خلالهِ في بحارٍ جميلة ، والغزلُ نَبْعٌ من هذا الفيضِ وذاك الفُراتُ الذي كان مع سِلْسالهِ ورقّته وسلسبيلهِ تلك المرأة الجميلة ، فهي تلهمُ المحبّين شِعراً فيه ليونةٌ ورقّةٌ وعطفٌ وإشفاق ، وإذا تمكَّن الغزلُ من الرجلِ نتجَ عنه منَ الأحاديثِ العذاب ما يطربُ الألباب .

* وجرتِ العادةُ في عَصْرِ الجاهليّة ـ وغيره ـ أنْ يتغزّلَ الرجلُ بامرأةٍ فيجعلُها بطلةَ غزلهِ ، ومُنى أملهِ ، ويلفُّ ويدورُ في أغزالِه حولَها ، ويلجُّ ويلهجُ بذكرِها ، وقد يذكرُ اسمَها وقد لا يذكرهُ ، وهي قد تكونُ امرأةً حقّاً رآها الشَّاعر فأُعْجِبَ بها ، وقد لا تكونُ امرأة معينةً خاصّة ، وإنّما امرأةٌ تخيّلها ذهْنُ الشَّاعر ، فصار يتغزّل بها ، ويلهجُ بذكرها ، ويلجُّ في إظهارِ صفاتِها ، وما قالتْ له ، وما قالَ لها ، إلى غيرِ ذلك .

* وسببُ ذلك هو أذواقُ أهلِ ذلك العَهْد ، وعادتهم في وجوبِ الابتداءِ بالقصيدةِ بهذا النّوعِ من المقدّمات حتى يكون شعراً رقيقاً مرموقاً ، وقد أدّى تغزّل بعض الشُّعراء بنساءِ رجالٍ معروفين ، أو ببناتهم إلى وقوعِهم في مهالك .

* ومن أمثلةِ ذلك ما زعموا أنَّ النّابغة الذُّبياني قد تغزَّل بالمتجرّدةِ زوجِ الملكِ النُّعمان بن المنذر ـ ضيفة حلقتنا هذه ـ ، وما كان منْ غضبِ الملكِ

عليه ، وتهديدِه له بالقتْل ، مما اضطرّ النّابغة إلى الهَربِ من وجْهِ النُّعمان إلى الغَسَاسنةِ أعداءِ النعمان ، ليسلمَ بِرِيْشِهِ من النُّعمان ، وما وردَ كذلك في قصَّة الشَّاعر طرفةَ بنِ العبد ومقتله على يدِ عمرو بن هند في قصّة مشهورة في كُتُب الأدبِ والأمثالِ والأَسْمار.

* وعندما نحلِّقُ مع غَزَلِ الشُّعراء في العَصْر الجاهليّ نجدُ بعضَ الصُّورِ الجميلةِ الباسمةِ التي تُبرِزُ جمالَ المرأة ، وقلّما نجدُ في شعرِ الشُّعراء فحشاً ، فالشّاعرُ متأدّب في شعرِه ، يعرفُ حدودَه في الغَزَلِ فلا يتجاوزها ، لأنَّه يعلمُ حقّاً أنّه إذا ذكرَ الفُحْشَ في شعرهِ ، وتعرَّضَ فيهِ بامرأةٍ معيّنة ، فأصابَها بسوءِ القولِ ، فإنّها لن تسكتَ عنه ، وإذا سكتَتْ هي ، فلن يفلتَ من عقابِ أسرتها وذويها ، وقد يكون ذلك العقابُ القَتْل.

* ولكنْ ـ والحقُ يُقال ـ لقد تركَ شعراءُ العَصْر الجاهليّ ـ خاصّة ـ صوراً رائعةً متحركةً وجميلةً رسموا من خلالها المرأةَ ، وهذا ما سنلمسُه في الفِقْرة التَّالية.

جَمَالُ المَرْأةِ عنْدَ شُعَرَاءِ الجَاهليّةِ:

* في هذهِ الصَّفحات نتحدَّثُ حديثاً عامّاً عن المرأةِ الجاهليّة بعامّة ، وصورتها عند الشُّعراء الجاهليّين ، وكيف جعلَ الشّعراءُ من المرأةِ وحيَ خيالِهم ، ورسموها بأبدعِ ريشةٍ ، وجعلوا جمالَها مصوّراً منقوشاً في مرآةِ الأيّام.

* ففي الإنسانِ جمالٌ ، وقد يكونُ في الشّكلِ أو اللونِ أو الصَّوت؛ وتبدو مظاهرُ الجمالِ أعمَّ في المرأةِ؛ والمرءُ بطبعه يدركُ الجمالَ بصورةٍ ما ، ولعلَّ جميع بني الإنسان لهم هذه المقدرةُ ، فما منْ إنسانٍ إلاّ له نوعٌ من الجمالِ يُطربهِ ويوقظُ إعجابَه ، لأنَّه قد خُلِقَ مزوّداً بعواملِ الاستجابةِ لما هو منسجم متناسقٌ؛ حيثُ فيه عاطفة تهتزّ وتطربُ وتسبَحُ في

ميدانِ الحسِّ ، وفيه ميلٌ ونفورٌ ، وفيه حبٌّ وبغضٌ ، وفي الإنسان كلُّ ذلك ، وهذا ما يدفعُه إلى أنْ يفكّرَ في مظاهرِ الجمالِ على قَدْرِ مَا لَهُ من استعدادٍ نفسي وثقافي.

* ولعلَّ جمالَ المرأةِ يعودُ في حقيقتهِ إلى حُسْنِها بالذَّات وإلى ملاحتِها؛ بينما نجدُ أنَّ بعضَ المحبّين للمرأةِ يرى أنَّ الجمالَ إنّما ينبعُ منَ النَّفس ، وينبعثُ منَ الأعماقِ ، وهذا كثيرٌ في الحياةِ ، ذلك أنَّ امرأةً قد تظهرُ جميلةً في رأي بعضِ النَّاس ، بينما تكونُ قبيحةً في نَظَر آخرين[1].

* والحقّ إنَّ الإحساسَ بالجمالِ أمْرٌ يتوقّفُ في معظمِ الأحوالِ على طبيعةِ الشَّخص أكثر مما يتوقّف على طبيعةِ الشّيء ، فما هو جميلٌ بالمشرقِ ليس منَ الضَّروري أنْ يكونَ جميلاً عند أهلِ المغرب.

* وقد أدركَ العربُ الجمالَ في العَصْر الجاهليّ خاصّةً ، وفي سائر العُصُور ، وتذوّقُوه؛ أدركوهُ في الطَّبيعةِ من حولهم ، وأدركوه في المرأةِ ، وأدركوهُ أيضاً في الكلامِ وفنِّ القولِ ، وكيف لا؟ وهم ملوكُ البلاغةِ والفَصَاحةِ والبَيان!! فاحتفظوا بالشِّعر وطربُوا له ، ورفعُوا شعراءَهم مكَاناً عليّاً ، وعندما أدركوا كذلك جمالَ المرأةِ النّفسي والجَسدي أحبّوها حبّاً عظيماً ، وافتنّوا في وَصْفِ جمالها ورسْمِه في أشعارهم وأغزالِهم.

* ومن الطَّبيعيّ أنْ يدركَ العربُ عَصْر ذاك جمالَ المرأةِ الجسديّ بجميعِ حواسِّهم العُليا والدّنيا ، فالحواسُّ العُليا هي السَّمعُ والبصرُ؛ والحواسُّ الدنيا هي اللمسُ والذّوق والشّم.

---

(١) أذكرُ في هذا المجالِ هنا ، أنَّ أحدَ النَّاس قد أحبَّ امرأةً حبّاً مَلَكَ عليه كلّ شيء ، ولم تَرُقْ هذه المحبوبة لأمِّه ، أو لأحدٍ منْ أهلهِ ، وأُصيب بالنّحولِ والمرض ، وحاولوا ردَّه عنها ، لكنّه قالَ لهم أخيراً: خُذوا عينيَّ وانظروا بهما إليها فسترونها كما أرَاها!!!.

* فالبصرُ والسّمع من الحواسِ العُليا التي تدركُ الجمالَ ، فالعينُ تبصرُ الصَّورةَ الجميلةَ ، والمناظرَ الفاتنةَ ، والأُذنُ تدركُ الأنغامَ والأصواتَ المنسجمةَ ، فتتغذّى الرّوحُ ، ويترقّى الشّعور ، وتتهذّبُ العواطف .

* ومن المعروفِ أنَّ العينَ هي الطريقُ الرئيسُ للانفعالاتِ العاطفيةِ ، فالقَوامُ ، والمشْيَةُ ، والحركةُ ، والإشارةُ ، والملابسُ ، والرَّشاقَةُ ، و . . . وهذه الأشياء كلّها من مقاييس الجمالِ والجاذبيةِ ، والعينُ مصدرُ الحكْم عليها .

* يقولُ الدّكتور أحمد محمّد الحوفي ما مفاده : «وإذا توافرَ الجمالُ في المرأةِ ، وتوافرَ إدراكه وتذوّقه في الرّجل ، وحدثَ تجاوبٌ بين إدراكِ الرجلِ ، وجمالِ المرأةِ ، فنتجَ عنهما الحبُّ من ناحية ، والغَزَلُ من ناحيةٍ ، وبعضُ هذا الغزلِ تصويرٌ لمحاسنِ المرأةِ الجسديّةِ والمعنويةِ . . . والشُّعراء والمحبّون عامة خيرُ مَنْ يدرك هذا الجمال . . »[1] .

* إنَّ جمالَ المرأةِ من أنفسِ ألوانِ الجمالِ وأغلاها وأعلاها ، وأشدّها تأثيراً على النّفوس . . ومن هنا هامَ بعضُ الصُّوفيين بجمالِ الحِسَان ، واتّخذوه وسيلةً ـ بزعمهم ـ لمعرفةِ الجمالِ المُطلق ، وعوناً لهم علىٰ العِبادة .

* وممّا يُنْسَبُ إلى التّابعي الجليلِ الحسنِ البصريّ قوله : «النظرُ إلى الوجهِ الحَسنِ عبادة» ، والمعنى : إنّ النَّاظرَ يقول : سبحان خَالِقهِ . وفي هذا التواءٌ كما يُدرِكُ القارىءُ الفَطِن .

* وزعموا أيضاً أنَّ شريحاً القاضي قد رُئيَ واقفاً بالطريق فقيل له : ما وقوفك؟

---

(١) انظر : الغزل في العصر الجاهلي (ص ٣١) بتصرف يسير .

قال: عسى أنْ أنظرَ إلى وجْهِ حَسَنٍ أتقوّىٰ به على العبادة[١].

* وزعموا أنَّ الجنيد قال: «كما أن النساء حبائلُ الشَّيطانِ فهنَّ حبائلُ العِرفان؛ إذ قد يتوصّلُ العاشقُ عن عشقهنّ إلى معرفةِ مُبدعهنّ»[٢]. وهذا تهريجٌ أيضاً، وخلْطٌ ما بعده خَلْط، إذ لا يمكنُ للجُنيد ولا لغيره أنْ يخالفَ بأقوالهِ ما تواترَ عن النّبيّ ﷺ، بَيْدَ أنَّ كثيراً منَ الأمورِ قد لُفّقَتْ ونسبتْ إلى الأكابرِ من أجلِ تحقيقِ فكرةٍ ما.

* أمّا الشُّعراء في عَصْرِ الجاهليّةِ فقد كانوا خلافَ ذلك، وكانت نظرتُهم إلى المرأةِ نابعةً من فطرتهم، وتلتقي نظرتُهم إلى جمالها الجسَدي عند معنى واحدٍ هو التّناسق والتّناسب والانسجام، وهذا هو ذوقُ الفِطَر السَّليمة التي لم يفسدْهَا التّرف، ولم تعبثْ بها بِدعُ الحضارة المجلوبة؛ إذ كان الجمالُ والحُسْن في حياتِهم غيرَ مجلوبٍ بتَطْرِيةٍ.

* فقد استحسنُوا من المرأةِ الوضَاحةَ والصَّباحةَ والهيفَ والرَّشاقةَ والحياءَ، وأحبُّوا أنْ تكونَ الرّشيقةَ الهيفاءَ ضامرةَ الخصرِ، ممتلئة الرّدفين بارزةَ النَّهدَيْن...

* يقول عبّاس العقّاد: «فالذَّوقُ العربيُّ في دقّةِ الخصورِ وبروزِ الأردافِ ذوقٌ محمودٌ يزكّيهِ حبُّ التّنسيق، كما يزكّيهِ تكوينُ وظائفِ الأعضاءِ، وحمَادى الحُسْنِ في المرأة تكون كما وصفَها كعبُ بنُ زهير:

هَيْفـاءُ مقبلـةً عَجْـزاءُ مـدبـرةً ... لا يَشْتكي قِصَرٌ منْهَا ولا طُولُ[٣]»

---

(١) انظر: محاضرات الأدباء (٢/ ٢٥).

(٢) تزيين الأسواق (١/ ٩٣).

(٣) انظر: شاعر الغزل (ص ٧٠) من مجموعة أعلام الشعر. طبعة دار الكتاب العربي ـ بيروت ط ١ ـ ١٩٧٠ م.

* وممّا يدلُّ على نظرة العربِ الصَّائبة إلى جمالِ الجَسَد ، ما رواهُ الأصمعيُّ قال: «قال أعرابيٌ لابنِ عمّه: اطلبْ لي امرأةً بيضاءَ ، مديدةً فرعاءَ ، جَعْدةً ، تقومُ فلا يصيبُ قميصُها منها إلا مشَاشَة منكبَيْها ، وحلَمَتَي ثدييها ، ورانقتَي أَلْيَتَيْـهَا ، ورضاف ركبَتَيْها ، إذا استلقَتْ فرميتَ تحتَها بالأترجُةِ العظيمةِ نفذَتْ من الجانبِ الآخر. فقال له ابنُ عمه: وأنّى بمثل هذه إلاّ في الجنَان؟»[1].

* وما من شكّ في أنّ العربَ عَصْر ذاك قد أدركُوا الجمالَ إدراكاً كليّاً، ولقد رسمُوا في أدبِهم للمرأةِ صُوَراً حسيّةً يدورُ معظمُها ـ كما ذكرنا ـ على الوسَامةِ والقَسَامة ونضجِ الأنوثةِ ، وسحرِ العينَيْن ، والتّراخي في الحركةِ ، وجمالِ الحركةِ ، وجمالِ السَّحْرِ والنَّحْرِ ، وكثيراً ما شبّهوا المرأةَ بالرّئم العطبول ، وبالمَهَا البيضاء ، وبالبقرةِ الوحشيّة في جمالِ العينَيْن وما شابَه ذلك. .

* وقد أفرغَ شعراءُ ذلك العَصْر القديمِ عواطفَهم كلَّها ، ونظراتِهم ، وأحاسيسهم حيالَ المرأةِ فيما عُرِفَ باسمِ الغَزَل أو النّسيب أوالتّشبيب ، فكانوا ـ بعامّة ـ يفتتحون به قصائِدَهُم ، ويستهلّون به نظمَهم ، فيصفون من خلاله مدى حبّهم للمرأةِ ، ومدى كَلَفِهم بها وهيامِهم بِسِحْر ملاحَتِها ، ويصوّرونَ في شِعْرهم أيضاً انطباعاتِهم الغراميّة بمفاتِنها الحسيّة ، ويقدمون بهِ بين سائرِ أغراضِهم في أشعارِهم مهما تكن تلكَ الأغراضُ بعيدةً عن مَرحِ الغَزَلِ ، ومتعةِ الغرامِ والعشْقِ والهُيام. .

---

(١) انظر: عيون الأخبار (٤/ ٥ و٦). ومعنى «مَديدة»: طويلة. و«فَرعاء»: ذات هيئة حَسنة. و«جعدة»: مجتمعةُ الخلْق الشّديدة. و«الرّانقتان»: أسفل الألية. و«رضاف الرّكبة»: الجلد الذي على الرّكبة. و«الأترجّة»: ثمرٌ من جنسِ الليمون ناعم الورقِ. و«أنّى بمثل هذه إلاّ في الجنان»: أي هذه من الحورِ العين ولا يوجد مثلها إلاّ في الجنّة.

* نعم همُ الذين خاطبُوا الوجدانَ أوّلاً ، وهمُ الذين سَنُّوا هذا الابتداعَ في قصائِدهم ، لإثارةِ وجدانِ السَّامع ، وكيما يستولُوا على مشاعِره قبلَ الخوضِ في الموضوعاتِ والأغراضِ المقصودةِ من قصائِدهم ، وكأنّي بهم بهذا التّقديم والاستهلالِ الغزليّ قد خدَّروا مشاعِرَ السَّامعين ومن ثمَّ دخلُوا قلوبَهم بسهولةٍ ويُسْرٍ من خلالِ المرأةِ ، ترى؛ أليسَ هذا بداية علْم نفس حقيقيّ؟!!..

* وقد كانت دواعي الغزلِ وأسبابُه موفورةً في حياةِ شعراءِ عَصْر الجاهليّة ، فهم يعيشونَ معظمَ الأحايين والأوقاتِ في خيامِهم بالقربِ من الكَلأ والماءِ ، فإذا ما نَفدَ ذلك ارتحلُوا؛ وكلُّ فريقٍ منهم له وجْهَةٌ هو مولّيها ، ويوم ذاك يفترقُ المحبّون ، فيتألمون لِلَسْعَةِ الفراقِ ، ويبكون أيّامهم المواضي ، وذكرياتِهم الخوالي التي عَبَرتْ بهم أفْقَ الليالي التي قَضَوها في مُتعةٍ ومَرَح.

* وهناك راحُوا بدافعِ حبّهم وهيامِهم يصوّرون تلكم المرأةَ الجميلةَ المليحةَ التي فتنَتْ ألبابَهم ، وسحرتْ أعينَهم ، وسهَّدتْ أجفانَهم[١] ، وسلبتْهمُ الكرىٰ ، وجافت جنوبهُم عن المضاجعِ ، وأوحتْ إلى خيالهم ما أوحته منَ الوصفِ والابتكار ، صوّروها على صورةٍ تجلو فيها كلّ محاسنها من مفاتنِ الجسَدِ وجمالهِ بصفةٍ خاصّة... فهي امرأةٌ طويلةٌ فارعةٌ ، سمهريّةُ العودِ ، حسنةُ القَوَام ، مُترفةٌ منعمةٌ ، مِكْسَالٌ ، نؤومُ الضُّحى ، جميلةُ المحيّا ، مشرقةُ الوجْهِ ، ساحرةُ العينَيْنِ يزينهما كحلٌ وحَوَرٌ وَسَعةٌ ، بضَّةُ الجسمِ ، أسيلةُ الخدّيْنِ ، منصوبة العنق ، جيداء

(١) ينطبقُ على كلّ واحد منهم قولَ الشّاعر الذي استخدمَ الجناس التّامّ فأحسن:

إنْ لَـمْ تقـرَحْ أدمُعـي أجْفَـانـي ... مِـنْ بَعْـدِ بُعْـدِكـمْ فمـا أجْفَـانـي

عطبُول ، طويلةُ الشَّعْر فاحمتُه ، تستوي على ساقَيْن كالأنابيبِ الرّيانةِ ليونةً ونعومةً؛ وكالعاجِ أو الرّخام بياضاً ، مليئةُ الصَّدر ، مصقولةٌ صَقْلَ مرآةٍ مجلوّة ، دقيقةُ الخَصْرِ ، ثقيلةُ الرِّدفَيْن، مليئةُ الذّراعين ، رخصةُ الأنامِل ، تبتسمُ عن ثغرٍ جميلٍ فاتن ، يفترُّ عن أسنانٍ منسّقةٍ بيضٍ كاللؤلؤ أو الأقحوان أو البرَدِ ، لمياءُ الشفتَيْن ، ريقُها عذبٌ كالعَسَل ، وإذا تنفَّسَتْ كان لِنَفَسِها شذا طيب عبق ، كأنّه العطْرُ المُستخرجُ ، ورائحتُها زكيةٌ دائماً؛ إذ يفوحُ العطرُ دونَ انقطاع من أعطافِها وأعكانِها وأردانها وأردافِها، ومن مقصورتها ومن فراشِها وأثوابها ، وقد تكونُ غنية بحليتها الطّبيعيّة عن التّحلّي ، وبجمالها الفطريّ البارع عن التّجمّل بأدوات الزّينة ، وقلّما نجدها متحليةً بالعقودِ والجوهرِ والذَّهب .

* تلكم صورةٌ حسيّـةٌ ماديّـةٌ رسَمها الشُّعراء الجاهليون ، وجلوها عن طريقِ حواسّهم الخمس :

لَمْساً : ليدِها الرّخصةِ النّاعمةِ الجميلةِ البيضَاء .

ونظراً : إلى وجهِها المشرقِ الوضيء الجذّاب .

وشمّاً : لشذاها العبقِ الفوّاح الطّيّب .

وتذوّقاً : لريقِها العذبِ عذوبةَ السُّلافِ والرّحيق .

وتسمُّعاً : لصوتها النّاعمِ الرخيمِ المطربِ الرّقيق الدَّفّاق .

* وإذا ما استنفدَ الشّاعرُ الجاهليُّ حواسّه الخمس في وصفِ المرأةِ ، أو وصْفِ محبوبته ، فقد استغرقَ بذلك كلَّ ما في جعبتِه من مجالاتِ الوصفِ لمحبوبته؛ آسرته وساحرته ، ولا نكاد نجدُ شاعراً منهم قد تعمَّقَ أو تعرَّض فيما وراء ذلك لوصفِ المرأةِ معنويّاً ، فلم يصِفُوا نفسيّة تلك المرأةِ، ولم يتعرضُوا ـ على الغالب ـ للحديثِ عن آمالِها وآلامِها ووجدانِها ،

ولم يبيّنوا مدىٰ الارتباطاتِ الرّوحية والذّهنية التي تربطُهم بها[1].

* وكانت لهواتُ الشُّعراءِ تتجاوبُ بالغَزَلِ والتَّشبيبِ في كلّ صقْعٍ من أصقاعِ الجزيرةِ ، ينفسونُ به عن حبٍّ مبرّح ، وشوقٍ لهيفٍ ، يفتنُّون في وصْفِ مفاتِنِ النِّساء الجسديّة ، ويصرّحون ـ أحياناً ـ بما نالُوا من لذّاتٍ ومتعٍ ولقاءات.

* ولقد كان الخَليُّ يحاكي الشّجي أحياناً فيتغزّلُ ، وهؤلاء وأولئك خلّفوا منَ الشّعر الغَزِل ثروةً عظيمةً تنبىءُ عن تقديرِ العربِ للمرأةِ ، وخضوعهم لسلطانِ الجمالِ والحبِّ والهيامِ ، ولم يكنْ من محضِ المُصَادفات أنَّ المعلّقات قد بُدِئَتْ بالغَزَلِ ، وكذلك القصائدُ المشهوراتُ في تاريخ الشّعرِ العربيّ كقصيدةِ كعبِ بنِ زهير التي مدحَ بها رسولَ اللهِ ﷺ ، ثم تعقّبه وعارضَه كثيرون ونهجُوا نفسَ نهجِهِ في الغَزَلِ وبكاءِ أطلالِ المحبوبةِ ووصفِها.

* وها نحنُ أولاءِ نجوبُ دواوينَ شعراءِ العَصْر القديم ، ونسمعُ ما جادَتْ به قرائحُهم من أوصافِ المرأةِ وصورتها عندهم ، وكيف جعلَ الشّعراء من المرأةِ وحيَ خيالهم ، وخيالَ وحيهم ، ومنىٰ أملِهم.

* ففي الحديثِ عن القوامِ وطولِ المرأةِ ونومتها ومشيتها يقولُ الأعشىٰ في ذلك:

غَرّاءُ فَرعاءُ مصقولٌ عوارضُها ... تَمْشِي الهوينىٰ كما يمشي الوَحي الوَحِلُ
كأنَّ مشْيَتَها من بيتِ جارتها ... مرَّ السَّحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ[2]

---

(١) انظر: أمير الشعر في العصر القديم «امرؤ القيس» لمحمد صالح سمك (ص ١٤٨) بشيء من التصرف. دار نهضة مصر ـ القاهرة ـ دون تاريخ.
(٢) ديوان الأعشى (ص ١ و٢). و«ريث»: الإبطاء والتمهل.

* وهذا سلامةُ بنُ جندل السَّعدي يتحدَّثُ عن المرأةِ الجارية البيضاء ، النّاعمة الحسنةِ الحلوةِ ، ويشبّه هذه الأَمَةَ القينةَ بالمهاةِ الحسَنةِ القوامِ الرَّخْصةِ اللينة المغناج ، فيقول:

وعنْدَنا قَيْنَةٌ بيضاءُ ناعمةٌ مِثلَ المهاةِ منَ الحُورِ الخَراعيْبُ[1]

* ويرجو ثعلبةُ بنُ صعير المازنيّ حبيبتَه «عمرة» أن تنوِّلَه قبل سَفَرِه ، ويشبّه هذه الحبيبةَ الجميلةَ في وضوحِ جبينِها ، وغورِ عينيها بالبقرةِ الوحشيّة ، وقد غارَتْ عيناها ، فراقت للنَّاظرين ، فيقول:

ولَرُبَّ واضحة الجبينِ عزيزةٌ مثلُ المهاةِ تروقُ عين النَّاظر[2]

* ويشبّه المخبل السَّعدي وجْهَ المرأةِ بالصَّحيفةِ لملاسَتِهِ ولِيْنِهِ فليس هو قليلَ اللحمِ ضامراً ، ولا كثيرَ اللحم بشعاً ، فهي خيْرةُ كلّ شيء ، تتصدّر المجلسَ دائماً ، شبيهة بالدّر الثمين:

وتريكَ وجْهاً كالصَّحيفةِ لا ظمآن مختلج ولا جَهْمُ
كَعقيلَةِ الدُّرّ استضاءَ بها مِحرابَ عرشِ عزيزِها العُجْمُ[3]

* بل يشبّهها بالدّرة ، ثمّ ببيضةِ النَّعام التي خُبّئَتْ في الرّمال ، هكذا المرأةُ الحبيبةُ المعشوقةُ ليس لها عظمٌ ناتيء:

أو بيضةِ الدَّعْصِ التي وُضِعَتْ في الأرْضِ لَيْس لمسِّهَا حَجمُ

* كما أنَّ المرّارَ بنَ منقذ الحنظليّ العدويّ يتحدّث عن محبوبتهِ خولةَ ، وقد وصفَها وصفاً طويلاً في قصيدةٍ رائيةٍ تبلغُ (٩٥ بيتاً) ، فالمراةُ عنده

---

(١) المفضليات (ص ١٢٠) رقم القصيدة (٢٢) و«الخراعيب»: جمع خرعب وهي ممتلئة الساقين الحسنة القوام ، الرخصة ، اللينة.
(٢) المفضليات (ص ١٣١) رقم القصيدة (٢٤).
(٣) المفضليات (ص ٥).

جميلةٌ ضامرةُ البطن ، ضامرةُ الخصرِ ، تتمايلُ كالنَّخلةِ ، فبدتْ صفراء من الطِّيْب ، يشبّهها بالشّمس كلما ذَرَّتْ ـ طلَعَتْ ـ فيقول:

لَحَسِبْتَ الشَّمسَ في جلْبابِها قد تبدَّتْ في غمامٍ مُنْسَفِرْ
صورةُ الشَّمسِ على صُورتها كلّما تَغْرُبُ شمسٌ أو تَذُرّ[1]

* وتحدَّثَ الشُّعراء كذلك عن إشراقِ محياها ، وقد تباروا في التَّفنّن في وصفِ ذلك الوجْهِ الجميلِ الجذّاب ، فهي عند امرئِ القَيْس تضيءُ الظَّلام بنورِها كأنّها منارةُ الرَّاهبِ وسراجه الذي يستضيءُ به في عبادته فيقول:

تضيءُ الظَّلامَ بالعشَاءِ كأنَّها منَارةُ مُمْسِي راهبٍ مُتَبَتِّلِ[2]

* وهي عند طرفةَ بنِ العبد البكريّ شمسٌ مشرقةٌ نقيةٌ؛ بل إنَّ المرأةَ عنده جميلةٌ ، وفي شفتَيْها سُمرةٌ ، وفي عينيها كُحْلٌ ونعاسٌ ، وقد لبستْ عقْداً فوقَ عقْدٍ من زبرجدٍ كريم ، وهي مغناجٌ جميلةٌ ، إذا ابتسمَتْ تنمُّ عن شفاهٍ سُمْرٍ ، وأسنانٍ بيض كأنّها الأقحوانُ الذي نَبَتَ على كثبانِ الرَّمل ، فأسنانُها برّاقةٌ لامعةٌ ، كأنَّ الشَّمْسَ قد أعارتها نورها؛ أمّا وجهُها فهو في غايةِ الحُسْنِ والجمالِ ، مصقولٌ كأنَّ الشمسَ ألقتْ عليه رداءَها ، فيقول:

ووجْهٌ كأنَّ الشَّمْسَ ألْقَتْ رداءَهَا عليهِ نقيّ اللونِ لَمْ يتَخدَّدِ[3]

* وأمّا لبيدُ بنُ ربيعةَ فهو ينظرُ إلى امتلاءِ رِدْفَيْها ، ويرى أنّ ضوءَها يعشي البصَرَ ، فيقول:

وفي الحُدوجِ عَروبٌ غيرُ فاحِشَةٍ ريَّا الرَّوادفِ يَعْشَىٰ دونَها البَصَرُ

---

(١) المفضليات (ص ٩٢) ، و«المُنْسَفر»: المنقشع. و«ذرّت الشمس»: طلعت.
(٢) انظر: شرح ديوان امرىء القيس لحسن السندوبي (ص ١٧٢) ، وشرح المعلقات (ص ٦٤).
(٣) اقرأ هذا في وصف خولة محبوبة طرفة في المعلقات (ص ٧٠) للشنقيطي.

* ويشبّهها بعضُ المتغزّلين من شعرائِهم تارةً بالشّمس يوم تطلُعُ في سَعْد السُّعود في مثل قولِ النَّابغة الذّبياني:

بيضَاءُ كالشَّمْسِ وَافَتْ يومَ أسْعُدِها   لَمْ تؤْذِ أهْلاً ولم تُفْحِشْ على جَارِ

وفي مثلِ قَولِ النّابغة الذّبياني أيضاً:

قـامَـتْ تَـراءىٰ بيـنَ سِجْفَـي قبّـةٍ   كالشّمسِ يومَ طلوعِها بالأسْعُدِ

* وتارة أخرىٰ يحلو للشَّاعر أنْ يتساءَلَ عمّا يرىٰ من محيّاها. . . أيَرىٰ سنا البرق، أمْ وجْهَ حبيبته «نُعمى» حيث يقول النّابغة:

أَلَمْحَةً منْ سنا برقٍ رأىٰ بَصَري   أمْ وجْـه نُعْـمٍ بـدَا لـي أمْ سَنَـا نـارِ

بلْ وجْهُ نُعْم بَدا والليلُ مُعْتكِرٌ   فـلاحَ مـنْ بيـنِ أثْـوابٍ وأسْتَـارِ

* وتارةً يراها الشَّاعرُ مضيئةً كدرةِ الصَّدفَة يبتهج بها الغوّاصُ، بل يسجدُ أمامَها، أو كدميةٍ من مَرْمَرٍ مرفوعةٍ بآجرّ يُشادُ بقرمد، يقولُ النَّابغة:

أو درّةٍ صـدفيّـةٍ غـوّاصُهَـا   بَهِـجٌ متـى ينْظُـر إليهـا يَسْجـدِ

أو دميّـةٍ مـن مَـرمـرٍ مـرفـوعـةٍ   بُنِيَـتْ بـآجُـرٍّ يُشَـادُ بِقـرمـدِ

* وتملكتِ الحبيبةُ سعاد قلْبَ ربيعةَ بنِ مقروم الضّبيّ، فتُضنيهِ وتوجعُه، وتخلفُ المواعيد، فيشبّهها بالظَّبيةِ البِكْر، وقد كثُرَ مرتعها واتَّسعَ، تصعدُ الهضَبات، وتنزلُ المنخفضات حرّةً طليقةً دونما رقيبٍ أو وازع فيقول:

بانَتْ سُعادُ فأمْسَىٰ القَلْبُ مَعْمُودَا   وأخلفَتْـكَ ابنَـةُ الحُـرِّ المَـواعيْـدا

كـأنّهـا ظبْيَـةٌ بِكْـرٌ أطـاعَ لَهـا   منْ حَوْمَلٍ تَلَعَاتُ الجوِّ أو أُودَا[1]

---

(١) المفضليات (ص ٢١٣)، و«معمودا»: من قولهم: عَمَدهُ الحبُّ: أضناه وأوجعه. و«التلعات»: من الأضداد؛ ما ارتفع من الأرض وما انخفض. و«حومل والجو وأود»: أسماء مواضع.

* وأمّا عينا المرأةِ وخدّاها وجِيْدُها ، فقد فاز بنصيبٍ كبيرٍ من غَزَلِ هؤلاء الشّعراء في العصر الجاهلي ، فقد وجَدوا في الغَزَالةِ والمَهَا جمالَ العينَيْن واتّساعهما وطولَ العُنق ، كما وجدوا جمالَ الأعيُن واتّساعهما وحورها في أبقارِ الوحْشِ ، فشبّهوا محبوباتِهم بهنَّ في ذلك.

* فحبيبةُ امرىءِ القيس ، حين تتدلّلُ عليهِ تصدّ وتبدي عن أسيلٍ ، وتتّقيه بعينٍ كعينِ الظّبيةِ الحنون ذات الطّفل التي ترعىٰ في وجْرَةَ؛ يقول:

تصُدُّ وتُبدِي عن أَسِيلٍ وتتّقي بناظرةٍ من وحْشِ وَجْرَة مُطْفِلِ
وجِيْدٍ كَجيدِ الرّئمِ ليسَ بفاحشٍ إذا هيَ نصَّتْه ولا بِمُعَطَّلِ[1]

* أمّا محبوبةُ عنترة ، فقد كانت أكثرَ حياءً وخَفَراً ، وأطوعَ عناناً ، فيقولُ من معلّقته:

دارٌ لآنِسَةٍ غَضيضٍ طرفُهَا طوعِ العناقِ لَذيذةِ المتبسّم

* ويصفُ الأعشى عينَي الحبيبة ، فيشبّههما بِمُقَلِ الظّباء أو البقر الوحشي؛ إذ هما حَوراوان ، نظراتُهما فاترةٌ وقاتلةٌ في آنٍ معاً ، ويعلوهما حاجبٌ جميل:

تلألُؤُهَا مثلُ اللجَيْن كأنّما ترىٰ مقْلَتَي رئمٍ ولو لَمْ تكحَّلِ
سَجوّيْنِ برجاوَيْن في حُسْنِ حاجبٍ وخدٌّ أسيلٍ واضحٍ مُتَهلّلِ[2]

---

(١) انظر: شرح ديوان امرىء القيس (ص ١٧١)؛ و«تصدّ»: تعرضُ عنّا وتبتعد بخدها الناعم الأملس. «بناظرة»: بعين ناظرة. و«وجرة»: اسم موضع. و«مطفل»: ذات أطفال. و«الجيد»: العنق. و«الرئم»: الظبي الأبيض الخالص البياض. و«ليس بفاحش»: غير كريه المنظر. و«نصته»: رفعته. و«المعطل»: الذي لا حلي عليه.

(٢) ديوان الأعشى (ص ٧٧). و«اللجين»: الفضة. و«سجوين»: فاترين. و«برجاوين»: واسعتين صافيتين. و«أسيل»: أملس مسترسل.

* ويصوّرُ الحادِرةُ جمالَ عينَي حبيبته «سُميّة» فإذا فيهما حَوَر ، ـ وهو شدّةُ سوادِ العين مع شدّة بياضِها ـ فنظنُّ أنَّ في عينَيها نُعاساً ، وذلك موصوفٌ في النّساء الجميلاتِ يكون في نظرها فُتور ، فهي حرّةُ الوجهِ كريمةٌ أمامَ هذه الصّورة ، لا يستطيعُ الشَّاعر إلا أنْ يشبّه مقلتَيْها بعيني الغزال الشَّارد فيقول:

وبمُقْلتَي حَوْرَاء تَحْسَبُ طَرفَها   وسْنَان حُـرَّةٍ مُستَهَلّ الأَدْمُعِ

* وشَعْرُ المرأةِ في كُلّ عَصْر ، ولدىٰ كلّ أمّة مظهرٌ من مظاهرِ جمالِها ، بل هو تاجُ الطّبيعةِ فوقَ رأسِها ، وللشُّعراء فيه خيالاتٌ تختلفُ باختلافِ بيئاتهم .

* فقد شبّهه المرقّشُ الأصغرُ في تدلّيه ، وقد استرخَتْ ذوائبه السُّود بالحِبال فقال:

أَلا حبّذا وجْهٌ تُرِينا بَياضَهُ   ومُنْسَدلاتٍ كالمثَاني فَواحِما

* ووصفَ ربيعةُ بنُ مقروم شَعْر الحبيبةِ الذي استرسلَ على كتفَيْها ، وفيه دؤاباتٌ جميلةٌ ، فيشبّهه بالعناقيدِ المهدّلَةِ على الكَرمةِ فيقولُ:

قامتْ تُريكَ غادةَ البينِ مُنْسَدلاً   تَخَالُهُ فوقَ مَتْنَيْها العَنَاقيدُ

* ووصفَ المرّارُ بنُ منقذ شَعْر المرأةِ بأنّه جَعْدٌ طويلٌ فيه ضفائرُ فيقول:

تُهْلِكُ المِدْراةُ في أفنانِهِ   فإذا ما أَرْسَلْتَهُ ينْعَفِرْ
جَعْدَةٌ فَرْعاءُ في جُمْجُمةٍ   ضخْمةٍ تَفْرُقُ عَنْها كالضُّفُرْ[1]

---

(١) المفضليات (ص ٩٠). ومعنى «المدراة»: المِشْط. وهلاكها: غوصُها فلا تظهر فيه. و«أفنانُه»: ذوائبه ، وأصلُ الفَنَن: الغُصن. و«ينْعَفر»: يصيبه العَفَر أي التّراب وذلك من طوله.

* وشَعْرُ المرأةِ المحبوبة «الرّباب» عند المخبّل السّعدي هو شَعْرٌ غزيرٌ جَعْد كأنّه كرمٌ يضلُّ فيه المشْطُ :

وتُضِـلُّ مِـدْرَاهَـا المَـواشـطُ فـي جَعْـدٍ أغَـمَّ كـأنَّـه كَـرمُ[١]

* وكما تغزّلَ الجاهليّون من الشُّعراء المحبّين في شَعْرِ المرأةِ ووصفوه بالسَّواد الفاحمِ والطُّولِ والجمالِ والغزارةِ ، تغزّلُوا كذلك في الأردافِ ، والأعناقِ والثّغور ، وقد أجمعوا على أن مثَلُهم الأعلىٰ في جمالِ المرأة هو البضاضَةُ ونعومةُ الجسم واكتنازُهُ شحماً ولحماً ، وامتلاءُ الصَّدر والذّراعَيْن ، ورقّةُ الأصابعِ ، وسِحْرِ العينَيْن ، وثقلُ الردفَيْن ، وجمالُ السّاقين ، ودقّةُ الخَصْر ، وتكعّبُ الثّديَيْن ، وفراعةُ العودِ ، وطولُ الجيدِ ، وما إلىٰ ذلك منَ الأوصافِ التي جعلُوها معاييرَ الجمالِ والحُسنِ لدى نسائِهم على مقتضى أذواقِهم البدويّةِ الفطريّةِ ، ونجدُ معظمَ هذه الأوصاف في معلّقة عمرو بن كلثوم حيثُ يقول :

تـريـكَ إذا دخلْـتَ علـى خَـلاءٍ وقـد أمنـتْ عُيـونُ الكَـاشِحينـا
ذِراعَـيْ عَيْطَـلٍ أدمـاءَ بَكْـرٍ هجـانِ اللـونِ لـم تَقـرأْ جَنينـا
وثَـدْيـاً مثـلَ حُـقِّ العَـاجِ رخْصـاً حَصـانـاً مـنْ أكـفّ الـلامسينـا
ومتنَـيْ لَـدنـةٍ سَمَقـتْ وطـالَـتْ روادِفُهـا تَنـوءُ بمـا ولينـا[٢]

---

(١) المفضليات (ص ١١٦). و«المدرى» : المشط. و«الجعد» : الشّعر المتقبّض ليس بالسَّبْط. و«الأغم» : الشَّعر الكثير. و«الكرم» : شجر العنب.

(٢) تحدَّثَ الشّعراء كثيراً عن الثّدي ، فممّا قاله بشّار بن برد :

والنّهـد تحسبُـه وسنـانَ أو كسِـلاً وقـد تمـايـلَ مَيْـلاً غيـرَ منكَسِـرِ

ـ وقال غيره :

أيـا ربّـة النّهـد الـذي بسنـامِـهِ يحـطُّ فتـى الهيجـاءِ عـن فـرسٍ نَهْـدِ
أحُقّـان مـن عـاجٍ بصـدركِ أمْ هُمـا رقيبـانِ قَـدْ قَـدِمـا علـى جنّـةِ الخُلْـدِ

ـ وقال آخر : =

ومَــأْكَمــةٍ يضيــقُ البــابُ عنهــا   وكَشْحــاً قَــدْ جُنِنْــتُ بــه جُنــونــا
وسَـــاريتَـــيْ بلَنْـــطٍ أو رُخـــامٍ   يَـــرنُّ خشـــاشُ حَلْيهمـــا رنينـــا

* ويصفُ النَّابغةُ المتجرّدةَ إذْ يسقطُ قناعُها ، فتسترُ وجهَها بكفّها البضّةِ التي يزيّنُها الخِضاب ، أو هي تزيّن الخضاب ، وفي هذا يقول:

سَقَطَ النَّصيفُ وَلَمْ تُرِدْ إسقَاطَه   فتنـــاولَتْـــه واتَّقَتْنـــا بِـــاليَـــدِ
بِمُخَضَّـــبٍ رَخْـــصٍ كـــأَنَّ بنـانَــهُ   عَنَـمٌ تكـادُ مـنَ اللّطـافـةِ تُعْقَـدُ

* وتطرّقَ شعراءُ ذلك العَصْر إلى وصْفِ فَمِ المرأة وأسنانِها وريقها ، فهذا بشرُ بنُ أبي خازم ينعتُ خليلتَه «إدام» بأنَّ رضابَها ووجهَها يُذهِبُ العقولَ ، فيصبحُ حبيبها كالسَّبيِّ لها ، تكشفُ عن بيضاءَ فارقةٍ ، حيث شبَّه فاهَا عند تغيير الأفواه بالخمر ، فيقولُ من قصيدةٍ طويلةٍ مطلعها:

أحَـــقٌّ مَـــا رأَيـــتُ أمِ احتِـــلامُ   أَمِ الأهـــوالُ إذْ صحبـــي نيـــامُ
أَلاَ ظعَنَـــــتْ لنيَّتِهـــــا إدامُ   وكُـــلّ وصـــالِ غـــانيـــةٍ رمـــامُ

ومنها قوله:

لَيــالــيَ تَسْتبيــكَ بــذي غُــروبٍ   كـــأنَّ رُضَـــابَـــه وهْنـــاً مُـــدامُ[1]

* وأمّا الأسودُ بنُ يعفُر النَّهشليّ فقد وصفَ محبوبتَه «أسماء» أجْمل

= فـي الصَّـدر منهـا للطِّعـان أسنـةٌ   مـا أُشْـرعَـتْ إلا لجنـي قطـافِهـا
إنْ تنكـــرا قَتْلـــي بهـــا فتبيّنـــا   تجـدا دمـي قـد حُـفّ فـي أطـرافِهـا
ـ وقال بعضهم:
كـــفَّ هـــذا النّهـــدَ عنّـــي   فبقلبـــــي منـــــه جـــــرحُ
هـــو فـــي صـــدرك نهـــدٌ   وهـــو فـــي صـــدري رمـــحُ

(١) المفضليات (ص ٣٣٣ و٣٣٤) ، و«احتلام»: حلم في المنام. و«إدام»: اسم امرأة. و«رمام»: الخلق البالي. و«تستبيك»: تذهب بعقلك. و«الغروب»: أشر في الأسنان. و«الوهن»: بعد ساعة من الليل.

وصْفٍ ، فشبّه ريقَها بالخمر أوّل ما ينزلُ من الدَّنِّ فيكونُ صِرْفاً لم يُمزَجْ بشيءٍ فيقول:

كأَنَّ رِيقَتَها بَعْدَ الكَرىٰ اغتبَقَتْ   صِرْفاً تخيَّرَهَا الحانُونَ خُرْطوما[1]

* ويصفُ المرّارُ بنُ منقذ أسنانَ محبوبتِهِ «خولة» وبياضَهما ، كما يشبّه ريقها بالعَسَل في حلاوتِهِ فيقول:

وإذا تضحَكُ أبدىٰ ضحكُها   أُقْحواناً قيَّدتْهُ ذَا أُشُرْ
لَو تَطَعَّمْتَ بِهِ شبَّهتَهُ   عسَلاً شِيْبَ بِه ثلجٌ خَصِرْ[2]

* ويصفُ الحادرةُ جمالَ تبسُّم محبوبتِهِ «سميّة» ويصفُ كذلك طيْبَ ريقها وعذوبته ، فيشبّهه بالماءِ قريب العهد بالسَّحابة التي هبَّت عليها ريحُ الصَّبا ، فأصبحتْ ليّنةً خصبةً ، يأتي المطرُ بها سَهْلاً فيقول:

وإذا تُنازِعُكَ الحديثَ رأيتَها   حسَناً تبسُّمها لذيذَ المكْرَعِ
بغَريضِ سَاريةٍ أدرَّتْه الصَّبَا   من ماءِ أسْجَرَ طيِّب المُستنقَعِ[3]

* وأمّا المرقّشُ فيذكرُ جمال شَعْر حبيبتِهِ «فاطمة» وعذبَ ثناياها ، وشبّه ريقَ «فاطمته» بماءِ المُزن فيقول:

تَراءَتْ لنا يومَ الرَّحيْل بوارِدٍ   وعَذْبِ الثَّنايا لمْ يكُنْ مُتَراكِما
سَقَاهُ حَبِيُّ المُزْنِ في متهلِّلٍ   منَ الشَّمْس روّاهُ رباباً سَواجِما[4]

---

(١) المفضليات (ص ٤١٨) ، «اغتبقت»: شُرْب العشي. و«صرفاً»: لم يمزج. و«الحانون»: جمع حان، والحاني: الخمّار. و«الخرطوم»: أول ما ينزل من الدن.

(٢) المفضليات (ص ٩٠) ، و«الأقحوان»: نبت له نور أبيض. و«أُشُر»: جمع أَشْر ، وهو مثل التحزيز يكون في أسنان الطفل قبل أن يأكل.

(٣) المفضليات (ص ٤٤). و«المكرع»: ما يرتشف من ريقها؛ و«الغريض»: الطري؛ و«السارية»: السحابة.

(٤) المفضليات (ص ٢٤٤ و٢٤٥)؛ و«الوارد»: الطّويل ، عنى شَعْرها ، و«متراكم»: متراكب. و«حَبِيُّ المزن»: ما اقتربَ منَ السَّحاب. و«في متهلل»: أي في روض =

* وريقُ المحبوبة عند امرىء القيس يشبهُ طعمُه طعمَ المُدامة المعتّقَة التي يأتي تجّار الخمرةِ بها ، فيقول:

إذَا ذقْتُ فَاهَا قُلتُ طعْمَ مُدَامةٍ معتّقَـةٍ ممّـا تجـيءُ بـه التُّجْـرُ[1]

* ونلمحُ المرّارَ بن منقذ بارعاً في وصْفهِ للمرأةِ ، حيث تعرّضَ بشعرهِ لوصفِ ثيابها ، فهي تلبسُ نفيسَ الثّياب ، وينتشرُ أريجُها عبقاً منَ المسْكِ فهي صفراءُ من الطِّيْب ، يشبُهُ لونُها عرجونَ العمر ـ وهو نخلةُ السُّكر ـ ، فيقول:

عَبَـقُ العَنْبَـرِ والمسْـكُ بهـا فهـي صَفْـراءُ كَعُـرجُـون العُمُـرْ
وَهْـيَ لـو يُعْصَـرُ مـنْ أردَانِهـا عَبَقُ المسْكِ لكَادَتْ تَـنْعَصِـرْ[2]

* ولنستمعْ إلى رائحةِ المرأةِ العِطريّةِ عند امرىء القيس ، فحبيبتُه عندما

= متهلّل. و«الرّباب»: سحاب دون السّحاب الأعظم. و«سواجم»: تسكبُ الماء ، يريد تشبيه ريقها بماءِ المُزن.

ـ هذا وقد أضفىٰ المرقّشُ كلّ سِماتِ الجمالِ على فاطمتِهِ وفُطيمتهِ ، وفُطيم ، وفَاطِم ، كما أظهرَ عشْقَه لها ، اسمعْ إليه يقول:

وإنّـي لأستحيـي فطيمـةُ جـائعـاً خميصـاً وأَستحيـي فُطيمـة طـاعِمـا
وإنّـي وإن كلّـت قَلـوصـي لَـراجِـمٌ بهـا وبنفسـي يـا فُطيـمُ المَـراجِمَـا
أفـاطِـمَ إنَّ الحـبَّ يعفـو عـن القِلـىٰ ويجشمُ ذا العرض الكريمِ المُجاشما
ألا يا اسلمي بالكوكبِ الطّلِق فاطِماً وإن لـم يكـنْ صـرفُ النّـوى متلائمـا
ألا يا اسلمي ثمّ اعلمي أنَّ حاجتي إليـك فـردّي مـن نـوالـك فَـاطِمـا
أفـاطـمَ لـو أنَّ النِّسـاءَ ببلـدةٍ وأنـتِ بـأخـرىٰ لاتّبعتـك هـائِمـا

(المفضليات ص ٢٤٦) بتصرف.

(١) شرح ديوان امرىء القيس (ص ١١٨) ، و«ذقتُ فاها»: إذا قبلْتها في فيها. و«مُدامة»: خمرة. و«معتّقة»: قديمة. و«التّجرُ»: يريد تجّار الخمر.

(٢) المفضليّات (ص ٩٢) ، و«عَبَقُ» تُقرأ فعلاً عَبَقَ؛ واسماً عَبَقٌ ، وعبق الطِّيب: من باب: فَرِحَ ، عَلِقَ ، ولَصِقَ؛ فهي صفراءُ من الطّيب. و«العُمُر»: نخلةُ السّكر. و«الأردان»: الأكمام. «كادت تنعصر»: أي تكادُ أكمامها تقطرُ من المِسْك.

تضعُ الطّيْبَ في فراشِها ، فإنّه تفوحُ من ذلك رائحةُ المسْكِ مثل نسيم الصَّبا الذي هبَّ على القرنفُلِ ، فأتىٰ برائحته ورائحةِ حبيبتهِ الطّيّبة التي تنامُ مرفّهةً في رداءِ النّوم كأنّها باتَتْ على مسكٍ مفتّتٍ فيقول:

إذَا التَفتَتْ نَحْوي تَضَوَّعَ ريحُها   نسيمَ الصَّبا جاءَتْ بِرَيّا القَرنْفُلِ
وتُضْحِي فَتيتُ المِسْكِ فَوقَ فراشِها   نؤومَ الضُّحى لم تَنْتَطِقْ عن تفضُّلِ(١)

* وما زال الحديثُ موصولاً عن المرأةِ ، وعن عطْرِها وزينتِها وأنواعِ طيْبِها ، كيما يطيبُ حديثُنا هنا عَنْها ، وكيما نتعرفُ أذواقَ العربِ عَصْر ذاك .

* ومن المعروفِ أنَّ الرِّجالَ الذَّواقين يستطيبون رائحةَ المسْكِ في المرأةِ ، ويمدحونَها بأنَّها مُمسّكة ، كما قرأنا آنفاً في شعرِ امرىء القيس ، الذي ذكرَ أنَّ حبيبتَه تنثرُ المسكَ على فراشِها كما تذرّه على جسْمِها .

* وقد تعمّد بعضُ النّساء إلىٰ أنْ تضعَ المسْكَ على فيْهَا ووجهها ، كما ذكرَ عنترةُ العبسيّ ذلك فقال:

تبيتُ فُتَـاتُ المِسْكِ تَحتَ لِثامِها   فيـزدادُ مـنْ أنفـاسِهـا أَرَجُ النَّـدِّ

* وربّما تغلِّلُ المرأةُ بالمسْكِ شَعْرَها ، كما تطيّبُ جسمَها وفراشَها ، فتسطعُ رائحته ، يقولُ سويدُ بنُ أبي كاهل اليشكريّ في حبيبته «رابعة» من قصيدةٍ طويلة مطلعها:

بَسَطَـــتْ رابعـــةُ الحَبْــلَ لنـــا   فـوصلْنَـا الحَبْـلَ منهـا مـا اتَّسـع

---

(١) شرح ديوان امرىء القيس (ص ١٧٠ و١٧٢). و«تضوّع»: فاحَ وانتشرَ؛ و«ريّا القرنفل»: ريحُ زهرِ هذا النّوع المعروف في الأفاويه. «و«تُضحي»: تنتبه من نومها في ضحوةِ النّهار. و«فتيت المسْك»: ما تفتّتَ منه ، فكأنّما باتَتْ هذه المحبوبة على مسْك مفتّت ، وإنْ لم يكن هناك مسْك. و«لم تنتطقْ»: لم تشدّ نطاقاً للعمل فهي مرفّهة. و«عن تفضّل»: عن ثوب النوم.

ومنها قوله في المسْكِ الذي يتخلّل شَعْرهَا الطَّويلَ وذوائبها الجميلة ، ففاحَتْ رائحتُه :

وقُــرونــاً سَــابِغــاً أَطْــرافُهــا   غلَّلتْهــا ريــحُ مسْــكٍ ذي فنَــع[1]

* وربّما تطيبتِ المرأةُ بالمسْكِ والزَّنبق وتجمعهما معاً ، كيما تلفتَ إليها النَّظر ، يقولُ امرؤ القيس :

وفَــوقَ الحَــوايَــا غِــزْلَــةٌ وجَــآذِرٌ   تضمَّخْــنَ مــنْ مسْــكٍ ذكــيٍّ وزنْبَقِ

* وأمّا الأعشى[2] ، فهو معجبٌ بالمرأةِ أصْلاً ، وأُعجِبَ برائحةِ المسْك والزَّنبقِ في حبيبتهِ ، فعبَّر عن إعجابهِ بهذهِ الصّورة المليحةِ؛ إذا تحركَتِ المحبوبةُ سطعَ مسْكُها وزنبقها ووردها ، وليستِ الرّوضَةُ المُعْشِبةُ العالية المخضرةُ التي يجوّدهَا الغيثُ ، وتضاحكُ الشَّمسُ أزاهيرهَا النّاميةَ المحفوفةَ بالنباتِ الكثيف ، ليست هذه الرّوضةُ المحفوفةُ بالزَّهر والفواحة بالشّذا ـ وإن هبَّتْ علبها نسماتُ الأصيل فعطّرتْ الجوَّ بشذاها ـ بأطيبَ من رائحةِ المحبوبةِ ، فيقولُ :

إذا تَقُــومُ يَضُــوعُ المسْــكُ أَصْــورَةً   والزَّنْبَقُ الوَرْدُ مِنْ أرْدَانِها شَمِلُ
ما روضَةٌ منْ رياضِ الحَزْنِ مُعشبةٌ   خضــراء جــادَ عليهــا مسبــلٌ هَطِــلُ

---

(١) المفضليّات (ص ١٩١)؛ و«القرون»: الذّوائب. و«السّابغ»: الطّويل التامّ. و«غلّلتها»: دخلت فيها. و«ريحُ»: بالرّفع: فاعل ، ونصَّ الأنباري على أن رَفْعَ ريح انفردَ بروايتهِ أبو عِكْرمة ، وأنَّ سائرهم ينصبُها. و«فَنَع»: الكثرةُ والفَضْل ، والمرادُ هنا طيْبُ ريحهِ وسطوعها.

(٢) «الأعشىٰ»: اسمه ميمونُ بنُ قيس ، كان يكنى أبا بصير ، وهو أحدُ الأعلام منْ شعراء الجاهليّة وفحولها. وسُئل يونسُ بنُ حبيب النّحوي شيخ سيبويه : مَنْ أشعرُ النَّاس؟ فقال : لا أومىءُ إلى رجلٍ بعينه ، ولكنّي أقولُ : «امرؤُ القيس إذا ركبَ ، والنابغةُ إذا رهبَ ، وزهيرُ إذا رغبَ ، والأعشى إذا طَرِب». وقال أبو عبيدة : «وكان يغنّىٰ بشعره ، فكانتِ العربُ تسمّيه صناجةَ العرب». (معاهد التّنصيص ١/ ١٩٦).

يُضَاحِكُ الشَّمسَ منها كَوكَبٌ شَرِقٌ مُــؤَزَّرٌ بعَميْــمِ النَّبْــتِ مكْتَهِــلُ
يَـومـاً بـأطْيَـبَ مِنْهـا نَشْـرَ رائِحـةٍ وَلا بأحْسَنَ منها إذْ دنا الأُصلُ[1]

* ومنَ الجديرِ بالذّكْر أنَّ العربَ قد أولعُوا بالطّيْبِ والعطْرِ ، وكان الرّجلُ منهم يُعْرَفُ بطيْبِ رائحتهِ منْ بعيد ، وينفقُ على ذلكَ مَالاً جزيلاً ، وعُرِفَ جماعةٌ من علماءِ الصَّحابة بالتّطيُّب منهم: عبدُ اللهِ بنُ مسعود ، وعبدُ اللهِ بنُ الزّبير ، وعبدُ اللهِ بن عباس[2] رضي الله عنهم جميعاً ، حيث كانوا يقتدونَ بهذا في حبيبِهم وحبيبنا محمّدٍ رسولِ الله ﷺ.

* وإذا ما كان جماعةُ الرّجالِ مغرمينَ بالطّيْب مولعينَ بالعطرِ يضمّخُون به جسومَهم ، فمنَ الطَّبيعي أنْ تكونَ النّساءُ أكثرَ ولوعاً وغراماً به ، لأنّه نوعٌ من التّجمّل والتّزيّن والنّعمة ، ولأنّه يروقُ للرّجالِ ويجتذبُهم.

* ولعلَّ المرأةَ تبدو بشكلٍ أوضحَ في العَصْر الجاهليّ عند مشاهيرِ الشّعراء ، كشُعَراءِ المعلّقات ، وهذا امرؤ القيس الشّاعر اللاهي العابثُ يعطي المرأةَ جُلَّ اهتمامِهِ ، وقد برزتِ المرأةُ بروزاً واضِحاً في شِعْره ، ولا نكادُ نتجاوزُ الحقائقَ إذا قُلنا: إنَّ المرأةَ قد احتلّتْ في شِعْرِ امرئِ القيس مكاناً مرمُوقاً بارِزاً أهمّ ممّا احتلّته عند أي شاعرٍ جاهليّ آخر ، وعلى نحوِ تفرّد به.

* ومنَ الواضحِ تماماً في أخبارِ امرئِ القيس أنَّه كان يجري في شعْرِه وراءَ العَبَثِ والمجُون إلى أبعدِ غاية ، فلمْ يكنْ عاشِقاً صادقاً ومحبّاً وفيّاً ،

---

(١) انظر: ديوان الأعشى (عدة طبعات) ، وانظر: شرح المعلّقات العشر (ص ١٣١) ، و«الأَصْورة»: جمع صوار: الوعاءُ الذي يُحْرَقُ فيه المِسْك. و«شَمِل»: منْتَشِر. و«الحَزن»: الأرضُ المرتفعةُ. و«كوكَبُ الماء»: بريقُ الماء. و«شَرِق»: زاهٍ. و«مُكْتَهِل»: تامّ. و«النّشر»: الرائحة. و«الأُصل»: جمع أصيل ، وقت الغروب.
(٢) اقرأ سِيرَ هؤلاء الأعلام في موسوعتنا «علماء الصَّحابة» ستجد خيراً وفائدةً بإذن الله.

وإنّما كان فاحِشاً ، يشبّب اليوم بفاطمةَ وهِرّ ، وفي الغداةِ يزيّنُ له الهوى أنْ ينتقلَ إلى الرّباب وفرتَنا ، فهو ـ إنْ صحَّ التّعبير ـ أسيرُ لذّات ، وصاحبُ خلاعة ولهو ؛ وكلُّ ما في شِعره من نسيبٍ إنّما هو ذكرٌ للنّساء ومحاسنهنّ ، ووصفُ عبثِهِ معهنّ ولهوه بهنَّ ، وقد أوردَ في شعرهِ أسماءَ كثيرات ومنهنّ: أمُّ مالك ، وأمُّ جُنْدب ، وسُليمى ، والخنْساءُ ، ورُقاشُ ، وهندُ ، والرَّبابُ ، وفَرْتَنا ، ولميسُ ، وقد جمعَ أربعة منهنّ في بيتٍ واحدٍ فقال:

دارٌ لهنْدٍ والرّبابِ وفَرْتَنا ... ولميسَ قبْلَ حَوادثِ الأيّامِ

*وجمعَ ثلاثةً في بيتٍ فقال:

دِيارٌ لهنْدٍ والرّبابِ وفَرْتَنا ... ليالِيَنا بالنَّعْفِ منْ بَدَلانِ

* وجمعَ اثنتَيْن في بيتٍ فقال:

أُغَادي الصَّبوحَ عند هِرٍّ وفَرْتَنا ... وليداً وهلْ أفْنىٰ شَبابي غيرُ هِرّ

* وفي هِرّ يقول:

وهِرٌّ تصيدُ قُلوبَ الرِّجال ... وأفلَتَ منْها ابنُ عَمْرو وحُجْرْ

* ومن نساءِ امرىءِ القيس اللواتي جاءَ ذكرهُنّ في شعره: سلامةُ ، وقذورُ ، وماويّةُ ، وسَلمى ، وأمُّ هاشم ، وابنةُ عفزَر ، وابنةُ يشْكُر ، وأسماءُ ، وسعادُ ، وليلى ، وأمُّ الحويرث ، وأمُّ الرّباب ، وعنيزةُ ، وفاطمةُ.

* وتظهرُ في غزلهِ وتذوّقهِ الجمالَ صورةُ المرأةِ التي ترتضيها الفِطَرُ السّليمة ، وإنَّ أجملَ ما ارتآه امرؤ القيس من الجمالِ في صُويحباتِه ومحبوباتِه أنهنَّ هيفاواتٌ مديداتٌ ، فرعاواتٌ رشيقاتٌ أو بديناتٌ ، ناعماتٌ مُترفات ، وهنّ مشرقاتُ الوجوهِ ، حورُ العيونِ ، فواترُ الأجفانِ ، ساحراتُ النَّظراتِ ، لمياواتُ الشّفاهِ ، فاتناتُ الثّغور ، بيضاواتُ الأَسْنَانِ ، أسيلاتُ الخدودِ ، جيداواتُ الأعناق ، سوداواتُ الشَّعر ،

صقيلاتُ النّحور ، كاعباتُ النّهود ، ممتلئاتُ الرّوادفِ والأعجازِ ، بضّاتُ الأيدي ، دقيقاتُ الأناملِ ، عِذابُ الرّيق . . إلى غيرِ ذلك من أوصافِ وأغزالِ رسمَها لهنَّ في أشعارِه .

* وهناك شاعرٌ آخر متخصِّصٌ في المرأةِ أيضاً وهو الأعشى ، الذي رسمَ صُوراً متنوّعةَ الألوانِ والأشكالِ في أغزالهِ ، وذِكْر حبيباتِهِ ، ويكادُ الأعشى يتوّج كلّ قصيدةٍ يبدؤها بالغزلِ بذكر اسم حبيبةٍ خاصّة ، وقد اصطنعَ لذلك سبعة عشَر اسْماً ، منها ما شارك فيه شعراء آخرين من مثل : ليلىٰ ، سلمىٰ ، هند ، وسُعاد؛ ومنها ما يبدو خاصاً بقصائده وحدها من مثل : تيّا ـ ريّا ـ هريرة ، وقُتيلة؛ ومن الواضح أنَّ صيغةَ التّصغير كانت تستهوي الأعشىٰ في المرأة ، فيستخدمُ أسماء لم تَرِدْ عنده إلاّ مُصغَّرة من مثل : جُبيرة وعُفيرة وقُتيلة .

* ونلمح أنَّ أكثرَ أسماء الحبيباتِ عنده وروداً في القصائد اسم قتلة وتصغيرها قُتيلة ، تليها تَيا ، ثمّ ليلى ، وهُريرة ، وسُميّة ، وميثاء . . .

* ومن النّساء اللواتي ذكَرهنّ : سميّة حيث قال :

قـــالـــتْ سُميّـــةُ إذْ رأَتْ   بـــرقـــاً يلـــوحُ علـــىٰ الجِبَـــال

* وميثاءُ التي يقولُ فيها :

لِميْثَـــاءَ دارٌ عفَـــا رسْمُهـــا   فمـــا أنْ تبيّـــن أسطـــارُهَـــا
ديـــارٌ لميثـــاءَ حلَّـــتْ بهـــا   فقـــد بـــاعـــدتْ منكـــم دارَهَـــا

* وهند وسلمى يقولُ فيهما :

فهـــوَ مشغـــوفٌ بهنـــدٍ هـــائـــمٌ   يـــرعـــوي حيْنـــاً وأحْيَـــانـــاً يحِـــنّ
خُلِقَـــتْ هِنـــدٌ لقَلْبِـــي فتنـــةً   هكـــذا تَعـــرِضُ للنَّـــاسِ الفِتَـــن
أنْتِ سَلمى همُّ نفسي فاذْكُري   سلـــم لا يـــوجـــدُ للنَّفـــس ثَمَـــن

* وسعادُ تنقلبُ إلىٰ سُعدى بقوله:

بانَتْ سعادُ وأمسىٰ حبْلُها رابا وأحدثَ النّأي لي شوقاً وأوصابا

وأجْمَعتْ صرمَنا سعدىٰ وهجرتنا لمّا رأتْ أنَّ رأسي اليومَ قد شَابا[1]

* والمرأةُ عند طرفةَ بنِ العبد جميلةٌ، فيصفُ لنا حبيبتَه «خولة» وصْفاً جميلاً، ففي شفَتَيْها سُمْرة حلوةٌ، وفي عينَيْها كحلٌ ونُعاس، وقد لبستْ عقْداً فوقَ عِقْد من زبرجد كريم، فشبَّهها بالغزالِ في كُحْلِ عينَيها، وحدّةِ شفتَيْها، وامتدادِ عنقِها فقال:

وفي الحيِّ أحْوىٰ ينفضُ المُرْدَ شَادِن مُظاهِرُ سِمْطَيْ لُؤلؤٍ وزَبَرْجَد

خَذُولٌ تراعي رَبْرباً بخميلةٍ تناولُ أطرَافَ البريرِ وتَرْتَدي

* وهذه الحبيبةُ مغناجٌ لعوبٌ، وما أجملَ بسمتَها تنمُّ عنها شفاهٌ سُمْرٌ، فتبدو أسنانُها بيضاً كأنَّها الأقحوان الذي نبتَ على كثبانِ الرّمل، فأسنانُها برّاقةٌ لامعةٌ، كأنَّ الشَّمس أعارتْها نورها فقال:

وتَبْسمُ عن ألْمىٰ كأنَّ منوِّراً تخلَّلَ حُرَّ الرَّمْلِ دِعْصٍ له نَدِ

سَقَتْه إِيَاةُ الشَّمسِ إلاّ لثَاتِه أسفَّ ولمْ تكدِمْ عليهِ بإثمدِ[2]

* أمّا وجهُ محبوبتهِ خولة فهو في غايةِ الحُسْنِ والجمالِ، مصقولٌ، كأنَّ الشّمس قد ألقتْ عليه رداءَها فيقولُ:

وَوَجْهٌ كأنَّ الشَّمسَ ألقَتْ رداءَهَا عليهِ نقيُّ اللَّون لمْ يتخدَّدِ

* ونجدُ كذلك صُوراً جميلةً للمرأةِ عند زُهيرِ بنِ أبي سلمى، وعند

---

(١) ديوانه (ص ٧٨) و«راب»: أصبح مريباً. و«أوصاب»: أوجاع. ولم ينفرد الأعشى باصطناع أسماء وهمية لحبيباته، وإنما هناك ـ مثلاً ـ الحارث بن حلزة يبدأ بأسماء وينتهي بهند.

(٢) ديوان طرفة (ص ٢ و٣)، وانظر: شرح المعلقات العشر (ص ٧٠) و«إياة الشمس»: شعاعها.

لبيدِ بنِ ربيعة ، وعمرو بنِ كلثوم ، وكذلك عند عنترة الذي أبدعَ في رسْم حبيبته عبلةَ التي ندَّتْ منها نظرةٌ حلوةٌ مغناج والتي تشبهُ نظرةَ الغَزَال فيقول:

وكَـأنَّمـا نظـرتْ بعينَـي شـادنٍ رشـأ مـنَ الغـزلانِ ليـس بتـوءمِ

* وتفوحُ من الحبيبةِ الرّائحةُ العطرةُ الطّيّبة التي تشبهُ ريحَ المسْكِ ، ويسبقُ ذلك كلّه نكهتُها الطّيّبة إذا ما رُمْتَ تقبيلَها ؛ أو تشبه طيْبَ روضةٍ نضرةٍ طيبة:

وكـأنَّ فـأرةَ تـاجـرٍ بقسيمـةٍ سبقَتْ عَوَارِضها إليكَ منَ الفَمِ
أو روضـةٍ أُنُفـاً تضمَّـنَ نبتَهـا غيـثٌ قليـلُ الـدَّمْـنِ ليس بمَعْلَـمِ

* وشبّه عنترةُ حاجبَي الحبيبةِ بحرف النُّون في تقوسه ، كما شبّه ثغرَها بزَهْرِ الأقحوان الطّيّب الرّيحِ ، حوله أوراقٌ بيض ووسطه أصْفَر ، تشبه به الأسنان المُتباعدة ، فقال:

لها حاجِبٌ كالنّونِ فوقَ جفونها وثغـرٌ كـزَهْـرِ الأُقْحـوان مفلّـجِ

* هذا والحديثُ في هذا يطولُ بنا كثيراً لو رُحْنا نجوبُ رياضَه ، إلا أنّنا اكتفينا باقتطافِ بعض أزاهِره من آدابِ العربِ في العَصْر الجاهليّ كيما تتوضَح الفكرةُ التي نتعرضُ لها ، ونتحدّثُ عنها.

* ومع هذا كلّه ، ففي هذه الفقْرةِ الجميلةِ فوائدُ تشيرُ إلى رقّة مشاعر العربِ في العَصْر الجاهليّ ، وإلىٰ جمالِ المرأةِ عصر ذاك ، وكيف رسَمها الشُّعراء بأعذبِ ألحانِ الكلام.

* بقي علينا أنْ نعودَ إلى المتجرّدة امرأةِ النُّعمان ، وإلى أخبارِها التي وصلَتْ إلينا عبْرَ المصادرِ ، وفيها كثيرٌ من الاضطرابِ والتّزوير ، ووضع النّقاط في غيرِ مواضعها.

* ومنَ العجيبِ أنَّ بعضَ الرُّواة جعلَ من المتجرّدة امرأةً بغياً ، تخادِن

الشّاعر الفُلاني؛ أو يصفها النّابغةُ وصْفاً يعرّضُه لغضبِ النّعمان؛ إلى جانب أمورٍ لها يَدَان ورجْلان ، وأشياء أخرىٰ ما أنزلَ اللهُ بها من سُلطان ، وفيها من التّناقضات العجيبةِ والمفارقات الغريبة ، ما جعلنا نقفُ وقفةَ تَصحيحٍ ، ونعيدُ الأمورَ إلى نصابِها بإذن الله .

هَـلْ مِـنْ عَلاقَـةٍ بيْـنَ المُتَجَرِّدَةِ وَالنَّابِغَـةِ :

* قصّةُ المتجرّدةِ امرأةِ النّعمان بن المنذر ـ التي كانتْ من أكملِ أهلِ عَصْرِها جمالاً ـ هي من أشهرِ القَصَص النّسويّ في العَصْر الجاهليّ ، وأخذتْ مساحةً كبيرةً من المصادر ، وقد لعبتْ بها أفواهُ الرّواةِ ذات اليمين وذات الشّمال ، وذكروا قَصَصاً وأحداثاً بينها وبين النّابغة الذّبياني[1] ، وأحياناً بينها وبين المنخّل اليشكريّ وغيرهما من شعراءِ ذلك العَصْر السحيق اللطيفِ ، وكلُّ هذا جعلَ منَ المتجرّدةِ امرأةَ سُوء ، وامرأةً بغياً في

(١) منَ الفوائدِ هنا أنْ نشيرَ إلى أنَّ الآمدي قد ذكرَ في كتابهِ «المؤتلف والمختلف» مَنْ يُقال له النّابغة ، وأوردَ ثمانية :
أوّلهم : النّابغة الذّبيانيّ .
والثّاني : النّابغةُ الجعْديّ الصّحابيّ .
والثّالثُ : نابغةُ بني الدّيّان الحارثيّ .
والرّابع : النّابغة الشّيبانيّ .
والخامسُ : النّابغةُ الغَنويّ .
والسّادس : النّابغَةُ العدواني .
والسّابعُ : النّابغة الذّبيانيّ وهو نابغةُ بني قِتال بن يربوع .
والثّامنَ : النّابغة التّغلبيّ واسمُه الحارثُ بنُ عدوان .
(المؤتلف والمختلف ص ٢٩٣) ، وانظر (أخبار النوابغ لحسن السندوبي ص ٤٠٩ ـ ٤٦٥) .
ـ والنّوابغُ في الشّعر العربيّ كثيرون ، إلا أنَّ أوسعَهم شهرةً ، وأعلاهم شعراً وشأناً زياد بن معاوية النّابغة الذّبياني ، وهو المقصودُ عُموماً حينما يُطلق لفظ «النّابغة» مجرّداً عن النِّسبةِ .

عَصْرها ، تهوىٰ من تريدُ ، وتُدني من تشاءُ ، وهي في كنَف مَلكٍ من أكابرِ ملوكِ عَصْره حَزْماً وشدّة وغيْرةً ، وقصّة غيرة النّعمان متعالمَةٌ مشهورة في كتُب الأدبِ كالأغاني وغيره.

* ومن مهازلِ القَصص وهُزَالها ما جاءَ في بعضِ المصادر؛ أنَّ النَّابغةَ الذّبياني كان من خواص النّعمان بن المنذر ومنْ ندمائه ، وأهلِ أُنْسه ، وأنَّ النّابغةَ هذا قد رأىٰ المتجرّدة مرّةً ، وذات يوم قال النَّعمان للنّابغة: يا أبا أمامة ، صِفِ المتجرّدة في شِعْرِك. . . فقال النَّابغةُ في وصفها قصيدةً داليّة مطلعُها:

أَمِــنْ آلِ ميّــةَ رائــحٌ أو مُغْتَــدي   عَجْــلانَ ذَا زَادٍ وغيــرَ مُــزَوَّدِ

* وأنشدَ القصيدةَ كاملةً، ووصفها فيها وصفاً شاملاً ومفصّلاً ، فوصفَ بطنَها وفرجَها وأردافَها وعُكنَها وسائرَ جسمها. . وكان للنّعمان نديمٌ آخر هو المنخّل اليشكريّ ، وكان يُتَّهم بالمتجرّدة ، فلمّا سمع بهذا الشِّعر لحقَتْهُ الغيرةُ ، فقال للنعمان والحسدُ والغيرةُ يأكلان قلبه: ما يستطيعُ أنْ يقولَ هذا الشّعر إلا مَنْ جرَّب!! فوقرَ ذلك في نفْسِ النّعمان بن المنذر ، فبلغَ ذلك النّابغة ، فخَافَه ، وهربَ إلى ملوكِ غسّان[1].

* وقبل أنْ ندحضَ هذه العلاقةَ ، وهذه القصّةَ المزعومةَ المُفتراةَ ، لا بدّ لنا أنْ نعرفَ شيئاً عن أخلاقِ النَّابغة وصفاتِه ، وكذلك نتعرّفُ أخلاقَ وصفات المتجرّدة المرأة الجميلة المجني عليها.

* فتذكرُ الأخبارُ المروية على اختلافِ مصادِرها ومواردِها ـ ومن شِعْرِ الشَّاعر نفسه ، والأحداث التي أحاطتْ به ، والحياة التي كان يحياها ـ أنَّ

---

(١) انظر: خزانة الأدب (٢/١١٩ و١٢٠) بتصرف يسير. وانظر: معاهد التنصيص (١/٣٣٥ ـ ٣٣٧).

النّابغةَ كان حَسَنَ الهيئةِ ، مهيبَ الطّلعةِ ، وكان عاقلاً رصيناً ، نديماً منَ الطّراز الأوّل ، كريمَ النّفس ، عفيفَ الذّيل ، شريفَ السّيرة، مجرّبَ العود، أنوفاً ، لا يسفُّ إلى مدحِ غيرِ الملوك والعظماء ، ويقول عن نفسه :

وكنْتُ امرأً لا أمْدَحُ الدّهْرَ سُوقَةً   فلستُ على خيرٍ أتاكَ بحاسِدِ[1]

* وكان النّابغة كغيرهِ من شُعراء الجاهليّة شاعِراً غَزِلاً ، ولكنّه كانَ عفيفاً ، حكيماً عارفاً بأخلاقِ النّاس؛ والأخلاقُ في النّاس لا بدَّ من أنْ تسوءَ ، والصّداقاتُ معرضةٌ دائماً لما يعكّرُها ، ولا يأمنُ الإنسانُ منَ الحَسَدِ والدّسّ عليه ، لذلك يتوقّع كثيراً من الإساءاتِ منَ النّاس .

* ولعلّ تمكُّنَ النّابغةِ من ناصيةِ الكلمة ، وتغزّلهِ بأعذبِ الكلماتِ ، وأجملِ الأنغامِ الرّقيقةِ التي يلذُّ للأذنِ أن تسمعَها ، قد أوغرتْ صدورَ بعضِ القومِ عليه ، وأوغروا الصُّدور عليه .

* فالنّابغةُ عندما يتغزّلُ يتحدَّث عن قلبهِ وعاطفتهِ بأرقّ الكلامِ وأحلى الصُّور ، وكان ماهِراً في هذا عارفاً بما يبهرُ العيونَ ويعجبُ النّفوس ، ولعلَّ غَزَلَه فيه حُسْنُ اختيارٍ للصُّورة والمفرداتِ .

* إنَّ الرِّداءَ اللفظيَّ الجميلَ الذي يكسو النّابغةُ به عواطفَه وأحاسيسَه ، يدلُّ على أنَّ له قلباً يخفقُ بالحبّ ، وضميراً يشعرُ بالهوى ، وكان غزلُه حلوَ الكلامِ ، مستساغَ السَّماع ، وشعرُهُ يشهدُ له بذلك .

* أمّا قصيدتُه الدّالية التي زعموا أنّه وصفَ بها المتجرِّدة وأنّها أحسنُ ما قال ، ففيها من الدّقّةِ والوصفِ ما يبهرُ العقولَ ، وسنعرضُ لذلك إنْ شاءَ الله .

* أمّا صفاتُ المتجرِّدَةِ ، فنستطيعُ أنْ نستخلصَ معظمَها من القصيدةِ

---

(١) انظر : ديوان النابغة (ص ٤٥) طبعة دار بيروت ـ ١٩٨٢ م .

الدّاليةِ الطَّويلةِ المنسوبةِ إلى النَّابغةِ ـ أو المنسوب معظمها إلى النّابغة ـ والتي وصفَ فيها حجابَها وخمارهَا ونصيفَها[1] ونعومةَ يدِها وخضابَها فقال:

سَقَطَ النَّصيفُ ولم تُرِدْ إسْقاطَه فَتَنَاولَتْهُ واتَّقَتْنا باليَد
بمخضّبٍ رَخْصٍ كأنَّ بنانَه عنمٌ يكادُ منَ اللطَافَةِ يُعْقَد

(١) لعلّه منَ المفيد هنا أنْ نشيرَ إلىٰ غطاءِ وخُمُرِ النِّساء في العَصْرِ الجاهليّ ، فلقد كانت أغطيةُ رؤوسهنّ متنوعةً ولها أسماءُ وأشكالٌ شتّى ومنها:
١ ـ الخِمار: وهو ما تغطّي به المرأةُ رأسَها ، وهو شقّةٌ على الرّأس تُلَفّ على جزءٍ منَ الوجْهِ ، ومن أسمائه: النّصيف ، والقناع ، والبُرقع ، والسّبّ. وجاء ذكر الخمار في قول صخرٍ في أخته الخنْساء:
ولو هلكتُ خرقتْ خِمارَهَا واتّخذَتْ من شَعَر صِدارها
٢ ـ وإذا كانَ الغطاءُ وحْدَه فهو المِقْنَعُ ، والمقنعةُ ، وهي أصغرُ من القناع ، ذكره عروةُ بنُ الورد فقال:
فراشي فراشُ الضّيف والبيتُ بيته ولم يلهني عنه غزالٌ مقنّعُ
٣ ـ والنّقاب القناعُ على مارنِ الأنف ، وهو على وجوه: الوصوصةُ ، النّقابُ ، اللثامُ؛ قال أبو عبيد: النّقاب عندَ العربِ هو الذي يبدو منه مِحْجرُ العين. وكان النّقاب قديماً لاحقاً بالعين ، وكانت تبدو إحدى العينَين والأخرى مستورة ، وكان اسمُه عندهم الوصوصة والبُرقع؛ ومن ذكْرِ القناع قول عنترة:
إنْ تُغْدِفي دوني القناع فإنّني طبٌّ بأخذِ الفَارسِ المستلئِم
٤ ـ والوصواصُ: النّقاب على مارنِ الأنف ، لا تظهرُ منه إلا العينان ، وهو البرقعُ الصّغير ، ويسمّى البخنقُ. ومنْ ذكرَ الوصواص المثقب العبدي قال:
ظهرنَ بكلّةٍ وسدلْنَ رقماً وثقّبْنَ الوصاوصَ للعيونِ
٥ ـ البرقعُ والبرقوع: وهو للدّواب ، ولنساءِ الأعراب ، فيه خَرْقَان للعين ، والبُرقع الموصوص هو الصّغير العينين ، وقد ذكرَ البرقع توبةُ بن الحمير فقال:
وكنتُ إذا ما جئْتُ ليلىٰ تبرقَعَتْ فقد رابني منها الغداةَ سفورها
٦ ـ القناع: ما تغطّي المرأةُ رأسَها ومحاسنَها من ثياب ، وهو لباسُ الحرائر.
٧ ـ البُخنق: برقعٌ يغشي العنقَ والصّدر؛ وهو الخرقة تلبسُها المرأةُ فتغطي رأسَها ما قَبُلَ منه وما دَبُرَ غير وسط الرأس. وذكر عنترة البخنق فقال:
فخرُ الرّجال سلاسلٌ وقيودُ وكذا النّساء بخانقٌ وعقودُ

* ومن قولِ النَّابغةِ هنا يتبيّن لنا أنَّ المتجرِّدَةَ هذه ، كانت تغطّي محاسِنَها بقناعٍ أو غِطَاء[1] ، ولم تكنْ متبذّلةً كما وصفَتْها بعضُ الرّوايات

---

(١) منَ المُتعارف عليه أنَّ الحجابَ كانَ معْروفاً في الجاهليّة؛ ولم تكنِ النّساء كلّهنَ سافرات ، وإنّما سفرَ بعضهنّ ، وتحجَّبَ بعضهنّ فغطيْنَ وجوههنَّ . وقد زعمَ «فير» في دائرةِ المعارفِ الإسلاميّة (٦/ ٢٦٦) أنَّ الحجابَ لم يكنْ معروفاً في الجاهلية؛ وزَعْمُه ودعواه باطلان وغيرُ صحيحَيْن ، تدحضهما الأخبارُ الصّحيحة ، وتبطلهما الأشعارُ المأثورة عن شعراء الجاهليّة .
ـ ومنَ الأخبارِ الصَّحيحةِ في ممارسةِ النّساء للحجاب ما جاءَ في «الأغاني» : «أنَّ السَّببَ في اليومِ الثّاني من أيامِ الفجار الأوّل أنَّ شَباباً من قريش وبني كِنانة رأوا امرأةً جميلةً وسيمةً من بني عامِرٍ بسوقِ عُكاظ ، وسألوها أنْ تسفرَ فأبَتْ ، فامتهنَها أحدهم ، فاستغاثت بقومها فقامتْ حربٌ» . (الأغاني ١٩/ ٧٤) طبعة ساسي ـ مصر .
ـ وكانت هندُ بنتُ صَعْصَعة جدّةُ الفرزدق تفاخرُ بقولها : «مَنْ جاءَتْ منْ نساءِ العرب بأربعةٍ كأربعةٍ يحلُّ لي أنْ أضعَ خماري معهم فلَها صِرمَتي : أبي صعصعة ، وأخي غالبٌ ، وخالي الأقرعُ ، وزوجي الزّبرقان بنُ بدر ، وهي ذاتُ الخِمار ، لأنَّها دخلَتْ على هؤلاءِ الأربعة فألقتْ خمارَها ، فقالوا لها : ما هذا ، ولم تكوني متبرّجة؟! فقالت : داخلتني خُيلاء حين رأيتكم ، فأيّ امرأةٍ من العربِ وضَعَتْ خمارها عند مثلكم فلَها صِرْمَتي» . (النقائض ص ٢٦٤) .
ـ وفي أمثالِهم ما يؤيّد معرفتهم الحجاب كقولهم : «إنَّ العَوانَ لا تُعلّم الخِمرةَ» : أي إنَّ المرأةَ الثّيّب أو بنتَ الثلاثين لا تحتاجُ إلى تعلّم الاختمار . يُضربُ مثلاً للرجّل المجرّب (مجمع الأمثال ١/ ١٧) .
ـ والشّعرُ الجاهلي حافلٌ بذكرِ الحجابِ ، كما حفل بذكر السُّفور ، فمثلاً يقول النّمر بنُ تولَب في امرأته التي هجرتْهُ :

وصدّتْ كأنَّ الشمْسَ تحتَ قناعِها ... بدا حاجبٌ منها وضنَّتْ بحاجبِ

ـ ويعجب الشّنفرىٰ بأمّ عمرو وهي متنقّبة لا تكشفُ وجهَها فيقول من قصيدةٍ مطلعُها :

ألا أمّ عمروٍ أجمعَتْ فاستقلّتِ ... وما ودّعت جيرانَها إذ تولّتِ

ـ ومنها قوله :

لقد أعجبتني لا سُقوطاً قناعها ... إذا ما مشتْ ولا بذات تلفُّتِ
كأنّ لها في الأرضِ نسياً تقصّه ... على أمّها وإن تكلمّك تبْلَتِ

والقِصَص المُغْرِضة التي تشوّه كثيراً من حقائقِ النّساء العربيّات في كُلِّ زمَانٍ ومكَانٍ.

المتجَـرِّدَةُ وقِـصَـصٌ مكْذُوبَـةٌ:

* من العجيبِ حقّاً أنْ نجدَ كثيراً منَ القِصَص[1] قد حِيْكَتْ حولَ المتجرِّدةِ امرأةِ النّعمان، وحولَ عشقِها وشغفِها بندماءِ زوجِها، وهذا لم يكنْ من خلائقِ العربِ ولا نساءِ العرب، بل كانتِ الغيرةُ إحدىٰ خلائق العرب البارزة.

* بينما نجدُ بعضَ المصادرِ تذكرُ قصّةَ تشبيبِ النّابغة بالمتجرّدة، أو عشقها للمنخَّل اليَشْكُريّ... ثم تبعتْهَا في ذلكَ المراجعُ الحديثةُ ودخلت جُحْرَها دون تَحَرٍّ أو بحثٍ عن الحقيقةِ، أو حتى إشارة إلىٰ الخَللِ.

* فقد ذكرَ أبو عثمان الجاحظ في الكتابِ المنسوب إليهِ «المحاسن والأضداد»: «أنَّ النّابغةَ كان يشبِّبُ بالمتجرِّدة امرأةِ النّعمان بنِ المنذر، وكانت من أكملِ أهل عَصْرِها جمَالاً، فبلغَ ذلك النّعمان، فهمَّ بقَتْلِ النّابغة، فهربَ منه، وسارَ حتى أتى الشّام، والملكُ بها جَبَلَةُ بنُ الأيهم الغسّاني، فنزلَ عليهِ، وأقامَ عنده، وكتبَ إلى النُّعمان:

---

(١) منْ هنا نجدُ منَ الأخبارِ أنّه قد مرَّ ذِكْرُ المتجرّدة امرأة النّعمان في كتُبِ الأدب؛ وتروي بعضها أنَّ جلْمَ بنَ عمرو كان قد تعرَّضَ للمتجرّدة، فبلغَ أمْره النّعمان، فحَمَلَهُ على أنْ يركبَ فرسَه اليحموم فأرْداه.
ـ وتزعمُ كتبٌ ومصادرُ أدبيّةٌ أخرى أنَّ النّابغةَ الذّبياني قد وصفَها في القصيدةِ الدّالية المنسوبةِ إليه، وسمعَ النّعمان بالقصيدة ـ كما يذكرُ أهلُ الأخبار ـ، بدسِّ حسّاد النّابغة القصيدةَ والأشعارَ الأخرى إلى النّعمان، فانزعجَ منها، ولما بلغَ النّابغة الخبرَ، فَرَّ إلىٰ الغَساسنةِ لينجوَ بنفسه من عقابه، وكان النّعمان متيّماً بالمتجرّدة، وللشّعراء فيها قصائدُ مشهورات. (المفصّل في تاريخ العرب ٣/ ٢٨٨).

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرِكْ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً وليسَ وراءَ اللهِ لِلْمرءِ مذْهَبُ
لئنْ كُنْتَ قَدْ بُلّغْتَ عنّي خِيَانةً لمبْلِغُكَ الوَاشي أَغشُّ وأكْذَبُ»[1]

* ويذكرُ الأنطاكيّ خلافَ هذه القصّة في كتابه الشَّهير «تزيين الأسواق» فيقول: «المتجرّدة[2] وهي امرأةُ المنذر بن ماء السَّماء[3]، وكانت من أعظمِ نساءِ العَرب جمالاً؛ فلمّا ماتَ عنها أخذَها ولدهُ النّعمان، فكانَ يُجلسُها مع نديمَيْه: النَّابغة والمُنَخَّل، فَشُغِفَتْ بالمنخّل وامتزجَا، فأمَرَ النُّعمان يوماً النَّابغة أنْ يصفَها، فقالَ:

وإذَا طعنْتَ طَعنْتَ في مُسْتَهدِفٍ رابي المَجسَّةِ بالعَبيرِ مُقَرمَدِ
وإذَا نزعْتَ نزعْتَ عن مُسْتَحصِفٍ نَزْعَ الحَزوَّرِ بالرَّشاءِ المُحْصدِ[4]

فقال المنخَّل: هذا وصفُ معاينٍ. وحرصَ النُّعمان على قتْلِهِ، فهربَ وكان عفيفاً.

* فلمّا خرجَ النُّعمان إلى الصَّيدِ رجعَ بغتةً، فوجدَ المتجرّدةَ مع المنخّل قد ألبسَتْه أحدَ خلخالَيْها، وشدَّتْ رجْلَه إلى رجلها فقتلَه. وله فيها:

إنْ كنْتِ عاذِلَتي فَسيْري نحوَ العِراقِ ولا تَحُوري

(١) المحاسن والأضداد (ص ٢٨٠) تحقيق محمد سويد ـ دار إحياء العلوم ـ بيروت ط ١ ـ ١٩٩١ م. والواضِحُ منَ القصّةِ تناقضُها على الرّغم من قِصَرِها.
(٢) علّق محقّقُ كتابِ تزيين الأسواق على المتجرّدة بقوله: «سعىٰ المنخّل بينَ المنذرِ والنَّابغة، فشبَّبَ بالمتجرّدة لينفردَ بمنادمةِ المنذر؛ ويروى: بل كان يحبُّها، وولد المنذر منها. لقّبها النُّعمان بالمتجرّدة لأنَّه فاجأها عُريانة بلا نَصيف فوارتْ وجهَها بمعصمها». (تزيين الأسواق ٢/ ١٤). ومنَ الواضح تخبّط المحقّق هنا حيثُ خلَط بين المنذرِ والنّعمان وأشياء أخرى يدركها القارىء.
(٣) لاحظِ الخلل هنا بأنَّ المتجرّدة امرأة المنذر وليست امرأة النّعمان.
(٤) تزيين الأسواق (٢/ ١٤)؛ و«المستهدِف»: المنتصب كالهدف. و«العبير»: الزعفران. و«رابي المجسّة»: ضخم. و«مستحصف»: ضيق. و«الحزوّر»: الغلام اليافع. و«الرشاء المحصد»: الحبل الشديد.

وَلَقَدْ دخَلْتُ علىٰ الفَتَا ... ة الخِدْر في اليومِ المَطيرِ
الكَاعبِ الحسْنَاءِ ترفلُ في الدِّمَقْسِ وفي الحريرِ
فدفعْتُها فتَدَافَعَتْ ... مشيَ القَطاةِ إلىٰ الغَديرِ
ولَثمْتُها فتنفَّسَتْ ... كتنفُّسِ الظَّبيِ البَهيْرِ
فدَنَتْ وقالتْ يا مُنُخْخَلُ هَل بجسْمِكَ منْ حَرورِ
مَا شَفَّ جسْمي غيرُ حُبْبِكِ فاهْدَئي عنّي وسيْري
وأُحِبُّها وتحبُّني ... ويحبُّ ناقتَها بعيْري
ولقد شَربْتُ منَ المُدَامةِ بالصَّغيرِ وبالكَبيْرِ
فإذا سَكرْتُ فإنّني ... ربُّ الخورنَقِ والسّديرِ
وإذا صحوتُ فإنّني ... ربّ الشُّويهةِ والبَعيرِ
يا هندُ هَلْ من نائِلٍ ... يا هندُ للعَاني الأَسيرِ»[1]

* وقد ذكرَ الدكتور «جواد علي» القصَّة نفْسَها في موسوعتِهِ «المفصّل في تاريخ العربِ قبل الإسلام» ، وفي آخرِها قال: «وجاء النُّعمان فقتَلَهما ، فضربَ العربُ بهِ المثل ، فقال أوسُ بن حجر:

فجئتُ رُبيعيَ موليّاً لا أزيدُه ... عليهِ بها حتّى يؤوبَ المُنخَّلُ

وقد أشارَ ذو الرُّمَّةِ إلى المنخَّلِ بقولِه:

تُقارِبُ حتى يطمعَ النّأي في الهوىٰ ... وليستْ بأدنى منْ رجوعِ المنخَّلِ»[2]

---

(1) انظر: تزيين الأسواق (٢/ ١٤ و١٥) تحقيق د. محمد التّونجي ـ عالم الكتب ط ١ ـ ١٩٩٣ م. ومنَ الملاحَظِ أنَّ هذا الوصْفَ ليسَ لامرأةٍ مرفّهة تسكنُ قُصور الملوكِ وتنضح أردانُها بالمسْكِ والعِطْر؛ وإنَّما وصْفٌ لامرأةٍ بدويّةٍ تسكنُ الخيمةَ والخِدْرَ ، بالإضافة ذِكْرِه أشياءَ أخرى تدلُّ على ذلك منْ مثلِ: النَّاقَة ، البعير ، القَطاة ، الغدير ، الظَّبي ، وما شابهَ ذلك ، كما نلاحظُ علىٰ الأبياتِ مِسْحَةَ المرحِ والخفّةِ والدّعابةِ أكثر ممن شفَّه الحبُّ وأسْقَمه الهُيامُ.

(2) انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٩/ ٤٨٥).

* وقبل «الأنطاكي» يذكر «ابنُ قتيبة» في كتابه «الشّعر والشّعراء» أنَّ المنخَّل كان يشبّبُ بهندٍ أختِ عمرو بنِ هند ، ولها يقول:

يا هِنْدُ هلْ مِنْ نائلِ يا هنْدُ للعَاني الأَسيْرِ

* وكان المنخَّلُ يُتَّهمُ بالمتجرِّدة امرأة النّعمان بن المنذر ، وكان للنّعمان منها ولَدان ، كان النّاس يقولون إنّهما منَ المنخّل ، وهو القائلُ في النّابغة حين وصف المتجرّدة في قوله: «ما يعرف هذا إلا مَنْ جرب» ، وكان أيضاً يُتّهم بامرأةٍ لعمرو بن هند ، وكان جميلاً ، وهو القائلُ:

ولقد دَخلْتُ علىٰ الفتَا ةِ الخدْرَ في اليومِ المَطير

ومنها:

وَعَطَفتُها فتَعَطَّفَتْ كَتعَطُّفِ الظَّبي الغَرير

فَترتْ وقالَتْ يا مُنخْـ ـخَلُ ما بجسْمِكَ من فُتور

وآخرها:

يا هِنْدُ هَلْ من نائلِ يا هِنْدُ للعَاني الأسير

وأحبُّها وتحبُّني ويحبُّ ناقتَها بَعيْري

وقتلَه عمرو بنُ هند»[1].

* ونجدُ كذلك القصّة في كتاب «الأغاني»[2] لأبي الفرج الأصفهانيّ مع أبيات المنخّل ، ولكنَّ الأصفهاني يُوردُها بروايةٍ أخرى تزيدُ الطِّين بلّة والمريضَ علّة والعطشَان غلّة ، حيث يذكرُ أكثرَ من روايةٍ عن علاقةِ

---

(١) انظر: الشعر والشعراء (١/ ٤٠٤ و٤٠٥) باختصار في الأبيات فقط ، وعددها (١٢ بيتاً) ، وانظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٩/ ٤٨٥) و(٩/ ٥٩٢ ـ ٥٩٣).

(٢) الأغاني (٢١/ ٨ ـ ٩) طبعة بيروت.

المتجرّدة بالمنخّل وعن شعرهِ فيها ـ كما زعمـ ، فيقول ما نصّه: «وأخبرني بخبرِ المنخّل مع المتجرِّدة أيضاً عليُّ بنُ سليمان الأخفش[1] قال: أخبرني أبو سعيد السُّكريّ ، عن محمد بنِ حبيب ، عن ابنِ الأعرابي قال:

* كانتِ المتجرِّدةُ امرأةُ النُّعمان فاجرةً ، وكانت تتّهم بالمنخَّل ، وقد ولدتْ للنعمان غلامَيْن جميلَيْن يشبهان المنخّل ، فكان يقال: إنَّهما منه ، وكان جميلاً وسيماً ، وكان النَّعمانُ أحمرَ أبرشَ قصيراً دميماً.

* وكان للنُّعمان يومٌ يركبُ فيه فيطيلُ المُكْثَ ، وكان المنخَّلُ من ندمائِهِ لا يفارِقُه ، وكان يأتي المتجرِّدةَ في ذلك اليوم الذي يركبُ فيه النُّعمان فيطيلُ عندها ، حتى إذا جاءَ النُّعمان آذنتها بمجيئهِ وليدةٌ ـ جاريةٌ ـ لها موكّلةٌ بذلك فتخرجه.

---

(١) «الأخْفَشُ»: أبو الحسن عليُّ بنُ سُليمان بن الفضل ، كان عَالِماً ، روىٰ عن المبرّد وثعلب وغيرهما ، وروى عنه المرزبانيّ وأبو الفرج المُعافىٰ الجريريّ وغيرهما ، وهو غير الأخفش الأكبر ، والأخفش الأوسط.
وكان بينَ الأخفشِ وبين ابن الرّومي الشّاعر منافسةٌ ، فكانَ الأخفشُ يباكرُ داره ، ويقولُ عند بابِهِ كلاماً يتطيّر ويتأذّىٰ به ، وكان ابنُ الرّومي كثيرَ التّطيّر ، فإذا سمعَ كلامه لم يخرجْ ذلك اليوم من بيتهِ ، فكثرَ ذلك منه ، فهجاهُ ابنُ الرّومي بأهاجٍ كثيرة ، وهي مثبتةٌ في ديوانه ، وكان الأخفشُ يحفظُها ويوردُها في جملةِ ما يوردها استحساناً لها ، وافتخاراً بأنّه نوّه بذكْرِه إذْ هجاه ، فلما علمَ ابنُ الرّومي بذلك أقْصَرَ عنه.
ـ قال المرزباني: «لم يكنِ الأخفشُ بالمُتّسِع في الرّواية للأشْعارِ والعلْمِ بالنّحو؛ وما علمتُه صنّفَ شيئاً البتة ولا قالَ شعراً ، وكان إذا سُئِلَ عن مسألةٍ في النّحو ضَجِرَ وانتهرَ منْ يسأله».
ـ ومعنى الأخفش الصَّغير العين مع سوءِ بَصرِها. توفيَ الأخفشُ في ذي القعدة سنة (٣١٥ هـ) فجأة ببغداد ، ودُفن بمقبرة قنطرة بَرَدان ، وبَرَدان: قرية من قرىٰ بغداد خرجَ منها جماعة من العُلماء وغيرهم. (وفيات الأعيان ٣/ ٣٠١ ـ ٣٠٢).

* فركبَ النُّعمانُ ذاتَ يومٍ وأتاها المنخَّل كما كان يأتيها فلاعبَتْه، وأخذَتْ قيداً، فجعلت إحدىٰ حلقتَيْه في رجلهِ والأخرى في رجْلها، وغفلتِ الوليدةُ عن ترقُّبِ النُّعمان، لأنَّ الوقتَ الذي يجيءُ فيه لم يكن قَرُبَ بعد.

* وأقبلَ النُّعمانُ حينئذ، ولم يطلْ مكثُهُ كما كان يفعل، فدخلَ إلىٰ المتجرِّدة، فوجدَها مع المنخّل قد قيّدتْ رجلَها ورجلَه بالقيدِ، فأخذَه النُّعمان فدفعَه إلى عِكَبّ صاحب سجنهِ ليعذّبَه ـ وعِكَبٌ رجلٌ من لخم ـ فعذّبَه حتى قتَلَه. وقال المنخَّل هذه الأبيات قبل أنْ يموتَ، وبعثَ بها إلى ابنيه:

أَلاَ مَـنْ مُبْلـغُ الحُـرّيـن عنّـي ... بـأنَّ القـومَ قـد قَتَلُـوا أُبيّـا
وإنْ لـم تثـأَروا لـي مـنْ عِكَـبٍّ ... فـلا أَرويتمُـا أبـداً صَـديّـا
يطـوفُ بـي عِكَـبٌّ فـي مَعـدٍّ ... ويطعـنُ بـالصُّملّـة فـي قَفَيّـا[1]

* قال ابنُ حبيب: وزعم ابنُ الجصَّاص أنَّ عمروَ بنَ هند هو قاتلُ المنخَّل، والقول الأوّل أصحّ.

* وهذهِ القصيدةُ التي منها الغناء يقولُها في المتجرِّدة، وأوّلها قوله:

إنْ كنـتِ عَـاذلَتـي فَسيْـري ... نحـو العِـراقِ ولا تَحُـوري
لا تَسْـأَلـي عـن جـلّ مـا ... لـي واذكُـري كَـرَمـي وخِيْـري
وإذا الـرِّيـاحُ تَنـاوَحَـتْ ... بجَـوانـبِ البيْـتِ الكَسيْـرِ
ألفيتِنـي هـشَّ النّـديّ ... بمـرّ قـدِحـي أو شَجيـري»[2]

---

(١) «الصّملّة»: الحربة.

(٢) انظر: الأغاني (٢١/٩ ـ ١٠)، وهذه القصَّةُ أوردَهَا الأصفهانيّ عن المتجرّدة وأظهرَ فجورَهَا، وأكّد بأنَّ النّعمان قد قتلَ المنخّل. ومنَ الواضح تماماً أنَّ القصَّة غيرُ منسجمة، وأنّها ضربٌ منَ الخيال، وفيها منَ التّناقُضات ما يكشفُ زيفَها =

* ومنَ العجيبِ أنَّنا نجدُ الأصفهانيَّ يذكرُ في أخبارِ المنخَّلِ أنَّ النُّعمانَ قد اتَّهمَه بامرأتِهِ المتجرِّدة فقتله ، ويوردُ عدّة أقوالٍ متناقضة فقال: «وكان النُّعمان قد اتَّهمَه بامرأتِهِ المتجرِّدة ، وقيل: بل وجدَهُ معَها؛ وقيل: بل سُعِيَ به إليه في أمرِها فقتَلَه ، وقيل: بل حَبَسَه؛ ثم غَمض خبره ، فلم تُعْلَمْ له حقيقة إلىٰ اليومِ؛ فيقال: إنَّه دفنَه حيّاً ، ويُقال: إنَّه غرّقَه ، والعربُ تضربُ به المثَل كما تضربُه بالقَارظِ العنزي وأشباهه ممن هلكَ ولم يُعْلَمْ له خبَر»[1].

* ويذكرُ الأصفهانيّ قصّةً أخرى عن المتجرّدة هي أشبهُ بقصصِ بعضِ الأفلام المعاصرةِ ، ويذكر بأنَّ المنذرَ بنَ المنذر والد النّعمان قد عشقَها وكانت زوجاً لابنِ عمّ لها ، فراودَهُ على طلاقِها مقابل أنْ ينزلَ له هو الآخرُ

= وزيفَ صانعها ومُروّجها ، ومن ذلك قولُ الأصفهاني عن المنخّل: «وكان المنخّلُ من ندمائِهِ لا يفارقه» ، فكيفَ فارقَ المنخّل النّعمانَ في ذلك اليوم الذي يحتاجُ فيه النّعمان مَنْ ينادمُه؟! وهناك أشياءُ أخرى يدركُها القارىء الفَطِنُ ، وأشياءُ أخرى سنعرضُ لها بعد قليل بإذنِ الله.

ـ ثم إنَّ الأصفهاني يوردُ قصيدةَ المنخّل وعددُ أبياتُها (٣٢ بيتاً) ويقول: «وهذه القصيدةُ التي منها الغناء يقولها في المتجرّدة وأوّلها قوله». فإذا كان أوّلُ القصيدة يزيدُ عن ثلاثين بيتاً ، فكم عددُ أبياتِ القصيدة؟

ـ وفي القصيدة هذه وصْفٌ للفُرسان والقِتال ، وهذا بعيدٌ عن جوّ القصيدةِ العام كقوله:

وعلىٰ الجيادِ المُضمرا ... ت فوارسٌ مثلُ الصّقور
يخرجنَ من خللِ الغبا ... ر يجفنَ بالنّعم الكثير

ـ وبعد عدّة أبيات يدخلُ في وصْف فتاته:

ولقد دخلتُ على الفتا ... ة الخدرَ في اليوم المطير

ـ ويستمرّ هذا إلى نهايةِ القصيدة ، دون أن نجدَ أي اعتراضٍ على القصّة ، وكأنّها حقيقةٌ عند الأصفهاني. انظر: الأغاني (٢١/ ١١ ـ ١٢).

(١) انظر: الأغاني (٢١/ ٥).

عن زوجتِهِ سلمى أمّ ابنه النّعمان ، ففَعل ابنُ عمِّها ذلك . . واقرأْ معي الآن ما جاءَ به الأصفهاني عن المتجرِّدة حيثُ قال: «إنَّ المتجرِّدة ـ واسمها ملويّة؛ وقيل: هند بنت المنذر بن الأسود الكلبيّة ـ كانت عند ابن عمّ لها يُقال له: جُلْم ، وهو الأسودُ بنُ المنذر بن حارثةَ الكلبيّ ، وكانت أجملَ أهلِ زمانِها ، فرآها المنذرُ بنُ المنذرِ الملك اللخميّ فعشقَها ، فجلسَ ذات يومٍ على شَرابهِ ، ومعه جلمٌ وامرأتُه المتجرّدة؛ فقال المنذرُ لجلم: إنَّه لقبيحٌ بالرجلِ أنْ يقيمَ على المرأةِ زَماناً طويلاً حتى لا يبقى في رأسهِ ولا لحيته شعرةٌ بيضاءُ إلا عرفَتْها ، فهل لك أن تطلِّقَ امرأتك المتجرّدة ، وأطلّق امرأتي سلمى؟!

قال: نعم.

* فأخذَ كلٌّ واحدٍ منهما على صاحبه عَهْداً. قال: فطلّق المنذرُ امرأتَه سلمى ، وطلّق جلمُ امرأتَه المتجرّدة ، فتزوَّجها المنذرُ ، ولم يُطْلِقْ لسلمىٰ أنْ تتزوَّجَ جلماً وحجبَها ـ وهي أمّ ابنه النُّعمان بن المنذر ـ فقال النَّابغة الذُّبياني يذكر ذلك:

قد خادَعُوا جُلُماً عن حُرّةٍ خَودٍ حتّى تبطَّنَها الخـدَّاع ذو الحُلُـمِ

* ثمَّ ماتَ المنذرُ بنُ المنذر ، فتزوَّجَها بعده النّعمانُ بنُ المنذر ابنه . . . »[1].

* ومن الأشياءِ التي يُؤسَفُ لها أنْ نجدَ أنَّ السَّيدةَ «زينب فواز العامليّة» تذكرُ هذه القصّة والأبيات في كتابها «الدّرّ المنثور» وكأنَّ ما قرأتْ منَ الأشياء المُسلَّم بها ، فهي تؤكّدُ أنَّ المتجرِّدة زوجةَ المنذر ثمّ أخذها ولدُه النّعمانُ ثم خادنتِ المنخّل ، فتقولُ: «المتجرِّدَةُ هندُ زوجةُ المنذر بن ماء

---

(١) انظر: الأغاني (٢١/٦ ـ ٧) ، ولاحظ زواج النعمان من امرأة أبيه المنذر!!

السّماء ، كانت من أعظمِ نساءِ العرب جمالاً ، فلما ماتَ عنها أخذَها ولدُهُ النُّعمان ، فكان يُجلسُها مع نديمَيْه النّابغة والمنخّل ، فشُغِفَت بالمنخّلِ ، وامتزجَا حُبّاً. . . »[١].

* ولكي تتوضَّحَ الصُّورةُ أكثر في ذهنِ القارىء ، يجبُ علينا أنْ نتعرّف بطاقةَ المنخّل اليشكري ؛ فهو المنخّل بنُ مسعود ـ أو عُبيد ، أو عمرو ، أو الحارث ـ من بني يَشْكُر ، يروىٰ أنّه كان ينادمُ النّعمانَ بنَ المنذر مع النَّابغة الذّبياني ، وينشدُ القصائدَ ، وكان النُّعمان يكرمُه ويقرّبه إليه ، غير أنَّه كان يؤثرُ شعْرَ النَّابغةِ على شعرهِ ، فسعى المنخَّلُ بالنَّابغةِ لدى النّعمان ، وأوغرَ صَدْره عليه، حتى همَّ بقتلهِ لولا أنَّه هربَ ، وخلا للمنخّل مجلسُ النعمان، ولم يزلْ مقرّباً إليه حتى ارتابَ بهِ ، وقيل: إنَّ النُّعمانَ اتَّهمَه بامرأتِهِ المتجرِّدةِ فسجَنَه وأمْعَنَ في تعذيبهِ ، وخفيَ مصيرُه؛ فقيل: إنَّه دُفِنَ حيّاً ، وقيل: أُغْرِق ، وضُرِبَ به المثَلُ ، فيُقال في الغائبِ الذي لا يُرجى إيابه: «فلانٌ لنْ يؤوبَ حتّى يؤوبَ المنخَّل»!! كما يروى أنَّ المنخَّلَ كان يحبُّ أختَ عمرو بنِ هند ، وقد شبَّبَ بها في شِعْرِه كثيراً ، كما كان متّهماً بزوجةِ عمرو أيضاً.

* ويظهرُ أنَّ جمالَ المنخَّل وشاعريّتَه ، ورقَّةَ مشاعِره ، وظَرْفَه إلى جانبِ حبّهِ للشّراب وحسن منادمته قد هيّأتْ له تلكَ المكانةَ لدىٰ ملوكِ الحيرة وأهل بيتهم ، ويبدو إلى جانب ذلك كُلّه أنّه كان يعشقُ الغنَاء ، ويؤكّدُ ذلك قصيدته الرّائية من مجزوءِ الكامِل ، تلك القصيدة التي جعلَها طيّعة لأصواتِ المغنّين[٢] ؛ والتي لم يصل إلينا من شِعْره سواها[٣].

---

(١) انظر: الدُّرّ المنثور (ص ٤٨٨).

(٢) انظر: ديوان بني بكر في الجاهلية (ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣) بتصرف. وانظر: الأغاني (١١/ ١٨ ـ ١٩).

(٣) يذكرُ المؤرّخون أنَّ المنخّل اليشكريّ قد حبَسه الملكُ عمرو بنُ هند ثمّ قتَلَه ، ولم =

* وهكذا نجدُ الخلْطَ في الرِّواياتِ ، وتداخلِ الأحداثِ مع بعضِها ، وزَجّ المتجرّدة مرّةً هنا ، ومرّةً هناك ، ومرّة زوجة للأبِ وأخرى للابن ، ومرّة عاشقةً والِهةً ، ومرّة خائنةً فاجرة ، بالإضافةِ إلى كلامٍ لا يقبلُه أولو الألباب ، وذلك من أجلِ أنْ يختلقُوا قصّةً حولَ عفّة المتجرّدة ومَنْ ماثَلَها من نساءِ الطَّبقة الأولىٰ في ذلك االعَصْر.

* وكما رأينا في القِصَصِ والأخبارِ السَّابقة أنَّ روايةَ الأخبارِ مضطربةٌ فيها اضطراباً ظاهراً ، وفيها خَلْطٌ بين الأخبارِ دون تحقُّقٍ أو تثبُّت ، فنرى أنَّه في الوقتِ الذي يقصُّ علينا الرُّواةُ قصّة المتجرّدة وعشْقِها للمنخّل يضيفون عشقَ المتجرّدة للمنخّل وشغَفَها به، ثم يقولون: إنَّ النُّعمان قتلَه، أو قتلَهما ، بل عمرو بن هند هو قاتله؛ وسنوضحُ في الفقرةِ القادمةِ حقيقةَ ذلك بإذنِ الله.

* ومنَ المُضْحكِ أنَّ هذه القِصَص لا تحملُ معنى الفنّ القَصَصي؛ بل هي ـ على أغلبِ الظّنّ ـ ما وجَدَهُ الرّواة وأهلُ الأخبارِ والأسمارِ من قصائدَ أو قصيدةٍ استهوتْهم ، فأخذوا يتخيّلون ويمدّون ويمطّون فيها ، ويزيدون في الأبياتِ والأحداثِ لتكتملَ القصّة على النّحو الذي أرادوه.

* إنّنا نستطيعُ أنْ نعتبرَ أنَّ قصَّةَ المتجرّدة مع المنخَّل نوعٌ من أنواع القَصصِ الموضوعِ المصنوعِ ، إذ لا ترتكزُ على أساسٍ صحيح ، وقرارٍ متين.

= يجدوا دليلاً من شعرِه لتلكَ الحقبةِ الخطيرةِ من حياتهِ إلا بيْـتَين يذمُّ بِهما قومَه لتشاغلهم عن استخلاصِهِ من حَبْس الملك. (الشّعر والشّعراء ١/ ٣١٨).

ـ ولم يكنِ المنخّلُ في عصرِه مغموراً ولا مقلاً ، ولكن ذهبَ بقصائدِ حَبْسه ، أنَّه كان في الحيرةِ غريباً لا أهْلَ ولا قرابة؛ ولو تُهومِسَ بشعرِه لكانَ ذلك في حذَرٍ إذ سيفُ عمرو بن هند مصْلَتٌ لا يجرؤ أحدٌ على إشهارِ ما يسوءه، وقد أضاعَ الخوفُ والإرهابُ قصائدَه حتى عفت مع السّنين ، فلما جُمِعَ الشِّعْر ، ووضعتِ الدّواوين ، لم يُعرَفْ له من أشعار إلا هذا المقدار الضّئيل الذي وصَلَ إلينا؛ والله أعلم بحقيقةِ الصّواب.

* بل إنَّ المرأةَ في عَصْرِ الجاهلية كانت حديثَ الشُّعراء بشكلٍ عام ، وربما يتحدّثُ الشّاعر عن المرأةِ في معرضٍ شعرِهِ دون أن يذكرَ اسمَها؛ وقد يذكرُ ذلك؛ ولكنْ هل ذكرتِ المتجرّدة صراحةً في شِعْرِ المُنخّل ، أو شعر النَّابغة الذُّبياني؟!

* هذا ما تكشفُه الفقرةُ التّالية وتفصحُ عنه بإذنِ الله.

هَـلْ ذُكِـرَتِ المُتجـرِّدَةُ فـي شِعْـرِ النّابغَـةِ؟

* إنَّ الذَّخيرةَ المذخورةَ أمامنَا من الشّعر الجاهليّ ، لم تكنْ جميعُها سليمةً من الدَّخيلِ الذي حمل على الشّعر في عصْرٍ متأخّر ، أو من الفاسدِ الذي لفَّقَتْه الأهواءُ والأقاصيص ، أو منَ الموضوعِ الذي صنَعتْه أخيلةُ الرّواة والوضّاعين لقضاءِ مآربَ لهم.

* وحينما نتحدّثُ عنِ الرّوايةِ والرّواة ، فإنّما نعني الرّوايةَ الصَّحيحةَ الموثّقةَ ، والرّواة الثّقات المشهود لهم من قبلِ العُلماء بالثّقة ، وننبّه علىٰ الرّواة الوضّاعين ، ومن ثمّ نقوّمُ الخبرَ أو الشِّعر بميزانٍ صحيح ، فنأخذُ الصَّحيح الذي لا غبار عليه والذي وثّقه الرّواةُ ، وشهدَ بصحّته النّاقلون الثّقات ، وننبّه على الفاسدِ المصنوعِ أو المنسوب إلى تلك الفَترة ، أو إلى رجلٍ مشهور ، وقد رفضه النّقّاد ونبّهوا عليه.

* وممن نبّه على هذا الأمرِ منَ القُدماء «ابن سلام الجمحيّ» الذي عزا أسبابَ الوضْع إلى عاملَيْن: العصبيّة القبلية ، والرّواة الوضّاعين ، وكان ممّا قال: «. . . وكان قومٌ قد قلّت وقائعُهم وأشعارُهم ، وأرادوا أن يلحقُوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسنِ شعرائِهم ، ثم كانتِ الرُّواة بعد فزادوا في الأشعار»[1].

---

(١) طبقات الشعراء (ص ٤٠).

* ولم يَخْفَ بطبيعةِ الحالِ هذا الشّعرُ المصنوعُ علىٰ النّاقدين الأفذاذِ ، العالمين بالشِّعر والرّواية ، فكانوا يرفضونَه . وقد نبّه ابنُ سلام على الرُّواةِ الكذّابين، كحمّاد الرّاوية ورفضَ مرويّاته وبيَّنَ فسادَ روايته وحذَّر منه، وذكرَ صِنْفاً آخر منَ الرُّواة كانوا يحملُون الشِّعر الزَّائف، وهم رواةُ الأخبار والسِّير، وأشارَ إلى ابن إسحاق راوي السّيرة النّبوية فقالَ في معرضِ حديثه عن أبي سُفيان بن الحارث بن عبد المطلب: «ولسْنَا نعدُّ ما يروي ابنُ إسحاق له ولا لغيرِه شعراً، ولأنْ لا يكونُ لهم شِعْراً أحسنُ من أن يكونَ ذلكَ لهم»[1].

* ونقدَ ابنُ النّديم ابن إسحاق أيضاً على عدمِ عِلْمِهِ بالشّعر فقال: «ويُقال: كان يُعْمَلُ له الأشعار ويؤتىٰ بها ، ويسأل أنْ يُدخِلَها في كتابه السّيرة فيفعل ، فضمَّنَ كتابه من الأشْعار ما صار به فضيحةً عند رواة الشِّعر»[2].

* ففي الشِّعر الجاهليّ وبعضِ الأخبارِ أشياءُ موضوعةٌ ، ولم يكنِ النّقّاد القدامىٰ غافلين عنه ، فقد نقدوه ومحّصُوه وبيّنوا صحيحَه من فاسِدِه.

* وها نحنُ أولاءِ أمامَ أبياتٍ نُسِبت إلىٰ النّابغة ، وزعموا أنَّه أنشدَها في المتجرِّدة ، فقد جاءَ في «رسالةِ الغُفْران» لأبي العلاء المعرّي أنَّ ممّا نُسِبَ إلى النّابغة قوله في المتجرِّدة:

أَلِمّـا عَلـىٰ المَمْطُـورَةِ المتَـأَبِّـده ... أقامَتْ بها في المربعِ المُتَجرِّده
مُضَمَّخةً بالمسْكِ مخصوبةَ الشَّوىٰ ... بـدُرٍّ ويـاقُـوتٍ لَهـا مُتَقلِّـدَه
كـأَنَّ ثنـايـاهَـا ومـا ذُقْـتُ طعْمَهـا ... مجَـاجَـةُ نَحْـلٍ فـي كميـتٍ مُبَـرَّدَه
لِيَقْـرُرْ بهـا النُّعمـانُ عينـاً فـإنَّهـا ... لـه نعْمـةٌ فـي كـلِّ يـوم مُجـدَّدَه[3]

---

(١) طبقات الشعراء (ص ٢٠٦).

(٢) الفهرست (ص ٣٦).

(٣) «الممطورة»: الأرض التي أصابها المطر ، أي أرض مخصبة. و«المتجردة»: امرأة النعمان. و«الشوى»: أطراف الأعضاء ، يعني الكفين والقدمين.

* وقال المعريّ: «لعلّها لرجلٍ من بني ثعلبةَ بنِ سعد قصدَ القدومَ بها على النُّعمان»[1]!.

* إذاً فهذهِ الأبياتُ لا تصحّ نسبتها إلىٰ النّابغة، ترى ماذا عن داليةِ النّابغةِ المشهورةِ؟ هل جميع القصيدة من شعْرِ النّابغة في المتجردة - كما زعموا -؟ أمْ زِيْدَ فيها لتكتملَ معانيها؟! حَسَناً تعالوا نستجلي الحقيقة فيما يلي:

* يروي الأخباريون وأهلُ الأسْمَار والأشعار أنَّ النّابغةَ الذّبياني كان منَ الطَّبقةِ الأولىٰ من شعراءِ عصر الجاهليّة، وكان ذا قَدْرٍ كبيرٍ عند النُّعمان بنِ المنذر خاصّاً به، وكان من ندمائِهِ وأهل أُنْسِه.

* ويذكرُ هؤلاء أنَّ النّابغةَ كان ذات مرّةٍ عند النُّعمان، فرأىٰ زوجتَه المتجرِّدة يوماً، وقد غشيَها أمرٌ سقَط من أجْلِهِ خمارُهَا ونصيفُها، فاستترتْ بيدِها وذراعِها، فكادتْ ذراعُها تسترُ وجهَها لضخامةِ ذراعِها، فقال قصيدتُه الدّاليةُ التي مطلعها:

أَمِــنْ آلِ مَيّــةَ رَائــحٌ أَوْ مغْتَــدِ ... عَجْــلانَ ذَا زَادٍ وغَيْــرَ مــزوّدِ

* وفي هذهِ القصيدة يصفُها النّابغة وصْفاً فصَّل فيه تفصيلاً عجيباً، فقد وصفَ وجهَها ونَحْرهَا وبطنَها وأردافَها وعورتَها وأطرافَها وكلّ ما يخطرُ بالبالِ من هذه الأشياءِ، وكأنّه يصفُ جاريةً حبيبةً صارمَتْهُ ورحلتْ ولم تودّعه، فصار وَالهاً حيران القلبِ والخاطر.

* وعلى الرغمِ من أنّنا لا نثقُ وثوقاً تامّاً بأنَّ النّابغة قد أنشدَ هذه القصيدة جميعها، رغم وجُودِها في ديوانِهِ بجميع طبعاتِه، لكنّنا نعترفُ بأنَّ النابغةَ ذو قريحةٍ جميلةٍ مغناج في الغزلِ والنَّسيب، ولكنَّه عرف بتعفّفه وابتعادهِ

---

(١) رسالة الغفران (ص ٧١ - ٧٢) وهذه الأبيات غير موجودة في ديوان النابغة.

عن الموبقاتِ والخزايا ، بيد أنَّ تغزّله كان نزوةً من نزواتِ الشُّعراء الذين يَرَوْنَ الوجودَ كلَّه متمثلاً في الجمالِ والحبّ.

* وفي قصيدتِه الدَّالية الشَّهيرة ـ المنسوب معظمها إليه ـ يبدو النَّابغةُ حزيناً لأنَّ الحبيبةَ ذهبَتْ دونَ أنْ تودّعه ، وكانت من قبلُ صَباحاً ومَساءً ، لكنّه الآن يتمنّى ألا يحلّ الغد ، ولسان حاله يقول: لا قرَّب اللهُ الغَدَ إذا كان فيه توديعُ الأحبّة وفراقُهم ، وقد رسمَ النَّابغة هذه المعاني بالكلماتِ العذبةِ التي تقطرُ رقّةً وحناناً ودلالاً ، وتتضمَّخُ جودةً فقال:

لا مَـرْحبَـاً بِغَـدٍ ولا أَهْـلاً بِـهِ   إنْ كـانَ تفـريـقُ الأحبَّـةِ فـي غَـدِ

* ثمّ يُتْبِعُ ذلك بقولِه مصوِّراً أنَّ موعدَه منها آخر الدهر فيقولُ مخاطباً نفْسَه:

حَـانَ الـرَّحيْـلُ ولـمْ تـودِّعْ مَهْـدَداً   والصُّبْحُ والإمسَاءُ منْها مَوعدي[(١)]

* ويصفُ النَّابغة فتاتَه الغانية ـ وليستِ المتجرّدة كما زعموا ـ التي غنيتْ بجمالها عن حليها ، وقد رمته بنظراتها التي تشبه السِّهامَ القاتلةَ ، فأصابَ فؤادَه نوعٌ من حُبِّها النّافذ كالسَّهم القاتلِ ، وذلك من خلالِ جمالها ونظراتها الفاتنةِ من عينَيْها الجميلتَيْن القاتلتَيْن:

فـي إثْـرِ غـانيـةٍ رمتْـكَ بِسَهْمِهـا   فأصابَ قَلْبَكَ غيرَ أنْ لم تُقْصِدِ

ولقـد أصَـابَ فـؤادَه مـنْ حبِّهـا   عـن ظَهـرِ مِـرنَـانٍ بِسَهْـم مُصْـرَدِ

نظـرَتْ بمقْلَـةِ شَـادِنٍ مُتَـربِّـبٍ   أحْـوىٰ أحَـمِّ المُقْلتَيْـن مُقَلَّـدِ

* وهذه الفاتنةُ الجميلةُ تتدلىٰ العقودُ الذّهبيّة على صدرِها وتزيّنُ

---

(١) «لم تودع»: خطاب لنفسه. و«مَهْدَداً»: فسّرهُ الأصمعيّ بأنّه اسمُ جارية ، ولم يذكرْ في القاموسِ ولا اللسان في شرحِ البطليوسي أنّه من أسمائهنّ ، وربّما أرادَ بمهدد ميّة فقد يسمُّون المرأةَ في الشّعرِ باسْمَيْن.

نحرَها ، فتبدو كأنّها ذهبٌ متوهجٌ شُبِّهَ بالنّجم المتلألىء في كبد السَّماء :

والنَّظمُ في سِلْكٍ يزيّنُ نَحْرَها ذهَبٌ توقَّد كالشّهابِ المُوقَدِ(١)

* وتبدو هذه الجاريةُ الفاتنةُ بعد هذا كلّه صفراء من كثرةِ الطّيوبِ والعطْرِ ، وهي طويلةٌ فارعةٌ ، كالغصنِ المتثنّي اللّيّن النّاعم؛ وقد حَجَبَ حسنُها حُسْنَ السِّراج :

صَفْراءَ كالسِّيرَاءِ أُكْمِلَ خَلْقُها كالغُصْنِ في غُلْوائِهِ المتأوِّدِ

وتَخَالُها في البيتِ إذْ فاجَأْتَها قد كانَ مَحجُوباً سِراج المُوقدِ

* ويتابعُ النّابغة بنبوغٍ غزلِيٍ وصْفَه لهذه الفاتنة ، فهي سمينةٌ ، مكتنزةُ لحم البطْنِ ، حتى أصبحتْ طيّات فوقَ طيّات ، ويشمخُ ثَدْياهَا ويرتفعان ، ويضْغَطان على الثّوب ، ولكنْ يرتفعُ الثّوب بنهودِ ثديها ، وعدم ارتخائه ، وهذه المرأةُ الفاتنةُ ذات كتفَيْن جميلَيْن أمْلَسَيْنِ مكتنزَيْن ، وبشرتُها بيضاء ، وأردافُها ممتلئة ، تتراءى من تحتِ سترِها الرّقيق المشقوق الوسط ، شبيه بالشّمس يوم تعرضها في برجِ الحمَلِ ، وهي أحلىٰ وأجمل ما تكون حينذاك؛ اسمعْ إليه يقول :

والبطنُ ذو عُكَنٍ لَطيفٌ طَيُّهُ والإتْبُ تَنْفُجُه بثَدْيٍ مُقْعَدِ

محطوطةُ المتنَيْن غيرُ مُفَاضَةٍ ريّا الرَّوادِفِ بضَّةُ المُتَجرّدِ

قامَتْ تراءَى بينَ سَجْفَي كلّةٍ كالشَّمْس يومَ طُلوعها بالأسْعُدِ(٢)

* كما أنّه يشبّه هذه الجارية بالصَّدفة والدّرّة الخارجة من البحرِ التي إذا

---

(١) جاء في الأغاني في مثل هذا المعنى رواية أخرى لهذا البيت ، ولم ترد في الديوان :

بالدُّرّ والياقُوتِ زُيِّنَ نَحْرُها ومفَصَّلٍ مِنْ لؤلؤٍ وزَبرجَدِ

(٢) ديوان النابغة (ص ٣٩) ، و«العكن» : ما انطوى من لحم البطن من السمن. و«الإتب» : ثوب . و«تنفجه» : ترفعه عن بقية الصدر . و«ريا» : ممتلئة . و«تراءى» : تظهر نفسها . و«الأسعد» : برج الحمل .

رآها الغوّاص هلّلَ وكبّر وسجدَ ، بل إنّها لشدّة جمالها تبدو كأنّها دميةٌ وتمثالٌ وصورةٌ من المرمرِ ، ـ والمرمر: هو الرّخام الأبيض والأحمر ـ ترفع وتزين بالقرميد:

أو درّةٍ صـــدفيّـــةٍ غـــوّاصُهَـــا بَهِـجٌ متـى يَـرَهَـا يهـلُّ ويَسْجُـدُ
أو دميّـةٌ مـنْ مَـرمَـرٍ مـرفـوعـةٍ بُنيَـتْ بـآجُـرٍّ يُشَـادُ بِقَـرمَـدِ

* وها هو ذا النّابغةُ يكونُ أكثرَ رشاقةً ودقّةً في رسمِ متجرّدته ـ كما زعموا ـ وقد صوّرها في دقّةٍ وجمالٍ يعجزُ عنهما المصوِّرُ البارعُ. . لقد سقَطَ النَّصيف ، وهو كلُّ ما غطّى نصف البدنِ ، أو الوجه ، فتناولَتْه بإحدىٰ يَديْها ، وأسرعَتْ بيدها الأخرى فوضعَتْها على عورتها تخفيها ، أو على وجهها تخفيه ، والصُّورة التي صنَعها النَّابغةُ لا تنطقُ بالحركةِ فحسبْ ، وإنّما تنطقُ كذلك بالتَّعبير النَّفسي للمرأةِ ، فاضطرابُها عند لقائِهِ فجأةً ، وعند سقوطِ النَّصيف ، وفزعُها مع الخجلِ عندما أرادت أن تحجبَ عنه ما انكشفَ منها ، كلُّ هذه العواطف والحركات واضحة في الصّورة نحسُّها ونلمسُها في قوله:

سَقَطَ النَّصيْفُ ولمْ تُرِدْ إسْقَاطَه فَتَنَـــاولَتْـــه واتَّقَتْنَـــا بـــاليَـــدِ

* ثم يصفُ كيفَ اتَّقتِ النَّاظرينَ إليها بكفّ حمراءَ مخططةٍ بالحنّاء ، ويكادُ من لطافتِه ونعومتهِ أنْ يُعْقَد ، فقد شبّه بنانها بالعنَمِ وهو شجرٌ ليّنُ الأغصانِ لطيفُها كالصّفصاف ، والعنمُ أيضاً زهرٌ أحمرُ مستطيلٌ مثلُ الأصابع؛ فيقول:

بمخضَّـبٍ رخْـصٍ كـأنَّ بنـانَـه عنَـمٌ يكـادُ مـنَ اللطـافـةِ يُعْقَـدُ[1]

---

(١) في هذا البيت إقواء ، وفي رواية معاهد التنصيص (١/ ٣٣٥): «عنم على أغصانه لم يعقد». وانظر: الأغاني وغيره في هذا المجال.

* ولعلَّ فتاته قد جَمدَتِ الكلمةُ على شفتَيْها عندما سقطَ نصيفُها ، فلم تقدرْ على إظهارِ حاجتها ، فشبَّهها بالإنسانِ المريضِ غيرِ القادر على الكلامِ ، والذي ينظرُ إلى مَنْ يزورُه :

نَظَرتْ إليكَ بحاجةٍ لم تقْضِها   نظرَ السَّقيمِ إلى وجُوه العُوَّدِ[1]

* وبعد أنْ يذهبَ روعُها ، تستعيضُ عن الكلام بابتسامةٍ حلوةٍ لطيفةٍ ، فيشبّهُ سوادَ شفتَيْها بقوادم الطّائر ، وتكون شديدة السّواد ، كما يشبّه بياضَ ثغرِها ببياضِ البردِ ، وقد نثرتِ الإثمدَ على لثتها ليشتدَّ بياض أسنانِها ، كما يشبّه لون ثغرِها بالأقحوانِ في بياضِه إلى صفرةٍ عندما تمطرُ السّماء ، فيزول ما علقَ عليه من غبارٍ ، فيكون صافياً :

تَجْلُو بقادمَتَي حَمامةِ أيكةٍ   بَرَداً أُسِفَّ لِثاتُهُ بالإثْمِدِ
كالأُقْحوان غَداةَ غِبّ سمائِهِ   جفَّتْ أَعَاليهِ وأسْفَلُه نَدي

* وتأتي بعد ذلك النّقاطُ الحاسمةُ في القصيدةِ ، ويبدأُ النّابغة ـ كما زعموا ـ بالممنوعاتِ ، فيأخذُ في وصْفِ عذوبةِ فمِها كما حدَّثَه النّعمان ، وأنّه شهيُ الموردِ ، يشفي العطشَان ، ويرويه أيضاً بطيْبهِ وطيْب رائحتهِ ، يقول :

زَعَمَ الهُمامُ بأنَّ فَاهَا باردٌ   عذْبٌ مقبَّلُهُ شَهِيُّ المَوردِ
زَعَمَ الهُمامُ ولم أذقْه أنَّه   عذْبٌ إذا ما ذُقْتَه قُلْتَ ازددِ
زَعمَ الهُمامُ ولم أذقْهُ أنَّه   يُشْفىٰ بريَّا ريقها العَطِشُ الصَّدي

---

(1) ديوانه (ص ٤٠) ، وانظرْ إلى كثرةِ الألوانِ في البيتِ الآتي من نفْس القصيدة ـ وقد سبق الحديث عنه ـ حيثُ كانَ الشّاعرُ دقيقاً في رسْمِهِ عندما صوّر نظرتَها إليه بنظرةِ الظّبيِ المكتمل الذي قد اكتحلتْ عينُه فهي سوداء ، والذي هو أسمرُ البشْرة في احمرارٍ ، والذي يتقلّد بقلادةٍ تزيّن جِيْده :

نظرتْ بمقلةِ شادنٍ متربّبٍ   أحوى أحمّ المُقلتَيْن مُقلّدِ

* وهذه الفتاةُ الفاتنةُ الجميلةُ المتزيّنةُ بالدّرّ واللؤلؤ ، لو عرضَتْ لراهبٍ لم يتزوَّجْ ، لأدامَ النَّظرَ إليها ، ولاستطار لحسنِ حديثها ، وعذوبةِ كلامها ، بحيث لو سمعَتْه الوعولُ النّافرة لأَنِسَتْ ونزلَتْ من الهضابِ لسماعِها:

لَو أنّها عرضَتْ لأَشْمطَ راهبٍ　　عَبَدَ الإلهَ صرورةٍ مُتعبّدِ
لَرَنَا لرؤيتها وحسْنِ حديثها　　ولخَالَه رشَداً وإنْ لم يرشدِ
بتكَلُّمٍ لو تستطيعُ كلامَه　　لدنَتْ له أروىٰ الهضابِ الصُّخَّدِ

* ثم يصلُ النّابغة بعد ذلك كلّه إلى الذّروةِ في الجرأةِ ، حيث يكشفُ بوصفِهِ لفتاتهِ عن أشياءَ ممنوعةٍ ، ويذكر عورتَها ، ويصفُ الشَّعر الأسودَ المحيط بعورتها ، وقد تجعَّدَ وكثر ، كالكرمِ الذي أُسْنِدَ بعضُه على بعضٍ ومالَ على الدّعائم ، وفي هذا يقول:

وبفاحمٍ رَجْلٍ أثيثٍ نَبْتُهُ　　كالكَرمِ مَالَ على الدِّعام المُسْندِ

* ويتوسَّعُ في وصفِ الفرجِ ، ويبسطُ القولَ في ذلك ، فهو عريضٌ في غلظٍ وارتفاعٍ ، وهو ملءُ اليدِ قد حازَ على ما حولَه وارتفعَ؛ وإذا نظره يراهُ أقمر مركناً ضخماً له أركان:

فإذا لَمسْتَ لَمسْتَ أخْثَمَ جاثِماً　　متحيّزاً بمكانِهِ ملءَ اليَدِ
وإذا نَظَرتَ رأيتَ أقْمر مشْرِقاً　　ومُركَّناً ذا زرْنَبٍ كالجلمَدِ

* وهل بعد هذا الغَزلِ غزلٌ أكثرُ واقعيّةً من هذه الوجهةِ التي دخلَ فيها في الممنوعات؟! . . إذاً لنتابع بقيّة الوصفِ الذي أدخلوهُ على قصيدةِ النّابغة لينهُوا به «المشوار» .

* فهذا الفرجُ رابي المجسّة ، عظيم المَلْمَس ، مدهونٌ بالطّيْبِ والعبيرِ في حالةِ الطَّعن ، لكنَّ حقيقتَه في حالةِ الجذْبِ والإخراجِ أنّه ضيقُ ينتزع ما أدخل فيه ، كما ينتزعُ الحبلُ المفتول الضّيّق:

وإذا طعنْتَ طَعنْتَ في مُسْتَهدفٍ رابـي المجسَّـةِ بـالعَبيـرِ مُقَـرمَـدِ
وإذا نزعْتَ نزعْتَ عن مُستَحصِفٍ نَـزْعَ الحَـزَوَّرِ بـالـرَّشـاءِ المُحصَـدِ

* ومنَ الملاحظِ أنَّ هذه الأبيات مزينةٌ بالاستعارةِ على ما في الوصفِ من الإفحاشِ ، وذلك في كلمتَي: «طعنتَ ونزعتَ»؛ والطَّعنةُ تكون للسّكين أصْلاً ، وليس لما أدخل في الفرج هنا ، وكذلك الحالُ في لفظةِ «نزعتَ»[١].

* وتتجلّى ذِروةُ الوصفِ الإباحي الصَّريح في قوله:

وإذَا يَعَـضُّ تَشُـدُّه أعضـاؤُه عـضَّ الكبيـرِ مـن الـرّجَـالِ الأَدْرَدِ

* حيث يستعيرُ لفظةَ العضّ ، وهي للأسنانِ أصْلاً ، فيشبّه هذا العضّ بِعَضِّ الذي سقَطَ مقدّم أسنانِهِ ، فلا يؤذِ ، وإنّما يجدُ لذةً في ذلك.

* ويتابعُ النَّابغةُ الجولةَ الأخيرةَ ليقولَ في وصفِ فتاتِه ، ووصفِ ما لا ينبغي وصفه بأنَّ مَنْ ذاقَه لا يستطيعُ الابتعاد عنه ، ومن ابتعدَ عنه لا يجدُ منهلاً أفضلَ منه ، حتى أصبح جزءاً لا يتجزّأُ منْ حياتِهِ وذاتِهِ[١] ، يقول:

وَيَكادُ ينزعُ جلْدَ مَنْ يُصْلىٰ به بلَـوافِـحِ مثْـلِ السَّعيـرِ المُـوقَـدِ
لا وَارِدٌ منهـا يَحُـوزُ لِمصـدَرٍ عنْهـا ولاَ صَـدِرٌ يَحُـوزُ لِمَـورِدِ[٢]

* هذه هي معظمُ أبياتِ القصيدة الدّالية النَّابغيّة التي ملأتْ دُنيا القصائدِ وشغلتِ النَّاس ، ترىٰ هل هي في وصْفِ المتجرّدة ـ كما زعموا ـ أم أنّها منحولة؟! في السُّطور التَّوالي نستجلي بعضَ الأمر بإذن الله.

---

(١) انظر كتاب: الطبيعتان الحية والصامتة في الشعر الجاهلي (ص ٥٥٩ ـ ٥٦٠) بتصرف.
(٢) انظر: ديوان النابغة (ص ٣٨ ـ ٤٢) طبعة بيروت ، وديوانه (ص ٩٣ ـ ٩٨) طبعة تونس.

المتَجَـرِّدَةُ ووقْـفَـةُ تَصْحِيْـح:

* إنَّ ما قرأناهُ في قصيدةِ النَّابغةِ للمتجرّدة، تجعلُنا نقفُ وقفةَ تأمُّلٍ أمامَ النُّصوصِ التي وصلَتْ إلينا، والتي تجعلُ منَ المتجرِّدةِ امرأةً غير موثوق بها، بل وتجعلُ من النعمان رجلاً لا يغارُ على عِرضِهِ.

* منْ ذلك ما ذكرَهُ ابنُ قُتيبة فقال: «إنَّ النُّعمانَ قال للنَّابغةِ وعنده المتجرّدة: صِفْها لي في شِعْرِك يا أبا أمامة! فقال قصيدتَه التي أوّلها: «أمن آل ميّة رائح أو مغتد..» وذكرَ فيها بطْنَها وعكُنَها ومتْنَها وروادفَها وفرجَها فقال:

وإذا لَمْستَ لمسْتْ أخْثَم جَاثِماً   مُتَحيِّـزاً بمكـانِـهِ مِـلءَ اليَـدِ
وإذا طَعَنْتَ طَعَنْتَ في مُسْتهدَفٍ   رابـي المجسَّـة بـالعبيـرِ مُقـرمَـدِ
وإذا نزعْتَ نزعْتَ من مُستَحْصَفٍ   نَزْعَ الحزوَّر بالرَّشَاء المُحصَدِ»[1]

* وفي «الأغاني» يذكرُ «الأصفهاني» ذلك فيقول: «قال النُّعمان للنَّابغةِ: يا أبا أُمامة، صِفِ المتجرّدة في شِعْرِك، فقال قصيدتَه التي وصفَها فيها، ووصفَ بطنَها وروادفَها وفرجَها. فلحقتِ المنخّل من ذلك غيْرَةٌ، فقال للنُّعمانِ: ما يستطيعُ أنْ يقولَ هذا الشِّعر إلاّ مَنْ جرّبه، فوقرَ ذلك في نَفْسِ النُّعمان، وبلغَ النَّابغة، فخافَه، فهربَ، فصار في غسَّان.
قالوا: وكانَ المنخَّل يهوىٰ هنداً بنتَ عمرو بن هند، وفيها يقولُ:

ولَقَـدْ دَخَلْـتُ عَلـىٰ الفَتَـا   ةِ الخِـدْرَ فـي اليَـومِ المَطيْـرِ

قال: فبلغَ عَمْراً خبرَ المنخَّل فأخذَه فقتلَه. وقال المنخّلُ قبل أنْ يقتلَه وهو محبوسٌ في يدهِ يحضُّ قومَه على طلبِ الثّأْر به:

طُلَّ وسْطَ العِراقِ قَتْلي بِلا جُرْ   مٍ وقـومـي يُنْتِجُـون السِّخَـالا»[2]

---

(١) الشعر والشعراء (١/ ١٦٦).
(٢) الأغاني (١١/ ١٧ ـ ١٩) و(٩/ ١٦٦) طبعة ساسي بمصر.

* إنَّ هذا النَّص الذي قرأناه يهمّنا أهميّةً كبرىٰ ، فهو يخلطُ بينَ الأخبارِ خلْطاً واضِحاً ، فهو في الوقتِ الذي يقصُّ علينا قصَّة المتجرِّدةِ مع المنخَّل والنَّابغةِ ، يضيفُ إلى هذه قصّة عشْقِ المنخّل لابنةِ عمرِو بنِ هند ، تلك القصّة التي قالَ المنخّل فيها شِعراً حُبِسَ منْ أجلهِ ، ثم قُتِلَ؛ وكان قتلُه في أيّام عمرو بنِ هند الذي سبقَ النُّعمانَ بنَ المنذر ، وسبقَ المتجرّدة بما لا يقلّ عن عِقْدٍ منَ الزَّمنِ ، ومعنى هذا أنَّ الخبرَ يؤكِّدُ أنّه مضطربٌ ، فهو يَرِدُ في صورتَيْن؛ الأولى عشْقُ المنخّل للمتجرّدةِ ، وهو أمْرٌ يمكن أنْ نشُكَّ فيه كلَّ الشَّك عندما نرىٰ من بقيّة القصّةِ أنَّه قُتِلَ في زمنِ عمرو بنِ هند. والثَّانية ما نراهُ منَ العَجب العُجاب ، وذلك عندما نتابعُ بقيّة الخبر ، ونرى أنَّ النَّعمانَ بنَ المنذر الملكَ الغيورَ ، والذي يغارُ على زوجهِ المتجرّدة أشدّ الغيرة يرضى بأنْ يكلِّفَ النَّابغة بتصويرِ امرأته عاريةً في قصيدةٍ لمْ تخلُ من دعارةٍ وفجْرٍ ، ثمّ يسمحُ النّعمان لنفسهِ أن يستمعَ إلى القصيدةِ حتى نهايتها في جَمْعٍ من أصدقائهِ وسمّاره ، وبعدَ هذا كلّه لا تتيقّظُ غيرتُه إلا بعد أنْ ينبّهها المنخّل ، وهو الملكُ العربيّ الأصيلُ الغيور!!..

* ثمَّ كيفَ يستطيعُ المنخَّلُ أنْ يقولَ للملكِ النُّعمان هذا القولَ العجيبَ الغريبَ الذي نستبعدُ أنْ يصدرَ من شاعرٍ إلى ملكٍ كبيرٍ عندما يقولُ للنّعمان: «ما يستطيعُ أنْ يقولَ هذا الشّعْرَ إلا منْ جرَّبه»؟! ألا ترى أنَّ في هذا القولِ طعناتٌ مسمومةٌ قاتلةٌ موجّهةٌ إلى الملكِ الغيورِ في وقاحةٍ ونَزَقٍ وتعريض؟!!

* لعلَّ بعضَ الرُّواةِ ، أو من أُغْرِمَ منهم بالشِّعر ، كانوا إذا وجدوا بيتاً جميلاً منَ الشِّعر ، أو وجدوا خَبراً يمكنُ أن تدورَ حولَه قصّة ، استهوتهم القصّةُ ، وأخذوا يمدّون في البيتِ ، ويزيدونَه بوضعِ أبياتٍ جديدةٍ أخرى لتكتملَ القصّة.

* يقولُ الدّكتور محمد زكي العشماوي في كتابه «النّابغة الذّبياني»: «ونستطيعُ أنْ نعتبرَ قصّةَ المتجرّدة هذه نوعاً من هذا القَصَص، ونستطيعُ أنْ نعتبرَ قصيدةَ المتجرّدة نوعاً من هذا الشّعر الذي وُضِعَ لأغراضٍ مثل تفسير أو تزيين لقصةٍ من القِصَص أو توضيح لاسمٍ منَ الأسماءِ، أو شرح لمثَلٍ من الأمثال»(١).

* ومن ها هنا نشكُّ في قصيدةِ المتجرّدة شكاً يدفعُنا إلى إنكارِها، أو إنكارِ معظمها، للأسبابِ التي أوردنَاهَا آنفاً، ومنها نصّ الأغاني المُضطرب غير المنطقي ولا المقبول، ثم كيفَ ترضىٰ امرأةٌ سليلةُ الأكارم كالمتجرّدة أنْ تتعرّى أمامَ النّابغة ومن ثمَّ يصوّرها ويرسمُها بكلماته؟! يُضافُ إلى هذا القصيدة «الدّالية النّابغيّة» نفسها، فنحنُ قد تعرضنا لها بالشّرحِ والتّحليلِ والتّقويم فيما مضى منَ الصّفَحات، ورأينا أنَّ الشّاعر يذكرُ أكثرَ من اسمٍ لفاتنته وفتاتِهِ، فهي «ميّة» في مطلَعِ القصيدة، وهي «مَهْدَدُ» في البيتِ الخامس؛ وهي «جارةٌ قريبة» في أبياتٍ بعدها؛ ولعلَّ سائلٌ أو مُعترض يقول: إنَّ هذه الأسماء رموزٌ يرمزُ بها عن المتجرّدة. فلماذا يصرّحُ بها في نهايةِ القصيدة ويذكر الهُمام زوجها، وأنّه حدّثَه عن فمها العذبِ الشّهيّ النّدي، وأنّه لم يذقْه، وإنّما جاءَتْه هذه الصّفات عن الملكِ الهُمام؟!

* يجيبُ الدّكتور محمد زكي العشْماوي عن هذا السُّؤال بوضوح فيقول: «واعتقادي أنَّ هذه الأبيات الثّلاثة التي وردَ فيها ذِكْرُ الهمام قد اقتضَتْها حاجة القصّة في تبرئةِ النّابغة آخر الأمْرِ؛ فالقصيدةُ حريصةٌ أنْ تضعَ هذه الجملة الاعتراضيّة في الأبياتِ الثّلاثة لتؤكّد للقارىء أنَّ النّابغةَ لم يذقْ فمَ المتجرّدة، ولم يحسّ عذوبته، ولكنّه قد علمَ العذوبةَ عن الهمام:

---

(١) انظر: النابغة الذبياني (ص ٧٧) بشيء من التصرف.

زعـمَ الهمـامُ بـأنَّ فـاهَـا بـارِدٌ عَــذْبٌ مُقبّلُــهُ شَهِــيُّ المَــورِدِ
زعــمَ الهمــامُ ولــمْ أذُقْــهُ أنَّــه عــذْبُ إذا مــا ذُقْتَــه قلــتَ ازدَدِ
زعــمَ الهمــامُ ولــم أذُقْــهُ أنَّــه يُشْفىٰ بريّا ريقِها العطشُ الصَّدِي

وإذا صحَّ أنَّ النُّعمان لم يحدّثْه عن عذوبةِ فم زوجتِه ، وأنَّ النَّابغةَ لفرطِ حبّه للمتجرّدة قد تخيّله متحدّثاً إليه بجمالها ، فإنّ هذا يتعارضُ مع روحِ النَّابغة ، وحرصهِ في علاقَتِه بالملوك»[1].

* وهذه القصيدةُ الدّاليةُ الشّهيرةُ تحفلُ في نهايتها بنوعٍ من الدَّعارةِ والمُجون ، فنجدُ وصفاً حسّيّاً جنسيّاً صريحاً ، قد يكون فيه شيءٌ من الجَمالِ الفنّي في التصوير ، ومع ذلك لا ينبغي لأَبْلَهٍ أنْ ينسبَه لزوجةِ مَلِكٍ ، هو في الوقتِ نفسه صديقٌ له ، ووليٌّ لفضْلِهِ ونعمته.

* وإذا صحَّ أنَّ هذه القصيدة قيلَتْ فعلاً ، وأنَّ الذي أنشأَها وصاغَها هو النَّابغة ، وأنَّها لم تُنْشَدْ أمامَ الملك وإنَّما سمعَ الملك بخبرها ، بأنْ قيلَ له إنَّ النَّابغةَ قد عرض للمتجرّدة في قصيدة ، فإنَّ ذلك مستبعدٌ ، لأنه لو كان يحبُّها ، لرأينا وقرأْنَا له فيها شِعْراً آخرَ ، ولوجدنا لهذه القصيدة ، ولهذا الفنّ في وصْفِ المرأةِ أمثلةٌ كثيرةٌ في ديوان النَّابغة؛ ولكنّنا لا نظفرُ في الدّيوانِ كلِّه على شيءٍ من هذا الفنّ الذي جاءَ في هذهِ القصيدة.

* وإذا قيل : إنَّ علاقتَه بالمتجرِّدة قد بُترت بانقطاعهِ وبُعْدِهِ عن النُّعمان ، فإنَّه لا يُعْقَلُ أنْ تنقطعَ صِلَتُه الرُّوحية بالمتجرّدةِ ، وأنْ يتجرَّدَ من ذكرياتِه ومن ماضيهِ ، وألاّ يظهرَ كلّ هذا في شِعْره ، وفي قصائدَ تفيضُ لوعةً وشوقاً.

* ولو كان هذا هو السَّببُ الحقيقيُّ لغضبِ النُّعمان على النَّابغة ، فإنَّه

---

(١) انظر : النابغة الذبياني (ص ٧٩ ـ ٨٠).

لا يمكنُ أنْ يعودَ النُّعمان فيعفو عن النَّابغة ويصفحَ عنه ويقرِّبه إليه. ولو كان هذا الوصفُ قد قيلَ في تصويرِ جاريةٍ عند النُّعمان، أو رسم صورة لامرأةٍ عاريةٍ على سبيل الرّياضة الشِّعرية، لما كان هناك تردّد بها وقبولها[1].

* هذا وقصيدةُ النّابغة صورةٌ حيّةٌ لامرأةٍ فتّانة المحاسنِ، إذا استثنينا بعضَ أبيات خارجةٍ عن الذوق. وخلاصة القول في قصيدةِ المتجرّدة، إمّا أن تكونَ موضوعة، وُضعَتْ فيما بعد لتؤيّد القصّة الشّائعة المنتشرة عن غضبِ النُّعمان على النَّابغة، وحينئذٍ لا يمكنُ أنْ تكونَ هذه القصيدة سبباً منَ الأسبابِ التي دعتِ النُّعمان أنْ يخاصمَ النَّابغة ويتوعّده، وإما أن تكونَ هذه القصيدةُ قد قالَها النَّابغة وهذا شيءٌ يبدو بعيداً وغريباً إذا قرأنا الدّيوان، وعلى فرض أنّنا سلّمنا بأنّ هذه الدّاليّة من قصائدِ النَّابغة، فلا يمكن التّسليم أنّها قيلت في المتجرّدة امرأةِ النّعمان.

* أمّا هروبُ النَّابغة من وجْهِ النُّعمان، وغَضَب النُّعمان عليه، فسببُه ليس المتجرّدة كما زعمَ المغرضون وشوهوا صُورَ النِّساء العربيّات، ووضعوهنَّ في مقاماتٍ لا تليقُ بهنَّ ولا بأمثالهنَّ؛ إذاً فما سببُ هروبِ النَّابغة من وجْه النُّعمان بن المنذر؟

* تذكرُ المصادرُ عدّةَ أسبابٍ متباينةٍ لهروبِ النَّابغة من النَّعمان، منها أنَّ النَّابغةَ ـ كما زعموا ـ أنشدَ مُرَّة بن سعد القريعيّ داليّته التي ذكرَ فيها المتجرّدة، فأنشدَها مُرّةُ النُّعمانَ، فامتلأَ غضَباً فأوعدَ النّابغة وتهدَّده، فهربَ منه، فأتى قومَه، ثم شخصَ إلى ملوكِ غسَّان بالشَّام فامتدَحَهم.

* وقيلَ: إنَّ عصامَ بنَ شَهْبَرٍ الجرميّ حاجبَ النُّعمان أنذَره وأعْلَمَه ما يريدُه النُّعمان، وكان صديقَه، فهربَ.

---

(١) المرجع السابق (ص ٨١) بشيء من التصرف.

* وقيل: إنَّ السَّبب في هربهِ منَ النُّعمان أنَّ عبد القيس بن خُفَاف التّميميّ ، ومرةَ بنَ سعد بن قريع السّعدي عَملا هجاءً في النُّعمان على لسانِ النَّابغة ، وأنشدا النعمان منه أبياتاً وفيها ما فيها من فحشٍ وإقذاعٍ وتعريضٍ به وبأمّه وجده.

* وقيل: إنَّ مرةَ بن سعد القُريعي الذي وشى بالنَّابغة ، كان له سيفٌ قاطعٌ يُقال له ذو الرّيفة من كثرةِ فِرَنْده وجوهرِهِ ، فذكَرَهُ النابغةُ للنُّعمان ، فأخذَهُ ، فاضطغَنَ ذلك القريعي حتى وشىٰ به إلى النُّعمان وحرضه عليه.

* وقيل: إنَّ سببَ هرب النَّابغة من النُّعمان وشاية المنخّل به في تلك القصيدة الدّالية[1].

* وهكذا نلاحظُ أنَّ معظمَ الأقوالِ والأخبارِ تشيرُ إلى أنَّ الأمرَ هو مجرّدُ وشايةٍ من قومٍ كرهُوا النَّابغة وحقدُوا عليهِ ، وتملّكهم الحَسَدُ ، والانتقامُ منْهُ ، فأرادوا أنْ يبعدوا بين النَّابغة والنُّعمان ، فبعضُهم وشَى به لأنَّه أخذ سيفَه ، ونسبَ إليه أشعاراً لم يقلْهَا ، ونجدُ أنَّ النابغةَ يقسمُ بأنَّه لم يقلْ شيئاً ممّا بلغَ إلى النُّعمان ، إلا أنْ تكونَ مقالة أقوامٍ كأنّها قرّعَتْ كبده لشدّتها وقوة نفاذها إلى نفسه ، وفي هذا يقول:

فَلا لَعَمرُ الـذي مَسّحتُ كعبتَـه ... ومَا هُريَق على الأنصابِ من جَسَدِ
والمؤمنِ العائذاتِ الطير تمسَحُها ... رُكبـانُ مكّـةَ بيـنَ الغَيْـلِ والسَّنـدِ
ما قلتُ من سيىءٍ مما أتيتُ به ... إذاً فلا رفَعَتْ سَوطي إليّ يَدي
إلا مقـالَـةَ أقـوامٍ شقيـتُ بِهـم ... كانَتْ مقالتُهم قَرْعاً علىٰ كبدي[2]

---

(١) انظر في ذلك الأغاني (١١/ ١٥ ـ ١٧) بتصرف يسير ، ومعاهد التنصيص (١/ ٣٣٥ ـ ٣٣٧).
(٢) ديوانه (ص ٣٥ ـ ٣٦).

* ونجدُ كذلك في قصيدةٍ أخرى أنَّ النَّابغةَ يهاجمُ بني قريع بن عوف ويتّهمهم بالوشايةِ ، ونجدُ كذلك قصائد أخرى يدافع فيها النّابغة عن نفسهِ من وشايةِ الوشَاة وكذبهم.

* وفي بائيته المشهورة:

أتـانـي أبيـتَ اللّعـن أنَّـكَ لُمتنـي ... وتلـكَ التـي أهتـمُّ منهـا وأنْصَـبُ

يبيّنُ النّابغةُ أنّه اتّصل بملوكِ غسّان وأنَّه مدحَهم ، وآثر أنْ يكونَ صديقَ الجميع ، وهذا أثار غضبَ النُّعمان ، بيد أنَّ النَّابغةَ يبرّرُ للنُّعمان ذلك ، فهو وإن كانَ قد اتّصل بهؤلاءِ الملوكِ وصادقَهم ، فَلِمَ الغَضَبُ ، وأنتَ يا نُعمان مِنْ هؤلاءِ الملوكِ بمنزلةِ الشَّمس منَ الكواكبِ الصَّغيرة المنتشرةِ حولَها ، إذا طلعَتْ تلاشَتِ الكواكبُ ، ولم يَعُدْ لها ولا لضيائِها وجودٌ ، فضياءُ الشَّمس غالبٌ عليها ، ولمَ الغضبُ وأنتَ قد أُعطيْتَ من المكانةِ والسُّلطان ما ترىٰ كلّ سلطان يتذبذبُ إلى جوارِه ، وترىٰ منازلَ الملوكِ تتوارى خَلْفَ منزلتك:

فَإنَّكَ شمسٌ والملوكُ كواكبٌ ... إذا طلعَتْ لم يبدُ منهنّ كوكبُ

فـلا تتـركنّـي بـالـوعيـدِ كـأنّنـي ... إلى النّاس مَطليٌّ به القَارُ أجربُ

أَلَــمْ تــرَ أنَّ اللهَ أعطــاكَ سُــورةً ... تـرىٰ كـلَّ مَلْـكٍ دونَهـا يتـذبـذَبُ

* ثم ينهي قصيدته باستعطافِ النُّعمان بأنْ يعفوَ عن الأخطاءِ ، فأيّ الرّجال المهذّب؟! وقد يكون مع هذا كلّه مظلوماً ، ولكنّه لا يتبرّمُ بذلك ، بل يتوقّع الرّضا:

وَلَسْــتَ بمُسْتَبْــقٍ أخــاً لا تلمُّــهُ ... علَى شَعَثٍ أيُّ الرّجالِ المهذّبُ

فـإنْ أكُ مظلـومـاً فَعَبـدٌ ظلمْتَـه ... وإنْ تكُ ذا عُتبى فمثْلُك يعتَبُ[1]

---

(1) ديوانه (ص ١٧ ـ ١٨).

* وهكذا نجدُ في هذهِ القصيدة الشَّهيرة بأنَّ غضب النُّعمان على النَّابغة كان لشيءٍ آخر غير المتجرّدة ، وإنّما كانت ثورةُ النعمان عليه لعدمِ ولائهِ التّام له ، ولأنّه لم يوقفْ حياتَه عليه وقْفاً كاملاً ، بل خطبَ النَّابغة وُدَّ الغَسَاسِنَة ، فأثارَ حفيظةَ النُّعمان عليه.

* وهكذا نجد أنَّ قضيّةَ المتجرّدة وقصّتها بريئةٌ من هذا الخلط براءةَ الذّئب من دمِ يوسُف.. كما أنَّ القصيدةَ المزعومةَ في المتجرّدة ، والإفحاشَ في أبياتها الأخيرة ليست من نَظْم النَّابغة؛ وهناك ملاحظة يجدرُ بنا أنْ ننتبهَ إليها ، وهي في الأبيات التي نُسبت إلىٰ النَّابغة:

«وإذا لَمَسْتَ لمست... إلى قوله: بالرشاءِ المُحصد» حيث نجدُ تشابُهاً بينها وبينَ أبياتٍ من القصيدةِ المعروفةِ باليتيمةِ ، والموجودة في ديوان «العَكَوّك» واسمه: عليُّ بنُ جَبلَة ، وتُنْسبُ هذه القصيدة اليتيمة لأكثر من شاعرٍ ، منهم: العكَوَّك علي بن جبَلة ، وأبو الشَّيص الخزاعيّ ، ودوقلة المنبجيّ ، بل تنازعها وادّعاها شعراء كثُر ، ومطلع هذه القصيدة:

هَـلْ بـالطّلـولِ لسـائِـلٍ ردُّ ... أمْ هَـل لَهـا بتكلّـمٍ عَهْـدُ

* وهـي قصيـدةٌ طـويلـة تعـدُّ (٦٦ بيتـاً) مثبتـةٌ فـي ديـوانِ العكـوّك (ص ١١٥ ـ ١١٩)؛ وفي القصيدةِ أبياتٌ تحملُ نَفْس معنى أبياتِ النّابغة ، بل إنَّ القافية دالية ، والبحر نفسه من البحر «الكاملِ»:

ولَهـا هَـنٌ رَابٍ مجسَّتُـهُ ... ضَيْـقُ المَسـالِـكِ حَـرُّهُ وَقْـدُ
فكَـأنَّـه مـنْ كبْـرِهِ قَـدَحٌ ... أَكَـلَ العيـالُ وكبَّـهُ العَبْـدُ
فـإذا طعنْـتَ طعنـتَ فـي لَبـدٍ ... وإذا سَللـتَ يكـادُ ينْسـدُّ

* ومع هذه الجرأةِ والكلام المكشوفِ ، نجدُ كثيراً من الألفاظِ متكررةً في القصيدتَين على الرغم من تباعدِ العصْرَيْن ، فالنَّابغةُ جاهليٌّ ماتَ قبلَ الهجرةِ بـ (١٨ سنة) أي سنة (٦٠٤ م)؛ والعكوّك مات في سنةِ (٢١٣ هـ)

فالفارقُ بينهما قرابة قرنَيْن ونصف؛ فأي منَ الشَّاعرين نصدّق؟ وأيّهما كان مقلّداً للآخر؟!

* إذاً ، ألا يوجدُ هناك شَخْصٌ قد وضعَ هاتَيْن القصيدتَيْن في عصرٍ متقارب؟! ولعلّه بالقرن الثَّالث الهجريّ أو بعده قليلاً؟ أليس الأمرُ يحتاجُ إلى رويّة لمعرفةِ الحقيقة؟!

آراءُ مضْطَرِبَـةٌ حَـوْلَ المُتَجـرِّدة:

* ممّا لفتَ نظرنا في قصّةِ المتجرّدة ، أنَّ كثيراً من القَصَصِ والأخبارِ المتناقضةِ التي وردَتْ عن المتجرّدة قد جعلتِ الآراءَ فيما بعد تضطربُ ، بل إنَّ كثيراً من المصنّفين قد جاءت أحكامُهم غير صحيحةٍ ، وكانت مضطربةً حولَ المتجرّدة ، ومنهم أبو العلاء المعريّ الذي ذكر المتجرِّدة في معرضِ حديثِهِ عن عدي بنِ زيد ، وأوردَ بأنَّ النُّعمان قد قَتَل جَلَم بنَ عمرو حيث أركبَه على فرسِه اليحموم فوقعَ عنها فماتَ ، يقولُ المعريّ على لسان عديّ ما نصُّه من جملة حديث «. . . أنْ يلحقَني ما لحقَ جَلَماً صاحبَ المتجرّدة لمّا حُمِلَ على اليحمومِ ، والتّعرض لما لم تسبقْ به العادةُ منَ المُومِ. . .»(١).

* وبعد عدّة صفحاتٍ نجدُ المعريّ مع النَّابغة في «رسالةِ الغُفران» يسألُه عن قصيدتِهِ في وصْفِ المتجرّدة فيقول: «يا أبا أُمامة ، إنّك لحصيفُ الرّأي لبيبٌ ، فكيفَ حسَّنَ لك لُبُّكَ أنْ تقولَ للنُّعمانِ بنِ المُنذر:

زعـمَ الهمـامُ بِـأنَّ فـاهَـا بـاردٌ ... عــذْبٌ إذا مــا ذقْتَـه قلــتَ ازدَدِ
زعـمَ الهُمـامُ ولـم أذقْـه بـأنَّـهُ ... يشْفىٰ ببردِ لِثَاتِها العطشُ الصَّدي

---

(١) رسالة الغفران (ص ٦٢) طبعة دار صادر. و«اليحموم»: فرس النعمان بن المنذر. و«الموم»: الشر.

فيقول النَّابغة بذكاءٍ وفَهْم: لقد ظلمَني مَنْ عابَ عَليَّ ، ولو أنصفَ لَعَلِمَ أنّني احترزتُ أشدَّ احترازٍ ، وذلك أنَّ النُّعمان كانَ مُستهتراً ـ مُولَعاً ـ بتلكَ المرأةِ ، فأمرني أنْ أذكرَها في شِعْري ، فأدرْتُ في خَلَدي ـ بالي ـ فقلتُ: إنْ وصفتُها وصْفاً مُطلقاً ، جازَ أنْ يكونَ بغيرِها معلَّقاً ، وخشيتُ أنْ أذكرَ اسمَها في النَّظم ، فلا يكونُ ذلك موافِقاً للملكِ ، لأنَّ الملوكَ يأنفونَ من تسميةِ نسائِهم ، فرأيتُ أنْ أسندَ الصِّفةَ إليهِ فأقول: زعمَ الهُمام ، إذ كنتُ لو تركتُ ذكره لَظَنَّ السَّامعَ أنَّ صِفَتي على المشاهـدةِ ، والأبيات التي جاءتْ بعد داخلة في وصْفِ الهُمام ، فمن تأمّل المعنى وجدَه غير مختلّ»(١).

* ويتابعُ المعريّ رحلتَه مع النَّابغة قائلاً: «يا أبا أُمامة ، فأنشدْنا كلمتك التي أوّلها:

أَلِمّـا علـىٰ المَمْطُـورةِ المتـأبِّـده	أقامَتْ بها في المَرْبَع المتجرّده
مُضَمّخةٌ بالمسْكِ مخضوبةُ الشّوى	بـدرٍّ ويـاقـوتٍ لَهـا مُتَقلِّـده
كـأنَّ ثنـايـاهَـا ومـا ذُقْـتُ طَعْمَهـا	مجـاجـة نَحْـلٍ فـي كُميـتٍ مبرَّدَه
ليَقْـرْ بهـا النَّعمـانُ عينـاً فـإنَّهـا	لـه نِعمـةٌ فـي كـلّ يـومٍ مجـدَّده

فيقولُ أبو أمامة: ما أذكرُ أنّي سلكتُ هذا القَريَّ ـ الرّوي ـ قطّ. فيقولُ مولاي الشّيخ: إنَّ ذلك لَعَجب ، فَمَنِ الذي تطوّع فَنَسبَها إليكَ؟

فيقول: إنَّها لم تُنْسَبْ إليّ علىٰ سبيلِ التطوّع ، ولكنْ على معنى الغَلط والتّوهم ، ولعلّها لرجلٍ من بني ثعلبةَ بنِ سَعد.

* فيقولُ نابغةُ بني جَعَدة: صحبني شابٌ في الجاهليّةِ ونحنُ نريدُ الحيرةَ ، فأنشدني هذه القصيدة لنفسهِ ، وذكر أنَّه منْ ثعلبةَ بنِ عكاية ،

---

(١) رسالة الغفران (ص ٦٩ ـ ٧٠).

وصادفَ قدومَه شكاةً من النُّعمان فلم يصلْ بها إليه. فيقول نابغةُ بني ذبيان: ما أجدر ذلك أنْ يكونَ!»[١].

* وهكذا نلاحظُ اضطرابَ أخبارِ المتجرّدة في صفحاتِ «رسالةِ الغُفران» وفي موضعٍ واحد، فمرّة تُتهمُ بجلمٍ بن عمرو، ومرّة بالنّابغة، ومرة يتقوّلُ بعضُهم على النَّابغة، وأشياء أخرى تجعلُنا في شكّ ممّا وصلنا عن المتجرِّدة.

* ويأتي بعضُ الأخابثِ منَ المُستشرقين من مثل المستشرق: «هَارتُوج دِيْرنْبِرج» Hartwig Derenbourg الذي نشرَ ديوان النَّابغةِ، والذي كان شديدَ الإيمان بقصّة المتجرّدة، ويعتقدُ أنَّها السّببُ المباشرُ الذي أخرجَ النَّابغة من جنّةِ النُّعمان؛ ثمّ يأخذُ على النَّابغة بعضَ تصرّفاتِهِ، يلومُه لأنَّه قرأ قصيدةَ المتجرِّدة أمامَ عدوّ من أعدائِهِ مرّة بن سَعْد بن قُريع، كأنَّما يُسلّمُ بتفاصيلِ القصّة، وكأنَّ السَّبب عنده في غضبِ النُّعمان هو هذه القصَّة[٢].

* وجاء بعضُ المستغربين فزادوا الطّين بلّة، وأكّدوا قصّة المتجرّدة مع النَّابغة ومع المنخّل، ففي تحقيقه لديوانِ النَّابغة الذّبياني، يقول «كَرَمُ البُستاني» في المقدّمة ما نصُّه: «وقد حظيَ ـ النَّابغة ـ عند أبي قابوس النُّعمانِ بنِ المنذر ملكِ الحيرةِ، فقرّبَه إليه دونَ سائرِ الشُّعراء، وجعلَه في حاشيتِه ينادمُه ويؤاكلُه في آنيةٍ من الفضّةِ والذَّهبِ. وهو أوّلُ شاعرٍ تَكَسَّبَ بشعرِه، فكثُـرَ مالُـه، وقد جـرَّ عليه تقريب النُّعمان لـه، وإغداقـه عليه العطايا، حَسَدَ المنخّل اليشكريّ، الشّاعر، وأبناء عوف بن قريع،

(١) رسالة الغفران (ص ٧١ ـ ٧٢).
(٢) انظر: النابغة الذبياني (ص ١٠) لمحمد زكي العشماوي، بتصرف يسير.

وكانوا من بطانةِ النُّعمان ، فأخذوا يتربّصون به ، ليبعدوه عن بلاطِ المَناذرة.

* واتّفق أنْ نظمَ النّابغةُ قصيدتَه الشَّهيرةَ في المتجرِّدةِ زوجِ النُّعمان ، وذكرَ في وصْفِه لها ما لا يليقُ ذكره ، فاتَّخذها المنخّل اليشكريّ ـ وكان يهوىٰ المتجرِّدة ـ حُجةً لإيغارِ صَدْرِ النّعمان عليه ، فخافَ النَّابغةُ ، وهربَ إلى قبيلتِهِ ، فاغتنمَ الأقارعُ فرصةَ غيابهِ ونظمُوا على لسانِه أبياتٍ في هجوِ النُّعمان ، وأوصلوها إليه ، فزادوا من نقمتِه عليه»[1].

* ويأتي محقّقُ ديوان النّابغة «محمّد الطَّاهر بن عاشور» لينقلَ دون تحقيقٍ أقوالَ مَنْ سبقه فيقول ما نصّه: «وقال ـ النّابغةُ ـ يمدحُ النّعمانَ بنَ المنذر ويعتذرُ إليه مما بلغه عنه؛ أيّ مما بلغَ النّعمان عن النّابغةِ ، وذلك في أمْرِ المتجردة ، قال في ديوانِه الموجود مع ديوان الشّعراء السّتة من روايةِ الأصمعيّ: كانتْ عند النُّعمان المتجرّدة ، وكان النَّابغةُ يجالسُه ويسامرُهُ ، ومعه رجلٌ من بني يَشْكُر يُقال له المنخّل ، وكان جميلاً ، وكان يُتّهم بالمتجرّدة ، فقال النُّعمان للنَّابغة: صِفْها ، فقال قصيدته: «أَمِنْ آلِ ميّة رائحٌ أو مغتد. . .» فوشىٰ بنو قُريع إلى النَّعمان ورمَوْهُ بها ـ أي رموا النَّابغة بالمتجرّدةِ ـ فكان ذلك بدءُ غَضَبِ النُّعمان عليه»[2].

* وفي تقديمه لأربعةِ أبيات ميميّة مطلعُها:

أَلَـمْ أقسـمْ عليـكَ لتخبِـرنّـي أمحمـولٌ علـىٰ النَّعش الهمـام؟

يقولُ الطّاهرُ بنُ عاشور أيضاً ما نصُّه: «ثَقُلَ النُّعمان من مرضٍ أصابَه ،

(١) انظر: ديوان النابغة (ص ٦) بتحقيق كرم البستاني ـ دار بيروت للطباعة والنشر ـ ١٩٨٢ م.

(٢) انظر: ديوان النابغة الذبياني (ص ٧٦) بتحقيق الطاهر بن عاشور ـ طبعة تونس ـ ١٩٧٦ م.

فكان يُحمَلُ على سريرٍ يُنْقَلُ ما بينَ الغَمْر وقصوره التي بالحيرة ، وكان قد حَجَبَ النَّابغة لِمَا بلغه عنه من أمرِ المتجرّدة ، وكان النَّابغة إذا أرادَ الدّخول أخبرَه عصامُ حاجب النّعمان أنّه عليلٌ. . . »[1].

* ثمّ يأتي بعد ذلك صاحبُ «موسوعة الشِّعر العربي» ليجمعَ خُبْثَ مَنْ سَبقَه ، ويجلوه بثوبٍ خبيثٍ جديدٍ ، ويجعلَ من المتجرّدةِ امرأةً فتّانةً تعرضُ مفاتِنَها وهي شِبْهُ متجرّدة من ثيابِها تعرض جَسَدها المتجرد أمامَ النَّابغة لتقومَ أمامَه ومن ثم يرسُمها بالكلماتِ ، لنستمع إلى ما تحدَّث به عن المتجرّدة حرفيّاً ، وليلاحظِ القارىءُ الكلامَ المعسولَ الممزوجَ بالسُّم الزُّعاف حيثُ يقولُ ما نصُّه عن المتجرِّدة :

«لعلّ من أكثر ما مدّ بشهرة النابغة ، في أرجاء الأدب القديم ، هي قصيدته المطوّلة ، المعروفة باسم «المتَجَرِّدة» والتي تجرأ بها ، فوصف زوجة النعمان ملك الحيرة ، وهي شبه متجرّدة من ثِيابها .

ولا شك في أن النَّابغة إذ كان يدرك حقّاً مَغَبَّة هذه القصيدة ، كان يغامر مغامرة الفنَّان أمام الجمال ، وقد تجاوز كلّ مَحْظور ، وأطاع حواسَّه المفتونة بمعالم الرّوعة الأنثوية .

وهو لم يُعطِ لحياته قيمة تفوق قيمة استبداد الجمال به ، وشعوره بتبعيّة تمجيده ، وخلقه ثانية علىٰ مستوىٰ الفنّ والمثال . وقد يكون الشّاعر وجد لنفسه مبرّراً ، كما قال عن الغواص في قصيدته ، حين انتزع الدّرة من الصّدفة ، فما إن رآها حتَّى تهلَّل لها وسجد .

وكذلك كان الأمر ، وبالنّسبة إليه هو ، عندما سقط النّصيف عن زوج

---

(١) المرجع السابق (ص ٢٣٢).

النّعمان أمامه ، فما كان منه إلاّ أن مجَّدَ الجمال العاري ومارس انفعاله به ، دون تحفّظ من أية مسؤولية أمام السّلطان.

ولقد حشد النابغة أعظم إمكاناته كمصور وناحت ، ومتأمّل وناظم لدرر الجمال والأنوثة ، وكَمُلَحّن ، يكشف أنغام الفِتْنة في الجسد المُتَجَرّد ، ويرسم خطوطه الموسيقية المنغمة بدقة هاوٍ أصيل.

فإذا بالمتجردة تقوم أمام الناظر ، وكأنها ، حَقّاً ، دُمية عاج منحوتة الشكل بفنيّة رائعة ، حتى إنّ الشّاعر لم يَنْس أن يصوّر كيف رفع النَّهْدُ الثَّوْب عالياً ، هكذا ، ليسقط كالهالة حول الجسد القائم وراء شفوفه.

ثم كانت انبثاقة الجسد من بين سجْفتي كِلَّة ، كالشَّمس يوم طلوعها ، أو كدرّة خرجت من الصَدَفة. وتأتي هذه اللّوحة الحركية ، عندما يحكي الشّاعر كيف سقط النصيف ، دون أن تريد إسقاطه ، وكيف حاولت أن تُخْفي فتنتها بكفّها وأنملها ، وكأن الأنمل كذلك عنصر فتنة إضافية جديدة ، وصفه الشّاعر فقال: إنه «يكاد من اللّطافة يعقد». ولكن التمثال كان كذلك إنساناً. فأسرع الشّاعر ليُبْرز وجود الأنوثة النفسي من وراء وجودها الجسدي ، فحرّك اللوحة ، وأحيا التِّمثال. ووصف النَّظرة التي طغت منه ، عندما وجدت صاحبته نفسها في هذا الموقف أمام الشّاعر ، فأرادته أن يراها ، وألا يراها في الوقت نفسه ، فقال هذا البيت الرائع:

نَظَـرَت إلَيْـكَ بِحَـاجَـةٍ تَقْضِهـا   نَظَـرَ السَّقِيـمِ إلـى وُجُـوهِ العُـوَّدِ

أعطته المُتْعة من بعيد ، وحرمته منها في الوقت نفسه ، وقام العالم كلُّه هكذا بينهما ، فرنّت الفجيعة من أصداء هذا البَيْت. وأكثر من هذا ، فإن النابغة يبرهن على علوّ في استخدام هذا البَيْت. وأكثرْ من هذا ، فإن النابغة يبرهن على علوّ في استخدام أساليب المواربة ، والحوار الفني المُبَطَّن ، ويكشف بذلك عن خيال مثقَّف راق ، وخاصة في المقطع الّذي يحاول فيه

أن يقطع المسافة بينه وبين المتجردة ، وأن يتخيل تَلاحُماً حيّاً بينهما . فيلجأ إلى لسان الهُمام ، ليقول بواسطته أوصافاً عن ثغرها ، ولَمَاها ، وريقها العذب . . . وفي الوقت نفسه يعترف أنّه لم يقربه ، وبذلك يزيد في إغراء الوصف وجاذبيته الحسية .

ويعرض النابغة ، في مقطع تالٍ ، إلى الرّاهب الأشمط الّذي يخضع لِجمالها ، بدون اكتراث لعقله ، كأن الشّاعر يُعْطي لنفسه المبرر الأخلاقي الّذي يجعله يَتَعَبّد للجمال ، ويظلّ في براءة ذلك الرّاهب .

ولكن الشّاعر سمح لنفسه أن يتخيّل في نهاية هذه الملحمة الحسيّة ، منظراً للتمتع المباشر بالمتجردة ، أو سواها . وقد جاءت معالجته لهذا المنظر في منتهىٰ البراعة اللفظية والفنيّة ، حتى جعل الصور تتلامح من بعيد ، ومن خلال الأوصاف بدون المسمَّيات ، وبطريقة التلخيص والتكثيف في الرُؤْية . وفي الانفعال»[1] .

* وبهذا الأسلوب المبطّنِ الخبيثِ تظهرُ المتجرّدةُ عاريةً عن الفضيلةِ ، من مثل قوله : « . . عندما وجَدَتْ صاحبته نَفْسها في هذا الموقفِ أمامَ الشَّاعر ، فأرادته أنْ يراهَا ، وألاّ يراها في الوقتِ نَفْسه . . . » وقوله : «أعْطَتْهُ المتعةَ من بعيد ، وحرمَتْه منها في الوقتِ نفسه؛ وقام العالَم كلّه هكذا بينهما . . . » .

* ولا ندري في الحقيقةِ لماذا يريدُ هؤلاء تشويه حقيقة نساء علْيةِ القوم العربيّات؟! مع العلْم أنَّ المرأةَ العربيّة الحُرّة كانتْ تأنفُ من الخَنَا ولا تكادُ تتصوّره ، فكيف يجعلُ هؤلاء منها امرأةً سهلةَ المنال؟! وإذا كانت نساءُ

---

(١) انظر موسوعة الشعر العربي (٢/ ٢٤٠ ـ ٢٤١)؛ شركة خياط للكتب والنشر ، بيروت ـ لبنان ـ ١٩٧٤ م .

عِلْيَةِ القومِ بهذا المستوىٰ المتردّي ـ كما يزعم المغرضُون ـ فكيف كانت نساءُ العامّة؟!

* إنَّ معظمَ ما وصلَ إلينا من قَصَصٍ عن غرامِ المتجرّدةِ أو انحرافِها لا نقبلُه في ميزان المنطق ، حيث إنَّ نساءَ الملوكِ العرب في العَصْر الجاهليّ كُنَّ من الصِّيانةِ والأدبِ والحشمةِ في مكانٍ سامٍ ، شهدَ لهنَّ التّاريخُ بذلك ، وكذلك الآثارُ والأشعارُ والأخبارُ التي تحدَّثَتْ عن مجدِ المرأةِ العربيةِ ومكانتها قبل الإسلام.

ـ أمّا عن نهايةِ المتجرّدة وختامِ حياتها ، فلا نعلمُ شيئاً بعد هذه الحادثةِ وتلكم القصّة المنسوجة نَسْجاً رديئاً ، إلا أنَّ ابنَ حزم الأندلسي يُوحي في «جمهرة أنساب العرب» بأنّها أدركتْ عَصْرَ النّبوة ، وذلك عند ذِكْر بني قُشَير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة قال: «وهبيرةُ بنُ عامر بن سلمة الخير ، أسرَ المتجرّدة امرأة النُّعمان ، فلمّا عرفَها أطلقَها»(1).

* وهكذا يقفُ التَّاريخُ هنا ، فلا يحدّثنا عن أخرياتِ حياةِ المتجرّدةِ المرأةِ المجني عليها ، وتسكتُ المصادرُ أيضاً فلا تحدثنا عن نهايتها.

* وتبقىٰ المتجرّدة مثالَ المرأةِ العفيفةِ الجميلةِ في دنيا النّساء المشرقياتِ اللواتي نشأنْ في الحلْيةِ ، وتنعمنَ بالدِّيباج والدّرّ والياقوتِ.

* * *

---

(1) انظر: جمهرة أنساب العرب (ص ٢٨٩).

الباب الثاني
نساء من عصر المخضرمين

الخنساء بنت عمرو

سفّانة بنت حاتم

الفارعة بنت أبي الصّلت

هند بنت أُثاثة

الخنساء بنت عمرو

* أميرة شاعرات عصرها ، ومن الجميلات الآسرات في قبيلتها ، مع عقلٍ راجح ، وحَزْم واضح .
* رفضت الزواج من دريد بن الصمة فارس هوازن وسيد بني جشم .
* تشرَّفت بالإسلام ، وعزَّت به ، ونُظِمت في عداد الصحابيات .

أَمِيـرَةُ شَاعِـرَاتِ عَصْـرِهـا :

* كانَ الشِّعرُ العربيُّ يذيعُ وينتشرُ ، ويتخطّىٰ الفيافي والآفاق ، وكان يحفظُه ويرويهِ جيلٌ بعد جيْلٍ ، ويحفظُه الرّجالُ والنّساءُ على السَّواء .

* وقد نبغتْ نساءٌ منَ المشرقِ العربيّ في هذا الفنِّ ، ورويْنَ الشِّعْرَ وأنشَدْنَه وقُلْنَه ، واشتُهرتْ منهنّ طائفةٌ غير يسيرةٍ في العصر الجاهليّ ، وما تلاه من عصورٍ إلى وقْتِنا الحاضر .

* فالعربُ أمّةٌ شاعرةٌ بليغةٌ، وكان العربُ يعتزّونَ بشعْرِهم أيّما اعتزاز ، ويتّخذونَه وسيلةً لِتَخليدِ مآثِرهم، والإشادةِ بفضائِلهم، والإشارةِ إلى محامدِهم ، قال لُوبُون : «ولم يكنْ منَ اللغو أنْ نقولَ : إنَّ العربَ قرضُوا وحدهم منَ الشِّعْر ـ في الجاهلية والإسلام ـ أكثرَ ممّا قرضته أممُ العالَم مجتمعةً»[1] .

* ومع هذا الحجمِ الكبيرِ من الشِّعرِ والفيضِ الزَّاخر مِنْ شعْرِ الرِّجال ، لا نجدُ إلا قلّة من شعْرِ النّساءِ ، ولعلَّ مردَّ ذلك إلى أنَّ كثيراً منَ الشِّعرِ الجاهليّ قد فُقِدَ كثيرٌ منه عَبْر الزَّمنِ ، فضاعَ من شِعْرِ النِّساء كثيرٌ وبقي قليل ، ولعلَّ هناكَ سبباً هو أنَّ الشّاعرَ كان لسان قبيلتِهِ ، يذيعُ محامدها ، ويهجو خصومَها ، ولم تكنِ المرأةُ لِتَقومَ في القبيلةِ هذا المقام ، لذلكَ قَلَّ في شعرِ النِّساء ذكْرُ الحروبِ والأيّامِ التي كانت منتشرةً في العَصْرِ الجاهليّ ، لذلك قلَّ شعرُ النِّساء الذي وصَلَ إلينا .

* وهناكَ ناحيةٌ أخرى ، وهي أنَّ العربَ كانوا يؤْثرونَ الفحولةَ والجزالةَ في الشِّعر ، وقد وجدوا ذلك في شِعْرِ الرّجال ، بينما وجدوا في شعْرِ النّساء سهولةً وليناً وضعفاً ، فلم يحفلُوا به .

---

(١) حضارة العرب (ص٥٤١).

* لكنَّ هذا كلّه لم يمسحْ من تاريخ العربِ ، ومن تاريخِ النساءِ المشرقيّات شعرهنّ وأدبهنّ وبلاغتهنّ وأثرهنّ الجميلَ الذي وَعَتْه أذنُ التَّاريخ الواعية ، ومن ثمَّ برزتْ وظهرتْ أسماء منهنّ مجليةً في ميادينِ الفضائلِ ، وميادين الأدب والشّعر والحكمةِ والمَثَلِ والسِّياسةِ والحريةِ والعلْمِ والجهادِ ، وسائرِ ألوانِ الحياة.

* ومن بين مشاهيرِ النّساء الخالداتِ يسطعُ اسمُ الخنساءِ بنتِ عمرو بن الحارث من آل الشَّريد السُّلميّة[1] ، التي نحفلُ ونحتفلُ ، ونسمعُ ونستمتعُ بسيرتها في هذه الصَّفحات ، وعبر هذا الكتابِ اللطيفِ الجميلِ.

* وللخنساءِ السُّلميّة هذه ديوانُ شعرٍ مشهور مُتعالَمٍ بين أهلِ الأدبِ والمعرفةِ والعلْم ، حتى يجوزَ لنا أنْ نسميَها أميرةَ شاعراتِ عَصْرِها ـ إنْ صحَّ التَّعبير ـ.

* ومن الجديرِ بالذكر أنَّ هناكَ شاعراتٌ قد اشتُهرنَ في العصر الجاهليّ

---

(١) المصادر التي تحدثت عن الخنساء كثيرة جداً تبلغ المئات ، ومنها: ديوان الخنساء في طبعاته المتنوعة والمختلفة ، وانظر: زهر الآداب (٢/ ٩٢٧ـ٩٢٨) ، والحماسة البصرية (٢/ ٧٣ ـ ٧٨) ، والشعر والشعراء (١/ ٣٤٣ ـ ٣٤٧) ، والوافي بالوفيات (١٠/ ٣٨٨ ـ ٣٩٦) ، والاستيعاب (١٢/ ٢٩١ ـ ٢٩٨) ترجمة رقم (٣٣١٧) ، والإصابة (١٢/ ٢٢٥ ـ ٢٢٩) ترجمة رقم (٣٥٣) ، وأسد الغابة (٦/ ٨٨ ـ ٩٠) ترجمة رقم (٦٨٧٦) ، وخزانة الأدب (١/ ٤١٣ ـ ٤١٨) طبعة دار الكتب العلمية ، والأغاني (١٥/ ٧٢ ـ ١٠٠) طبعة دار الكتب العلمية ، وسرح العيون (ص ٤٢٥ ـ ٤٣٠) ، وأعلام النساء (١/ ٣٦٠ ـ ٣٧١) ، وشرح مقامات الحريري للشريشي (٤/ ٣٤٩ ـ ٣٥٦) ، والدر المنثور (ص ١٠٩ ـ ١١٤) وكتاب قطوف الريحان (ص ٢٤١ ـ ٢٤٥) ومعاهد التنصيص (١/ ٣٤٨ ـ ٣٥٥) ، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (انظر الفهارس ١٠/ ٩٣) ، وجمهرة أنساب العرب (ص ٢٦١ ـ ٢٦٣) ، وديوان دريد بن الصمة ، بتحقيق د. عمر عبد الرسول ـ دار المعارف ـ مصر (ص ٤٣ ـ ١١٥)؛ وغيرها كثير.

ومنهنّ: الخِرنقُ بنتُ بدر أختُ طرفةَ بن العبد ، ولها ديوانٌ مطبوع ، وكذلك جَنوبُ الهذليّة لها ديوانٌ أيضاً ، وقد ألّفَ «المرزبانيّ» المتوفىٰ سنة (٣٨٤ هـ) كتاباً ضخماً في ثلاثةِ أجزاء ، ويقعُ في (٦٠٠ صفحة) جمعَ فيه كثيراً من أشْعارِ النّساءِ وسمّاه «أشعارَ النّساء» ، وقد فُقِدَ هذا الكتابُ إلا جزءٌ منه صغيرٌ طُبعَ بتحقيق: د. سَامي مكّي العاني؛ وهلال ناجي منذُ سنوات ، وهو قطعةٌ من الجزء الثّالث ، والذي يُمثّل عُشْرَ الكتاب تقريباً؛ وهناك مؤلّفاتٌ كثيرةٌ في أشعارِ النّساء على مرّ العصورِ إلى وقتنا الحاضر؛ ومن المؤلّفات المنتشرةِ المشتهرةِ في هذا الميدان: كتابُ «شاعراتُ العَرب» جَمْعُ وتحقيقُ عبد البديع صَقْر ، وكتاب: «الشّاعرات من النّساء» لسليم التّنير ، وكتاب «شَاعِراتُ العَرب في الجاهليّة والإسلام» لِبَشير يموت ، وكتُبٌ أخرىٰ كثيرةٌ جدّاً ، بالإضافةِ إلى ظهورِ دواوينَ كثيرةٍ لشاعراتٍ عربياتٍ من مختلفِ الأقطارِ العربيةِ من المحيطِ إلى الخليج ، وهناك كثيرٌ من أشعارِ هؤلاء النّساء يمتازُ بالجمالِ وحسنِ التّركيبِ واختيارِ المواضيعِ المهمّة والجميلة؛ وبعضُها قد استوحَيْنَه من التّراثِ القديمِ ، وبعضُها من واقعهنّ ، والمطلعُ عليها يجدُ مصداقَ ما ذكرناه.

الخَنْسَاءُ وجَمَالُهَا السَّاحِرُ:

* في بيتٍ من بيوتِ العزِّ والسِّيادةِ ، كان مولدُ تماضرَ بنت عمرو بن الحارث الملقبة بالخنْساءِ ، وهذا البيتُ السُّلميُّ بيتٌ جديرٌ بالفخرِ ، حيث نجدُ الحبيبَ الأعظَم سيّدنا محمّداً ﷺ ينتسبُ إليه بقوله: «أنا ابنُ العواتكِ من سُلَيم»(١).

---

(١) لعلّهُ منَ المفيدِ هنا أنْ نشيرَ إلىٰ أنَّ العربَ منذُ القِدَم قد افتخروا بالانتسابِ إلى الأم ، ولعلَّ مردَّ هذا النَّسب يرجعُ إلى أمورٍ شتّى ومتعدِّدة منْ أبرزِها:
أ ـ تكريمُ وتمجيدُ الأمّ المُنجِبة ، وإعلاءُ قَدْرِها ، كما نُسِبَ إلى أمّه: عمرو بن =

* وفوقَ أرضِ نجدٍ ، وفوقَ تربتِها كانت حياةُ الخنساء؛ وفي تلك الرَّوابي والهِضابِ نشأتْ تماضر نشأةَ البناتِ اللواتي لا يُؤْبَهُ لهنّ بادىءَ الأَمْر ، ولكنْ ما أنْ بدأتْ هذه الفتاةُ تشبُّ عنِ الطَّوق حتى لفتَتْ إليها الأنظار ، وبدا الجمالُ يظهرُ عليها ، وبدأتِ الملاحةُ ترتسمُ وتتوضَّعُ على قسماتِ وجهِها الذي غدا سَاحراً آسِراً جذّاباً ، وراحَ أهلُها وذووها يَلْمَحُون فيها شبهاً بالظَّبيةِ الجميلةِ ، إذْ يرونَ في أنفِها خَنساً[1] ، وعندها لقّبوها

= هند؛ وكما نُسِبَ المناذرة إلى أمّهم: ماء السَّماء وهي: ماويّة بنتُ عوف بن جُشَم ، وكما انتسب الحارثُ الأعرج إلى أمّه ماريّة ، انتسبَ الغساسنةُ إليها؛ قال حسّانُ بنُ ثابت ـ رضي الله عنه ـ في مَدْحِ جَبَلةَ بنِ الأيهم:

للهِ درُّ عصَابةٍ نادمتُهم ... يوماً بجلَّقَ في الزَّمانِ الأوّلِ
أولاد جفنَة حول قبرِ أبيهم ... قبرِ ابنِ ماريةَ الكريمِ المفضلِ

وقد نَسَبَ بعضُ الشّعراء النبيّ ﷺ إلى أمّه فقال:

صلّىٰ الإلهُ على ابنِ آمنةَ التي ... جاءَتْ به سبْطَ البنانِ كريما

ب ـ الفخرُ بالأمّ لعراقتها ، كقولِ وَزَرِ بن جابر النّبهاني ، وقد رمىٰ عنترةَ بنَ شداد فقال: «خُذْهَا وأنا ابنُ سلمى» ، فتحاملَ عنترةُ بالرّمية حتى أتى أهلَه ، فقال وهو جريح:

وإنَّ ابنَ سلمى عنده فاعلمُوا دمي ... وهيهات لا يُرجى ابنُ سلمى ولا دمي

وكثيراً ما كان يقولُ الضّارب: خُذْها وأنا ابنُ فلانة. وكان حسَّان بنُ ثابت ـ رضي الله عنه ـ يُنْسَب إلى أمّه «الفُرَيْعَة» ، وقد ناداه عمرو بنُ الحارث الأعرج معجباً بشعرِه بقوله: يا بنَ الفريعة أربعَ مرّات في مجلسٍ واحدٍ.

ج ـ مدحُ أبنائِها بأنّهم من نَسْلِها ، كما يُمدَحُ الملوك ، وأبناء المُنْجبات.

د ـ قد تكونُ الأمُّ عظيمة الشهرة ، فَيُنْسبُ إليها بنوها ، ومن ثمَّ يشتهرون بها ، من مثل: محمّد بن عليّ بن أبي طالب المعروف بابن الحنفيّة.

ـ وهناكَ أمورٌ أخرى كثيرةٌ لا يتّسعُ المقامُ لإيرادِها هنا ، ويدركُها القارىء الفطنُ من خلالِ دراسته لهذا الكتاب.

(1) «الخنس»: الخنسُ: تأخّر الأنفِ عن الوجْهِ مع ارتفاعٍ قليلٍ في الأرنبةِ ، وهي صفةٌ مستحبّةٌ أكثر ما تكون في الظّباء وبقَر الوحش.

«الخنساء» ، وكادَ هذا اللقب أنْ يطمسَ اسمَها الحقيقيَّ أو يكاد. . . . كما طغىٰ على كنيتها «أمّ عمرو»[1] .

* وانتقلتِ الخنساءُ من مراحلِ الطّفولةِ الغضّة البريئةِ النّاعمةِ ، إلى مرحلةِ الصّبا والشّبابِ والجمالِ ، ويبدو أنّها كانت وحيدةَ أبويها منَ البناتِ ، وليسَ لها من الإخوةِ سوى معاويةَ شقيقِها ، وصَخْرٍ أخيها لأبيها .

* ولعلَّ جمالَ الخنساءِ وملاحتَها ، وما كانت تحسُّه من عطفِ أبويها وأخويها جعلَها تعتدُّ بنفسِها ، وتفخر بجمالِها وأسرتها؛ ولعلَّ احتضانَ أبويها لها جعلاها ذات عواطفَ جياشةٍ ومشاعرَ لطيفةٍ ، وكذلك وهَبَاهَا منَ الحريّةِ ما أطلقَ لسانَها من عقالِهِ ، فتابَعَ عقلها ، ولاحَقَ عاطفتَها ، والتزمَ حدودَ الأنفةِ والكرامةِ ، وتلقَّتْها بعد ذلك أرضُ نجد ، لأنَّ تربتها تنبتُ البُنية القويّة ، وسماؤها تجودُ بالذِّهْنِ الصّافي ، وهواؤها نشيطٌ ، ونسيمها عليلٌ لطيفٌ ، فاشتهرَ أهلُها بالبلاغةِ ، وقد ذهبوا في الشّعر كُلَّ مذهَب .

الخَنْسَاءُ وخطْبَةُ دُرَيد بن الصِّمَّة :

* بين أحضانِ الشَّرفِ ، وأرواحِ العزّة ، وبينَ أردانِ الجمالِ ، وأعطافِ الملاحةِ ، كانت نشأةُ الخنْساءِ بنت عمرو ، وزادَ من جمالِها ومكانتها كمالُ تفكيرها ، فقد عَرفَ فيها أبوها رجاحةَ العقلِ ، واتّزانَ الفكْرِ ، حيث رفضتِ الزَّواج من فارسِ جُشَمٍ وبطلِها دريدِ بنِ الصِّمّة ، في الوقتِ الذي كانت كثيرٌ منَ الفتيات يرغبنَ زواجَ دريد .

* ولعلَّ هذا الرَّفض العقلانيَّ قد بُني على أساسٍ متينٍ منَ الأنفةِ والمنعةِ

---

(١) كانت تماضُر من ذواتِ الجَمال ، ويدلُّ على ذلك تلقيبها بالخنْساء ، قالت زينب فواز: «تماضرُ الشّهيرةُ بالخنساء ، وتكنى أم عمرو ، وإنّما الخنساءُ لقبٌ غَلَب عليها وهي الظَّبية». (الدّرّ المنثور ص ١٠٩) ويقال: خُناس: كغُراب .

من قَبْلُ ، فطالَما صحبتِ الخنساءُ أباهَا وهو آخذٌ بيدِ ابنيْهِ: معاوية وصخر في المواسمِ وهو يقولُ: «أنا أبوخَيْرَي مُضَر ، ومن أنكَرَ فليعتبر» ؛ فلا ينكرُ عليه أحدٌ؛ وكانتِ الخنساءُ ترى وتسمعُ ذلك فتهتزُّ نفسُها فخراً وعزّاً وطرَباً ، فهي أختُ خَيري مُضَر من غيرِ منازع .

* وطالما لمستِ الحبَّ موجوداً في بيتها يتنقلُ في أسرتها ، فهدأتْ نَفْساً ، وقرّتْ عيناً ، ونظرتْ إلىٰ الدُّنيا فرأَتْها جميلةً صافيةً حانيةً ، ورأَتْها أهزوجةً نشوىٰ على شفَةِ الزَّمانِ ، حيثُ لم يكن أخوها الشَّقيق أقربَ إليها من أخيها لأبيها صَخْر ، وإنّما الأمرُ على عكسِ ذلك تماماً ، فصخرٌ قريبٌ أليفٌ إلى قلبها أكثر من أخيها الشّقيق .

* وطالما تعوّدتْ أنْ تُدلي دلْولَها في الأمورِ ، وتقولَ رأيها ، وتبدي مشورتَها ، فَيُمْضَىٰ ويُسْمَعُ ما تقول ، هنالك تبلورتْ شخصيّتها ، واستوتْ على سُوقها .

* وقد ظهرتْ شخصيّةُ الخنساءِ جليةً عندما خطبَها دريدُ بنُ الصّمة ، فقد كانت ذات حَسَبٍ وشَرفٍ وجَاهٍ ومكانةٍ ، وكانت ذات جمالٍ أخّاذ ، وتقاسيم متناسقةٍ ، ولذا فقد شبّهوها بالبقرةِ الوحشيّة ، فعرفَتْ ما تملكُ في يدِها من سلاحِ الجمالِ الذي يذلّ أمامَه بعضُ كبراءِ الرّجال . . وكانت مع ذلك عاقلةً حازمةً . . . وهذه الشّمائل الحِسَان جعلَتْها من شهيراتِ النّساء في العالَم النِّسوي قديماً وحديثاً.

* وزادَ من شُهرةِ الخنْساءِ رفْضُها لفارسِ بني جُشَم المظفّر دريدِ بنِ الصِّمّة الذي غزَا نحو مئةِ غزوة ما أخفقَ في واحدةٍ منها ، ولكنّه أخفقَ أنْ يغزوَ قلبَ الخنساءِ بنت عمرو الجميلةِ المُلاّحة .

* ففي ذات يوم كان دريدُ بنُ الصِّمّة قربَ دُورِ بني سُلَيم ، ولما اقتربَ من مضاربهم حانتْ منه التفاتة فرأىٰ فتاةً تعالجُ بعيراً لها بالقَطِران ، وقد

تبذّلَتْ حتى فرغَتْ منه ، ثمّ إنّها نضَتْ عنها ثيابَها ، واغتسلَتْ وهي لا تشعرُ به ، فأعجَبتْه ، وأخذتْ بلُبِّه.

* ثمّ إنّها عادت في خطواتٍ رشيقةٍ إلى بيتها وعلى وجهها علائمُ الجمالِ تشهدُ لَها ، ورآهَا دريدُ على تلكَ الحالِ فأُعْجِبَ بها أيّما إعجاب ، ورأىٰ ما تخفي ثيابُها من مفاتنَ جسديّةٍ فعلقَ بها؛ إذْ سرىٰ من لفتاتِها السِّحْرُ ، وشعَّتْ من مشيتِها الفتنةُ ، وعرفَ دريدُ أنَّ هذه الحسناءَ المليحةَ الفاتنةَ هي تماضرُ بنت عمرو الملقبة بالخنْساء ، وانصرفَ إلى رحلهِ ، وأنشأَ يتغنّى بجمالِها ومحاسنِها ، ومهارتها في علاجِ بعيرِها ، ثم أخذَ يلفتُ نظرَها إلى مكانتهِ في عالَم الفُرسان إذا ما اشتدَّ الخطْبُ ، وحميَ الوطيسُ ، واحمرتِ الحدق ، وضاقَتِ الأنفاسُ ، فيقول:

حَيّوا تُماضِرَ وارْبِعُوا صَحْبِي ... وقفُوا فإنَّ وقوفَكم حَسْبِي
أخُناسُ قَدْ هَامَ الفؤادُ بكم ... وأصابَهُ تَبْلٌ مِنَ الحبِّ
ما إنْ رأيتُ ولا سمعتُ بمثلِهِ ... كاليوم طَالِيَ أَيْنُقٍ جُرْبِ
متبذّلاً تَبْدُو مَحاسِنُه ... يضَعُ الهِنَاء مواضعَ النُّقْبِ
متحسّراً نضحُ الهِنَاء بهِ ... نضْحُ العبيرِ بريطةِ العَصْبِ
فَسليْهِمُ عنّي خُناسُ إذا ... عضَّ الجميعَ الخطبُ مَا خَطبي[1]

* ويبدو أنَّ دريدَ بنَ الصِّمة قد آوتْهُ ليلةٌ مليئةٌ بالأحلامِ العِذاب ، ولعلَّ خيالَ تماضر لم يغادرْ مخيلتَه تلكم الليلة لحظةً واحدةً ، حتّى إذا تنفَّسَ

---

(١) انظر: ديوان دريد بن الصمة (ص ٤٣ ـ ٤٤) والشّعر والشّعراء (١/ ٣٤٣) ، ومعنى: «واربعوا»: الإرباع: الاطمئنانُ والإقامةُ في المكان. و«خُناس»: يعني الخنْسَاء رخَّمه ليستقيمَ له الوَزْنُ. و«تَبْلٌ»: أفْسَدَ الحبُّ العقلَ وذهبَ به. و«الهِنَاء»: ضربٌ من القطران ، و«أينقٌ»: جمعُ ناقة. و«النّقب»: القطعُ المتفرّقةُ منَ الجربِ و«العبيرُ»: الزَّعفران. و«الرّيطة»: كلّ ثوبٍ رقيق. و«العَصْب»: ضَرْبٌ منَ البرود.

الصُّبح ، وتبسَّمَ الفَجْرُ ، واغروربتْ أحلامُه في تماضر ، واخضوضَرت آمالُه فيها ، أخذَ دريدٌ طريقَهُ إلى منزلِ عمروٍ والدِ تماضر التي لعبتْ بلبِّه ، وخلبتْ فؤادَه ، وجعلته يترنَّمُ بألحانِ الغَزَلِ ، وغزلِ الألْحان ، وهو الفارسُ الصّنديدُ ذو الشّكيمة ، والشّدة ، والبأْس.

* وفي بيتِ الخنساءِ الرفيعِ العمادِ جلَس دريدُ بنُ الصِّمة ، واستقبلَه والدُها بالتِّرحاب والبشَاشةِ ، ومرَّتْ لحظاتُ صَمْتٍ قطعها دريدُ بقولهِ مخاطباً عَمْراً والدها : «جئتُ أخطبُ ابنتَك تماضر».

فقال له عمرو والدُها[1] : «مرحَباً بك أبا قرّة ـ كُنية دريد ـ إنَّكَ لَلْكريمُ لا يُطْعَنُ في حَسبِهِ ، والسّيد لا يُردُّ عن حاجتِهِ ، والفحلُ لا يقرعَ أنفه ـ لا يُعابُ ـ ، ولكن لهذهِ المرأةِ في نفسِها ما ليسَ لغيرها ، وأنا ذاكركَ لها ، وهي فاعلةٌ.

* ثمَّ دخلَ على ابنتِهِ وقال لها : «يا خنساءُ ، أتاك فارسُ هوازن ، وسيّد بني جشم ، دريدُ بنُ الصّمة يخطبُكِ ، وهو مَنْ تعلَمين».

فقالتِ الخنْساءُ ـ ودريد يسمعُ قولَها ـ : «يا أبتِ أتراني تاركةً بني عمي مثل عوالي الرّماح ، وناكحةً شيخ بني جُشم ، هامة اليومِ أو غد»؟!

* فخرجَ إليهِ أبوها وقال له : «يا أبا قرّة ، قد امتنعَتْ ، ولعلَّها أنْ تجيبَ فيما بعد».

فقال له دريدُ : «قد سمعتُ قولكما» ثمَّ انصرفَ.

* وتشيرُ بعضُ الرّوايات[2] إلى أنَّ معاويَة أخا الخنساء كان صديقاً

---

(١) يبدو أنَّ أمَّ الخنساءِ قد ماتتْ قبلَ أنْ تتزوّجَ الخنساء ، لأنّنا لا نسمعُ لها صوتاً ، ولا رأياً في خطبةِ الخنْساء ، أو زواجِها.

(٢) انظر مثلاً : الأمالي (٢/ ١٦١) طبعة دار الكتب المصرية.

لِدُريـدِ ، فأراد أنْ يجاملَ دُريداً ، فحاولَ معَها ولكنها رفـضَتْ ذلـك أيضاً ، ووجدتْ إلىٰ جانبها أخاهَا صخراً يعطفُ عليها ويغمرها بفيضِ حنانِهِ.

* فقد جاءَ في كتابِ «الأمالي» ، و«شرحِ ديوان الخنْسَاء» لأبي العبّاس ثَعْلب ، وغيرهما من مصادرَ قصّة ذلك ومفادها : «كان دريدُ بنُ الصمة الجُشَمي صديقاً مصافياً ومؤاخياً لمعاويةَ بنِ عمرو أخي الخنساء ، فخطبَ إليه الخنساء أخته ، فقال له : يا فارسَ الأبطالِ ، إنَّ مثلَ الخنْساءِ لا يُفتاتُ ـ يُكْذبُ ـ عليها بأمرٍ ، وأنا طالبٌ ذلك إليها .

* فانطلقَ معاويةُ ، وأتاها مسْرعاً وهو راكبٌ ، فلمّا رأته الخنساء قالت : إنّي لأرىٰ فخذه بارزةً ، وما ذلكَ إلاّ لأمرٍ مُهم .

* فلمّا انتهى إليها قال لها : يا أُخية ، قد عرفْتِ الذي بيني وبينَ دريد بنِ الصِّمة ، وإنَّه خطبكَ إليَّ ، فأحبُّ أن تسمعيني وتتزوجينَهُ .

قالت : ما وجدتَ شيئاً ترضي به صديقَك غيري؟!

قال : يا أُخية ، إنّي أحبُّ أنْ تفعلي .

قالت : هل بقيَ منه شيءٌ؟! ثم أردفتْ قائلةً : أنظرني حتى أشاورَ نفسي ؛ ثمّ قالت : أرسلهُ إليَّ .

* فرجعَ معاويةُ إلى دريد، فقال له : انطلقْ إليها، فإنّها قد أمرتني بذلك .

* فركبَ دريدٌ فرساً ، ولبسَ حُلَّة له ، ثم أقبل إليها فنزلَ ، فأمرتْ بوسادةٍ ، فأُلقيتْ له ، ثم أخذتْ تحدّثه وتسائله ، ثمّ دعَتْ بلبنٍ فسقَتْه ، وامتحنته[١] ، فلم يرضها ، فأمرتْه بالانصراف .

---

(١) وفي رواية أنّها سقَتْه اللبن ، وجعلتْ تحبسُه حتى أتاهُ البول ، فلما نهضَ ليبولَ ، =

فقال: علام أنصرفُ؟!

فقالتْ: سيأتيك رأيي....

* فانصرفَ دريدٌ، ثمّ إنّها أرسلتْ إليهِ تقول: إنَّكَ شيخٌ كبيرٌ، قد ضَعُفَ بصرُكَ، وذهبَ ذَفَرُكَ ـ طِيْبُكَ ـ، وكبرتْ سنُّكَ، وولّى شبابُكَ، فلا حاجةَ لنا بكَ.

* فأرادَ معاويةُ أنْ يكرهها على الزَّواج من دُريد، فقالت في ذلك:

لئنْ لم أوتَ من نَفْسي نَصيباً ... لقد أَوْدىٰ الزَّمانُ إذاً بِصَخْرِ
أيُوعُدني حُجَيّةُ كُلَّ يوم ... بما آلىٰ مُعَاويةُ بنُ عَمْروِ
لَئِنْ أنكحتني غَضْباً دُريداً ... لقد أَوْدَى الزَّمانُ إذاً بِصَخْرِ
أتكرِهُني هُبِلْتَ علىٰ دُرَيْدٍ ... وقد أصْفَحْتُ سيّدَ آلِ بَدْرِ
وهمْ أكْفَاؤُنا في كُلِّ خيرٍ ... وهمْ أكفاؤُنا في كلِّ شَرِّ
معَاذَ اللهِ يَرْضَعُنِي حَبَرْكَىٰ ... قصِيرُ الشِّبْرِ من جُشَم بنِ بكْرِ
يَرىٰ شَرَفاً ومَكْرُمةً أتَاها ... إذا أغْذَى الجليسَ جَرِيمَ تَمْرِ
لَئِنْ أصْبَحتُ في جُشَمٍ هَديّاً ... إذاً أصْبَحْتُ في ذلٍّ وفَقْرِ
قُبَيِّلَةٌ إذا سَمِعُوا بِذُعْرٍ ... تخَفّىٰ جَمْعُهم في كُلِّ جُحْرِ[1]

= بعثتْ بجاريتها، فقالت: انظري إلى بولهِ أيخدُّ الأرضَ أمْ يطفو؟ فرجعتِ الجاريةُ فأخبرتها أنّها رأته طافياً، فقالت: ليس عنده شيءٌ..!! فأمرته بالانصرافِ. (شرح ديوان الخنساء ص ٢٢٠ ـ ٢٢١).

(١) انظر: الأمالي (٢/ ١٦١)، وشرح ديوان الخنساء (ص ٢٢٠ ـ ٢٢٢) مع الجمع والتّصرف. ومعنى «حجيّة»: لعلّه لقبٌ تهجو به دريداً وتسخرُ منه. و«حبركى»: غليظ الظّهر، قصير الرّجلين، ويُقال معناه: القراد. و«جريم تمر»: اليابسُ منه. و«هديّاً»: الهديُّ: العروس، و«تخفى جمعُهم في كل جُحر»: كناية عن الضّعف والجبن والهرب من وجْه المقاتلين.

* ورفضتِ الخنساءُ بأنفةٍ وإباء هذا الزَّواج غير المتكافيء ، وقهرتْ مَنْ قهرَ الفرسانَ في حومةِ الميدان ، بل أسرتْهُ بجمالِها الفاتن ، فلا يستطيعُ أنْ يفعلَ إزاءها شيئاً . . . وينصرفُ الفارسُ الجشَمي الحبركىٰ خالي الوفاض ، لا يمتلكُ إلا نفثَاتِ أشْعَارهِ يرسلُها ، ويتسلّى بها ، أو يسلو بها عمّنْ سلقَتْه بألْسُنِ أَشْعَارِها الحِداد .

* أمّا الخنساءُ ، فقد كانت في حَالِ المنتصرِ الظَّافرِ الفائزِ ، فهي المليحةُ الملاحةُ التي تعتزُّ بجمالها وصبَاها الغضّ ، وترفضُ الشَّيخَ الكبيرَ الذي أكلَ عليهِ الدهرُ وشرب ، وإنْ كانَ سيّداً في قومهِ ، جليلَ القَدْر ، فهي لا تدفع بمستقبلها لتقبلَ أوّلَ طارقٍ يخطبُ ودَّها ، .وأبَتْ أن تبيعَ جَسَدَها متعةً لغيرِها ، حيث لم يلفتْ نظرَ دريد سوى مفاتنِ جسمِها ومحاسنها ، ثم هناك فارقٌ كبيرٌ في السّنّ بينهما؛ فهي في زهرةِ شبابها وذروتهِ ، وهو شيخٌ كبيرٌ أكلته السّنون وأَضْنَتْهُ الأيّام ، فكيف يلتقيان والفارقُ بينهما واسعٌ ، عميقُ الغور؟!

* لذا رفضتِ الخنساءُ ، وأَبَتْ هذا الزَّواج ، وهي تعلمُ مكانةَ دريدٍ الاجتماعيةِ والشّعرية ، وعلمتْ أنَّ رَفضَها له ربّما يعرضها للتّشهير بها ، ولكنّها الحياةُ . . . . حياة الحرية التي كانت تَزِنُها بعقلِها ، لا بعواطِفها أو بطيشِ الفتياتِ اللائي هُنَّ في سِنٍّ مثل سنّها .

* وبالفعلِ غضبَ دريدُ بنُ الصّمة لرفْضِ الخنساءِ له ، وزاده غضباً أنّ كلّ السُّبل التي حاولَ من خلالِها أنْ يصلَ إلى قلبها كانت موصدة ، ولم يَلِنْ قلبها ، فشهَّرَ بها تشهيراً لاذعاً ، وقال يهجوها بقصيدةٍ سينيّةٍ طويلةٍ مطلعُها :

لِمَنْ طَلَلٌ بذاتِ الخمسِ أَمْسىٰ   عفَا بيَن العَقيقِ فَبَطْنِ ضِرسِ

* ومنها قولُه:

وَقَـاكِ اللهُ يـا بْنَـةَ آلِ عَمْـروٍ ... مـنَ الفِتْيـانِ أَمْثـالـي ونَفْسِـي
فَـلا تَلِـدي ولا ينْكَحْـكِ مِثْلِـي ... إذا مـا لَيْلَـةٌ طـرقَـتْ بنَحْـسِ
وتـزعُـمُ أنّنـي شيـخٌ كبيـرٌ ... وهَـلْ خَبَّـرتُهـا أنّـي ابـنُ أمْسِ
لقد علمَ المراضعُ في جماديٰ ... إذا استعجلْـنَ عـن حـزّ بنهـسِ
بـأنّـي لا أبيـتُ بغيـر لحـمٍ ... وأبـدأُ بـالأرامـلِ حيـن أُمْسـي
وأنّـي لا ينـالُ الحـيّ ضيفـي ... ولا جـاري يبيـتُ خبيـث نَفْـسِ

* ومنها:

ومَا قَصُرَتْ يَدي عن عُظْمِ أمْرٍ ... أَهُـمُّ بـه ولا سَهْمـي بنكْـسِ
ومـا أنَـا بـالمُـزَجَّىٰ حيـن يَسْمـو ... عظيـمٌ في الأُمـورِ ولا بـوهْـسِ(١)

* ويبدو أنَّ الخنساءَ قد وصلتْ إليها سينيةُ دريدٍ في التّعريض بها، وبفخره بنفسهِ، ولكنَّها قابلَتْ ذلك بهدوء، وبابتسامةٍ لطيفةٍ بسيطة، وقيل لها: «يا خنْساء ألا تجيبين دُريداً إذْ هَجاك»؟!

فقالت: «لا أجمعُ عليه أنْ أردَّه، وأنْ أهجوه»(٢).

---

(١) انظر: ديوان دريد بن الصمة (من١١٥ ـ ١٢٠) والقصيدة تعد (١٩ بيتاً)، وانظر: زهر الأكم في الأمثال والحكم للحسن البوسي (٣/ ١٩١ ـ ١٩٢) تحقيق د. محمد حجي ود. محمد الأخضر ـ دار الثقافة ـ الدار البيضاء ـ المغرب ـ ط١ ـ ١٩٨١ م. ومعنى: «ذاتُ الخمس»: اسم مَوضِع؛ و«بطنُ ضرس»: جبَلٌ في ديارِ عَبْسٍ؛ و«ابنة عمرو»: الخنْساء؛ و«نَحْس»: الجهدُ والضرّ. و«جمادى»: شدّةُ البردِ وهو وقتُ القَحْطِ والجدبِ في البوادي. و«حَزّ»: الحزّ: قطعُ اللحم. و«نَهْس»: نَهسَ اللحم: انتزعَه بالثّنايا للأكلِ؛ والمعنى: ينهسنَ اللحم في عَجَلٍ دونَ ريثٍ لحزّه وقطعه من شدّة الزّمن، و«خبيث نفس»: أي ثقيلُها كريهُ الحال؛ و«المزجّى»: الرّجل النّاقصُ المروءة والدّون عن كلّ شيء؛ و«وَهْس»: الوهسُ: هو الموطوء الذليل.

(٢) الدّرّ المنثور (ص ١١٠)، وسرحُ العيون (ص ٣٦٧): وهذا موقفٌ طيّبٌ كريمٌ من=

* أمّا دريدُ بنُ الصِّمة فلم يطقْ أنّها رفضتْ خطبتَه لها ، وإنّما ثارَ على اعتزازِها بنفسها ، وسفَّه رأيَها في عدمِ قَبوله زوجاً لها ، فأطلقَ عنانَ لسانهِ بهجائِها وإيذائِها ، فقال في تهكُّمٍ: وقَاكِ اللهَ يا بنةَ عمرو ـ وكلمةُ وقَاكِ الله أو حفظك الله ـ كلمةٌ ظاهِرُهَا الدُّعاء ، وباطنُها السُّخريّة والاستهزاء ، ثم يتحدَّثُ عن سجاياهُ ومنها: الكَرمُ ، والرّحمةُ ، وحسنُ الأحدوثةِ ، وإذا كان أمرُهُ كذلك ، فَلِمَ امتنعتِ الخنْساءُ من اتّخاذه زوجاً لها؟! هل لأنّه شيخٌ كبيرٌ؟ فالمقياسُ عنده ليسَ بالسّنّ ، وإنّما بالوجاهةِ والثَّراءِ والشُّهرة والمكانةِ. . . . بيد أنَّ الخنساءَ تَغْفُلُ عن هذا كُلّه وتتجاهله وتريدُ لنفسِها شاباً ، ولا يهمُّها هذا الشَّيخ وإن كان فارساً شُجاعاً جَسوراً لم يخطىء سَهْمُه ، وهو مرموقٌ أينما كان ، وحيثما نزلَ الميدان.

* وهكذا اتّخذتِ الخنساءُ قرارها بنفسِها ، ورفضتْ دُريداً وقولَه:

أخُناسُ قد هَامَ الفؤادُ بكم وأصابَه تَبَلٌ منَ الحُبِّ

* رفضتْ هذا كلّه لتكونَ سيّدة نفسِها ، ولتظهرَ شخصيّتها واضحةً بين نساءِ المشرقِ العربي اللواتي نعتزُّ بهنّ في كلّ زمانٍ ومكَان.

فـي رحَـابِ الـزَّوَاجِ:

* لم يَطُلْ مقامُ الخنساءِ في بيتِ أبيها بعد قصّة رفْضِها دريد بن الصّمة ، وهناك أقبلَ أحدُ فتيانِ قومها ، واسمُه رواحةُ بنُ عبد العزّى السُّلميّ ، فخطبَها ، فقبلَتْه زوجاً لها[1].

= الخنساء ، لأنّها تعلمُ أنَّ دريداً مغضَبٌ ، وأنّه حليفُ قبيلتها ، فقابلتْ هجاءَه اللاذع بالصَّفحِ الجميلِ ، وكذلك بالمسامحةِ ، علماً بأنّها تستطيعُ أن تردَّ الإساءةَ بأنكى وأشدَّ.

(١) الشعر والشعراء (١/ ٣٤٤).

* وذكر ابنُ قتيبة[1] هذا فقال: «فخطبَها رواحةُ بنُ عبد العزى السُّلميّ، فولَدتْ له عبد الله وهو أبو شَجَرة»[2].

* وتذكرُ بعضُ المصادرِ والمراجعِ أنَّ رواحةَ بنَ عبد العزّى هذا شابٌّ جاهليٌّ، يلهو لهوَ الشّبّان الجاهليين الذين كانوا يجدونَ متعتَهم وروحَ حياتِهم، وحياةَ روحهم في شيئَيْن لا ثالث لهما: الخمرةُ، والمرأةُ...

---

(١) المصدر السابق عينه.

(٢) «أبو شجرة»: يُقال: اسمُه سُلَيمُ بنُ رواحةَ بنِ عبد العزّىٰ السُّلَميّ، أو عبدُ الله بنُ رواحة، وأمُّه الخنساءُ الشّاعرة، وكان يسكنُ الباديةَ، ولذا فقَد نشَأ شُجاعاً معتدّاً بنفسِه، وكانَ مِقْداماً فارِساً، قال في قتالِ بني فِهْر:

فلو سَألَتْ سلمىٰ غداةَ لقائِنا ... كما كنْتُ عنها سَائِلاً لو نأيتُها
لقاءَ بني فِهر وكانَ لقاؤُهم ... غداةَ الجوارِ حاجةً قد قضيتُها
صبرتُ لهم نفْسِي وعرجْتُ مُهرتي ... على الطَّعن حتّى صار ورداً كميتُها
وكان الطّعانُ في لؤي بنِ غالب ... غداةَ الخُوىٰ حاجةً فقضيتُها

ـ وكان أبو شَجرة هذا جاهليّاً تفتنُه الحياةُ الجاهليّة، ثمّ أسلمَ مع سُليم حين أسلَمتْ، وارتدَّ مع من ارتدَّ. قال الطّبريُّ: «وقد كان لحقَ فيمنَ لحقَ من بني سُليم بأهل الرّدة أبو شجرة بنُ عبد العزى، وهو ابنُ الخنْساء». وذكر الطّبري أيضاً شِعراً لأبي شجرة يدلُّ على بلائِه في الحربِ، ومع جيشِ خالد، فقال من أبياتٍ مطلعها:

صَحا القلبُ عن ميّ هواهُ فأقصرا ... وطاوعَ فيها العاذلين فأبْصَرا

ومنها:

سَلِ النّاسَ عنّا كلَّ يومِ كريهة ... إذا ما التقينا دارعين وحُسَّرا

وآخرها:

فروّيتُ رمحي من كتيبةِ خالدٍ ... وإنّي لأرجو بعدها أنْ أعمّرا

ـ وذكر «المبرّد» في «الكامل» قال: «أتى أبو شجرة عمرَ يستحلّه، فقال له: مَنْ أنت؟ قال: أنا أبو شجرة السُّلمي. فقال: يا عدوّ نفسه، ألستَ القائل: فرويتُ رمحي من كتيبةِ خالد... ثم لخفَ ـ أهوى ـ عليه بالدّرة، فهربَ وركبَ ناقته وهو يقول:

قد ضنَّ عنا أبو حفصٍ بنائلهِ ... وكلّ مختبطٍ يوماً له وَرَقُ

(الإصابة ١١/ ١٩١ ـ ١٩٢)، و(تاريخ الطبري ٣/ ٢٦٦) مع الجمع والتصرف.

* بيد أنَّ رواحةَ كان لَهْوُهُ الميسرَ ، فهو مُنى أملهِ وأملُ مناه ، وهو روحُه التي بين جنبَيْه ، يبذلُ منْ أجلهِ ما جمعَه ويجمعُه منَ المالِ ، ثمّ يبدّده ويتلفُه في داءِ القِمار ، ذلك الدّاء الرّهيب الذي لا بُرْءَ منه ولا شفاءَ ، وخصوصاً إذا تمكَّن من نفسِ المُقَامِر ، نسألُ اللهَ اللطف .

* وحاولتِ الخنساءُ المرأةُ العاقلةُ أنْ تأخذَ بيدِ زوجها إلى جادّةِ الصَّواب ، وأنْ تهذّبَ سلوكه ، وأنْ تنقذَه من هذهِ الوهدةِ القاتلةِ الرهيبةِ ، ولكنَّ محاولاتها ذهبتْ أدراجَ الرّياح .

* وتابعتِ الخنساءُ طريقَ الإصلاح ، ولم تقنطْ ، وحاولتْ أنْ تمسكَ ـ هيَ ـ عليها زوجها ، وضحَّتْ في سبيلِ ذلك كثيراً ، لدرجةٍ جعلَتْه يُغالي في انحرافِهِ وإغراقِهِ في الميسر ، واستغلَّ شدّة حرصها عليه أسوأَ استغلالٍ وأقبحه ، فابتزَّ بذلك مالَها ومالَ أخيها ، وكان كلّما فرغَتْ يده ، أظهرَ لها الضّيق بحياتِهِ معها ، والتّبرم بها ، فهمَّ بالرَّحيل عنها ، ولكنّها تتشبَّثُ به وتقولُ له : «أَقِمْ ، وأنا آتي صَخْراً فأسأله» .

* وتُضطرُّ الخنساءُ إلى الاستعانةِ بندىٰ أخيها صخر وجودِهِ وسخائِهِ ، فقد كان يُعطيها ما تريدُ؛ وتروي القِصصُ التي وصلَتْ إلينا عنه أنَّه كان يقسمُ ما عنده مناصفةً بينهما ، ويقدّمُ لها خيرَ نصفٍ بكلّ أريحيةٍ وطيبِ نفْس؛ وكان يشعرُ بالسَّعادةِ العارمةِ تغمرُ نفْسَه وهو يجودُ بمالهِ على أختِهِ الخنساء ، ولا عجبَ ، فللسَّخاء لذّةٌ صارخةٌ لا يدركُها إلاّ الأجواد ، كما أن السَّخاء ثوبٌ يُلْبِسه اللهُ مَنْ أرادَ مِنْ عبادِهِ وخَلْقِهِ .

* ويقيمُ هذا الزَّوجُ المتْلافُ المضياعُ للمالِ كلّما امتلأَتْ يداهُ من الغِنى؛ ولَعلَّ رواحَة هذا قد راقَتْ له هذه العملية ، فكان يتْلِفُ ما تحملُ الخنْساءُ من أخيها من المالِ ، ثم يجيئها صفْرَ اليَديْن خالي الوفاض . . . .

وتعاودُ الخنساءُ الكرةَ بالذَّهاب إلى أخيها صَخْر ، فيقسمُ مالَه شطرَيْن أيضاً ، حتى فعلَ ذلك مرَّات .

* ذكرَ صاحبُ «العقدِ الفريدِ» قصَّةً جرَتْ بين أمِّنا عائشة بنت أبي بكر الصِّديق ـ رضي الله عنهما ـ ، وبين الخَنْساء ، في صِدار[1] من شَعَرٍ كانتِ الخنساءُ تلبسُه[2] حزناً على أخيها فقال : «دَخَلَتِ الخنساءُ على عائشةَ أُمِّ

---

(١) «الصِّدار» : بكسر الصَّاد : ثوبٌ رأسُه كالمِقْنَعة ، وأسفلُه يغشىٰ الصَّدر والمنكبين ، تلبسُه المرأةَ ، وكانتِ المرأةُ الثَّكلى إذا فقدَتْ حميمَها ، فأحدَّتْ عليه ، لبستْ صِداراً من صُوفٍ . (لسان العرب) .

(٢) كانتْ ملابسُ المرأةِ في العَصْر الجاهليّ كثيرةً ومتنوعةً ، ومعروفةً في أشعارِ العَرب ، ومنها :

١ ـ «المِرْطُ» : وهو كسَاءٌ من صوفٍ أو خزّ ، ويبدو أنَّ ذيلَه كان طويلاً ينسحبُ على الأرضِ كما يقول امرؤ القيس :

خرجتُ بها أمشي تجرُّ وراءَنا ... علىٰ أثرينا ذيلَ مِرطٍ مرحَّلِ

ـ وقد ذكرَ المِرط والريطةَ المنتخلُ بنُ عويمر الهذليّ عندما قال :

فَحُورٌ قد لهوتُ بهنَّ حيناً ... نواعِمُ في المروطِ وفي الرِّياطِ

٢ ـ «الرّيطة» : وهي الملاءةُ منْ نسجٍ واحدٍ ، وقطعةٍ واحدةٍ ، وهي كلّ ثوبٍ ليّنٍ رقيقٍ . قال الأعشى :

والسَّاحباتِ ذيولَ المِرط آونةً ... والرّافلات علىٰ أعجازها العِجَل

٣ ـ «الصِّدار» : وهو ما تلبسهُ المرأةُ على صَدْرها ، قال عروةُ بنُ الورد في فخره بسباياهم من طيّىء :

ترى كلّ بيضاء العوارضِ طَفْلَةً ... تُفَرَّىٰ ـ إذا شالَ السَّماكُ ـ صِدارَهَا

ـ وكانتِ المرأةُ الحزينةُ تتخذه من شَعَرٍ ، كما فعلتِ الخنساءُ تحقيقاً لقول أخيها صخر :

وَلَو هلكتُ خَرَّقَتْ خمارَهَا ... واتّخذَتْ مِنْ شَعَرٍ صِدَارَهَا

٤ ـ «الجُبّة» : وهي ثوبٌ واسع ، ويظهرُ أنَّ الجبّة كانَتْ منْ ملابسِ الإماء ، وقد ميّزوا الإماءَ بالجُبَبِ .

٥ ـ «السَّابري» : ثوبٌ رقيقٌ جيّد ، قال امرؤ القيس :

تصدُّ عن المأثورِ بيني وبينَها ... وتُدني عليَّ السَّابري المُضَلَّعا=

المؤمنين ـ رضي الله تعالى عنها ـ وعليها صِدارٌ منْ شعرٍ قد استشعرتْه إلى جلْدِها ، فقالت لها: ما هذا يا خَنْساء؟! فو اللهِ لقد توفيَ رسولُ الله ﷺ فما لبسْتُه.

قالت: إنَّ له معنى دعاني إلىٰ لباسهِ ، وذلك أنَّ أبي زوّجني سيّد قومه ، وكان رجُلاً متلافاً ، فأسرفَ في مالهِ حتى أنفدَهُ ، ثم رجعَ في مالي فأنفذَهُ أيضاً ، ثمَّ التفتَ إليَّ فقال: إلى أين يا خنساء؟

قلتُ: إلى أخي صخر . .

قالت: فأتيناهُ ، فقسمَ مالَه شَطْرَيْن ، ثمَّ خيّرنا في أحسنِ الشَّطرين ، فرجَعْنا من عنده ، فلم يزلْ زوجي حتى أذهبَ جميعه ، ثم التفتَ إليَّ فقال لي: إلى أينَ يا خنساء؟ قلتُ: إلى أخي صخر . .

قالت: فرَحلْنا إليهِ ، ثم قسَّم مالَه شطريْن ، وخيّرنا في أفْضَلِ الشَّطرين ، فقالت له زوجته: أما ترضى أنْ تشاطرهم مالكَ حتى تخيرهم بين الشَّطرين؟ فقال:

= ٦ ـ «الحِبَرَةُ»: وهي ضربٌ من برود اليمنِ ، وهي أيضاً البرد الموشّى.

٧ ـ وهناك أيضاً أنواع كثيرة ، منها: «اللِّفاع والمِلْحَفة». وهو ما تتلفّعُ به المرأةُ ، وهو (الشَّال) في عصرنا. و«النّطاق والمِنْطَقة» ، وهي شقّة تلبسُها المرأةُ ، وتشدَّ وسْطَها ، وكانت أسماءُ بنتُ أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ تسمّى ذاتَ النّطاق ، أو ذات النّطاقين. و«البَتُّ» ، وهو الطّليسان من خزّ ونحوه. و«الحُلة»: وهي إزار ورداء ، و«البُرْد»: هو الثّوب الموشّى ، و«الكساء» الذي يُلتحفُ به. و«المِعْرَض» الثوب تُعرضُ فيه الجارية وتُجلى. و«البُرنُس» كل ثوبٍ رأسُه ملتزق به ، درّاعة كان أو جبّة أو ممطراً ، وهو أيضاً قلنسوة طويلة ، وكان النّساء يلبسنها في صَدْر الإسلام.

ـ أمّا ألوانُ هذه الملابس ، فأكثرُها شيوعاً اللونُ الأحمر ، وكان اللونُ الأحمر شعارَ الملوكِ والأشرافِ ، وكانت أمّنا عائشة رضي الله عنها تحبُّ من ألوانِ الملابسِ الأحمرَ والمُعصفَر.

وَاللهِ لا أمْنَحُهـا شِـرَارَهَـا فلـو هَلَكْـتُ قـدَّدتْ خِمَـارَهـا
واتَّخـذَتْ مـن شَعَـرٍ صِـدَارَهـا وهـي حَصَـانٌ قـد كَفَتْني عَـارهَـا

فآليتُ ألا يفارقَ الصِّدارُ جَسَدي ما بقيتُ»[١].

* ولعلَّ حياةَ الخنساءِ لم تكنْ طويلةً مع رواحةَ هذا ، فهي لم تنجبْ منه سوى ابنها أبي شجرة.

* وتسكتُ المصادر بعد ذلك؛ ثمّ تحدثنا عن زواجها من مرداس السُّلمي ، قال ابن قُتيبة في «الشّعر والشّعراء» : «ثم خلفَ عليها مرداسُ بن أبي عامر السّلمي»[٢].

* ولا نعرفُ السَّبب الذي جعلَ مرداساً يتزوّجُ الخنساء بعد رواحة ، وأغلبُ الظَّنَّ أنَّ رواحة[٣] خرجَ يطلبُ المالَ في بعض الغاراتِ فلقيَ حتفه

---

(١) انظر : العقد الفريد (٣/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧)؛ وانظر : الشعر والشعراء (١/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦) ، وشرح مقامات الحريري (١/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠).

(٢) الشعر والشعراء (١/ ٣٤٣).

(٣) ممّا تجدرُ الإشارةُ إليه أنَّ اتّهامَ رواحةَ زوجِ الخنساءِ بالمقامرة أمْرٌ لمْ تذكرْهُ المصادرُ القديمةُ ، ولم تُشِرْ إليه ، فلم يذكر ابنُ قتيبةَ في «الشّعر والشّعراء» ذلك ، ولا ابن سلام في «طبقات فحول الشّعراء» ، ولا الأصفهانيُّ في «الأغاني» ، وكذلك بقيةُ المصادر التي ترجمت للخنْسَاء؛ بينما تذهبُ الدكتورة بنت الشَّاطىء إلى أنَّ داءَ المقامرةِ قد استفحلَ برواحةَ بعد الزَّواج فتقول : «لعلّنا لا نخطىءُ الظَّنَّ إذا زعمنا أنَّ داءَ المقامرة لم يستفحلْ برواحةَ إلا بعد أنْ تزوّجَ» (الخنْسَاءُ ص ٢٩) طبعة القاهرة ١٩٥٧ م.
ـ ولم نجدْ في شعرِ الخنْسَاء ما يدلُّ على ذلك ، وكلُّ ما في الأمْر أنَّ رواحةَ كان كريماً قد صَفِرَتْ يداه ، وهمَّ أنْ يرحلَ سعياً وراءَ المال ، فوجدت الخنساء أنَّ الوقتَ غيرُ مناسب آنذاك ، فطلبتْ منه أنْ يقيمَ ، وستجدُ من أخيها صخرٍ العونَ والنّجدة ، فليسَ من المعقول أنْ يعيشَ هذا السَّيد على الاستجداء أو السّؤال.
ـ ولو رجعنا قليلاً ـ قبل صفحات ـ لألفينا أنَّ الخنساءَ قد رفضت دريدَ بن الصّمة واعتزّتْ بنفسِها ، فليسَ من المعقول أنْ تقبلَ الخنساءُ زوجاً مثل رواحة يطلب ما بأيدي الناس.

وماتَ عنها. ولعلَّ هذه الفترة القصيرة التي قضتْها الخنساءُ مع رواحةَ لم تكن مؤثّرةً في حياتها تأثيراً يجعلها تنفعلُ بموتهِ فترثيه وتذكره في شِعْرها، كما فعلَتْ فيما بعد بمرداس بن أبي عامر الذي رثَتْهُ.

* وهكذا تزوَّجَتِ الخنساءُ بعد رواحةَ رجلاً جواداً هو مرداسُ بنُ أبي عامر السُّلمي، وكان مرداسُ سيّداً معروفاً يلقَّبُ بالفيضِ[1] لِسَخائِهِ وجودِه وكرمهِ.

* كان مرداسُ ذا ثراءٍ عريض، يفيضُ به علىٰ المحتاجين، وعلى سائليهِ، وكان رجلَ جدٍّ وعملٍ، يهتبلُ كلّ فرصةٍ ليوفّرَ من خلالها أسباب الحياةِ السَّعيدة لأسرته، حتى ماتَ في إحدىٰ مغامراتِهِ تاركاً الخنساء، وأربعة أولاد هم: العبّاسُ، ويزيدٌ، ومعاوية[2]، وابنة اسمها عمرة.

* وهكذا عاشتِ الخنساءُ مع مرداس بن أبي عامر حتى وافتْهُ المنيّة وماتَ، وتهتزُّ الخنساءُ لفَقْدِه اهتزازَ الحزين، فرثَتْهُ بقصيدةٍ لاميّةٍ رائعةٍ تُعدُّ من عيونِ أشعارِها في المراثي، حيث راحت تعدّدُ شمائله، ومَالَه من حبّ في قُلوبِ أهلِ بيته جميعاً، لما اتَّصَف به من سماحةٍ وندى وحدبٍ عليهم، ولما اتّصف به سيّدٌ وفارسٌ في قومه، وحيث فضَل النَّاس بحلمهِ ودماثةِ خُلقهِ وحبّه للنَّاسِ، بالإضافةِ إلى شجاعته، وفي ذلك تقول:

أَلا اخْتَارَ مرداساً على النَّاس قاتِلُهْ ولَـو عَـادَهُ كَنَّـاتُـهُ وحَـلائِلُـه

---

(١) قالت الخنساء ترثي مرداساً، وتذكره بلقبه الفيض:
والفَيضُ فينا شِهَابٌ يُسْتَضاءُ بهِ إنّا كذلكَ منّا تخرجُ الشُّهُبُ
وقالت أيضاً:
لِيَبْكِ الفيضَ مِرداساً سُلَيمٌ أُولو أحسَابِها وأولُو نُهاهَا
وخَيْلٍ قد لَفَقْتَ بِجَمْعِ خَيْلٍ فدارَتْ بينَ كبشَيْها رَحَاهَا

(٢) ذكر ابنُ حزم في «جمهرته» أنّهم أربعةُ أولادٍ وهم: العبّاسُ، وجزءُ، ومعاويةُ، وهُبيرةُ، وكذلك صاحبُ «الاستيعاب»، بينما لَمْ تُؤكّدْ بقيّةُ المصَادرِ هذا العدد، لذلك اضطربت بعض الأخبار في هذا المجال ـ كما سنرى بإذن الله ـ.

وقُلْنَ أَلا هَلْ مِنْ شِفاءٍ يَنالُهُ ... وقَدْ مَنَعَ الشِّفَاءَ مَنْ هو قَاتلُه
وقد منَعَ الشِّفاء مَنْ شَدَّ قادِراً ... وقد عَلِقَتْ هندَ بنَ عمروٍ حبائلُه[1]
فلمّا رآهُ البدرُ أظلمَ كاسِفاً ... أرَنَّ شَوَانٌ بِرقُهُ فمَايلُه
رنيناً وما يُغْني الرّنينُ وقَدْ أتىٰ ... بنعْشِكَ مِنْ فَوقِ القُريّةِ حامِلُه
وفَضَّل مِرداساً على النَّاس فَضْلُه ... وأنْ كُلّ همٍّ همّهُ فهو فَاعِلُه
وأنْ ربَّ وادٍ يكرَهُ القومُ هَبْطَهُ ... هبَطْتَ وماءِ مَنْهَلٍ أنْتَ نازِلُه
تركْتَ بهِ ليلاً طويلاً ومَنْزِلاً ... تعَاوى علىٰ جنْبِ الطّريق عَواسِلُه
وسَبيٍ كآرامِ الصَّريمِ حوْيتَهُ ... خلالَ رجالٍ مُسْتكينَ عواطِلُه
فعدْتُ عليهِ بعد بُؤسي بأَنْعُمٍ ... وكلُّهمُ يُثني بهِ ويواصِلُه
متى ما تُعادِل مَاجِداً تعتدل بهِ ... كما عَدَلَ الميزانَ بالكفِّ ثاقِلُه[2]

الخَنْسَاءُ وابْنَتُهَا عَمْرَةُ:

* تذكرُ المصادرُ أنّه كانَ للخنساءِ أربعةُ بنين ، وهذا ما ذكروه علىٰ لسانِها في خطبةٍ نسبوها لها ليلةَ القادسيّة إذْ تحثُّهم علىٰ القتال فتقول:

---

(١) الصواب قولها: عمرو بن هند ، لا هند بن عمرو ، ولعل ما ورد في البيت تصحيف وغلط من النسّاخ.

(٢) انظر: ديوان الخنساء (ص ١٧١ ـ ١٧٦) ، تحقيق د. إبراهيم عوضين ، طبعة المكتبة الأزهرية للتّراث ـ مصر ـ ط١ ـ ١٩٨٥ م. وشرح ديوان الخنساء لأبي العباس ثعلب (ص ١٣٨ ـ ١٤١). ومعنى: «الكنّة»: امرأةُ الأخ ، ويُقال: امرأةُ الابن. و«يناله»: يعني الشّفاء ، و«أرَنَّ» بكىٰ ، و«شوانٌ»: اسم قريةٍ ، وشَوان: جبل يشنُّ الماءَ من أعلاه إلى أسْفله ، أي يصبّ ، فلذلك قيلَ له: شَوان. و«بُرق»: جمع برقة ، والبرقة: الأرضُ التي فيها حجارةٌ ورملٌ ، وحجارةُ طيْنٍ ، وكل لونَيْن فهو أبرقُ. و«القُريَّة»: اسمُ المكان الذي أُصيبَ فيهِ مرداسُ زوجُ الخنساء ، وهو منْ أشهرِ قرى اليمامة ، و«عَواسِله»: ذئابه ، وعَسَلان الذّئب: خَبَبُه واضطرابُه في عَدْوِه؛ و«الآرام» الظّباء. و«مُستكينٍ»: ذليلٌ خاضِع. و«عواطِلُه»: جَمعُ عاطِلٍ وهي المرأةُ التي لا حَلْي عليها. و«ثاقِله»: الثّاقل: الوازِن.

«إنّـكم لبنو رجلٍ واحدٍ ، ما خنْتُ أباكم ، ولا فضحتُ خالكم ، ولا هجنتُ حَسبَكم ، ولا غيّرتُ نسبَكم . . . . . »[1] .

* وكان للخنساءِ ابنةٌ وحيدة هي عمرةُ بنتُ مرداس بن أبي عامر ، وهي آخر ولدها .

* وقد ذكرتْ بعضُ المصادرِ والمراجعِ قصّةً حدثَتْ بين عمرةَ وأمّها الخنساء ، وهذه القصّةُ أقربُ إلىٰ الأسطورة منها إلى الحقيقةِ ، ولعلَّ ناسجو الأخبار، وحاكو الأَشْعارِ ، وصانعو القصص قد وضعوها للتَّسلية ، وصاغوها في مصانِعهم ليلبسوها الخنساء في ليلةِ زفَافِ ابنتها عمرة .

* والآن دعونا نستمع إلى القصةِ التي رواها علقمةُ بنُ جرير قال: «أقبلتُ يوماً أسوقُ شارفةً لي من الإبلِ ، أريدُ نَحرها عند الحيّ ، فأدركَني الليلُ بين أبياتِ بني الشَّريد ، فإذا عمرةُ بنتُ مرداس عروس ، وأمُّها الخنساءُ عندها ، فقلتُ لهم: انحروا هذه الجزور ، واستعينُوا بها ، وجلستُ معهم ، ثمّ أذنَ لنا فدخلنا ، فإذا هي جاريةٌ وضيئةٌ ـ يعني عمرة ـ وأمُّها الخنساءُ ملتفّة بكساءٍ أحمرَ ، وقد هرمتْ ، وكانت تلحظُ الجاريَة لحظاً شديداً .

فقال القومُ: باللهِ يا عمرة ألا تحرشْتِ بها ، فإنَّها الآن تعرفُ بعضَ ما أنتِ فيه .

فقامت عمرةُ تريدُ حاجةً، فوطئتْ على قدمها وطأةً أوجعتها، فقالت لها وقد اغتاظَتْ: أفٍّ لكِ يا حمقاء، إنّني كنْتُ أحسنُ منكَ عرساً ، وأطيبُ

(١) لنا تعليقٌ على هذا القولِ ، وعلى هذه الخطبة في فِقرةٍ خاصّة تحت عنوان: الخنساءُ في وصيّة أبنائِها ، إذْ إنّنا نشكُّ في هذه الخطبةِ ، وفي عددِ أولادِها الأربعة من رجلٍ واحد. ونسألُ الله أنْ يلهمَنا الصَّواب.

ورساً ، وأبسطُ منك عرفاً ، وأرقُّ منك نعلاً ، وأكرمُ منك بعلاً ، وذلك إذْ كنتُ فتاةً أعجبُ الفتيان ، لا أذيب الشّحم ، ولا أرعى البهم ، كالمهرة الصّنيع ، لا مضاعة ولا عند مضيع ؛ فضحكَ القومُ من غيظِها من ابنتها»[1] .

* وهناك قصّةٌ أخرى عن الخنساءِ وابنتها عمرة تقول : «كانت عمرةُ بنتُ مرداس بن أبي عامر آخرَ ولدِها ، وعجزتِ الخنساءُ بنت عمرو ، فلما كبرتْ وتسعْسَعت ـ هرمتْ ـ ، ولَّتْ يوماً فرأتْ عمرةُ لحمها قد اضطربَ ؛ فقالت : واللهِ ، لقد أمسيتِ يا خُناس مضطربةَ اللحم .

قالت : تزوجْتُ مرّةً في هؤلاءِ ، ومرةً في هؤلاء ، ثمَّ قالت :

أَلا قــالــتْ عُميــرةُ إذْ رأتْنــي ... وزَاكَــتْ متْنَهــا حــدٌّ حَــديْــدُ[2]

---

(١) انظر : ديوانها (ص ١٤٠ ـ ١٤١) بتصرف، طبعة مصر ١٩٨٥ م. ولعلَّ في هذه القصّةِ أشياءَ تدعونا إلى أنْ نشكَّ في صحّتها؛ حيث إنَّ واضعَها وناسجَها ومؤلّفَها قد زعم أنَّ الخنساءَ بنتَ عمرو كانت ملتفَّة بكساءٍ أحمر ، بينما أجمعتِ الرواياتُ والأخبارُ التي وصلَتْ إلينا ، والتي تحدَّثَتْ عن حياةِ الخنْساءِ ، بأنَّها كانت تلبسُ الصِّدار بعد موتِ أخيها صخر بنِ عمرو ، وكان الصِّدارُ لباسَ الحِدادِ في الجاهليةِ ـ كما مرَّ معنا ـ.
ـ ثم هلْ منَ المعقولِ أنْ تقولَ الخنساءُ تلكمِ العبارات المسجوعة المصنوعة التي تنضحُ بالغيرةِ من ابنتها ، وأنْ تتحدَّث عن نفسِها بأنَّها كانت فتاةً تعجبُ الفتيان؟!!!
ـ ولعلَّ القارىءَ الفطنَ يلحظُ التّصنُّع في القصّةِ في ردِّ الخَنْساءِ ، عندما وطئت ابنتها قدمَها ، فهل تعيدُ الخنساءُ ذكريات زفافها ، وأنّها أحسنُ عُرساً من ابنتها ، وأكرمُ بعلاً؛ ترىٰ أيّ بعلٍ كان؟!
ـ ثم إنَّ عبارةَ الخنساء مسجوعة فيها التّأنُّق الشَّديد ، والعنايةُ الفائقة في اختيار اللفظ الملائم ، وهذا لم يكن في عَصْر الخنساءِ من مثل : عرساً ، ورساً؛ ونعلاً وبعلاً .
ـ يُضاف إلى ذلك كلّه أنّ الخنساءَ كانت مشهورةً بأشعارها فلا حاجةَ إلى مثل تلكم الأسجاع ، وذلكم التّصنّع الذي صافح آذان القوم .
(٢) يقال : قالت بنو سُليم لعميرة ـ عمرة ـ : «ذُوقي ـ اختبري ـ الخنساء ، فانظري ما عندها .
فأتَتْها فوضعتْ يَديْها على منكَبيْها ثمّ قالَتْ : حدٌّ حديدٌ ، ثمّ ولَّتْ وهي تمشي ، =

أُرانــي كُلّمــا جمَّعْــتُ مَــالاً   تقَسَّمَــه رواحــةُ والشَّــريــدُ
فإنْ أسْمَنْ فقد نجَّيْتُ عرضي   وإنْ أُهْـزَل فـأَيْسَـرُ مـا يَبيـدُ[1]

* وكانت عمرةُ بنتُ مرداس هذه شاعرةً مجيدةً مقلّةً ، وتُعدُّ في المخضرمين ، وقد عُرفَتْ بفنّ الرّثاء ، كما عُرفت أمّها بذلك ، ولعلّها كانت تتخذُ من أمّها مثلاً أعلى لها في هذا المضمارِ ، ومن أجملِ مراثيها تلك القصيدة البائية التي رثَتْ فيها أخاها يزيد لما قُتِلَ ، وذلك أنَّ يزيدَ كان قد قتلَ قيسَ بنَ الأسلت في بعض حروبهم ، فطلبَه بثأرِه هارون بن النّعمان بن الأسلت ، حتى تمكَّنَ مِنْ يزيد فقتلَه بقيسِ بن أبي قيس ، وهو ابن عمّه ، فقالت في مطلع رثائها له :

أجـدَّ ابـنَ أمّـي أنْ لا يَـؤُوبـا   وكـانَ ابـنُ أمّـي جَليـداً نَجيبـا
تَقيّـاً نَقيّـاً رحيـبَ المَقَـام   كميّـاً صليّـاً لَبيبـاً خَطيبـا
حليمـاً أريبـاً إذا مَـا بَـدا   سـديـدَ المقـالـةِ صلْبـاً دريبـا

ومنها :

أتـى النَّاس مـن بعـدِ مـا أمْحلُوا   فقـالَ وجـدتُـم مكَـانـاً خَصِيْبـا
فسَـاروا إليـهِ وقـالُـوا استَقِـمْ   فلـم يجـدوهُ هَلُـوعـاً هَيـوبـا[2]

* ولها في أخيها يزيد مراثٍ كثيرة ، ومن مراثيها :

أعينـيَّ لَـمْ أختلكُمـا بخيـانَـةٍ   أبـىٰ الـدَّهْـرُ والأيّـامُ أنْ أتَصَبَّـرا

= فقالتِ الخنْساء :
ألا قـالَـتْ عُميـرة إذ رأتْنـي   وزاكـت متنَهـا حـدٌّ حـديـدُ
فقالت عميرة : أنشدك الله يا أمة . فقالت : أما الأبيات فقد مضت . (شرح ديوان الخنساء ص ١١٧ ـ ١١٨) .

(١) شرح ديوان الخنساء (ص ١١٧ ـ ١١٨) والدر المنثور (ص ١١٠) مع الجمع والتصرف اليسير .
(٢) انظر : أعلام النساء (٣/ ٣٥٩)؛ والدر المنثور (ص ٣٥٢)، والقصيدة تعد (١٨ بيتاً) .

وما كنتُ أخشى أنْ أكونَ كأنَّني بعيـــرٌ إذَا ينعَـــىٰ أخـــيَّ تحسَّـــرَا
ترىٰ الخصمَ زوراً عن أُخيّ مَهَابةً وليسَ الجليسُ عن أُخيّ بأَزْوَرا(١)

* وكانت عمرةُ ابنةُ الخنساء تحبُّ أخاها لأبيها(١) العباس بن مرداس حبّاً كبيراً ، كما كانت أمُّها الخَنْساء تحبُّ أخَاهَا صخراً حباً عظيماً ، وكان العبَّاسُ فارساً شاعراً شديدَ العارضةِ ، قويَ البديهةِ ، ذا بيانٍ وفصَاحة ، سيّداً في قومه من كِلا طرفَيْهِ ـ أبيهِ وأُمّه ـ ، وهو مخضرمٌ أدركَ الجاهليّةَ والإسلام ، وأسلمَ ، ويقال: إنَّه ممن حرَّم الخمرَ في الجاهلية؛ ومن أخبارِه أنَّ عبدَ الملك بنَ مروان سألَ جلساءه: مَنْ أشجعُ النَّاسِ في شعره؟ فتكلّموا في ذلك ، فقال: أشجعُ النَّاس العبّاسُ بنُ مرداس في قوله:

أكُـــرُّ علـــىٰ الكَتيبـــةِ لا أُبـــالـــي أحْتفـــي كَـــانَ فيهـــا أمْ سِـــوَاهَـــا(٢)

* وكانَ العباسُ أشعرَ إخوتِه وأشهرَهُم وأفرسَهم وأسودَهُم ، وروى عن النبي ﷺ ، ونقل عنه الحديث ، ومن شعرِه المستحسنِ قوله:

يـــا خَـــاتـــمَ النُّبـــآءِ إنَّـــكُ مُـــرسَـــلٌ بـــالحـــقّ كـــلُّ هُـــدى السَّبيـــلِ هُـــداكَ
إنَّ الإلَـــه بنـــىٰ عليـــكَ محبّـــةً فـــي خَلْقِـــهِ ومحمّـــداً سمَّـــاكـــا

* ولما ماتَ عبّاسُ هذا في الشَّام سنة (١٦ هـ) أو (١٨ هـ) رثاه أخوه سُراقة ، كما رثته أختُه عمرة فقالت:

لِتَبْكِ ابنَ مرداسٍ علىٰ ما عَراهُمُ عشيـــرتُـــه إذا حُـــمَّ أمـــس زوالُهـــا
لَدَى الخصْمِ إذ عنْدَ الأميرِ كفاهُم فكـــانَ إليـــه فَصْلُهـــا وجـــدالُهـــا
ومُعضِلـــة للْحَـــامليـــنَ كَفيتهـــا إذا أنهلَتْ هوجُ الرّياحِ طِلالُها(٣)

---

(١) زعم بعض الرواة أنّ أمّه الخنساء ، وهو خطأ؛ والصَّواب أنَّ أمّه زنجية.

(٢) الإصابة (٥/ ٣٣٠) ترجمة رقم (٤٥٠٤)؛ وقال أبو عمر القرطبيّ: «كانَ عباسُ بنُ مرداس منَ المؤلفة قلوبهم ، وممن حَسُنَ إسلامُه منهم». (الاستيعاب ٦/ ١٦).

(٣) انظر: الأغاني (١٤/ ٣١٠ ـ ٣١١)، وأعلام النساء (٣/ ٣٦٠)، والدر المنثور (ص ٣٥٣)=

* ومن خلالِ هذه الأَثَارة من شعْرِ عمرةَ بنتِ الخنساء ، ندركُ أنَّها كانت تقتفي نهجَ أمّها الخنساء في الرثاءِ ، بل نجدُ أنَّها صورةٌ مصغّرةٌ لها ، كما أنَّها امتدادٌ لِسيرتها ، إلاّ أنَّ عمرةَ لم تَحْظَ بالشُّهرةِ التي تسنَّمَتْها أمُّها الخنْساءُ في عالَم الشَّهيرات في المشرقِ العربيّ ، كما أنَّه لم يَصِلْ إلينا من شِعْر عمرةَ ، ما وَصل إلينا من شِعْر أمِّها .

الخَنْسَاءُ وحسَّانُ بنُ ثَابت وأُكْذُوبَةٌ بلْهَاء :

* ظهرتِ الخنساءُ في مجتمعِها امرأةً شاعرةً ، تَنَاقَلَ شعرها الحاضرُ والبَاد ، فقد قالتْ من الشّعر مالفَتَ إليها الأنظار ، وأصاخَ إليها الأسماع .

* ومن الملفتِ للنَّظر أنَّها قد بلَغَتْ مكانةً سامقةً في نفوسِ النَّاسِ ، حتى أخذَ كثيرٌ من محبّي الأساطير ، ومحبّي القَصصِ يضعون مارقَّ لهم وراقَ حولَ حياتِها وشِعْرِها ، وكانوا غافلينَ عمّن حولَهم ، وعمن سيكشفُ زيفَهم الأدبي ، ومَجْدَ أدبِهم المزعوم .

* وممّا حاكَهُ الرُّواةُ من قَصصٍ في حياةِ الخنساء ، تلكم القصّة المزعومة الشّهيرة الرّنانة التي زعموا من خلالها أنّها تنقدُ شِعْر حسّانَ بنِ ثابت الأنصاريّ ـ رضي الله عنه ـ.

* فقد أحسَّ بعضُ القدماء بما للخنساءِ من مكانةٍ ساميةٍ في فنّ الشّعرِ ، وتفرّدها عن غيرِها من شواعرِ عَصْرِها ، ورأوها تعتلي درجات الشّعر صاعدةً ، وترتقي سدّة النَّظم ، و لا تهوي منْ عليائِها وفضائها ، ورأوا أنَّ حسانَ بنَ ثابت شاعرٌ فحلٌ منَ الشُّعراءِ الفحولِ في الجاهليّةِ ، ولا يمكنُ للخَنْساءِ أنْ ترتفعَ إلى مستواه ، وإلىٰ سدّةِ مكانَتهِ الشِّعرية ، ومقدرتهِ على

= ومعنى: «فصلُها وجدالُها»: أي كان يفصلُ بين عشيرته في الخلافاتِ والخصوماتِ. و«هوج الرّياح»: الرّياح الشّديدة. و«طلالها»: جمع طلّ ، وهو المطر الخفيف.

النَّظم، وقد لاحظَ بعضُهم أنَّ الخنساءَ ترتقي، بينما يهبطُ حسَّانُ ـ بزعمهم ـ من درجتِه، فأحبَّ بعضُ المتحذلقين أنْ يصوِّر ذلك في قصّةٍ، ويضعُ ويصنعُ لها يَديْن ورجلَيْن ، ويحيكُ ما حاكَ في صدرهِ في حادثةٍ جمعتِ الخنساءَ وحسَّانَ بنَ ثابت في قبّةِ النّابغةِ الذّبياني ، حيثُ أنشدَتْه الخنساء رائيّتها في رثاءِ أخيها صخر.

* ولعلَّ حبكةَ القصةِ الضَّعيفةِ هي التي نَمَّتْ علىٰ كذبِها ، وذلك في بيتِ حسَّان بن ثابت الشَّهير :

لَـنَا الجفَنَاتُ الغرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحى ... وأَسْيافُـنَـا يقْطُرنَ منْ نَجدةٍ دَمَا

فإنَّ لهذا البيتِ قصّةً موضوعةً في تاريخِ النَّقد الأدبي للشّعر العربي ، فربّما وُضعَتْ لتأييدِ رأي على آخر في قضيةٍ لغويّةٍ ، أو لعلَّ الأهواءَ قد لعبتْ دورها كيما ترفعَ من مكانةِ شاعرٍ ، وتحطَّ من منزلةِ آخر ، ذلك أنَّ القصَّة مضطربةُ الرّواياتِ ، كثيرةُ الوجوهِ والأقوالِ ، متهافتةُ الحجّةِ ، ناهيك بأنّها قصّةٌ هزيلةٌ ضعيفةُ الحبكةِ ، ليس يربطُ لُحْمتها بِسُدَاهَا سوى التّهويلِ ، وعدمِ التّثبُّت ، وأخْذِ الأمور على ظواهرِها ، دون أنْ يتعمّقَ القارئُ ، ويكشفَ زيفَها من زواياها وخَبايَاها.

* وممّا زادَ القصَّةَ شهرةً؛ أنّ كثيراً من كتبِ الأدبِ القديمةِ قد روتْها ، ومن ثمَّ ورثَها المصنّفون في العصورِ التالية ، وراحوا يستشهدون بها عندما يتناولونَ حياة الخنساءِ ، وهم يتعصّبُون لها ، أو عندما يتناولون حياةَ حسَّان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ ، أو حياة النّابغة الذبياني في سوقِ عكاظ ، وأصبحتِ القصّةُ المزعومةُ في المصادرِ والمراجعِ من الأمورِ المُسَلَّمِ بها ، ولا تحتاجُ إلى مناقشةٍ أو جَدَل.

* وقد أوردَ هذه القصة ابنُ قتيبة في «الشّعر والشُّعراء» ، والمرزباني في «الموشّح» وغيرهما كثير ، وتقولُ القصّة: «كانَ النّابغةُ الذّبياني تُضْرَبُ له

قبّةٌ حمراءُ من أدمٍ بسوقِ عكاظ[1] ، وتأتيه الشُّعراء ، فتعرضُ عليه أشعارَهَا ، فأنشده الأعشَى أبو بصير ، ثم أنشدَه حسَّان بنُ ثابت ثمّ الشّعراءُ ، ثم جاءتِ الخنساءُ السُّلميّةُ فأنشدتْهُ ، فقالَ لها النَّابغة : واللهِ لولا أنّ أبا بصير أنْشَدني آنفاً لقلتُ إنّكِ أشعرَ الجنِ والإنس»[2] .

* وفي روايةٍ أنّه قال لها : «اذهبي فأنتِ أشعرُ من كلّ ذات ثديَيْن ، ولولا أنَّ أبا بصير أنشدني قبلكِ لفضّلْتك على شعراء هذا الموسم» .

* فغضبَ حسّانُ بنُ ثابت لأنَّ النابغةَ فضَّل الشُّعراء عليهِ وقال : واللهِ لأنا أشعرُ منكَ ومن أبيك ومن جدّك . فقال له النَّابغةُ : حيثُ تقولُ ماذا؟

قال حسَّانُ : حيثُ أقولُ :

لـنَا الجفَنَـاتُ الغرُّ يلمعْنَ بالضُّحى ... وأسيافُنا يقْطُرنَ منْ نَجْدةٍ دَمَا[1]

* وفي روايةٍ : «أنَّ النابغةَ قبضَ على يَدِ حسَّان ثم قال له : يا بنَ أخي ، إنّكَ لا تحسنُ أنْ تقولَ مثل قولي :

فإنَّكَ كالليلِ الذي هو مُدركي ... وإنْ خلْتَ أنَّ المنْتَأى عنْك واسعُ

فَخَنَسَ حسَّانُ لِقَوله»[3] .

* ويذكر ابنُ قتيبة : «أنَّ النَّابغةَ التفتَ إلى الخنساءِ وقال : خاطبيهِ يا خُنَاس .

فقالت له : ما أجودَ بيتٍ في قصيدتك هذه التي عرضْتَها آنفاً؟ قال : قَوْلي فيها : لنَا الجفناتُ الغرّ . . . . . . البيت .

---

(١) من مرويات أهل الأخبار ، أن الشعراء الجاهليين كانوا يغدون إلى سوق عكاظ ، فيتعاكظون ـ أي يتفاخرون ـ ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ثم يتفرقون .

(٢) الموشح (ص ٧٦) بتصرف يسير ، والأغاني (١١/ ٩) .

(٣) الأغاني (١١/ ٩) بتصرف يسير .

فقالت: ضعَّفْتَ افتخارَكَ وأنْزَرْتَه في ثمانيةِ مواضع في بيتك هذا. ثمَّ ذكرت له ثماني سقَطَات. . . . . فسكتَ حسَّان ولم يحِرْ جواباً»[١].

* وإلى هذا الحدّ تروىٰ القصّة برواياتٍ متعدّدة[٢]، وهذه القصَّة التي يظهرُ فيها الوضعُ تدلُّ دلالةً واضحةً ـ بِغَضّ النّظرِ عن عدم صحتها ـ على مكانةِ الخَنْساء في عَالَمِ الشُّعراء، وأنَّها قد ارتقتْ إلى مصافِّ الكبار منهم، وأنّها تنازعهم مجدهم الفنّي.

* وزعمَ واضعو القصّة أنَّ الخنساءَ، أو النَّابغةَ الذُّبياني قد شرحَ بيتَ حسَّانَ بنِ ثابت شرحاً وافياً، وأظهرَ ما فيه منَ العيوبِ التي تجعلُه بعيداً عن الفهم العربيّ، والتّذوّق البيَاني، والإحساس بالكلمة، فقالتِ الخنساءُ، أو قال النَّابغة ينتقده، ويبيّنُ له سقطاته خطوةً، خطوةً، على النَّحو الآتي:

* لقد أقلَلْتَ جَفَناتِكَ وأسيافَكَ؛ يريدُ النَّابغة أنَّ لفظةَ «جفَنَات» جَمْع مؤنّثٍ سالم، وهو جمعٌ دالٌّ علىٰ القلّة، وأنَّ منَ الأفْضَل أن يقول: «جفَان» للدّلالة على الكثرةِ. وكذلك لفظة «أسْيَاف» من جموعِ القلّة، وجمع الكثرة هو «سُيوف»؛ فحسّان ـ كما زعموا ـ يفخرُ، والفَخر هنا يستدعي التّكثير والتّعظيم والتّهويل.

---

(١) الشّعر والشّعراء (١/ ٣٤٣) وما بعدها.

(٢) من تلكم الرّوايات ما ورد «أنَّ الحُطيئة قد مرَّ بحسَّان بنِ ثابت وكلاهما شاعر فَحلٌ، وكان حسَّان ينْشد قوله:

لنا الجفَنَاتُ الغرّ يلمعنَ بالضّحى ... وأسيافنا يقْطُرنَ من نجدةٍ دَمَا

والتفتَ حسَّان إلى الحطيئةِ وقال: كيفَ ترى؟ قال: ما أرىٰ بأساً.

فقال حسَّان: انظروا إلى الأعرابي يقول: ما أرى بأْساً، أبو مَنْ هو؟

فقال الحطيئة: أنا أبو مُليكةَ.

فقال حسَّان: واللهِ ما كنتَ أهونَ منكَ حيثُ اكتنيتَ بامرأةٍ!!!!!.

(الأجوبة المسكتة ص ٢٠٨).

* وعابَه كذلك فيما زعموا في قولهِ: «الغُرّ» ، وذلك لزعمهم أنَّ لفظة «الغرّة» هي بياضٌ قليلٌ في الجبهةِ ، أو هي بياضٌ قليل في لون آخر غيره ، وزعموا أنَّ النَّابغةَ قال له: لو قُلْت: «البِيض» لكان أكثر اتِّساعاً ، ولكان أكثر من الغرّة وأجود.

* وعابَه في قوله: «يلمعن بالضُّحى»: واللمع شيءٌ يأتي بعد شيء ، وأنَّه لو قال: «يشرقْنَ» لكان أكثر ، لأنَّ الإشراقَ أَدْوَمُ منَ اللمعان ، واللمعانُ سريعٌ؛ وأنَّه لو قال: «بالدّجى» بدلاً من الضُّحى لكانَ أحْسَن وأكثر ، حيث كلّ شيءٍ يلمعُ بالضُّحى.

* وعابَه في قولهِ: «يقطرن» ، وأنَّه لو قال: «يَسِلْن» ، أو «يجرينَ» ، كان أكثر وكان أحسن ، وكذلك قوله. «دما» ، والدّماء أكثرُ منَ الدم[١].

* وتزعمُ القصّةُ ـ أو يزعم واضعُوها أو وضّاعُوها ـ أنَّ حسَّانَ قد سكتَ ، ولم يحِرْ جَواباً؛ ولم يردَّ علىٰ الخنْساءِ أو النَّابغة ، وذلك حسبَ مزاجِ من نَسَبَ القصة لها أو للنَّابغة.

* وهذا النَّقدُ الأدبيُّ الذي نسبوه إلى الخنساءِ أو النَّابغة لا يصحُّ ، بل إنَّ قصَّةَ النقد هذه موضعُ اتّهام من قديمِ الزّمان ، وهو خبرٌ مصنوع شَكَّ فيه العلماءُ ، فقد حكىٰ ابنُ جنّي عن أبي علي الفارسيّ أنَّه طعنَ في صحّةِ هذه الحكاية[٢]. قال أبو علي: «هذا خبرٌ مجهولٌ لا أَصْلَ له»[٣].

* فالقصّةُ موضوعةٌ ، «وما هذا القَصَصُ المرويُّ عن عكاظ إلاّ من

---

(١) انظر: الموشح (ص٧٦ ـ ٧٧) بتصرف.
(٢) شرح شواهد المغني للسيوطي (١/ ٢٥٧).
(٣) خزانة الأدب (٣/ ٤٣١) طبعة مصر.

رواياتِ أهلِ الأخبار ، وضَعُوه مع قَصصِهم الموضوع عن اختيارِ قريش للغة ، وتخيّرِها أحسنَ الألفاظِ ، وتحكيمِها في الشِّعر»[1] .

* ومما يضعفُ القصَّة أنَّ حسَّانَ بنَ ثابت قال : «جئتُ نابغةَ بني ذبيان ، فوجدتُ الخنْساءَ بنتَ عمرو حين قامَتْ من عندِه ، فأنْشَدْتُه ، فقال : إنَّكَ لَشَاعرٌ ، وإنَّ أختَ بني سليم لبكَّاءَة»[2] .

* والقصّةُ كذلك موضعُ إنكار لدىٰ المتعمقين في الأدبِ في العَصْر الحديثِ ، لأنَّ عَصْر الخَنْساء يسبقُ عَصْر المُصطلحات اللغوية بعدة قرون ، ولعل هذه القصة قد صُنِعَتْ وحيكَتْ في القرنِ الثَّالث الهجريّ بعد أنْ عُرِفَ المنطق ، وعُرِفَ شيءٌ من ألوانِ البلاغةِ والبديعِ والبَيان ، وبعد أنْ دُوّنَتِ العلومُ وتُرجمتْ بعضُ الآدابِ الأخرى كالفارسيّة واليونانية والهنديّة وغيرها من آداب .

* ومن الواضح لكلّ ذي بصيرة أنّه يوجدُ في القصَّة كثيرٌ من التكلّفِ والتّعنّتِ والتّجنّي ، ولا يصحُّ أنْ يُنْسبَ إلى شاعرةٍ من شواعرِ عَصْر الجاهليّة خالية الذِّهْنِ من قواعدِ اللغةِ ، فالخنساءُ نفسُها لم يَسْلَمْ شِعْرُهَا من استعمالِ جَمْعِ القلّة للكثرةِ ؛ قالتِ الخنساءُ في أخيها صَخْرٍ قصيدة مؤلّفة من ثمانية أبيات آخرها :

سقَىٰ الإلهُ ضَريحاً جنَّ أعْظُمَه ورُوحه بغزيرِ المزنِ هطَّالُ[3]

وقال السَّموءَل :

وأسْيَافُنا في كلِّ شرقٍ ومغربٍ بها منْ قراعِ الدَّار عين فُلولُ

---

(١) المفصل في تاريخ العرب (٩/ ١٨٩).
(٢) أعلام النساء (١/ ٣٦١) ، نقلاً عن الأغاني (٤/ ١٧١ ـ ١٧٢) طبعة بيروت .
(٣) انظر : ديوانها (ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦) طبعة مصر . والأعظم : جمع قلّة .

* وفي العصر الإسلاميّ قال بشّار:

كأنَّ مثارَ النَّقع فوقَ رؤوسنا وأسيافَنَا ليلٌ تهاوىٰ كواكبُه

* إذاً فلا نستطيعُ أنْ نسلِّمَ بصحّةِ النَّقد الموجّهِ لحسّانَ من قِبَلِ الخنساءِ لأسبابٍ كثيرة جدّاً، منها:

* أنَّ النَّقَد الدقيقَ ذي التّفاصيل والتّشقيقات الكثيرة، والذي يقومُ على التّحليل والتّعليل لم يكنْ موجوداً في العَصْر الجاهليّ، بل لم نجدْ نقداً من هذا النّوع في سوقِ عكاظ، وإنّما ظهرَ هذا النَّقد عندما ظهرتْ آثارُ المصطلحاتِ الصَّرفية التي وضَعَها أهل اللغة بُعَيد القرنِ الثّالثِ الهجريّ من مثل تخصيص أوزان القلّة، وأوزانِ الكثرةِ من صِيَغِ الجموعِ، وتبويبها في كتُبِ النَّحو والصَّرف واللغة.

* لعلَّ هذا النَّقد[1] المُفَصَّل والذي يعتمدُ على الصَّرفِ وعلى التّذوقِ

---

(١) لم يكنِ النّقدُ الأدبيُ عند العرب في الجاهليّة مُبرمجاً مفصّلاً منظّماً هذا التّنظيم وهذا التّقسيم المعروف، وإنّما نشأَ النقدُ مُرتجلاً، وكانَ هيناً يسيرُ ملائماً لروحِ العَصْر وللشّعر العربي نفسه، عربيّ النّشأة كالشّعر، لم يتأثرْ بمؤثّرات أجنبيةٍ، ولم يقمْ إلا علىٰ الذّوق العربي السّليم.
ـ وقد وُجدَ النّقدُ في أطوارِ تهذيب الشّعر، وفي اختيارِ المعلّقات وتعليقها في الكعبةِ، وفي حكومةِ أمّ جُنْدب بين امرىءِ القيس وعلقمة، وحكومة النَّابغة بين الشّعراء، فقد «كان تضربُ له قبةٌ حمراء بعكاظ، ويأتيه الشّعراء فتنشده أشعارَها»؛ وفي حكْمِ ربيعةَ بنِ حذار الأسديّ على الزّبرقان بن بدر، والمخبّل السَّعدي، وعبدة بن الطّبيب، وعمرو بن الأهتم.
ـ ووُجدَ أيضاً في نقد الشّعراء للشّعر آثار أخرى، فامرؤُ القيس يمرُّ بكعب وأخويه الغضْبان والقَعْقاع، فأنشدوه فقال: «إنّي لأعجبُ كيفَ لا يمتلىءُ عليكم ناراً جودة شعركم». فسمّوا بني النّار. ويقول النّابغة: «أشعر الشّعراء مَن استُجيد كذبه وأضحك رديئه». وسمّي كعبَ الغنوي كعبَ الأمثال لكثرة ما فيها من شِعره، وسمي طفيلُ الغنوي طفيلَ الخليل لكثرةِ وصفهِ إيّاها؛ والنّمر بن تولب المحبّر =

الأدبيّ ، قد وضعَه بعضُ أنْصَارِ المُبالغةِ في الشِّعْر ، حيثُ وجدوا لهم متنفَّساً في شِعْر حسّانَ بنِ ثابت ونَقْد الخنْسَاء ـ المزعوم ـ له؛ وتشريح شِعْره وبيانِ ما ينبو عن ذوقِ الوضّاعِ المريضِ ، وحبِّهِ للمبالغةِ؛ يقولُ ابنُ رشيق القيروانيّ في كتابه الشّهير «العُمدة»: «والمبالغةُ ضروبٌ كثيرةٌ ، والنّاسُ فيها مختلفون ، منهم مَنْ يؤثرها ويقولُ بتفضيلها ويراها الغايةَ القصْوىٰ في الجودةِ ، وذلك مشهورٌ من مذهبِ نابغةِ بني ذبيان ، وهو القائلُ: أشْعَر النَّاس من استُجيد كذبه. . . . وروى قومٌ من حديثِ النَّابغة ومطالبته حسّان بالمبالغةِ ، ونسبته إيّاه إلىٰ التَّقصير في قوله: «لنا الجفَنَات الغرّ . . . » البيت؛ ما هو مشهور عندهم في كتُبِهم. . ».

* هناك نقطةٌ مهمّةٌ جدّاً في بيتِ حسَّان المذكور ، إذْ إنَّ هذا البيتَ منْ أجودِ ما قال حسَّانُ من شعْرٍ ، بل ومن أجودِ أبياتِ القصيدة التي جاءَ منها هذا البيت ، فعندما ذكَرَ ابنُ سلام الجمحيّ الشُّعراء ، ذكرَ حسَّان بن ثابت معهم ، واختار له أبياتاً من أربعِ قصائد له ، بدأَها بقوله: «ومن شعره الرَّائع الجيّد. . . . . » ، وخصَّ البيتَ المذكور مع بيت بعده:

لَنَا الجفَنَاتُ الغرّ يلْمَعْنَ بالضُّحىٰ وأسيافُنا يقطُرنَ مِنْ نجدةٍ دَمَا
أبىٰ فِعلُنا المعروفَ أنْ ننطقَ الخَنَا وقائلُنا بالعُرفِ إلاّ تكلُّمَا

* وأيّاً ما كانَ الأمرُ ، فإنَّ ما نُسِبَ إلى بيتِ حسَّان من عيوبٍ ـ على لسانِ الخنساء المزعوم ـ مردودٌ غير مقبول ، وذلك بِعَرضهِ على قواعد

= لحسنِ شعره ، وسمّوا قصيدةَ سويد بن أبي كاهل: «بسطت رابعةُ الحبل لنا. . . . » اليتيمة ، كما سمّوا بعد ذلك خطبةً لِسَحْبانَ الشّوهاء لحسنها ، ويقول زهير؛ ويروى لحسّان:

وإنَّ أشعرَ بيتٍ أنتَ قائلُهُ بيتٌ يقالُ إذا أنشدته صدقا

ـ ورأىٰ لبيدٌ بعد شيخوخته أنَّ أشعرَ النَّاس امرؤ القيس ، ثم طرفةُ ، ثمّ نفسه. . إلى غير ذلك من مظاهرِ النّقد في الجاهليّة؛ وكلّها أحكام عابرة مرتجلة وبسيطة.

اللغةِ العربيّةِ التي هي الحكمُ والفَيْصَلُ والمرجع؛ وعَرضهِ على الذَّوق الأدبيّ السَّليم ، والتَّذوق البيانيّ لسِحْرِ الكلمات. ولنا في كلامِ قُدامةَ بنِ جعفر في كتابه «نقد الشّعر» دليلٌ على ما ذكرنَاهُ ، وعلى ما اختاره محمدُ بنُ سلام الجمحيّ في «طبقات الشُّعراء»[1] ، يقول ابن قُدامةَ منْصِفاً حسّانَ بن ثابت وتحرّيه للصّواب:

على أنَّ مَنْ أنعَم النَّظر عَلِمَ أنَّ هذا الرَّدَّ علىٰ حسَّان منَ النَّابغةِ كان ، أو من غيرِه؛ خَطَأٌ ، وأنَّ حسَّان مصيبٌ ، إذْ كانتْ مطابقةُ المعنىٰ بالحقّ في يدِه ، وكان الرّادُّ عليه عادلاً عنِ الصّواب إلىٰ غيرِه.

فمن ذلك أنَّ حسَّان لم يُرِدْ بقوله «الغُرّ» أنْ يجعلَ الجِفَان بِيْضاً ، فإذا قصَّرَ عن تصيير جميعها بيضاً نقضَ ما أراده ، لكنّه أرادَ بقولهِ «الغرّ» المَشْهُورات ، كما يُقالُ يومٌ أغرّ ، ويدٌ غرّاء ، وليس يرادُ البياض في شيءٍ من ذلك ، بل يُرادُ الشُّهرة والنَّباهة.

وأمّا قولُ النَّابغةِ في «يلمعن بالضَّحى» وأنَّه لو قال «بالدُّجى» ، لكان أحسن ، إذْ كلُّ شيءٍ يلمعُ بالضُّحى ، فهذا خلافُ الحقّ وعكسُ الواجب ، لأنَّه ليسَ يكادُ يلمعُ من الأشياءِ إلا السَّاطع النّور ، الشّديد الضّياء ، فأمّا الليلُ فأكثرُ الأشياءِ ممّا له أدنى نورٍ وأيسر بصيصٍ يلمعُ فيه ، فمن ذلك الكواكبُ ، وهي بارزةٌ لنا ، مقابلةٌ لأبصارنا دائماً ، تلمعُ بالليل ، ويقلُّ لمعانها بالنَّهار حتى تخفىٰ ، وكذلك السُّرُج والمصابيح ، ينقصُ نورها كلّما أضحىٰ النَّهار ، وفي الليلِ تلمعُ عيونُ السّباع لشدّة بصيصها ، وكذلك اليراع حتى تخال ناراً.

فأما قولُ النَّابغة ـ أو مَنْ قال ـ: إنَّ قولَه في السُّيوف «يجريْنَ» خيرٌ من

---

(١) انظر: طبقات الشعراء (ص ٨٤).

قوله «يقطرن» لأنَّ الجريَ أكثرُ من القطر ، فلم يُرِدْ حسّانُ الكثرة ، وإنَّما ذهبَ إلى ما يلفظُ به الناس ويعتادونَه ، من وصْفِ الشُّجاع الباسلِ ، والبطلِ الفاتكِ ، بأنْ يقولوا «سيفُه يقطرُ دماً» ولم يُسْمَعْ «سيفُه يجري دماً» ولعلّه لو قال يجرينَ دماً يعدلُ عن المألوفِ المعروفِ من وصف الشُّجاع النّجد إلى ما لم تجرِ عادة العرب بوصْفِه»[1].

* وما أجملَ إنصاف قدامةَ بنِ جعفر للحقّ في قولهِ هذا الذي يُظْهِرُ علْمَه ومعرفتَه بأسرارِ العربيّة! وما أكثره تحرياً للصَّواب والسَّداد في مناقشتِه تلك الجميلة! ومن ثمَّ يضعُ يدَ القارىء على الحقيقةِ ، ويجعلُه يميلُ إلى أنَّ هذا النَّقد وهذا الحَيْفَ المنسوبَ إلى الخنساءِ أو النَّابغةِ مخترعٌ منحولٌ موضوعٌ مصنوعٌ ، صاغَهُ الوضَّاعون في غفلةٍ عن أعينِ الرُّقَباء ، ومن الطَّبيعي أنْ نشكَّ في صحّةِ هذا الخبرِ وأمثالهِ ، لأنَّه في ضَعْفِهِ وتهافتِهِ ممّا لا يليقُ بالخنْساء أو بالنَّابغة أنْ يقوله ، ولا أنْ يصدرَ عن مثلهِ على حصافتِهِ وعلو كعْبهِ.

* ولذا فإنّنا سنقفُ الآن ـ بعد توضيح قدامة لوهْنِ الخبر ـ على بعض النّقاط المهمّة في هذا الخبرِ ، وبيانِ فسَاد ذوقِ الوضَّاع فيه؛ وقد استفدنا بذلك من كتابِ «في أصولِ تاريخ العربِ الإسلاميّ» للأستاذ محمّد شرّاب ، حيث تعرّضَ لهذه النُّقطة بشيءٍ من التَّفصيل والتَّحليل.

١ ـ قولُ النَّاقد لحسَّان: «قلَّلْتَ جفناتكَ ، وأسيافكَ» لأنَّ هذين الجمعَيْن للقلّة. . . فإنَّه لا يصحُّ ، وذلك لأنَّ جمعَ المؤنّث السَّالم «جفَنات» يكونُ للقلّة ، ويكونُ للكثرة ، وهذا شيخُ العربيّة ، وإمامٌ من

---

(١) انظر: نقد الشعر (ص ٣٦ ـ ٣٧) نشره الأستاذ محمد عيسى منون ـ المطبعة الوطنية ـ مصر ـ ١٩٣٤ م.

أئمتها ينقلُ في كتابه فيقول: «وأمّا ما كانَ على فَعْلَة فإنَّكَ إذا أردتَ أدنىٰ العدد جمعتَها بالتَّاء وفتحتَ العَيْن، وذلك قولك: جَفْنَة وجَفَنات، فإذا جاوزتَ أدنى العَددِ، كَسَرْتَ الاسمَ على فِعَال نحو: جَفْنَة وجِفَان... وقد يجمعون بالتَّاء وهم يريدون الكثير، وقال الشَّاعر حسَّان بن ثابت: لنا الجفنات..... فلم يُرِدْ أدنىٰ العَدد.....».

* وقول سيبويه: «وقد يجمعون بالتَّاء... إلخ» دليلٌ على كثرتِه، وأنَّه ليسَ شاذاً.

* وأمّا قوله: «إنَّ أسيافَ» جمع قلّة، فهذا صحيحٌ، ولكنَّ ابنَ يعيش في «شرح المفصّل» يقول: «قد يُسْتَعمل اللّفظ الموضوعُ للقليل في موضعِ الكثير، وإنَّ الجموعَ قد يقعُ بعضُها موضَع بعض، ويُستغنى ببعضها عن بعضِ، وإذا قُرِنَ جمع القلّة بما يصرفه إلى معنى الكثرةِ انصرفَ إليها، كأنْ تسبقُه «أل» الدَّالة على تعريفِ الجنْس، كقولهِ تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]، أو يُضاف إلى ما يدلُّ على الكثرة، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التَّحريم: ٦]، ومن ذلك قول حسَّان: «وأسيافنا»، فإضافة الأسيافِ إليهم وهي من جموعِ القلّة صَرَفَتْها إلى الكثرةِ.

٢ ـ وأمّا طعْنُهم على حسَّان لقولهِ: «الغرّ» لزعمهم أنَّ الغُرَّة بياضٌ قليلٌ في لونٍ آخر، فإنَّ حسَّان بنَ ثابتَ لم يُرِدْ من الغُرّة البياض، وإنَّما أرادَ الجفنَات المَشْهُورات، كما يُقال: يومٌ أغرّ، ويدٌ غرَّاء.

٣ ـ وأمّا عيبُه، لقولهِ: «يلمعْنَ بالضُّحى» لزعمهم أنَّ كُلَّ شيءٍ يلمعُ بالضَّحى، فهذا خلافُ الحقّ، كما قال قُدامةُ بنُ جعفر: «لأنَّه ليس يكادُ يلمعُ بالنَّهار منَ الأشياءِ إلا السَّاطع النّور، الشّديد الضّياء، فأمّا الليلُ، فأكثرُ الأشياءِ مما له أدنى نور يلمعُ فيه، فمن ذلك الكواكب، وهي بارزةٌ

لنا ، مقابلةٌ لأبصارِنا ، دائماً تلمعُ في الليل ، ويقلُّ لمعانها بالنَّهار حتى تخفىٰ . . . » . . يُضاف إلى هذا أنَّ الشَّاعر قَرويٌّ حَضَريٌّ ، ويريدُ أنْ يقولَ: إنّ كرمَهم لا يخصُّ الضِّيفان الطَّارقين ليلاً ، بل يعمُّ النَّاس جميعاً ، فالجِفَانُ مُعدّةٌ للضِّيفان ومساكين الحيّ بالغداةِ ، وهي لشهرتها يقصدها الآكلون ولو لم يَروا ضوءَ نَارٍ.

٤ ـ وأمّا عيبُه لقولهِ: «يقطرن» ، وأنَّه لو قال: «يجرينَ» ، كانَ أكثر في الفَخْر. . . . . . فالشَّاعر لم يُرِدْ من قوله: يقطرنَ الكثرة ، وإنَّما ذهبَ إلى ما يلفظُ به النَّاس ويعتادونه من وصفِ الشَّجاع الباسلِ الفاتكِ ، حيث يقولون: «سيفه يقطرُ دماً» ، ولم يُسْمَعْ «سيفُه يجري دماً» ، ولعلَّه لو قال: يجرين دماً ، يعدلُ عن المألوفِ المعروفِ من وصف الشّجاع ، إلى ما لم تَجْرِ عادةُ العربِ بوصفه . . . »[(١)].

* إنَّ ماحِيْكَ حولَ هذا البيتِ هو قصّة مُهلْهَلَةٌ ، وأنَّ الخنساءَ بريئةٌ من هذا النَّقد براءةَ يوسُف من دمِ الذّئب ، أو براءة الذّئب من دمِ يوسُف؛ بل إنَّ الخنساءَ لم تُعرفْ شاعرةً باكيةً إلا بعد مَقْتَل أخويها معاوية وصخر ، ومن المعروفِ في التّاريخِ الجاهليّ أنَّ معاوية بنَ عمرو أخاها قُتِلَ في سنة (٦١٢ م) ، وأنَّ صخراً أخاها قُتِلَ بعده بنحو ثلاث سنين حوالي سنة (٦١٥ هـ) ، بينما يذكرُ تاريخُ الأدب ، وتاريخ النّابغة يشير إلى أنَّ النَّابغة قد ماتَ في سنة (٦٠٢ أو سنة ٦٠٤ م) ، فكيفَ وقفتِ الخنساءُ تنشدُ النّابغة في سوقِ عكاظ رائيتها المشهورة قبل أنْ يقْتَلَ أخَوَاها ، أو قبل أنْ يُقْتَلَ صَخْر؟! فهل جلسَ لها النَّابغة بعد موتهِ كيما يستمعَ إلى إنْشَادِها!!؟!! أَوْ

---

(١) انظر: في أصول تاريخ العرب الإسلامي (ص ٢٥٢ـ٢٥٣) طبعة دار القلم ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٣م ، وديوان الخنساء (ص ١١٩ ـ ١٢٠) طبعة مصر ، مع الجمع والتصرف.

هَلْ دخلَتْ هي ومن معها إلى قبرِهِ ليسمعوه إنشادهم!! إنَّ هذا لَشيءٌ عُجاب.. وعجيب..

* وهكذا نجدُ كثيراً منَ الرُّواة ينسبون هذه القصّة للخنْساءِ، ليجعلوا منها أميرةَ شعراءِ عَصْرِها، أو واحدةً من أمراءِ الشِّعر في عَصْرِها.

* وعن هذه القصّةِ المزعومةِ يقولُ الدّكتور أحمد الحوفي بعد أنْ أوردَها كاملةً نقلاً عن «الأغاني»، و«شرح مقاماتِ الحريريّ»، و«شرحِ شواهد المُغني»، وغيرها: «والوضعُ ظاهرٌ في هذا الحُكْمِ، لأنَّه يتكىءُ على التَّفرقةِ بين جَمْعِ المؤنَّث السَّالم، وجمعِ التّكسيرِ من حيثُ القلّة والكثرة، وهذا المعنىٰ من اصطلاحِ النُّحاة في عَصْرِ التَّدوين، ويعتمدُ على المبالغةِ في الاستعارةِ، وعلى التَّهويل في التَّصوير، وهذه نزعة لم تُعرفْ إلا حينما دُرِسَتْ علومُ البلاغة، وزاحمَ العقلُ والمنطقُ الذّوقَ والفطرة؛ والنّقدُ كلُّه منبعثٌ عن إيثارٍ للغلو والمغالاة في المعاني في عَصْرٍ كان الشُّعراء أميلَ فيه إلى الصِّدق والخيال المقبولِ، لذلك فإنَّ قدامةَ بنَ جعفر على الحقّ في دفاعهِ عن حسّان»(١).

* وأجدني في نهايةِ هذه الفِقْرة بحاجةٍ ماسَّة لأنْ أذكرَ بأنَّ المرأةَ كانت راويةً للشّعر وناقدةً على مرّ العصور، لأنَّ الشِّعر العربيَّ كان يفوحُ وينتشرُ أريجُهُ في الآفاقِ، وفي النّجاد والفيافي والحضَر والبوادي، وكان له محبُّون ومعجبون هم الرّواة، فكانوا يَرْوونه جيْلاً بعد جِيْل، وكان الرّجال الرُّواة يحفظونَه ويروونه كما يحفظون الأنْسابَ والوقائعَ، هذا من ناحيةِ الرّجل، فهل روتِ المرأةُ الشِّعرَ ونقَدتْهُ؟!

* نعم، إنَّ التّاريخَ الأدبيَّ النَّسويَّ العربيَّ يشيرُ إلىٰ ذلك، وقد وعتْ

(١) المرأة في الشّعر الجاهلي (ص ٥٩٨).

أذنُ التَّاريخ بعضَ أخبارِ النّسوة اللائي روينَ الشِّعر وحفظْنَه؛ ومنهنّ: الفارعةُ بنتُ أبي الصَّلت أخت الشَّاعر المشهور أميّة بن أبي الصَّلت ، فقد قدمت على النّبي الكريم ﷺ بعد فَتْح الطَّائف ، فقالَ لها: «هل تحفظينَ من شِعْر أخيك شيئاً»؟

فأخبرته خبرَه ، وأنشدتْه شِعْره الذي أوّله:

بَاتَتْ هُمومِيَ تَسري طَوارِقُها أكُفُّ عينَي والدّمعُ سَابقُها

وأنشدته قوله:

كلُّ عيشٍ وإنْ تَطَاولَ دهْراً صَائِرٌ مرّةً إلى أنْ يَزُولا
لَيتني كنتُ قبلَ ما قَدْ بَدا لي في تلالِ الحياةِ أرعىٰ الوعولا

فقال لها رسولُ الله ﷺ: «كان مَثَلُ أخيكِ كمَثَل الذي آتيناه آياتنا فانسلخَ منها فأتبعه الشّيطان فكان منَ الغاوين»؛ وفي رواية: أنّها أنشدته شِعْراً دينياً لأميّة ، فقال: «آمنَ شِعْرهُ وكفَر قَلْبُه»[1].

* ومن الطَّرائفِ الأدبيةِ التي تحتويها خزانةُ أدبِ العربِ تلكم العجائب الجميلة عن بناتِ الشّعراء ، فقد ذكروا أنَّ الشَّاعر الغنائيَ الأعشى قد علَّم ابنتَه ، وثقَّفَها ، حتّى اطمأنَ إلى ذوقِها ونقدِها ووثق بذلك ، فكان بعد هذا يعرضُ عليها شعره ، ويقولُ لها: «عُدّي لي المُخزيات» ـ يعني القصائد اللاتي يُخزينَ غيره فلا يستطيعُ أنْ يأتيَ بمثلهنّ ـ فتسمعُه من شعره[2].

* ومن المطربِ أيضاً في هذا المجال ، والذي يزيدُ في ثروةِ ورصيد المرأةِ الأدبيّ والنَّقدي ما أورده المرزبانيّ في «موشّحه» من أنَّ حسَّان بنَ ثابت كان على ثقةٍ تامّةٍ من ذوقِ ابنته ليلى ، وطواعية التَّعبير لها على

---

(١) انظر: أسد الغابة (٦/ ٢١٥ـ٢١٦) ترجمة رقم (٧١٦٣).
(٢) الأغاني (١٥/ ١٠٦) طبعة مصر.

البديهةِ ، فقال ما نصَّه: «أرِقَ حسَّانُ بنُ ثابت ذات ليلة ، فَعَنَّ له الشّعر ، وعنده ابنته ليلىٰ في خِدْرِها ، فقال بيتاً:

متَاريكُ أذْنَابِ الأمورِ إذا اعْتَرتْ أخـذْنَـا الفُـروعَ واجْتَثثنـا أصـولَهـا

ثمّ أَجْبَل ـ انقطعَ ـ فلم يجدْ شيئاً ، فقالت له ابنته: يا أبتاه؛ كأنّك أجْبَلْتَ!

قال: أَجَلْ.

فقالت: فهل لكَ أنْ أجيزَ عنك؟

قال: نعم.

قالت: أعِدْ.

فأعادَ قوله ، فقالَتْ:

مَقاويلُ بالمعروفِ خُرْسٌ عن الخَنَا كِـرامٌ يُعـاطُـونَ العَشيـرة سُـوْلَهـا

قال: فحميَ الشَّيخ ، فقالَ:

وقَــافيــةٍ مثــلَ السّنــانِ رَزينــةٍ تنـاولـتُ مـنْ جـوّ السَّمـاءِ نـزولهـا

فقالت:

يَراهَا الذي لاَ يَنْطقُ الشِّعر عنده ويعجـزُ عـن أمثـالهـا أنْ يقـولَهـا

فقال حسَّان: لا أقولُ شعراً وأنتِ حيّةٌ.

قالت: أَوَ أُؤَمِّنُكَ؟

قال: أو تفعلين؟

قالت: نعم ، لا أقولُ شِعْراً ما دمتَ حيّاً[1].

---

(١) الموشح (ص ٧٨ ـ ٧٩).

* وكانت أمُّنا عائشة الصِّديقة بنت الصِّديق ـ رضي الله عنهما ـ راويةً للشّعر ، فقد تولّى تربيتها جماعةٌ من بني مخزوم ، فَنَشأتْ فصيحةَ اللّسان ، قويةَ البيان ، حافظةً لكثيرٍ منَ الشِّعر .

* حدَّثَ هشامُ بنُ عروةَ عن أبيه قال : «ما رأيتُ أحداً أعلمَ بفقْهٍ ولا بطبٍ ولا بشعر من عائشةَ»[١] .

* وحدّثَ أبو الزّناد أنّه ما رأىٰ أحداً أروى لِشِعْر من عروةَ ، وأنَّ عروة قيلَ له : ما أرْوَاكَ!

فقال : ما روايتي في روايةِ عائشة ـ يعني خالته أمّ المؤمنين ـ ، ما كان ينزلُ بها شيءٌ إلا أنشدتْ فيهِ شعراً»[٢] .

* وقالوا : «إنّها كانت تروي القصيدةَ ستين بيتاً ، والقصيدة مئة بيت»[٣] .

* وكانت معجبةً بشعرِ حُجَيّة بن المضَرَّب ، وتحضُّ على روايته ، لأنَّه يعين على البرِّ[٤] .

* وذهبَ عطارد والزّهري إلى أنَّها كانت أعلم النَّاسِ من نساءٍ ورجال[٥] .

---

(١) انظر موسوعتنا نساء أهل البيت (ص ١٥٣) ط٤ ـ ١٩٩٩ م ، دار اليمامة بدمشق .
(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ٥٠) ؛ وانظر المرجع السَّابق .
(٣) المصدر السَّابق .
(٤) انظر : لسان العرب (١٩/ ٦٦) .
(٥) تهذيب التّهذيب (١٢/ ٤٣٥) . يقول الدكتور أحمد الحُوفي معلّقاً على روايةِ أمّنا عائشة للشّعر : «وليسَ منَ الطّبيعي أنْ تنفردَ السّيدةُ عائشةُ بالحافظةِ الراويةِ للشّعر بين النّساء العربيّات ، وإنّما الطّبيعي أنْ يشركَها كثيرٌ منَ النّساء ، فلا بدّ أن كانتْ نساءٌ أخر يحفظْنَ الشّعر ويروينَه ، ولكنهنَّ لم ينلْنَ ما نالتِ السّيّدةُ عائشةُ من مَجْدٍ =

* ولم تكنْ أمُّنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ وحدَها في هذا المجالِ ، وإنَّما كان هناك ناقداتٌ للشِّعر ، وكان بعضُ الشُّعراء يتحرّى مرضاتهنّ ، فقد كانت عمرةُ الجُمحيّة امرأةً جزلةً فصيحةً يجتمعُ الرِّجالُ عندها لإنشادِ الشِّعرِ والمحادثةِ ، وروايةِ الأخبار ، وكان أبو دَهْبل الجُمحيّ يهواها ، ولا يكادُ يفارقُ مجلسَها مع كلّ مَنْ يجتمعُ إليها ، وكانت هي محبّةٌ له أيضاً ، وكانت عمرةُ توصيهِ بحفْظِ ما بينهما ، فلمّا قيلَ لعمرةَ: إنَّ أمرهما قد ذاعَ في المجالسِ ؛ احتجبَتْ عن جُلاسِها وعن أبي دَهْبل ، وأرسلتْ إليه تعذلُه ، فقال:

تطَاولَ هـذا الليـلُ مـا يتبلَّـجُ   وأعيتْ غواشي عَبْرتي ما تَفَرَّجُ
وبـتُّ كئيبـاً مـا أنـامُ كـأنَّمـا   خـلالَ ضلـوعـي جمـرة تتـوهّـجُ
فطوراً أمنّي النَّفْس من عمرةَ المُنى   وطوراً إذا ما لجَّ بي الحزنُ أنشجُ
لـقد قـطعَ الواشون ما كـانَ بـيـنـنا   ونحنُ إلى ما يُوصلَ الحبل أحوجُ[1]

* ويذكر الأصفهاني في «الأغاني» بأنَّ خرقاء العامريّة محبوبة ذي الرُّمة تحفظُ شِعْره وتنقده ، ومن قولها: «كانَ رقيقَ البشْرة ، عذبَ المنطقِ ،

= ونباهةِ صيت ، ولم تُسَجَّل حياتهنّ كما سجّلَتْ حياتُها ، فهي زوجُ النّبي ﷺ وبنتُ صَديقهِ وخليفتهِ ، ولو لم يُقَدّرْ لها أنْ تكونَ كذلك ، وأنْ تشتركَ في نصرةِ حزبٍ سياسي قويّ ، وأن تكونَ راويةً للحديث الشّريف ، لو لم يقدّرْ لها ذلك كلّه لضاعَ كثيرٌ من أخبارِها ، كما ضاعَتْ أخبارُ مئاتٍ من أمثالِها». (المرأة في الشّعر الجاهلي ص ٥٩٢).

ـ وهكذا نجدُ أنَّ المرأةَ العربيّةَ في العصر الجاهليّ ، وفي العصر الإسلاميّ ، كانت تتذوّقُ الشّعر ، وكانت تنقدهُ نقداً يفصحُ عن فهمِها ، كما كانت تتبيّنُ مواضعَ الجودةِ فيه ، أو الرداءةِ ، فتشيرُ إلى الحسنِ منه ، وتظهر جماليّته بحكمٍ قريبٍ من الصّحة وقريبٍ من البَساطة.

(١) أعلام النساء (٣/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧) بتصرف.

حسنَ الوصفِ ، مقاربَ الرصفِ». وروتْ قَطَامِ صاحبة ابنِ ملجم لكثيِّر عزّة بعضَ شعره ، ونقدتْهُ ، وفضّلتْ عليه امرأ القيس . .

* بيد أنَّ المرأةَ في عَصْر الجاهليّة كان لها شأنٌ يُذكرُ في الشِّعْرِ والأدبِ ، فهناك عشراتٌ منَ الشَّواعر ، ذهبت أشعارهُنّ إلا قليلاً جاءنا في بعضِ الأخبار؛ منهنّ كبشةُ أخت عمرو بن معدي كرب ، وجليلةُ بنت مرّة زوج كليب وائل ، وميسةُ بنتُ جابر امرأةُ حارثة بن بدر ، وضيفتنا الخنساء بنت عمرو السّلمية ، وخِرنِق بنتُ بدر[1] ، وليلى العفيفة [2]، وأميمةُ زوج ابن الدّمينة الشّاعر ، وغيرهنّ.

* وقد أوردتْ بعضُ الأخبارِ التي وصلَتْ إلينا بأنَّ أبا نُواس الحسنَ بنَ هانىء كان يروي لستين شاعرة من شاعراتِ العرب؛ ومنهنّ مَنْ بلغَ من شأنها أنْ يستحكمَ إليها فحولُ الشعراء ، كأُمّ جندب زوجِ امرىءِ القيس ، فقد حكَّمها زوجُها امرؤ القيس بينَه وبين علقمة الفحل ، فحكمتْ حكماً دلّ على ذكاءٍ ومعرفة وبصر[3] ، وكانت هندُ بنتُ الخس ، وجمعةُ بنتُ حابس من الخطيبات المنوهات الشّهيرات.

الـخَنْسَاءُ وَهِنْـدُ بِنْـتُ عُتْبَـةَ:

* كانتِ الخنساءُ بنتُ عمرو السُّلميّة أميرةَ شاعراتِ عَصْرِها ، وهي منْ أكثرِ شواعرِ العربِ في عصرها ومصرِها فَخْراً بأخويها وبشجاعتِهما؛ ولما

---

(١) اقرأ سيرة هاتين المرأتين في كتابنا «نساء في قصور الأمراء» طبعة دار اليمامة بدمشق عام ٢٠٠٠ م.

(٢) اقرأ سيرة هاتين المرأتين في كتابنا «نساء في قصور الأمراء» طبعة دار اليمامة بدمشق عام ٢٠٠٠ م.

(٣) حكومة أم جندب مشهورة في كتب الأدب ، لكننا نشكُّ في صحتها ، ونؤمنُ ونوقن بأنّها موضوعة مخترعة.

قُتِلا هزَّها ذلك ، وظلَّتْ مشدودةَ الإحساسِ ، تقولُ الشّعر في رثائهما ، فيتجاوبُ الزَّمنُ مع صدى شدوها بهما ولهما ، وتعداد محاسنهما .

* ولعلَّ الخنساء كانتْ تحسُّ باللذِة في ذلك وخصوصاً في رثاءِ أخيها صخر ، فلا تملُّ من ترداد الرّثاء فيهِ ، والبكاء عليه ، وكانت تنطلقُ تسمعُ العرب في الأسواقِ نفثاتها وأشعارها فيه ، وهذا ما يصوّرُ للباحثِ احتفالها بِشِعْرِ الرّثاء ، وفتنتها بشجاعةِ أخويها وبسالتِهما في ميادين الفروسيّة والقتالِ ونزالِ الفُرسان والأبطال .

* قال عبد الرحيم العبّاسي في «معاهدهِ» : «وكانتِ الخنساءُ في أوّل أمرِها تقولُ البيتَيْن والثّلاثة ، حتى قُتِلَ أخواها معاوية وصخر ، وكان صخرٌ أخاها لأبيها ، وكان أحبّهما إليها ، لأنَّه كان حليماً جواداً محبُوباً في العشيرة»[1] .

* وتروي الأخبار التي تناقَلها الرُّواةُ فيما بينهم أنَّ لقاءً قد تمَّ بين الخنساءِ وهند بنتِ عتبة العبشميّة عُقيبَ غزاةِ بدر ، وتناشدتا الأشعار ، وكلّ واحدةٍ منهما تذكرُ ما حلَّ بساحتِها من المصائبِ بمقتلِ الأحبّةِ من الأهلين والأقارب الأَدنَـيْن . . . . وقالت الأخبارُ التي وصلَتْ إلينا : إنَّ هذا اللقاءَ بينَ هاتَيْن المرأتَيْن الرَّاثيتين قد كانَ في سوقِ عُكاظ الشَّهير . . . . ترى هل التقَتا فِعْلاً ، وهل جمعَ الدهرُ بينهما هناك ، وبثَّتْ كلُّ واحدةٍ منهما الأخرىٰ شجونَها ، وألقَتْ ما في نفسِها؟ ! !

* إذاً ، دعونا نقرأ قصّة اللقاء التي جادَتْ بها بعضُ المصادر ، وجاءتْ في كثيرٍ من كُتُبِ الأدب .

* فقد ذكرتْ دواوين الأدب وكتب الأسْمار والسِّير قصّة لقاء الخنساءِ

---

(١) معاهد التنصيص (١/ ٣٤٩) .

عقيلة العربِ هند بنت عتبة في عكاظ فقالت ما مفادُه: «كان صخرُ بنُ عمرو السُّلمي ذا بأسٍ وشجاعةٍ وفروسيّةٍ ، ويزينُ ذلك كلّه السَّخاء الذي تفيضُ به يداه ، فقد كان منَ الأجوادِ المعدودين ، وكان قد قاسمَ أخته الخنساءَ مالَه ثلاث مرّات في دهرِه ، فلمّا هلكَ أبو الخنساء وأخواها: صخرٌ ومعاويةُ ، جعلت ترثيهم ، وتشهدُ الموسم ، وقد سَوَّمَتْ[1] هودجَها برايةٍ وتقول: أنا أعظمُ العربِ مصيبةً ، وتبكيهم في شعرِها حتى عَرفَتِ العربُ ذلك منها ، فلما كانتْ وقعةُ بدرٍ الكبرىٰ بين المسلمين والمشركين ، وقُتلَ فيها من مشركي قريش: عتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعة ، والوليدُ بنُ عتبة بن ربيعة العبشميون ، أقبلتْ هندُ بنتُ عتبةَ بنِ ربيعةَ ترثي أباها وعمَّها وأخاهَا ، وتقولُ فيهم الأشعار ، وبلغَها ما كانت تفعلُ الخنساءُ في الموسمِ وتسويمها هودجَها ، ومعاظمتها العرب بمصيبتها ، فقالت هندُ بنتُ عتبة: أنا أعظمُ منَ الخنساءِ مصيبةً ، وأمرتْ بهودجِها فسوِّمَ برايةٍ أيضاً ، وشهدتِ الموسمَ بعكاظ ، ـ وكانت عُظاظ سوقاً تجتمعُ فيه العرب ـ ، وجعلتْ تسألُ عن الخنساءِ ، فَدُلَّتْ عليها ، فقالتْ: اقرنُوا جَمَلي بجَملِها ، فَفَعَلُوا؛ فلمّا دَنت منها نظرتِ الخنساءُ إليها وقالت: مَن أنتِ يا أُخيَّة؟ فقالت: أنا هندُ بنتُ عتبة بن ربيعة أعظمُ العرب مصيبةً ، وقد بلغني أنّك تعاظمينَ العرب بمصيبتك ، ففيمَ تعاظمينَهم؟ قالتِ الخنساءُ: بأبي عمرو بن الشَّريد ، وأخوي صخْرٍ ومعاويةَ؛ ففيم تعاظمينَهم أنتِ؟

قالت: بأبي عتبةَ بنِ ربيعة ، وعمّي شيبة بنِ ربيعة ، وأخي الوليدِ بنِ عتبة.

قالتِ الخنساءُ: أَوَ سَواءٌ هم عندك يا أخت؟! ثم إنَّها أنشأتْ تقولُ:

---

(١) «سومت»: جعلت علامة على الهودج.

أبكـي أبـي عَمْـراً بعيـنٍ غـزيـرةٍ ... قَليـل إذا نـامَ العيـونُ هُجـودُهَـا
وصنْويَّ لا أنسىٰ معاويةَ الذي ... لـه مـنْ سَـراةِ الحـرّتَيْـن وفـودُهَـا
وصَخْراً ومَنْ ذا مثلُ صخر إذا غَدا ... بِسَـاهمـةِ الأبصـارِ قُـبٌّ يقـودُهَـا
فَـذَلـكَ يَـاهِنْـدُ الـرَّزيّـة فـاعْلَمـي ... ونيرانُ حربٍ حين شُبَّ وقودُهَا

فقالتْ هندُ بنتُ عتبة تجيبُها :

أبْكـي عميـدَ الأَبْطحَيْـن كلَيْهمـا ... وحـاميهمَـا مـن كُلّ بـاغٍ يُـريـدُهَـا
أَبي عتبةُ الخيراتِ ويحكِ فاعْلَمي ... وشيبةُ والحامي الذِّمار وليدُهَا
أولئكَ أهلُ المجدِ منْ آلِ غالبٍ ... وفي العزّ منها حين تُثْنَى عديدُها(١)

* ويروي الميدانيّ في «مجمع الأمثالِ» قصّةَ لقاءِ الخنساءِ هند بنت عتبة في بعضِ المواسم فقال: «أقبلت ـ الخنساء ـ من الموسمِ ، فوجدتِ النَّاسَ مجتمعينَ على هندِ بنتِ عتبة بن ربيعة ، ففرجَتْ عنها ، وهي تنشدُهم مراثي في أهلِ بيتها ، فلما دنَتْ منها قالت: على مَنْ تبكين؟

قالت: أبكي سَادةً مضوا.

قالت: فأَنْشديني بعضَ ما قُلْتِ.

فقالت هند: «أبكي عمودَ الأبطحين. . . . الأبيات. . . ».

فقالتِ الخنساء: «مرعى ولا كالسَّعدان» ، فذهبَتْ مثلاً»(٢). ويُضْرَبُ للشيء يفضلُ على أقرانِهِ وأشكالهِ.

---

(١) انظر: ديوانها (ص ٢١٦ ـ ٢١٨) طبعة بيروت ، ومعاهد التنصيص (١/ ٣٥١ ـ ٣٥٣).

(٢) انظر: مجمع الأمثال (٣/ ٢٦٥) بتحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم. طبعة البابي الحلبي بمصر. ونقلَ الميداني عن أبي عُبيد قال: «حكى المفضّل أنّ المثَل لامرأةٍ من طيىء ، كان تزوّجها امرؤ القيس بن حُجر الكندي ، وكان مفرّكاً ، فقال لها: أين أنا من زوجكِ الأول؟ فقالت: مرعىً ولا كالسَّعدان أي إنّك وإن كنتَ رضاً فلَسْت كَفُلان. (مجمع الأمثال ٣/ ٢٦٦).

* وأودُّ أنْ أهمسَ في أذنِ القارئِ الكريم فأقولُ له: إنّني في شكٍّ من صحّةِ هذه القصّة، وإنْ وردَتْ في أكثر من مصدر، وإنَّ القَلْبَ لا يطمئنُ لَها، خصوصاً أنَّ في القصّة اضطراباً، وخَلْطاً في بعض التّحليلات في اسمِ والدِ الخنْساء عمرو بن الشَّريد.

* من ذلك ما ذكره القَلْقَشندي في كتابهِ «نهاية الأربِ في معرفةِ أنْساب العرب» (ص ٦١ طبعة القاهرة ١٩٥٩ م) أنّه ثبتَ في صحيحِ مسلم أنَّ أبا الخَنْساء ـ وهو عمرو بن الشَّريد ـ كان يردفُ النَّبي ﷺ، ويروي له شعر أميّة بن أبي الصَّلت.

* يقولُ القَلْقَشندي: «وقد ثبتَ في صحيحِ مسلم عن عمرو بن الشَّريد أنّه قال: ردفتُ النَّبيَّ ﷺ يوماً فقال: «هلْ معكَ من شِعْرِ أميّة بنِ أبي الصَّلت شيء»؟

قلت: نعم.

قال: «هيه».

فأنشدتُه بيتاً، فقال: «هيه».

فأنشدتُه بيتاً، حتّى أنشدتُه مئة بيت، فقال: «إنَّه كادَ ليسلمُ في شِعْره».

* ومنَ الملاحظِ أنَّ القلقشندي قد وهمَ في هذا الحديث في اسمِ عمروِ بنِ الشَّريد، حيثُ ظنَّه أنّه والدُ الخنساء؛ والصَّحيح أنَّ راوي الحديث هو الشَّريد بنُ سُويد الثَّقفيّ، والذي روىٰ عنه ذلك هو ابنه عمرو بنُ الشَّريد بن سُويد الثَّقفيّ، وقد ترجم له ابنُ الأثير في «أسدِ الغابةِ»، كما ترجم للشَّريد أيضاً ابن حجر في «الإصابة»، وذكَرَا الحديثَ السَّابق، فقد ذكرهُ ابن الأثير بسندٍ رفعه إلى عمرو بن الشّريد الثّقفي عن أبيه الشَّريد قال: استنشدني رسولُ الله ﷺ شعرَ أميّة بن أبي الصَّلت، فأنشدته

مئة بيت ، ما أنشدتُه بيتاً منها إلاّ قال: «إيهِ» حتى وفّيتُها مئة؛ فلما وفيتُها قال: «إنْ كادَ لَيسْلِم»[1].

الـخَنْسَاءُ والإسْـلاَمُ:

* يروي كُتَّابُ السِّيرة والتّراجم والطَّبقات أنَّ الخنساء قدمتْ على رسولِ الله ﷺ مع قومها فأسلمتْ معهم ، وغدتْ واحدةً من الصَّحابيات اللواتي سعِدْنَ ونعمْنَ بالصُّحْبَةِ النَّبويَّةِ ، وكُنَّ منْ خيرِ أُمَّةٍ في خيرِ القُرون.

* وذكروا أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يستنشدُهَا ويعجبُه شعرها ، فكانت تنشدُه ، ويقولُ «هيه يا خُناس» أو يومىء بيده[2].

* والخنساءُ شاعرةٌ منَ الشَّواعر في عَصْر المُخَضْرمين[3] ، وتُطلقُ

---

(1) انظر: أسد الغابة (٢/ ٦٢٩) طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت؛ والحديث أخرجه أحمد (٤/ ٣٨٨) ، وابن سعد (٥/ ٣٧٦) ، والبخاري في الأدب المفرد (ص ٨٦٩).

(2) أسد الغابة (٦/ ٨٩) ترجمة رقم (٦٨٧٦)؛ والاستيعاب (١٢/ ٢٩٢) ، والإصابة (١٢/ ٢٦٦). ومعنى «هيه» كلمةُ استحسانٍ واستزادةٍ من الحديث.

(3) «المخضرمون»: مِنْ خضرم ، والخِضْرِمُ: الكثيرُ منْ كُلّ شيءٍ. والخِضْرم: الجوادُ الكثيرُ العطيّة ، والجمعُ: خَضَارِم وخَضَارمة ، والهاءُ لتأنيثِ الجمعِ ، وخِضْرمون ، ولا تُوصف به المرأة.
- وناقةٌ مخضرمةٌ: قطعُ طرفِ أذنها ، والخضرمةُ: قطعُ إحدى الأذنَيْن ، وهي سمَةُ الجاهليّة. وخضرمَ الأذن: قطعَ من طرفها شيئاً وتركَه يَنُوسُ ، وقيل: قطعَها بنصفَيْن ، وقيل: المخضرمةُ من النُّوق والشَّاء المقطوعة نصف الأذن. وقيل لكلّ مَنْ أدركَ الجاهلية والإسلام: مخضرم ، لأنّه أدركَ الخضرمَتين: خضرمة الجاهلية وخضرمة الإسلام.
- ورجلٌ مخضرم: إذا كان نصفُ عمرهِ في الجاهليّةِ ونصفُه في الإسلام ، وشاعرٌ مخضرم: أدركَ الجاهليّة والإسلام مثل لَبيد وغيره ممّن أدركهما.
- ورجلٌ مخضرم: أبوه أبيضُ وهو أسود. ورجلٌ مخضرم: ناقصُ الحسَب. وقيل: هو الذي ليس بكريمِ النَّسب. وقيل: المخضرمُ في نسبهِ المختلطُ من أطرافِه. =

كلمةُ مخضرم عند العربِ في الأَصْلِ علىٰ مَنْ أدركَ الجاهليّةَ والإسلام ، ثمّ أُطلقَتْ على طبقةِ الشُّعراء الذين أدركوا الجاهليّةَ والإسلام.

* فالخنساءُ واحدةٌ من عَصْرِ المُخضْرمين لأنَّ الإسلامَ يكادُ يشطرُ حياتَها إلى شطرَيْن ، وهي شاعرةٌ مجيدةٌ ، عاشَتْ معظمَ حياتها الشّعرية ومجدها الفنيّ في العَصْر الجاهليّ. قال ابنُ قُتيبة في كتابِهِ الموسوعي «الشِّعر والشُّعراء»: «وهي جاهليّةٌ، كانت تقولُ الشِّعر في زمنِ النّابغة الذُّبياني»[1].

* وأمّا ابنةُ الشّاطىء عائشةُ عبد الرحمن فتقولُ في كتابها عن «الخنْساء» ما نصُّه: «عاشتِ الشَّطرَ الأهمَّ والأحفلَ من حياتها في أخرياتِ العَصْر الجاهليَ، ولم تدركِ الإسلام إلا بعد أن اكتملَتْ حياتُها الفنية بوجْهٍ خاص ، وشارفَتْ نهايتها، ومن أجلِ هذا جازَ لنا أنْ ننسبها فنياً إلى العَصْر الجاهلي ، وإن كانت حياتُها قد امتدت في الواقعِ إلى ما بعد الإسلام سنين عدداً؛ وإذا حقّ لمؤرخي الأعلام أنْ يسلكوا تماضر بنتَ عمرو بنِ الحارث بنِ الشّريد السُّلمي في عدادِ المخضرمين ، فإنَّ المؤرّخَ الأدبيَّ لا يهونُ عليه أنْ يحسبَ الخنْسَاء الشَّاعرة منهم ، وإنّما هي عنده جاهليّةٌ خالِصَةٌ»[2].

* ومهما يكن منْ أمرٍ ، فالخنساءُ شاعرةٌ منَ المخضرمين ، تشرَّفَتْ بالإسلام وعزَّتْ به ، ونُظِمَتْ في عدادِ الصَّحابيات رضي الله عنهنَّ جميعاً.

* قال مُصطفى صادق الرَّافعي ـ رحمه الله ـ: «وأشهرُ المخضرمين: لبيدُ ، وحسَّان ، والحُطيئة ، والنَّابغة الجعدي ، والخنْساء»[3].

= وقيل: هو الذي لا يُعرفُ أبواه ، وقيل: هو الذي ولدته السَّراري. (لسان العرب ١٢/ ١٨٤ ـ ١٨٥) باختصار.

(١) الشّعر والشّعراء (١/ ٣٤٤).

(٢) الخنساء لبنت الشاطىء (ص ٩) ، القاهرة طبعة ١٩٥٧ م.

(٣) تاريخ آداب العرب (٣/ ٥٣).

* ولا نستطيعُ أنْ نُجزّىءَ حياةَ الخنساءِ ، أو أنْ نفصلَ بينَ حياتها في الجاهليّةِ ثمّ الإسلام ، فهي شاعرةٌ تمتلكُ موهبةَ الشّعر ، وقد وقعَتْ تحتَ تأثيرِ عهدَيْن متقاربيْن هما: الجاهليّة والإسلام ، وقد تأثّرت بكليهما؛ ولعلَّ تأثرها بمقتلِ أخويها كان أشدّ حتى في الإسلام.

* فقد روي أنَّ عمرَ بنَ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أُخْبِرَ بأنَّ الخنساءَ دخلتِ المدينةَ المنوّرة وهي مَتلبّبةٌ بزي الجاهليّة ، فقام إليها عمرُ في أناسٍ من أصحابه ، فدخلَ عليها ، فإذا هي على ما وُصِفَتْ له منها ، فعذَلها ووعظَها وأخبرها أنّها تموتُ ، ولو خُلّدَ أحدٌ لخلّدَ رسولُ الله ﷺ ، والذي تصنعينَ ليس من صُنْعِ الإسلام.

فقالت: اسمعْ منّي ما أقولُ في عَذْلكَ إيّاي ولومكَ لي.

فقال: هاتي؛ فأنشأَتْ تقول:

سَقَىٰ جَدَثاً أكنافُ غمرةَ دونَه ... مِنَ الغَيْثِ دِيمَاتُ الرَّبيعِ ووابلُه
أُعيرهُمُ سَمْعي إذا ذُكِرَ الأَسَىٰ ... وفي القَلْبِ منه زفرةٌ ما تُزايلُه
وكنتُ أعيرُ الدَّمعَ قبلَكَ مَنْ بكىٰ ... فأنْتَ علىٰ مَنْ ماتَ بعدكَ شَاغِله[1]

---

(١) انظر: ديوانها (ص ٤١٤) تأليف د. إبراهيم عوضين ـ مصر ـ ١٩٨٥ م؛ وقد وردتِ القصّةُ بشكلٍ آخر في بعضِ المصادر ، كالوافي بالوفيات ، حيثُ قال ما مفاده: «يروى أنّه لما كانَتْ خلافةُ عمر ـ رضي الله عنه ـ أقبلَ بنو عمّها إلىٰ عمرَ بنِ الخطّاب فقالوا: يا أميرَ المؤمنين ، هذه الخنساءُ ، لم تزلْ تبكي على أبيها وأخويها في الجاهلية حتى ذهبَتْ وأدركتِ الإسلامَ ، وقد قرّحتْ مآقيها كما ترىٰ ، فلو نَهيتَها لرجونا أن تنتهيَ.
ـ فدخلَ عليها فإذا هي علىٰ ما وُصِفَتْ له ، فقال: ما أَقْرحَ مآقي عينيك يا خنْساء؟
قالت: بكائي على السّادات من مُضر.
فقال: حتّى متى يا خنْساء؟! اتّقي الله ، وأيقني بالموتِ؛ إنَّ الذي تصنعينَ ليس من صُنع الإسلام ، وإنّه لو خلَدَ أحدٌ لخلد رسولُ اللهِ ﷺ ، وإنَّ الذين تبكينَ هلكوا في الجاهليةِ ، وهم أعضاءُ اللهب وحشو جهنّم. =

* وروي أنَّ عمرَ بنَ الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ دخلَ البيتَ الحرام، فرأىٰ الخنساءَ تطوفُ بالبيتِ محلوقةَ الرّأسِ، تبكي وتلطم خدّها، وقد علّقت نَعْلَ صخر في خِمارِها، فوعظَها؛ فقالت: إنّي رُزِئتُ فارساً لم يُرزأ أحدٌ مثله.

فقال: إنَّ في النَّاسِ مَنْ هو أعظمُ مَرْزَأةً منك، وإنَّ الإسلام قد غطّى ما قبله، وإنّه لا يحلُّ لك لطْمَ وجهكِ، وكشفَ رأسكِ!!

فكفَّتْ عن ذلك. وقالت ترثي أخاهَا صخراً وأخاها معاوية:

هَريقي مِنْ دُموعكِ واسْتَفيقي وصَبْراً إنْ أطقْتِ ولَنْ تُطيقي
وقُولي إنَّ خيرَ بني سُلَيمٍ وفارسَهم بصحراءِ العَتيْقِ
وإنّي والبُكا عَن بُعْدِ صَخْرٍ كسَالِكَةٍ سوىٰ قَصْدِ الطَّريقِ

ومنها:

ولكنّي وجْدتُ الصَّبْرَ خَيراً مِنَ التَّعليقِ والرّأسِ الحليقِ

ومنها:

وإذْ فينا معاويةُ بنُ صَخْرٍ علىٰ أَدْمَاء كالجَملِ الفَتيقِ
فبكّيهِ فقد ولّىٰ حميداً أصيلَ الرّأي محمودَ الصَّديق(١)

= قالت: ذلك أطولُ بعويلي عليهم.
قال: فأنشديني ممّا قلت.
قالت: أما إنّي لا أنشدك مما قلتُ اليوم، ولكنّي أنشدك مما قُلتُ السّاعة، وأنشدت: «سقَى جَدثاً أكناف...» فكأنَّ عمرُ رقَّ لها فقال: لا ألومك يا خنساء في البكاءِ عليهما، خلّوا سبيل عجوزكم، فكلّ امرىء يبكي شجوه، ونامَ الخلي عن بكاء الشّجي»!! (الوافي بالوفيات ١٠/ ٤٩٣ ـ ٤٩٤).

(١) ديوان الخنساء (ص ٨٨ ـ ٨٩) باختصار، نقلاً عن شعر الخنساء لكَرم البستاني (ص ١٤٢)، وانظر: شرح مقامات الحريري (١/ ٣٥٤).

مَعَ الـخَنْسَاءِ فـي وصيّـةِ أَبنائِهَـا:

* تذهبُ المصادرُ المتنوعةُ إلى قصّةٍ مفادها أنَّ الخنساءَ قد حضرتْ حربَ القادسيّة، وأنَّها رافقتْ بنيها الأربعة يومذاك حينما ضُرِبَ البعثُ علىٰ المُسلمين، فذهبتْ معَهم وأوصَتْهم في وقعةِ القادسيّة.

* ومنَ العجيبِ أنَّ هذه الوصيَّة قد وردتْ في المصادرِ التي بين أيدينا على ألوانٍ ثلاثة:

* إمّا مُشَاراً إليها كما جاءَ في «تاج العروس» للزَّبيدي الذي قال: «ورُوي أنَّها شهدتِ القادسيَّة ومعها أربعةُ بنين لها، فلمْ تزلْ تحضُّهم علىٰ القتالِ، وتذكرُ لهم الجنَّة بكلامٍ فصيحٍ، فأبلُوا بلاءً حسَناً، واستُشْهِدوا، فكان عمر ـ رضي الله عنه ـ يُعطيها أرزاقهم».

* وإمّا باختلافٍ في النّصّ كما جاءَ عند عمر رضَا كحّالة صاحب كتاب «أعلام النّساء» (١/ ٣٦٨ ـ ٣٦٩)، الذي اختلفَ مع غيرِه، فلم يذكرْ أنّهم بنو أبٍ واحدٍ، وإنّما هم بنو امرأةٍ واحدة.

* وإمّا اختلاف بحذفِ بعضها، كاختلافِ ابنِ حجر في «الإصابة» (١٢/ ٢٢٧) الذي قدَّمَ وأخّر في بعضِ العبارات وجاءَ بالوصيّةِ مختصرة.

* ونحنُ ذاكرو الخطبةَ التي أوردهَا ابنُ عبد البرّ في كتابه الشّهير «الاستيعاب» ـ وأوردَها غيره أيضاً ـ، فقال ابن عبد البرّ ما نصُّه: «ذكرَ الزُّبيرُ بنُ بكّار، عن محمدِ بنِ الحسنِ المخزوميّ[1]، عن عبدِ الرحمنِ بنِ عبد الله، عن أبيهِ، عن أبي وجْرةَ، عن أبيه، قال:

* حضرتِ الخنساءُ بنتُ عمرو بن الشَّريد السُّلميّة حربَ القادسيّة،

(١) محمد بن الحسن المخزومي، المعروف بابن زَبَالة أحد المتروكين.

ومعها بنوها أربعةُ رجالٍ ، فقالت لهم منْ أوّلِ الليلِ : يا بنيّ ، إنّكم أسلمتُم طائعين ، وهاجرتُم مختارين ، ووالله الذي لا إله إلاّ هو إنّكم لَبنو رجلٍ واحدٍ ، كما أنّكم بنو امرأةٍ واحدة؛ ما خُنْتُ أباكم ، ولا فضحْتُ خالكم ، ولا هجنتُ حسبَكم، ولا غيّرتُ نسَبكم؛ وقد تعلمون ما أعدَّ اللهُ للمُسلمينَ منَ الثّواب الجزيل في حربِ الكافرين؛ واعلموا أنَّ الدّار الباقية خيرٌ منَ الدارِ الفانية ، يقولُ اللهُ تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠]؛ فإذا أصبحتُم غداً إنْ شاءَ اللهُ سالمين ، فاغدوا إلىٰ قتالِ عدوّكم مستبصرين ، وباللهِ علىٰ أعدائهِ مستنصرين، فإذا رأيتُم الحربَ قد شمّرتْ عن ساقِها، واضطرمَتْ لظىً على سِيَاقِها ، وجلّلت ناراً على أوراقِها ، فتيمَّمُوا وطيسَها ، وجالدوا رئيسَها عند احتدامِ خميسها ، تظفروا بالغُنْم والكرامة ، في دارِ الخلدِ والمقَامة .

* فخرجَ بنوها قابلين لِنُصْحِها ، عازمينَ على قولها. فلمَّا أضاءَ لهمُ الصُّبح ، باكروا مراكِزَهم ، وأنشأَ أوّلُهم يقولُ:

يَا إخْوَتي إنَّ العجوزَ النَّاصِحَة ... قـدْ نَصَحتْنـا إذْ دعتْنَـا البَـارِحَـة
مَقَـالــة ذات بيــانٍ واضِحَــة ... فبَاكِروا الحربَ الضَّروسَ الكَالحَة
وإنَّمـا تَلْقَـون عنْـدَ الصَّـابِحَـة ... مـن آلِ سَـاسَـانَ الكـلابَ النَّـابحَة
قد أيقنُوا منكم بوقعِ الجَائِحَة ... وأنتــمُ بيــنَ حيــاةٍ صَــالِحَــة
أو ميتــةٍ تــورثُ غُنمــاً رابحَــة

ـ وتقدَّم فقاتَل حتى قُتِل رحمه الله .

* ثمَّ حملَ الثَّاني ، وهو يقولُ :

إنَّ العجـوزَ ذاتُ حـزْمٍ وجَلَـدْ ... والنَّظـر الأوفـقِ والـرّأي السَّـدَدْ
قـد أمـرتْنَـا بـالسَّداد والـرَّشَـدْ ... نصيحــة منهــا وبــرّاً بــالـولَـدْ

فَباكِروا الحربَ حماةً في العَدَدْ ... إمّـا لفـوزٍ بـاردٍ علـى الكَبِـدْ
أو مِيتَـةٍ تـورثكُـم عـزَّ الأَبـدْ ... في جنَّةِ الفِردَوسِ والعيشِ الرّغَدْ

* فقاتلَ حتى استُشْهِدَ رحمه الله .

* ثمّ حملَ الثَّالث ، وهو يقولُ :

واللهِ لا نَعْصـي العجـوزَ حَـرفَـا ... قـد أمـرتْنَـا حَـدَبـا وعَطْفَـا
نُصْحـاً وبـرّاً صَـادِقـاً ولُطْفـا ... فبـادروا الحـربَ الضَّـروسَ زَحْفَـا
حتّـى تلفُّـوا آل كسْـرىٰ لفَّـا ... أو تكْشِفُوهم عن حِماكم كشْفَا
إنّـا نـرىٰ التَّقْصيـرَ منكُـم ضَعْفَـا ... والقَتْـلَ فيكـم نَجْـدةً وزُلْفَـىٰ

* فقاتَل حتى استُشْهِد رحمه الله .

* ثمّ حملَ الرَّابع وهو يقول :

لسْـتُ لخنْسَـاءَ ولا لـلأخْـرمِ ... ولا لعَمْـروٍ ذي السَّنَـاء الأَقْـدمِ
إنْ لم أردْ في الجيشِ جيش الأعجمِ ... ماضٍ على الهولِ خِضَمّ خَضْرَمِ
إمّـا لِفَـوزٍ عـاجـلٍ ومَغْنَـمِ ... أوْ لـوفـاةٍ فـي السَّبيـلِ الأكـرمِ

* فقاتل حتّى قُتِلَ رضي الله عنه وعن إخوتِه .

* فبلغَها الخبرُ فقالت : الحمدُ للهِ الذي شرَّفَني بقتلِهم ، وأرجو من ربّي أنْ يجمعني بهم في مستقرّ رحمته . وكانَ عمرُ بنُ الخطّاب رضي الله عنه يعطي الخنساءَ أرزاقَ أولادِها الأربعة لكلّ واحدٍ مئتي درهم حتى قُبِضَ رضي الله عنه»(١) .

---

(١) الاستيعاب (١٢/ ٢٩٤ ـ ٢٩٨) بهامش الإصابة . وانظر : أسد الغابة (٦/ ٩٠) ، وخزانة الأدب (١/ ٤١٧ ـ ٤١٨) ، والدر المنثور (ص ١١١) ، وشرح مقامات الحريري (١/ ٣٥٦) ، ومعاهد التنصيص (١/ ٣٥٣ ـ ٣٥٥) ، والإصابة (١٢/ ٢٢٧ ـ ٢٢٨) وأعلام النساء (١/ ٣٦٨ ـ ٣٧٠) وغيرها .

* إنَّ المتأمّل في هذه الوصيّة «الخنْسائيّةِ» التي صدرتْ عن الخنساءِ ـ رضي الله عنها ـ ، يجدُ أنّها وصيّةٌ متكلّفةٌ ، بل ظاهرةُ التّكلُّفِ والصَّنْعة الشَّديدة من مثل: «فاغدوا إلىٰ قتالِ عدوّكم مستبصرين ، وباللهِ على أعدائِهِ مُسْتَنصرين»، ومثل السَّجع المصنوع: «وطيسها ، رئيسها ، خميسها». ولو كانتْ هذه الوصيّةُ صحيحةً لا عِللَ فيها ولا أسقامَ وأوهامَ لما سَهَا أو غَفلَ المصنّفون القُدماء عن ذِكْرِها ، أو الإشارة إليها. ثمّ إذا عرفْنَا بعد ذلك كلّه أنَّ مِنْ رواتها محمّد بنَ الحسن المخزوميّ المعروف بابن زبالة الذي نصَّ ابنُ حجر العَسْقَلاني في «الإصابة» (١٢/ ٢٢٧) ، على أنّه أحدُ المتروكين ، ترجَّحَ لدينا أنَّ الوصيَّة موضوعةٌ مصنوعةٌ ، كما يتبيَّنُ لنا أنَّ ناسجَها وواضعَها قد جهلَ تماماً تاريخَ حياةِ الخنساءِ، وذلك أنَّها تزوَّجت اثنين، وقد ولدت أكبرَ بنيها من رواحةَ بنِ عبد العزى، والباقين من مرداس بن أبي عامر ـ كما مرَّ معنا ـ ، ثم يتبيّن لنا جَهْل واضعها بتاريخِ أكبرِ بنيها وهو أبو شجرة الذي أسلمَ ، ثمَّ ارتدَّ وعادىٰ الإسلام ، ولم يعدْ إليهِ إلا مرغماً بعد أنْ ضاقتِ الدُّنيا في وجههِ ، فعاد مُعْلِناً التّوبة والنّدم على ما بدرَ منه ، وذلك واضحٌ من تاريخِ أبي شجرةَ الذي ذكره الطَّبري في أحداث سنة (١١ هـ).

* ويظهرُ لنا جَهْل ناسجِ القصّة في أمرٍ آخر هو تصوّره للخنساءِ ، حيثُ عرفَ من شعرها أنَّها تمجّدُ البطولةَ والبسالةَ والشَّجاعة ، وكلَّ ألوان الفروسيّة ، فوضع هذه الوصيّة على لسانها ، وعرفَ أنَّه يعجبُها منْ أبنائِها أن يكونوا أبطالاً وشُجعاناً ، وعرفَ أنَّها امرأةُ صدْقٍ تحتفظُ بكرامتها ولا تسقطُ ، فأتىٰ على لسانِها ما يصوّر هذين الأساسين اللذين اعتزّتْ بهما في حياتِها[١].

---

(١) انظر: الخنساء شاعرة بني سليم للدكتور محمد جابر الحيني (ص ٩١) بتصرف يسير. سلسلة الأعلام رقم (١٦) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٧٧ م.

* ثمّ نأتي إلىٰ الأبياتِ والأرجازِ التي قالَها أبناؤها وهم يتقدّمون إلى القتالِ ، حيث نجدُ التكلّف واضحاً أشدّ الوضوح في هذا الرجزِ الذي خرجَ من مشكاةٍ واحدةٍ ، ومن نَفَسٍ واحدٍ ، ومن ناسجٍ واحد ، والمتأمّلُ في رجَزِ الأبناءِ الأربعة يجدُ مصداقَ ما ذكرناه.

* وهناك أمرٌ مهمٌّ جدّاً في هذا المجالِ ، وهو أنّنا لم نجدْ أثارةً من شعرِالخنساءِ ، أو أيّ إشارة منها في رثاءِ أبنائها الأربعة بعد موتِهم في وقعةِ القادسيّة ، وهي الصّادحةُ الشّاديةُ بفنّ الرّثاء ، والتي وصلتْ كلماتُ رثائِها فلامَسَتْ سَمْعَ الجوزاء. فهل مردّ ذلك إلى ما كانت تأخذُه الخنساءُ من بيتِ المال من أرزاقِ أولادها!؟! أو أنَّ الإسلامَ قد هذَّبها وجعلها تصبرُ وتحتسبُ؟! أمْ أنَّ راوي القصّة وهمَ ونسبَ إلى الخنْساءِ قصّة مقْتَل أولادِها الأربعة ، في حين أنَّ امرأة نَخْعيّةً شهدتْ مع بنيها القادسيّة ، ودعت لهم ، وحمّسَتْهم ، وعادوا سالمين غانمين؟!

* ما رأيكم لو نسمعُ ونقرأُ قصّة المرأة النّخعيّة هذه؟ ذكرَ عبدُ العزيز الثّعالبي في كتابهِ «خلافة الصِّديق والفاروق» نقلاً عن الطّبري قصّة هذه المرأة فقال: «ظهرت امرأةٌ في الميدانِ منَ النّخع ، كان لها بنون أربعة حضروا حربَ القادسيّة ، فخطبتْ فيهم تحمّسُهم ، وتضري بخطابها الجنود ، فقالت: أيّ بني! إنّكم أسلمتم فلم تبدّلوا ، وهاجرتم فلم تثُوبُوا ، ولم تنبُ بكم البلاد ، ولم تقحمكم السّنة ، ثم جئْتُم بأمِّكم ، عجوز كبيرة ، فوضعتموها بينَ أيدي أهْل فارس ، والله إنّكم لبنو رجلٍ واحد ، كما أنّكم بنو امرأةٍ واحدة ، ما خنْتُ أباكم ، ولا فضحتُ خالكم ، انطلقُوا فاشهدوا أوّلَ القِتالِ وآخِرَهُ ، وموتُوا كِراماً.

* فأقبلوا يشتدّون ، فلمّا غابُوا عنها ، رفعتْ كفّيها إلى السّماء ، وهي تدعو اللهَ وتقولُ في دعائِها:

* اللهم ادفعْ عن بنيّ ، ولا تجعلْ يومهم قبلَ يومي .

* فرجعُوا إليها بعد أنْ أبلَوا بلاءً حَسناً ، وأحسنوا القتالَ ، ما كُلِمَ رجلٌ كَلْماً واحداً»[1] .

* إذاً ، فقد وضحَ الأمْرُ واستبانَ ، وظهرتِ الحقيقةُ في قصّةِ الخنساء وأولادِها الأربعة ، وعلمنا تماماً أنّ تلكم القصةَ مزعومةٌ ، وذلك للأسبابِ التي بيّنّاها آنفاً ، ثمّ تأتي قصة هذه المرأة النّخعية التي تشبه قصّتها ـ إلى حدّ ما مع أولادها ـ قصّة الخنساءِ المزعومة مع أولادِها ، ولكنَّ أولادَ النخعيّة يعودون إليها وهم سالمون ، أما أبناء الخنساء ـ كما زعموا ـ فقد ماتُوا في ساحةِ الجهاد .

* لقد كانتِ الخنساءُ في الحقيقة امرأةً فريدةَ الصِّفات بين النّساء ، ويندر أنْ نجدَ لها مثالاً في كثيرٍ من البيئات العربيةِ ، فهي المرأةُ القويّةُ التي تزدري الخوفَ والجبنَ ، وترى قوامَ الرّجولة في الإقدام والشَّجاعة والصَّبرِ على المكاره ، ثم إنّها تنفعلُ بالبطولةِ الفذّة ، وتتأثّر بشجاعةِ الأبطالِ وخصوصاً شجاعة أخويها معاوية وصخر ، ثمّ بطولة أبنائها الذين قُتلوا في حرب القادسية ـ كما زعموا ـ .

* ويروى أنَّ الخنساءَ قالت لما شهدتِ القادسيّة :

دلَّ علـــىٰ معـــرفـــةِ وجْهـــهِ ... بـــوركَ هـــذا هـــادياً مـــنْ دَليـــل
تحسبُـــه غَضْبَـــان مـــن عـــزِّهِ ... ذلـــكَ منـــه خُلـــقٌ مـــا يحُـــول
ويـــلُ أمِّـــهِ مِسْعَـــرَ حَـــرْبِ إذا ... أُلقـــيَ فيهـــا وعليـــهِ الشَّليـــل[2]

---

(١) انظر خلافة الصديق والفاروق (ص ٢٤٠ ـ ٢٤١) طبعة دار ابن كثير بدمشق .

(٢) أعلام النساء (١/ ٣٧١) .

أَثَـارةٌ مـنْ نَثْـرِهَا وَشِعْـرِهَـا :

* تُعتبرُ الخنساءُ منْ أفصحِ النِّساء العربيّاتِ في عَصْرِها ، فقد ملأتِ الدّنيا وشَغَلَتِ النَّاس بأشعارِها وأقوالِها ، حيثُ عبّرتْ بنفثَاتِها الرّقيقاتِ أصدقَ تعبيرٍ عن إحساسها ومشاعرِها ، وخُصوصاً في فَنّ الرّثاء .

* ويُرجِعُ بعضُ المصنّفينَ بلاغةَ الخَنْساء وفصاحتَها إلى مقتلِ أخويها ، فقد ذكرَ ابنُ حجر وغيرُهُ قالوا : «وكانتِ الخنساءُ تقولُ في أوّلِ أمرِها البيتَيْن أو الثَّلاثة ، حتى قُتِلَ أخوها الشّقيق معاويةُ بنُ عمرو ، وقُتِلَ أخوها لأبيها صَخْر ، وكان أحبّهما إليها لأنَّه كان حليماً جَواداً محبُوباً في العشيرة» .

* وقد أُثِرَتْ عن الخنساءِ بعضُ الكلماتِ البليغةِ ، ومنها ما ذكروا بلاغتَها في وصفِ أخويها ، حيث أوردَ صاحبُ «أعلامِ النّساء» ذلك فقال : «قيل للخنساءِ : صِفي لنا أخويك صَخراً ومعاوية» .

فقالت : كان صخرٌ واللهِ جنّة الزَّمان الأغبر ، وذعافُ الخميس الأحمر ، وكان واللهِ معاوية القائِل الفَاعل[1] .

قيل لها : فأيُّهما كان أسْنَى وأَفْخر؟

قالتْ : أمّا صخرٌ فَحَرُّ الشِّتاء ، وأمّا معاويةُ فبردُ الهواءِ .

قيل لها : فأيُّهما أوجَعُ وأفْجَعُ؟

قالت : أمّا صخر فجمرُ الكبد؛ وأمّا معاويةُ فسقَامُ الجَسَد . وأنشأتْ تقولُ :

أَسَـدانِ مُحمَـرّا المخَـالِـبِ نَجْـدة بحْرانِ في الزَّمَنِ الغَضُوبِ الأَنْمرِ
قَمـرانِ فـي النَّـادي رَفيعَـا محتـدٍ في المجدِ فرعَا سُؤدد مُتَخيّرِ[2]

---

(١) انظر : الإصابة (١٢/ ٢٢٥) ، ومعاهد التنصيص (١/ ٣٤٩) وغيرهما .
(٢) أعلام النساء (١/ ٣٦٧) ، وسواء أصحت هذه القصة أو لم تصح ، فإنها تدل على أن الأخوين لديها سواء ، فهما أخوان ، وهما بطلان .

* وذكرَ ابنُ قُتيبة أنَّ الخَنساءَ كانت تقولُ: «كنتُ أبكي لِصَخرٍ منَ القَتْلِ ، فأنا أبكي له اليومَ منَ النَّار»[1].

* وكان أخوها صخرُ بنُ عمرو شريفاً في قومهِ بني سُليم ، وخرجَ في غزاةٍ ، فقاتلَ فيها قِتالاً شديداً ، وأصابَه جرحٌ رغيبٌ ـ واسعٌ ـ ، فمرضَ من ذلك ، فطالَ مرضُه ، وعاده قومُه ، فكانوا إذا سألوا امرأتَه سَلْمى عنه قالت: لا هُوَ حيٌّ فيُرجى ، ولا ميتٌ فيُنْعى ، وصخرُ يسمعُ كلامَها ، فشقَّ عليهِ ذلك. وإذا قالوا لأمِّه: كيفَ صخر اليوم؟ قالت: أصبحَ صالحاً بنعمةِ الله؛ فلمّا أفاقَ من علّته بعضَ الإفاقة ، عمدَ إلى امرأتِهِ سلمى ، فعلَّقَها بعمودِ الفسْطَاط حتّى ماتت.

* وقال غيرُه: بل قال: ناولوني سَيْفي لأنظرَ كيفَ قوّتي ، وأرادَ قَتْلَها ، وناولوه السَّيفَ فلمْ يُطقِ السَّيف ، ففي ذلكَ يقول:

أرىٰ أمَّ صَخْـرٍ لا تمـلُّ عِيَـادَتـي ... وملَّتْ سُلَيمى مَضْجَعي ومَكَاني
وما كنْتُ أخْشَى أنْ أكونَ جنَازةً ... عليـكِ ومَـنْ يغتـرُّ بـالحَـدَثَـانِ
فـأيّ امـرىءٍ سـاوى بـأمٍّ حليلةً ... فـلا عـاشَ إلاّ فـي شَقـاً وهَـوانِ
أهـمُّ بـأمـرِ الحـزمِ لـو أستطيعُـه ... وقـد حِيْـلَ بيـنَ العِيْـرِ والنَّـزوانِ
لَعمري لقد أنْبَهتِ مَنْ كانَ نائِماً ... وأسْمَعْـتِ مَـنْ كـانَـتْ لـه أُذنـانِ
ولِلْمَـوتِ خيـرٌ مـن حيـاةٍ كـأنَّهـا ... محلّـةُ يعسـوبِ بـرأسِ سنَـان[2]

---

(١) الشّعر والشّعراء (١/ ٣٤٧).

(٢) انظر: الشّعر والشّعراء (١/ ٣٤٥) ، وديوانها (ص ٢١٥) طبعة بيروت ، وغير ذلك كثير. ومعنى: «الجِنَازة»: بكَسْرِ الجيم؛ وفتحُها غيرُ صحيح ، وهي السَّريرُ الذي يُحملُ عليه الميّت. و«العيرُ»: الحمار. و«النَّزوان»: الوثب. و«اليعسوب»: أميرُ النّحل وذكرُها ، ثمّ كثرَ ذلك حتّى سمّوا كلَّ رئيسٍ يَعْسُوباً. ومعنى البيت: إنَّ الرئيسَ إذا قُتِلَ ، جُعِلَ رأسُه على سِنانٍ ، يعني أنَّ العيش إذا كان هكذا فهو الموتُ. =

* وللخنساءِ مراثٍ كثيرةٌ رائعةٌ في أخويها ، وعندما نتحدَّثُ عن فنّ الرّثاء ، يتبادرُ إلىٰ الذّهنِ المرأة الرّاثية ، وتمثّلُها ضيفتُنا الخنساءُ بنتُ عمرو السُّلميّة التي كانت من السَّابقات في هذا البابِ ، وهذا الفنُّ الشِّعري الذي لمعَ وسطَع في أشعارِ النّساء؛ وذلك أنَّ النِّساء أسرعُ تأثّراً منَ الرِّجال ، وخصوصاً في مجالِ البداوة هنّ أظهرُ تأثّراً منَ الرّجال ، لأنَّ الحياةَ البدويّة عند الرِّجال تقومُ ـ على الأغلب ـ على الشَّجاعة واحتمالِ الشَّدائد؛ فإذا ما أُصيبَ الرَّجُل تكونُ المرأةُ أقلّ تحمّلاً للمُصَاب من الرَّجل لأنَّها أكثرُ انفعالاً منه ، ولقد عبَّر «بروكلمان» عن هذه الظَّاهرة فقال: «على أنَّ إظهارَ الحزنِ لم يكنْ يناسبُ رجال القبيلةِ ، كما كان لائقاً بنسائِها وخاصّةً الأخوات ، ومن ثمّ بقيَ الرّثاءُ الفنّيُّ من مقاصدهنّ حتى عَصْر التّسجيل التّاريخي»[1].

* إنَّ اشتهارَ النِّساء بالرثاء ظاهرةٌ اجتماعيةٌ في العَصْرِ الجاهليّ ، لأنّه

= ـ وذكر أبو العبّاس ثعلب قال: «كانت سلمى منْ أحبِّ النَّاس إليه ، وأكرمهم عليه ـ أي على صَخْرٍ ـ وكانت أجملَ نساءِ قومها ، وكان صخرٌ يعرفُ لها منزلتَها وقَدْرَهَا. ثمّ إنَّ صخراً خرجَ في غزاةٍ له ، فأصابتْه جراحةٌ شديدةٌ فمرضَ منها ، فكان قومُه يعودونَه ، فقالوا لِسَلمى: كيفَ أصبحَ صخر اليوم؟ فقالت: لا أصبحَ حيّاً فيُرجى ، ولا ميتاً فيُنْسَى.
ـ وسمعَها صخرٌ فشقّ عليه ، وقال: هذه بنتُ عمّي وأحبّ النَّاس إليَّ ، ومن بلائي عنها ما قد علمت ، تقولُ هذا غرضاً ـ مَلَلاً ـ وتمنّياً لفراقي ، أمَا واللهِ ، لئن عافاني الله لأقضينَ ما في نفسي عليها» ثمّ أوردَ باقي القصّة والأبيات. (ديوان الخنساء ص ٢١٣ ـ ٢١٤).

(١) تاريخُ الأدبِ العربي لبروكلمان (١/ ٤٨). ويعلّلُ بروكلمان كثرة الرّاثيات فيقول: «لعلَّ المرثيةَ الشّعرية نشأَتْ نشأتها الأولىٰ من ندبِ النّوائح المجرّد منَ القوالبِ ، ولهذا غلبَ تعهّده بعد ذلك على النّساء ، وقد بلغَتْ في ذلك الخنساءُ أقصى مراتب الشّهرة». (تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١/ ١٦٤).

كان عَصْرَ بداوةٍ ، ونستطيعُ أنْ ندركَ ذلك عندما نستعرضُ نتاجهنَّ الأدبيَّ في عصرهنَّ؛ وقد جمعتُ وتعرضتُ لطائفةٍ منهنّ في كِتَابي «نِسَاء في قُصور الأُمراء»[1] في ترجمة «الخِرنِق بنت بدر»[2] أخت طرفةَ بنِ العبد ، حيثُ أوردتُ فيه ما يشْفِي ويبلُّ الصَّدىٰ.

* ولعلَّ هذه الظَّاهرةَ الاجتماعيّةَ في رثاءِ النِّساء ، قد جعلتِ المرحومَ «مصطفى صادق الرّافعي» يقولُ: «ولا يهولنَّكَ كثرةُ أسماءِ النّساءِ اللاتي قُلْنَ شِعْراً ، فعمودُ الشِّعر عندهنّ الرّثاء ، وليس لهنّ إلا المقاطيعُ والأبياتُ القليلةُ ، ولم تَبِنْ منهنَّ إلا الخنساء ، وليلىٰ الأخيليّة ، وما شَعَرتِ الخنساءُ حتى كثرت مصائبها ، وكانت قبلَ ذلك كَغيرِها من النساء ، تقول البيتَيْن والثَّلاثة ، حتى قُتِل أخوها صخر»[3].

* ولعلَّ في قولِ الرَّافعي هذا بعضَ العموميّة ، حيثُ نَجِدُ شواعرَ عربياتٍ في عَصْرِ بني أميّة ، وعَصْر بني العبَّاس ، وكذلك في الأندلسِ ، وفي غيرِهِ من العصورِ ، إذ اشتهرنَ بالشِّعر ، ولم يكنْ عمودُ الشِّعر عندهنَّ الرّثاء وحْدَه ، خُذْ مثلاً: عُليّة بنتُ المهدي العبّاسيّة[4] ، وقبلها ميسون بنتُ بحدل الكلبيّة[5] زوجُ سيّدنا معاوية ـ رضي الله عنه ـ وأمُّ ابنه يزيد بن معاوية ، ورابعةُ العدويّة[6] ، وزبيدةُ بنتُ جعفر[7] زوج الرَّشيد ، وعائشةُ

(١) الكتاب مطبوع بدار اليمامة في دمشق عام (٢٠٠٠ م).

(٢) انظر كتابنا: «نساء في قصور الأمراء» (ص ١١٥ ـ ١٤٥).

(٣) تاريخ آداب العرب (٣/ ٦١).

(٤) اقرأ سيرتها في كتابنا «نساء في قصور الأمراء» (ص ٢٥١ ـ ٣٢١) ففي سيرتها فوائد جمة.

(٥) اقرأ سيرتها في كتابنا «نساء في قصور الأمراء» (ص ٥٢٣ ـ ٥٤٦) فسيرتها إمتاع للأسماع.

(٦) اقرأ سيرتها في كتابنا «نساء من التاريخ» (ص ٢٥٥ ـ ٢٩٨) فسيرتها إمتاع للأسماع.

(٧) اقرأ سيرتها في كتابنا «نساء من التاريخ» (ص ٢٩٩ ـ ٣٤٤) ففي سيرتها كثير من الفوائد والعظات.

بنتُ يوسف الباعونيّة[1] ، وعائشةُ التَّيمورية[2]؛ ومن نساءِ الأندلس: حفصةُ بنتُ الحاج الرّاكونيّة[3] ، ونزهون الغرناطيّة[3] ، وأمُّ العلاء الحجَاريّة[3] ، وغيرهنّ كثيرات. . .

* إنَّ ذيوعَ الرّثاءِ عند معشرِ النّساءِ يعودُ إلى ظواهرَ اجتماعيّةٍ في عصرِ الجاهليّة ، من امتدادِ الصَّحراءِ الواسعةِ ، والعصبيّة ، وعدمِ اختلاطِ الدّماء ، واحتفاظِ العربِ بالمُثُلِ العُلْيَا والأخلاقِ الفاضلةِ ، وما شابَهَ ذلك.

* وعلى ضوءِ هذا نستطيعُ أنْ ندركَ إيثارَ النِّساء للرثاءِ ، وانشغالهنَّ به عَصْر ذاك ، لأنَّ المرأةَ كانَتْ لا تستلهمُ الصَّبرَ على أخٍ أو أبٍ أو ابن عمّ أو قريبٍ ، حتّى تُفاجأَ مرّةً أخرىٰ بالرّزءِ بعزيزٍ آخر ، ولعلَّ ذلك كان سببَ التصاقِ الرّثاءِ بالمرأةِ لصوقَ الطّفْلِ الوحيدِ بأمّه.

* لقد آثرتِ الحياةُ الجاهليّة بما تحملُه من ظواهِرَ اجتماعيةٍ المرأةَ العربيّةَ بالرّثاءِ ، ومن ثمَّ وكلتْ لها أنْ تنهضَ به في ميدانِ الأدب ، حتى كان الرّثاءُ النَّسوي أمْراً تواضَعَ عليه المجتمعُ الجاهليُّ ، لأنَّ الفارسَ عصر ذاك كان يخرجُ ولا يعرفُ أيعودُ أمْ يلاقي حَتْفَه! وإذا ما لاقىٰ حتْفَه فإنَّه يعنيه أن يُناحَ عليه ، وأنْ يُرثى كيما يبقى ذكْرُه بعد الموتِ محفوظاً في أشعارِ قومِهِ وكلماتِهم ، كما كان ملءَ الأَسْماعِ والأبصارِ وهو حيٌّ يذرعُ ميدانَ القتالِ والنّزال ، ويُظْهِرُ بطولاتِه وفروسيّتَه.

* ولعلَّ الطموحَ إلى الخلودِ وبقاءَ الذّكْرِ شيءٌ تحبُّه النُّفوس ، ولذا كان

---

(١) اقرأ سيرتها في كتابنا «نساء من التاريخ» (ص ٣٩٣ ـ ٤٤٠) ففي سيرتها كثير من الفوائد والعظات.
(٢) اقرأ سيرتها في كتابنا «نساء من التاريخ» (ص ٤٤١ ـ ٥٠٩) ففي سيرتها فوائد كثيرة.
(٣) اقرأ سيرهن في موسوعتنا الجميلة «نساء من الأندلس» طبعة دار اليمامة بدمشق.

رثاء النِّساء للكرامِ من قومهنّ تقليداً معروفاً ، وقد صوَّر ذلك الشَّاعرُ الجاهليُّ المشهورُ طرفةُ بنُ العبد البكْريّ في معلّقته الدّاليّةِ الشَّهيرةِ عندما قال مخاطباً ابنة أخيهِ معبد ، لأنَّه لم يكن قد تزوَّج ، وليسَ له من نساءٍ يَنُحْنَهُ غيرها:

فَإِنْ متُّ فَانْعيني بِمَا أَنَا أَهْلُهُ ... وشقّي عَليَّ الجيْبَ يا بنَةَ مَعبدِ
وَلَا تجعَليْنِي كَامِرْىءٍ لَيْس هَمُّهُ ... كهَمّي ولاَ يُغْني غَنَائي ومَشْهَدي
بَطِيءٍ عنِ الجُلّىٰ سَريعٍ إلىٰ الخنَا ... ذليلٍ بإجماعِ الرِّجالِ مُلَهَّدِ
فَلو كُنْتُ وغْلاً في الرِّجَالِ لَضَرّني ... عداوة ذي الأصْحَاب والمتوحّدِ
ولكنْ نَفَىٰ عَنّي الأعَاديَ جُرأَتي ... علَيْهم وَإقْدَامي وَصِدْقي وَمحْتدي

* وهكذا كانَ الرّثاءُ تقليداً عند المرأةِ العربيّةِ لا تنساهُ ولا تهملُه ، ويدلُّ على هذا كثرة الشّاعراتِ الرّاثياتِ في الجاهليّةِ من مثل: الخِرنِقُ بنتُ بَدر ، وليلىٰ بنتُ لُكَيز المعروفة بِلَيلى العفيفة ، والخنساءُ ، وجَنوبُ الهذليّة وغيرهنَّ كثيرات في هذا المجال.

* وكما كانتِ المرأةُ الشَّاعرةُ راثيةً باكيةً ، كانتْ من جانبٍ آخر قسيمةَ الشّاعر في إذاعةِ ونَشْر مفاخِر القبيلةِ ، وذِكْرِ فضائل الذي ترثيه ، فكما كان الشَّاعرُ لِسَانَ القبيلة السّياسي ، كانتِ الشّاعرةُ الرَّاثيةُ لسانَ القبيلةِ الباكي ، كلٌّ منهما له وظيفتُه وميدانُه وأُفقُه.

* إذاً ، كان رثاءُ الخنساءِ يؤدّي وظيفةً اجتماعيّةً في القبيلةِ ، ومن هنا ندركُ السِّرَّ في احتفالِ رجالِ بني سُليم ، وسعيهم الحثيث في جمعِ وروايةِ شعْرِها ، لأنَّه يصوّرُ جماعتَهم وبطولاتِهم.

* ولقد نهلتِ الخنساءُ عناصرَ الشِّعر من بيئتِها التي كانت تعدُّ مدرسةً في الشِّعر إبّان العَصْر الجاهليّ ، حيثُ عاشَتْ في بيتِ أبيها ، تصافحُ أسماعَها نسماتٌ من الشِّعرِ من حينٍ إلى حين؛ فأخُوها معاويةُ يتغنَّى بالشّعر عن

مَجْدِه؛ وأخوها صَخْرٌ يلجأُ إلى الشِّعْرِ إذا ما عضَّهُ الدَّهر بحَدثٍ من أحداثِهِ ، بالإضافةِ إلى عبيرِ أشعارٍ أخرى من فطاحلِ شُعراء قومها الذين ملؤوا الدنيا وشغلُوا النَّاس .

* ومن هذه البيئةِ العبقةِ بالشِّعر أخذتِ الخنساءُ تجمعُ من رياضِها زَهْر تلكم الرّياحين الشِّعرية مما كان فتنة القلوبِ والأسْماع في الجاهليّة ، ولما اشتدَّ عودُها وشبّت عن الطَّوق ، وعركَتْها الحياةُ ، وعلمتْها الأيّامُ ، راحتْ تملأُ الدّنيا بِشِعْرها الذي غلبَ عليه طابَعُ الرّثاء حسبَ الظُّروف التي مرّت بها ـ كما عرفْنَا من سيرتِها ـ.

* ولعلَّ انطلاقَها إلىٰ الرّثاء كان منذُ فجيعتها بِفَقْدِ أخويها معاوية وصخر ، وبعد أنْ تخطَّتْ مرحلةَ الشَّباب والنَّضارة النَّسويةِ ، لذا فإنّها تحدثنا بأنَّ مقتلَ أخيها صخرٍ كان المفتاحَ إلى بابِ الشعر عندها ، فأخذتْ تقولُ الشِّعر ، وتلجأُ إلىٰ النَّظم ، علَّها ترتاحُ من همومِها وحزنها ، تقول :

فَقَدْ أصْبَحتُ بعدَ فتى سُليمٍ أفرّجُ همَّ صَدري بالقَريضِ
أُسَائِلُ كُلَّ والهةٍ هبولٍ برَاهَا الدَّهْرُ كالعظْمِ المهيضِ

* وقد احتفظتِ المصادرُ القديمةُ بأجودِ أنواعِ القصائدِ التي نظمتْها الخنساءُ في رثاءِ أخويها ، وخصوصاً في رثاءِ أخيها صخر . . . ومن مراثيها فيه قولُها من قصيدة طويلة :

يا عَينُ جُودي بالدّمو ع المُسْتَهلاّتِ السَّوافح
وابْكي لِصَخرٍ إذْ ثوىٰ بينَ الضَّريحةِ والصَّفائح
السَّيِّدِ الجحجاحِ وابنِ السَّادةِ الشّمّ الجحاجح
الجَابرِ العَظْمِ الكسيرِ منَ المهاصِرِ والمَماسخ

* وقولها فيه في القصيدة الدّالية الشَّهيرة :

أعينيَّ جُودا ولا تَجمدا ألاَ تبكيانِ لصَخْرِ النَّدى

* ومنها:

طَـويـلَ النّجـادِ رفيـعَ العِمـا ... د سَـادَ عشيـرتَـه أمْـرَدَا
إذا القـومُ مـدُّوا بـأيـديهـمُ ... إلـىٰ المجـدِ مَـدَّ إليـهِ يَـدَا
فَنَـالَ الـذي فَـوقَ أيـديهـمُ ... مـنَ المجـدِ ثـمَّ مَضَـى مُصْعِـدا
ويحمـلُ لِلْقَـومِ مـا عَـالَهـم ... وإنْ كـانَ أصغـرهـم مَـولـدَا
جمـوعُ الضُّيـوفِ إلـى بيتـهِ ... يـرىٰ أفْضَـل الكسْـبِ أنْ يُحْمَـدا
وإنْ ذُكـرَ المجـدُ ألفَيْتَـه ... تـأزَّرَ بـالمجـدِ ثـمَّ ارتـدىٰ
غيـاث العَشيـرة إنْ أمحلُـوا ... يهيـنُ التّـلادَ ويُحيـي الجَـدَا

* ولعلَّ من أشهرِ مراثي الخنْساءِ وأجملِها القصيدةُ الرّائيّةُ التي ذكَرها أبو الفرج الأصفهانيّ وغيرُهُ ، وفيها تظهرُ الخنساء في ذروةِ الرّاثيات ، وفي ذروة المجدِ الفنّي لهذا النّوعِ من الشّعر.

* فهي تجرِّدُ نَفْسَها وتخاطبُها في مطلعِ القصيدةِ لتسألَها لِمَ لا تبكي ، فهل أصابَها القَذىٰ ، أم المرض ، أم الوحشة ، ثم تستدركُ بأنَّها حين تلمُّ بها الذّكرى فإنَّ عينيْها تنهمران بالدّموع السّواجم التي تسيلُ على الخَديْن في تدفّقٍ مِدْرَارٍ كالسَّيل ، ثمَّ إنَّ هاتَيْن العينَيْن الباكيتَيْن على صخر تفيضان بالدَّمعِ وقد زاغَ منهما البصرُ ، لأنَّ النَّاس قد وضعوا أخَاهَا صخراً في حفرةٍ وأهالوا عليه التّراب ليخفوهُ ، لذلك ستظلُّ خُناسُ تبكيهِ مهما كان من شأنِها ، لأنَّ الدهرَ ضَرّارُ. . . و. . . . و. . . . تقولُ:

قـذىً بعَينِـكِ أمْ بـالعيـنِ عُـوَّارُ ... أمْ أقفرتْ إذْ خَلَتْ من أهلِها الدَّارُ
كـأنَّ عَيْنـي لـذكْـراهُ إذَا خَطَـرَتْ ... فيضٌ يَسيلُ علىٰ الخدَّين مِدْرَارُ
تَبكـي لِصَخْـرٍ هـي العبرىٰ وقـد ... ولهَتْ ودونَه منْ جديدِ التُّرب أَسْتَارُ
تبكي خُنَاسُ فما تنفكُّ ما عَمرتْ ... لهـا عليـه رنيـنٌ وهـيَ مفْتَـارُ
لا بُـدَّ مِنْ ميتَـةٍ في صَرْفِهـا غِيَـرٌ ... والدهرُ في صرفهِ أحوالٌ وأطْوارُ

* ثم إنَّ الخنساءَ أخذتْ تعدّدُ خِصَالَ أخيها صخر ، فهو سيّد الرّجال ، وهو صلبٌ ، جريءٌ ، ورّادُ ماءٍ ، يندفعُ إلى الميدانِ اندفاعَ النّمر. . . . ثم تنتقلُ الخنساءُ إلى الحديثِ عن مفاخر أخيها صخر وصفاتِه فتقول:

وَإنَّ صَخْراً لَوالينا وسيّدنا — وإنَّ صَخْراً إذا نَشْتُو لَنَحّارُ
وَإنَّ صخراً لمقدامٌ إذا ركبوا — وإنَّ صخراً إذا جاعُوا لعقّارُ
وَإنَّ صخراً لتأتَمُّ الهداةُ بهِ — كأنّه عَلَمٌ في رأسِهِ نَارُ
جلدٌ جميلُ المحيّا كاملٌ ورعٌ — وللحروبِ غداة الرَّوعِ مسْعَارُ
حمَّالُ ألويةٍ هبّاطُ أوديةٍ — شهّادُ أنديةٍ للجيشِ جرّارُ
لم تَرَهُ جارةٌ يمشي بساحتِها — لريبةٍ حينَ يُخلي بيتَه الجارُ

* وهكذا تمضي في رثائها إلى أنْ تنتهي بقولِها:

لا يمنعُ القومَ إنْ سَألُوه خُلْعَتَه — ولا يُجاوزُه بالليلِ مُرَّارُ

* والخنساءُ كما ترى تخلعُ على أخيها صفات الرّجلِ الكاملِ ، فهو ذو خَصائلَ حميدة ومكارم حِسَان ، وهذه القصيدة من بدائعِ الخنْساء التي تمثّل فنَّها الشِّعري في مجال الرّثاء.

* هذا وقصائدُ الخنساءِ كثيرةٌ وعديدةٌ ، وقد احتوى ديوانها الذي وصَل إلينا على مراثٍ كثيرة في أخويها معاوية وصخر ، وغيرهما ، ومن روائعِ مراثيها: السّينيةُ الجميلةُ التي بلغت فيها السُّها ، ومطلعُها:

يؤرّقني التّذكّر حينَ أُمسِي — فيردَعُني مع الأحزانِ نُكْسي
على صخرٍ وأيُّ فتىً كَصَخْرٍ — ليومِ كريهةٍ وطعانٍ خَلْس

ومنها تذكره أوّل النّهار للغارة ، ووقت المغيب للأضياف:

ألا يا صَخْرُ لا أنْسَاكَ حتّى — أُفارقَ مُهجتي ويُشَقَّ رمسِي
يُذكّرُني طلوعُ الشَّمسِ صَخراً — وأذكرُهُ لكلّ غروبِ شَمْسِ
ولولا كَثْرةُ الباكِينَ حَولي — علىٰ إخوانِهم لقتلتُ نَفْسي

ولكـــنْ لا أزالُ أرىٰ عجـــولاً — وبـــاكيـــةً تنـــوحُ ليـــوم نَحْـــسِ
هُمـــا كلْتَـــاهُمـــا تبكـــي أخَـــاهَـــا — صبيحـــةَ رُزْئـــهِ أو غـــبَّ أَمْـــسِ
ومـــا يبكيـــنَ مثـــلَ أخـــي ولكـــنْ — أسلّـــي النَّفْـــس عنْـــه بـــالتّـــأسّـــي
فيـــا لَهْفـــي عليـــهِ ولَهْـــفَ أمّـــي — أيصْبحُ في الضَّريحِ وفيه يُمسي

* ورثاءُ الخنساءِ لأخيها صخر يذكّرنا برثاءِ الفارعةِ بنتِ شداد المريّة لأخيها في قصيدةٍ داليةٍ جميلةٍ ، تعدُّ من أحسنِ المراثي ، قال الحُصريّ القيروانيّ في «زَهْره» : «ومن أحْسَنِ المراثي ما خُلِطَ فيه مدحٌ بتفجُّعٍ علىٰ المرثيّ ، فإذا وقعَ ذلك بكلام صحيحٍ ، ولهجةٍ معربة ، ونظامٍ غيرِ متفاوت ، فهو الغايةُ من كلامِ المخلوقين»[1] .

* والآن دعونا نسمعُ ونستمتعُ برثاءِ الفارعةِ بنتِ شداد وهي ترثي أخاها مَسْعُوداً :

يا عينُ بكّي لمسعود بنِ شدّادِ — بكـــاءَ ذِي عبـــراتٍ شَجـــوه بَـــادي
مَنْ لا يُذابُ له شَحم السَّديفِ ولا — يجْفُـو العيـالَ إذا مـا ضُـنَّ بـالـزَّادِ
ولا يحـــلُّ إذا مـــا حـــلَّ مُنْتَبِـــذاً — يخشىٰ الرّزيّةَ بينَ المالِ والنَّادي
قـــوّالُ محكمـــةٍ نَقَّـــاضُ مُبْـــرَمَـــةٍ — فتّـــاحُ مُبْهَمـــةٍ حبّـــاسُ أَوْرَادِ
قتّـــالُ مَسْغَبـــةٍ وثّـــاب مَـــرْقَبـــةٍ — منّـــاعُ مَغْلَبـــةٍ فكّـــاكُ أَقْيـــادِ
حـــلّالُ مُمْـــرعـــةٍ فَـــرّاجُ مُفْظِعَـــةٍ — حمّـــالُ مضْلِعَـــةٍ طـــلّاعُ أنْجـــادِ
حمّـــالُ ألـــويـــةٍ شهّـــادُ أنـــديـــةٍ — شـــدّادُ أوهيـــةٍ فـــرّاجُ أَسْـــدادِ
جمّاعُ كلِّ خصالِ الخيرِ قد علمُوا — زينُ القَرين ونِكْلُ الظَّالم العَادي
أبـــا زُرَارة لا تبعـــدْ فكـــلُّ فتـــىً — يـــومـــاً رهيـــنُ صفيحـــاتٍ وأعـــوادِ
هـــلّا سقيتُـــم بنـــي جُـــرْمٍ أسيـــرَكُـــم — نفْسِي فداؤُك من ذي كُربةٍ صادي

---

(١) زهر الآداب (٢/ ٩٢٨).

نِعمَ الفَتى ويمينِ اللهِ قد علمُوا — يخلُو بهِ الحيّ أو يغدو به الغَادي
هو الفتى يحمدُ الجيرانُ مَشْهَدهُ — عنـدَ الشّتـاء وقـد همّـوا بـإخمـادِ
الطَّـاعـنُ الطعنـةَ النَّجـلاءِ يتبعُهـا — مثْعَنْجِـراً بعـدمـا تَغْلـي بـأزْبَـادِ
والسَّابىءُ الزِّقَ للأضيافِ إنْ نزلوا — إلى ذراهُ وغَيثُ المحوجِ الغَادي[1]

الـخَنْسَـاءُ فـي ميْـزَانِ الأُدبَـاءِ والشُّعَـرَاءِ:

* في ميزانِ الأدباءِ قديماً وحديثاً أمورٌ فنيّةٌ ونقديّةٌ، يستفيدُ منها الباحثُ أو الدَّارسُ، وهي تعينُه على المضيِّ في أبحاثِهِ، وتزوّدُه بالأخبارِ المهمّة التي يستطيعُ من خلالها أنْ يرسمَ ملامحَ صورة الشّخصية التي يترجمُ لها.

* والخنساءُ واحدةٌ من نساءِ المشرقِ العربّيِ التي ظهرتْ ملامحُها جليةً من خلالِ المصادرِ والمراجعِ التي بين أيدينا.

* وتظهرُ صورةٌ وضيئةٌ لأدبِ الخنساءِ وشعرِها عند ابن عبد البرّ حيث قال: «وأجمعَ أهلُ العلْمِ بالشّعر أنّه لم تكن امرأةٌ قبلَها ولا بعدها أشْعَرَ منها»[2].

* وقال العسكريُّ: «ومنهم مَنْ قدَّم الخنْساء»[3].

* وقالوا: «أجودُ أشعَارِ النّساء أشعارُ الموتورات، أي التي قُتِل لها قتيلٌ، فلم يدركْ بدمِه، وأشعرُ النّساء في الجاهليّةِ والإسلامِ الخنْساءُ».

---

(١) زهر الآداب (٢/ ٩٤١).
(٢) انظر: الاستيعاب (٢/ ٢٩٣)؛ وانظر: أسد الغابة (٦/ ٨٩) ترجمة رقم (٦٨٧٦)، والإصابة (١٢/ ٢٢٧)، وشرح مقامات الحريري (١/ ٣٥٠)، وخزانة الأدب (١/ ٤١٤) وغيرها.
(٣) المصون (ص ١٧).

* ويشْبِهُ هذا ما جاء عند ابن طَيفور في «بلاغاتِ النّساء» حيث قال: «حدّثنا أبو زيد عمر بن شبّة، وقُرِىء عليه وأنا حاضرٌ، وقرأتُ عليهِ بعضَ ذلك قال: كانوا يقولُون: أجودُ أشعارِ النّساء أشعارُ الموتورات الحاضّاتِ على الطَّلب والذّحولِ، والمعيّرات في ذلك بالتَّقصير، والثّاكلات المؤبّنات؛ وأشعرُ النّساء في الجاهليّةِ والإسلام خَنْساء، وهي تماضر بنتُ عمرو بن الشّريد السُّلميّة، ولها أشعارٌ مشهورةٌ، وأخبارٌ مذكورة»[1].

* وقال المبرّدُ: «وكانتِ الخنساءُ، وليلىٰ الأخيليّة، بائنتَيْن في أشعارهما، متقدمتَيْن لأكثرِ الفحول، وربّ امرأة تتقدّمُ في صناعةٍ، وقَلَّ ما يكونُ ذلك، فالجملةُ ما قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨]»[2].

* وقال محمدُ بنُ سلام: «وجعلنا المراثي طبقةً بعد العشر، أوّلُهم متممُ بنُ نويرة رثى أخاه مالِكاً، والخنساءُ بنتُ عمرو رثَتْ أخويها صخراً ومعاوية».

* وقال ابنُ قتيبة: «وهي جاهليّةٌ، كانت تقولُ الشِّعر في زمنِ النَّابغة الذّبياني»[3].

* وقبل أنْ نتابعَ مسيرتنا المعطار في ميدانِ النَّقد الأدبيّ، وفي رياضِ النّقّاد، نتوقّفُ قليلاً في محطّةِ النّقد بين أيدي النّقاد الذين اطّلعُوا على شِعْرِ الخنْساءِ. إذ إنَّ للنُّقّاد دورهم الفعّال في توجيهِ الأدب وتقييمه ووزْنهِ،

---

(١) بلاغات النساء (ص ٢٣١) طبعة مكتبة السندس بالكويت.
(٢) انظر: زهر الآداب (٢/ ٩٢٨) بتصرف يسير. والعقد الفريد (٤/ ٧١) نقلاً عن الكامل (٣/ ١٢١٣).
(٣) الشعر والشعراء (١/ ٣٤٤).

وذلك بما يحدثُه هذا النّقد في العَملِ الأدبيّ من أثرٍ طيّب يدفع المتأدّبين إلى الاحتفالِ به ، أو إلى إهمالِه ، والإغضاءِ عنه .

* ومن المعروفِ أنَّ قلمَ النّاقدِ البصيرِ كمبضعِ الجرّاحِ ، يستسلمُ له المريضُ ، فيعزلُ ما يعزلُ ، ويحتفظُ بما يشاء ، معتمداً على ثِقَةِ المريضِ فيه وفي مقدرته وعلْمهِ[1] .

* وكذلك نجدُ النّاقدَ يدلي رأيه في هذا المجالِ ، فيقتدي به من ورائِهِ الواثقون به خُصوصاً إذا كان من الثّقات .

* والعملُ الأدبيُّ إنتاجٌ تقديريٌّ ، تتفاوتُ حولَه الآراءُ وتتباين ، ليس لِنَقْصٍ فيه ، وإنّما لاختلافِ الأذواقِ المقدرة ، واختلافِ المعايير المقومة التي يُوزَنُ بها العملُ فيحكم له أو عليه .

* ولذا فإنّنا نجدُ ابنَ سلام ـ وهو من علماء الشِّعر الأقدمين ـ يحصرُ فنَّ الخنْساءِ في الرّثاء والتّفجّع ، ومن ثمَّ جعلَها ثانيةَ شعراءِ المراثي الأربعة المفضّلين ، مقدّماً عليها مُتمم بن نويرة كما مرَّ معنا قبل قليل. ثمّ جاءَ النّقادُ من بعدِهِ فحصرَ معظمهم فنَّها في الرّثاء .

* ومنَ النُّقادِ فئةٌ فضَّلَتْ بعضَ الشَّواعر على الخنساءِ ، فالأصمعيُّ مثلاً يقدُّم عليها ليلى الأخيليّة حيث قال في سؤالٍ وجّهه إلىٰ أبي حاتم السّجستاني ـ وكان راويته ـ فقال له : «أشعرتَ أنَّ ليلى الأخيلية أشعرُ منَ الخنْساءِ[2]؟ !

* وذكر الحصريُّ أنَّ الخنساءَ أشعرُ نساءِ العربِ عند كثيرٍ منَ الرّواة ، وكان الأصمعيُّ يقدّمُ ليلى الأخيلية ، وهي ليلى بنت عبد الله بن كعب بن ذي الرّحالة بن معاوية . . . . وقيل لها الأخيليّة لقول جدّها كعب :

نَحنُ الأَخايلَ ما يزالُ غلامُنا حتّى يدبَّ على العَصَا مذْكُورا

(١) ديوان الخنساء (ص ١٥٩) بتصرف .

(٢) فحولة الشعراء (ص ٣٧ ـ ٤٥) طبعة ١٩٥٣ م .

قال أبو زيد: «هذا البيت لها فسمّيت به»[1].

* ويوازنُ أبو زيد بين هاتَين الشّاعرتين فيقول: «وليلى أغزرُ بحراً، وأكثرُ تصرّفاً، وأقوى لفْظاً، والخنساءُ أذهبُ في عمود الرّثاء»[2].

* بينما نجدُ أنَّ ابنَ قتيبة في «الشِّعر والشُّعراء» يقدّمُ الخنساءَ على ليلى فيقول عن ليلى: «.... وهي أشعر النّساءِ لا يُقَدّمُ عليها غير خنساء».

* بينما ميزانُنا النّقديّ لا يقرُّ مثل هذه الآراء، إذْ إنَّ الخنساء لم تكنْ أشْعَرَ من ليلى، أو ليلى أشعر من الخنساء، فلكلّ واحدة منهما مذهبُها الشّعري وفنُّها، وكذلك ظروفُها وبيئتُها وحياتُها.

* وهكذا نجدُ معظمَ الأقدمين منَ النُّقاد والخبراء بالشّعر يذكرون الخنساءَ في مجالِ المرثية، وبالتّالي نراهم يحدّدون مركزهَا من شعرائِها وشاعراتِها، أو يحدّدون مركزَها من شاعراتها فحسب، ولم يخرجُوا بها عن هذا المجال.

* بيد أنَّ ابنَ قتيبة قد زادَ شيئاً يسيراً في حدودِ المرثيةِ الخنسائيّة التي كانت قدوةً لغيرها، ومدرسةً تخرّج فيها أهلُ هذا الفنّ، فقال: «أمّا ما أدخلتِ الخنساءُ من صفاتٍ جديدة في المرثيةِ، فمنَ الصّعب أنْ نحدّده، لأنّه لم يصلْ إلينا شيءٌ تامٌّ من هذا النّوع قبل قصائِدها، إلا ما وردَ عن المُهلهِلِ، وهو في مُجملهِ يَقْرُبُ من طريقةِ الخنساءِ. ولكنْ ما لا شكَّ فيه هو أنَّ من تبعَها من شعراء الرّثاء وشواعره اغترفُوا جميعهم من بحرِها الفيّاض بفيضِ العاطفةِ البشريّة».

* إنَّ النّقاد الأقدمين لم يصدروا حكماً على الخنساءِ مفصّلاً دقيقاً،

---

(١) زهر الآداب (٢/ ٩٢٨).

(٢) المصدر السابق ذاته.

وإنّما كانتْ أحكامُهم آراءً عامّةً ليس فيها ذلك العمقُ الأدبيّ ، لأنَّ عصرهم لم يكن عَصْرَ نَقْدٍ دقيقٍ ، تُنْخَلُ فيه الأحكامُ النَّقدية نخلاً .

* ومن ذلك ما وردَ أنّ جريراً قد شَهِدَ للخنْساءِ بالتقدّم والشَّاعرية ، فقد قيل لجرير : مَنْ أشعرُ النَّاس؟ فقال : أنا لولا الخنساءُ ، ـ أو قال : لولا هذهِ الخبيثةُ ـ .

فقيل له : فَبِمَ فَضَلَتْكَ؟

قال : بقولها :

إنَّ الزَّمانَ وما يفنىٰ له عَجَبٌ ... أبقىٰ لنا ذَنباً واستُؤْصِلَ الرَّاسُ
أبقىٰ لنا كُلَّ مجهولٍ وفجّعنا ... بالحالمين فَهمْ هَامٌ وأرماسُ
إنَّ الجديدَيْن في طُولِ اختلافِهما ... لا يفْسُدانِ ولكنْ يفْسُدُ النَّاسُ[1]

* ويذكرُ الشَّريشيُّ أنَّ بشّار بنَ بُرد الشَّاعر المشهور كان له رأيٌ في شِعْرِ النّساء أو شعرِ الخنساءِ خاصّة ، ففي روايةٍ عنه أنّه قال : «لم تقلِ امرأةٌ شِعراً إلا ظهرَ الضَّعفُ فيه» .

فقيل له : «أو كذلكَ الخنْسَاء»؟!

فقال : «تلك كان لها أربعُ خصي»[2] .

---

(١) ديوانها (ص ٣٩٦) طبعة مصر ، وشرح مقامات الحريري (١/ ٣٥٠) ، وخزانة الأدب (١/ ٤١٤) ومنَ الواضحِ أنَّ شِعْرَ الخنْساءِ هذا فيه الصِّبغةُ الإسلاميّةُ ، وأنّها قالتْهُ في زمنِ الإسلام ، وأنَّ هذه الشَّهادة ـ إنْ صحّتْ ـ لشهادةٌ ذهبيّةٌ ، لكنّا لا نركنُ إلى أنها أشعرُ منْ جرير ، فجريرُ فحلُ الشّعراء ، وسيّدٌ منْ أسيادهم ، ومنَ العبثِ والجهلِ أنْ نجعلَ الخنساء في طبقتهِ أو تجري في ميدانهِ ، فجريرُ شاعرٌ مفلقٌ متفنّنٌ في اللفظِ ، وفي الصُّورة الشّعرية؛ ثم إنَّ جريراً قارعَ الفرزدقَ والأخطلَ والبُعَيث ، وما أدراكَ ما هؤلاء العمالقة الفَطاحل!؟!

(٢) انظر : شرح مقامات الحريري (١/ ٣٥٠) ، وقطوف الريحان (ص ٢٤٢) ، ومنَ الواضحِ هنا لكلِّ بصيرٍ بالنَّقدِ أنَّ بشارَ بنَ بُرد لم يَقُلْ هذا القولَ مديحاً للخنْساءِ أو =

* ويروى أنَّ النَّابغة قد شهدَ للخنساءِ بالجودةِ والشَّاعرية عندما أنشدَتْه مرثيتها في أخيها صخر فقال لها: «اذهبي فأنتِ أشعرُ منْ كلّ ذات ثديَيْن».

* وقال لها أيضاً: «إنّكِ أشعرُ الإنسِ والجِن»[1].

* ويروى عن أبي نُواس أنَّه قال: «ما قلتُ الشّعر حتى رويتُ لستّين امرأة منهنّ الخنساء، فما ظنّكَ بالرّجال! وإنّي لأروي سبعمئة أرجوزة ما تُعرف»[2].

* ونكرّرُ هنا قول المبرّد: «كانتِ الخنساءُ وليلى الأخيليّة في أشعارِهما متقدمتين لأكثرِ الفحول، وقلّما رأيتَ امرأة تتقدمُ في صِنَاعةٍ»[3].

* وحدَّثَ المفضّلُ الضّبي قال: «كنتُ جالِساً يوماً على بابِ منزلي، أحتاجُ إلى درهمٍ واحدٍ، وعليَّ دَيْنٌ عشرة آلاف درهم، إذْ جاءني رسولُ المهديّ، فقال: أجبْ أميرَ المؤمنين. فقلتُ في نفسي: وما بعثَه إليَّ! لعلَّ ساعياً سعىٰ بي عنده.

= اعترافاً بمقدرتِها وفحولةِ شِعرها، وإنّما قالَ هذا من قبيلِ الدُّعابة، فليسَ من المعقولِ في ميزانِ النَّقد أنْ يصفَ بشّار شعْر النّساء بالضّعف، ثم يستدركَ ويفضّلَ الخنساء على الرِّجال الشّعراء الفحول!
ـ وقد رُوي أنَّ النَّابغة قال لها: «ما رأيتُ ذاتَ مثانة أشعْرَ منك».
فقالت له الخنْساء: «لا واللهِ ولا ذا خصيَيْن».

(١) هذهِ الأقوالُ منَ القَصصِ المصنوع، ونعتقدُ أنَّها قيْلَتْ للانتصارِ للخنْساء.
ويذكرُ ابنُ قتيبةَ أنَّ النَّابغةَ قال للخنْسَاء: «أنشديهِ ـ أي لحسَّان ـ»، فقال: «واللهِ ما رأيتُ ذاتَ مثَانةٍ أشعرَ منك».
فقالتْ له الخنساءُ: «واللهِ ولا ذا خصْيَيْن». (الشّعر والشّعراء ١/ ٣٤٤).
وأرادَ بالمثَانةِ هنا: موضعُ الولدِ منَ الأُنثى، وهو أحدُ معانيها.
(٢) انظر: تاريخ آداب العرب (٣/ ٦٥)، نقلاً عن الأغاني (٢٥/ ٤٠) طبعة بيروت.
(٣) زهر الآداب (٢/ ٩٥٥).

* ثمَّ دخلتُ منزلي ، ولبستُ ثيابي ، وسِرْتُ إليه ، فلمّا مثلتُ بين يديه أومأَ إليَّ بالجلوس، فلمّا سكنَ جأشي قال لي: يا مفضّل ، ما أفخرُ بيتٍ قالَتْه العَرب؟

فأُرتجَ عليَّ ساعة ، ثمّ قلتُ: يا أميرَ المؤمنين ، قول الخنساء؛ فاستوىٰ جالساً ، وكان متّكئاً ، فقال: أي بيت هو؟ فقلتُ قولها:

وإنَّ صَخراً لتأْتَمُّ الهُداةُ بهِ كأنَّه عَلَمٌ في رأسِهِ نَارُ

فقال المهديّ: قد قلتُ له فأبى عليَّ - وأومأَ إلى إسحاق بن بزيغ -.

قلتُ: الصَّوابُ مع أميرِ المؤمنين».

ثم إنَّ المهديَّ حَادَثَهُ وأعطاه ثلاثينَ ألف درهم[1].

* وفي مجالسِ الخُلفاء كان للخنساءِ نصيبٌ في الامتداحِ والثَّناء عليها ، والإشادَةِ بذكرِها وشعرِها وتقدمها. . من ذلك ما رُوي أنَّ عبدَ الملك بنَ مروان سألَ في مجلس له: «أيّ نساء الجاهليّة أشعر»؟

فقال الشَّعبي: «الخنْسَاءُ».

فقال عبدُ الملكِ له: «ولمَ فضَّلْتَها على غيرِها»؟

قال: «لقولها:

وقَائِلةٍ والنَّاسُ قد فَاتَ خَطْوُها لتدركَه يا لَهْفَ نَفْسي على صَخْرِ
ألا ثكلتْ أمُّ الذين غُدوا بهِ إلىٰ القبرِ ماذا يحملونَ إلىٰ القَبْر[2]

* وقال الحصريُّ عنِ الخنْساء ما مفاده: «وهي أشدُّ نساء العرب عند كثير من الرّواة».

* ويقول: «ومن أحسنِ المراثي ما خُلِطَ فيه مدحٌ بتفجّعٍ على المَرثيّ ، فإذا

---

(١) انظر: شرح مقامات الحريري (١/ ٣٥٣ و٣٥٤) بتصرف واختصار.
(٢) ديوان الخنساء (ص ١٢٥) باختصار ، نقلاً عن أمالي اليزيدي (ص ١٣).

وقعَ ذلك بكلامٍ صحيح ، ولهجةٍ معربة ، ونظامٍ غير متفاوت ، فهو الغايةُ من كلامِ المخلوقين ، واعلمْ أنَّ منْ أجلِّ الكلام قول الخنساء من قصيدة:

يا صَخْرُ ورّاد ماءٍ قد تَنَاذَره أهلُ المياهِ فما في وِرْدِه عَارُ
لمْ تَرهُ جارةٌ يمشي بساحتِها لِرِيْبَةٍ حينَ يخْلي بيتَه الجارُ»[1] ،

* وكما علمنا أنَّ الأصمعي قدَّم ليلى الأخيلية على الخنْساء ، بينما اعتبرَ أبو زيد أنَّ ليلى أغزرُ بحراً ، وأقوى لفظاً ، أمّا الخنساءُ ، فهي أكثرُ جمالاً وأذهبُ في عمودِ الرّثاء.

* ولئن كان الرثاءُ هو الميدانُ الفسيحُ ، والفضاءُ الرَّحب الذي برزتْ فيه الخنساءُ ، فهذا لا يعني أنّها أشعرُ الجنِّ والإنس ، كما زعم النّابغة ، أو كما زعموا أنَّ النَّابغة قال ذلك ، فَشِعْرُ الخنساءِ وخُصوصاً الرّثاء لا يخرجُ عن وصفِ أحزانِها ودموعها ، وتعدادِ مناقبِ الفقيد ومحامدِه.

* وهكذا نرى الخنساء تملأُ أسماعَ الأدباءِ والشُّعراء الأقدمين[2] ،

---

(١) انظر: زهر الآداب (٢/ ٩٢٧ و٩٢٨) بتصرف يسير.

(٢) ممن ذكر الخنساءَ في شعْره منَ الأقدمين ، أبو نُواس ، الحسنُ بنُ هانىء ، حيثُ قال في هجاءِ عَمْراً الكاتب ـ وكان بخيلاً ـ:

وإنّي حينَ آكلُ خبزَ عمروٍ لأشجعُ منْ أبي ليثٍ هِزبْرِ
أشقُّ رغيفَه شقّاً عنيفاً وأعملُ في ثرائدهِ بأمْري
فإنْ يصبرْ يَذُقْ حُزناً طويلاً وإنْ يجزعْ ألذّعُه بِشِعْري
فتىً لرغيفهِ قرطٌ وشنْفٌ وواسطتانِ من درٍّ وشذْرِ
ودونَ رغيفهِ قَلْعُ الثنايا وحربٌ مثلُ وقعةِ يوم بدرِ
وإنْ فقد الرَّغيفَ بكىٰ عليهِ بُكا الخنساءِ إذ فُجِعَتْ بصخرِ

(الأغاني ٢٥/ ٢٩٠ـ٢٩١) طبعة بيروت ، وديوان أبي نواس (٥٣٢) طبعة دار الكتاب العربي ، بيروت ، بتحقيق أحمد الغزالي.

ـ وممّن ذكرَها أيضاً ابن الونّان حيث قال:

وابكِ علىٰ ذنبٍ وقلبٍ قد قسَا كالصَّخر من هواه لم يَسْتَفِقِ
بمقلةٍ كمقلةِ الخنساءِ إذ بكتْ على صخرٍ بلا ترفقِ

وتملأُ ندواتِهم وجلساتِهم بالنّقاش والخصامِ ، فبعضُهم يجعلُها الأولى في عالَم شاعرات النّساء في المشرقِ العربيّ ، وبعضُهم يقدّمها على كثيرٍ من الشُّعراء.

* وإذا ما رجعْنَا إلى المصادرِ القديمةِ ألفينا ترجمةَ الخنساء في معظمها على اختلافِ مشاربها ، وتجمِعُ كلّها على شاعريّتها وتقدمها في فنّ الرّثاءِ والبكاءِ ، ومنها: الطَّبقاتُ الكبرىٰ ، والاستيعابُ ، وأسدُ الغابة ، والإصابةُ ، ثم الشّعر والشّعراء ، والأغاني ، وزهرُ الآداب ، ومعاهدُ التَّنصيص ، وشرحُ مقاماتِ الحريري ، وسرحُ العيون ، وخزانةُ الأدب ، وديوانُها بروايةِ أبي العبّاس ثَعْلَب ، وغيرُ ذلك من مصادر لا تُحصىٰ في هذا المقام. ومن خلالِ تلكم المصادر تبدو صورةُ الخنساءِ صورةَ المرأةِ المُشْرقَةِ المتألّقة في أدبها وإسلامِها وشعرِها ، وكُلّ ما يتعلّق بحياتها.

* أمّا الأدباءُ والشُّعراءُ المحدثون فقد انعكستْ صورةُ الخنساءِ في مرآتِهم جليّةَ المعالم ، ناصعةَ السِّماتِ والقسماتِ ، فاحتفلوا بها ، وعمروا بها كثيراً من الدّروس والمحاضرات ، بل والكتب المتخصّصة عنها.

* ففي موسوعته «تاريخ آداب العرب» يقولُ مصطفى صادق الرّافعي ـ رحمه الله ـ عن النّساء الشّواعر ومنهنّ الخنساء: «ولا يهولنّك كثرةُ أسماءِ النساءِ اللاتي قُلْنَ شِعراً ، فعمودُ الشِّعر عندهنَّ الرّثاء ، وليس لهنّ إلاّ المقاطيعُ والأبياتُ القليلةُ ، ولم تَبِنْ منهنَّ إلا الخنساءُ وليلى الأخيليّة ، وما شَعَرتِ الخنساءُ حتّى كثُرتْ مصائبها ، وكانت قبلَ ذلك كغيرِها من النّساء تقولُ البيتَيْن والثَّلاثة حتى قُتِلَ أخوها صخرٌ فأجادتْ وأطالَتْ ، لأنّها أصبحتْ مصروفةَ الهمّ إلى نوعٍ من الحُبّ في نوعٍ منَ الشِّعر. فلو كان يُعْرفُ عندهم أشعرُ من هاتَيْن لسمّوهنَّ ، غير أنَّ المصائب لا تجعلُ غيرَ الشَّاعرةِ

شاعرةً ، ولا بدّ من تركيبٍ ملائم في بعضِ النّاس ، لتلقّي مادّة الشِّعر عن الرّوحِ والقَلْبِ والطَّبيعة ، ولم يأتِ في شِعْرِ النّساء خاصّة أفحلُ ولا أجزلُ من شعرِ الخنساء ، كأنَّ فَقْدَ رجالِها جعلَها رجُلاً»[1] .

* وفي حديثِهِ عن فنّ الرّثاءِ في العَصْرِ الجاهلي نجدُ الدكتور شوقي ضيف يضعُ الخنساءَ في المقدّمة فيقول: «وقامَ بالقِسْطِ الأكبرِ عن نَدْبِ الميّتِ وبكائِهِ الخنْساءُ . . . وسَابِقَتُهنَّ التي لا تُنازع الخنساء»[2] .

* وبهذا القول نعتبرُ أنَّ المراثيَ فَنٌّ قد نشأَ وازدهرَ من نياحاتِ النِّساء ، ومع أنَّ أوسَ بنَ حجر الشَّاعر المعروفَ قد خلَّفَ بعضَ المراثي الرّائعة ، إلاّ أنَّ هذا الفنَّ إنَّما بلغَ أَوْجهُ في مراثي الخنساء .

* ويلخِّصُ الدكتور أحمد الحوفي فنَّ الرّثاء النّسويّ بقوله: «والرثاءُ هو المجالُ الفسيحُ الذي تطلَّقَتْ فيه عواطفُ المرأةِ ، لأنَّه نوعٌ منَ النُّواح والبكاءِ ، وإنَّ المرأةَ لتلجأُ إلى دموعها أوّل ما تلجأُ إذا حزبها الدَّهْرُ ، أو كَرَبَهَا القضاء ، وإنّها لتلتذُّ الحزنَ وتستديمه ، وتوالي البُكاء وتستطيله ، وفاءً وحسرةً ، أو ضعفاً ورقّةً ، ثم تنفّسُ عن نفسِها إنْ كانت شاعرةً بمقطوعاتِ تسكبُ فيها لوعتها وحرقتها»[3] .

* ويتابعُ الحوفي خصائص رثاءِ النّساءِ والخنساء فيقول ما مفاده: «إنّهنّ يُشِدْنَ بفضلِ المرثي من شجاعةٍ وبطولةٍ وكرمٍ ونجدةٍ وعفّة. . . . والخنساء في رثائِها لا تخرجُ عن وصفِ أحزانِها ، وتعدادِ مناقب أخويها ، كما يعدّد الرّجال مناقبَ الرّجال. . . . ولقد تعاظمتْ هي وهندُ بنتُ عتبة مصيبتيهما

---

(١) تاريخ آداب العرب (٣/ ٦١ ـ ٦٢) بشيء من التصرف.
(٢) العصر الجاهلي لشوقي ضيف (ص ٢٠٧) ، وانظر: شاعرات العرب (ص ٩٨).
(٣) انظر: المرأة في الشعر الجاهلي (ص ٦١٢).

وادّعتْ كلُّ واحدةٍ منهما أنّها أعظمُ بلوى ، بَيْدَ أنَّهما في هذهِ المفاخرةِ لم تخرجَا عن التَّنويه بالمحامدِ المألوفةِ ، ومحاكاة الرّجال؛ وأرجّحُ أنَّ محاكاتهنّ للرّجال في رثائِهم وفي إشادتهم بفضائلِ المرثي ، وأنَّ ضيقَ أفق خيالهنّ ، وعجزهنّ عن تصويرِ حزنهنّ ، والتّعبير عن مشاعرِهنّ بحيث يشركْنَ الآخرين والأخريات معهنّ فيما يشعرنَ به ، هي السَّببُ فيما نرىٰ من شبهِ رثائهنّ برثاءِ الرّجال ، وفيما نرىٰ في مراثيهنَّ من احتباسٍ على ذكْرِ المحامدِ العامّة ، حتّى إنّنا قلَّما نستطيعُ أنْ نميِّز رثاء امرأةٍ من رثاءِ رجلٍ ، وقلّما نجدُ في مراثيهنَّ ملامحَ ناطقةً ، وسماتٍ كاشفةً تنبعُ من الأنوثةِ ، وتعبّرُ عن عواطفِ الإناث»[1] .

* وفي الحقّ إنَّ الخنساءَ والرّاثيات من النِّساء أشْجَىٰ منَ الرّجال قُلوباً عند الفجيعة ، وأشدُّ منهم حُزناً ، وأعظمُ لوعةً ، لأنَّهنَّ أضعفُ احتمالاً ، وقلوبهنّ أسرعُ انخلاعاً ، وإذا كان ذلك صحيحاً ، فلماذا لم تجىءْ مراثيهنّ أشدّ حرارةً وأقوى تأثيراً؟!

* لعلَّ السَّبب الرئيس في ذلك هو أنَّ الانفعالاتِ والعواطفَ والأحاسيسَ كالطَّربِ والغَضَبِ والحزنِ والفرحِ لا يتفجّر منها الشّعرُ ساعةَ احتدامِها؛ لأنَّ الانفعالَ القويَّ قد يعقدُ اللسانَ ، وربّما يشلُّ التفكير ، ويشغلُ عمّا عداه .

* فالشّاعر قد لا يقولُ شيئاً منَ الشِّعرِ أو النَّظمِ إلا بعد أنْ يصحوَ من ذهولهِ ، أو بعد أنْ يهدأَ من غضبهِ ، أو تستقرَّ نفسُه ، إذ تصفو قريحتُه ، وعندها يستطيعُ الإبداع الشّعري وقد اسْتَقَرَتِ انفعالاتُه رواسبَ عقلية محتفظة بحرارةِ الشّعور الكامنة؛ وإذاً فهو لا يقولُ إلا عن رويّةٍ وهدوء .

---

(١) المرجع السابق نفسه (ص ٦١٢ ـ ٦١٧) بتصرف واختصار .

* والنّساءُ يفْثأْنَ حزنهنَّ بالدُّموع الغِزار الحِرار ، وبالآهات والأنّاتِ والعويلِ وبالصَّمت الحزين والاستغراقِ الأليم والذّكرى المُوجعة ، فإذا ما عمدنَ إلى القريضِ مَتَحْنَ من عاطفةٍ قد تنفَّسَت ، وأوين إلى لغةٍ كان البكَاءُ والدَّمعُ والنَّشيج أطوعَ منها وأصدقَ تعبيراً[١] .

* وممّا لا شكَّ فيهِ أنَّ النّساءَ الرّاثياتِ الباكياتِ أكثرُ منَ الرِّجال ذِكْراً للوعةِ ، وأكثرُ حديثاً عن البكاءِ والدُّموع والوجيعة ، لأنَّ ضعفَهُنَّ وسرعةَ انفعالهنّ يتجلّى في تصويرهنّ للترح بالحديثِ عن البُكاءِ ومخاطبةِ العيونِ والدُّموع ، حتى إنَّ مراثيهنَّ تتسمُ بالنّواح أكثرَ ممّا تتسمُ بغيرِه ، وإنَّ نواحهنَّ متشابهٌ لا تمايزَ بينه ولا خلاف ، ولهذا تصطبغُ مراثيهنّ بوحدةِ الموضوع ، ممّا جعلَ الحكمةَ تندرُ في شِعرهنَّ ، وكذلك الغَزَل؛ إذ إنَّ خلوَّ مراثيهنّ من المقدمةِ الغزليّةِ هو صدىً لأنوثتهنّ .

* يقولُ الدكتور أحمد الحوفي : «وقد تزعمتِ الخنساءُ شواعر الجاهليّةِ والإسلامِ في الرّثاء ، لكثرة ما رثَتْ أخويها ، ولجودةِ مراثيها ، وحرارةِ عاطفتها»[٢] .

* وتحدَّثَ الدكتور جواد علي في «المفصّل في تاريخِ العرب قبل الإسلام» عن الرّثاء في العصر الجاهليّ ، وعن الرّثاء النّسوي عصر ذاك فقال : «الرّثاءُ من سننِ الجاهليّة القديمةِ ، وهو من أبوابِ الشِّعر المهمّة ،

---

(١) ليسَ لهذا أثارة في رثاءِ الرّجال ، وإنْ عظُم حزنُهم ، وأمضّهم الهمُّ ، كمرثيةِ متممِ بنِ نويرة لأخيه مالك ، ومرثيةِ الأُبيردِ بن المعذّر الرّياحي لأخيه بُرَيد ، ومرثيةِ دريد بن الصّمة لأخيه عبدِ الله ، ومراثي المهلهل لأخيهِ كُليب ، ورثاء أبي ذؤيب الهذليّ لبَنيه ، ورثاء أبي زُبيد الطّائي لابنِ أخته ، ومرثيةِ أوس بن حجر لفَضَالة بن كلدة . (المرأة في الشعر الجاهلي ص ٦١٨ ـ ٦١٩) .

(٢) المرأة في الشعر الجاهلي (ص ٦٢٦) .

وقد نبغتِ النِّساءُ الرّاثياتُ في هذا البابِ ، واستنبطنَ فيه أساليب بديعة لم يتنبّهْ لها الفحولُ ، لِما طُبِعْنَ عليه من رقّةِ الطِّباع وشدّةِ الجزعِ في المصائبِ ، وصدقِ الحسّ ، ورقّةِ العاطفة. وشِعْرُ الرّثاء وإن كان من واجبِ النِّساء النّائحات في الغالب ، وقد بلغَ الغاية في شعرِ الخنساء ، إلا أنَّه من واجبِ الشُّعراء كذلك»[1].

* ويتحدّثُ الدكتور الحوفي عن رثاءِ النساءِ ، وقِصَرِ نَفَسِهِنَّ بالشّعر عامة ، ومع إجادتهنّ الرثاء فيقولُ ما نصُّه: «إنّهنّ لم يبرعْنَ إلاّ في الرّثاء ، لأنَّه وثيقُ الصّلةِ بنفوسهنّ وميلهنّ ، فهنّ رقيقاتُ الشُّعور ، ضعيفاتُ الاحتمالِ ، سريعاتُ الانفعال ، فيّاضاتُ العيون ، لا يطقْنَ فَقْد الأحباب ، وهنّ أشدُّ حُزناً ، وأحدُّ لوعةً منَ الرّجال.

* على أنَّ رثاءهنّ في جملتِهِ متشابهُ السِّمات ، لا يستطيعُ منافسةَ رثاءِ الرجال؛ لأنَّ مراثي الرّجال الصّادرة عن عواطفَ صادقةٍ تصوّر شخصياتهم ونظراتهم إلى الحياة.

* وقد قصَّرْن في الأغراضِ التي عالجْنَها ، فلم تُدانِ إحداهنَّ شاعراً في الغَزلِ ، أو الحماسةِ ، أو الفخرِ ، أو الهجاء ، فنحنُ نذكرُ الخنساء على أنَّها قد أجادتِ الرّثاء ، وشأتْ فيهِ بعضَ الرّجال ، وإنْ تخلَّفَتْ عنِ الفحولِ في براعةِ التَّصوير وقوّة الأداءِ ، ولكنّا لا نستطيعُ أنْ نجدَ شاعرةً قاربت شاعراً في فنّ آخر»[2].

* ويتابعُ الدّكتور الحوفي حديثَه قائلاً: «وتمتازُ قصائدهنّ بوحدةِ الموضوع. . . . . ولم يجمعْنَ في شعرهنَّ أفانينَ عدّة من وصْفٍ ومدحٍ

---

(١) المفصل في تاريخ العرب لجواد علي.

(٢) المرأة في الشعر الجاهلي (ص ٦٦٤).

وفخرٍ ، كما كان يفعلُ كثيرٌ من الشُّعراء ، لأنَّ النّساء لم يبلغْنَ هذه المكانة الفنيّة .

* وقصائدهنّ مقطعاتٌ ، فليست لإحداهنّ مُطَوَّلة ، وأطولُ قصائدِ الخنساء ـ وهي زعيمتهنّ في طولِ القصائد أيضاً ـ قصيدتها التي مطلعها :

ألا يا عينُ فانْهَمري بغَزْر وفيْضِي فيضةً من غيرِ نَزْر

أبياتُها عشرون بيتاً . وقصيدتُها التي مطلعُها :

مَا هَاجَ حُزنكِ أمْ بالعينِ عُوَّار أمْ ذَرَّفَتْ إذ خَلَتْ من أهلِها الدارُ

أبياتُها خمسةٌ وثلاثون ، على أنَّ بعضَ أبياتها غيرُ مقطوعٍ بنسبِها إليها . وقصيدتُها التي مطلعُها :

أَلاَ مَا لعَينَيْكِ أمْ مالَها لقد أَخْضَل الدَّمعُ سِربَالَها

أبياتها سبعةٌ وثلاثون ، وليست كلّها مقطوعاً بروايتها . على حين تكثرُ المطوّلاتُ في شعْرِ الرّجال. . . . . . . وربّما كان مبعثُ القصرِ في شعْرِ النّساء تعاطي الموضوع الواحد ، وأنَّ دموعهنَّ وصياحهنَّ وأنّاتهنّ تنفّسُ حزنهنَّ تنفيساً أقوى وأبرز من الشّعر ، فيجدْنَ فيها بعضَ السّلوى ، فيؤثرنَها على الشّعر المطوّل ، لأنّهنّ ملُولات لا يصبرنَ على قرضِ الشّعر مدةً طويلةً ، والقصيدةُ المطوّلةُ تحتاجُ إلى جهدٍ وصبرٍ وعزيمة»[1] .

* بيد أنَّ السَّيدةَ بنتَ الشَّاطىء نقضَتْ ما أُخِذَ على الخنساءِ من قِصَرِ القصيدة ، وخلوّ شعرِها من الحكمةِ أو قلّةِ الحكمة في قصائدها؛ ولم ترضَ عن الأقدمين من النُّقاد الذين وضعوا طولَ النَّفَس في القصيدةِ موضعَ التَّقدير؛ فقالت : «إنّني لستُ ممن يُدخلون في حِسَابِهم عند وزنِ الشَّاعرة

(١) انظر : المرأة في الشعر الجاهلي (ص ٦٦٤ ـ ٦٦٨) باختصار وانتقاء وتصرف .

طولَ القصيدة أو قِصَرها ، وكثرة الحِكَمِ في شعرِها أو ضآلة حظّه منها ، والحقّ أنّ هذه الموازين النّقدية لم تَعْدُ فيما أرىٰ جديرةً بالاعتبار في عصرِنا المفتون بفنية الشعر ، وإنسانية الفن ، المعتد بالعمق أكثر من اعتدادهِ بالطُّول والعرض»[1].

* وتتابعُ ابنةُ الشَّاطىء كلامَها بإيجاد مقاييس نقديّة جديدة لِشِعْر الخنْساء فتقولُ: «وليس معنى هذا أنّني أضعُ شِعرَ الخنْساءِ بمنأى عنِ النَّقد ، أو أنجو لها به خالصاً من المآخذِ والعيوب ، وإنّما معناهُ أنّي أحاولُ أنْ أعرضَ شاعريّة الخنساء على مقاييس نقديّة جديدة»[2].

* ولعلَّ ابنةَ الشَّاطىء قد نسيت وهي تتحدّثُ عن الخنساءِ ، بأنّ هذه الشّاعرة لم تعشْ حياةَ ابنة الشّاطىء في العَصْرِ الحديث ، هذا العصرُ الذي فتنَتْهُ فنيّةُ الشِّعر وإنسانيّة الفنّ ، والذي يعتدّ بالعمق أكثر من غيره.

* لقد عاشتِ الخنساءُ في عصرٍ نقدي ساذجٍ ، وفي بيئةٍ بسيطةٍ بعيدةٍ عن العمقِ والغوصِ وراءَ الأفكارِ والمعاني واستنباط الأحكام النّقديّة.

* ونجدُ صورةَ الخنساءِ مبثوثةً في أعمالِ المستشرقين ، وأعمالِ بعضِ كتّاب الموسوعات ، ومن الذين كتبوا عنها وتحدثوا عن شعرِها «كرنكَوفِ» الذي لم يخرجْ بالخنساءِ عن مجالِ المرثية التّقليدية ، ولاحظَ على مراثيها الكثيرة المتعددةِ سمَةَ القِصَر ، وصدقَ التّفجّع والحزنِ ، وحصرهَا في صورٍ محدودةِ المعاني والتّعابير فقال في «دائرة المعارف الإسلاميّة»: «ومنَ العسير أنْ نقطعَ برأي فيما إذا كانتِ الخنساءُ قد أضافَتْ سمات إلى المرثية ، أو لم تُضِفْ ، ولو أنّنا نكادُ نقطعُ بأنَّ قصائدها ألهمَتْ عدداً كبيراً

---

(١) الخنساء (ص ٧٦ و٧٧).
(٢) الخنساء (ص ٧٦ ـ ٧٧).

من شُعراء المراثي المتأخّرين ، ومنهم ابنتها عمرة ، أمّا إذا وازنّا بين شعرها وشعرِ غيرها من أصحابِ المراثي من معاصريها ـ وحسبي أنْ أذكرَ منهم مُتمماً وأبا ذُؤيب ـ فقد حقّ لنا أن نعترفَ بأنَّ قصائدهَا يعوزها ما عندهم من الجَمال الشِّعري ، ولكنّا نجدُ فيها على الرغم من قِصَرِها ـ بالنّسبة لقصائدهم ـ حزناً أبلغَ صدقاً ، وإنْ كنّا نجدُ فيها تكراراً لنفْسِ الأفكار ، يبعثُ السّآمة في النّفس»[(١)].

* ومن المستشرقين الذين أدلوا دلوهم في الحديثِ عن الخنساءِ ، ونشأةِ المراثي عند النّساء : المستشرق «غوستاف فون غرنباوم» الذي قال : «وإذا كانتِ المراثي قد نشأتْ من نياحاتِ النِّساء ، فقد جعلَ ذلك منها فنّاً نسائيّاً ؛ ومع أنَّ أوسَ بنَ حجر قد خلّفَ بعضَ المراثي الرائعة ، إلا أنَّ هذا الفنَّ إنما بلغَ أَوْجَهُ في مراثي الخنساء الشّاعرة التي عاشَتْ في النّصفِ الأوّل منَ القرنِ السَّابع . ولقد اتّخذتِ المرثيةُ أسلوباً خاصّاً واضحَ المعالم تميّز ـ إلى جانبِ التّعابير الخاصّة والميل نحو تكرار بعضِ العبارات في عددٍ من الأبياتِ الأولى المتتابعة ـ بمميزاتٍ شكليّة ، نظير نشوء ما هو من قبيل اللازمة ، والميل إلى التزامِ القافية في صدور الأبيات فضلاً عن أعجازِها»[(٢)].

* وقال غرنباوم أيضاً عن الخنْساء : «أمّا الخنساءُ فقد جعلتْ قِممَ الجبالِ تتدحرجُ بداعي وفاةِ أخيها ، والنّجومَ تهوي ، والأرضَ تهتزُّ ، والشمسَ تظلمُ . والخنساء عندما تنوحُ على مَنْ فقدتهم ، تعمدُ بلا عناءٍ ملحوظ إلى إشراكِ الكونِ برمّته في مأتمٍ جلّلهُ الحزنُ المفرطُ ، واللوعةُ المسرفةُ ، ولئن كان أسلوبها هذا قد حظيَ بالإعجابِ والتّقدير ، فإنّه لمْ

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة (الخنساء).
(٢) دراسات في الأدب العربي لغرنباوم (ص ١٢٧) ترجمة إحسان عباس وآخرين.

يتّخذْ مثالاً يحتذى ، ذلك لأنَّ الإحساسَ بالطبيعةِ اتّخذ في تطوره وجهةً أخرى ، مختلفةً عن هذه كلّ الاختلاف»[١] .

* أمّا البُستاني ، فيصفُ الخنساء بالغلوّ المُفرط في الحزنِ ، وبافتقارِ مراثيها إلى المعاني الحكميّة ، وبضعفِ مخيلتها ، وقلّة أو خلو قصائدها من تعدّدِ المواضيع وأن شعرها خالٍ أيضاً من المطوّلات ، فيقول: «ولعلّ الغلوَّ أظهرُ خاصّة في الخنساءِ ، فهي مغاليةٌ في حُزنها ولوعتها ، مغاليةٌ فيما تنعتُ به صخراً من النّعوت. . . . ورثاءُ الخنساء عاطفي بحتٌ ، لا يشوبُه تكلّف ، ولا يرتفعُ به الفكرُ إلى المعاني الحكميّة التي نجدها في رثاءِ لبيد لأخيه.

* ومما يجدرُ ذكره أنَّ شِعْرَ الخَنْساء خالٍ منَ القصائدِ الطّوال التي عرفْنَاها في الشُّعراء الجاهليين ، فأطولُ قصيدةٍ لها الرّائية: قذىً بعينيكِ أمْ بالعين عوّار. . . . وهي لا تتجاوزُ الخمسة والثّلاثين بيتاً ، وأكثرُ شِعرها أبياتٌ ومقطعاتٌ أو قصائدُ قصيرة ، ولعلَّ ذلكَ ناتجٌ بعضُه من ضَعْفِ المخيّلة في المرأةِ ، وبعضُه الآخر عن وحدةِ موضوعِ الشّاعرة ، وعدمِ تعدُّدِ أغراضها ، فهي لم تطرقْ غيرَ الرّثاء بما فيه من تفجُّعٍ ومدحٍ ، وما يتبعُ المَدْحَ من ذكْرِ غزوةٍ دون أنْ تَعْمَد إلىٰ وصفِ الحرب ، وتصويرِها ، وإنَّما تجعلُ همَّها في النُّواح على صخرٍ ، وإطراءِ شمائلهِ وتمثيلها ماديّاً ، ممّا جعلَ أفكارَها محصورةً في صُوَرٍ محدودةِ المعاني والتّعابير»[٢] .

* وأحكامُ البُستاني هذا فيها شيءٌ من البُعْد عنِ حقيقةِ الخنْساءِ ، إذْ إنّها من أشْهَرِ شواعرِ العربِ ، وديوانُها الرّحبُ يملأُ الأسماعَ ، وفيهِ من

---

(١) تاريخ آداب العرب (ص ١٦٥).
(٢) أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام (ص ٢٣٣).

الحكمةِ شيءٌ غيرُ يسيرٍ ، بالإضافة إلى فنونٍ أخرى ، بيد أنَّ سِمَةَ الرِّثاءِ والبكاءِ قد غلبَتْ عليها .

* أمّا صاحب «الرّوائع» فيتحدَّثُ عن الخنساءِ بشيءٍ أكثر دقّة من بطرس البُستاني فيقول عنها: «فهي شاعرةٌ أكثرُ منها ناظمة وهو ما يروقُنا فيها ، وإنْ كان للبعضِ ممن عاصرَهَا أو تأخَّر عنها منَ الرّثائين قوّةُ سَبْك ، وجمالُ شاعريّة لا نراهما في شعْرِ الخنساءِ ، أمّا ما أدخلته من صفاتٍ جديدة في المرثية ، فمن الصَّعب أنْ نحدّده ، ولكنْ ممّا لا شكَّ فيهِ أنَّ مَنْ تبعَها مِنْ شعراءِ الرّثاء وشواعره اعترفُوا جميعهم من بحرِها الفيّاض بفيضِ العاطفةِ البشريّة»[1] .

* ومع هذه الآراء النّقدية لا بدَّ لنا أنْ نشيرَ إلى خصائص مراثي الخنساء ، فقد كان رثاؤها يؤدّي ـ بشكلٍ عام ـ وظيفةً اجتماعيةً في القبيلةِ ، يقول الدّكتور محمد جابر الحيني: «ومنْ هُنا ندركُ السِّرَّ في احتفالِ رجالِ سُليم وسعيهم الحثيث في جَمْع وروايةِ شعْرِها ، وأنّها حينما كانت تقولُ شعْرَهَا إنَّما يصدرُ عنها وكأنَّه صادرٌ عن الجماعةِ»[2] .

* فمراثي الخنساء إذاً ما هي إلا نوحُ قُمريّةٍ شجتها الأحزان ، ومزاجٌ من ذوبِ العاطفةِ المتألمّةِ ، والنّفسِ الدّاميةِ ، والوفاءِ الثّاكلِ ، وتعبيرٌ عن حسٍّ ملهوفٍ ، وشعورٍ مصعوقٍ ، ولذا فقد كانت نَفَثاتُها الحرّى بعيدةً عن مقدماتِ الشّعراء ، وأناةِ الصَّنعة[3] .

---

(١) انظر: الروائع ، العدد رقم (٢٨) في المقدمة .

(٢) الخنساء شاعرة بني سليم (ص ١٣٠) ، سلسلة الأعلام ـ مصر ـ رقم (١٦) عام ١٩٧٧ م .

(٣) انظر: ديوان الخنساء: دراسة وتحقيق للدكتور إبراهيم عوضين (ص ١٤٤) بشيء من التصرف .

* لقد كان شعْرُها دموعاً تسبقُ الألفاظَ ، ولكنّها لا تستسلمُ البكاءَ حتى نراها تعودُ سريعاً إلى العزّة والمجدِ ، فتذكرُ فضائلَ المرثيّ ، وتعدّدُ مناقبَه وبطولاته وشمائله ، وقد لا يستغرقُ استهلالُها الباكي أكثرَ من بيتٍ ، أو شَطْرَ بيت ، ونرىٰ مثل هذا في كثيرٍ من أشعارِها كقولها في هذه السِّينية :

يَــا عَيــنُ بَكِّــي فــارِســاً ... حسَــنَ الطِّعَــانِ عَلَــى الفَــرسْ
ذَا مِــــرَّةٍ ومَهَـــــابـــــةٍ ... بيْنَـــا نُـــؤَمِّلُـــه اخْتُلِـــسْ
يَـــذَرُ الكمـــيَّ مجـــدَّلاً ... تـــرِبَ المنـــاخِـــر مُنْقَعِـــسْ
نعْـــمَ الفَتـــى عنْـــد الـــوغَـــى ... حيـــنَ النَّصـــائـــح فـــي الغَلَـــسْ
فـــــلأبكينَّـــــكَ سيّـــــداً ... فضْـــلَ الخِطَـــاب إذا التَبَـــسْ
مَـــنْ ذا يقـــومُ مقَـــامَـــه ... بعْـــدَ ابـــنِ أمّـــي إذ رُمِـــسْ
غَيْـــثُ العشيـــرةِ كلّهـــا ... الغَـــائِـــريـــنَ ومَـــنْ جَلَـــسْ

* وقولها في هذهِ الرّائية التي نختارُ منها :

يَـــاعَيْـــنُ جُـــودي بـــالـــدمـــو ... ع علـــىٰ الفَتـــى القَـــرْم الأَغَـــرْ
أبيـــضُ أبلـــجُ وجهُـــهُ ... كـــالبـــدرِ مـــنْ خَيْـــر البَشَـــرْ
وَيْلـــي عَليـــهِ وَيْلَـــةً ... أصبحـــتُ حِصْنِـــي منكَسِـــرْ

* ومثل هذا كثيرٌ في أشعارِها التي يضمُّها الدّيوان المحقّق المطبوعُ في مِصرَ ، وغير مصر .

* ومنَ الملفتِ للنَّظر في شعرِ الخنْساءِ ومراثيها ذلكم الخطابُ إلى عينيها كيما تُسْعِداها في مصيبتِها ، حتى لقد أصبحَ خطابُها لهما لازمةً في أكثرِ مراثيها ، وغدا استهلالُها قصائدها بخطابِ عينيْها سمةً بارزةً وخصيصةً تمتازُ بها مراثي الخنْسَاء؛ وهذه السِّمةُ التي سيطرتْ عليها تقودُها إلى تكْرارِ مطالع كثيرٍ من قصائدِها ، بحيث تتشابَه في عددٍ كبيرٍ منها ، ولك أنْ تقرأَ معي بعضَ النَّماذج من مطالِعها كيما تتوضّح تلك السِّمةُ التي

أَشَرْتُ إليها؛ فنجدُهَا تخاطبُ عينَيْها الاثنتَيْن أحياناً فتقولُ في مطَالعِ قصائِدِها:

أَعينـــيَ جُـــودا ولا تجمـــدَا ... ألا تبكيـــانِ لِصَخْـــر النَّـــدى
أَعينيَ هـلاّ تبكيـانِ علـى صَخْـر ... بـدمـعِ حثيـثٍ لا بكـيءٍ ولا نَـزْرِ
أَعينيَ جُـودا بـدمـعٍ غيـرِ منزورِ ... وعُـولا إنَّ صخـراً غَيـرُ مقْبـورِ
أَعَينيَ جُودا بالدُّموعِ على صخرٍ ... علىٰ البَطَلِ المِقْدام والسَّيِّد الغرِّ

* وكما تخاطبُ عينَيْها الاثنتين تخاطبُ العينَ في مطالعَ كثيرةٍ ومنها قولُها:

يـا عيـنُ جُـودي بـالـدُّمـوعِ ... فقَـدْ جَفَـتْ عَنْـكِ المَـوارِدْ
يـا عيـنُ جُـودي بـالـدُّمـوع ... المُسْتَهـلاّت السَّـوافـح
يـا عيـنُ جُـودي بـالـدُّمـوع ... علـى الفَتـىٰ القـرمِ الأَغَـر
يـا عيـنُ جُـودي بـالـدّمـوع ... المُسْتهـلاّت السَّـواجـم
يا عينُ جُودي بدمعٍ منك مدرارِ ... جهد العويل كماءِ الجدولِ الجاري
يا عينُ جُودي بدمعٍ منك مغزارِ ... وابكي لصخرٍ بدمعٍ منك مدرارِ
يا عينُ جُودي بدمعٍ منك مهراقِ ... إذا هدىٰ النَّاسُ أو همُّوا بإطراقِ
يا عينُ جُودي بدمعٍ غيرِ منزورِ ... مثلِ الجمانِ على الخَدَّيْن محدورِ

* ومثلُ هذا كثيرٌ جدّاً في معظَم قصائدِها؛ ومنَ الواضحِ في شِعْرِ الخنساء ومراثيها بُعْدُهَا عن التكلّف ، حيث جاءَتْ مراثيها مدائحَ للمّيتِ ممزوجةً باللّهجةِ الصَّادقةِ ، والعاطفةِ الخالصةِ ، والتفجُّع الصَّادقِ ، والإعجابِ بأخيها ذي الشَّمائلِ الكريمة ، والمناقبِ الحميدة ، فهو عندها جوادٌ سخيٌّ ، أبو اليتامىٰ ، ومأوى الأراملِ و. . . . اسمعْ إليها تقولُ:

ضَخْم الدَّسيعةِ بالنَّدىٰ متدفّقاً ... مـأْوىٰ اليتيـمِ وغـايـةُ المنتـابِ
وأبـو اليتَـامـى ينبُتُـون فِنـاءَه ... نَبْـتَ الفِـراخِ بمكلـىءٍ معْشَـابِ

* وقولها تصفُ بسالَتَه وشجاعتَه:

قد كَانَ حِصْناً شَديدَ الرّكْن مُمتنعاً   لَيْثاً إذا نَزَلَ الفِتْيانُ أو ركبُوا

* وتجدُ صورته كذلك في شعْرِها بأنَّه حليمٌ ، وأنَّه أبو الفَضْل ، وهو بدرٌ وشمسٌ و. . . و. . . . . و. . . . . .

أَغرّ أزْهَر مثلُ البدرِ صورتُه   صافٍ عتيقٌ فما في وجههِ نَدب

* ومن خصائصِ رثاءِ الخنساء أنّها أشركتِ الكونَ جميعَه في مأتمٍ جلَّلهُ الحُزْنُ ، وغلَّفَتْه اللوعةُ ، فجعلتْ قِمَم الجبالِ تتدحرجُ بداعي وفاةِ أخيها ، والنُّجومُ تهوي ، والأرضُ تهتزُّ ، ولنَسْتمعْ إليها تقول:

ضَاقَتْ بيَ الأَرضُ وانقضَّتْ محارِمُها   حتّى تخاشَعتِ الأعلامُ وَالبيْدُ

وقَائلينَ تعزّي عن تذكُّرهِ   فَالصّبرُ ليسَ لأمْرِ اللهِ مردودُ

* وتقولُ:

فإنْ تكُ مرّةٌ أوْدَتْ بهِ   فقد كان يُكْثِرُ تِقْتَالَها

فَخَرَّ الشَّوامِخُ مِنْ قَتْلهِ   وزُلْزلَتِ الأرضُ زِلْزَالَها

وزَالَ الكواكِبُ مِنْ فَقْدهِ   وجللت الشمسُ إجلالَها

* ويُضاف إلى خصائصِ رثاءِ الخنْساء استخدامها لِصِيَغِ المبالغَة ذاتِ الأثرِ المحسوسِ في نفسِ سامعِها من مثل قولها:

حمَّالُ ألويةٍ قطاعُ أوديةٍ   شهَّادُ أنديةٍ للوترِ طلّابا

و:

مأوىٰ الأرامل والأيتامِ إنْ سغبوا   شهّادُ أنجيةٍ مطعامُ ضيفان

و:

جَلْدٌ جميل المحيّا كاملٌ وَرعٌ   وللحروبِ غداةَ الرَّوعِ مسْعَار

* كما نجدُ في رثاءِ الخنساءِ لوناً من ألوانِ التّساؤلِ من مثلِ قولها:

سُقيا لقبركَ من قبرٍ ولا برحَتْ جـودُ الـرَّواعـدِ تسقيـهِ وتجتلـبُ
ماذا تضمَّنَ من جُودٍ ومن كَرمٍ ومـن خـلائـقَ مـا فيهـنَّ مقتضـبُ

* ونودُّ في نهايةِ هذه التّرجمة أنْ نشيرَ إلى أنَّ الخنساءَ لم تكن تقتصرُ في شِعْرِها على الرّثاء فحسبْ ، ولكنَّها تعدتْهُ إلى أغراض أخرى ، كالوصفِ والمديحِ والفخرِ والهجاءِ والحكمةِ ، وجاءت هذه الأغراضُ في ثنايا شِعْرها ، ومن الملفتِ للنّظر أنَّ بعضَهم زعمَ خُلو شعرها من الحكمةِ ، وهذا لا ينطبقُ على الخنساء ، فعندما نقرأُ قصائدها نجدُ الحكمةَ مبثوثةً فيها ، ومنها قولها:

فـأُقْسِـمُ لـو بقيـتَ لكنـتَ فينـا عـديـداً لا يكـاثـرُ بـالعَـديـدِ
ولكـنَّ الحـوادثَ طـارِقـاتٌ لهـا صـرفٌ علـى الـرّجُل الجليـدِ

* وقولها:

كلُّ ابنِ أنثى بريبِ الدَّهْرِ مرجومُ وكلُّ بيتٍ طويلِ السَّمك مَهْدومُ
لا سُـوقَـةٌ منهـم يبقـىٰ ولا مَلِـكٌ ممَّـنْ تُمَلِّكـهُ الأَحْـرارُ والـرُّومُ
إنَّ الحـوادِثَ لا يبقـىٰ لنـائِبهـا إلّا الإلـهُ وراسـي الأصـلِ معلـومُ

وقولها:

إنَّ الـزَّمـانَ ومـا يفنـىٰ لـه عَجَـبٌ أبقـىٰ لنـا ذنبـاً واستُؤْصـلَ الـرَّاسُ
أبقـىٰ لنـا كُـلَّ مجهـولٍ وفجَّعَنـا بـالحـالميـنَ فَهـمْ هَـامٌ وأرمَـاسُ
إنَّ الجديدَيْن في طولِ اختلافهما لا يَـفْسُـدان ولكـنْ يفسُـدُ النّـاسُ

* وقولها:

لابـدَّ مـنْ ميتـةٍ فـي صـرفهـا عِبَـرٌ والدَّهرُ في صرفهِ أحوالٌ وأَطْوارُ

* والأمثلةُ كثيرةٌ في شعرِ الخنساء عن وجودِ الحكمةِ ، وقد لاحظْنا ذلك من خلالِ ما قدّمناه من أشعارها.

* وأخيراً فالحياةُ مع الخنساءِ وأدبِها حياةٌ جميلةٌ منعِشَةٌ ، ولا بدّ لنا من وداعِها.

* أما وفاتُها فقد اختلفَ بتأريخهِ الباحثون ، فمنهم من قال: إنها توفيتْ سنة (٢٦ هـ) وبعضُهم قال: كانت وفاتُها في أوّلِ خلافةِ عثمان ، وبعضُهم قال: توفيت سنة (٢٤ هـ). بيدَ أننا لم نَعُدْ نسمعُ أخبارهَا بعد ذلك الخبرِ المزعومِ عن حضورِها معركةِ القادسيّة مع بَنِيْها الأربعة. ولكنّا نقول: ماتت الخنساءُ التي أبكتِ العيونَ وبكَتْ كثيراً ، ولكنّه لم يبكهَا أحدٌ ، ولا دمعَتْ عليها عينٌ ، ولا نطقَ برثائها أحدٌ ، ولكنّها ستظلُّ ملءَ الأسماع فرضي الله عنها.

* * *

سفّانة بنت حاتم

* صحابية نعمتْ بنعيم الإسلام ، وهي ابنةُ الجواد ، وأخت الأجواد ، وكانت السبب في إسلام أخيها عدي بن حاتم .
* كانت امرأة جزلة ، ذات وقار ، وعَقْل ، وذكاء ، وفصاحة ، ورأي صائب .

فـي عِـدَادِ الصَّحَابيَّـاتِ السَّخِـيَّـاتِ:

* انحدرتْ هذه المرأةُ من بيتٍ يفيضُ بالجودِ والكَرمِ والسَّخاءِ ، وإذا ذُكرَتْ بيوتاتُ الأجوادِ كانَ بيتُها في مقدَّمةِ هذه المحمدةِ العظيمةِ التي يحبُّها اللهُ ورسولُه.

* ومن حُسْنِ حظّ هذه الكريمة السَّخية أنَّها أضحَتْ واحدةً من نساءِ المشرقِ العربيّ ممن نلْنَ الصُّحبة النّبويّة ، ونعمنَ بنعيمِ الإسلامِ ، وفُزْنَ معَ الفائزاتِ ، وكُنَّ من خيرِ نساءِ القرونِ علىٰ الإطلاق ، بشهادةِ سيدِ الخَلْق على الإطلاق.

* ومن حسنِ حظّها أيضاً أنّها كانتْ سببَ إسلامِ أخيها الذي غدا سَعيداً بالإسلامِ ، وسيّداً بين الأنَام ، هذا العَلَمُ هو الأميرُ الشَّريفُ أبو وَهْب ، وأبو طريف عديُّ بنُ حاتم الطَّائي ـ رضي الله عنه ـ صاحبُ النّبيّ ﷺ ، المعروفُ المشهورُ بين أعلامِ الرّجال ، وُلدَ في العَصْر الجاهليّ قبلَ الهجرةِ النَّبوية بنحوٍ من خَمسين سنة ، وكان يُكْنَى أبا طَريف وأبا وَهْب ، وكان طويلاً جسيماً ، إذا ركبَ الفرسَ كادَتْ رجلاهُ تخطّان في الأرضِ[1]. وكان منَ الصَّحابة المعمَّرين الذين عاشُوا قرابةَ مئة وعشرين عاماً ، فقد توفيَ سنة (٦٧ هـ) عن (١٢٠ سنة) رضي الله عنه.

* أمّا أختُه التي كانت سبباً في إسلامِهِ فهي سفَّانَةُ بنتُ حاتم الطَّائية[2]؛ الصَّحابيةُ الكريمةُ ابنةُ الجوادِ ، أختُ الجواد.

---

(١) انظر: المعارف (ص ١١٣).

(٢) أسد الغابة (٦/ ١٤٣) ترجمة رقم (٦٩٨٨)؛ والإصَابة (١٢/ ٣٠٦) رقم (٥٤٣) ، ولسان العرب (١٣/ ٢١١)، وعيون الأثر (٢/ ٢٧٨ و٣١٩)، والدّرّ المنثور (ص ٢٤٤)، وأعلام النّساء (٢/ ١٩٦ و١٩٧)، وديوان حاتم (ص ٢٥ ـ ٢٨) ومواضع أخرى؛ وخزانة الأدب

* قال ابنُ عساكر: «أسلَمَتْ ، وحكَتْ عن النّبي ﷺ؛ حكى عنها أَخوها عديُّ بنُ حاتم ، وقد قدمتِ الشّامَ في طلبِ أخيها»[1].

مـنْ أَخْبَـارِ سَفَّانَـةَ وجُودِهَـا:

* إذا عرفنا أنَّ أباها حاتماً كان سيّدَ أجوادِ عَصْره ، عرفْنَا أيضاً أنَّ ابنتَه سفَّانة[2] من سيّدات نساء عَصْرِها في الجودِ والسَّخاءِ ، وقد ورثَتْ حصائِلَ هذه الخَصَائل عن أبيها حاتم ، وعن جدّتها لأبيها عنبةَ بنتِ عفيف[3] التي كانت أسخىٰ امرأةٍ في قومها.

* كانتْ سفّانَةُ قرّةَ عينِ أبيها الذي كان يكنىٰ بها فيُقال: أبو سفَّانَة ، كما يُقال: أبو عديّ[4]؛ ولعلَّ حاتماً قد عُرِفَ بهذه الكنيةِ اللطيفةِ أبي سفَّانة أكثر ممّا عُرِف بكنية أبي عدي.

* وتوردُ كتبُ الأخبارِ والأدبِ أنَّ ابنَ دارة[5] أتىٰ عديَّ بنَ حاتم

= (٣/ ١٢٢ و١٢٣)، والأغاني (١٧/ ٣٦٣ ـ ٣٦٦ ـ ٣٩٠) ، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النّساء ص ١٤٠ ـ ١٥٤) ونهاية الأرب (١٧/ ٣٥٢) و(١٨/ ٧٧) ، والمغازي للواقدي (٣/ ٩٨٤) ، وطبقات ابن سعد (٢/ ١٦٤) ، والسّيرة النبوية (٤/ ٢٤٧) ، وغيرها كثير جداً.

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ١٤٠).

(٢) «سفّانة»: بتشديد الفاء ، هي اللؤلؤة؛ أو أصل اللؤلؤة ، وبها سميت سفانة بنت حاتم بهذا الاسم ، وبها كان يكنى. (لسان العرب ١٣/ ٢١١) بتصرف.

(٣) اقرأ سيرةَ عنبة بنت عفيف في هذا الكتاب.

(٤) انظر: الأغاني (١٧/ ٣٦٣).

(٥) «ابنُ دارة»: هو سالمُ بنُ دارة ، واسم أبيه: مُسافع بنُ يربوع؛ وأمُّه: دارةُ من بني أسد ، وسمّيت دارةَ لجمالِها ، شُبّهت بدارةِ القمر.
قال الآمدي عن ابن دارة: «وهو وأخوهُ عبد الرحمن شاعِران مُحْسِنَان».
ـ وكان ابنُ دارة هجاءً ، وهو الذي هجَا ثابتَ بنَ رافع الفزاريّ فقتلَه ، وهو القائل:
لا تـأمنـنَّ فـزاريّـاً خلـوتَ بـهِ ... علـىٰ قلـوصِـكَ واكتبْهَـا بـأسْيَـار=

فمدحه ، وذكرَ في مديحهِ أبَاه وذكرَه بكنيتهِ المشهورِ فيها «أبو سفَّانة» فقال وقد أشارَ إلى قصّة جودِه وهو ميّت[1] تحتَ التُّراب :

= ـ وكان الذي قتله زُميل بنُ أبير بن عبد مناف بن عقيل الفزاريّ ، وهو مخضّرم ، وقال :

أنـــا زُمَيـــلٌ قـــاتـــلُ ابـــنِ داره ۝ وراحـــضُ المخـــزاةِ عَـــنْ فَـــزَاره

و«راحض» : غاسِل ، والرّحض : الغَسْل .

ـ وفي ابنِ دارة يقول الشاعر وهو الكميتُ بنُ معروف :

فـــلا تكثـــرا فيـــه الضَّجـــاج فـــإنّـــه ۝ محَا السّيف ما قالَ ابنُ دارة أجمعا

و«الضّجاج» : الضّجيج ، وهو الصّياح عند المكروه والمشقّة والجزع .

ـ ومن المفيد هنا أنْ نشيرَ إلى هذهِ الفائدة : الكمتُ الشُّعراء الأسديون ثلاثة : الكميتُ بن معروف شاعر ، وجدّه الكميتُ بن ثعلبة هذا الشّاعر ، والكميتُ بنُ زيد الأخير أكثرهم شعراً ، والكميتُ الأوسط أشعرهم قريحةً ، وكلّهم بنو أب . (الشّعر والشّعراء ١/ ٤٠٢) .

(١) تذكرُ طيىء أنَّ رجُلاً يُعْرفُ بأبي الخيبري ، مرَّ بقبرِ حاتِم في نَفَرٍ منْ قومهِ ، فنزلُوا به ، وباتَ يُناديه : يا أبا عديّ ، أكرمْ أضيافَك؛ ـ وذلك استهزاءً وسخريةً ـ ، ويقولُ : إنّ طيئاً تزعُمُ أنّه لم ينزلْ بهِ أحدُ إلاّ قراهُ وأطْعَمهُ .

ـ فلمّا كانَ آخر الليلِ نامَ أبو الخيبري ، فلمّا كان في السَّحَر ، وثبَ أبو الخيبري يصيحُ ويقول : واراحلتاه! . .

فقال له أصحابُه : ما شأنُك؟

فقال : خرجَ واللهِ حاتمٌ بالسَّيف حتى عَقَر ناقتي وأنا أنظرُ إليهِ؛ فنظروا إلى راحلته فإذا هي لا تنبعثُ ، فقالوا : قد واللهِ قَراك .

فنحروها ، وظلّوا يأكلونَ من لحمِها ، ثمّ أردفوهُ وانطلقوا ، فساروا ما شاءَ الله ، وبينما هم في مسيرهم ، طلعَ عليهم عديُّ بنُ حاتم ومعه جَمَلٌ أسودُ قد قَرَنَهُ ببعيره ، فقال : أيّكم أبو الخيبريّ؟

قالوا : هذا .

قال : إنَّ حاتماً جاءَني في المنام ، فذكرَ لي شَتْمك إيّاه ، وأنّه قراكَ وأصْحَابكَ راحلتَك ، وقال في ذلكَ أبياتاً ردّدها عليّ حتى حفظتُها وهي :

أبـــا خيبـــريّ وأنـــتَ امـــرؤٌ ۝ حسُـــودُ العشيـــرةِ شتّـــامهـــا

فمـــاذا أردتَ إلـــى رُمّـــةٍ ۝ بـــدَاويـــةٍ صخـــبٍ هَـــامهـــا=

أبوكَ أبو سفَّانَةَ الخيرِ لم يزلْ لَدُنْ شبَّ حتّى ماتَ في الخيرِ راغبا
به تُضْرَبُ الأمثالُ في النَّاس ميّتاً وكـان لـه إنْ كـان حيّـاً مُصـاحِبـا
قَرىٰ قَبْرُه الأَضْيافَ إذْ نزلُوا بهِ ولـمْ يَقْـرِ قبـرٌ قَبْلَـه قـطّ رَاكِبـا[1]

* وكانتْ سفّانَةُ من ربّاتِ الجودِ والكرمِ والسَّخاء ، وكانت من أجودِ نساءِ العربِ في عَصْرها ، ولدَتْ وولدَ معها نصيبٌ وافرٌ من الجودِ والكرمِ ، وكان أبوها حاتم يعطيها الصِّرمةَ بعد الصِّرمةِ من الإبلِ ، فتُنْهِبُها وتعطيها الناس ، حتى غدتْ مطمَع آمالِ النَّاس في العَطاء .

فقال لها أبوها حاتم : «يا بُنيّةُ ، إنَّ الكريمَيْنِ القرينَيْنِ إذا اجتمعَا في مالٍ أتلفَاه ، فإمّا أنْ أعطيَ وتمسِكي ، وإمّا أنْ أمسكَ وتُعطي ، فإنَّه لا يبقى على هذا شيء» . وقال حاتم يذكرُ ذلك :

خُبّـرتُ سَفَّـانَـةَ قَـالَـتْ أَسْـرِعِ وجَشّـمِ العيْـسَ وإنْ لـم تفْجـعِ
رمّـانَ مـنْ وَادي القُـرى لأَرْبَـعِ[2]

= تبغـي أذاهـا وإعسـارهـا وحـولـك غَـوْثٌ وأنعـامَهـا
وإنّـا لنُطعـمُ أضيـافَنـا مـن الكـوم بـالسَّيـف نعتـامهـا
ـ وقد أمرَ بي أنْ أحملكَ على بعيرٍ ، فخذْهُ ، فأخذَه ، وركَبَ ، وذهبَ .
(الشّعر والشّعراء ١/ ٢٤٩) و(خزانة الأدب ٣/ ١٢٣) مع الجمع والتصرف .
ـ وقد أوردتُ القصَّة هنا للطّرفةِ ونزهةِ النَّفس ، وإلاّ فهذهِ قصّة مختلقةٌ لا يصدّقها مَنْ له أدنى عَقْل ، وربّما رواها أحدُ أقرباءِ حاتم ، ونسبُوا ذلك إليه ، وإلى ابنهِ عدي؛ من بابِ الانتصار لجودِه وكرمهِ؛ والله أعلم بحقيقة الصواب .

(١) ديوان حاتم (ص ١٧٨) ، وخزانةُ الأدب (٣/ ١٢٣) طبعة بيروت؛ ومدحَ ابنُ دارةَ عديّاً فقال :
أبـوكَ جـوادٌ مـا يُشـقُّ غبـارُهُ وأنـتَ جـوادٌ مـا تعـذَّر بـالعِلـلْ
(الشعر والشعراء ١/ ٤٠٣) .

(٢) انظر : الأغاني (١٧٠/ ٣٦٦) ، وديوان حاتم (ص ١٧٨ ـ ١٧٩) ، وأعلام النساء (٢/ ١٩٦) والأخبار الموفقيات (ص ٤٣٥) مع الجمع والتصرف اليسير . و«رمان» : =

* وفي روايةٍ أنَّ حاتماً قال لسفَّانة: «إمّا أنْ أعطيَ وتُمسِكي، وإما أنْ أمسكَ وتعطي، فإنَّه لا يبقىٰ على هذا شيءٌ».

فقالت: «واللهِ لا أمْسِكُ أبداً».

وقال أبوها: «وأنا واللهِ لا أمْسِكُ أبداً».

قالت: «فلا نتجاور».

فقاسَمها مالَه وتَبَايَنَا[1].

سَفَّانَةُ وَالإسْلاَم:

* كانت أنفاسُ المدينةِ المنوّرة تسبِّحُ، ويخفقُ فؤادُها لربِّ العالَمين، فقلوبُ المؤمنين قد استنارت بأنوارِ اليقين، واطمأنَّتْ نفوسُهم باللهِ عزَّ وجلَّ، وشرحَ صدورهم للإسلام، فَهُمْ على نورٍ من ربّهم، وممن شرحَ اللهُ صدره للإسلام: سفّانَةُ بنتُ حاتم الطَّائية، ثم أخوها عديُّ بنُ حاتم.

* ففي السَّنَةِ التَّاسعةِ من الهجرةِ النّبويةِ، كانت سَريّةُ طيىءٍ، وذلك في ربيعِ الأوّل من هذا العَام؛ إذ أرسلَ النَّبيُّ ﷺ عليَّ بنَ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في خمسين فارساً لهدم «الفلْسِ» ـ صنم لطيّىء ـ، فسارَ إليهِ وهدَّمَه وأحرقَه، ولمّا حار به عبّاده قاتلَهم وهزمَهم واستاقَ نَعَمَهم وشاءَهم، وسبىٰ منهم سبَايا، منهنَّ سفّانةُ بنتُ حاتم.

* ولما رجعَ إلى المدينةِ المنوّرةِ جُعِلَتْ سفّانةُ بنتُ حاتم في حجرةٍ عند

= جبل في بلاد طيىء غربي جبل سلمى وإليه انتهى فل أهل الردة يوم بزاخة (معجم البلدان: مادة: رمّان). و«وادي القرى»: واد بين الشام والمدينة، وهو بين تيماء وخيبر، وفيه قرى كثيرة، وبها سمي.

(١) أعلام النساء (٢/ ١٩٦).

بابِ المسجدِ النّبوي ، كانتِ السّبايا يقمنَ فيها ، فلما مرَّ بها رسولُ اللهِ ﷺ قامتْ سفَّانة إليهِ فقالت: «يا رسولَ الله: هلكَ الوالدُ ، وغابَ الوافدُ ، فامنُنْ عليّ من الله عليك».

فقالَ لها النّبيّ ﷺ: «ومَنْ وافدُكِ»؟

قالت: عديُّ بنُ حاتم.

قال: «الفَارّ منَ اللهِ ورسوله»؟ ثمّ مضىٰ وتركَها.

فكرَّرَتْ هذا منَ الغَدِ ، وبعد الغَدِ ، فمَنَّ عليها وقالَ: «لا تعجلي بخروجٍ حتى تجدي مِنْ قومك مَنْ يكونُ لكِ ثقةٌ حتى يبلّغكِ إلى بلادِك ، ثم آذنيني».

* فلمّا أعلمَتْه بأنّها وجدت رفقةً ثقاتٍ ، كسَاها وحملَها وأعطاها نفقةً ، فشكرتِ النّبيّ ﷺ علىٰ هذا الجميلِ ، وكان مما قالت: «شَكَرَتْكَ يدٌ افتقرتْ بعد غِنىً ، ولا ملكتْكَ يدٌ استغْنَتْ بعد فَقْر ، وأصابَ اللهُ بمعروفكَ مواضَعه ، ولا جعلَ لك إلى لئيمٍ حاجة(١) ، ولا سَلَبَ نعمةَ كريمٍ إلا وجعلكَ سبباً لردّها عليه».

* ثمّ ارتحلتْ حتى قدمَتْ على أخيها عديّ بالشّام ، لأنَّه لما سمعَ بِخَيْلِ رسولِ الله ﷺ ، احتملَ بأهلِهِ وولدِهِ وتركَها وفرَّ إلىٰ الشّام ، فلمّا وصلَتْ إليهِ وبختْهُ على صنيعِهِ ، فلم يجد ما يعتذرُ بهِ ، ثمّ أخبرتْه بما لقيتْ

(١) من أصعبِ وأمرِّ الحاجاتِ والأشياءِ في هذه الدّنيا حاجةُ السَّمْح الكريمِ إلى اللئيمِ، لأنَّ نقلَ الجبالِ أهونُ منَ الحاجةِ إليه، خصوصاً إذا كانتْ في الشّخص بذورُ اللؤم، ومن ثمّ اغتنى، أو تسلّم مركزاً ما، وهناك تفوحُ رائحةُ اللؤم منه ، وتظهرُ خَسَاسةُ أصلهِ. واللؤمُ وحده قبيحٌ ، فكيفَ إذا اقترنَ به البخلُ وسوءُ الظّنِّ بالنّاسِ؟! ولله درُّ القائلِ:

إذا امتلأَتْ أيدي اللئيمِ منَ الغنىٰ ... تنفَّسَ كالمرحاضِ فاحَ وأنْتَنَا
وأمّا كريمُ الأصلِ كالغُصنِ كلّما ... تحمّلَ منْ خيرٍ تواضعَ وانحنى=

من رسولِ اللهِ ﷺ من كرمٍ وحُسْنِ معاملة ، وقالت له : «أرىٰ أنْ تلحقَ به سَريعاً ، فإنْ يكن نبيّاً فللسّابق إليه فَضْلة ، وإنْ يكن مَلِكاً فلن تذلّ في عزّ اليمنِ وأنتَ أنتَ». فقال: «هذا هو واللهِ الرّأيُ»؛ فما كانَ منه إلاّ أنْ أخذ برأيها ، وقدمَ على رسولِ الله ﷺ[1] .

* ويروي ابنُ عسَاكر ـ رحمه الله ـ قصّة إسلامِ سفّانة بقصّةٍ مشَابهةٍ لِمَا أسْلفْنَا فيقول ما مفادُه: «وكان في السَّبي أختُ عديّ بنِ حاتم الطّائية ، لم تُقْسَمْ ، فأُنْزِلَتْ دارَ رملةَ بنتِ الحارث ، وكان أخوها عديُّ بنُ حاتم قد هربَ حين سمعَ بحركةِ عليٍّ بنِ أبي طالب ـ عليه رضوان الله ـ ، وكان له عينٌ بالمدينةِ المنوّرة ، فحذَّرهُ وخوَّفَه ، فخرجَ عديُّ إلىٰ الشَّام ، وكانت أختُ عديّ إذا مرّ النّبيّ ﷺ تقولُ: يا رسولَ اللهِ! هلَكَ الوالدُ ، وغابَ الوافدُ ، فامنُنْ علينا مَنَّ اللهُ عليك! كلُّ ذلك يسألُها رسول الله ﷺ: «مَنْ وافدكِ»؟ فتقول: عديّ بنُ حاتم ، فيقولُ ﷺ: «الفَارّ من اللهِ ورسوله»؟ حتّى يئسَتْ.

* فلما كان اليومُ الرّابعُ مرَّ النّبيّ ﷺ فلم تتكلّمْ سفّانة ، فأشارَ إليها رجلٌ: قُومي إليهِ فكلّميهِ ، فقامَتْ فكلّمته ، فأَذنَ لها ووصَلَها ، وسألَتْ عنِ الرَّجلِ الذي أشارَ إليها؟ فقيل لها: هو عليُّ بنُ أبي طالب ، وهو الذي سبَاكم وهدَّمَ صنَمكم ، أمَا تعرفينَه؟!

فقالت: لا واللهِ ، ما زلتُ مُدْنيةً طرفَ ثوبي علىٰ وجْهي ، وطرفَ ردائي على بُرْقعي من يوم أُسرتُ حتى دخلتُ هذه الدَّار ، ولا رأيتُ وجْهَه ، ولا وجْهَ أحدٍ منْ أصحابهِ . . »[2].

---

(١) انظر: أعلام النساء (٢/١٩٦ـ١٩٧) ، وأسد الغابة (٦/١٤٣) مع الجمع والتصرف.

(٢) انظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٠/ ٢٥٥) بتصرف يسير.

* وفي حديثٍ آخر بمعناه يذكرُ ابنُ عسَاكر قصَّة إسلام سفَّانة ، وقصَّة إسلام عديّ فيقول ما مفادُه: «إنَّ سفانةَ كلَّمَتِ النَّبيَّ ﷺ وقالَتْ: فامننْ عليَّ مَنَّ اللهُ عليك! قال ﷺ: «قد فعلتُ! لا تعجلي بخروجٍ حتى تجدي منْ قومكِ مَنْ يكونُ لك ثقة يبلِّغك إلى بلادِكِ ، ثمّ آذنيني».

قالت سفّانة: وأقمتُ حتى قدمَ قومٌ من بليٍّ أو قُضَاعة وأنا أريدُ أنْ آتي الشَّام ، فجئتُ رسولَ اللهِ ﷺ فقلتُ: يا رسولَ اللهِ! قَدِمَ رجالٌ من قومي لي فيهم ثقةٌ وبلاغٌ؛ فكَسَاني رسولُ الله ﷺ ، وحَملَني وأعْطَاني نفقةً ، فخرجتُ معهم حتّى قدمتُ الشَّامَ. قال أبو عامر: وكانتْ قد أسلَمَتْ وحَسُنَ إسلامُها»(١).

* ويتابعُ ابنُ عساكر الحديثَ ويذكر إسلامَ عديّ وقدومَه على النَّبيّ ﷺ ، فيروي عن عديّ ما مُفَاده: «قال عديٌّ: وإنّي لقاعدٌ في أهْلي ، إذ نظرتُ إلى ظعينةٍ تؤمُّنا ، فقلتُ: ابنة حاتم؟! فإذا هي هيه! فلمّا وقفتْ عليَّ انْسَحَلَتْ ـ أي: أخذَتْ بالكَلام ـ: القَاطعُ الظَّالمُ ، ارتحلتَ بأهلكَ وولدكَ ، وتركتَ بقيَّـةَ والدِكَ؛ أخْتَكَ وعورتَكَ؟!

قلتُ: يا أُخيَّة! لا تقُولي إلاّ خيراً ، فواللهِ ما لي من عُذْرٍ ، ولقد صنعتُ ما ذكرتِ!!

* ثم نزلَتْ ، فأقامَتْ عندي ، فقلتُ لها: ـ وكانتِ امرأةً حازمةً ـ: ما تَريْنَ في أمرِ هذا الرّجل؟ ـ أي النّبي ﷺ ـ قالت: أرى أنْ تلحقَ به سريعاً ، فإنْ يكنْ نبيّاً فللسَّابقِ إليه فَضْلة ، وإن يكُنْ مَلِكاً فلَنْ تذلّ في عزّ اليمنِ وأنتَ أنتَ ، قلتُ: واللهِ إنَّ هذا الرّأي.

---

(١) المصدر السَّابق نفسه.

* فخرجتُ حتى أقدمَ علىٰ رسولِ الله ﷺ المدينةَ ، فدخلتُ عليه وهو في مسجدِه ، فسلّمتُ عليه ، فقال: «مَنِ الرَّجُل»؟

قلتُ: عديُّ بنُ حاتم.

* فرحَّبَ به النَّبيُّ ﷺ وقرَّبَه، وكانَ يتألّف شريفَ القومِ ليتألَّفَ به قومه.

* فقامَ رسولُ اللهِ ﷺ، فانطلقَ به إلى بيتِهِ ، قال عديُّ: فلقَيْتهُ امرأةٌ كبيرةٌ ضعيفةٌ فاستوقَفتْهُ ، فوقفَ لها طويلاً تُكَلّمُه في حَاجَتِها. قلتُ في نفسي: ما هذا بمَلكٍ! ثمَّ مضى حتى إذا دخلَ بيته تناولَ وسادةً من أدمٍ محشوّةٍ ليفاً ، فقدَّمَها إليَّ ، فقالَ: «اجلسْ على هذه» قلتُ: بل أنتَ فاجْلِس.

قال: «بل أنتَ فاجلسْ عليها».

فجلستُ عليها ، وجلسَ رسولُ الأرضَ ﷺ بالأرضِ ، قلتُ في نفسي: ما هذا بأمْرِ مَلِك!! فدخلَ الإسلامُ في قلبي ، وأحببْتُ رسولَ الله ﷺ حبّاً لم أحبِبْهُ شيئاً قطّ.

* ثمَّ أقبلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ فقال: «هيه يا عديّ بن حاتم! أفررتَ أنْ توحِّدَ الله؟ وهل منْ أحدٍ غير الله؟ هيه يا عديّ بن حاتم! أفررتَ أنْ تكبّر الله ، ومَنْ أكبرُ مِنَ الله؟ هيه يا عديّ بن حاتم! أفررتَ أنْ تعظّم الله؟! ومَنْ أعظمُ منَ اللهِ؟! هيه يا عديّ بن حاتم ، أفررتَ أنْ تشهدَ أنْ لا إله إلا الله؟ وهل منْ إلهٍ غير الله؟ هيه يا عديّ بن حاتم ، أفررتَ أنْ تشهدَ أنَّ محمّداً رسولُ الله»؟ قال عديّ: فجعلَ رسولُ اللهِ ﷺ يقولُ نحو هذا ، وأنا أبكي. . . . ثمّ أسلمتُ»[1].

* ويروي ابنُ عسَاكر عن عليّ بنِ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قصّة

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٠/ ٢٥٥ـ٢٥٦) بتصرف يسير.

إسلام سفّانة وخلاصَها منَ الأسر ، فيذكر أنَّ سفّانة قالَتْ للنّبي ﷺ: يا محمّد ، إنْ رأيتَ أنْ تخلّي عنّي فلا تشمّتْ بي أحياء العرب! فإنّي ابنةُ سيّد قومي ، وإنَّ أبي كان يفكُّ العاني ، ويحمي الذّمار ، ويُقْري الضَّيف ، ويشبعُ الجائع ، ويفرّجُ عنِ المكروبِ ، ويفشي السَّلام ، ويطعمُ الطَّعام ، ولم يردَّ طالبَ حاجةٍ قطّ ، أنا ابنةُ حاتم الطَّائي.

قال النّبيّ ﷺ: «يا جاريةُ ، هذه صفةُ المؤمنِ حقّاً ، لو كانَ أبوكِ إسلاميّاً لترحمْنَا عليه ، خلُّوا عنها ، فإنَّ أباها كان يحبُّ مكارمَ الأخلاقِ ، والله يحبُّ مكارمَ الأخلاق»[1].

* وبهذا التّصرّفِ الحكيمِ غدت سفَّانةُ واحدةً من كواكبِ نساءِ الإسلام ، فأسلمتْ وآمنتْ وصدَّقت وبايعَتْ ، وهكذا غدتْ سفّانة بفضلِ الله منْ عداد الصَّحابيات الميمونات. قال ابنُ الأثير: «وكانتْ أسلمتْ فحسُنَ إسلامُها»[2].

* وكانت سفّانة كذلك سبباً لنجاةِ قومها منَ الأسرِ من أيدي المسلمين أمامَ رسولِ الله ﷺ ، حيث كانت فصيحةً جزلةً ، وقد وصفَها أخوها عديّ بقوله: «كانت امرأة حازمة»[3].

* كما جاء في وصفِ بلاغتها وعقلها قولهم: «وكانت امرأةً جزلةً ، ذاتَ وقارٍ وعَقْل»[4].

سَفَّانَةُ وَابن حَاتمُ:

* أصحابُ النّبيّ ﷺ نجومٌ زَوَاهِرُ ، وسيرهم بركةُ المجالِسِ ، ونورُ

---

(١) مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٠/ ٢٥٧).
(٢) أسد الغابة (٦/ ١٤٣) ترجمة رقم (٦٩٨٨).
(٣) السيرة النبوية (٢/ ٥٨٠).
(٤) الرسالة المحمدية (ص ٥٣٨).

القلوبِ ، وجلاءُ النُّفوس ، ومَنْ منّا لا يحبُّ الحديثَ عنهم وقراءة سِيَرهم؟!

* لذلك أحببتُ أنْ نستظلَّ بأفياءِ سيرةِ سفَّانة وعدي بن حاتم - رضي الله عنهما - شِعراً ونثراً ، ليكتملَ أُنْسُنَا ، ويحلوَ سَمُرنا ، ويحْسُنَ كتابُنَا.

* فقد كانَ عدي زعيماً في قومهِ ، سيّداً مُطاعاً ، وكان يدينُ بالمسيحيّةِ؛ وعندما جاءَ الإسلامُ كان له موقفٌ مثيرٌ ، ترىٰ ما هذا الموقف؟!

* عديٌّ نفسه يروي لنا ذلك فيقول: «ما منْ رجلٍ منَ العربِ كان أشدّ كراهيةً لرسولِ الله ﷺ حين سمعَ به منّي ؛ أمّا أنا فكنتُ امرأً شَريفاً ، وكنتُ نصرانياً ، وكنتُ أسيرُ في قومي بالمِرْبَاعِ ، وكنتُ في نفسي على دِيْنٍ ، وكنتُ ملكاً في قومي لما كان يُصنعُ بي.

* فلما سمعتُ برسولِ الله ﷺ كرهْتُهُ ، فقلتُ لغلام كان لي عربيّ؛ وكان راعياً لإبلي: لا أبا لكَ ، اعددْ لي من إبلي أجْمالاً ذُللاً سِماناً ، فاحبسْها قريباً منّي ، فإذا سمعَت بجيشٍ لمحمدٍ قد وطىءَ هذه البلاد ، فآذنّي ، ففعل.

* ثم إنّه أتاني ذات غداةٍ فقال: يا عديّ ، ما كنتَ صانعاً إذا غشيتْكَ خيلُ محمّد الآن ، فإنّي قد رأيتُ راياتٍ ، فسألتُ عنها فقالوا: هذه جيوشُ محمّد. فقلت: فقرِّب إلي أجْمَالي ، فقرَّبَها.

* لقد هيّأت نفسي لمغادرةِ بلادي وموطني ، فِراراً من مواجهةِ المسلمين الذين هم جيشُ محمّد. . . . . فلمّا جاءني الخبرُ بأنَّ خيلَ محمّدٍ وطئتْ أرضَنَا ، وأعلامَهُ تلوحُ في مقدمةِ الغزاةِ ، حملتُ أهلي وولدي ثم قلتُ: أَلْحقُ بأهلِ دِيني من النَّصارى بالشَّام ، فسلكتُ طريقاً مجهولاً

لا يعرفُه إلا القليلُ منَ النَّاس ، يوصلُ بين نَجْدٍ والشَّام ، وخلّفْتُ بنتاً لحاتم في الحاضرِ هي أختي سفَّانة ، فلما قدمت الشَّام ، أقمتُ بها.

* وتخالِفُني خيلُ رسولِ الله ﷺ ، فتصيبُ ابنة حاتم أختي فيمَنْ أصابَتْ ، وقَدِمَ بها على رسولِ الله ﷺ في سبايا طيّيء... وقد بلغَ رسولَ الله ﷺ خبرُ هَربي إلىٰ الشَّام»[1].

* والآن سنسمعُ هذه التَّغريدةَ الجميلةَ عمّا قالَه عديّ بن حاتم ، ثم نستكملُ معه بقيّة القصَّة :

كَانَ ابنُ حَاتِم سَيّداً في طَيِّىءٍ للسَّائلين
يروِي يَقُولُ فإنّنا كُنّا بِعَيْشٍ راغِدين
قدْ كُنتُ في قَوْمي شَريفاً صاحبَ القَوْلِ المبين
دِيْن المَسيح بهِ أدينُ ولستُ أرضىٰ عنه دِيْن
قدْ كُنْتُ ذا مالٍ وَصِيْتٍ بينَ قَومي أَجْمَعين
ومُحمّدٌ وصَلَتْ لنَا أخبارُهُ في الوافِدين
مذْ أنْ سمعْتُ به كَرِهْتُ لِقَاءَهَ هذا يَقين
لمّا عَلمْتُ بأنّه يغْزُو جَميعَ المُعرِضين
هيّأْتُ نَفْسي للفرارِ فلا أُلاقي المُسلمين
لمّا سمعتُ بِخَيْلهِ جاؤُوا إلينا قَادمين
فأَخَذْتُ أَهْلي ثمّ إبْلي وانْطَلَقْنَا هَاربين
وتركْتُ خَلْفِي بنتَ حَاتم منْ نسائي الأَقْربين
ففَرَرْتُ نحوَ الشَّامِ موطِن للنّصَارى الأكْثَرين
الخيلُ جَاسُوا في مَحلَّتِنا رِجَالاً حازمين

---

(١) انظر : تغريدة السيرة النبوية (٤/ ٢١٥) بتصرف يسير.

أخـذُوا لأُخْتـي مَـعْ نسـاءٍ أُخْـريـاتٍ آسِـريـن
عـادُوا إلـى خَيْـرِ البـريّـةِ بـالسَّبـايـا غـانِميـن

* وما زالَ الحديثُ موصولاً مع عديّ الذي يحدّثنا عن إسلامِه ، وعن قصّةِ أختهِ سفّانة التي غادَرها في أرضهِ فجاءت خيلُ المسلمين بقيادةِ البطلِ الفارسِ العالِم العَيْلَم عليّ بنِ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ثم سِيْقَتْ أسيرة وحُبِسَتْ بالمدينةِ ، وكانت عاقلةً ذكيةً فصيحةً ذات رأي صائب ، فخاطبتِ النّبيَّ ﷺ بكلامٍ بليغٍ ، فأكرمَها وكسَاها وحملَها على دابّةٍ ، وأعْطَاها نفقةً ، فقدمت الشّام وعاتَبَتْ عديّاً على تركهِ إيّاها ، فاعتذرَ بكلامٍ لطيفٍ ، ثمَّ أشارت عليه أنْ يسارعُ إلى الإيمانِ باللهِ ورسوله ، وأن يلحقَ المدينةَ ليظفرَ بالخيرِ ، ولا يكونَن منَ الجاهلين ، والآن ما رأيك عزيزي القارىء نتابعُ القصّة شِعراً؟ حَسَناً ، فهذه الأبياتُ الجميلةُ تصوّر وقائع أَسْرِ سفّانة وحوارها مع النّبيّ ﷺ ، ثم ذهابها إلى الشّام:

وضَعُوا السَّبايا عند مَسْجدِ خيرِ كُلّ المُرسَلين
فيهِـنَّ ابْنَـةُ حَـاتـمٍ تَـتَـرقَّـبُ الهَـادي الأميـن
لمّـا رأتْـهُ تحـدَّثَـتْ معـه حـديـثَ الآمليـن
ورَجَتْـهُ أنْ يَمْنُـنْ عليْهـا مِثْـلَ مَـنِّ القَـادِريـن
قالتْ أبونا ماتَ كانَ منَ الرِّجالِ المُحسنين
قدْ فرَّ وَافِدُنا وكانَ يَخَافُ بطْشَ المُسلمين
قـال النَّبـيُّ فَمَـنْ يكُـونُ وعنْـه قـد تتحـدَّثيْـن
قالَتْ له ذاكَ ابنُ حاتم قالَ رأسُ الهَاربين
فـازَتْ بعفـوِ المصطفـىٰ وعطـائِـهِ كـالـوَافـديْـن
قـدْ أُرسِلَـتْ للشَّـام مـع وفْـدٍ غـدوا كمـرافقيْـن
لا زَالَ رَاوِيْنـا عَـديٌّ رَاويـاً لِلسَّـامِعيـن

مـنْ قـولـهِ إنّـي لَقَـاعِـدُ بيـنَ أهْلـي أجْمَعيـن
وإذا الظَّعيْنَـةُ أقْبلَـت كـانُـوا لِبَيْتـي عَـامِـديـن
وإذا بِهَـا أُختـي أتَـتْ بـالعَفـو فـازَتْ عـن يَقيْـن
فسـألْتُهـا مـاذا يكـونُ محمّـد كـي أسْتَبيـن
قالَتْ بهِ فَالْحَقْ تكنْ بينَ الرِّجالِ المُكْرمين
هو خيرُ خَلْقِ الله طرّاً لا تكنْ في الجَاهِلين

* واستجابَ عديٌّ للنَّصيحةِ ، وغادرَ أرضَ الشَّام ، وتوجَّه تلقاءَ المدينةِ ، ودخلَ علىٰ النَّبيِّ ﷺ في مسجدِه ، وعرَّفَه بنفسِهِ ، فانطلقَ به إلىٰ بيتهِ وأكرمَه ، وجرّتْ بعضُ الأحداثِ وعرضَ عليه الإسلام ، وأبَانَ له أنَّ دينَه باطلٌ قائِلاً «أَلَمْ تَكُ ركوسيّاً؟» أو: «أنا أعلمُ بدينكَ منْكَ! ألستَ ركوسيّاً ، وأنتَ تأكلُ مرباعَ قومك»[1]؟ ثم أخبرهُ ﷺ بأنَّ الإسلام هو دينُ الحقّ والرّشَادِ ، فاستجابَ عديٌّ للإسلام ، وفازَ مع الفائزين ، وأضحىٰ من سِلْكِ دُررِ الصَّحابة الكرامِ رضي الله عنهم أجمعين ، والآن لِنَقْرأ هذه التَّغريدةَ الجميلةَ التي تفصحُ عمّا أوردْناه:

أمَّا ابنُ حَاتم فاسْتَجابَ إلىٰ النَّصيحةِ في رِضَاء
فـوْراً تـوجَّـه للمـدينـةِ أرضِ خيـرِ الأنبيـاء
يـروي عـديٌّ قـالَ جئـتُ إلـىٰ المـدينـةِ للّقـاء
فدخلْتُ مَسْجِدَ خَيْرِ خَلْقِ اللهِ طُراً في حَياء
قـالَ النّبـيُّ فَمـنْ تكـونُ ففيـكَ سِيْمَـا الغُـربـاء
فأَجبتُه أنا ابن حَاتم جئتُ منْ أجلِ الوَلاَء
قـال النَّبـيُّ فمـرحَبـاً بـكَ جئـتَ أهـلاً لا مِـراء

---

(١) «ركوسياً»: الركوسية: دين بين النصارى والصابئة. و«المرباع»: ربع الغنيمة.

مِـنْ بَعْـدِ ذلـكَ قـادَنـي للبيـتِ دُونَ الجُلَسَـاء
فـي الـدَّربِ لاقَتْـه عجـوزٌ أوقفَتْـه علـىٰ انتحـاء
أيْقَنـتُ ليـسَ محمـدٌ مَلكـاً وليـسَ لـه هَـوَاء
لـو كَـانَ مَلكـاً مـا أجـابَ إلـى نـداءِ الضُّعفـاء
فـي البيـتِ حـدَّثَنـي بكـلِّ حقيقتـي دونَ التِـواء
فعـرفـتُ أنَّ محمّـداً فيـه النّبـوّةُ والصَّفَـاء
قـد قـالَ أسْلِـمْ يـا عـديُّ فـإنَّـه ديـنُ الـوَفَـاء
تـاللهِ سـوفَ تـراهُ يعلـو كـلَّ أديـان السَّمـاء
أسْلَمتُ للمولىٰ وصِرْتُ إلىٰ الرَّسُولِ كأَصْدقاء(١)

* وأمّا أحمدُ محرّم ـ رحمه الله ـ فقد سجَّلَ في «ديوانِ مَجْدِ الإسلام» خواطِرَهُ وهمساتِهِ عن عديٍّ وسفَّانَة بقصيدةٍ ميميةٍ جميلةٍ ، تحدَّثَ من خلالِها عن قصَّة سفَّانَة بنتِ حاتم وأخيها عدي ، وكيفَ هداهُما اللهُ إلىٰ الإيمانِ ، فقال:

إلى اللهِ فارغبْ يا عديُّ بنُ حاتمٍ ... وَدَعْ دِيْنَ مَنْ يبغي العمى غيرَ نَادمِ
إلى اللهِ فارغَبْ واتَّبعْ دينَه الذي ... يدينُ به المبعوثُ مِنْ آلِ هاشم
خرجتَ حَذَارَ القَتْلِ من آل طيّيءٍ ... وما أنتَ من بلوىٰ القَتيلِ بسَالمِ
كَفَى النَّفسَ قَتْلاً أنْ تضلَّ حياتُها ... وتذهبَ حيرىٰ في مدبِّ الأَراقمِ
أما ضِقْتَ ذرعاً إذْ علمتَ من العمىٰ ... مكانَكَ أمْ أنتَ امرؤٌ غيرُ عَالمِ
عَديُّ استمعْ أنباءَ أختِكَ واستَعِنْ ... بـرأيٍ يُجلِّـي ظلمـةَ الشَّـكّ حـازمِ
صَفَا قلبُه فاختارَها خطّةَ هدىً ... تجنَّـبُ مَـنْ يختـارُهَـا كـلّ لائـمِ
وسـارتْ مطـايـاهُ تـؤُمُّ محمّـداً ... وضَاءَ الحَوايا والخُطَى والمنَاسمِ

(١) تغريدة السيرة النبوية (٤/ ٢١٨).

فــأنــزلَــهُ فــي دارِهِ وأحلَّــه   محــلاًّ تمنَّــى مثلَــهُ كــلّ قــادمِ
وقــالَ لــه إنّــي لأعْلَــمُ بــالــذي   تــدينُ بـه فَـاشْهَـدْ تكُـنْ غيـرَ آثـمِ
أَلَـم تـأخـذِ المِـرْبـاعَ وهـو محـرَّمٌ   كدأبِ الألى سنُّوهُ من كُلّ ظالمِ
فقـالَ بلـىٰ إنّـي إلـى اللهِ تـائـبٌ   وإنّـي رأيـتُ الحـقَّ ضـربـةَ لازمِ
لأنْـتَ رسـولُ اللهِ مـا فيـك مِـرْيَـةٌ   لمن يَمتري والحقُّ بادي المعالمِ
تداركتُ بالإسلامِ نفْسي فأصبَحتْ   بعــافيــةٍ مــن دائِهــا المُتفــاقِـمِ
هو العِصْمةُ الكبرىٰ إذا لم تَفُزْ بها   نفوسُ البرايا خانَها كلُّ عاصمِ
تـأمَّـلْ عـديُّ مـا يقـولُ محمـدٌ   ونبّهْ مـنَ القـومِ العِـدَا كـلّ نـائـمِ
سيبسطُ دينُ الله في الأرضِ ظلَّهُ   ويحكُـم مـن سـادتِهـا كُـلّ حـاكـمِ
وسوفَ يفيضُ المالُ في كلّ موطنٍ   وأرضٍ فمـا مـن آخـذٍ أو مُـزاحـمِ
وتخرجُ ذاتُ الخِدر ما إنْ تروعها   إســاءةُ جــانٍ أو مضــرةُ جــارِمِ
فتُقبلُ منْ بُصرىٰ إلى البيتِ مَالَها   على الضَّعف والٍ منْ حُماة المحارِمِ
هـو اللهُ فـاعـرفْ يـا عـديُّ سبيلَـه   ودَعْ خَطَراتِ الوهم من كلِّ واهمِ(١)

* وبهذا ظهرتْ فضيلةُ سفَّانة ، وعزَّتْ بالإسلامِ بل صارتِ «النَّساء شقائق الرّجال» كما قالَ النّبي الكريم ﷺ؛ وأصبحتْ نساءُ الصَّحابة نُجوماً زواهِرَ في سماءِ الإسلام ، وكانت سفَّانَةُ من هؤلاءِ الكريماتِ الطَّاهرات ، رضي الله عنها وعنهنّ جميعاً .

* * *

(١) ديوان مجد الإسلام (ص ٤٥١ ـ ٤٥٣) .

الفارعة بنت أبي الصّلت

* أخت الشاعر أمية بن أبي الصلت ، كانت ذات لُبٍّ ، وعقل ، وعَفاف ، وجَمال .

* صحابية مُحدِّثة ، صادقة في الرواية ، أَخَذَ عنها كثير من التابعين .

المَرْأَةُ العَاقِلَةُ:

* الفارعةُ بنتُ أبي الصَّلْت الثَّقفيّة[1] ، أختُ أميَّة بنِ أبي الصَّلْت الشَّاعر المشْهُور، هي التي نحفَلُ بسيرتها بينَ نساءِ المشرقِ العربيّ من عَصْر المُخضرمين ، ذلك العصرُ الذي سطعَ فيه نجمُ كثيراتٍ ، وتألَّقَتْ كواكبُ منهنَّ في ذلك العَصْرِ الجميلِ المشرقِ بأنوارِ الإسلام علىٰ الدُّنيا جميعها .

* كانت ضيفتُنا الفارعةُ منَ النِّساء اللواتي اشتهِرْن بالجمالِ والعقلِ ، قال ابنُ عبد البرّ عنها: «وكانت ذاتَ لُبٍّ وعفَافٍ وجَمال»[2] ، بينما قال ابنُ الأثير عنها: «وكانت ذاتَ لُبٍّ وعقْلٍ وجَمال»[3] .

* ومن الأخبارِ التي وصلَتْ إلينا عن الفارعةِ أنَّها نشأَتْ في بيتٍ من سَراةِ البيوتِ الثّقفيّة ، وكان بيتُها بيتاً يجمعُ العزّ والشَّرفَ والسِّيادة ، ويرفدُ هذه الخصائلِ أنَّه بيتٌ يمتازُ بالأدبِ والشَّاعرية ، فقد كان أبوها «أبو الصَّلت» ـ واسمُه عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف الثّقفي ـ سيّداً في قومه ، وأمّا والدتُها ووالدةُ أخيها أميّة فهي رقيّةُ بنتُ عبد شمس بن مناف ، وهي سيّدةٌ من شريفاتِ قريش ، وبهذا جمعتِ الفارعةُ الكرمَ من طرفَيه ، إذ جمعتِ الشَّرفَ الثَّقفيَّ إلى المجدِ القرشيّ؛ وكان للفارعةِ أختٌ تدعىٰ

---

(١) الاستيعاب (٤/ ٣٧٥ ـ ٣٧٧)، وأسد الغابة (٦/ ٢١٥ و٢١٦) ترجمة رقم (٧١٦٣) ، والإصابة (٤/ ٣٦٣ و٣٦٤) ، والدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص ٣٥٧ و٣٥٨) ، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٦/ ٤٨٢ـ٤٩٩) ، وأعلام النساء (٤/ ١٩ و٢٠) ، ومعجم الأديبات الشواعر (ص ٣٨٢ ـ ٣٨٤) ، وديوان أمية ابن أبي الصلت (ص ٣٧ و٣٨ و٨٣ و٨٤ و٨٥ و٩٥ و١١٩ و٣٧٩) وغيرها .

(٢) الاستيعاب (٤/ ٣٧٥) .

(٣) أسد الغابة (٦/ ٢١٥) .

عاتكة، ذكرهَا ابنُ حَجَر في «الإصابة» فقال ما نصُّه: «عاتكةُ بنتُ أبي الصَّلْت الثّقفيّة أخت أميّة، ذكرها السُّهيليّ في مبهماتِ القرآن في أواخر تفسير سورة الأعراف»[١]. ولم يُشِر ابنُ حجر إلى أنَّها صحابيّة أو أنَّها أسلَمتْ مع مَنْ أسلمَ منَ النّساء اللواتي نُظِمنَ في سِلْكِ دُرر الصَّحابيات.

* وهكذا كانتْ نشأةُ هذه المرأةِ العاقلةِ، حيث عاشتْ في أسرةٍ تجمعُ بين الفَضْلِ والحسَبِ والأدبِ والشّعر، وقد نَبَه ونبغَ منها أخوها أميّةُ الذي قال عنه الأصفهاني في «الأغاني»: «كان قد نظرَ في الكتُب وقرأَها، ولبسَ المسوحَ تعبّداً، وكان ممن ذكَرَ في شِعرِه إبراهيمَ وإسماعيلَ والحنيفيّة، وحرَّم الخمرَ، وشكَّ في الأوثانِ، وكان محقّقاً، والتمسَ الدِّين وطمعَ في النُّبوّة، لأنّه قرأَ في الكتُبِ أنَّ نبيّاً يُبْعَثُ منَ العربِ، فكان يرجو أنْ يكونَ هو، فلمّا بُعِثَ النَّبيُّ ﷺ، قيل له: هذا الذي كنْتَ تسْتَريثُ وتقولُ فيه، فحسدَهُ عدوّ اللهِ، وقال إنّما كنتُ أرجو أنْ أكونَه»[٢].

* وذكر ابنُ قُتيبة خَبراً لا يكادُ يختلفُ عمّا وردَ عند الأصفهاني، وزادَ على الأصفهاني بقوله: «وكان يخبرُ بأنَّ نبياً يُبعثُ قد أظلّ زمانه، ويُؤَمِّلُ أنْ يكونَ ذلك النَّبيّ، فلمّا بلغَهُ خروجُ رسولِ الله ﷺ وقصَّتُه كفَرَ به حَسَداً»[٣].

* ولا شكَّ في أنَّ الفارعةَ أخته كانَتْ تعرفُ كثيراً عن حياةِ أخيها وأحوالِهِ، بل كانت ترىٰ أنّ كثيراً من الجماعاتِ قد عزفَتْ قُبيل الإسلامِ عن مفاسدِ الجاهليّة، ونبذَتْ عبادةَ الأصنامِ، وجعلَتْ تبحثُ عن ديْنِ إبراهيم، وهؤلاء هم مَنْ أُطْلِقَ عليهم اسم «الحنفاء».

---

(١) الإصابة (٤/٣٤٦).
(٢) الأغاني (٣/ ١٨٠) طبعة دار الكتب المصرية.
(٣) الشعر والشعراء (١/ ٤٥٩).

* ولما أشرقتْ أرضُ مكّة بنورِ الإسلام لم يعلنْ أميّةُ إسلامه ، بل إنَّ الرِّوايات جميعها أجمعَتْ على عدمِ إسلامهِ ، لأنَّه كان يسعىٰ وراءَ النّبوة ، بيد أنَّه لم يدَّع ذلك أبداً ، ولذلك قال ابنُ دُريد: «وكان بعضُ العُلماء يقولُ: لولا النَّبيُّ ﷺ لادّعَتْ ثقيفٌ أنَّ أميَّةَ نبيٌّ»[1].

* ويبدو أنَّ الفارعةَ قد أحاطَتْ عِلماً بكلّ هذهِ الأشياء ، ورأتْ أنَّ أخاهَا على باطلٍ ، وأنَّ النَّبيَّ محمّداً ﷺ هو رسولُ الله حقّاً وصدقاً ، فالفارعةُ قد نشأَتْ وعاشَتْ في الطَّائفِ ، وكانتِ الطَّائفُ يومذاك مدينةَ السِّحْر والجَمال ، ودوحةَ الخصبِ والظّلال ، وفيها متنزّهاتٌ لأعيانِ مكّة ، وهي مصيفُهم الذي يركنون إليه عند اشتدادِ الحرّ في مكّة ، ومن الجميلِ في أخبارِ البُلدان أنّ كثيراً من المصنّفين يصفُ الطَّائف بأنّها قطعةٌ من الشَّام ، إذ كانت تحتضنُها الأشجارُ ، وكانت ذاتُ مزارعَ ونخيلٍ وأعنابٍ وسائرِ الفَواكه ، وكانت معتدلة المناخِ جميلة الطَّبيعة ، ممّا جعل المكّيين عصر ذاك يرتادونها ويمكثون فيها ويحمِلونَ الأَنْباءَ المكيّة ، وأخبارَ الرِّسالةِ المحمديّة ، فوقَر الإيمانُ في نَفْسِ الفارعة ، واستجابتْ لأنداءِ الإسلامِ ، وهمساتِ المؤمنين الذين عطّروا الدنيا برحيقِ الإسلام.

الـفَارِعَـةُ والـصُّحْبَـةُ الـنَّـبوِيَّــةُ:

* تعدُّ الفارعةُ بنتُ أبي الصَّلْت الثَّقفيّة إحدىٰ نساءِ عصرِ المُخَضْرمين ممّن نعمْنَ بالإسلامِ ، وكُنّ من رعيل الصَّحابيّات اللواتي كتَبَ اللهُ لهنَّ الخير ، فكُنّ في خيرِ أُمّةٍ أُخرجَتْ للنَّاس.

* ولا نعرفُ متى كان إسلامُ الفارعة ، إلاّ أنَّ ابنَ عبد البرّ وغيرَهُ يُشيرون بقولهم: «قدمتِ الفارعةُ على رسولِ الله ﷺ ، وكانت ذات لُبٍّ

---

(١) الاشتقاق (ص ٣٠٣).

وعفافٍ وعَقْل وجمالٍ ، وكان رسولُ الله ﷺ يعجبُ بها»[1] .

* وتقولُ زينبُ فوّاز عنها: «كانت منْ أديباتِ العربِ الشّاعراتِ العاقلاتِ الجميلاتِ الهيئةِ والمنظرِ ، وكانت من الصّحابياتِ المحدّثاتِ الصّادقات في الرّواية ، أخذَ عنها كثير من التّابعين»[2] .

* وكذلك نقلَ عنها جمال الدّين السّمان الحمويّ صاحب كتاب «معجم الأديبات الشّواعر» فقال: «كانت من أديبات العربِ وشواعرهنَّ ، وكانت منَ الصّحابيّات المحدّثات ، أخذ عنها كثيرٌ من التّابعين ، فلمّا مات أميّةُ قدمتْ على رسولِ الله ﷺ[3]» .

* ومن الجدير بالذّكْر أنْ نُشيرَ إلى أنَّ الفارعةَ قد اشتُهِرَ أمرُهَا ، وطار صيتُها في قصَّةِ وفاةِ أخيها أميّة الشّاعرُ الكافرُ الذي قال عنه النّوويُّ ـ رحمه الله ـ: أميّةُ بنُ أبي الصّلت الكافر. . سمعَ النّبيُّ ﷺ شِعْرَهُ الذي فيه حكْمة . . . كان أميّةُ يتعبّد في الجاهليّة ، ويؤمنُ بالبعثِ ، وينشدُ في أبياته الشِّعرَ المليحَ ، وأدركَ الإسلامَ ولم يُسْلِمْ ، ثبتَ في صحيحِ مُسلم عن الشَّريدِ بنِ سُويد[4] ـ رضي الله عنه ـ قال: ردفتُ رسولَ الله ﷺ يوماً فقال: «هل معكَ من شعرِ أميَّـة بـنِ أبي الصَّلْت شيءٌ»؟ قلتُ: نعم. قال:

---

(١) الاستيعاب (٤/ ٣٧٥) ، وأسد الغابة (٦/ ٢١٥) ، والإصابة (٤/ ٣٦٣) ، والبداية والنهاية (٢/ ٢٢٤) ، وتهذيب ابن عساكر (٣/ ١٢٧) ، ومروج الذهب (١/ ٥٧) ، وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٦٤) ، ولسان العرب (١/ ٧٩٢) ، وغيرها.

(٢) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص٣٥٧).

(٣) معجم الأديبات الشواعر (ص ٣٨٢).

(٤) الشَّريدُ أبو عمرو الصَّحابي رضي الله عنه مذكورٌ في المختصر والمهذَّب في الشَّهادات في سماع الشّعر وهو أبو عمرو الشّريد بن سويد الثّقفيّ الحجازيّ. روى عنه ابنه عمرو ويعقوب بن عاصم ، وحديثُه المذكورُ في المختصر والمهذب ، رواه مسلم في صحيحه. (تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٢٤٤).

«هيه» ، فأنشدتُه بيتاً فقال: «هيه» ، ثمّ أنشدتُه بيتاً فقال: «هيه» ، حتى أنشدتُه مئة بيتٍ فقال: «إن كادَ ليُسْلِم» ، وفي روايةٍ: «فلقد كادَ يسلمُ في شِعْرِه»[1].

* وتـدلُّ الأخبارُ والرِّواياتُ التي تحدَّثت عنِ الفارعةِ بأنَّها تحفظُ أشْعاراً كثيرةً لأخيها ، وخُصوصاً الأشعارَ التي قالَها عند وفاتِهِ وقُبيل موتِهِ حوالي السَّنة الخامسة منَ الهجرةِ. على أنَّ كثيراً من أخبارِ وفاةِ أميّة التي علَّقَها الرُّواةُ على ذِمّةِ الفارعةِ لا يعوّلُ عليها ، ولا يمكنُ للباحثِ أنْ يطمئنَّ إليها ، أو يركَنَ إليها ويسْكُنَ إلى صحّتها؛ إذْ إنّ هذه الأخبارَ قد عبثَتْ فيها الأسطورةُ ، ولعبَتْ في بعضِها الأهواء ، ولعب في بعضِها القصّاص ، وقصّوه على أصحابِ القلوبِ السَّليمة فظنّوه من الحقائقِ ومن المُسَلّمات.

* يقولُ الدّكتور جواد علي: «وهذا القصصُ الواردُ عن أميّةَ هو بالطَّبعِ من القَصصِ المصْنُوع الموضوع ، مثلُ كثيرٍ منْ أخبارِه وأخبارِ غيره ، قُصَّ علىٰ ذوي القُلوب الطَّيِّبة منَ الرُّواة والأخباريين ، فأخذُوه ونقلُوه كما نقلُوا ما شاءَ اللهُ من الإسرائيليّات والأساطير ، وروي على أنَّه ممّا كان يعلمه الأحبار والرّهبان والخاصّة من أهلِ الكتاب. ولا أستبعدُ أنْ يكون هذا القصصُ قد ظهرَ في أيّام الحجّاج عصبيّةً وتقرّباً إليه ، فقد كان الحجّاجُ من ثقيف ، وكان أميّة من ثقيف كذلك ، وقد أنتجَ الوضَّاعُون في أيّامهِ شيئاً كثيراً مِنَ الأخبارِ في قبيلةِ ثقيف ، كما أنتجُوا شيئاً في ذمّها وفي ذمِّ رجالِها نكايةً به»[2].

* إذاً فمعظمُ ما يُنْسَبُ إلى الفارعةِ من أخبارٍ أقرب إلى الأسطورةِ منها

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٢٦) باختصار يسير جداً.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٦/ ٤٨٧).

إلى الحقيقةِ ، ومنها ما أوردَهُ ابن سلام في «طبقاتِهِ» حيثُ روىٰ بسندهِ عن أختِ أميّة أنّها قالَتْ: «إنّي لفي بيتٍ فيه أميّةُ نائمٌ ، إذ أقبلَ طائِران أبيضَان ، فسَقَطا على السَّقْفِ ، فسقَطَ أحدهما عليه ، فَشَقَّ بطْنَه ، وثبتَ الآخرُ مكانَه ، فقال الأعلىٰ: أَوَعَىٰ؟

قال: وعىٰ!

قال: أأقْبَلَ - ويُقال: أزَكَا -؟!

قال: أبىٰ!

قال: خَسَأَ! فَرَدَّ قَلْبَه وطار ، والتأم السَّقْفُ.

قالت: فلمّا استيقظَ قلتُ له: يا أخي ، أحسَسْتَ شيئاً؟

فقال: لا ، وإنّي لأجِدُ تَوصيْباً[1] ، فَما ذاك؟

فأخبرتُه. فقالَ: يا أُخيّة! أنا رجلٌ أرادَ الله بي خَيْراً فلم أقبله.

قالت: فلمّا مرضَ مرضته التي ماتَ فيها؛ فإنّي عنده ، إذ نظرَ إلى السَّماء ، وشقَّ بصرُه ، ثمَّ قال:

لَبّيكُما لَبّيكُما ... ها أنذَا لَديْكُما

لا ذو براءَةٍ فأَعْتَذِر ، ولا ذو قوّة فأَنْتَصِر.

* ثمّ أُغميَ عليه ، ثمّ شقّ بصره ، ثمّ نَظَر وقال:

لَبّيكما لبّيكُما ... ها أنذا لديكما

بالنّعم محفود ، ومنَ الذَّنب مخضود.

* ثمّ أُغمي عليه ، ثمّ شقّ بصره ، وقال:

إنْ تَغْفِر اللهمَّ تَغْفِرْ جَمّا ... وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لا أَلَمّا

(١) «توصيباً»: التوصيب: الفتور الشديد في البدن ، من الوصب وهو الوجع والمرض.

* ثمّ أغميَ عليه ، ثمّ أفاقَ فقال:

لَيتَني كنْتُ قَبْلَ ما قَدْ بَدَا لي في قلالِ الجبَالِ أرعىٰ الوعُولا
كُلُّ عَيْشٍ وَإنْ تَطَاول دهْراً قصْرُه مرّةً إلىٰ أنْ يزُولا

ثمَّ خفَت وماتَ»[1].

* ويروي ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ قصّةً لا تختلفُ كثيراً عمّا ذكَره ابنُ سلام ، بل فيها شيءٌ ممّا ذكَرهُ ابنُ سلام ، ويذكرُ سنداً من الرِّجال آخرهم الزُّهري عن سعيد بن المسيّب قالَ:

«قدمتِ الفارعةُ أختُ أميّةَ بن أبي الصَّلْت على رسولِ الله ﷺ بعد فَتْح مكّة[2] ، وكانت ذات لبّ وعقْلٍ وجمالٍ ، وكان رسولُ الله ﷺ بها مُعْجَباً ، فقال لها ذاتَ يومٍ: «يا فارعةُ ، هل تحفظينَ من شِعْرِ أخيْكِ شيئاً»؟ فقالت: نعم ، وأعجبُ من ذلك ما قَدْ رأيتُ. كان أخي في سَفَر ، فلمّا انصرفَ ، بدأني فدخَلَ عليَّ ، فرقَدَ علىٰ سريري ، وأنا أَحْلِقُ أديماً في يدي ، إذْ أقبلَ طائِران أبيضَان ، أو كالطَّيريْن أبيضَيْن فوقعَ على الكوة

---

(1) انظر: طبقات الشعراء لابن سلام (ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤) طبعة دار المعارف (١٩٥٢ م) وانظر: ألف باء للبلوي (٢/ ٥٠٨ ـ ٥٠٩) ، والإصابة (١/ ١٣٤) ، ومحاضرات الأدباء (٢/ ٢٢١).
وهذا الخبرُ الذي أسندَهُ ابنُ سلاّم إلى الفارعةِ بنتِ أبي الصَّلت خبرٌ يعتريه الضَّعْفُ ، ويجعلنا نشكُّ فيه ، إذ لا يُعقل أنْ يأتيَ طائران ويتحدّثان بلسانٍ عربيّ فصيح ، ويتحاوران فوقَ رأس أميّة ، بعد أنْ يشقّا بطنه ، ولعلَّ هذه القصّة قد حاكَها وخاطَها أحدُ الوضّاعين الذين تخصّصوا في نسْجِ الأخبار الشّائقة والمثيرة ، فكانت له مهارةٌ في إثارةِ العواطف لحسْنِ تأليفهِ هذه الأُحْبولة المنسوجة من الأوهام.
ولعلَّ بعض ناسجي الأخبار تخيّلَ هذه الحادثة قياساً على ما قرأ في السّيرة النبويّة من شقِّ صدر النبي ﷺ، ومن ثمَّ صنع هذه القصّة وجعلَها تجري في حياة الفارعةِ وأميّةَ.

(2) جاء في الاستيعاب ، وأسد الغابة ، والإصابة ، وحياة الحيوان «بعد فتح الطائف» بدلاً من فتح مكة.

أحدهُما ، ودخلَ الآخر ، فوقعَ عليه ، فشَقَّ الواقعُ عليه ما بين قَصِّهِ إلى عانتِه ، ثمَّ أدخل يدَهُ في جوفِهِ ، فأخرجَ قلبه فوضعَه في كفِّه ، ثم شمَّه ، فقال له الطَّائِرُ الآخر : أوعىٰ؟!!! .

قال : وعَىٰ .

قال : أزكىٰ؟!

قال : أبىٰ .

* ثمَّ ردَّ القلبَ إلى مكانهِ ، فالتأَم الجرحُ أسرعَ من طرفةِ عَيْن ، ثمَّ ذهبَا ، فلمّا رأيتُ ذلك ، دنوتُ منه فحركتُه ، فقلتُ : هل تجِدُ شيئاً؟ قال : لا ، إلاّ توهيناً في جَسَدي ـ وقد كنتُ ارتعبتُ ممّا رأيتُ ـ .

فقال : مالي أراكِ مرتاعة؟

قالت : فأخبرتُه الخبرَ .

فقال : أُرِيْدَ بي ، ثمَّ صُرِفَ عنّي ؛ ثم أنشأَ يقولُ :

بَاتَتْ هُمومي تَسْرِي طَوارِقُها ... أَكُفُّ عَيْني والدَّمْعُ سابِقُها
ممّا أَتاني مِنَ اليَقينِ وَلَمْ ... أُوْتَ بَراةً يَقُصُّ نَاطِقُها[1]

* قالت : ثمَّ انصرفَ إلى رحْلِهِ ، فلم يلبثْ إلا يسيراً حتى طُعِنَ في جَنازتِهِ ، فأتاني الخبرُ ، فانصرفْتُ إليهِ ، فوجدتُه منعوشاً قد سُجِّي ، فدنوتُ منه ، فشَهَقَ شهقةً ، وشقّ بصره ، ونظرَ نحو السَّقْف ، ورفعَ صوته وقال : لبّيكما لبّيكما ها أنا ذا لديكُما ، لا ذو مال فيفْدِيني ، ولا ذو

(١) روتِ الفارعةُ (١٣ بيتاً) من هذهِ القصيدة ، ومنها في آخرِها قولُه :
يُوشِكُ مَنْ فرَّ من منيّتِه ... يوماً على غرةٍ يوافقُها
إنْ لم تمتْ غبطةً تَمتْ هرماً ... للموتِ كأسٌ والمرءُ ذائِقُها
(البداية والنهاية ٢/ ٢٢٥) .

أهـل فَتَحْمِيـني. ثـمّ أُغمـيَ عليـهِ إذ شهـقَ شهقـةً ، فقلـتُ : قـد هلـك الرَّجُل . . . » .

* ثم إنَّ ابن كثير يكملُ القصّة على نحوٍ مما ذكرَ ابنُ سلام ، وفي نهايتها أفادتْ بأنَّه مات ؛ فقال رسولُ الله ﷺ : «يا فارعةُ إنَّ مثلَ أَخيْكِ كَمَثلِ الذي آتاهُ اللهُ آياتِهِ فانْسَلخَ منها فأتبعه الشَّيطانُ فكانَ منَ الغَاوِيْنَ»(١) .

* ويروي «الثّعلبيُّ» قصّةً غريبةً تشبهُ إلى حدٍّ ما روايةَ ابن كثير ، وابن سلام ، وكذلك تشبهُ ما جاءَ في «الأغانيّ» ، وفي «الإصابةِ» ، و«حياةِ الحيوان» ، وغيرِها ، ومعظمُها تنقلُ الخبرَ عنِ الفارعةِ ، فقد روىٰ الثّعلبيُّ هذا فقال : «لما مات أميّةُ ، أتَتْ أختُهُ فارعةُ رسولَ الله ﷺ ، فسألَها عن أخيها ، فقالَتْ : بينما هو راقدٌ إذ أتاهُ رجُلان فكَشَطَا سقْفَ البيتِ ، ونزلا فقعدَ أحدهما عند رجلَيْه ، والآخر عند رأسه ، فقال الذي عند رجليْه للذي عند رأْسِه : أوعَىٰ؟

فقال : وعَىٰ!

قال : أَزَكَا؟

قال : زكَا!

قالَتْ : فسألْتُه عن ذلك ؛ فقال : خيرٌ أُريد بي ؛ ثمّ قطَرَت عينُه ، ثمّ غُشِي عليه ، فلمّا أفاقَ ، قال :

كُـلُّ عَيْـشٍ وَإنْ تَطَـاولَ دَهْـراً صَـائـرٌ أَمـرُهُ إلـىٰ أنْ يَـزُولا

---

(١) البداية والنّهاية (٢/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦) ، وهذه القصّة لا تختلفُ عن قصّة ابنِ سلام ، إلاّ أنَّ واضَعها كان أمْهرَ في وضْع الأقاصيص وقد وجدَ أمامَه مادّة ، فراحَ يكثّف ويحشو ما نسيهُ صاحبه ، حتّى جاءنا بهذه التّفصيلات المطوّلة ، فلم ينسَ أنْ يصفَ لنا وجْهَ الفارعة ، ولم ينسَ أنْ يقولَ إنّهما طائران أو كالطّائرين ، ولم ينسَ أيضاً أنْ يقولَ إنّ الفارعةَ قد فزعتْ وارتعبتْ (ديوان أميّة ص ٨٤) .

لَيتَنِي كنْتُ قَبْل مَا قَدْ بدا لِيْ   في قِلالِ الجِبَالِ أَرعىٰ الوعُولاَ
إنَّ يومَ الحِسَابِ يَومٌ عَظيْمٌ   شَابَ فِيْهِ الصَّغيرُ يوماً ثقيلا[1]».

* يقولُ محقِّقُ ديوان أميّة: «ومهما يكنْ فكلُّها رواياتٌ لا نُسلِّمُ بها علىٰ علّاتها، وهي لا تعدو مجرّد قَصَصٍ وأساطيرَ، فسواءٌ جاءتِ الفارعةُ إلى الرَّسولِ ﷺ، أو لمْ تجىء، وسواء كانتِ القصّةُ من قولها وقد شاهَدتْها بوجهٍ منَ الوجوهِ، أمْ كانت من صُنْعِ راويةٍ حاذقٍ بروايةِ الأخبار، فهي لا تعدو أكثرَ من إطْلاعنا على مكانةِ هذا المُتَأَلّه الجاهليّ، الذي أصبحَ من أبطالِ الأساطير على ألسنةِ الرُّواة»[2].

* ومن هنا يتبيّنُ لنا أنَّ الفارعةَ بنتَ أبي الصَّلت ساعَدتْ على حفظِ شيءٍ من شعْرِ أخيها، وتُعَدُّ ممن حفظَ شيئاً وشطراً من شعرِه، وأخبارِه، ففي حديثِ الفارعةِ أنَّها قدمَتْ على النَّبي ﷺ، فقال لها ذات يوم: «يا فارعةُ هل تحفظين من شعرِ أخيك شيئاً»؟

فقالَتْ: نعم.

ثمّ ذكرَتْ خبرَ وفاتِهِ، وأنشدَتْ شيئاً من أشعارِه، كما روتِ المصادرُ ذلك[3].

* ومن خلالِ هذه الأخبار يظهرُ لنا أنَّ الفارعةَ صحابيةٌ التقتِ النَّبيَّ ﷺ وأسلَمَتْ، وسَمِعَ منها بعض أخبارِ أخيها.

---

(1) قصص الأنبياء (ص ١٦١) طبعة مصر.
(2) ديوان أميّة بن أبي الصَّلت (ص ٨٥).
(3) انظر مثلاً: البداية والنهاية (٢/ ٢٢٤)، ونهاية الأرب (١٣/ ٢٧١ و٢٧٢)، وحياة الحيوان (٢/ ٣٥١)، وأسد الغابة (٦/ ٢١٥ و٢١٦)، والإصابة (٤/ ٣٦٣ و٣٦٤) وغيرها كثير.

صُورٌ مِنْ حَيَاةِ الفَارِعَةِ:

* لا يستطيعُ الباحثُ أنْ يلُمَّ أشْتَاتَ الأخبارِ المتفرقةِ في بطونِ المصادرِ والتي تحدَّثت عن الفارعةِ ، لكونها نزرةً أوّلاً ، ولأنّها ضعيفةٌ من جانبٍ آخر ، وخُصوصاً تلك الأخبار التي تتعلّق بوفاةِ أخيها أميّة .

* بيد أنّنا نقرأُ في المصادرِ والمراجعِ أنَّ رسولَ الله ﷺ كانَ يستنشدُها شعْرَ أخيها ، وكان يسألُها عن أخبارِه ، وعن وفاتِه؛ وتذكرُ زينب فوّاز في «درّها المنثور» أنَّها أنشدتِ النّبيَّ ﷺ قصيدةَ أميّة اللاميّة جميعها:

كُلُّ عَيْشٍ وَإنْ تَطَاوَلَ دهْراً صَائرٌ أمْرُهُ إلىٰ أَنْ يزُولا

. . . إلخ .

فقال لها رسولُ اللهِ ﷺ: «ما أطْيَبه منْ شِعْرٍ سألتُكِ بالله أعيْدِيهِ» فأعادَتْ عليهِ شعْر أخيها أميّة ، ومن ثمّ أنشدَتْ شِعْراً جيّداً ، فقالَتْ:

لَكَ الحمدُ والنَّعْماءُ والفَضْلُ ربّنا فلا شَيءَ أَعْلىٰ مِنْكَ جدّاً وأمْجَدُ

مَلِيْكٌ علىٰ عَرشِ السَّمَاء مُهيمنٌ لِعِزّتِه تَعْنُو الوُجُوهُ وتسجدُ

* وهي قصيدةٌ طويلة تزيدُ عن أربعين بيتاً[1] أنشدتْها حتى أتَتْ على آخرِها[2] .

* وتذكرُ زينب فوّاز أيضاً أنَّ الفارعةَ قد أنشدتِ النّبيَّ ﷺ قصيدةً لأُميّةَ ، والتي يقولُ فيها:

عِندَ ذِي العرشِ يُعرضُون عليهِ يعْلَم الجهرَ والكلامَ الخَفِيّا

يَومَ نأْتيهِ وهوَ ربٌّ رَحيمٌ إنّه كَانَ وعْدُهُ مأْتِيّا

---

(١) انظر القصيدة كاملة في ديوانه (ص ٣٦٧ ـ ٣٧٦) وهي (٤٢ بيتاً) .

(٢) الدر المنثور (ص ٣٥٧) .

يومَ نأتيهِ مثلمَا قالَ فَرْداً ... لمْ يذَرْ فيهِ راشداً وغويّا
أَسعيدٌ سَعَادةً أنا أرجُو ... أمْ مُهَانٌ بِما كَسَبْتُ شقيّا
رَبّ إنْ تَعْفُ فالمُعَافَاةُ ظَنّي ... أوْ تُعاقِبْ فَلَمْ تُعاقِبْ بَرِيّا
إنْ أواخَذْ بِما اجتَرمْتُ فَإنّي ... سوفَ أَلْقَى منَ العَذَاب فريّا[1]

* ومنَ الواضحِ لكلِّ ذي لبّ وبصيرةٍ أنَّ هذه الأبيات من الشّعر المنحول ، ومنَ النّظم المُتكلّفِ الموضوع ، ولعلّها نُظِمَتْ بعد عَصْرِ أميّةَ في عَصْر بني أُميّةَ ، ونُسبت إليهِ ، لأنَّنا نلمسُ أنَّ النَّاظمَ قد تأثّر كثيراً بسورةِ مريم ، واقتبسَ كثيراً من آياتها من مثلِ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: ٦١] ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥] و﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٧] ، بالإضافةِ إلى أنَّ أنفاسَ الأبياتِ العامّة هي أنفاسٌ إسلاميّة؛ كما أنّها موضوعةٌ مصنوعةٌ بعد عصرِ الفارعةِ وأميّة بزمنٍ طويل.

* بقي أنْ نعلمَ أنَّ الفارعةَ ممن روىٰ عنها ابنُ عبّاس[2] ـ رضي الله عنهما ـ ، وأنّها بقيَتْ في عَهْدِ النّبيّ ﷺ منَ النّساء المعدوداتِ المتّصفاتِ بالفضائلِ ، المقدّمات عند الصّحابة[3] ، إلى أنْ ماتَتْ ، بيد أنّنا لا نعرفُ سنةَ وفاتها ، ولم نستطعْ أن نستنتجَ ذلك من أخبارِها؛ ولكنّها ظَلّت مِنْ مشَاهير الصَّحابيات ، ومن نساء المشرقِ العربيّ ، فرضي اللهُ عنها وأرضَاهَا.

* * *

(١) الدر المنثور (ص ٣٥٧ و٣٥٨) ، ومعجم الأديبات الشواعر (ص ٣٨٣ و٣٨٤).
(٢) أعلام النساء (٤/ ٢٠).
(٣) الدر المنثور (ص ٣٥٨)، ومعجم الأديبات الشواعر (ص ٣٨٤) مع الجمع والتصرف.

هند بنت أُثاثة

* من السابقات إلى الإسلام في فجره الوضّاء .
* من ذوات الفصاحة والنباهة ، ولاقت الألاقي في سبيل إسلامها ، فصبرت راسخة اليقين. وهاجرت إلى المدينة. وكانت شاعرة جريئة .

مِـنَ الـرَّعيْـلِ الأوّلِ:

* هنـدُ بنـتُ أثـاثـةَ بـن عبّـاد بـنِ المطّلـب بـن عبـدِ منـاف القـرشيّـةُ المطّلبيّةُ[1]، واحدةٌ منَ النِّساء اللواتي أسلمْنَ بمكّةَ منذُ مطلعِ شمسِ الرّسالةِ المحمّديةِ.

* ومنذُ أنْ جاءَ اللهُ عزَّ وجلَّ برسالةِ محمّدٍ ﷺ، أشرقتِ الدُّنيا بنورِ الحقّ، وبدأتِ العقولُ المتفتّحةُ تستجيبُ لأنداءِ الهمسَاتِ النّبويّةِ التي أخذتْ تلامسُ الأفئدةَ، وتوقظُها من سُباتِها الذي استمرَّ مدّةً طويلة.

* وكان من بينِ السَّابقين الذين اجتذبَتْهمُ الدّعوةُ المحمديّة ضيفتُنا هندُ بنتُ أثاثةَ المطّلبيّة؛ التي تركتْ أثراً بارِزاً في تاريخِ المرأةِ المشرقيّة في فجرِ الإسلام؛ وفي تاريخِ السَّابقات بمكَّة، حيثُ ذكرها ابنُ إسحاق فيمن أسلمَ بمكَّة[2].

* بينما أخذَ الحماسُ زينبَ فواز العامليّة، وافتتحتْ ترجمةَ هندٍ بقولها: «كان أبوها أثاثة منْ أمراءِ العربِ المشهورين بالشَّجاعةِ والفروسيّةِ والكرمِ، وكانت هي منْ ذواتِ الشّهامة والمروءةِ والحِكَمِ، أديبةٌ فاضلةٌ، كاملةٌ عاقلةٌ، لها معرفةٌ بالشّعر والعَروض، وممّا قالته في رثاءِ أبيها حين قُتِل هذه الأبيات:

---

(1) انظر: الإصابة (١٢/ ١٥٩ و١٦٠) ترجمة رقم (١٠٨٣)، وأسد الغابة (٦/ ٢٨٨) ترجمة رقم (٧٣٣٣)، وطبقات ابن سعد (٢/ ٣٣١)، والدر المنثور (ص ٥٣٦)، وأعـلام النسـاء (٥/ ٢١٦ و٢١٧)، ونهـايـة الأرب (١٧/ ١٠١) و(١٨/ ٤٠٦)، والسيرة النبوية في مواضع، ومصادر أخرىٰ كثيرة من مثل: شاعرات العرب (ص ٤٥٣ ـ ٤٥٥)، والمغازي (ص ٦٩٤).

(2) انظر: الإصابة (١٢/ ١٥٩).

لقَد ضمَّتِ العَفْراء مَجْداً وسُؤدُدَاً   وحُلماً أصيلاً وافرَ اللبّ والعَقْلِ
عُبيـدة فـابْكيـهِ لأضيـافِ غـربـةٍ   وأرملةٍ تهوي لأشعثَ كالجذْلِ[1]».

* ويظهرُ من الأخبارِ التي وصلَتْ إلينا عنِ النِّساء المؤمناتِ ، أنَّ هنداً هذه كانت بمكّةَ ، وكانت من ذواتِ الفَصاحةِ والنَّباهةِ ، ولقيتْ في سبيلِ إسلامها ما لاقَتْه أخواتُها المؤمنات القانتاتُ ، فصبرتْ وتحمّلَتِ الصِّعاب وهي ثابتةُ الإيمان ، مطمئنةُ القلبِ ، راسخةُ اليقين ، وكانت ترىٰ ما يحلُّ بالمسلمين والمُسلماتِ من ألوانِ العذابِ وأنواعِ الشَّدائد وهم صابرون محتسبون ، وشهدتْ كذلك ثباتَ كثيراتٍ منَ المسلماتِ على الدِّيْن حتى لقي بعضُهنَّ الموتَ وحظين بالشَّهادة ، وهي ما تزالُ ثابتةً صابرةً ، تلكم الشّهيدة هي سُمّية بنت خُبَّاط أمّ عمّار بن ياسر ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ.

* وصبرتْ وصابرتْ هندٌ إلى أنْ جاءتِ الأوامرُ الإلهيّةُ للرّسولِ الكريم ﷺ بالهجرةِ ، وكان هذا هو مفتاحُ الفرجِ للمسلمين والمسلماتِ والمستضعفين والمستضعفات ، فهاجرتْ هندٌ في الأرضِ[2] ، أرضِ اللهِ

---

(١) انظر : الدّرّ المنثور (ص ٥٣٦). ومنَ الملاحظِ أنَّ كلامَ السّيدة زينب العامليّة كلامٌ يعتمدُ على الصّياغةِ واللّغة وعرضِ عضَلات البلاغة ، بيد أنَّ الحقيقةَ خلافُ ذلك ، فليس أبو هند من أمراء العرب ، وليست الأبياتُ التي رثَتْ بها هندٌ أباها هي في رثاء أبيها ، وإنّما في رثاء عُبيدة بن الحارث لما سنعرف ، وإنّما تتعجلُ زينب في أحكامِها كعادتها ، وتخفىٰ عليها الحقائقُ ، والله المستعان.

(٢) قسّمَ العلماءُ والفقهاءُ الذّهابَ في الأرض إلى قسمَيْن اثنين : ١ ـ هَرَباً ؛ ٢ ـ طلباً.
فالأوّلُ ؛ الهربُ : ينقسمُ إلى ستّةِ أقسام :
١ ـ الهجرةُ : وهي الخروجُ من دارِ الحرب إلى دارِ الإسلام ، وكانَتْ فرضاً في عَهْد النَّبيّ ﷺ ، وهذهِ الهجرةُ باقيةٌ مفروضةٌ إلى يومِ القيامة.
٢ ـ الخروجُ من أرضِ البدعة.
قال الإمامُ مالك : «لا يحلُّ لأحدٍ أنْ يقيمَ بأرضٍ يُسبُّ فيها السَّلَف».
وقال ابن العربيّ : «وهذا صحيحٌ ؛ فإنَّ المنكرَ إذا لم تقدرْ أنْ تغيّره ، فَزُلْ عنه». =

الواسعة ، وكانت وجهتُها إلىٰ المدينةِ المنوّرة ، حيث سُجِّلَت في قائمةِ الصَّابراتِ المُهاجراتِ.

هنْـدٌ فـي غـزَاةِ أُحُـد:

* تشير الأخبارُ التي وصلَتْ إلينا عن طريقِ المصادرِ المتنوِّعة ، بأنَّ هندَ بنتَ أثاثةَ قد أقامَتْ مع ثلّةِ المُهاجرات في المدينةِ المنوّرةِ ، تنعُمُ برحيقِ الإيمانِ ، وتنعمُ بالمجالسِ النّبويّةِ ، وتستفيدُ منها ما استطاعَتْ إلى ذلك سبيلاً؛ ولما كانت غزاةُ أُحُدٍ ، كانت هندُ بنتُ أثاثة في عدادِ الصَّحابياتِ المجاهداتِ اللواتي كُنّ يخرجْنَ مع الجيشِ الإسلاميّ ، ويقدّمْنَ ما يستطعْنَهُ من خِدْماتٍ للمجاهدين كيما ينلْنَ هُنَّ الأخرياتِ شرفَ المشاركةِ في الجهادِ في سبيلِ الله تعالىٰ ، وفي نصرةِ رسولهِ الكريم ﷺ.

* وخاضَ المسلمون معركةَ أحدٍ ، وكانت مظاهرُ الشَّجاعةِ البطوليّةِ في أصحابِ رسولِ الله ﷺ ظاهرةً في هذه المعركةِ ، وكان الأصحابُ الأخيارُ رجالاً ونساء يَفْدونَ النَّبيَّ ﷺ بالأرواحِ ، وظهرتْ بطولاتٌ نادرة من مثل

= ٣ ـ الخروجُ من أرضٍ غلبَ عليها الحرامُ.
٤ ـ الفرارُ منَ الأذيّةِ في البدنِ. وتلك رخْصَةٌ منَ اللهِ تفضّل بها على عبادِه.
٥ ـ خوفُ المرضِ في البلادِ الوخمةِ ، والخروجُ منها إلى الأرضِ النَّزهَةِ.
٦ ـ الفرارُ خوفُ الأذيّةِ في المالِ ، فإنَّ حرمةَ مالِ المُسلم كحرمةِ دمه.
والثّاني؛ ينقسمُ إلىٰ ثلاثةِ أقسام ، هي:
١ ـ قصدُ البقاع.
٢ ـ قصدُ الثّغور للرّباط بها وتكثير سوادها للذب عنها.
٣ ـ زيادةُ الإخوة في اللهِ تعالى.
(أحكامُ القُرآن ١/ ٤٨٤) و(تفسيرُ القُرطبي ٥/ ٣٤٩) مع الجمع والتّصرّف اليَسير.
ـ وفي الهديّ النّبوي أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنْ فرَّ بدينه من أرضٍ إلى أرض ، وإن كان شبراً استوجبَ الجنّة ، وكان رفيقَ إبراهيم ومحمد عليهما السَّلام». وهناك أدلّة أيضاً في القرآن الكريم.

بطولةِ أبي دجَانةَ الأنصاريّ ، وأنسِ بنِ النّضر ، وطلحةَ بنِ عبيد الله ، وأبي طلحة الأنصاريّ ، ومن جماعةِ النّساء: نسيبة بنت كعب الأنصاريّة وغيرها.

* ولكن ما دورُ هندٍ الحقيقيّ في غزاة أُحد؟! وهلْ حاربتْ بالسّيفِ والسِّنانِ كنسيبةَ بنتِ كعب؟!

* كانت هندٌ شاعرةً جريئةً ، تستطيعُ أن تلهبَ الحماسَ في النّفوسِ ، أو تكبِتَ الأعداء بما آتاها اللهُ من فصَاحةٍ وجزَالةٍ ، فقد جاءَ في ترجمتها أنّها وقفتْ في أحدٍ تردُّ على صوتِ نساءِ المشركين اللواتي كُنَّ منْ مُسْعِراتِ الحربِ يوم ذاك ، واستطاعتْ هندٌ أنْ تُسْكِتَ واحدةً من زعيمات الشِّعر يومَها ألا وهي هندُ بنتُ عتبة وذلك قبل أن تُسْلِمَ وتُكتَبَ مع الصَّحابيّات ، حيث إنَّ هندَ بنتَ عتبة أسلمَتْ يومَ الفتح.

* أما كيف كان رَدُّ هند بنت أثاثة على هندِ بنتِ عتبةَ ، فذلك ما يرويه ابنُ إسحاق حيثُ قال ما مفادُه ومحصّله وملخّصه: «قالت هندُ بنتُ عتبة في وقعةِ أحدٍ تفتخرُ بقتلِ حمزةَ بنِ عبد المطّلب وغيره ممن أُصيبَ منَ المسلمين بعد أنْ علَتْ علىٰ صخرةٍ مشرفةٍ ، وصرخَتْ بأعلىٰ صوتها تنادي:

نَحْـنُ جَـزينـاكـم بيـومِ بَـدْرِ والحربُ بعـدَ الحربِ ذاتُ سُعرِ
مَـا كَـانَ عـن عتبةَ لـي مـن صَبْر ولاَ أخـــي وعَمّـــه وبِكْـــري
شفَيـتُ نفسـي وقضَيـتُ نَـذْري شفَيـتَ وحْشِـيُّ غليـلَ صَـدري
فَشُكْـرُ وحشـيٍّ علـيَّ عُمـري حتّـى تـرمَّ أعْظُمـي فـي قَبْـرِي

فأَجَابتْها هندُ بنتُ أثاثة بن عبّاد بن المطلب ونَقَضَت[1] قولَها ، وقالَتْ:

---

(١) «نقضَتْ قولها»: جاءتْ بعكسِ ما جاءت به. والنَّقائضُ: في الشّعر تعني أنْ ينقضَ=

خَـزِيْـتِ فـي بَـدْرٍ وبَعْـدَ بَـدْرِ   يَـا بنْـتَ وَقَّـاعٍ عظيـمِ الكُفْـرِ
صَبَّحـكِ اللهُ غـدَاةَ الفَجْـرِ   مِلْهَـاشميِّـن الطِّـوالِ الـزُّهـر
بِكُـلِّ قطَّـاعٍ حُسَـامٍ يفْـري   حمـزةُ لَيْثـي وعلـيٌّ صَقْـري
إِذْ رَامَ شَيْـبُ وأبـوكِ غَـدري   فَخَضّبـا منـه ضَـواحـي النَّحْـر
ونَـذْرُكِ السُّـوء فَشَـرُّ نَـذْرِ[1]»

هـنْـدٌ وَالـرِّثَـاءُ :

* كانت هندُ بنتُ أثاثةَ واحدةً منَ النّساء اللواتي كُنَّ يعبّرنَ بالكلماتِ في عَصْر النّبوةِ ، وكُنَّ يشاركْنَ في الأحداثِ باللّسانِ والسّنانِ وما يقدرْنَ على أدائه .

* ففي غزوة بدرٍ كان عبيدةُ بنُ الحارث القرشيّ أحدَ أبطالِ المبارزةِ الذين ندبَهمُ النّبيّ ﷺ استجابةً لدعوةِ عتبةَ بنِ ربيعة الذي تقدَّم نحو صفوفِ

= شاعرٌ ما قالَه آخرُ منَ الشُّعراء ، ويجيء بضدّ ما جاءَ بهِ .
ولما بزغَ الإسلامُ بأنوارهِ ، وافترّ عن زهرِ رياضهِ ، انقسمَ الشّعراء إزاءَ الشّعر إلى فريقَيْن متناقضين :
١ ـ فريقُ شعراءِ رسول اللهِ ﷺ ويمثّله : حسّانُ بنُ ثابت ، وكعبُ بنُ مالك ، وعبدُ الله بن رواحة وكلّهم من الأنصار رضي الله عنهم .
٢ ـ وفريق ضدّه ، ويمثّله شعراءُ قريش ومَنْ والاهم منَ المشركين واليهود .
ـ ومنَ الطّبيعي أنْ تقومَ بين هؤلاء الشّعراء حربٌ كلاميّةٌ ، اتّخذت في معظم الأحيان صورةَ النّقائض أو المناقضات . وكانت معاني النّقائض ذات معانٍ إسلاميّة في أغلبِها وأحياناً تكونُ في الفخرِ وذكر المآثرِ والأحْسَاب .
ـ وممّا ينبغي الإشارةُ إليه أنَّ كعبَ بنَ مالك قد وضعَ الأسسَ العلميّة للنّقائضِ التي ازدهرت وتعقدّت في العصرِ الأمويّ ، فقد كان يلتزمُ القول في موضوعِ الشّاعر وقافيته وبحره . وقد لاحظْنا هذا في ردِّ هند بنت أثاثة على هند بنت عتبة .

(١) انظر : السّيرة النّبوية (٣/ ٧٣) بتصرف يسير ، طبعة دار الخير بدمشق ـ ط٢ ـ ١٩٩٥م؛ وانظر غيرها من المصادر .

المؤمنين وحولَه أخوه شيبةُ بنُ ربيعة ، وولده الوليدُ بنُ عتبةَ تظاهُراً بالقوّة ، وكانت هذهِ المبارزةُ الغاشمةُ أوّلَ شَرارةٍ قَدَحَ زَنْدها الغَرورُ الكَفُورُ ، والعتو الجاهليّ الفاجر ، وبدأتِ المبارزةُ بينَ أبطال المجتمع المُسلم الثّلاثة وهم: عُبيدة بنُ الحارث ، وحمزةُ بنُ عبد المطلب ، وعليُّ بن أبي طالب ـ رضوان الله عليهم ـ وبين عتبةَ وشيبةَ والوليدِ ، وما هيَ إلا جولةٌ حتّى جندلَ سيّدنا حمزةُ أسدُ الله وأسدُ رسوله مُبَارِزَهُ ، وكذلك عليّ؛ أمّا عُبيدةُ فقد اختلفَ مع قِرْنهِ ضربتَيْن أثبتَ كلٌّ صاحِبَه ، ولحقَ حمزةُ وعليٌّ قِرنَ عُبيدة فذفَّفا عليه ، ثم حَملا عُبيدة إلى رسولِ الله ﷺ ، فأفْرشَه قدمَه الشَّريفة لِتكونَ وِساداً حتى قَضَى حَميداً شَهيداً[1] ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ.

* ويذكرُ الأخباريّون أنَّ هندَ بنتَ أثاثة قد رثَتْ عُبيدةَ بنَ الحارث بقصيدةٍ لاميّةٍ ، وفي هذه القصيدةِ تذكُرُ مآثرَهُ وفضائِلَه وجُودَه وسخاءَهِ لكُلِّ النَّاسِ فتقول:

لقد ضُمّنَ الصّفراءُ مَجداً وسُؤدداً وحلْماً أصيلاً وافرَ اللّبِ والعقلِ

---

(١) عُبيدةُ بنُ الحارث بن عبد المطلب ، رأسُ بني عبد مناف ، أسلمَ قديماً ، وهاجرَ ، وحَملَ أوّلَ رايةٍ في الإسلام وهو ممن شهد بدراً ، وماتَ إثرَ جراحةِ رجله بأشهرٍ في موضع يُقال له الصَّفراء ، بعد أنْ أُصيبتْ رجلُه ، وقال في ذلك:

فإنْ تقطعُوا رجْلي فإنّي مُسلمٌ أعيشُ بها عيشاً منَ اللهِ دانيا
مع الحورِ أمثال التّماثيلِ أُخلِصَتْ مع الجنّة العُليا لمنْ كانَ عاليا
وبعتُ بها عيشاً تعرّقَ صفوهُ وعالجتُه حتى فقدْتُ الأدانيا
فأكرَمني الرّحمنُ من فضلِ مَنِّهِ بثوبٍ منَ الإسلام غطّى المسَاويا
ومَا كانَ مكروهاً إليّ قتالُهم غداةَ دعا الأكْفَاءُ مَنْ كانَ داعيا
لقيناهم كالأسْدِ تخطرُ بالقَنَا نقاتلُ في الرّحمن من كان عاصيا

(شعر الدّعوة الإسلامية في عصر النبوة ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤) ، وانظر سيرته في كتابنا «فرسان من عصر النبوة».

عُبيدةَ فابْكيهِ لأضيافِ غُربةٍ ... وأرملةٍ تهوي لأشْعَثَ كالجِذْلِ
وبكّيهِ للأقْوامِ في كلّ شَتْوةٍ ... إذا احمرَّ آفاقُ السَّماء منَ المَحْلِ
وبكّيهِ للأيتامِ والريحُ زَفْرفٌ ... وتَشْبيبُ قِدْرٍ طالَما أَزْبدتْ تَغْلي
فَإنْ تصبحِ النّيرانُ قد ماتَ ضَوْءُها ... فقد كانَ يذكيهنَّ بالحطبِ الجَزْلِ
لِطَارقِ ليلٍ أو لِمُلتَمسِ القِرى ... ومُستنبحٍ أضحىٰ لديهِ على رِسْلِ(١)

* ويذكرُ كُتّابُ السِّيرة أنَّ هنداً بكَتْ رسولَ اللهِ ﷺ بقصائدَ شعريّةٍ حزينةٍ دامعةٍ ، وقد سجَّلَتِ المصادرُ القديمةُ قِطعاً من رثائِها للنّبي ﷺ ، وكذلك سجّلَت آثاراً نسويةً أخرىٰ لشَاعراتٍ من عَصْر النّبوّة.

* ومن الآثارِ الجميلةِ في شعر هند بنت أثاثة هذه البائيّة الجميلة التي تنبىءُ عن رقّة مشاعرِها ، وصدْقِ إيمانها ، وأثرِ الإسلامِ في شِعْرها ، تقولُ هند :

قد كانَ بعدكَ أنباءٌ وهنْبَثَةٌ ... لو كنتَ شاهِدَها لم تكْثُرِ الخُطَبُ
إنّا فَقَدناكَ فَقْدَ الأرضِ وابلَها ... فاخْتَلْ لقومِكَ واشهدهُم ولا تغب
قد كنْتَ بدراً ونُوراً يُسْتَضاءُ بهِ ... عليكَ تَنْزِلُ من ذي العزّة الكتُبُ
وكانَ جبْريلُ بالآياتِ يحضُرنَا ... فغابَ عنّا وكلُّ الغيبِ محتجبُ
فقد رزئْتَ أباً سَهْلاً خَليقَتُهُ ... محْضَ الضَّريبة والأعراقِ والنَّسب(٢)

* وفي جلالِ المصيبةِ بوفاةِ النّبيِّ ﷺ تنفثُ هندُ بنتُ أثاثة بهذه التّائيةِ الباكيةِ الدّامعة ، وتخاطبُ عينَها بألا تملّ البكاء؛ إذ المصيبةُ قد عظُمت

---

(١) السّيرةُ النبوية (٣/ ٣٥-٣٦) وقال ابن هشام: «وأكثرُ أهلِ العِلْم بالشّعر ينكرها لهند».

(٢) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ٣٣١-٣٣٢). و«الهنبثةُ»: الأمرُ الشَّديد ، واختلاطُ القولِ ، والمناسبةُ هنا: وفاةُ النبي ﷺ ، وبوادرُ الخلاف في اختيارِ الخليفةِ بعده واللهُ أعلم.

وجلّت بوفاةِ الحبيبِ الأعظمِ سيّدنا رسولِ الله ﷺ ، وتوجّهُ هندٌ خطابَها إلىٰ سيّدة نِساءِ العالَمين سيّدتنا فاطمة الزّهراء رضيَ اللهُ عنها وأرضاها وحشَرنا في معيّتها ، تقولُ هند:

أَلاَ يـا عيـنِ ابكـي لا تملّـي ... فَقَـدْ بكَـرَ النّعـيُ بِمَـنْ هـويـتُ
وقـد بكـرَ النّعـيُّ بخيـرِ شخـصٍ ... رسـولِ اللهِ حقّـاً مـا حييـتُ
ولـو عشْنَـا ونحـنُ نـراكَ فينـا ... وأمـرُ اللهِ يَتـركُ مـا بكيـتُ
فقـد بكـرَ النّعـيُّ بـذاكَ عمـداً ... فقـد عظُمـتْ مصيبـةُ مـن نُعيـتُ
وقـد عظُمـت مصيبتُـه وجلّـت ... وكُـلُّ الجهـدِ بعـدكَ قـد لقيـتُ
إلـىٰ ربِّ البـريّـةِ ذاك نشكـو ... فـإنَّ اللهَ يعلـمُ مـا أُتيـتُ
أَفَـاطِـمَ إنّـه قـد هُـدّ رُكنـي ... وقد عظُمتْ مصيبةُ مَنْ رُزيتُ(١)

* ومن مراثيها في النّبي ﷺ هذه الدّاليّة الجميلة:

أَشَـابَ ذؤابتـي وأذلَّ ركْنـي ... بكـاؤكِ فـاطـمَ المَيْـتَ الفَقيْـدَا
فـأعطيْـتَ العَطَـاءَ فلـمْ تُكـدّرْ ... وأخْـدَمْـتَ الـولائِـدَ والعَبيـدا
وكنـتَ مـلاذَنـا فـي كُـلِّ لِـزْبٍ ... إذا هبّـتْ شَـآميـةٌ بُـرودَا
وإنّـك خيـرُ مَـنْ ركـبَ المطَـايَـا ... وأكـرمُهـم إذا نُسِبُـوا جُـدودَا
رسـولُ اللهِ فـارقَنـا وكُنَّـا ... نـرَجّـي أنْ يكـونَ لنَـا خُلُـودا
أفـاطـمَ فـاصْبـري فلقـد أصـابَـتْ ... رزيئَـتُـكِ التّهـائِـمَ والنُّجـودا
وأهـلَ البـرّ والأبحـارِ طـرّاً ... فلـمْ تخطـئْ مُصيبتُـه وحيـدا
وكـانَ الخيـرُ يصبـحُ فـي ذُراه ... سعيـدَ الجَـدِّ قـد وَلَـدَ السُّعـودا(٢)

* وبمثلِ هذه النّفحاتِ المندّاة برحيقِ الإيمانِ ، عبّرتْ هندُ بنتُ أثاثةَ في رثائِها النّبيَّ ﷺ ، وبرهنَتْ عن جَلَل المُصاب ، بفراقِ الحبيبِ الأعظمِ

---

(١) انظر : طبقات ابن سعد (٢/ ٣٣١).
(٢) نهاية الأرب (١٨/ ٤٠٦) ، وطبقات ابن سعد (٢/ ٣٣١).

مخرجِ النّاسِ من الظُّلمات إلى النّور بإذنِ العزيزِ الحميدِ؛ ولم تكنْ هندُ وحدَهَا تحلِّقُ في هذا الفضاءِ، وإنّما كانت هناك شواعرُ بكينَ رسولَ اللهِ ﷺ، ومنهنّ عمّته صفيّةُ بنتُ عبد المطلب أمُّ الزُّبير، حيث قالتْ من قصيدةٍ لها بائية؛ تخاطبُ سيّدة نساءِ العالَمين فاطمة الزهراء رضي الله عنها وحشرنا في معيتها ومعية الذين تشملهم رحمته:

أفاطِمُ بكّي ولا تَسْأَمي ... بِصُبْحِكِ ما طَلَعَ الكَوْكَبُ
هو المرءُ يُبْكىٰ وحُقَّ البُكا ... علىٰ الماجدِ السَّيِّدِ الطَّيِّبِ
فبكي الرسول وحقت له ... شهود المدينة والغيب
فَعَيْني مالَكِ لا تدمَعينَ ... وحُقَّ لِدَمعِكِ يُسْتَسْكَبُ(١)

* وقالَتْ صفيّةُ أيضاً:

عَيْنِ جُودي بِدمْعة تَسْكابِ ... للنّبيّ المطهَّرِ الأَوّابِ
عَيْنِ مَنْ تنْدُبينَ بَعْدَ نبيّ ... خصَّهُ اللهُ ربُّنا بالكِتابِ
فاتحٍ خاتمٍ رؤوفٍ رحيمٍ ... صَادقِ القيلِ طيِّب الأَثْوابِ
مشفِقٍ ناصحٍ شفيقٍ علينا ... رحمةٍ من إلهِنَا الوهَّابِ
رحمةُ اللهِ والسَّلامُ عليهِ ... وجزاهُ المليكُ حُسْنَ الثَّوابِ(٢)

ـ ومن مراثيها في ابنِ أخيها رسولِ الله ﷺ قولُها في هذه القصيدةِ الدّاليةِ المؤثّرة:

عينِ جُودي بدمعةٍ وسُهودِ ... وانْدُبي خيرَ هالكٍ مفْقُودِ
وانْدُبي المصطفىٰ بحزنٍ شديدٍ ... خَالَطَ القَلْبَ فهو كالمعمُودِ
كِدتُ أقضي الحياةَ لمّا أتاهُ ... قَدَرٌ خُطّ في كتابٍ مجيدِ
فلقد كانَ بالعِبَادِ رؤُوفاً ... وَلَهُمْ رحمةً وخيرَ رشيدِ

---

(١) انظر: نهاية الأرب (١٨/ ٤٠٤) باختيار وتصرف.
(٢) نهاية الأرب (١٨/ ٤٠٥).

رضـــيَ اللهُ عَنْــه حيّــاً وميتــاً وجَـزاهُ الجِنَـان يـومَ الخُلُـودِ[1]

* ومن روائِعهَا وبدائِعها في رثائِه ﷺ هذه اليائيّة:

ألا يـا رسُـولَ اللهِ كنْـتَ رجـاءَنَـا وكنْـتَ بنـا بـرّاً ولـم تَـكْ جَـافِيـا
وكنـتَ رحيمـاً هَـادِيـاً ومُعلّمـاً لِيَبْكِ عليكَ اليومَ مَنْ كانَ باكِيا
فـدىً لـرسـولِ اللهِ أمّـي وخَـالَتـي وعمّي وخالَي ثمّ نَفْسي ومَالِيا
فلـو أنَّ ربَّ النَّـاس أبقـىٰ نبيّنـا سعِـدْنـا ولكـنْ أمْـرُهُ كـانَ مـاضِيـا
عليـكَ مـنَ اللهِ السَّـلام تحيَّـة وأُدْخِلْتَ جنّاتٍ منَ العَدْنِ راضيا[2]

* ومن الأصواتِ النّسويّةِ التي رثتِ النّبيَّ ﷺ صوتٌ جميلٌ حنونٌ رؤوم نحبُّه؛ لأنَّ النّبيَّ ﷺ كان يحبُّ صاحبته كحبّه لأُمّه، هذا الصَّوتُ الطَّيّبُ المباركُ هو صوتُ أمِّ أيمنَ بركةَ بنتِ ثعلبة، مولاة حبيبنا وسيّدنا محمد ﷺ وهي التي قالَ فيها «أمّ أيمن أمّي»، وكان يقول لها: «يا أمّه» وإذا ما نظرَ إليها قال: «هذه بقيّةُ أهلِ بيتي»؛ هذه المرأةُ الوفيةُ ذات القَدْرِ الكبيرِ في نفسي، ترثي النّبيّ ﷺ بقصيدة جميلةٍ تتضحُ بالبراءةِ والوفاءِ والصِّدقِ والحبّ والعَطْف فتقولُ:

عَيـنِ جُـودي فـإنَّ بـذلـك للـدَّ مـعِ شِفَـاءٌ فـأكْثِـري م البُكَـاءِ
حينَ قالُوا الرّسولُ أمسىٰ فقيداً ميّتـاً كـانَ ذاكَ كـلُّ البَـلاء
وابكيَا خيرَ مَنْ رُزِئناهُ في الدّنـ ـيـا ومَـنْ خصَّـه بـوحـي السَّمـاء
بـدمـوعٍ غـزيـرةٍ منـكِ حتّـى يقضِـي اللهُ فيـكِ خيـرَ القَضَـاءِ

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٣٠)، ونساء من عصر النبوة (ص ٤٢٠) و«المعمود»: المريض لا يستطيع الجلوس حتى يعمد من جانبه بالوسائد. و«أقضي»: أموت. و«يوم الخلود»: يوم القيامة.

(٢) شاعرات العرب (ص ٢٠٤ـ٢٠٥)، ونساء من عصر النبوة (ص ٤٢٠) طبعة دار ابن كثير الثانية عام ٢٠٠٠ م.

فلقَـد كــان مــا علمـتِ وصُـولاً ... ولقــد جــاءَ رحمــةً بــالضّيــاءِ

ولقــد كــانَ بعــدَ ذلــك نُــوراً ... وسِــراجــاً يُنيــرُ فــي الظَّلمــاء

طيــبَ العــودِ والضَّــريبــة والمَعْـ ... ــدِنِ والخِيـمِ خَــاتَـمَ الأنبيـاءِ[(١)]

* وممن شاركَ في رثاءِ المصطفىٰ ﷺ من عَصْرِ النّبوة ، وظَهَرَ صوتُها عالياً هندُ بنتُ الحارث[(٢)] بن عبد المطلب التي أثّرتْ فيها وفاةُ النَّبيّ ﷺ واعترتها الهمومُ فتندَّتْ قريحتها الصَّافيةُ عن هذه الأبياتِ الدّاليةِ الصَّافية الصَّادقة:

آبَ لَيلــي علــيَّ بــالتَّسْهَــاد ... وجَفَـا الجنْـبَ غيـرُ وطْءِ الـوِسـادِ

واعتَـرتْنـي الهُمـومُ جـدّاً بِـوَهْـمٍ ... لأمــورٍ نــزلْــنَ حقّــاً شِــدادِ

رحمــةً كــانَ للبــريّــةِ طُــرّاً ... فهَــدى مَــنْ أطــاعَــهُ للسَّــدادِ

طيّـبُ العُـودِ والضّـريبـةِ والشِّـ ... ـيَمِ محضُ الأنْساب واري الزّنادِ

أبْلَــجٌ صَـادِقُ السَّجيّـةِ عَـفٌّ ... صــادقُ الـوعـدِ مُنتهـىٰ الـرّوادِ

عــاشَ مــا عــاشَ بـالبـريّـةِ بـرّاً ... ولَقَــدْ كَــانَ بنهمــة المــرتــادِ

ثــم ولّــىٰ عنّــا فقيــداً حَميــداً ... فجَــزاهُ الجنَــانَ ربُّ العِبَــادِ[(٣)]

* وفي «نهايةِ الأرب» أوردَ النّويري أثارةً من رثاءِ عمّات النّبي ﷺ لابن أخيهنّ محمّد ﷺ ، ومما أوردَهُ قصائدَ لِصَفيّةَ ، وأروىٰ ، وعاتكةَ بنات

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ٣٣٢ـ٣٣٣) ، ومنح المدح لابن سيد الناس (ص ٣٣٧) ، ونساء من عصر النبوة (ص ٣٠ـ٣١) ومعنى «م البكاء»: من البكاء وحذفه النون على لغية. و«العودُ والضّريبةُ والمعدنُ والخِيمُ»: بمعنىٰ الأصل والطّبيعة.

(٢) هندُ بنتُ الحارث بن عبد المطلب ابنة عمّ رسول الله ﷺ ، وهي صحابيةٌ فاضلةٌ ، وهي أختُ أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب الشّاعر المعروف والصّحابي الكريم ، والذي ترجمنا له في كتابِنا: «رجال مبشّرون بالجنّة» (ص ١٢٨ ـ ١٥١) طبعة دار ابن كثير الرابعة عام ١٩٩٩م.

(٣) طبقاتُ ابن سعد (٢/ ٣٣٠).

عبد المطلب ، وذكر مرثيةً لأروىٰ بنت عبد المطلب وهي :

أَلا يـا عيـنِ ويحَـكِ أسْعِـديني ... بـدمعِـكِ مـا بقيـتِ وطَـاوِعيني
ألا يـا عيـنُ ويحـكِ واستَهِلّي ... علـى نـورِ البـلادِ وأسعِـدِيني
فـإنْ عـذلتْـكِ عـاذلـةٌ فقُـولـي ... عـلامَ وفيـمَ ويحـك تَعْـذلينـي
علـى نـورِ البـلادِ معـاً جميعـاً ... رسـولِ اللهِ أحمـدَ فـاتـركيني
فـإلاّ تُقْصِـري بـالعَـذْل عنّـي ... فلُـومـي مـا بَـدَا لـكِ أو دعيني
لأمْـرٍ هـدَّنـي وأذلّ رُكْنـي ... وشَيَّـبَ بَعْـدَ جِـدَّتهـا قُـرونـي(١)

* وممّا يُروىٰ من رثاءِ النّبيّ ﷺ لعاتكةَ بنتِ عبد المطلب هذه الأبيات الدّالية اللطيفة الحزينة :

يـا عيـنِ جُـودي مـا بقيـتِ بعبرةٍ ... سحّـاً علـى خيـرِ البـريّـةِ أَحْمـدِ
يا عينِ فاحْتَفلي وسُحّي واسْجُمي ... وابكـي علـى نـورِ البـلادِ محمّـدِ
أنّى ـ لكِ الويلاتُ ـ مثلُ محمّدٍ ... فـي كُـلّ نـائبـةٍ تنـوبُ ومشْهَـدِ
فابكيْ المباركَ والموفق ذا التقىٰ ... حامي الحقيقة ذا الرشاد المرشد
مَـنْ ذا يفـكُّ عـن المُغلّـل غُلَّـهُ ... بعد المُغيّبِ في الضَّريح المُلْحَدِ
أمْ مَـنْ لكـلّ مُـدَفّـعٍ ذي حـاجـةٍ ... ومُسَلسـلٍ يشكـو الحـديـدَ مقيّـدِ
أمْ مَـنْ لـوحـي الله ينـزلُ بيننـا ... فـي كـلّ مُمْسَـىٰ ليلـةٍ أو فـي غـدِ
فعليـك رحمـةُ ربّنـا وسـلامُـه ... يا ذا الفَواضِل والنَّدىٰ والسُّؤددِ(٢)

* ومن أشعارِ النِّساء في الرّثاء النّبوي ما قالته عاتكةُ أيضاً ، هذه الأبيات الميميّة التي تنضحُ بذكْرِ الفضَائِلِ المحمديّة :

أعينيَّ جُودا بالدُّموعِ السَّواجمِ ... على المُصطفىٰ بالنُّور من آلِ هاشمِ
علىٰ المصطفىٰ بالحقّ والنُّور والهدىٰ ... وبالرُّشدِ بعد المُنْدباتِ العَظَائمِ

---

(١) نهاية الأرب (١٨/ ٤٠٥).

(٢) نهاية الأرب (١٨/ ٤٠٥ و٤٠٦).

على المُرتضىٰ للبرّ والعَدْل والتُّقىٰ ... ولـلـدّيـن والإسـلام بَعْـدَ المَظـالـمِ
على الطَّاهرِ الميمون ذِي الحلْم والنَّدىٰ ... وذي الفَضْل والدّاعي لخيرِ التَّراحُمِ
أعينـيَّ مـاذا بَعْـدَمـا قـد فُجِعْتُمـا ... بهِ تبكيانِ الدَّهْرَ من وُلْدِ آدَمِ[1]

* وذكر كثيرٌ من المصنّفين أنَّ سيّدتنا فاطمة الزّهراء ـ رضي الله عنها ـ قد رثَتْ والدَها ﷺ ، وأنّها قد قالت هذه الأبيات النّونية ـ والعاقلُ لا يخفىٰ عليه أنّها مصنوعة ـ :

اغبـرَّ آفـاقُ السَّمـاءِ وكُـوِّرَتْ ... شَمْـسُ النَّهـارِ وأظْلَـمَ العَصْـرانِ
والأرضُ مـن بعـدِ النّبـيّ كئيبـةٌ ... أَسَفـاً عليـهِ كثيـرةُ الـرَّجَفـانِ
فلتبكِـهِ شـرقُ البـلادِ وغَـرْبُهـا ... ولتبكـهِ مُضَـرٌ وكـلُّ يَمـانـي
وَلْيبْكـهِ الطُّـورُ المعظّـمُ جـودُهُ ... والبيـتُ ذو الأسْتَـار والأركـانِ
يا خاتَمَ الرّسْلِ المبارك صِنْوُهُ ... صلّـىٰ عليـكَ منـزّلُ القُـرآنِ
نفسي فِدَاؤك ما لِرأسِكَ مائِلاً ... مـا وسَّـدُوك وسَـادَةَ الـوسْنَـانِ[2]

* وينسبونَ لسيّدتنا فاطمةَ رضي الله عنها أنَّها وقَفَتْ على قبرهِ ﷺ فقالت :

ما ضَرَّ مَنْ قَد شمَّ تُربةَ أحمدٍ ... ألا يَشـمّ مـدىٰ الـزَّمـان غَـواليـا
صُبَّـت عَلَـيَّ مصَـائـبٌ لـو أنَّهـا ... صُبَّتْ عَلىٰ الأيَّام صِرْنَ لياليا[3]

* هذا ومراثي النِّساء لرسولِ اللهِ ﷺ تملأُ الصَّفحاتِ ، وقد استطردنا هنا إتماماً للفائدةِ وتنشيطاً للقارىء ، حيث إنّ وفاةَ النّبي ﷺ قد هزَّتِ

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/ ٣٢٧).
(٢) انظر : الروض الأنف (٢/ ٣٨٠) ، وزهر الآداب (١/ ٣٨) ، ونهاية الأرب (١٨/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤) ، ومن الجدير بالذكر أن سيدتنا فاطمة الزهراء لم تقل شعراً وإنما تنسب هذه الأبيات لها ، والله أعلم.
(٣) نهاية الأرب (١٨/ ٤٠٣).

النّساءَ والرّجالَ والكبارَ والصِّغار ، وذُهلوا جميعاً لولا موقفُ سيّدِ الشُّجعان وأشْجعِ الأَسْيادِ ، سيّدِنا أبي بكْر الصِّديق رضي الله عنه الذي أعلنَ أنَّ اللهَ حيٌّ لا يموتُ ، عندها ثابَ النَّاسُ إلىٰ رشْدِهم ، وعلموا صِدْقَ ما قاله الصَّديق الأكبرُ أبو بكر ، وسمعُوا جميعاً قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ عندما أخذ أبو بكر يقرأُ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. فرضي الله عن أبي بكر وحشَرنا في معيّتهِ.

هِنْدٌ في أَفْوَاجِ المُجَاهِدَاتِ:

* لما كانتْ غزاةُ خيبر ، خرجَ مع رسولِ الله ﷺ عشرون امرأةً من نساءِ المسلمين ، وفيهنَّ عمّتُه صفيّةُ بنتُ عبد المطلب ـ رضي الله عنها ـ ونساءٌ أخريات منهنّ ضيفتُنا هندُ بنتُ أثاثة ، قال ابنُ سعد: «أطعَمها النّبيُّ ﷺ بخيبر مع أخيها مسْطَح ثلاثين وسقاً»[(١)].

* وتذكرُ كتبُ السّيرةِ ودواوينُ الحديثِ النّبويّ الشّريفِ شهودَ النِّساء خيبر ، فتقول: «وشهدَ خيبرَ مع رسولِ الله ﷺ نساءٌ من نساءِ المسلمين ، فرضَخَ لهنَّ رسولُ اللهِ ﷺ منَ الفيء ، ولم يضربْ لهنّ بسَهْم»[(٢)].

* وروىٰ الإمامُ أحمدُ وغيره أنَّ النِّساء شهدنَ خيبر ، وذلك فيما رواه عن أميّةَ بنِ أبي الصَّلت. عن امرأةٍ من بني غفار ، قالت: «أتيتُ رسولَ اللهِ ﷺ في نسوةٍ من بني غِفار ، فقلنا: يا رسولَ اللهِ ، قد أردنا أنْ نخرجَ معك إلىٰ وجهك هذا ، وهو يسيرُ إلى خيبر ، فنداوي الجرحىٰ ، ونعينُ المسلمين

---

(١) انظر: الإصابة (١٢/ ١٦٠) نقلاً عن ابن سعد في الطبقات الكبرىٰ (٨/ ٢٢٨).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٨١٢)، وأبو داود برقم (٢٧٢٩) ، والترمذي برقم (١٥٥٦).

بما استطعنا ، فقال: «علىٰ بركةِ الله». قالت: فخرجْنَا معه ، وكنتُ جاريةً حَدَثةً ، فأردفَني رسولُ الله ﷺ على حقيبةِ رحْلهِ ، فوالله نزلَ رسولُ الله ﷺ إلى الصّبح وأناخَ ، ونزلتُ عن حقيبةِ رحله ، وإذا بها دم منّي ، وكانت أوّل حيضةٍ حضتُها ، فتقبضتُ إلى النّاقة واستحييتُ ، فلما رأىٰ رسولُ الله ﷺ ما بي ، ورأىٰ الدم ، قال: «مالَكِ؟ لعلّكِ نُفسْتِ»؟

قلتُ: نعم.

قال: «فأصْلِحي من نفسكِ ، ثم خذي من إناءٍ من ماءٍ ، فاطرحي فيه مِلحاً ، ثمّ اغْسِلي به ما أصابَ الحقيبةَ من الدمِ ، ثم عُودي لمركبكِ».

قالت: فلما فتحَ رسولُ الله ﷺ خيبَر ، رضخَ لنا منَ الفيءِ ، وأخذَ هذه القِلادة التي تَرَيْنَ في عنقي فأعطانيها وعلّقها بيده في عُنقي ، فواللهِ لا تفارقني أبداً.

قالت: فكانت في عنقِها حتى ماتَتْ ، ثم أوصتْ أن تُدفنَ معها ، وكانت لا تطهرُ من حيضةٍ إلاّ جعلَتْ في طهورها ملحاً ، وأوصتْ به أن يُجعل في غُسْلها حين ماتت»[1].

* وهكذا حظيتْ هندُ بنت أثاثة وهذه الغِفاريّة وغيرهما من نساءِ المسلمين بالمعيّةِ النّبويّةِ في هذه الغَزاةِ الميمونةِ ، وأخذْنَ نصيباً منَ الغنائمِ ، وكنّ كما ذكرهنَّ أحمد محرّم في ديوانه الجميلِ «مجد الإسلام» حيث قال من قصيدةٍ لاميةٍ جميلة:

أتيـنَ بِهِـنَّ مـنْ شـوقٍ غَليـلُ　　　وعُـدْنَ لَهُـنَّ منقَلَـبٌ جميـلُ

---

(١) قصة المرأة الغفارية وخبرها ، أخرجه الإمام أحمد (٦/ ٣٨٠) ، وكذلك ابن سعد في الطبقات (٨/ ٢١٤) ، والبيهقي في السنن الكبرىٰ (٢/ ٤٠٧) ، وانظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٠٤). ومعنىٰ: «حقيبة رحله»: الرفادة في مؤخر القتب. و«رضخ»: أعطىٰ عطاء غير كثير.

خرجْنَ منَ الخدورِ مُهاجراتٍ فــلا دَعَــةٌ ولا ظــلٌّ ظَليــلُ
يَسِـرْنَ مـع النَّبـيّ علـىٰ سـواءٍ ولا هــادٍ سِــواهُ ولا دَليــلُ
يُــرِدْنَ اللهَ لا يبغيــنَ دُنْيــا كثيــرُ متــاعِهــا نَــزْرٌ قليــلُ
عقائلُ في حمىٰ الإسلامِ يَسْمُو بهــنَّ مــنَ العُلــىٰ فَــرْعٌ طـويـلُ
يُجَـرّدْنَ النَّفــوسَ مُجـاهِـداتٍ بحيـثُ يجـرِّدُ العَضْـبُ الصَّقيـلُ
فـلا ضَعْـفٌ يعـوقُ ولا لُغُـوب ولا وَلَــدُ يشــوقُ ولا حَليــلُ
نِسـاءُ الصِّـدقِ مـا فيهـنَّ عَيْـبٌ وليـسَ لهـنَّ فـي الـدّنيـا مثيـلُ
أخـذْنَ عطـاءَهُـنَّ علـىٰ حَيَـاءٍ يـزيـدُ جمـالَـه الخلُـقُ النَّبيـلُ
لَئِـنْ قَـلَّ الـذي أوتيـنَ منـه فـأجـرُ اللهِ مـوفـورٌ جـزيـلُ(١)

* هذه هي هندُ بنتُ أثاثة الصَّحابيةُ الكريمةُ المجاهدةُ الشَّاعرة ، التي عشْنا مع سيرتها وقتاً جميلاً .

* وتسكتُ المصادرُ بعد ذلك فلا تنفحنا بأخبارِها ، بيد أنَّ ابن سعد يقولُ في الطَّبقات : «اغتربتْ عند أبي جُندب فولدتْ له بنته ريطة»(٢) .

* رضي الله عن هند بنتِ أثاثة ، وعن نساء الصَّحابة ، وحشرنا في زمرة السُّعداء إلى الجنَّة زُمراً ، إنّه كريمٌ مجيب .

* * *

(١) انظر : ديوان مجد الإسلام (ص ٣٢٩ و٣٣٠) بانتقاء .
(٢) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٢٨) ، وانظر : الإصابة (١٢/ ١٦٠) .

الباب الثالث

نساءٌ من العصر الإسلامي

تقيّة بنت غيث الصُّوريّة

زينب بنت أُحمد المقدسيّة

زينب بنت أحمد الغزّي

ستّ الوزرا التنوخيّة

سُعاد العُذريّة

شهدة بنت أحمد الإبْري

فاطمة بنت إبراهيم البطائحية

فاطمة بنت أُحمد الحرازيّة

فاطمة بنت الأقرع

فاطمة بنت سعد الخير

فاطمة بنت سليمان الأنصاريّة

فضّة النُّوبيّة

كريمة بنت أحمد المِروزيّة

المتكلّمة بالقرآن

تقيّة بنت غيث الصُّوريّة

* سِتُّ النعم الدمشقية ، محبة للعلم والأدب ، حاضرة البديهة ، ذكية ، لمّاحة ، عاقلة ، فصيحة .
* ذات علم غزير ، وحافظة لأشعار القدماء ، وهي شاعرة معروفة ، تجري على سجيتها مع الإعراض عما يتنافى مع الأخلاق الفاضلة .

سِتُّ النِّعَمِ:

* امرأةٌ شَدَا الزَّمانُ والأعوانُ بفضلِها، ونظموهَا في عقْدِ النِّساء المحسنات الفاضلاتِ، وعاشتْ ما يقارب ثلاثة أرباعِ القَرن، وكانت حياتها كلّها حياة عطاءٍ وسَخاءٍ، وإحسانٍ، وعلْمٍ، وما بين مولدِها ووفاتِها خيرٌ كثيرٌ، ونفعٌ غزير.

* وبطاقةُ هذه المرأة تقولُ: هي تقيّةُ بنتُ المحدِّثِ غيثِ بن عليّ بن عبد السّلام بن محمّد بن جعفر السّلميّ الأرمنازيّ الصّوري[1]، وتكنى أمّ علي، وتشتهر بكنيتها، كما أنّها تُعرف بلقب ستّ النّعم، وما أدراك ما ستّ النعم؟!.

* وستّ النّعم هذه منَ النّساء الدّمشقيّات اللواتي فتحنَ عيونهنّ على جمالِ دمشقَ، وعلى رياضِها الباسمةِ، وأقاحِيْها[2] الضَّاحكةِ، وياسمينها[3] الأنيقِ، كما عرفَتْ نرجسَها الغضّ الذي يرنو بأحداقهِ على

---

(١) الوافي بالوفيات (١٠/ ٣٨٤ و٣٨٥)، وسير أعلام النبلاء (٢١/ ٩٤ و٩٥)، وأعلام النساء (١/ ١٧٤ و١٧٥)، والأعلام (٢/ ٦٨)، والنجوم الزاهرة (٦/ ٩٦)، وشذرات الذهب (٦/ ٤٣٦ و٤٣٧)، والعبر (٤/ ٢٣٧)، ووفيات الأعيان (١/ ٢٩٧ ـ ٣٠٠)، والروضة الفيحاء في تواريخ النساء (ص ٢٨٦) ترجمة رقم (١٣٢)، ونزهة الجلساء في أشعار النساء (ص ٢٦ و٢٧)، وتاج العروس (١٠/ ٣٩٧)، وشاعرات العرب (ص ٣٧) وغيرها كثير.

(٢) من روائع ما نُظم في الأقحوان قولُ الشّاعر:

والأقحوانةُ تحكي وهيَ ضاحكةٌ ... عن واضحٍ غيرِ ذي ظَلْمٍ ولا شَنَبِ
كأنّها شَمْسةٌ من فضةٍ حُرِسَتْ ... خوفَ الوقوعِ بمسمارٍ من الذَّهبِ

(٣) ومن جميل ما نُظم في الياسمين قولُ الشَّاعر:

كأنَّ الياسمينَ الغضَّ لما ... أدرتُ عليه وسْطَ الرّوضِ عيني
سماءٌ للزبرجدِ قد تبدَّت ... لنا فيها نجومٌ من لُجيْنِ

الخزامىٰ ، فيفهمُ الخزامىٰ غزلَ عيون النّرجس[1] .

* ففي يومٍ منَ أيّام صفَر من سنةِ (٥٠٥ هـ) وُلِدَتْ هذه السَّيدة الفاضلة في دمشقَ الفيحاء ، وسماها أهلُها تقيّة[2] تيمّناً بهذا الاسمِ اللطيفِ الذي رَجَا أنْ يكونَ لها شأنٌ عظيمٌ بين نساءِ أَهل المشرقِ خاصّة ، وبين نساءِ الإسلام بعامّة .

باقَـاتٌ منْ أَخْبـارِهَا :

* تدلُّ أخبارُ ستِّ النّعم تقيّة الصُّورية إلى أنَّ والدَها أبا الفرج غيثَ بنَ علي الصُّوري الأرمنازيّ أحد علماءِ عَصْره الثّقات ، وكان خطيب[3] مدينةِ صُور ومحدثها[4] ، وقد روى عن أبي بكر الخطيب ، ورحلَ إلى دمشقَ

---

(١) ومن أروع ما نُظم في النّرجس قولُ الشّاعر:

وتـرىٰ البهـارَ مُعـانقـاً لبنفسـج ... فكـأنَّ ذلـكَ زائـرٌ ومَـزُورُ
وكـأنَّ نـرجِسَهـا عيـونٌ كُحّلَـتْ ... بـالـزَّعفـرانِ جفـونُهـا الكـافـورُ

(٢) «تقيّة»: من وقىٰ ، يُقال وقاهُ اللهُ وقياً ووقايةً ، وواقيةً: صانَه.
وفي الحديث: «فوقىٰ أحدُكم وجْهَه النّار».
ووقاهُ ما يكرهُ: حماهُ منه؛ وفي التّنزيلِ العزيز: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ [الإنسان: ١١].
والتّقي: المتّقي. وقالوا: ما أتْقَاهُ للهِ.
ورجلٌ تقي من قوم أتقياء وتُـقَواء.
ورجلٌ تقي معناه: أنّه مُوقٍ نَفْسَه منَ العذَاب والمعاصي بالعمل الصَّالح ، وأصلُه من وقيتُ نفْسي أقيها. (لسان العرب ١٥/ ٤٠١ ـ ٤٠٥) بتصرف واختصار.
وكما نقول: رجلٌ تقي نقولُ: امرأةٌ تقيّة ، وجمعُها تقيّات.

(٣) «الخطيب»: هو الذي يخطبُ النّاس ويذكّرهم في الجُمع والأعياد ونحوهما، وكانتِ الخطبةُ في أوّلِ الأمرِ من اختصاصِ الخُلفاء والأمراء. (صبح الأعشى ٥/ ٤٦٣).

(٤) «المحدّث»: يُطلق على الحافظِ لأحاديثِ النّبي ﷺ ، ويكونُ عارفاً برواةِ الأحاديثِ عالماً بأسماءِ رجال السّندِ. (صبح الأعشى ٤/ ٤٦٤).

ومصرَ ، وعاشَ ستاً وستينَ سنة ، وتوفي سنة (٥٠٩ هـ)[١]. وكان والدُها أبو الفرج هذا يُعْرفُ بابنِ الأرمنازيّ ، وكان خطيبَ صُور ، وأحدَ الفُضلاء الكبراءِ العُلماءِ ، وسمع من غيرِ واحدٍ ، وحدَّث ، وقد روىٰ عنه شيخُه أبو بكر بن الخطيب بيتَيْن من شِعْره[٢].

* وقد رضَعَتْ تقيّةُ لبانَ العِلْمِ منذ صِغَرها ، بَيْدَ أنَّها لم تعقلْ أباها جيّداً عندما وافتْه المنيّة ، فقد توفيَ أبوها وعمرها لا يتجاوزُ أربعَ سنين ، ولكنَّ ذلك لم يمنعْها من حبّ العلْمِ والأدبِ ، فنشأَتْ في رحابِ الفَضْل والمكارم ، وغدَتْ واحدةً منْ أديباتِ وعالماتِ عَصْرِها اللواتي تركْنَ في الدّنيا دوّياً كبيراً ، وكُنَّ من مشاهيرِ نساءِ المشارقةِ .

* ويظهرُ منَ الأخبارِ القليلةِ التي وصلَتْ إلينا عن تقيّةِ الصُّوريّة هذه ، وكذلك الأخبارُ التي استخلصْنَاها من سيرتها أنَّها لما بلغَتْ مبلغَ النّساء تزوَّجَتْ أحدَ أفاضل عصرِها ، ويُدعى فاضل بن سعد الله بن صمدون الصّوري المولود في شوّال سنة (٤٩٠ هـ) بدمشقَ ، والمتوفىٰ سنة (٥٦٨ هـ) بالإسكندرّية ، ويكنى بأبي محمّد ، فولدت له ابنه أبا الحسن عليَّ بنَ فاضل .

* وكان ولدُها تاج الدّين أبو الحسن عليّ بن فاضل ، وهو صوريُّ الأَصْلِ مصريُّ الدّار ، أحدَ العلماءِ الحفّاظِ[٣] الكبار ، وكان فاضلاً في علمِ النّحو والعربيّة ، والقِراءات ، حيث قرأ علْمَ القراءات على أحمَد بن

---

(١) انظر : شذرات الذهب (٦/ ٤٠) ، ووفيات الأعيان (١/ ٢٩٩) .
(٢) انظر : سير أعلام النبلاء (١٢/ ٩٥) الهامش بتصرف يسير .
(٣) «الحفّاظ» جمعُ حافِظ ؛ والحافظُ : مِنْ ألقابِ المحدّثين ، وأصلُه منَ الحفْظ ضد النّسيان ، واختصّ بالمحدثين لاحتياجِهم إلى كثرةِ الحفْظ لمتونِ الأحاديثِ وأسماءِ الرّجال ونحو ذلك ، والحافظيّ نسبةٌ إليه للمبالغة . (صبح الأعشى ٦/ ١٢) .

جعفر الغافقيّ ، وأكثر عن السِّلفي ، وسمَع بمصرَ منَ الشّريف الخطيب ، وكان رأساً في هذا الشّأْن ، وكان حَسَنَ الخطّ ، جيِّد الضَّبط لما يكتبه ، وتوفي أبو الحسن هذا في شهرِ صفرَ سنة (٦٠٣ هـ)(١) .

* وبعد هذا كلّه ، ألا تستحقُّ السَّيّدةُ تقيّة الصُّورية أنْ تكونَ ستّ النّعم؟! فهي أمُّ عالِم ، وزوجُ عالِم ، وابنةُ عالم ، بل وحفيدةُ عالِم حيث إنَّ جدَّها عليّ بن عبد السَّلام من علماء صُور ، وتوفي سنة (٤٧٨ هـ) في مدينة صور(٢) .

مِنْ لَطَائِفِهَا الأدبيّةِ :

* كانتِ السَّيّدةُ تقيّة الصُّورية حاضرةَ البديهةِ ، ذكيّةً لمّاحةً ، حَباها اللهُ عقْلاً كبيراً ، وذهناً حاضِراً ، وفصاحةً نادرةً ، وأدباً جمّاً .

* وإذا كانَ المرءُ ذا أدبٍ يزينُه في الورىٰ ، فإنّما العزُّ في الأحسابِ والآدابِ ، والنّاس معادنُ ، فهم كالفضّة أو الذّهب ، وما عدا ذوي الأدبِ والفضل فهم هَمَجٌ رعاعٌ ، ولله درّ القائل :

أكرِمْ بذي أدبٍ أكرِمْ بذي حَسبٍ   فإنّما العزُّ في الأحْسَاب والأَدبِ
والنّاسُ صِنْفَانِ ذو عقْلٍ وذو أدَبٍ   كمعدنِ الفضّةِ البيضاءِ والذّهبِ
وسائرُ النَّاس منْ بين الورىٰ همَجٌ   كانُوا مواليَ أو كانوا منَ العَربِ

* ولذا فقد كانت تقيّةُ أديبةً تحبُّ فنونَ الأدبِ ، وأصولَ اللسن ، لأنّها كانت تعرفُ بأنَّ الفصاحةَ أحسنُ لباسٍ يرتديه الإنسانُ ، وأحسنُ إزارٍ يتزرُ به العاقِلُ ، والأدبُ صاحبٌ في الغربةِ ، ومؤنسٌ في القلّة ، ورفعةٌ في

---

(١) انظر : شذرات الذهب (٧/ ٢٠) ، ووفيات الأعيان (١/ ٢٩٩) مع الجمع والتصرف .

(٢) «صور» : النّسبةُ إليها صُوري ، وهي بضمّ الصّاد ، وسكونِ الواو ، وهي مدينةٌ من ساحل الشّام .

المجالسِ ، وزينٌ في المحافلِ ، وزيادةٌ في العَقْل ، ودليلٌ على المروءةِ ، ومنِ استفادَ الأدبَ في حداثتهِ ، انتفعَ به في كِبَرِه .

* وقد انتفعتِ السَّيِّدةُ تقيَّةُ الصُّورية منَ الأدبِ ، وكانَ لها مع الحافظِ أبي طاهر السّلفي(1) لطائف أدبيةٌ تستحقُّ التّسجيل والمُذاكرة ، حيث إنَّ العَلاّمَةَ السِّلفيَّ نَفْسَه قد ذكَرها في بعضِ تعاليقِه ، وأثنىٰ عليها وكتَبَ بخطه ما مفادُه : «عثرتُ يوماً في منزل سكْنَاي ، فانجرحَ أخمصي ، فشقَّتْ وليدةٌ

(1) «الحافظُ السِّلفي» : أبو طاهر أحمدُ بنُ محمد بن أحمد الأصبهانيّ ، أحدُ الحفّاظ المكثرين ، مسندُ الدنيا ، ومعمّر الحفّاظ ، وُلدَ سنة (٤٧٢ هـ) بأصبهان ، ورحلَ في طلبِ الحديثِ ، ولقيَ أعيانَ المشايخِ ، وجابَ البلادَ ، وطافَ الآفاق ، ودخل ثَغْرَ الإسكندريّة سنة (٥١١ هـ) وكانَ قدومُه إلى الثّغر من مدينةِ صور ، وقصدَه النّاس ، وسَمعُوا عليه ، وانتفعُوا به .
ـ قال ابنُ خَلّكان : «ونقلتُ من خطّهِ فوائد جمّة ، ونقلتُ من خطّه لبُثَينة صاحبة جميل ترثيه :

وإنَّ سُلـوّي عــن جميــلٍ لَسَــاعــةٌ | منَ الدَّهْر ما حانَتْ ولا حانَ حَيْنُها
سـواءٌ علينـا يـا جميـلُ بـنُ معمـرٍ | إذا مــتَّ بـأسَـاءُ الحيـاةِ ولينُهـا»

ـ وكان كثيراً ما ينشد :

قـالــوا نفــوسُ الــدّارِ سكــانُهــا | وأنتــمُ عنــدي نفــوسُ النّفــوس

ـ وأماليه وتعاليقُه كثيرةٌ ، واستوطنَ الإسكندريَّة بضْعاً وستينَ سنة مكبّاً على الاشتغالِ والمطالعةِ والنّسخ وتحصيل الكتُب ، وجاوزَ المئة ، ومكثَ نيفاً وثمانين سنة يُسْمعُ عليه .
ـ قـال الذّهبـي : «ولا أعلمُ أحـداً مثلَـه في هـذا؛ تـزوَّجَ بالإسكندريـة امرأةً ذات يسارٍ فسلّمت إليه مالَها ، وحصلت له ثروةٌ بعد فقْرٍ ، وصارت له بالإسكندريّة وجاهةٌ» .
ـ وقال ابنُ السّمعاني : «هو ثقةٌ ورعٌ متقنٌ متثبتٌ حافظ فَهِم ، له منَ العربية حظٌّ» .
توفيَ نهار الجمعة في (٥ ربيع الآخر) من سنة (٥٧٦ هـ) بثغر الإسكندرية .
ـ رحمه الله ـ . (وفيات الأعيان ١/ ١٠٥ و١٠٦) و(شذرات الذهب ٦/ ٤٢٠ و٤٢١) مع الجمع والتصرف .

في الدّار خِرقةً من خمارِها ، وعصبَتْ به جرحي ، فأنشدتْ تقيّةُ المذكورةُ في الحالِ لنفسِها تقولُ:

لَوْ وجَدْتُ السَّبيلَ جُدْتُ بخَدّي عِوضاً عَنْ خِمارِ تِلكَ الوليْدَهْ
كَيفَ لي أَنْ أُقَبِّلَ اليومَ رِجْلاً سَلكَتْ دَهْرَها الطَّريقَ الحميْدَهْ[1]»

* قال القاضي شمسُ الدّين أحمد بن خَلِّكان ـ رحمه الله ـ معلّقاً على هذَيْن البيتَيْن اللطيفَيْن لتقيّة: «نظرتُ في هذا المعنى إلى قولِ هارون بن يحيى المنجّم:

كَيفَ نالَ العَثارُ مَنْ لَمْ يَزَلْ مِنْـ ـهُ مقيماً في كُلِّ خطْبٍ جَسيمِ
أو ترقَّىٰ الأذَى إلى قدمٍ لمْ تَخْطُ إلاّ إلىٰ مقامٍ كريمِ[2]»

* ولتقيّة الصُّورية غيرُ ذلك أشياءُ حسَنةٌ ، وأشعارٌ جميلةٌ في مواضعَ شتّى ، فمن ذلك قولها في وصفِ مليح ، وحمرة خدّه الصَّحيح :

خدُّ مَنْ أهواهُ يحكي زُحَلاً صَبغُوهُ منْ دَمي كالعنْدَمِ
ولمَاهُ عَسَلٌ فيهِ الشِّفَا وحماهُ كعْبَتي بل حُرمَتي[3]

* وروى العمادُ الأصفهاني في ترجمة السّلفي الأبيات الآتية ـ وفيها

---

(١) انظر: شذرات الذهب (٦/ ٤٣٧) ، والوافي بالوفيات (١٠/ ٣٤٨) مع الجمع والتصرف اليسير.

(٢) وفيات الأعيان (١/ ٢٩٨)؛ وانظر: الوافي بالوفيات (١٠/ ٣٨٤ و٣٨٥)؛ وهذا يدلُّ على غزارةِ علْمِ تقيّة ، وحفظِها لأشعارِ القدماءِ ، وحسنِ تصرّفها في استخدامِ المعاني في شِعْرِها.

(٣) انظر: الرَّوضة الفيحاء في تواريخ النّساء (ص ٢٨٦). ومثل هذا قول بعضهم:

وأهيفَ خدُّه منْ ماءِ وَرْدٍ يجوزُ الحسنُ فهو بلا شَبيهِ
فلو أخجلتُه بالقولِ جهْدي لحمرةِ خدِّهِ ما بانَ فيهِ

وقال آخر في هذا المعنى مقتبساً منَ القُرآن الكريم:

ونارُ خدّيه التي أضرمَتْ غدا بها كان لِقَلبي غَرام
اخترتُه مولىً وياليتَه لو قالَ: ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾

ذِكْر لتقيّةَ ـ وكتبَ بعضُ الأفاضل إليها ، وقد مدحت نَفْسَها :

وَمَا شَرفٌ أنْ يمدحَ المرءَ نَفْسَه ... وَلَكِنَّ أفْعالاً تُذَمُّ وتُمدَحُ
وَمَا كُلُّ حِيْنٍ يصدقُ المرءَ قلبُه ... ولا كلُّ أصحابِ التّجارة تَربحُ
ولا كلُّ مَنْ ترجُو لغَيْبِكَ حافِظٌ ... ولا كلُّ مَنْ ضمَّ الوديعةَ يصْلُحُ

فكتبَتْ إليهِ :

تَعيْبُ علىٰ الإنسانِ إظهار علْمِهِ ... أبالجِدِّ هذا منكَ أمْ أنْتَ تمزحُ
فَدتْكَ حياتي قد تقدَّمَ قَبْلَنا ... إلىٰ مدحِهم قومٌ وقالُوا فأَفْصَحُوا
وللْمُتنبّي أحرفٌ في مديحِهِ ... على نفسهِ بالحقّ والحقُّ واضحُ
أَروني فَتَاةً في زمَاني تفوقُني ... وتعْلُو علىٰ عِلمي وتهجو وتمدحُ[1]

تقيَّةُ تَمْدَحُ الحَافِظَ السّلفيَّ :

* كانت السّيدةُ تقيّةُ الصُّوريةُ حسنةً من حسناتِ الدَّهْر ، وشاعرةً من شاعراتِ العَصْر ، وكانتْ لا تتكلّفُ في الشّعر ، وإنّما يأتي شعْرُهَا سجيّةً ، وعفو الخاطر ، وكانت شديدة الورعِ لا تقولُ منَ الشعرِ ما يتنافىٰ مع الأخلاقِ الفاضلةِ .

* ذكرَ ابنُ خَلّكان ـ رحمه الله ـ أنَّ تقيّة الصُّوريةَ كانَتْ قد سألتِ الشَّيخَ الإمامَ العالم أبا الطَّاهر إسماعيلَ بنَ عوف الزُّهري عن الشِّعر فقال : «هو كلامٌ إنْ تكلمتِ بحُسنٍ فهوَ لكِ ، وإنْ تكلّمْتِ بشرٍّ فهو عليكِ»[2] .

---

(١) انظر : خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر ٢/ ٢٢٣) .

(٢) معجم السّفر للسّلفي (رقم ١٠١) . ومنَ الجديرِ بالذّكر أنَّ السّلفي كان شاعراً يقرضُ الشّعر ، وله أشعارٌ جميلةٌ مطربةٌ منها قوله :

إنَّ علمَ الحديثِ علمُ رجالٍ ... تركُوا الابتداعَ للاتباعِ
فإذا الليلُ جَنَّهمْ كتبوهُ ... وإذا أصبحُوا غدوا للسَّماعِ

وله أيضاً : =

* لذا آلت تقيّة على نفسِها ألا تقولَ منَ الشِّعْرِ إلا الحسنَ اللطيف ، كيما يكتبُ لها ، ويشهدُ بمحاسنِ ألفاظِها وبراعتها.

* وكانت تقيّةُ هذه تجلُّ الحافظَ السّلفيَّ وتحترمُهُ ، وكان السّلفي أحدَ الحفّاظ المكثرين عنِ الرّواة والشّيوخ ، كما أنّه قد روى عن تقيّة وغيرِها منَ النّساء؛ وكان يقرُّ لتقيةَ بأنّها شاعرةٌ حسنةُ الإنشاءِ ويقول: «أنشدتني تقيةُ بنتُ غيث بن علي الأرمنازيّ الصّوري المدعوة بستّ النّعم بالثّغر ، ولم ترَ عيني شاعرة سِواها»(١).

* وتذكرُ المصادرُ أنَّ تقيَّة قد مدحتِ السّلفي في قصيدةٍ جميلةٍ بديعةٍ ، أظهرتْ فيها منَ البراعةِ وحسن النَّظم ما يشهدُ لها بالتفوّق في هذا المضْمار ، حيث ذكرتْ كثيراً من الوردِ والزَّهْر في مدحِهِ؛ ومن هذه القصيدةِ الجميلةِ في الحافظ المذكور قولُها:

أَعْـوامُنـا قَـدْ أشْـرقَـتْ أيّـامُهـا ... وعَلا علىٰ ظَهر السِّماكِ خيَامُها
وَالـرّوضُ مبتسـمٌ بنـورِ أقَـاحِـهِ ... لمّـا بكـىٰ فَـرَحـاً عليـهِ غَمـامُهـا
وَالنّرجسُ الغضُّ الذي أحداقُه ... تـرنُـو فيفهـمُ مـا يقـولُ خـزامُهـا

= ليـسَ علـىٰ الأرضِ فـي زمـانـي ... مَـنْ شـأنُـهُ فـي الحـديـثِ شَـانـي
نقـلاً ونَقْـداً ولا علـوّاً ... فيـهِ علـى رغـم كـلّ شَـانـي

وله أيضاً:

كـم جبـتُ طُـولاً وعَـرضـاً ... وجُبْـتُ أرضـاً فـأرضَـا
ومـا ظفـرتُ بِخِـلٍّ ... مـن غيـر غـلٍّ فـأرضـىٰ

(١) من جميلِ وبديعِ ما قيل في الرّوض والرّياض قول الشاعر:

ألستَ ترىٰ وشْيَ الرِّياض المُنمْنَما ... ومـا رصَّـع الـرَّبعـيُّ فيـهِ ونظَّمَـا
وقـد حَكَتِ الأرضُ السَّمـاء بنورهـا ... فلـمْ أدْرِ فـي التّشبيـه أيّهمـا سَمَـا

وقال الآخر:

هـذي الـرّيـاضُ كـأنّهـنَّ عـرائـسٌ ... يخطـرنَ بيـنَ تمـايـلٍ وتبختُـرِ
فـي جـوهَـرٍ فـاقَ الجواهـرَ قيمـةً ... لـو أنَّـه يبقـىٰ بقـاءَ الجـوهـرِ

وَشَقائقُ[1] النُّعمانِ في وجنَاتِهِ … خَالاتُ مسْكٍ حاكَها رُقَّامُها
وبنفسجٌ[2] لبسَ الحِدادَ لحزنِهِ … أسفاً على مُهَجٍ يزيدُ غرامُها
والجُلنارُ[3] علىٰ الغصونِ كأكْؤُسٍ … خرطَتْ عقيقاً والنُّضارُ مدامُها
وغصونُ آسٍ[4] شَبَّهَتْهُ عيونُنا … غيداءَ يثْني قَدُّهَا وقَوَامُها
وكأنَّما زَهْرُ الرّياضِ عَسَاكر … في موكبٍ منشورة أعلامُها
يبدي نَسيم الصُّبحِ سرّ عبيرهَا … فينمُّ عن طِيْبٍ بها نمَّامُها
يا صاحِ قُمْ لِسَعادةٍ قد أقبلتْ … وتنبَّهتْ بعدَ الكرىٰ نوّامُهَا
واجمع خواطِرَنَا لِنَجْلوَ فِكْرَهَا … لمّا تجرَّدَ للقريضِ حُسامُهَا
مَدْحُ الإمامِ علىٰ الأنامِ فريضةٌ … فخرُ الأئمةِ شيخُها وإمامُهَا[5]

---

(١) ومن أجمل ما قيل في شقائق النّعمان قولُ ابن الرومي:
هذي الشّقائق قد أبصرتُ حُمرتَها … مع السَّوادِ على قُضبانها الذّلُلِ
كأنّها أدمعٌ قد غسّلَتْ كُحُلاً … جادتْ بها وقفةٌ في وجنتَي خَجِلِ

(٢) من أجملِ الأشعارِ في البنفسج قول الصّنوبري:
وبنفسجٍ غضّ القِطاف كأنّه … مِنْ خالص الياقوتِ نوعٌ أزرقُ
عُقِدَتْ صوالجهُ فقامَ مُزنّراً … بينَ الكُراتِ وبعضُه مُتَمنْطِقُ
وقال ابنُ المعتز:
وكأنَّ البنفسجَ الغضَّ يحكي … أثرَ القرص في خُدودِ الجَواري

(٣) مما قيل في الجلنار وجماله، ما قاله ابن سناء الملك:
وجلّنارٍ على غُصونٍ … وكلُّ غصن بهنَّ مائسْ
يحكي الشّراريبَ وهي خضرٌ … وهو بأطرافِها كبائسْ
وقال آخر:
كأنّما الجلّنارُ لمّا … أظهرهُ الرّوضُ للعيونِ
أناملٌ كلّها خضيبٌ … تنشرُ لاذاً على الغُصونِ

(٤) وممّا قيل في الآس:
للآسِ فضلُ بقائِهِ ووفائِهِ … ودوامُ منظَرِهِ على الأوقاتِ
قامتْ علىٰ أغصانِهِ ورقاتُهُ … كنصول نَبْلٍ جدّ مُؤتلفاتِ

(٥) وفيَاتُ الأعيان (١/ ٤٦٩).

عِلْمِي بِهَذَا كَعِلْمِي بِهَذا:

* تدلُّ أخبارُ تقيَّة الصُّورية على مجدِها الشِّعريّ ، وعلى أفقِها الواسعِ ، وخيالِها الخصيبِ ، ناهيك بمعارِفها الواسعةِ ، وثقافتها الجميلة.

* من ذلك ما ذكرهُ ابنُ خلّكان قال: «حكىٰ لي الحافظُ زكي الدّين أبو محمد عبد العظيم المنذريّ ـ رحمه الله ـ أنَّ تقيّة المذكورةَ نظمتْ قصيدةً تمدحُ بها الملك المظفّر تقي الدّين عمر ابنَ أخي السّلطان صلاح الدّين ـ رحمهما الله تعالى ـ؛ وكانتِ القصيدةُ خمريةً ، ووصفَتْ آلةَ الخمرِ وما يتعلّق بالخمرِ ، فلما وقَفَ عليها قال: الشَّيخةُ تعرفُ هذه الأحوالَ منْ زَمنِ صباها ـ أو من زمن الصّبا ـ فبلغَها ذلك ، فنظمَتْ قصيدةً أخرى حربّيةً وصفَتْ بها الحرب وما يتعلّقُ بها أحسنَ وصْفٍ ، ثمّ سيَّرت إليه تقول:

«عِلْمي بهذا كَعِلْمي بهذا. وكان قصدها براءةَ ساحِتها مما نَسَبها إليه»[1].

* ومن شعرِ تقيّة في التّشوّقِ إلى دمشقَ الشّام ، وكانت قد نأَتْ عن واديها الجميل ، وباتَتْ تساهر النّجوم ، فلعلَّها تغفو ، وترىٰ في الطّيفِ دمشقَ الجميلةَ الحبيبةَ ، فاسمعْ إليها تقول:

نأَيتُ وما قَلْبي عَنِ النّأْي بالرّاضي ... فلا تَغْتَرِرْ منّي بصدّي وإعْراضِي
وإنّــي لمشْتَــاقٌ إليهــم متيّــمٌ ... وقَدْ طعنُوا قَلبِي بـأسمَـر عـرّاضِ
إذا مَــا تـذكَّـرْتُ الشّـآمَ وأهْلَـهُ ... بكيتُ دماً حزناً على الزّمنِ الماضي

---

(١) انظر: وفيات الأعيان (١/ ٢٩٨)؛ وانظر: الوافي بالوفيات (١٠/ ٣٨٥) ونزهة الجلساء في أشعار النساء (١/ ١٧٤) والدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص ١٠٩) ، والأعلام (٢/ ٦٨).

ومُذْ غبْتُ عنْ وادي دمشقَ كأنّني   يُقـرِّضُ قَلبـي كـلَّ يـومٍ بمقْـراضِ
أبيتُ أُراعي النَّجمَ والنَّجْمُ راكدٌ   وقد حَجبُوا عنْ مُقْلَتي طيبَ إغماضِ
فَهَـلْ طـارقٌ منهـم يلـمُّ بنـاظـري   فـإنَّ لقـاءَ الطَّيـفِ أكْثـرُ أَغْـراضـي
لَعَـلَّ الليـالـي أنْ تجـرِّدَ صـارمـاً   على البَيْن أو يقضي لها حَكَمٌ قاضي[1]

* ولعلَّ أبياتَ تقيّة الصّورية في التّشوّق لدمشق ، تذكّرنا بأبياتِ عائشة بنت يوسُف الباعونيّة المتوفاة سنة (٩٢٢ هـ) التي تقولها في دمشقَ الشَّام:

نَـزِّه الطَّـرفَ فـي دمشْـقَ ففيْهـا   كُـلُّ مَـا تَشْتَهـي وَمَـا تَخْتَـارُ
هـيَ فـي الأَرضِ جَنَّـةٌ فتـأمَّـلْ   كَيْـفَ تَجْـرِي مِـنْ تحتِهـا الأَنْهـارُ
كَمْ سَمَا في ربوعها كُلّ قَصْرٍ   أشـرقَـتْ مـن وجـوهِهـا الأقمـارُ
وتنـاغيـكَ بينهـا صَـارِخَـاتٌ   خَـرسَـتْ عـن نُطْقِهـا الأَوتَـارُ
كُلُّهـا روضَـةٌ ومَـاءٌ زُلالٌ   وقُصُـورٌ مشيـدةٌ وديَـارُ[2]

* ومن الجديرِ بالذّكر أنَّ تقيّةَ الصُّورية قد روى عنها من شعرِها أبو القاسم بن رواحة ، كما أنّها مدحتِ السّلفي ـ كما مرّ معنا ـ ومدحت كذلك صاحب حماة بقصيدةٍ طويلة جميلة فأجازَهَا[3].

مـنَ الفَاضِـلاتِ الـمُحْسِنَـاتِ الخَالِـدَاتِ :

* لما شمَّر المصنّفون أيديهم للكتابةِ عن نسائنا في المشرقِ العربيّ ، ذكروا تقيّةَ الصُّورية هذه ، وأسبغوا عليها حُللَ الإنعامِ والاحترام ، وهي بلا شكّ تستحقُّ هذا وأكثر.

---

(١) الوافي بالوفيات (١٠/ ٣٨٥).
(٢) شذرات الذهب (١٠/ ١٥٩) ، والكواكب السّائرة (١/ ٢٩٢) ، وشاعرات العرب (ص ١٣٢) وغيرها.
(٣) انظر : سير أعلام النبلاء (٢١/ ٩٥) ، والروضة الفيحاء (ص ٢٨٦).

* فقد نشأَتْ تقيّةُ نشأةَ بناتِ العُلماء ، ونساء العلماء ، ونهلَتْ من علوم عصرِها ومعارف وقتها ما جعلَها واحدةً من مشاهيرِ النّساء ، فقد كانت إحدى الشَّواعر الفاضلات المجيدات المُحسنات.

* قال الإمامُ الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ لما ترجم لها: «تقيّةُ بنتُ المحدّث غيث . . شاعرة مُحسنة مشهورة ، وهي والدةُ المحدّث علي بن فاضل بن صَمْدون»[1].

* وفي «وفَياتهِ» قال ابنُ خَلّكان: «أمُّ علي تقيّةُ كانت فاضلة ، ولها شعْر جيّد ، قصائد ومقاطيع ، وصحبتِ الحافظَ أبا الطَّاهر أحمد بن محمد السّلفي الأصبهانيّ ـ رحمه الله تعالى ـ زماناً بثغرِ الإسكندرية ، وذكرَها في بعضِ تعاليقه وأثنى عليها»[2].

* وذكرها الحافظُ المنذريّ ـ رحمه الله ـ في ترجمةِ ابنها عليّ من «التّكملة» وقال: «وحدّثنا عنها شيخنا الحافظُ المقدسي وغيره ، وكان شيخُنا أبو الحسن يثني عليها كثيراً»[3].

* بينما ذكرَها ابنُ العماد الحنبليّ في «شَذراته» بقوله: تقيّةُ بنتُ غيث بن عليّ الأرمنازي الشّاعرةُ المُحسنةُ ، لها شعْرٌ سائرٌ ، وكانت امرأةً برزةً جلدةً ، مدحت تقي الدِّين عمر صاحب حماة والكبار ، ولها ابنٌ محدّث»[4].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٩٤).

(٢) وفيات الأعيان (١/ ٢٩٧ـ٢٩٨). وقال الحافظ أبو طاهر السلفي: «أنشدتني تقية بنت غيث بن علي الأرمنازي الصوري المدعوة بـ ست النعم بالثغر ، ولم تر عيني شاعرة سواها». (معجم السفر برقم ١٠١).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٩٥) الهامش.

(٤) شذرات الذهب (٦/ ٤٣٦ـ٤٣٧).

* وفي «نزهَتِه» ترجم لها السُّيوطي فقال: «كانت فاضلةً ، ولها شعرٌ وقصائدُ ومقاطيعُ ، ذكرها السّلفي في بعضِ تعاليقه وأثنى عليها»[1].

* وفي كتابه الشَّهير الكبير «الوافي بالوفَيات» أثنى عليها صلاح الدّين الصّفدي فقال: «أمُّ علي الشَّاعرة تقّيةُ. . . ، هي أمّ تاجِ الدّين أبي الحسن. . . كانت فاضلةً ولها شعْرٌ: قصائد ومقاطيع؛ وصحبتِ الحافظَ السّلفي زماناً بالإسكندرية»[2].

* وأمّا ياسين بن خير الله العمريّ فقال عن تقية: «كانت أوحدَ أهلِ زمانها بالأدبِ ، ولها مشاركة في بعضِ العُلوم ، وأتقنتِ النّحو ، ولها شعْرٌ جيّد»[3].

* وفي «دُرّها المنثور» نثرتِ السّيدةُ زينبُ بنت يوسُف فواز العامليّة هذه المعلومة فقالت: «تقيّةُ. . . ذكرها الحافظُ السّلفي في تعليقهِ ، وأثنى عليها ، وأخذتْ عنه العلْم بثغرِ الإسكندريّة ، وفاقتِ الرّجال ، ولها زيادة على ذلك الباع الطّولىٰ في الشّعر والأدب ، ولطائفها الأدبية مع الحافظِ المذكور كثيرة»[4].

* وأدلى الزَّبيدي دلوه في الثَّناء عليها فقال: «تقيةُ الأرمنازية مجيدةٌ ، بديعةُ النَّظم»[5].

* وقال عمر رضا كحّالة: «تقيةُ بنتُ غيث بن علي الأرمنازيّ الصّوريّ

---

(١) نزهة الجلساء (ص ٢٦).
(٢) الوافي بالوفيات (١٠/ ٣٨٤).
(٣) الروضة الفيحاء (ص ٣٨٦).
(٤) الدر المنثور (ص ١٠٩).
(٥) تاج العروس من جواهر القاموس (١٠/ ٣٩٧).

شاعرةٌ مجيدةٌ بديعة النَّظم ، ولها قصائدُ ومقاطيعُ في ديوانٍ صغير»[1] .

* بينما نجدُ أنَّ خيرَ الدِّين الزّركليّ في «الأعلام» يصفُها بقوله: «تقيةُ بنتُ غيث بن علي السّلمي الأرمنازي أمّ علي ، وتلقب بـ ستّ النّعم ، فاضلة متأدّبة ، لها شعرٌ جيّد ، قصائد ومقاطيع ، جمعت في ديوانٍ صغير ، أصلُها من بلدةِ صُور ، وولدت في دمشقَ ، وسكنتِ الإسكندريةَ ، وتوفيت بها»[2] .

* هذا وقد أثنى عليها كُلّ مَنْ كتبَ عنها ، وامتدحَها بالفَضْلِ والأدبِ والبلاغةِ والبيانِ واللسنِ والفصاحةِ ، وهذا مما يزيدُ في رصيدِ نساءِ المشرقِ العربي في ميدانِ العلْم والأدبِ .

* أمّا عن وفاة تقيّة الصُّورية ، فنذكر أنَّ المنيَة قد وافَتْها في الإسكندرية في أوائل شهرِ شوّال من سنة (٥٧٩ هـ) وعمرها (٧٦ سنة)[3] رحمها الله تعالى .

* * *

(١) أعلام النساء (١/ ١٧٤) .
(٢) الأعلام (٢/ ٦٨) .
(٣) وفيات الأعيان (١/ ٢٩٩) ، وسير أعلام النبلاء (٢١/ ٩٥) ، والوافي بالوفيات (١٠/ ٣٨٥) ، وأعلام النساء (١/ ١٧٥) ، وغيرها كثير .
وقال الذهبي في «العبر»: عاشت (٧٤ سنة) وهو الصّواب ، فقد ذكر السّلفي أنّها وُلدتْ في المحرّم سنة (٥٠٥ هـ) والله أعلم .

زينب بنت أحمد المقدسيّة

* شيخة مسندة ، أنفقت عمرها في العلم والحديث والفقه ، حتى غدتْ عَلَماً في العلم والعمل والصلاح والتواضع .

* واحدة من أساتذة العلماء والعالمات في عصرها ، ولها تلاميذ كثيرون كابن الخباز ، وابن الصائغ .

المَـرْأَةُ الصَّالِحَـةُ العَـذْرَاءُ:

* عاشَتْ هذه المرأةُ الصَّالحُة قرابةَ قَرنٍ مَن الزَّمان، وكانت شيخةً مسندةً أنفقَتْ عمرها كلّه في طلبِ العلْمِ والحديثِ والفقْهِ، حتى غدتْ من صَوالحِ نساءِ المشرق العربيّ عِلماً وعَمَلاً، وصَلاحاً وتواضُعاً.

* لم تتخذْ هذه العالمةُ الشَّيخةُ زوجاً ولا وَلَداً ولا ابنةً، وإنّما اتّخذتِ الكُتبَ صاحباً وأنيساً[1]، والحديثَ النّبويَّ جَليساً، و[خير جليسٍ في الزَّمان كتاب][2]، ولعلَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أرادَ لهذهِ المرأة الخيرَ بذلك، كيما تكونَ من حافظاتِ حديثِ نبيّه ﷺ، وراويات الصَّحيح، وناقلات العِلم.

* ولعلَّ شغفَ هذه المرأة المُسندة بحبِّ العلْم وحبّ الحديث قد جعلَها منْ أشهرِ نساءِ وقْتِها بالرِّواية، حتى إنَّ النَّاس قد نزلُوا بموتِها درجةً في الرّواية.

* هذه المحدثةُ العالمةُ هي زينبُ بنتُ أحمد بن عبد الرَّحيم المقدسيّة الصَّالحيّة، المرأةُ الصَّالحة العذراءُ، وتُعْرَفُ ببنتِ الكمال، وتكنى أمّ محمد، وأمّ عبد الله[3].

---

(١) منَ الأشياءِ التي تسرُّ القلبَ والخاطِرَ، أنّه كان في بعضِ العُهودِ الماضيةِ مكانةٌ عظيمةٌ للكتاب النَّافع عند أهلِ الفتاةِ، فكانت لا تُجهَّزُ العروسُ إلا يُجهَّزُ معها بعضُ الكتب الشَّرعيّةِ النَّافعة.
ـ ذكر الإمامُ الذّهبيُّ ـ رحمه الله ـ أنَّ البِكْرَ كان في جهازها عند زفافِها نسخةٌ من كتابِ «مختصر المُزَني». (سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٣٣). نرجو اللهَ أن تعودَ هذه العادةُ النَّافعةُ في أيّامنا هذه، وأنْ تتعظَ نساؤُنا وتنتفعَ بناتُنا ويَلْتفِتْنَ إلىٰ دينهنَّ لِيُصْلِحْنَ آخرتهنَّ.
(٢) هذا عجز بيتٍ للمتنبي وصدْرُه: [أعزُّ مكانٍ في الدُّنا سَرْجُ سَابحٍ].
(٣) شذرات الذهب (٨/ ٢٢١)، وذيل العبر (٤/ ١١٧)، والوافي بالوفيات (١٥/ ٦٨)،=

* وبنتُ الكمالِ هذه مفخرةُ نساءِ الشَّام في العِلْمِ والرّواية ، حيثُ نهلَتْ منْ عددٍ منَ العُلومِ الشَّرعيّةِ المتنوّعةِ عن مشاهيرِ العلماءِ وكبرائهم في ذلك الوقتِ ، وهذا ما يسجّل لها فَضْلاً عظيماً ، ويسجّل للمرأةِ المسلمةِ العالِمةِ أيضاً الفَضْل والفخر ، إذْ إنَّ ذلك دليلٌ على نضارةِ وحيويةِ الإسلامِ في كلّ زمانٍ ومكانٍ ، وكلّ عَصْر ومصْر .

* ومنَ المعروف أنَّ النِّساءَ هُنَّ شقائقُ الرِّجال ، وخصوصاً في الرّواية والتّحديث ، لأنَّ النِّساءَ مثلُ الرّجال في التّحمُّل للعلْمِ ؛ ونجدُ مصداقَ ذلك من الهدي المحمديّ ، حيثُ حرصَ سيّدُنا وحبيبُنا رسول الله ﷺ على تعليمِ جماعةِ النِّساء ، وإسماعهنّ حديثَه الشَّريف ، فهنّ مُكلّفات بذلك منذ أنّ جهرَ ﷺ بالدَّعوةِ إلى اللهِ في مكّةَ المكرمةِ .

* جاء في «الصَّحيحَيْن» عن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ؛ قال: قامَ رسولُ الله ﷺ حين أَنْزلَ الله: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشّعراء: ٢١٤] ، قال: «يا معشرَ قُريش ، اشتروا أنفسَكم لا أُغني عنكم من اللهِ شيئاً؛ يا بني عبد منَاف ، لا أغني عنكم من اللهِ شيئاً؛ يا عبّاس بن عبد المطلب ، لا أغني عنكَ من الله شيئاً ، ويا صفيّة عمّة رسول الله ، لا أغني عنكِ من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمّد ، سَليني ما شئتِ من مالي ، لا أغني عنكِ من اللهِ شيئاً»[1] .

= وأعلام النساء (٢/ ٤٦ ـ ٥٠) ، والدرر الكامنة (٢/ ١١٨) ، والوفيات لابن رافع السّلامي (١/ ٣١٦ ـ ٣١٨) ، وأعيان العصر وأعوان النصر لصلاح الدين الصفدي (٢/ ٧١٢ و٧١٣) ، ومرآة الجنان (٤/ ٣٠٥) ، والأعلام (٣/ ٦٥) ، والسلوك (٣/ ٥٧)، وبرنامج ابن جابر الوادي آشي (ص ١٧٦) ترجمة رقم (٢٧٩) ، وغيرها.

(١) أخرجه الشَّيخان ، ومنَ الواضح في هذا الحديثِ الشّريف أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد خصَّ بعضَ الكُبراءِ والأشرافِ بدعوتهِ ، خصَّ كذلك بعضَ الكبيرات والشّريفاتِ بها

* وعلّقَ محمّد المنتصر الكتّاني على الحديثِ السَّابق تعليقاً جميلاً فقال: «فما كادت تسمعُ المرأةُ العربيّةُ باسْمِها يُنادىٰ ويُهتفُ به حتى استجابَتْ للنّداء سَميعَةً، مُطيعةً، خفيفةً، مرحةً، كلُّها آذانٌ وانتباه وأَلْسِنةٌ مجيبةٌ: لبيكَ لبيكَ يا داعي السّماء، يا أيّها الأمين والصِّدِّيق؛ لقد عرفْنَاك وليداً قد خُلِقَتْ بك الدّنيا خَلْقاً جديداً، وعرفناكَ رضيعاً فكان اليُمْنُ والخيرُ مُصاحِباً لمرضعَاتِك، وعرفْنَاك يافعاً فعرفْنا بك الطُّهر والعفاف، ثم صِرْتَ زوجاً فكنْتَ فذّاً في قومك، حُنوّاً وبرّاً، ثمّ عرفناك أباً فعرفنا الأبوّة البرّة الكريمةَ لكرائم معززاتٍ مكرماتٍ، لا عهدَ لنا بمثلها أبوة لمثلهنّ عذارى مدللات، فمن مثلك أصلح للنذارة الصّادقة، والبشارة السّارة، والقيادة الرّشيدة لهذه البشريّة الضّالة، وإذا بالمرأةِ العربيةِ تستزيدُ نذيرهَا الهادي ما تعرفُ به حقيقتها، وتدركُ به غايتها من هذه الدّنيا، وواجبها فيها، والفروق بينها وبين مستعبديها منَ الرّجال، وإذا بها تدرك وما يزالُ بها رمقٌ أنّ الأصلَ واحدٌ، والحقوق والواجبات مشتركة، وأنهنّ والرّجال شقائق، فآمنتْ بهذا الدّاعي الحبيبِ الذي يُنذرُهَا وقومَها: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ﴾ [النّساء: ٣٢]؛ و«إنّما النّساء شقائقُ الرّجال»(١).

* لذلك كانتِ المرأةُ العربيّةُ السَّبَّاقة لهديِ النُّبوة ودِيْن الحقّ، قد سبقتِ الرّجالَ جميعاً، فكانت خديجةُ بنتُ خويلد زوجُ رسول الله ﷺ أوّلَ مستجيبٍ ومؤمنٍ ومشجّعٍ، فكانت تقوّي قلبَه لِتَلقّي ما أَنْزلَ اللهُ عليه(٢).

= أيضاً، وهذا يدلُّ على مكانتهنّ، واستقلال شخصيتهنّ، وتلقيهنّ هذا الدِّيْنَ منذ اليوم الأوّل كالرجلِ سواء بسواء.

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٢٥٦)، وأبو داود برقم (٢٣٦).

(٢) عن كتاب: عناية النساء بالحديث النبوي (ص ١١ ـ ١٢) باختصار يسير.

* وتتابعتْ نساءُ الأمّة فيما تلا عَصْر النّبوة من عصورٍ بالاستجابةِ إلى الدَّعْوةِ المحمديّة ، فكُنَّ سميعاتٍ مطيعاتٍ ، ورحْنَ يتعلمْنَ ويُعلِّمْنَ ، ولم يتركْنَ هذا الميدانَ يستأثرُ به الرّجال وحدهم ، وإنّما شاركْنَ فيه ، وكان لهنّ أطيبُ الأثرِ فيه .

* ولذا فإنّه ينبغي أنْ يعتنيَ العلماءُ وأولياءُ الأمور بالنّساء كما اعتنىٰ بهنَّ النّبي ﷺ والسَّلف الصَّالح ، فيأخذْنَ العلْمَ والرّواية ، ويتحملنَ ذلك كالرّجال لِيكُنَّ هادياتٍ مهتدياتٍ ، مفاتيحَ للخير ، فما من طاعةٍ تقومُ على الوجه الصَّحيح إلا بالعلْمِ ، والعلمُ منْ أفضلِ الطَّاعات على الإطلاقِ ، وهذا ما ذكرته أمُّ الدرداء العالمةُ الفقيهةُ حيث قالت : «لقد طلبتُ العبادةَ في كلِّ شيء ، فما أصبتُ لنفسي شيئاً أشفىٰ منْ مجالسةِ العُلماء ومذاكرتهم»[1] .

فما أحوج نساء هذه الأيّام لأمثالِ أمّ الدرداء من المربّيات العالماتِ الفاضلاتِ الزّاهدات[2] ! ومثلِ زينب بنت أحمد التي نرصّعُ هذا الكتاب بأخبارِها وسيرتها ! !

زينَبُ ومَجَالِسُ العِلْمِ وشيُوخُهُ :

* وُلدَتْ زينبُ بنتُ أحمد المقدسية في دمشقَ سنةَ (٦٤٦ هـ) ، ويظهرُ أنَّ مولدَها كان في أسرةٍ يشيعُ فيها حبُّ العِلْم ، والاهتمامُ بالعلماء ، فتشيرُ

---

(١) المرجعُ السَّابق (ص ١٣) بتصرف يسير .

(٢) قال عبدُ الحميد بنُ باديس : «إنَّ الجهالةَ التي فيها نساؤُنا اليوم هي جهالةٌ عمياء ، وإنَّ على أوليائِهنَّ المسؤولين عنهنَّ إثماً كبيراً فيما هُنَّ فيه ، وإنَّ أهلَ العِلْم والإرثِ النَّبوي مسؤولون عن الأُمّةِ ، رجالِها ونسائِها ، فعليهم أنْ يقوموا بهذا الواجبِ العظيم في حقّ النّساء بتعليمهنّ خلْفَ صفوفِ الرّجال ، وفي يومٍ خاص بهنّ اقتداءً بالمعلّم الأعظم ، ﷺ» .
(هدي النبوة ص ١٣٣) .

أخبارها إلى أنَّها قد أُحْضِرَتْ في صغرِها مجالسَ الحديثِ المنتشرة في دمشقَ آنذاك ، وكانت زينبُ إذ ذاك طفلة في الثَّالثةِ من عمرِها .

* ولعلَّ هذه المجالس قد أثّرتْ في زينَب تأثيراً واضحاً ، وهي ما تزالُ صغيرةَ السِّنّ طريّةَ العُود، فنشأَتْ ونشأَ معها حبُّ العلْمِ ، فبعد أنْ أُحْضِرت في صغرِها تلكم المجالس النّضرة ، أخذتْ تسمعُ فيما بعد بنفسِها على ثلةٍ من حفّاظِ دمشق الشّام ومُسنديها ، ومن الواردينَ عليها من أكابرِ علماءِ الأمْصَار ومشاهيرِهم ، فقد سمعت كثيراً من الكُتُب والأجزاءِ الحديثيّة .

* ولزينبَ بنتِ الكمال شيوخٌ كثيرون ، وشيخاتٌ أيضاً ، أخذَتْ عنهنَّ العلْم بطريقِ السَّماع .

* ومن أشهرِ شيخاتها : المحدّثةُ حبيبةُ بنتُ أبي عمر المقدسية ، وهي أوّلُ شيخةٍ حضرَتْ زينب عليها ، وتحمّلت عنها بطريق السّماع ؛ وذلك في سنة (٦٤٨ هـ)[١] .

* ومن أشهرِ مشايخها الذين سمعت منهم وأجازوها : محمدُ بن عبد الهادي بن يُوسف المقدسيّ الصّالحي المتوفىٰ سنة (٦٥٨ هـ) حيث سمعت منه وأجازَها .

* ومن مشايخها أيضاً خطيبُ مُرْدا[٢] واسمُه محمدُ بنُ إسماعيل بن أحمد المقدسيّ الحنبليّ المتوفىٰ سنة (٦٥٦ هـ) حيث سمعتْ منه وأجازها أيضاً .

* وسمعتْ زينبُ بنتُ أحمد من سبْطِ الحافظِ ابن الجوزي وغيره أيضاً .

---

(١) انظر : الدرر الكامنة (٢/ ١١٧) .
(٢) انظر : برنامج ابن جابر الوادي آشي (ص ١٧٦) .

* وهناك عددٌ من الحفَّاظ والعُلماء الذين لم تستطعْ زينبُ أنْ تأخذَ عنهم العِلْم بالسَّماع والتّلقّي؛ ولعلَّ السِّرَّ في ذلك هو بُعْدُ أوطانِهم ، وبُعْدُ الشُّقَّة ، أو لأسبابٍ أخرى؛ لذلك استجازَتْ عدداً من حفّاظ العَصْر ومحدثيهم المشاهير الأعلام في الشّامِ ، والعِراقِ ، ومصرَ ، ثم إنّها روَتْ عنهم بعد ذلك بالإجازةِ.

* ويزيدُ عددُ الذين استجازتهم زينب عن ثلاثين حافظاً وحافظةً ، فمنَ العُلماء والمشايخِ الذين استجازتهم: مسندُ بغدادَ المحدث إبراهيم بن محمود بن سالم بن الخير الأزجيّ البغداديّ الحنبليّ المتوفى سنة (٦٤٨ هـ) ، وأبو نَصْر الأعزُّ بن العُلّيق البغداديّ المتوفى سنة (٦٤٩ هـ) ، وسبطُ السّلفي المتوفى سنة (٦٥١ هـ) قد روت عنه كثيراً ، والإمامُ الحافظُ مسندُ الشَّامِ أبو الحّجاج يوسُف بن خليل الدّمشقي محدّث حلب المتوفىٰ سنة (٦٤٨ هـ)[1] ، وروت كذلك عن يوسفَ بنِ عبد الرحمن بن علي ولد الحافظ أبي الفرج بن الجوزي المتوفى سنة (٦٥٦ هـ) ، وهي آخرُ مَنْ حدَّث عنه بالإجازة[2].

---

(١) أبو الحجّاجِ يوسُفَ بنُ خليل بنِ قراجا بن عبدِ الله ، محدّثُ الشَّام الدّمشقيّ الأَدَميّ الحنبليّ نزيل حلَب ، وُلِدَ بدمشقَ سنة (٥٥٥ هـ) ، وطلبَ الحديثَ ، وكتبَ ما لا يُوصفُ بخطّهِ المليح المُتقنِ ، ورحلَ إلى الأقطارِ؛ وكان إماماً حافظاً ثِقةً نبيلاً مُتْقناً ، واسعَ الرِّواية ، جميلَ السِّيرة ، متّسعَ الرّحلة.
ـ قال ابنُ ناصر الدِّين: «كان منَ الأئمةِ الحفّاظ المكثرينَ الرَّحّالين ، بل كانَ أوحدهُم فضْلاً ، وأوسعَهم رحلةً وكتابةً ونَقْلاً ، وهو طيّبُ الأخلاق ، مرضيٌّ الطَّريقة ، متقنٌ حافظٌ ، عالِمٌ بما يُقرأُ عليه ، لا يكادُ يفوتُه اسمُ رجُلٍ».
ـ وقال الذَّهبي: «روىٰ عنه خلقٌ كثير ، وآخرُ مَنْ روىٰ عنه إجازةً زينبُ بنتُ الكمَال». توفيَ سَحَر يومِ الجمعة منتصف جمادى الآخرة بحلبَ سنة (٦٤٨ هـ) ، ودُفنَ بظاهِرها ، ـ رحمه الله ـ. (شذرات الذهب ٧/ ٤١٩ ـ ٤٢١) بتصرف.
(٢) انظر: الذّيل على طبقاتِ الحنابلة (٤/ ٢١٦).

* ومن المحدّثات اللواتي استجازتهنّ زينبُ ، المسندةُ المحدّثَةُ عجيبةُ البغداديّةُ المتوفاة سنة (٦٤٧ هـ)[١].

* ولزينبَ بنتِ الكمال شيوخٌ لا يُحْصَون ، وقد خرَّجَ لها محمّد بنُ يحيى بن أسعد أسماءَ مشيختِها في جزءَيْن ضخميْن ، وعن هؤلاء تلقّتْ زينبُ العِلْمَ سماعاً وإجازةً ، حتى غدت مسندة ذات شخصيةٍ متميزة ، يَشُدُّ إليها طلابُ العِلْم رحالَهم للاستفادة من علمِها .

* ومن العجيبِ في أخبارِ معظم هؤلاء العالمات المسندات أنهنَّ من المعمرات ، فقد باركَ اللهُ في أعمارهنّ وأوقاتهنَّ وأعمالهنّ ، حيث انتفعَ بهنَّ خلقٌ لا يحصون .

* فقد عاشتِ العالمةُ المسندةُ زينب بنت الكمال حياةً طويلة ، قَضَتْها في طلبِ العلْمِ والحديثِ ، وأخْذِهِ من أعليائِهِ وأهلِهِ .

* وعندما شبَّت زينبُ عن الطَّوق ، واشتدَّ عودُهَا ، وصَلبَتْ قناةُ مرويّاتها ، وكثرتْ محفوظاتُها ، واحتاجَ النَّاسُ إلى علمها ، هبَّت تبذلُ المعرفةَ لطالبيها ، وأدَّتْها كأحسنِ ما يكون الأداء بطريقةٍ محبّبةٍ إلى نفوس الطُّلاب ، ولم يشغَلْها عن ذلك شيءٌ من مشاغلِ الدنيا ، وساعدها على التبحّر في هذا المجال المبارك الطّيب حياتها الطّويلة التي لم تتفرغْ فيها لزوجٍ أو ولد .

* وتفرَّدَتْ زينبُ عن غيرها ممن عاصرهَا من النِّساء ، بجملةٍ كبيرةٍ من الأجزاء التي ترويها بالإجازةِ تُقَدَّرُ بحِمْلِ بعير ، وقد توافدَ عليها طلبةُ العِلْم ،

---

(١) عجيبةُ بنتُ الحافظِ محمّد بن أبي غالب الباقداري البغداديّة ، روتْ عن جماعةٍ من العُلماء ، وتوفيتْ في صفر سنة (٦٤٧ هـ) ، وعمرُها (٩٣ سنة) ، ولها مشيخةٌ في عشرة أجزاء . (شذرات الذهب ٧/ ٤١٢).

وتزاحموا على بابِها ، فقرؤوا عليها الكُتُبَ الكبار ، والأجزاء الصِّغار ، وذلك في بيتها ، أو في الجامعِ الكبيرِ بدمشقَ ، وهو جامعُ بني أميّة .

* وقُرِىءَ على زينب مشاهير الكتبِ والأجزاءِ التي ذكرهَا تلامذتها؛ ومن الكُتب التي قُرِئَتْ عليها: صحيح مسلم ، ومقدمةُ كتابِ الاستذكار لابن عبد البرّ ، ومسندُ أبي بكر الصِّدّيق ، وعوالي سعيد بن منصور عن يوسف بن خليل الدمشقيّ ، وكتبٌ كثيرةٌ لا تُحصى أوردَ بعضها عمر رضا كحالة في موسوعتهِ الشَّهيرة: «أعلام النِّساء»[1] .

* ونظرةٌ واحدةٌ إلى ما قُرِىءَ عند هذه العالمة ، نعرفُ إذ ذاك قَدْرَها ومكانتها في عالَم الإسنادِ والرّواية .

مكَانَتُهَا وقَدْرُهَا وأَخْلاقُهَا :

* ظلت زينبُ بنتُ الكمال المقدسيّة منهمكةً في طلبِ العلْم ، حتى اقتعدَتْ سُدّةَ الفَضْل بين نساءِ عصرِها ، ولما طعنَتْ في السِّنّ وكبرتْ ، علا إسنادُها وتفرَّدت بأشياءَ ، وعندها استجازَها عددٌ من محبّي الحديث وطلبته ، وعددٌ أيضاً منَ الطَّالبات المحدّثات ، أجازتهم ، وذلك على عادةِ الحفّاظ والمحدّثين في ذلك العصر .

* وقد تلقّى الحديثَ عن زينبَ المقدسيّة هذه عددٌ لا بأْسَ به من طلاّب العلمِ في عَصْرها ، في القرنَيْن السَّابع والثَّامن الهجريَّيْن .

* وكان من الطّلاب قسمٌ سمع أو قرأَ عليها ، ومنهم من استجازها فأجازتْه ، ومنهم مَنْ أحضرَه أبوه ـ وهو صغيرٌ ـ مجالسَ تحديثها ، كيما ينشّئه على حبِّ العلْمِ ، وليكون إسناده عالياً عندما يكبر .

---

(١) أعلام النساء (٢/ ٤٧ ـ ٥٠).

* وقد تزاحمَ طلبةُ العلْمِ على بابِها ، وأخذوا عنها ، وسمعوا منها خصوصاً من بلاد الشَّام ، ولعلَّ السَّبب في ذلك يعودُ إلى سماحتِها ، وطيبِ أخلاقها ، ولطفِها في التَّلقين والتَّعليم.

* ذكر ابنُ حجر ـ رحمه الله ـ جَانباً من أخلاقِها وتهافتِ طلبةِ العلْم عليها فقال: «وتزاحمَ عليها الطَّلبةُ ، وقرؤوا عليها الكتبَ الكبار ، وكانت لطيفةَ الأخلاقِ ، طويلةَ الرّوح ، وربّما سمعوا عليها أكثر النَّهار ، وكانت قانعةً متعفّفةً كريمةَ النَّفس ، طيبّةَ الخلق ، وأُصيبتْ عينُها برمدٍ في صغرِها ، ولم تتزوّجْ قطّ»[1].

* وقال ابنُ رافع السّلامي عن قَدْرها وأخلاقِها: «سهلةٌ في التَّسميع ، لطيفةُ الأخلاقِ ، كريمةُ النَّفس ، محبّةٌ للحديثِ وأهله ، طويلةُ الرّوح ، فتزاحمَ عليها الطلبةُ ، وربما سمعوا عليها أكثر النّهار ، من غير أنْ تُظْهِرَ ضَجَراً أو مَلَلاً»[2].

أستاذَةُ العُلَمَاءِ والعَالِمَاتِ:

* تذكرُ المصادرُ التي تحدَّثَتْ عن زينبَ بنتِ الكمال بأنَّها واحدةٌ من أساتذةِ العُلماءِ والعالماتِ في عَصْرها ، فقد سمعَ عليها عددٌ كبيرٌ منَ العُلماء يزيدون عن ثلاثين.

* ومن أشهرِ تلامذتها الذين سمعُوا عليها: أحمدُ بنُ إبراهيم بن عبد العزيز الدّمشقيّ المعروف بابنِ الخبّاز المتوفى سنة (٨٠١ هـ) ، وأحمدُ بن عبد الله بن محمد الأنصاريّ الدّمشقيّ المعروف بابن الصّائغ المتوفى سنة (٨٠٧ هـ) ، وسعيدُ بن عبد الله الدِّهليّ البغداديّ المتوفى

---

(١) انظر: الدرر الكامنة (٢/ ١١٧ و١١٨).
(٢) الوفيات لابن رافع (١/ ٣١٨).

سنة (٧٤٩ هـ) كتبَ عنها الكثير[١]، وكذلك عبدُ الله بنُ خليل بن أبي الحسن الحرستانيّ الدمشقيّ الصّالحي الحنبليّ المتوفى سنة (٥٠٨ هـ)، أُسْمِعَ عليها[٢]، وغيرهم كثيرون جدّاً.

* أمّا تلميذاتُها اللائي سمعْنَها فهنَّ: تَـتَـر بنتُ محمّد بن أحمد التّنوخيّة[٣]، سمعتْ منها. وخديجةُ بنتُ أبي بكر بن علي الصّالحيّة المتوفاة سنة (٨٠٣ هـ)[٤]، سمعتْ منها موافقاتها، وحدثَتْ بها عنها، وسمع من خديجة الحافظ ابن حجر العَسْقَلاني.

* كما أخذتْ عن زينبَ المحَدثةُ سارةُ بنتُ عليّ بن عبد الكافي السّبكي[٥]، المتوفاة سنة (٨٠٥ هـ)، أسمعَها أبوها منها وهي صغيرةٌ.

---

(١) انظر: الدّرر الكامنة (٢/ ١٣٤)، وقال ابنُ حجر عنه: «رحلَ إلى دمشقَ ومصرَ والإسكندريةِ في طلبِ الحديثِ، وكتبَ الكثيرَ عن بنتِ الكَمال».

(٢) الضّوء اللامع للسَّخاوي (٥/ ١٨).

(٣) تترُ بنتُ محمّد بنِ أحمدَ التَّنوخيّة، محدِّثة وُلدَتْ سنة (٧٣٤ هـ) تقريباً، وسمعتْ من زينبَ بنتِ الكمال، والشّهاب الجزريّ، والشّبلي، وغيرِهم، وأجازت لأبي الفتح العثمانيّ سنة (٧٩٨ هـ)، وحدّثَتْ وسمعَ منها الفُضَلاء، ماتتْ في شعبانَ سنة (٨٠٣ هـ). (أعلام النّساء ١/ ١٦٥) نقلاً عن (الضّوء اللامع ١٢/ ١٥ و١٦).

(٤) خديجةُ بنتُ أبي بكر بن عليّ الصَّالحيّة، محدّثةٌ سمعتْ من محمّد بنِ يوسُف الحرّاني المُسَلْسَل، وعن زينبَ بنتِ الكمال موافقاتها، وحدَّثت بها.
ماتتْ خديجةُ الصَّالحيّةُ هذهِ سنةَ (٨٠٣ هـ) ـ رحمها الله ـ. (أعلام النّساء ١/ ٣٢٤) نقلاً عن (الضّوء اللامع ١٢/ ٢٦).

(٥) سارةُ بنتُ عليّ بنِ عبد الكَافي السّبكيّ، محدّثةٌ وُلدتْ سنةَ (٧٣٤ هـ)، سمعتْ على مشْيَخةِ أبيها، قال ابنُ حجر: «أُسمعَتْ من أحمدَ بنِ عليّ الجزريّ، وزينبَ بنتِ الكمال، وسمعتْ على أبيها أيضاً، وتزوَّجها أبو البقاء، فلمّا ماتَ تحولَتْ إلى القاهرةِ، ثمّ رجعَتْ إلى دمشقَ في أيّام سريِّ الدِّين، وكان صاهرهَا، ثم رجعَتْ إلى القدسِ، ثمّ إلىٰ القاهرةِ، فسمعنا منْها قديماً، ثمّ في سنة موتها». =

* وهناك محدثةٌ أخرىٰ سمعتْ على زينب اسمها: ملكةُ بنتُ عبد الله بن إبراهيم المقدسيّة الصّالحية[1] المتوفاة سنة (٨٠٢ هـ) ، أُسمعتْ عليها موافقاتها تخريج البِرْزَالي.

* وأمّا الذين أجازتْهُم زينبُ بنتُ الكمال فكثيرون لا يُحْصَون ، ومعظمُهم منَ العِراق ومصرَ ومنهم: أحمدُ بنُ الحسن بن محمد السّويداوي القاهريّ الشّافعي أجازت له من دمشقَ ، وصلاح الدِّين خليلُ بنُ أيبك الصّفدي الذي ذكرَ أنَّها أجازتْ له سنة (٧٢٩ هـ) في دمشق[2].

ومحمدُ بنُ محمد بن عبد اللطيف التّكريتي القاهري المعروفُ بابن الكويك ، وغيرهم كثيرون تجاوَزوا خمسينَ عالماً ومحدّثاً.

* أمّا المحدّثات والعالِمات اللواتي أجازَتْ لهنّ زينبُ بنت الكمال ، فهنّ: رقيةُ بنت يحيى بن عبد السَّلام البصريّة المدَنيّة[3] المتوفاة سنة (٨١٥ هـ). وستّ الكلّ بنتُ أحمد بن محمد القسطلانّية المكيّة المعروفة

= ماتتْ بالقاهرة في ذي الحجة سنة (٨٠٥ هـ) ، وقد جاوزتِ التّسعين. (شذرات الذهب ٩/ ٧٩).

(١) ملكةُ بنتُ الشّريف عبد الله بن العزّ إبراهيم بن عبد الله بن أبي عمر المقدسيّ الصّالحي ، قال ابنُ حجر: «أُحضرَتْ على الحجّار ، وعلى محمّد بن الفخر البخاريّ ، وعلى أبي بكر بن الرّضيّ ، وزينبَ بنتِ الكمال وغيرِهم ، وأجازَ لها ابنُ الشّيرازي ، وابنُ عساكر ، وابنُ سَعْد ، وإسحاقُ الآمدي ، وغيرهم ، وحُدثَتْ بالكثير ، وأجازتْ لي». توفيتْ في (١٩ جمادى الأولى) سنةَ (٨٠٢ هـ) ، وقد جاوزتِ الثّمانين. (شذرات الذهب ٩/ ٣٦ و٣٧).

(٢) أعيان العصر (٢/ ٧١٣).

(٣) رقيَةُ بنتُ يحيىٰ البصريّة محدّثةٌ وُلدتْ سنةَ (٧٢٦ هـ)، وأجازَ لها الحُفَّاظ: الذَّهبيّ، والبِرْزَالي ، والمِزّيّ ، وابنُ سيِّد النَّاس ، وزينبُ بنتُ الكمال ، وغيرهم.
وروتِ الكثيرَ وحدَّثت ، وسَمِعَ منها الأئمةُ؛ وتوفيتْ سنة (٨٠٩ هـ) ، ودُفِنَتْ بالبقيعِ بالمدينةِ المنوّرة. (أعلام النّساء ١/ ٤٥٩).

ببنت رحْمَة المتوفاة سنة (٨٠٣ هـ) ، أجازَتْ لها سنة (٧٣٦ هـ) مع جماعةٍ من محدّثي الشّام. وكذلك شمسُ الملوكِ بنتُ محمد بن أبي بكر الدّمشقيّة[١] المتوفاة سنة (٨٠٣ هـ) روتْ عنها. وفاطمةُ بنتُ محمد بن أحمد المقدسيّة الصّالحيّة المتوفاة في رمضانَ سنة (٨٠١ هـ)[٢].

ومنصورةُ بنتُ علي بن محمد الفاسيّة المكيّة المتوفاة سنة (٧٩٥ هـ)[٣].

* وهناك علماءُ وعالماتٌ ومحدّثون ومحدثاتٌ قد أخذوا عن زينب بنتِ الكمال ، ولكنَّ المصادرَ التي وصَلَتْ إلينا لم تستوفِ ذلك لصعوبةِ حَصْرِهم[٤] ، ولكِنْ قد أتينا على ذكْرِ طائفة منهم تروي الغُلّة ، وتفيدُ الدّارس بإذن الله تعالى.

---

(١) شمسُ الملوكِ بنتُ ناصر الدّين محمدِ بنِ إبراهيمَ بنِ أبي بكر بن يعقوبَ بنِ الملكِ العادلِ الدّمشقيّة.
قال ابنُ حجر: «روتْ عن زينبَ بنتِ الكَمال ، وماتَتْ في شعبانَ سنة (٨٠٣ هـ) ولي منها إجازةٌ». (إنباء الغمر ٤/ ٢٨٠).

(٢) الضّوءُ اللامع (١٢/ ١٠٠ و١٠١).

(٣) العقد الثمين (٨/ ٣١٨).

(٤) للدكتورِ صالح يوسُف معتوق كلامٌ طيّبٌ في هذا المجالِ حيثُ يقول: «ومما تجدرُ الإشارةُ إليهِ هنا أنْ يعلمَ القارئُ أنْ كُتُبَ التّراجمِ لا تذكرُ عادةً كلَّ الآخذين عنِ المترجم له ـ فإنّه فوقَ طاقتِهم في أكثرِ الأحيان ـ لأنَّ بعضَ هؤلاء مَنْ لمْ يُعرفْ بعد ذلك بالعلْمِ ، فَخَملَ ذكْرُهُ ، أو لأنَّ مؤلّفَ كتاب التّراجم لم تصلْهُ النّسخةُ المقروءةُ على الشّيخ ، والتي أثبتَ فيها أسماءَ السّامعين والحضور ، وكيف يتأتّى له جَمْعُ هذه النّسخ وهو يترجمُ للآلافِ ، وكلُّ واحدٍ من هؤلاء عقَدَ عشرات المجالسِ العلمية طولَ حياته ، والكثير من هؤلاءِ المترجم لهم من بلدانٍ نائية عن بلدِ صاحب الكتاب. لذلك أقول: إنَّ عدم ذِكْر طالب عِلْم في ترجمةِ أحد الشّيوخ ، لا ينفي كونه من تلامذتهِ، لاسيما إنْ عاشا في عصرٍ واحد، وبلدٍ واحد ، أو أمكنَ لقاؤهما ، كما أنّه لا يجوزُ أنْ نثبتَ تلمذته عليه لمجرّد ذلك ، دون أن يكونَ لدينا دليلٌ من كتبِ التّراجمِ الأخرى ، أو كتب الطّبقات والسّماعات» (جهود المرأة ص ٢٧٨).

المُعَمَّرَةُ الدَّيِّنةُ في سِجلِّ العَظَائِمِ:

* لم تتوقفْ هذه العالمةُ المحدّثةُ عن البحث الدَّؤوب وراء الحديثِ والفقْه والسّيرة ، فقد درست مُسْنَد أبي حنيفة ، والشّمائل للتّرمذي ، وشرح معاني الآثار للطّحاوي ، وقد أخذتْ معاني الآثار عن المحّدثة عجيبة بنتِ أبي بكر.

* وقد طالَتِ الحياةُ بزينبَ بنت الكمال ، وعمرت حتى جاوزتِ التّسعين عاماً ، وأجازَ لها خَلْقٌ من البغاددةِ والدَّماشِقة وغيرهم ، وتفرّدت وطالَ عمرُها ، واشتُهِرَ أمرها وذكْرها ، ولم تَخْلُ كتبُ العلماءِ والمصنّفين من تسجيلِ مآثرِها والثَّناء عليها ، ونَشْرِ فضائِلها وشمائِلها ، حتى إنَّ الرَّحالةَ المغاربة على علْمٍ بها وبصلاحِها وعلمِها ، ففي رحلتهِ الجميلةِ قال ابن بطوطة في الثّناء على زينب وبيان مكانتها وقَدْرها: «الشَّيخةُ الصَّالحةُ رِحلَةُ الدّنيا»[1].

* وفي معجمهِ المختصّ سجَّلَها الذَّهبيُّ وأثنى عليها بقوله: «شيخةٌ صالحةٌ ، متواضعةٌ ، خيّرة ، متودّدة ، كثيرةُ المروءةِ ، لم تتزوَّجْ»[2].

* وسجَّلَها الذَّهبيُّ ـ مع الخالداتِ العالماتِ المُسندات ـ في موضعٍ آخرَ من تصانيفِهِ المفيدةِ فقال: «مسندةُ الشَّام ، روتِ الكثيرَ ، وتزاحمَ عليها الطَّلَبَةُ ، وكانت قانعةً متعفّفةً ، كريمةَ النَّفس ، طيّبةَ الخُلقِ ، ديّنةً خيرةً ، تفرَّدَتْ بقدْرِ وقْرِ بعيرٍ من الأجزاءِ بالإجازة»[3].

---

(١) رحلة ابن بطوطة (١/ ١٢٣) تحقيق د. علي الكتاني ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط ٤ ـ ١٩٨٥ م.
(٢) المعجم المختص بالمحدثين للذهبي (معجم الشيوخ) ترجمة رقم (٢٦٧).
(٣) العبر (٤/ ١١٧).

* وفي سجلِّ العظائمِ سجَّلها صلاحُ الدِّينِ الصَّفدي في «أعيانِهِ» وأثنىٰ عليها فقال: «زينبُ بنتُ أحمد المقدسيّة، شيخةٌ مشيخةٌ مسندةٌ... أجازتْ لي سنة تسع وعشرين وسبعمئة بدمشق»[1].

* وذكرها ابنَ العماد في «شَذَراتِه» ووصفَ خصائِلها وأثنى على صلاحِها وامتدحَها بقوله: «مسندةُ الشَّام أمُّ عبد الله زينب المقدسيّة المرأةُ الصَّالحةُ العَذْراء، تكاثروا عليها ـ أي طلبة العِلْمِ ـ وتفرَّدتْ، وروتْ كُتباً كِباراً»[2].

* وفي «دُرره» قيَّد ابنُ حجر اسمَها وأثنى عليها فقال: «كانت ديّنةً خيّرةً... وكانت لطيفةَ الأخلاقِ، طويلةَ الرّوح، وكانت قانعةً متعفّفةً، كريمةَ النَّفْس، طيّبةَ الخُلُق»[3].

* وكذلك فعلَ ابنُ رافع السَّلامي، حيث سجَّلَها في «وفياتِهِ» فقال: «الشَّيخةُ، الصَّالحةُ، المُسندةُ، المعمرَّةُ، انتفعَ بها النَّاس، كانت صالحةً عابدةً، كثيرةَ الصِّيامِ والصَّلاة، وفعل الخير، وحدَّثت بالكتُبِ الكبار»[4].

* وقال أيضاً: «كانت لطيفةَ الأخلاقِ، كريمةَ النَّفس، محبّةً للحديثِ وأهله، طويلَةَ الرُّوح، فتزاحمَ عليها الطَّلبة»[5].

وقال اليافعي في «مرآتِه»: «المرأةُ الصَّالحةُ العذراءُ، مسندةُ الشّام»[6].

---

(١) أعيان العصر (٢/ ٧١٢) بتصرف.
(٢) شذرات الذهب (٨/ ٢٢١).
(٣) الدرر الكامنة (٢/ ١١٧) بتصرف.
(٤) الوفيات (١/ ٣١٦ و٣١٧).
(٥) المصدر السابق (١/ ٣١٨).
(٦) مرآة الجنان (٤/ ٣٠٥).

* وقال عمر رضا كحالة: «زينب محدّثةٌ جليلةٌ»[1].

* وهذه العالمةُ المسندةُ زينب عاشَتْ حتى بلغَتْ (٩٤ سنة)، وماتت في (١٩ جمادى الأولى) سنة (٧٤٠ هـ)، وقد جاوزتِ التّسعين، وكانت وفاتُها في دمشق[2] ودُفنَتْ فيها.

* قال ابنُ حجر في «الدُّرر»: «ونزلَ النَّاس بموتها درجةً في شيءٍ كثيرٍ منَ الحديث حِمْل بعير»[3].

* وقال الذَّهبيُّ: «وتوفيت عن أربعٍ وتسعينَ، ونزلوا بموتها درجةً»[4].

* إنَّ امرأةً ينزلُ النَّاس بموتها درجةً لكبيرةُ القَدْرِ، وحقّ علينا أنْ نحفظَ سيرتَها ونعطّر بها المجالس، وأن تكونَ أُنْساً للمُجالِس، وشَحْذاً للأذهانِ، وأن نربّي بناتَنا ونساءَنا على حبِّ العالماتِ والمحدثات أمثال هذه العالمة الكريمة الخيّرة المتودّدة، حتى لا تخلو السَّاحةُ من الفاضلاتِ في جميعِ العصور والأحايين والأوقات.

* فرحمَ اللهُ زينبَ بنت أحمد المقدسيّة، وأسكنَها من الجنَّةِ غرفاً، وجعلنا وإيّاها منَ الذين تَشْمَلُهم رحمةُ الله تعالىٰ.

* * *

(١) أعلام النساء (٢/ ٤٦).
(٢) قال المقريزي في «السلوك»: «وكانت وفاتها في ذي الحجة بالقدس عن أربع وتسعين، حدثت بمصر والمدينة النبوية». (السلوك ٣/ ٥٧).
(٣) الدرر الكامنة (٢/ ١١٨).
(٤) المعجم المختص للذهبي ترجمة رقم (٢٦٧).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

زينب بنت أحمد الغزّي

* شبَّت على حبِّ القراءة والعلم ، ونهلت من ينابيع المعرفة ؛ حتى غدتْ من أشهر نساء عصرها ؛ فضلاً ، وعلماً ، وجودة خط ، وصلاحاً ، ودِيْناً .

* كانت شاعرة ناظمة ، وشعرها في المواعظ وغيرها في غاية الرقة والمتانة .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مِنْ فَضْلَيَاتِ النِّسَاءِ:

* وُلدتْ هذهِ المرأةُ الفاضِلَة في مدينةِ دمشقَ الفيحاءِ ، دمشق الشّام منجبة العُلماءِ الكرام ، وذات الحسنِ والبهاءِ والاحتشام ، والأدواحِ المتنوّعةِ والأرواح المتضوّعة؛ وهي المدينةُ المستوليةُ على الطِّباع ، المعمورةُ البقاع بالفَضْل والرّباع:

دمشقُ التي رَاقَتْ بحلو المشَاربِ　　تَزِيدُ علىٰ مرِّ الزَّمانِ طَلاوةً
مُنزهةٌ أَقْمارُهَا عنْ مغَارِبِ　　لَها في أَقَالِيمِ البلادِ مَشَارِقٌ

* وكم لَها من حُسْنٍ ظاهر وكامِن ، و:

أمّا دمشْقُ فجنَّةٌ　　لَعِبتْ بألبابِ الخلائقْ
هيَ بَهْجةُ الدُّنْيا التي　　منها بديعُ الحُسْنِ فائقْ

* في هذه المدينةِ السَّاحرةِ ، كان مولدُ فاضلةٍ مجيدةٍ ، وقد حدَّدهُ قريبُها في القرنِ العاشرِ الهجريّ ، في شهر ذي القعدة سنة (٩١٠ هـ).

* وكما تنشأُ بناتُ أفاضلِ العُلماء والفقهاءِ ، كانت نشأتُها ، حيث تغذَّتْ على العِلْم والأدب والفقْه والدِّين.

* هذه المرأةُ الفاضلةُ سجَّلَت في ديوانِ العظائِم فقراتٍ رائعاتٍ للمرأةِ المسلمةِ المشرقيّة في القرنِ العاشرِ الهجريّ ، في الوقتِ الذي نَدرَ فيه أدبُ النِّساء وعِلْمُهنَّ ، وقلَّ وجودُ العالماتِ إلاّ شذرات هُنا وهنَاك.

* وعلى الرغم من هذا كلِّه ، فقد استطاعتْ ضيفةُ هذه الموسوعة ، أنْ تكونَ من ذواتِ الشَّأن والنَّباهَةِ في بيئتها التي عاشَتْ فيها ، وهذه الفاضلة

هي زينبُ بنتُ محمد بن محمد بن أحمد الغزيّ الشَّافعية[1] إحدى كواكبِ نساءِ عَصْرِها.

* وينتهي نسبُ زينبَ الغزيّة هذه إلى لُؤي بن غالب، فهي قرشيّة عامريّة، يتَّصِلُ نسبُها بنسبِ عامرِ بنِ لؤي بن غالب، وذلك حسب ما ذكره نجم الدِّين الغزيّ في ترجمةِ والدها[2].

* وإلى هذا النَّسب أشارَ جدُّها وهو رضي الدّين الغزيّ حين أنشدَ في انتسابه لقريش ولعامر بن لُؤي فقال:

وأبُـو الفَضْـلِ كُنْيَتـي وانْتِسَـابـي ... مِــن قُـريـش لِعَــامِــرِ بــنِ لُــؤي

* ولو عدْنَا إلى أصْلِ زينب بنت محمّد الغزيّة هذه، لألفينا أنَّها من غزّة، وقد نزحَ أحدُ أجدادِها واسمُه ضوي بن شداد إلىٰ دمشقَ، وفي دمشقَ الفيحاء الزَّهراء عُرِفَ بين أهلِها بالغزيّ[3]. وظلّ هذا اللقب عَلَماً يُعرف به، وكذلك أبناؤه وذرّيتهُ من بعدِه.

زيـنَـبُ والأسْـرَةُ الكَريْمَـةُ:

* ذكرتْ لنا المصادرُ التي تحدَّثت عن زينبَ الغزيّة، بأنَّها نشأَتْ في بيتِ علْمٍ وأدبٍ ووجَاهةٍ، فقد كانتْ أسرتُها من الأُسَرِ الكريمةِ الطَّيِّبةِ في دمشقَ، وكان جدُّها من علماءِ الشَّافعيّةِ في دمشقَ في زمانه.

* فقد ذكرَ نجم الدِّيْن الغزيّ هذا الجدّ الكريم في «كَواكبِهِ» وأثنى عليه، وأشارَ إلى أدبهِ وشمائِله فقال: «محمدُ بنُ أحمد الغزيّ. الشّيخُ

---

(١) الكواكب السَّائرة في أعيان المئة العاشرة للغزي (٣/ ١٥٤ و١٥٥)، وشذرات الذّهب لابن العماد (١٠/ ٥٧٤)، وأعلام النّساء (٢/ ١١٢ و١١٣)، والأعلام للزّركليّ (٣/ ٦٧).

(٢) انظر: الكواكب السَّائرة (٢/ ٣).

(٣) انظر: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبّي (١/ ١٣٥).

الإمامُ ، شيخُ الإسلام[١] ، المحقّقُ ، المدقّق ، العَلاَّمة ، العُمدة ، الحُجّة ، الفهّامة ، القاضي رضي الدّين أبو الفَضْل بن رضي الدِّين الغزي الدّمشقيّ المولد والمنشأ والوفاة ، العامريّ القرشيّ الشّافعي[٢] . . » .

وقال عنه أيضاً: «وله شعرٌ رائقٌ ، ونظمٌ فائق ، وأكثرَ في تقبّسه النّصائح والحِكَم والحقَائق» ، ومن قوله نَظْماً مضّمناً:

مَا كَانَ بِكْرُ عُلومي قَطّ يخطبُها إلاّ ذوو جـدّة بـالفَضْـل أكْفَـاءُ
وغـضَّ منـه ذَوو جَهْـلٍ مُعَـانَـدةً والجاهِلُون لأَهْلِ العِلْمِ أعْداءُ[٣]

* وقوله في المعنى السَّابق:

يَـا جَـاهِـلاً وهـو لأَهْـلِ العِلْـم لا يُسَلِّـمُ
ارجـعْ إلـىٰ الحـقِّ وإنْ سُئلـتَ قُـلْ لا أَعْلَـمُ

* من هذهِ الأسرةِ الكريمةِ العالمةِ الأديبةِ تلقَّتْ زينبُ الغزيّةُ معارفَها وعلومَها ، وشبَّتْ على حبِّ القراءةِ وحبّ العلمِ ، حيث راحتْ تنهلُ منَ المعرفةِ ما استطاعَتْ إليهِ سبيلاً ، حتى غدتْ من أشهرِ نساءِ عَصْرِها ، وقد زانتْ عِلمَها بأنّها كانَتْ كاتبة ذات خطٍّ جيّدٍ حَسنٍ ، في الوقتِ الذي يندرُ أنْ تُوجدَ فيه امرأةٌ قارئةٌ كاتبةٌ ، لذلك أثنى عليها الأكابرُ من العُلماء فقالوا: «كانَتْ من أفاضلِ النِّساءِ من أهلِ العلْم والدِّين والصَّلاح»[٤] .

---

(١) «شيخُ الإسلام»: منَ الألقابِ المركّبة. واللقب منْ ألقابِ كبارِ العُلماء. وقد اشتُهر بهذا اللقب جماعةٌ منْ مشاهيرِ عُلماءِ المُسلمين في سائرِ الأمصار والأقطار. (صبح الأعشى ٧/ ٢٣٩ و٣٢٢) بتصرف.

(٢) الكواكب السائرة (٢/ ٣).

(٣) المصدر السابق (٢/ ٥).

(٤) الكواكبُ السَّائرة (٣/ ١٥٤) ، وشذراتُ الذّهب (١٠/ ٥٧٤).

أثَـارَةٌ مـنْ مَعَارِفـها ونَـظْـمِهَـا:

* لا نعلمُ كثيراً عن أخبارِ زينبَ الغزيّة هذه ، لأنَّ المصادرَ التي تحدَّثَتْ عنها قليلة ، لا تتجاوزُ في العدّ أصابعَ كفّ اليدِ ، ولأنَّها أيضاً لم تمدّنا بمعلوماتٍ نستطيعُ من خلالها أنْ نحدِّدَ بعضَ معالمِ حياتها ، وملامح شخصّيتها ، ولكنّنا استطعنا أنْ نقتبسَ بعضَ الصُّورِ التي توضّحُ شيئاً من شخصّيتها ، وجانباً بسيطاً منَ حياتها[1] .

* فقد كانت زينبُ الغزيّة واحدةً منَ العالماتِ المعروفاتِ في عَصْرِها ، وواحدةً منَ الفاضلات في دهْرها ، وكان خُلُقُها الورعُ والطُّهرُ والصَّلاحُ ، وقد تلقَّتِ العلمَ عن أبيها محمّد بن محمّد الغزيّ أحد علماء عَصْره وأفذاذ دمشق آنذاك ، وكانت تقرأُ عليه كثيراً من علومِ الدّين ، كذلك كانت تقرأُ علىٰ أخيها العلومَ والآدابَ .

* وتذكرُ المصادرُ التي وصلَتْ إلينا أنَّها قرأتْ كُتُباً كثيرةً في الفقْهِ على والدِها، فقد قرأتْ «تنقيح اللباب» وقرأت في «المنهج» جانباً أيضاً ، ولعلّها قد قرأت كثيراً من كتبِ الدّين الأخرى ، ولكنْ لم تعيها ذاكرةُ التّاريخ .

* وكانت زينبُ الغزيّة بالإضافةِ إلى هذا كلّه أديبةً شاعرةً ناظمةً تجيدُ الشّعر وقرضَهِ ، وقد ذكروا أنّها كتَبَتْ لأبيها كُتُباً بخطّها[2] الجميلِ الأنيق

---

(١) من ذلك أنّها كانَتْ متزوّجةً من رجلٍ اسمُه: أحمد البصرويّ ، وولدَتْ له ابنه محمّداً ، وقد ترجمَ له نجم الدّين الغزيّ فقال: «محمدُ بنُ أحمد بن محمّد القاضي أمين الدّين بن القاضي شهاب الدّين البَصْروي الشّافعي ، أحدُ الشّهود بالقسمةِ ، وكاتبُ الحرماتِ والأوقاف والمرستان ، كانت والدتُه الشّيخةَ الفاضلةَ زينبَ بنتَ الشيخ رضي الدّين الغزيّ الجدّ ، توفيَ يوم السّبت ، يوم عيد الأضحى سنة (٩٧٨ هـ) رحمه الله تعالى. (الكواكب السّائرة ٣/ ٤٨).

(٢) من نعمِ الله عزّ وجلّ التي لا تُحصى جمالُ الخطّ وحُسْنه ، ومما يزيدُ في رصيدِ زينب هذه جمالُ خطّها وأناقتُه وتناسقُه ، لذلك اختارَ والدها أنْ تكتبَ له بعضَ =

ومدحته بقصيدة تصفُه فيها وتشيرُ إلى أخلاقِهِ وعلمِه، كما تشيرُ إلى حُسَّاده[1]

= الكُتب؛ إذ الخطُ الحسنُ يزيدُ الحقَّ وضوحاً ويزيدُ من قيمةِ الكِتَاب، وكانَ الكتابُ قديماً يجيدون كتابةَ المصنّفات بل إن بعضَهم كان يتأنّق فيها ويكتبُها بأبدعِ الخطوطِ وخصوصاً بعض الأحرفِ كاللام والألف، وقد تبارىٰ الشّعراءُ في هذا ووصفوا جمالَ الخطّ وجمال اللامِ والألفِ، فقال بعضهم:

فَلاطَفَني وعانَقَني ... عناقَ اللامِ للألفِ

وقال الآخر:

أَلِفُ القائم سرٌّ عجيب ... وقيامُ اللامِ أيضاً كالألفْ
فإذا ما اجتمعَا واعتنقا ... صارَ حرفاً واحداً لامٌ أَلِفْ

وقال أبو جعفر الإلبيري:

لقوامِه الألفُ التي ... جاءَتْ بحسنٍ ما أُلِفْ
عانقتُه فكأنّني ... لامٌ معانقة أَلِفْ

وقال آخر:

لا تعتبنَّ على تركِ السّلام فقد ... جاءتْكَ أحرفُه كَتْباً بلا قَلَمِ
فالسّينُ من طرّتي واللامُ مع ألف ... من عارضي وهذي الميمُ ميم فمي

(١) الحسَدُ داءٌ قديمٌ، وأعتقدُ أنَّه ليسَ له مِنْ دواءٍ إلا أنْ يموتَ صاحبه، أو تأتيه نفحةٌ إلهيّة تنقذُه من هذا الدّاء الخبيثِ المدمّر، ومنَ المعروفِ أنَّ الحَسَد أوّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللهُ فيهِ في السَّماء، كما أنَّه أوّلُ ذَنْبٍ عُصِي اللهُ فيهِ في الأرض.

ـ وقد أكثرَ القُدماء في ذمّ الحَسدِ، وفي الحديث عن الحسَدِ قال الحماسيّ:

بيضاءُ آنسةُ الحديثِ كأنَّها ... قمرٌ توسَّط جنح ليلٍ مُبْرِدِ
موسومةٌ بالحسنِ ذاتُ حواسدٍ ... إنّ الحسَانَ مَظِنَّةٌ للحُسَّدِ

و«الحُسَّد»: جمعُ حاسدٍ وحاسدةٍ، والمعنى: إنَّ الحسناء مظِنّةٌ لأنْ تُحسدَ علىٰ حُسنِها، وكذا كلّ مَنْ له فضيلة ما، أو مزيةٌ ما، فهو مظنّة لأنْ يُحسد كما يقال: «كلّ ذي نعمةٍ محسود». ومن ثم يمتدحُ بكثرةِ الحسّاد، ويذمُّ بقلّتِهم، لأنَّ وجودَ الحسَّادِ كنايةٌ عن وجودِ الفَضْل والنّعمة كما قيل:

حَسَدوا مروءتَنا فضُلِّل سعيُهم ... ولكلّ بيتِ مروءةٍ أعداءُ

ـ وقال الآخر في الحسّاد والحسَد:

إنْ يحسدوني فإنّي غيرُ لائمهم ... قبلي منَ النَّاس أهلُ الفَضْل قد حُسِدُوا=

الذين تعجّبوا من علمهِ وفَضْله وبلوغهِ الغايةَ في الخشيةِ والمعرفةِ فتقول:

إنَّمــا العَــالِــمُ الــذي جَمــعَ العِلْــمَ واكْتَمَــلْ
قــامَ فيــهِ بحقِّــهِ يُتْبِــعُ العِلْــمَ بــالعَمَــلْ
سهــر الليــل كُلّــه بنشــاطِ بــلا كَسَــلْ
فهــوَ فــي اللهِ دأْبُــه أبــدَ الــدَّهْــرِ لــم يَــزَلْ
حــازَ عِلمــاً بخشْيَــةٍ وبــدنيــاهُ مــا اشْتَغَــلْ
حــاسـدوه تعجَّبُــوا ليــسَ ذا الفضْــل بـالحيَــلْ
ذاكَ مــولاهُ خصَّــه بكَمــالٍ مــنَ الأَزلْ
مَــنْ يَــرُمْ مشبِهــاً لــه فــي الــورى عقْلُــه اخْتَبَــلْ
أو بُلــوغــاً لِفَضْلــهِ فَلَــهُ قــطّ مــا وصَــلْ

= فـدامَ لـي ولَهـم مـا بـي ومـا بِهِـمُ ومـاتَ أكثـرُنـا غيظـاً بمـا يجـدُ
أنـا الـذي يجـدونـي فـي صُدورهـم لا أرتقـي صَـدْراً منهـا ولا أرِدُ

ـ وقال عمّار بنُ عقيل بن بلال بنِ جرير:

مـا ضـرّنـي حَسَـدُ اللئـامِ ولـم يـزلْ ذو الفَضْـل يحسـدُه ذوو النُّقْصـان

ـ وقال بشّار بنُ برد:

لا عشـتُ خلـواً مـن الحسّـاد إنّهـم أعـزّ فقـداً مـنَ الـلائـي أحبّـونـي
أبقـى لـي اللهُ حسّـادي بـرغمهـم حتـى تمـوتُـوا بـداءٍ غيـر مكنـونِ

ـ وقال محمود الورّاق:

أعطيـتُ كـلّ النّـاس منّـي الـرّضـا إلا الحسـود فـإنّـه أعيـانـي
لا أنّ لـي ذنبـاً لـديـهِ علمتُـه إلاّ تظـاهـر نعمـةِ الـرحمـنِ

ـ وقال ابنُ أبي طاهر:

ولـم يـزلْ ذو النّقـص مـن نقصـهِ يحسـدُ ذا الفَضْـل علـى فضلـهِ

ـ وقال الآخر:

إنّ العـرانيـنَ تلقـاهـا محسّـدةً ولـن تـرى للئـامِ النّـاس حُسّـادا

ـ وقال الآخر:

ونعمةُ اللهِ مقرونٌ بها الحَسدُ

فهـــو شيْخـــــي وسيّـــدي   وبـــهِ النَّفْـــعُ لـــي حَصَـــلْ[1]

* ولقد أجادتْ زينبُ فيما شاءَتْ ، وشِعْرهَا جميلٌ في المواعظِ[2] وغيرِها ، وهو في غايةِ الرّقّة وحسنِ السَّبْك والمتَانَةِ ، وإن كان يطغىٰ عليه صفة شِعْر العُلماء .

* وكانت زينبُ من أعاجيبِ العَصْر ، وأفاريدِ الدَّهر ، اتَّصلَتْ بمنلا كمال ، وبالقاضي شهاب الدِّين البصرويّ . . .

* وعاشت زينبُ الغزيّة سبعينَ سنة ، حيث وافَتْها المنيّةُ في عام (٩٨٠ هـ)[3] ، وكانت وفاتُها بدمشقُ ، ويبدو أنّها دُفنت في مقابرِ أهلها .

* رحم اللهُ زينب بنت محمد الغزيّة ، وأحسنَ نُزلَها ، إنّه سميع مجيب .

* * *

(١) الكواكبُ السَّائرة (٣/ ١٥٥) ، وشذرات الذّهب (١٠/ ٥٧٤) ، وأعلام النّساء (٢/ ١١٣) .

(٢) منْ شعرِ زينبَ الغزيّة في المواعظِ ، أنّها نصحتْ محمدَ بن أحمد المعروف بابن الكشك ، وكان قد عَرضَ له أكل الأفيون ، وهو لبنُ الخشْخَاش ، وغلبَ عليه ، فكتبتْ إليه تنصحه :

يا ناصرَ الدِّينِ يابنَ الكشْك يا ذا الجودْ   اسمعْ أقول لك نصيحة تطربُ الجلْمُود
بسَّك تعاني اللبن فهْمك هو المقصودْ   يصير بـالَـك ومـالَـك والـذّكـا مفقُـود
(الكواكب السّائرة ٣/ ٥٣)

(٣) انظر المصادر السابقة جميعها.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ستّ الوزراء التنوخيّة

* كانت مُسندة عصرها ، سمعتْ من أكابر علماء عصرها العلمَ؛ حتى غدتْ من المتفردات في الرواية ، وممن شُدَّت الرحالُ إليها كي يسمعوا منها ، ويأخذوا عنها الحديث .

* كانت ديِّنة ، متزهدة ، حسنة الأخلاق ، وكانت طويلة الروح على المحدِّثين .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الشَّجَرَةُ الطَّيِّبَةُ :

* في ظلالِ العِلْمِ وتحتَ أفيائِهِ ، وبينَ رحابِ الحديثِ وعلومِهِ ، كانتْ حياةُ ستّ الوزرَاءِ بنت عمر بن أسعد بن المنجي ، التّنوخيّة ، الدّمشقيّة[1] ، الحنبليّة ، العَالِمة المحدّثة ، التي بَعُدَ صيتُها في فَنّ التَّحديثِ ، وطارتْ شهرتُها في الرِّوايةِ وتدريسِ صحيحِ البُخاري .

* وستُّ الوزرَاءِ هذه تُدعى أحياناً باسم «وزيرة»[2] ، وتكنى أمّ عبد الله ، وأمّ محمّد ، وأحياناً تُدعى : أمّ وزيرة ، وتكنى أمّ محمد؛ وفي «تاج العَروس» للزَّبيدي : «ستّ الوزراء وزيرةُ بنتُ عمر بن أسعد بن المنجي»[3] .

* وفي رحابِ مدينةِ دمشقَ الفيحاءِ كان مولدُ العالمةِ الفاضِلَةِ ستّ الوزراء ، وذلك في أواخرِ الرّبع الأوّل من القرنِ السَّابع الهجريّ ، فقد ولدت في أوّل سنَة (٦٢٤ هـ)[4] .

---

(١) الوافي بالوفيات (١٥/ ١١٧) ، والدرر الكامنة (٢/ ١٢٩) ، والنجوم الزاهرة (٩/ ٢٣٧) ، والدليل الشافي على المنهل الصافي (١/ ٣١٢) ترجمة رقم (١٠٦٠) ، ودرة الحجال (٣/ ٣٢٥ و٣٢٦) ، والدر المنثور (ص ٢٣٩) ، وبرنامج ابن جابر الوادي آشي (ص ١٧٥) ، وشذرات الذهب (٨/ ٧٣ و٧٤) ، ومرآة الجنان (٤/ ٢٥٥) ، والبداية والنهاية (١٤/ ٧٩) ، والذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٤٦٩) ، وأعيان العصر (٢/ ٧١٨ و٧١٩) ، والدارس للنعيمي (١/ ٢٩٨) ، والسلوك في معرفة دول الملوك للمقريزي (٢/ ١٦٩ و١٧٠) قام بنشره : محمد مصطفى زيادة ـ مصر ـ ١٩٥٦ م ، والأعلام (٣/ ١٢١) ، وأعلام النساء (٢/ ١٧٣) وغيرها .

(٢) برنامج ابن جابر الوادي آشي (ص ١٧٥) .

(٣) تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي .

(٤) الوافي بالوفيات (١٥/ ١١٧) .

* وبين أحضانِ أُسْرَةٍ حضَنَتِ العِلْمَ ، وورثَتْه كابراً عن كابرٍ ، كانت نشأةُ ستّ الوزراء ، فقد فتحتْ عيناها علىٰ العِلْمِ وأهلهِ بين أهلِها وذويها. . . فقد كانت أسرتُها واحدةً من الأُسَرِ الدّمشقيّة التي تحلَّتْ بالعِلْمِ والفَضْل ، وعُرِفَت بالصَّلاح ، والتّفقُّه بالدِّيْنِ ، وعِلْم القضَاء ، وحبِّ روايةِ الحديث.

* ويحدّثُنا تاريخُ أسرتها الوضيء أنَّ أباها وأبا أبيها ، قد بلغَا في العِلْمِ الغايةَ القُصوى ، والمكانةَ العُليا ، وطاولاَ الثُّريا في مجدِ القضاء والفقْه والحديثِ والمسائل.

* فوالدها: شمسُ الدِّين عمر بنُ أسعد بن المنجي بن بركات التّنوخيّ المعريّ الحرّاني المولد ، الدّمشقيُّ الدّار والوفاة ، القاضي ابنُ القاضي وجيه الدّين أسعد.

* نشأَ أبوها وتفقَّه على والدِهِ قاضي الدَّولة النُّورية ، وكان مولدُه سنة (٥٥٧ هـ) ، وقدمَ دمشقَ ، وسمَع بها من القاضي أبي سَعْد بن أبي عَصْرون وغيرِه ، ثمَّ رحلَ إلىٰ العراقِ وخراسانَ وسمعَ ببغدادَ ، وأفتى ودرَّسَ ، وكان عارفاً بالقضَاء ، بصيراً بالشُّروط والحكومات والمسَائل الغامضات ، صَدْراً ، نبيلاً ، وولي قضاء حرّان قديماً ، واستوطنَ دمشقَ ، وحدّثَ عنه البَرزَالي ، وابنُ العديم وغيرهما؛ وتوفي في (١٧ ربيع الآخر) سنة (٦٤١ هـ) ، ودُفِنَ بسفحِ جبل قاسيون ـ رحمه الله ـ[1].

* وأمّا جدُّها أسعدُ بنُ المنجّي بن بركات بن المؤمّل التّنوخي المعريّ ثمّ الدّمشقيّ الحنبليّ القاضي وجيه الدِّين ، كان أحد أعلام عَصْره وأعلياء دهرِه. وُلدَ سنة (٥١٩ هـ) ، وسمعَ بدمشقَ وبغدادَ على أكابرِ العلماء ،

---

(١) شذرات الذهب (٧/ ٣٦٤ و٣٦٥) ، وذيل الروضتين (ص ١٧٣).

وتفقَّه ببغدادَ على مذهبِ الإمام أحمد ، وسمعَ منه جماعة منهم : الحافظ المنذري ، وابن خليل وغيرهما . وله تصانيف منها : «الخلاصة في الفقه» و«العُمدة» و«النّهاية في شرح الهداية» . وتوفي في (١٨ ربيع الأول) سنة (٦٠٦ هـ) ودُفِنَ بسفح جبل قاسيون بدمشق رحمه الله[(١)] .

* وكان عمُّ أبيها عبد الوهاب التّنوخي من المحدّثين الكبار ، والعُلماءِ المعروفين ، فقد حدَّثَ في دمشقَ الشَّام ، وأجازَ للمنذري ، وماتَ في سنة (٦١٥ هـ) .

* في أجواءِ وأفياءِ هذه الأسرةِ المتعلّمة العالمةِ كانت حياةُ وتربيةُ ستّ الوزراء التّنوخيّة ، وعلىٰ مائدتها ترعرعَتْ ونمَتْ حتى غَدَتْ من المُسندات الكبار .

* وكان والدها القاضي عمر قد اعتنى بفتاتِهِ الصَّغيرة ستّ الوزراء منذ طفولتها المبكّرة ، فأسمعَها وهي في الصِّغر جزءَيْن في علْمِ الحديث ، كما سمعتْ منه أيضاً فوائد عبد الرحمن بن نصر الدّمشقي ، وأمالي الحافظ الخطيب البغدادي .

مُسْنِـدَةُ عَـصْـرِهَـا :

* ستُّ الوزراء بنتُ عمر الدّمشقيّة إحدى نساءِ الشَّام والمشرقِ العربيّ عِلْماً وفقْهاً وروايةً ، فقد كانت مسندةَ العَصْر ، سمعتْ من أكابرِ علماءِ عَصْرها العِلْمَ حتى غدتْ من المتفرّدات في الرِّواية .

* فلقد سَمِعت «الجامع الصَّحيح» ، صحيح البخاري ومسند الإمام

---

(١) شذرات الذهب (٧/ ٣٦ و٣٧) ، وذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٤٩ ـ ٥١) مع الجمع والتصرف .

الشّافعي من أبي عبد الله الحُسينِ بنِ المبارك بن محّمد بن الزَّبيدي[1] البغداديّ الأَصْل ، الحنبليّ القارىء بالرِّوايات الفقيه في المذْهَب ، المفتي الأديب المصنّف ، كان فقيهاً فاضِلاً ، ديّناً خيّراً ، حسنَ الأخلاق ، متواضعاً ، حدَّثَ ببغدادَ ودمشقَ وحلبَ وغيرِها ، وسُمِعَ منه صحيحُ البخاري وغيرهُ من كتُبِ الحديث الشَّريف.

* ولمْ تذكرِ المصادرُ التي تحدَّثَتْ عن ستّ الوزراء سوىٰ ابنِ الزَّبيدي من مشايخها الذين سمعَتْهم وتلقَّتْ عنهم. ولعلَّ لها عدداً آخرَ من العُلماء والمحدّثين قد روت عنهم ولمْ تذكرْهم المصادرُ ، ولعلَّ هناك إشارات لأساتذتها في ثنايا بعضِ المصادر ممن سمعَتْهم ، أو أجازوها ، كما كانتِ العادةُ في ذلك العَصْر ؛ إذ لا يُعْقَل أنْ تكونَ هذه السَّيِّدةُ الجليلةُ القَدْرِ مسندة العَصْر ، ولم تتلقَّ العِلْمَ إلا عن شيخٍ واحد؟!

* أغلبُ الظَّنِ أنّه كان لها أساتذةٌ كبارٌ أخذتْ عنهم الرِّواية والعِلْم ، لأنَّ لها تلامذةً كبارُ القَدْر أخذوا عنها.

* ومنَ الجدير بالذّكر أنَّه كان للنِّساء في عَصْرِ ستّ الوزراء وما قبلها عنايةٌ بروايةِ وتدريس صحيح البُخاري ، وممن اشتُهِرنَ في هذا المجالِ المبارَكِ ثلّةٌ من النِّساء العالماتِ ، ومنهنّ: كريمةُ المِروزيّة[2] ، وفاطمة بنتُ محمّد التي كان الفقهاءُ والمحدّثون يسمونَها ويذكرُونها بمسندةِ أصبهان ، ويقولون عنها: «عمّرت وتفردَتْ بأشياء» وقد روت صحيح البخاري عن سعيد بن أبي سعيد العيّار ، وتوفيتْ فاطمةُ بنتُ محمد هذه سنة (٥٣٩ هـ).

---

(١) برنامج ابن جابر الوادي آشي (ص ١٧٥).
(٢) اقرأ سيرتها بتوسع في هذا الكتاب.

* وممن حلّقت في هذا المجالِ أيضاً شهدةُ بنتُ الإبريّ ، وكانت في الحديثِ سنَداً وأصحابُ التّراجم والسِّيَر والمحدّثون يقولون عنها: «خطّاطة ، وسند الحديث ، وفَخْر النّساء ، ومسند العراق. . .» توفيت شهدة سنة (٥٧٤ هـ)(١).

* ومنهنَّ زينبُ بنتُ عبد الرحمن المتوفاة سنة (٦١٥ هـ) ، والتي انقطعَ بموتها سنَدٌ عالٍ ، كما أشار ابنُ العماد إلى ذلك.

* ومنهنّ شريفةُ بنتُ أحمد النّسوي ، وضيفتنا ستّ الوزراء وغيرهنّ كثيرات من مثل: زينب بنت مظفّر المتوفاة في سنة (٧٠٩ هـ) ، وأمّ الخير أمَةُ الخالق الأصيلة المعمّرة المتوفاة سنة (٩٠٢ هـ) ، والتي تُعرف بلقب «خاتمة محدّثات الحجاز»(٢).

ستُّ الوزَرَاءِ وروَايَةُ الحَديْثِ:

* إنَّ سجلَّ ستّ الوزراء العِلْميّ حافلٌ بصفحاتٍ نَضِراتٍ في نَشْرِ الحديثِ والعلْمِ على أكابرِ علماءِ عَصْرها.

* وتُعتبرُ هذه المرأةُ العالمةُ من أكثرِ نساءِ القرنَ الثّامن تحديثاً بصحيح البخاري. قال صلاحُ الدِّين الصِّفديّ عن ذلك: «حدَّثَتْ بالصَّحيح مرّات ، وفازَتْ من ذلك بالصِّلاتِ والمَبَرَّاتِ»(٣). وقال ابنُ كثير عن تحديثها بالصَّحيح: «راويةُ صحيحِ البخاري وغيرِه»(٤).

* ولما اشتُهرتْ ستُّ الوزراء بالرِّواية صارت رِحْلَةَ زمانِها ، ورُحِلَ

---

(١) اقرأ سيرة شهدة ومروياتها في هذا الكتاب.
(٢) انظر كتاب: عناية النساء بالحديث النبوي (ص ٨٥ ـ ٨٧) باختصار وتصرف.
(٣) أعيان العصر (٢/ ٧١٨).
(٤) البداية والنهاية (١٤/ ٧٩).

إليها منَ الأقطار يسمعون منها صحيحَ البخاري وغيره.

* وطار صيتُ ستّ الوزراء في الآفاقِ ، فطُلبت إلى مصرَ للتَّحديثِ في سنة (٧٠٥ هـ) ، وهناك سمعَ منها الأميرُ سيفُ الدِّين أرغون النّائب ، والقاضي كريم الدّين الكبير ، الذي وصَلَها بشيءٍ منَ المالِ.

* قال المقريزيّ: «وحدَّثت بصحيح البُخاري في القاهرةِ ومصرَ وقلعةِ الجبل سنة (٧٠٥ هـ)»[١].

* وقال ابنُ جابر الوادي آشي: «سمعَت البخاري على ابنِ الزَّبيدي ، ومسندَ الشّافعي وروتهما بالشَّام وديار مصر»[٢].

* وقال صلاحُ الدِّين الصَّفدي: «وطُلبتْ إلىٰ مصر ، وسمعَ منها الأمير سيف الدّين أرغون والقاضي كريم الدّين الكبير»[٣].

* ومن الجديرِ بالذّكْر في تواريخِ النِّساء المحدّثات أنّه لم يُعْلَمْ أنّ امرأةً استقدمَتْ للتّحديث في مصرَ من الشّام غير ستّ الوزراء ، التي كانت متفرّدةً بعصرِها في هذا المجالِ الرَّحب المبارك.

* وكانَ بعضُ طلبةِ الحديث النّبويّ ومحبّيه قد سمعَ عليها صحيح البخاري كاملاً ، وبعضُهم قد سمعَ شطْراً منه ، وبعضُهم سمعَ عليها كتاباً من كتُبه ، أو باباً من أبوابه ، بيد أنَّ هناك أشخاصاً لم يقرؤوا عليها ، وإنّما طلبُوا استجازتها بروايته عنها فأجازتهم[٤].

* وامتدَّتِ الحياةُ بستِّ الوزراء ، حتى عُدَّتْ من المسنداتِ المعمرّات

---

(١) انظر: السلوك (٢/ ١٧٠).
(٢) برنامج ابن جابر الوادي آشي (ص ١٧٥).
(٣) أعيان العصر (٢/ ٧١٨).
(٤) جهود المرأة في رواية الحديث (ص ٢٠٣) بشيء من التصرف.

اللواتي باركَ اللهُ في أوقاتهنَّ وأعمارهنَّ ، وشُدَّتِ الرِّحالُ من سائرِ الأقطار نحو دمشق الشّام كي يسمعُوا عليها ، ويأخذوا عنها الحديث .

* وكانت ستُّ الوزراء آخرَ مَنْ حدَّثَ بمسندِ الشَّافعي وصحيح البخاري سَماعاً بالإسناد العالي عن والدها وابن الزّبيدي .

* ومنَ العجيبِ والممتع في آنٍ واحدٍ في سيرةِ ستّ الوزراءِ العالمةِ المحدثةِ المسندةِ أنّه لم تفتُرْ همّتُها خلالَ سِنيّ حياتها الطّويلة التي أربت علىٰ التّسعين ، وكذلك لم يشغلْها عن العِلْم والتّحديثِ زوجٌ أو ولَدٌ ، على الرّغم من أنّها قد تزوّجَتْ بأربعةِ رجال ، كان رابعُهم نجم الدّين عبد الرحمن بن الشّيرازي ، وكان لها ثلاث بنات[1] .

غير أنّ هذا كلّه لم يفُتَّ من عزمها عن تبليغِ الحديثِ لطلابه ، والعلْم لأهلهِ ومحبّيه .

* وتذكرُ أخبارُ ستّ الوزراء التي وصلَتْ إلينا من المصادر بأنّها ذهبت مرتَيْن في حياتِها إلى الدِّيار المقدّسة لأداءِ فريضة الحج ، ولا نعلمُ متى حجّتْ ، وهل حدَّثت هنالك أمْ لا .

* أغلبُ الظَّنّ أنّ هذه السَّيّدةَ الفاضلةَ الجليلةَ القدر ، كانت تنثرُ الدُّرر الحديثيّة في كلِّ مكانٍ تكونُ فيه ، حيث رُزقتْ همّةً عاليةً ، وعزيمةً قويةً ، فلقد ذكرُوا أنّها حدَّثت في يومِ وفاتها[2] .

تَـلامِـذَتُـهَـا وَالمحَدِّثُـونَ عَـنْـهَـا :

* إنَّ امرأةً عالمةً محدثةً متمكنةً من ناصيةِ التّحديثِ جديرٌ بأنْ يؤمّ جامعتَها العلمية كبارُ طلاّب العِلْم في عصرها ، وكبارُ مشاهير العلماء ،

---

(١) أعيان العصر (٢/ ٧١٨) ، والوافي بالوفيات (١٥/ ١١٧) .
(٢) معجم الشيوخ للذهبي ؛ ترجمة رقم (٣٢٣) .

كي يتعلّموا منها ممّا علمها الله ، وكي ينشروا العلْمَ في البلادِ ، وفي كلّ مكان يحلُّونَ فيه .

* ومنْ أشهرِ تلامذتها منَ العُلماء ممن أخذوا عنها: الحافظُ الذّهبيُّ الذي طارتْ بشهرتهِ الآفاقُ ، وبَعُدَ صيته في الشّرقِ والغرب ، وكان شيخَ المشَايخِ والعلماءِ والأدباءِ في عصره ، قال صلاح الدّين الصّفديّ: «قرأَ عليها شيخُنا الذّهبي مسندَ الشّافعي ، وهي آخرُ مَنْ حدَّث بالكتابِ»[1] .

كما سمعَ منها أبو هُريرة ابن الذَّهبي ، والحافظُ العلائي ، وابن رافع السُّلامي ، وجمالُ الدّين بن قاضي الزَّبداني وخلقٌ كثير .

* وتعتبر ستُّ الوزراءِ من أكثرِ محدّثات عَصْرها تلامذةً ، فقد بلغَ عددُ الآخذين عنها بطريق السَّماع قرابةَ تسعينَ رجُلاً وامرأةً ، حدّثوا عنها بالشّامِ ومصرَ ، منهم: أحمدُ بنُ عبد الوهّاب بن محمّد النُّويري المتوفىٰ سنة (٧٣٣ هـ)؛ ومحمدُ بنُ إبراهيم بن محمّد الواني الدّمشقيّ المتوفىٰ سنة (٧٣٥ هـ) الذي سمعَ وقرأَ عليها ثلاثيات صحيح البخاري ، وكتاب التّوحيد من الصَّحيح ، وجميع صحيح البخاري وغير ذلك؛ ومحمّد بن رافع بن هَجْرس السّلامي المتوفى سنة (٧٧٤ هـ) وغيرهم كثير .

* ومنَ النِّساء اللاتي سمعْنَ منها: جُويرية بنت أحمد بن محمد الهكاريّة المحدّثة المولودة في (٤ رمضان) من سنة (٧٠٤ هـ) والمتوفاة سنة (٧٨٣ هـ) ، فقد سمعت من ستّ الوزراء صحيح البخاري[2] ، وكذلك فاطمةُ بنتُ أحمد بن محمّد الجزريّ المتوفاة سنة (٧٦٦ هـ) سمعت منها .

---

(١) أعيان العصر (٢/ ٧١٨).

(٢) أعلام النّساء (١/ ٢٢٦ و٢٢٧).

* وأجازتْ ستّ الوزراء عدداً من علماءِ وعالماتِ عَصْرِها ، ومنهم : محمّدُ بن جابر الوادي آشي المتوفىٰ سنة (٧٤٩ هـ) ، فقد ذكَرَ في برنامجهِ أنَّها أجازتْه كما أجازتْ فاطمة بنت محمّد بن أحمد بن المنجي التّنوخية الدمشقيّة المولودة سنة (٧١٢ هـ) ، والمتوفاة سنة (٨٠٣ هـ)[١] .

* إنَّ هذه الأعدادَ الكبيرةَ من تلامذتها العلماء ، لَتدلُّ على مكانتِها في عالَم المحدّثاتِ الرّاويات ، ومكانتها في عالَمِ النّساء العالماتِ ، ممّا جعل كثيرينَ من أعلياءِ العُلماء والمصنفين يثنون عليها ، ويُشيرون إلى قَدْرِها ومكانتها ، وطولِ روحِها على طلاّب العلْمِ ، كما يشيرون إلىٰ أخلاقِها الحسَنَة في التَّعليم والإجازة .

سِـتُّ الـوزَرَاءِ في سجِلِّ العُلَمَـاءِ :

* هذه الشَّيخةُ ذات القَدْر الكبيرِ والعلْمِ الغزير واحدةٌ من العالماتِ المشرقيّات المعمّرات اللاتي بلغْنَ من الكبرِ عتياً ، حيث زاد عمرها عنِ التّسعين عاماً ، وهمّتها كلّ يوم في ازدياد ، لم يُؤثَرْ عنها أنّها ضجرت من أحدٍ طيلةَ حياتها التي امتدت إلى (٩٢ عاماً) ، حيثُ توفيت في (١٨ شعبان) فجأة؛ وذلك في سنة (٧١٦ هـ)[٢] ، ودُفنَتْ في تربةِ أهلها فوقَ جامع المظفّري بقاسيونَ في دمشقَ؛ وبموتها فَقَدَ أهلُ الشَّام عالمةً عظيمةً قَلَّ أنْ يجودَ الزّمانُ بمثلها .

* وعندما رحتُ أطالِعُ سيرةَ حياتها ، ألفيتُ أنَّها امرأة نادرة المثال ، فقد اجتذبَتْ ـ بما حبَاها الله من علْم ـ ثناءَ كبارِ العُلماء والمصنّفين الذين

---

(١) الضّوء اللامع (١٢/ ١٠١) .

(٢) ذكر ابن جابر الوادي آشي في برنامجه أن ست الوزراء قد توفيت في سنة (٧٢٢ هـ) بدمشق . (برنامج ابن جابر الوادي آشي ص ١٧٥) .

انهالوا ـ وهم يترجمون لها ـ بذكرِ شمائلها وفضائِلها ، وأجمُعوا على أنَّها تتصفُ بالعلْمِ والصَّلاحِ والخيرِ والفضْلِ والحسَبِ والدِّين والأخلاق ، وهانحنُ أولاء نوردُ بعضَ ما سجَّلَه أولئك العُلماء وما أثنوا وشهدوا لِستّ الوزراء في مصنّفاتهم وكتبهم.

* يطالعُنا العلامةُ ابن كثير في «بدايته» عن ستّ الوزراء ، وينعتُها بالصَّلاح فيقول: «الشّيخةُ الصَّالحةُ؛ ستّ الوزراء ، روايةُ صحيح البخاري وغيره ، جاوزتِ التّسعين سنة ، وكانت منَ الصَّالحات»[1].

* وقال ابنُ تغري بردي في «الدَّليل» عن ستِّ الوزراء وقد نعتَها بالمسندةِ: «الشَّيخةُ المعمَّرة المسندةُ أمُّ عبد الله التّنوخيّة الدّمشقيّة الحنبليّة»[2].

* وأثنى عليها في «نجومه» فقال: «السَّيدةُ المعمّرةُ أمّ محمد ستُّ الوزراء المعروفة بالوزيرة ، صارت رِحْلَةُ زمانها ، ورُحِلَ إليها منَ الأقطار»[3].

* وفي موضعٍ آخر قال ابنُ تغري بردي عنها: «السّيدةُ المعمَّرةُ ، الصَّالحةُ المسندةُ ، صارت رِحْلة زمانِها ، ورُحِلَ إليها من الأقطار»[4].

* وفي «الذَّيل» يسجّلُ ابنُ رجب الحنبليّ مآثرَ ستّ الوزراء وخلالَها الجميلةَ ، وخصائِلَها الطَّيِّبة ، ويصفُها بأنّها الصَّالحةُ المسندةُ الدَّيّنة الطَّيِّبة فيقول ما ملخّصُه عنها: «ستُّ الوزراء أمُّ عبد الله. . . الشَّيخةُ الصَّالحةُ المسندةُ المعمّرةُ التّنوخيّة الدّمشقية. . . تفردَّت في وقتِها ، وروتِ الكثيرَ

(١) البداية والنهاية (١٤/ ٧٩) بشيء من الاختصار.
(٢) الدليل الشافي (١/ ٣١٢) ترجمة رقم (١٠٦٠).
(٣) النجوم الزاهرة (٩/ ٢٣٧) ، والمنهل الصافي (٥/ ٣٨٢).
(٤) النجوم الزاهرة (٩/ ٢٣٧) ، والمنهل الصافي (٥/ ٣٨٢).

بدمشق ومصرَ ، وكانت طويلةَ الرُّوحِ على المحدّثين ، ديّنة طيّبة الأخلاق»[١] .

* وفي «معجَمه» سجَّلَها الذَّهبيُّ فيمن قرأَ عليهِ الصَّحيح ، وأثنىَ على علْمِها وأخلاقِها ودْينها فقال : «شيخةٌ ديّنةٌ ، متزهّدةٌ ، حسنَةُ الأخلاق ، روتِ الكثيرَ ، وعمّرت ، سمعَتْ أباهَا وابنَ الزَّبيدي ، وكانت آخر منَ حدَّثَ بمسندِ الشَّافعي . قرأتُ عليها الصَّحيحَ ومسندَ الشَّافعي . حدَّثَ عنها ابن الخبّاز في مشيخته ، قال : وقد روتْ يوم وفاتِها وفاجأَها الموتُ»[٢] .

* وفي «برنَامجِه» أثنى عليها التَّجيبي فقال : «الشيخةُ الحسيبةُ الفاضلةُ الطَّاهرة»[٣] .

* ووصفَها ابنُ العماد بأنَّها مسندةُ الوقتِ ، ويقول : «مسندةُ الوقتِ ستّ الوزراء ، كانت على خيرٍ عظيم»[٤] .

* بينما نعتَها خيرُ الدِّين الزّركليّ بالفِقْه والحديثِ ونقل ما سجّله كبارُ المصنّفين عنها فقال : «ستُّ الوزراء . . . أمّ محمّد ، وتدعىٰ بوزيرة ، فقيهةٌ محدّثةٌ ، دمشقيّةُ المولد والوفاةِ ، حدَّثَت بصحيح البخاري وبمسندِ الشَّافعي ، في دمشقَ ، ثم بمصرَ سنة (٧٠٥ هـ) ، عرفها المقريزي بالمسندةِ المعمّرة؛ وقال ابن تغري بردي : صارت رِحلة زمانها ، ورُحِلَ إليها من الأقطار؛ وقال ابنُ العماد : مسندةُ الوقتِ كانت على خيرٍ عظيم . . . »[٥] .

---

(١) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٤٦٩) .

(٢) معجم الشيوخ ، ترجمة رقم (٣٢٣) .

(٣) برنامج التجيبي (ص ١٢٠) .

(٤) شذرات الذهب (٨/ ٧٣ ـ ٧٤) .

(٥) الأعلام (٣/ ١٢١) .

* وأثنى عليها اليافعيُّ في «مِرآتهِ» فقال: «مسندةُ الوقتِ كانت على خيرٍ...»[1].

* بينما نَجِدُ المقريزيَّ يقولُ في «السُّلوك» عنها وقد وصفَها بالمسندةِ: «ستّ الوزراء... المسندةُ المعمّرة، حدَّثَتْ بصحيحِ البخاري في القاهرةِ ومصرَ وقلعةِ الجبَلِ سنة (٧٠٥ هـ)»[2].

* وفي مصنَّفاتهِ الرَّائعةِ اللطيفة، سجَّل صلاحُ الدِّينِ الصَّفدي خِصَالَ ستّ الوزراءِ الحميدةِ، ففي «الوافي» قال: «ستّ الوزراء، الشَّيخَةُ الصَّالحةُ المعمّرة مسندةُ الوقتِ، كانَتْ ثابتةً طويلةَ الرُّوح على طولِ المواعيد»[3].

* وسجَّل الصَّفديُّ أيضاً في «أعيان العَصْر» خصائلَ ستّ الوزراء بأسلوبه الآسر السَّاحر، فقال:

«ستُّ الوزراء الشَّيخةُ الصَّالحةُ المعمَّرةُ، مسندةُ الوقتِ أمُّ عبد الله التّنوخيّة الدّمشقية الحنبليّة... سمعتِ الصَّحيح ومسندَ الشَّافعي... كانت مسندة العَصْر، وفريدةَ الرّواية في القَصْر، رُزِقَتِ الحظْوة الباهرة، وطالَتْ بذلك النُّجوم الزّاهرة، فحدَّثت بالصَّحيح مرّات، وفازَتْ من ذلك بالصِّلاتِ والمبرات، وكانت ثابتةً على طولِ التَّسميع، مديدةَ الرُّوح على الشُّروط وما يطرأُ عليها من التّفريع، إلا أنّها انثالت عليها الجوائز، ولم تكنْ كمن عداها منَ العجائز، ولم تزلْ على حالِها إلى أن لم تجدْ ستّ الوزراء من الموت وزرا، وصال الدَّهْرُ على أهلِها بفقدها وزَرَىٰ»[4].

---

(١) مرآة الجنان (٤/ ٥٥).

(٢) السّلوك (٢/ ٥٢١).

(٣) الوافي بالوفيات (١٥/ ١١٧).

(٤) أعيان العصر (٢/ ٧١٨).

* وذكرها عمر رضا كحّالة بقوله «محّدثةٌ ذاتُ أخلاقٍ فاضلة»[1].

* بينما وصفتها زينب فوّاز بقولها: «ستّ الوزراء لقبُ حفيدة العلامة وجيه الدّين الحنبليّ... محدّثةٌ مشهورةٌ.. وكانت محدثةُ عَصْرِها... وروى عنها كثيرٌ منْ مشاهيرِ العُلَماء»[2].

* وهذا شيءٌ ممن ذكرَ العالمةَ المسندةَ المحدثة ستّ الوزراء، وأثنى عليها من أعلياءِ العلماء في دنيا العِلْم والمعرفةِ والفقْهِ، وهي بلا شكّ امرأةٌ عظيمةُ المكانةِ العلميّة، عاليةُ الإسناد، متفرّدة بالرّواية، لذلك فإنّها استقدمت إلى مصرَ كي تحدِّثَ بها ويُسمع عليها، وينتفعَ الناس جميعاً بعلمها.

* رحمَ اللهُ ستّ الوزراء، وأدخلَها الجنَّة مع الدَّاخلين زُمرا. ونأمَلُ من نسائنا أنْ يتّخذْنَها قدوةً، فيسرنَ في طريقِ العلْم، ويجنينَ زَهره، ويفدنَ أولادهنَّ ومجتمعهنَّ وذويهنّ، فما أحرى المرأة المسلمة اليوم أنْ تعودَ إلى سِيَرِ هؤلاء العالمات! لتكون هي الأخرىٰ من العالِمات العاملات!.

* * *

---

(١) أعلام النساء (٢/ ١٧٣).

(٢) الدر المنثور (ص ٢٣٩) باختصار وتصرف.

سُعاد العُذريّة

* قصة منحولة مكذوبة .

مَنْ هَذِهِ المَرْأَةُ؟

* هذهِ امرأةٌ لم يفرِدْ لها المصنِّفُون وكُتَّابُ التَّراجم اسماً يعرفونَها من خلالِهِ؛ لأنَّها وردَتْ في قصّةٍ عابرة مع زوجِها الذي جَرَتْ عليه الآفاتُ من مَرضٍ وضنىً لِبُعْدِها عنه، وأخْذِها منه، فكادَ يجنُّ لتجرّعِهِ كأْسَ الفِراق.

* وهذه المرأةُ لا نعرفُ إلا اسمَها من خلالِ شِعْرٍ أنشدَه زوجُها في حضْرةِ أميرِ المؤمنين معاويةَ بنِ أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ وعرفْنَا من خلالِ أبياتهِ التي أنشدَها بدمشقَ أنَّه مستهامٌ بها، وأنّه لا يقدرُ على فراقِها، وأنَّها سَلَبَتْ عقْلَه بعد أَنْ سُلِبَت منه من خلالِ أحَدِ وُلاَةِ معاويةَ الظَّالمين ـ كما زعموا ـ وأنَّ اسمها سُعاد[1]، وهي منَ البدو من بني عُذْرة.

* هكذا وردَ اسمُها، وهكذا صاغَها صائغُو الأخبارِ والطَّرائفِ واللّطائف؛ فهلْ هناكَ امرأةٌ بدوّيةٌ من بني عذرة تُدعى بسعاد العذريّة؟! وهل حدثَتْ قصّتُها كما رواها الرَّاوون، وحاكَها الوضّاعون؟!!

* هذا ما ستجلوه الصَّفحات التَّاليات، التي سنبصرُ من خلالِها ـ بإذن الله ـ زيفَ كثيرٍ من القَصَص المصنوعِ والمنسوجِ نسْجاً رديئاً لتشويهِ صُورِ كثيرٍ من أعاظمِ وأفاضلِ خلفاءِ الدُّنيا ورجالاتها، كما أنَّ فيها تمويهاً

---

(١) انظر قصّتها في: ذمّ الهوى لابن الجوزي (ص ٣٣٨ ـ ٣٤١) تحقيق مصطفى عبد الواحد، مصر؛ والمنتظم لابن الجوزي أيضاً (٥/ ٢٩٢ ـ ٢٩٥)؛ وتزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق (١/ ٣٢٧ ـ ٣٢٩) تحقيق د. محمد التّونجي ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٣ م، ومصارع العشّاق (٢/ ١٣ ـ ١٥)، ونوادر الخلفاء المسمّى إعلام النّاس فيما جرى للبرامكة مع بني العبّاس (ص ٣٩ ـ ٤٤)، والبداية والنّهاية (٨/ ٨٥ ـ ٨٧)، والمختار من نوادر الأخبار (ص ٨٨ ـ ٩٣) وغيرها كثير.

وتضليلاً لكثيرٍ منَ الحقائقِ التّاريخية ، والصُّور الاجتماعيّة والأخلاقيّة ، وفيها كذلك إساءةٌ للنّساء العربيّات من طرفٍ خفي ، كما سنلحظُ ذلك من خلالِ قصّة سعاد ـ المزعومة ـ هذه .

* أمّا أحداثُ القصّة ، فإنَّها تدورُ في مجلسِ سيِّدنا معاويةَ ـ رضي الله عنه ـ في دمشق الشَّام ، ويبدو لنا زوجُ سعاد رجُلاً بدويّاً قد أضناه حبُّ زوجتِهِ وجمالُها ، ويكادُ يذهلُ ، حيث اشتعلتْ نيرانُ الجوىٰ في جوفِهِ حزناً عليها ، فلا يكادُ يعرفُ ليلَه من نهاره ، إلى أنْ رُدّتْ إليه زوجته في أحداث وأيّامٍ وصبرٍ وشعْرٍ وسَفَرٍ ومشقّةٍ كما سنرى .

بيـنَ يَـدَي مُعَاوِيَـةَ:

* ذكرَ أبو الفرجُ بنُ الجوزيّ في كتابه «ذمّ الهَوىٰ» قصّة سعاد وزوجها بسندِهِ عن اثني عشَر شخصاً قال: «أنبأنا ابنُ ناصر ، قال: أنبأنا المباركُ بنُ عبد الجبار ، وأخبرتنا شهدةُ ، قالت: أنبأنا جعفر بن أحمد ، قالا: أنبأنا الجوهريّ قال: حدثنا ابن حيويهِ ، قال: حدّثنا محمدُ بنُ خلَف ، قال: حدّثني محمُد بنُ عبد الرّحمن القرشيّ ، قال: حدّثنا محمد بن عُبيد ، قال: حدثنا ابن عُبيد ، قال: حدّثنا أبو مِخْنَف عن هشام بن عروة»[1] .

* وذكرتِ المصادرُ الأخرى نَقْلاً عن ابن الجوزي أيضاً قصَّة سعاد فقالَتْ ما مفاده: «جَلسَ معاويةُ بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ يوماً في مجلسٍ كانَ له بدمشقَ ، وكان الموضعُ مفتّح الجوانبِ الأربعة ، تدخلُ منه الأنسامُ الوسنىٰ من كلّ جانبٍ ، فتضفي عليه جمالاً وأناقةً إذا ما هبّتْ وعطّرتِ الدّنيا بأريجِ ما تحملُه من عبقِ الأَزْهَار .

* وبينما كان معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ جالساً في مجلسه ذاك ، وكان

(١) ذم الهوى (ص ٣٣٨)؛ ولا تغتر بهذه الرواية . . . وانظر كذلك المنتظم (٥/ ٢٩٢) .

ينتظرُ نضْجَ الطَّعام ، وينظرُ إلى بعضِ الجهاتِ ـ وكان يوماً شديدَ الحرّ ـ ، وكان ذلك وسطَ النَّهار ، وقد لفحتِ الهواجرُ؛ إذْ نظرَ إلى رجلٍ يمشي نحوه ، وهو يتلظّىٰ من حرِّ التُّراب وحرارةِ الشَّمس في تلكم الظّهيرة ، ويحجلُ في مشيتهِ حافياً ، فتأمّله معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ وتعجَّبَ من حالتِهِ تلك؛ ثمَّ التفتَ إلى جلسائِهِ ومَنْ حولَه وقال لهم: هل خلقَ اللهُ عزَّ وجلَّ أشقىٰ ممّنْ يحتاجُ إلى الحركةِ في هذا الوقتِ ، وفي مثلِ هذه السَّاعة منَ النَّهار؟!

فقال له بعضُهم: يا أميرَ المؤمنين لعلَّه يقصدكَ في هذه السَّاعة ! فقال معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ: والله لئن كانَ قاصِدي لأجلِ شيءٍ لأعطينَّه ، وأستجلبُ الأجرَ بهِ؛ وإن كانَ مظْلوماً لأنصرنَّه وأنصفنَّه وأرحمنَّه وأرفع عنه شدّته.

* ثمّ إنَّ سيّدنَا معاويةَ ـ رضي الله تعالى عنه ـ نادى غلاماً له وقال: يا غلامُ. قِفْ بالبابِ ، فإنْ طلبني هذا الرَّجل الأعرابي ، فلا تمنعْهَ منَ الدُّخول عليَّ.

* وامتثلَ الغلامُ الأمْرَ ، فوقفَ عند الباب ، وما هي إلا سُوَيعة حتى وافاهُ الرّجل ، فسألَه الغُلامُ: ما حالُك وما تريدُ ومَنْ تبغي؟

قال الرّجلُ بلهفةٍ: أريدُ أميرَ المؤمنين معاويةَ بنَ أبي سفيان. قال الغلام: وصلْتَ ، فادخل. . .

* ودخلَ الرَّجُلُ الأعرابي مجلسَ معاويةَ بعد أنْ أذِن له ، وكان الخدمُ قد مدُّوا الطَّعام ، فسلَّم الأعرابيُّ سلامَ المضطربِ الوجِلِ الحيران. . .

فقال له معاوية: ممّنِ الرّجل؟

قال: فتىً من بني عُذرةَ.

قال معاوية: فما الذي جاءَ بكَ في هذا الوقت أيُّها الفتى؟

فقال الفتى: يا أميرَ المؤمنين[1] ، جئتُك مشتكياً؛ وبك مستجيراً؟ قال معاوية متعجّباً: وممّن تشتكي يا هذا؟!

قال: من عامِلك مروانَ بنِ الحكم. . .

* ثم إنَّ الفتىٰ العذريَّ استردَّ بعضَ أنفاسهِ ، وهدأ قليلاً وقام بين السّماطين ، فنظرتْ إليه عيونُ الحاضرين وشنّفُوا أسماعَهم فأنشأَ ينادي معاوية ويتوسّل إليه بهذه الأبيات:

مَعاويَ يا ذا الفَضْلِ والحِلْمِ والعَقْل ... وذا البِرِّ والإحْسانِ والجودِ والفَضْلِ
أتيتكَ لمّا ضَاقَ في الأرض مَسْلكي ... وأُنكِرْتُ ممّا قد أُصيْبَ بهِ عقْلي
ففـرّجْ كَـلاَكَ اللهُ عنّـي فـإنّنـي ... لقيـتُ الـذي لَـمْ يلْقَـه أحـدٌ قَبْلـي
وخذْ لي هَدَاكَ اللهُ حقّي منَ الذي ... رَمَـانـي بِسَهـمٍ كـانَ أهْـونَـه قَتْلـي
وكنـتُ أرجّـي عَـدْلَـه إنْ أتيتُـه ... فأكثر تَرْدَادي مع الحبْسِ والكَبْلِ
فطلّقْتُها منْ جَهْدِ مَا قَدْ أصابَني ... فَهذا أميرَ المؤمنينَ منَ العَدْلِ[2]

---

(١) «أميرُ المؤمنين»: أوّلُ مَنْ لُقّبَ بهِ عمرُ بنُ الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ أثناء خلافتهِ ، إذْ كلمةُ أمير تعني سيّداً من العربِ بينما المؤمنون ، هم المسلمون الذي دخَل الإسلامُ قلوبَهم ، وخرجُوا للجهادِ في سبيلهِ ، ولقد أصبحتْ تعني أيّام المماليك علىٰ الخصوص لقباً شرفيّاً للخلفاء بحكم السَّيطرة الاسميّة على أرضِ العروبة التي لم تَعُدْ أرضَ الجزيرة العربيةِ وحدَها مهدَ العروبةِ والإسلام ، ولكن أيضاً بلاد مصْر والشّام والفُرات بحكم إسلامها وتكلّمها بالعربيّة ، ولا سيما مصر التي أصبحت مركزَ العروبةِ والإسلام وقتذاك. (صبح الأعشى ٥/ ٤٧٥) ، و(مقدمة ابن خلدون ص ١٧٩).

(٢) انظر: ذم الهوى (ص ٣٣٨ و٣٣٩) ، وتزيين الأسواق (١/ ٣٢٧)؛ ومعنى: «كلاكَ الله»: مِن كلأَ: أي حفظكَ اللهُ. و«الكبل»: الحبْلُ والقَيد. و«أميرَ المؤمنين»: منادى بأداةِ نداءٍ محذوفة.

* وهذه الأبياتُ قد وردتْ على تلكَ الصُّورة في «ذمّ الهوىٰ» لابنِ الجوزي ، و«تزيين الأَسْواق» لداود الأنطاكي ، بينما وردت في «نوادِرِ الخُلفاء» على النَّحو الآتي وعددُها خمسة أبيات بدلاً من ستّة :

مَعاويَ يا ذا الجودِ والحلْمِ والبذْلِ ويا ذا النَّدىٰ والعلْمِ والرّشدِ والنُّبلِ

أتيتكَ لمّا ضَاقَ في الأرضِ مذْهَبي فياغوثَ لا تقْطَعْ رجائي منَ العدلِ

وجُدْ لي بإنصافٍ منَ الجائرِ الذي بَلاني بشيءٍ كان أيْسَرُهُ قَتْلي

سَباني ابنُ سُعْدىٰ وانبرىٰ لخُصُومَتي وجارَ ولمْ يعدلْ وأغْصَبني أهلي

وهمَّ بقَتْلي غيرَ أنَّ منيّتي تأنَّتْ ولمْ أستكملِ الرّزقَ منْ أجْلي[1]

* ولما فرغَ الرجلُ من إنشادِه ، ونارُ الحرقة تتوقّدُ من فمِهِ ، قال له معاوية : ادنُ منّي باركَ اللهِ عليك ، ومهلاً ورفْقاً بنفسِكَ يا أخا العَرب . .

* وهنا دنا الفتى العذريّ من معاويةَ ، فهشَّ له ، وقال : ما خَطْبكَ ؟ اذكر قصتّك ، وأَبِنْ لي عن أمرِك ، فقد أهمّني حالك .

قال الفتى العذريّ : أطال اللهُ بقاءَ أميرِ المؤمنين وباركَ فيه ، إنّني رجلٌ من بني عذرة ، تزوَّجْتُ ابنةَ عمّ لي ، وكنتُ لها محّباً وامقاً ، وبها كَلِفاً عاشقاً ، وكانتْ من المبرّزاتِ المشهوراتِ في الجمالِ والكمالِ والحياءِ والخَفَرِ ، وكنتُ بها قريرَ العين ، طيّبَ النَّفس ، رضيَّ القَلْب . . . .

* وكانت لي صِرمة[2] من إبلٍ وشُويهات ، كنتُ أستعينُ بها على قوامِ حالي وكفايةِ تَعبي ، فأنفقْتُ ذلك كلّه عليها حتى افتقرتُ ، فلما أصابتني نائبةُ الزّمان ، وحادثاتُ الأيّام ، وعضّني الدّهْرُ بنَابِهِ ، وبقيتُ لا أملكُ شيئاً

---

(١) انظر : نوادر الخلفاء المسمى إعلام الناس (ص ٤٠) ، ولاحظ الفرق بين الأبيات في المصادر .

(٢) «صِرمة» : الصِّرمةُ : القطعةُ منَ الإبلِ ما بين عشرين إلى الثّلاثين .

يُذكر؛ وكذلك يا أمير المؤمنين لما قلَّ ما بيدي ، وذهبَ مالي ، وفَسَد حالي ، بقيتُ مهاناً ثقيلاً على الذي كان يألفني ، وأبعدني مَنْ كان يشتهي قُربي والجلوس معي[1] .

* ولما علمَ أبوها ما بي من سوءِ الحال ، وشرِّ المآل ، وقلّةِ المال ، رغَب عنّي ، وأخذَهَا ، وجَحَدني؛ أمّا هي فكانتْ ـ يا أمير المؤمنين ـ جاريةً فيها الحياءُ والكرمُ ، فكرهَتْ مخالفةَ أبيها؛ فأتيتُ عامِلَكَ مروانَ بن الحكم راجياً لِنُصرتي ، فذكرتُ ذلك له ، وبلغَه جمالُها ، وأحضرَ أباها فجَحدني ، وقال: ما أعرفُه قطّ.

فقلتُ: أصلحَ اللهُ الأمير ، إنْ رأى أنْ يحِضرهَا ويسألها عن قولِ أبيها فَعل ، وتأكّد من صحّةِ قولي.

* فبعثَ خلفَها ، فلما حضرَتْ بين يديه ، وقعتْ منه موقعَ الإعجابِ ، فصار لي خَصْماً ، وعليَّ منكراً ، وأظهرَ لي الغضب ، وأرسلَ بي إلى السّجن ، فبقيتُ كأنَّما خَرَرْتُ من السَّماء ، أو هوت بي الريحُ في مكانٍ سحيق.

---

(١) يحضُرني في هذا المقامِ قول الشّاعر:

النّاسُ أعداءٌ لكلّ مدقعٍ صفرِ اليدين وإخوةٌ للمكْثرِ

وقيل لبعضِ العُقلاء: كم لكَ منْ صَديق؟ فقال: لا أعلمُ ذلك ، لأنَّ الدنيا مقبلةٌ عليَّ والأموالُ موجودةٌ عندي ، وإنّما أعرفُ ذلك إذا ولَّتْ.

ـ ولما استُوزرَ عليُّ بنُ عيسى ، ورأىٰ اجتماعَ النّاس عليه ، تمثّل بقولِ أبي العتاهية:

ما النّاسُ إلاّ مع الدُّنيا وصاحِبها فكيفَ ما انقلبتْ يوماً به انقلبُوا

يعظّمُون أخا الدّنيا فإنْ وثَبَتْ يوماً عليه بما لا يَشْتهي وثبوا

ـ وقيل: إذا أيسرتَ فكلُّ رجْلٍ رحلُك ، وإذا افتقرتَ أنكرَك أهلك.

ـ وقيل: العسرةُ والعشرةُ لا يجتمعان.

* ثمَّ إنَّ ابنَ الحكم لم يكتفِ بما فعلَ بي وظلمني ، وقال لأبيها : هل لك أنْ تزوّجنيها على ألفِ دينار وعشرة آلاف درهم ، وأنا ضامنٌ لك خلاصَها من هذا الأعرابي؟

* فرغبَ أبوها في المالِ ، ورغب عنّي ، وأجابَه إلى ذلك ، فلمّا كان من الغدِ ، بعثَ إليَّ وأحضرني ، ونظرَ إليَّ كالأسدِ الغضبانِ ، وقالَ لي : ويحكَ ، طلِّقْ سعاداً. فقلتُ : لا أطلّقُها.

* فأخذَني ثانيةً ، وحبَسني وضيَّقَ عَليَّ أشدَّ الضّيق ، ولكنّي لم أنْثَنِ عن عزمي ، وثَبَتُّ علىٰ موقفي ، فلمّا رأىٰ منّي الحزمَ ، سلَّطَ عليَّ جماعة من غلمانِهِ يذيقونَني ألوانَ العَذَابِ والنَّكال ، وشدَّدوا عليَّ ، فلمّا أصابني مسُّ الحديدِ ، وألَمُ العذابِ ، وصعوبةُ الإرهاق ، ولم أجدْ بدّاً أو بَدلاً من طلاقِها ، فعلتُ ذلك وأنا كارهٌ لذلك أشدَّ الكُره ، إذ لم يعُدْ أمامي حيْلَة.

* وبعد ذلك أعادني إلى السّجن ، وشدّد عليّ الحراسةَ ، فمكثْتُ فيه مدّة إلى أن انقضت عدّتها ، وعند ذلك عقَدَ عليها وتزوّجها؛ ثمّ أطْلَقَ سراحي ، وأفرجَ عنّي بعد أن لقيتُ الهَوىٰ والهَوان؛ وقد أتيتُكَ يا أميرَ المؤمنين راجياً ، وبك مُستجيراً ، وإليك مُتلجئاً ، فأنتَ تغيثُ المكروب ، وتسندُ المسلوب ، فهل أجِدُ عندك من فَرَج؟!

* ثم إنَّ الفتى العذريّ تنهَّدَ بحسرةٍ ، وبكى بكاءً شديداً ، وقال في بكائه هذه الأبيات التي تنمُّ عن حبّه :

فـي القَلْـبِ منّـي نَـارٌ ... والنَّـارُ فيهـا شَـرَارُ
والجِسْـمُ منّـي نحيـلٌ ... واللـونُ فيـهِ اصفِـرارُ
والعيـنُ تبكـي بشجـوٍ ... فَـدمْعُهـا مِـدْرَارُ
والحـبُّ داءٌ عسيـرٌ ... فيـهِ الطَّبيـبُ يَحـارُ
حملـتُ منْـه عظيمـاً ... فمـا عليـهِ اصطبـارُ

فَلَيْـــسَ لـــي بِلَيْلـــي ولا نَهـــاري نَهَـــارُ
وَليـــسَ إلاّ بـــربـــيّ وبـــالأميـــرِ انتصـــارُ[1]

* وبعد أنْ فرغَ الفتى العذريُّ من أبياتِهِ اضطربَ اضطراباً شديداً ، واصطكَّتْ أسنانُه ، ووقَعَ مغشيّاً عليه ، وأخذَ يتلوّى كالحيّة من شدّةِ ما أصابه منْ ألَمِ الجوىٰ والهوى والظُّلم.

* ثم إنَّ ذلكَ الفتى العذريّ تماسكَ قليلاً ، ونظرَ إلى أميرِ المؤمنين معاوية الذي كان يسمعُ كلامَه وإنشادَه ، فرآه قَدْ رقَّ له ، وتأثَّر لما حدَثَ له من تشتيتِ شَمْلِهِ ، وبعدِهِ عن سُعَاد التي ملكَتْ مهجته وسلبتْ لبَّه.

* وتحرّكتِ الشَّفقةُ في أعماقِ معاويةَ وفي قلبهِ ، فنظرَ إلى الفتى العذري نظرةَ عطفٍ وقال: تعدّى ابنُ الحكم في حدودِ الدِّيْن ، وظلمَ واجترأَ على حُرَمِ المُسلمين[2].

---

(١) انظر: ذم الهوى (ص ٣٣٩) ، والبداية والنهاية (٨/ ٨٦)؛ وقد وردت هذه الأبيات في «نوادر الخلفاء» (ص ٤١ ـ ٤٢) و«المختار من نوادر الأخبار» (ص ٩٠) وعددها خمسة وهي:

فـــي القلـــب منّـــي غَـــرامُ للنّـــار فيـــه استعـــارُ
والجســـمُ مُـــرمـــىً بسهـــمٍ فيـــه الطّبيـــبُ يحـــارُ
وفـــي فـــؤاديَ جمْـــرٌ والجمـــرُ فيـــه شـــرارُ
والعيـــنُ تهطـــلُ دمعـــاً فـــدمعُهـــا مـــدرارُ
وليـــس إلاّ بـــربـــيّ وبـــالأميـــر انتصـــارُ

(٢) انظر: نوادر الخلفاء (ص ٤٢)؛ وممّا لا شكَّ فيه أنَّ هذا القول وأشباهَه ، وهذه القصّة وأشباهها من القصصِ المنسوجِ المُهلهل الكاذب ، ولا يمكنُ أنْ يصحَّ منه شيء ، وأنَّ ما نقرؤه من أخْذٍ وردّ ، وصدّ ومدّ ، إنْ هوَ إلاّ إفكٌ مفترى على سيّدنا معاوية ـ رضي الله عنه ـ ، وعلى مروانَ بنِ الحكم وغيرهما من أعلام الصَّحابة ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ والذي يتتبّعُ القصّة ، ويقرأُ الأشعار ، يدرك أنّها حبكت بعد عَصْر معاوية بزمن طويل.

* ثم إنَّه خاطبَ الفتى وقال له: لقد أتيتَني يا عذري بحديثٍ لم أسمعْ بمثلهِ قطّ.

* وأخذَ معاويةُ يحدِّثُ الغلامَ العذري، ويباسطُه ويؤانسُه، ووعده أنْ يردَّ عليه سعاداً لِتُرَدَّ إليه روحه وتعودَ إليه سكينتُه... ترى ماذا فعلَ معاويةُ مع الفتى ومع سعاد ومروان؟!

طَلِّقْ سُعَاداً:

* وعَدَ معاويةُ الفتى العذري بأنّه سينصرُهُ وينصفُه، فدعا بدواةٍ وقرطاسٍ، ثمّ كتبَ إلىٰ مروانَ بنِ الحكم كتاباً أغلظَ له فيه، وعنَّفَه ووبَّخَه وقال له فيه: «من أميرِ المؤمنين معاويةَ بن أبي سُفيان إلى مروانَ بنِ الحكم... أمّا بعد:

* إنّه قد بلغني أنّك تعدَّيَت على رعيّتك في حدودِ الدِّين، وينبغي لمن كانَ والياً أنْ يكفَّ بصرَه عن شهواتِهِ، ويزجرَ نفسه عن لذّاته[1].

* ثمّ إنَّ معاويةَ كتبَ بعده كلاماً طويلاً، يعنّفه فيه، ويعظُه، ويأمرُه أنْ يتخلّى عن سعاد العذريّة، ويأمرُهُ بطلاقها قولاً واحداً، وأنْ يرسلَها إليه محفوفةً بالمكارم والألطافِ، وأن يبعثَها مع الكُميت ومع نَصْر بنِ ذبيان بأَسرع وقتٍ وأخْصَرِ زمَنٍ، ثمّ ختم رسالته بهذه الأبيات متوعّداً مروان وموبّخاً ومنبّهاً، وقال:

رَكِبْتَ أمْراً عظيماً لَسْتُ أعْرِفُهُ ... أستغفرُ اللهَ مِنْ جورِ امرىءٍ زَانِ

---

(١) انظر: نوادر الخلفاء (ص ٤٢).

قَدْ كنْتَ تشبهُ صُوفيّاً له كُتُبٌ ... مـنَ الفـرائـضِ أو آيـات قُـرآنِ[1]
حتّى أَتاني الفتىٰ العُذريّ منتحِباً ... يشكـو إلـيَّ بحـقٍّ غيـر بُهتـانِ
أُعْطي الإلهَ عُهوداً لا أخيسُ بِها ... أو لا فَبُـرِّئْـتُ مـنْ دِيْـنٍ وإيمـانِ
إنْ أنْتَ راجْعتَني فيما كتبْتُ بهِ ... لأجْعلَنّـكَ لحمـاً بيـنَ عُقبـانِ
طلّـقْ سُعـادَ وفـارِقْهـا بِمُجْتمـعٍ ... أشهِدْ علىٰ ذاكَ نَصْراً وابنَ ظبيان
طلّـقْ سعـادَ وعجّلْهـا مجهّـزةً ... مع الكميتِ ومَعْ نَصْرِ بن ذبيان
فَما سَمِعتُ كَما بُلِّغْتُ منْ عَجبٍ ... ولا فعـالـك حقّـاً فِعـلَ إنْسـانِ

* وبعد أنْ فرغَ معاويةُ من كتابهِ ، طواهُ وختَمه بختمهِ ، واستدعىٰ رجلَيْن من عنده هما: الكميتُ ، ونصرُ بنُ ذبيان ـ أو ظبيان ـ ، وكان يستنهضُهما في مهمّاتِ الأمور وعظائِمها ، وذلك لأخلاقهما وأمانتِهما وحرصِهما أشدَّ الحرص على تنفيذِ أوامره على أتمّ وجْهٍ وأكمله» .

مَـا تَصْلُـحُ إلاّ لأَميرِ المُؤْمنيْـنَ:

* انطلقَ رسولا معاوية من دمشقَ الشَّام ، وهما يحملان كتابَ أميرِ المؤمنين إلى ابنِ الحكَم ، وسارا في جدّ واجتهادٍ ، يَصِلان الليلَ بالنَّهار حتى قدما المدينةَ المنوّرة ، وقصَدا دار الإمارة ، ودخلا على واليها مروانَ بنِ الحكم ، فسلّما عليه ، ثمَّ سلّما إليه كتاب أمير المؤمنين معاوية ، وأعلماهُ بصورةِ الحالِ؛ فصارَ مروانُ يقرأُ الكتابَ ويبكي ،

---

(١) لاحظ الخلطَ والافتراءَ في هذَين البيتَيْن حيث زعموا أنَّ معاويةَ اتَّهم ابنَ الحكم بالجورِ والظّلم والزّنى ، وذلك في البيتِ الأوّل.
أمّا البيتُ الثّاني فإنّه ينطقُ بالكذبِ ويفضحُ الوضّاعين ويشيرُ إلى كذبهم ، حيثُ وصفَ معاويةُ ابنَ الحكم بالصُّوفي صاحب الكُتب ، والصُّوفية لم تكنْ بَعْدُ موجودة أو نامية في ذلك العَصر ، فكيفَ بكتبهم؟! ولكنْ للكذبِ والكذّابينَ أحبْالٌ قصيرةٌ!!

وتنفَّس الصُّعداء وقال: «وددتُ لو أنَّ أمير المؤمنين خلّىٰ بيني وبينها سَنَة، ثم عرضَني على السَّيف»[1].

* وجعلَ مروانُ يؤامرُ نَفْسَه على طلاقها، فلمّا أزعجه رسولا معاوية، وألحّا عليه بتنفيذِ أمْرِ أمير المؤمنين معاوية، قامَ إلى سعاد، وأعلَمها بحقيقةِ الحالِ وجليةِ الأمْرِ، ولم يسعْهُ إذ ذاك مخالفةُ الأوامرِ الصَّادرة من دمشق عن أميرِ المؤمنين معاوية؛ ثم إنَّ مروان أخذَ يبكي على ما ألمّ بهِ من أمْر.

* ثم إنَّ مروان طلَّق المرأة العذرَّية بمحضرِ الكميتِ ونصرِ بن ذبيان ومن كانَ في المجلسِ؛ وبعد ذلك قال لها: يا سعاد، اخرجي، فخرجتْ شَكِلةً غنجةً، ذات هيئةٍ وجمال، فتعجَّبَ النَّاسُ من حُسْنِها[2]، ولما رآها الوفدُ قالوا: «هذه الحوريةُ الفاتنةُ لا تصلحُ لذاكَ الأعرابي، واللهِ ما تصلحُ إلّا لأميرِ المؤمنين»[3].

* وعلى جناحِ السّرعة، وغايةِ ما يُرام جهَّزَ مروانُ بنُ الحكم الرجلَيْن والوفد، ومن ثم ارتحلتْ سعادُ في معيّةِ الوفدِ، بينما كتبَ مروانُ كتاباً يجيبُ فيه على كتابِ أمير المؤمنين معاوية، ثمَّ ذيّله بهذه الأبيات:

لَا تَحنثَنَّ أميرَ المؤمنين فَقَدْ أُوفي بعهدِكَ في رفْقٍ وإحْسَانِ
ومَا ركبْتُ حَراماً حين أَعْجَبني فكيفَ سُمِّيتُ باسمِ الخائنِ الزَّاني

---

(١) ذم الهوى (ص ٣٤٠)، وتزيين الأسواق (١/ ٣٢٨).
(٢) لاحظْ هذا الخلطَ والإفكَ؛ كيفَ يخرجُ امرأةً ـ كانت زوجة له ـ كما زعموا، وكيفَ يتعجّب النّاس من حُسنها.
(٣) بربّك هل هذا الهزلُ يصلحُ في «فيلم فاشل» في أيّامنا هذه؟! ولكَ أنْ تتصوّرَ السُّخف والسَّذاجة والسّخرية التي مُنِيَ بها هؤلاء الوضّاعون وكذبُوا على أنفسِهم وعلى النّاس.

اعذُرْ فإنَّك لَو أبصرتَها لَجَرتْ فيكَ الأماني عن تمثالِ إنْسانِ
فَسَوفَ تأتيك شمسٌ لا خَفَاءَ بها أبهى البريةِ منْ إنسٍ ومن جَان
حَوراءُ يقصرُ عنها الوصفُ إنْ وصفَتْ أقولُ ذلك في سرٍّ وإعلان[1]

* ثم ختمَ مروانُ الكتابَ ودفعَهُ إلى الرَّسولَيْن ، وأمرهما أنْ يسلّماه إلى أميرِ المؤمنين معاوية في الشَّام .

اردُدْ سُعَاد علىٰ حَيْرانَ :

* سارَ الوفدُ يقطعُ الفيافي والقفَار قاصِداً دمشقَ الفيحاءَ وهاتيك الدّمن ، وبصحبتِهم سعاد العذريّة تلك المرأةُ الجميلةُ التي ـ زعموا ـ أنّها ملأتِ القُصور بجمالِها ، وشغلتِ الأمراءَ والملوكَ بدلالِها ، وما زالَ الوفدُ سائراً حتى وصلَ دمشقَ الشَّام ، ووردَ على معاوية ، ثمَّ إنَّ الرَّسولَيْن سلّما إليهِ كتابَ مروان ، فقرأهُ وقرأَ الأبيات ، ثم قال: لقد أحسنَ مروانُ بنُ الحكم في الطَّاعة ، وأطْنَبَ في ذكْرِ الجاريةِ ووصْفِ محاسنها ، فقال: «إنْ كانَتْ أُعْطيتْ حُسْنَ النَّعْمةِ مع هذه الصِّفة ، فهي أكملُ البريّة»[2] .

* ثم إنَّ معاوية أمرَ بإحضارِ سعاد ، فحضرتْ ، فلمّا رآها رأى صورةً حسناء لم يرَ أحْسَنَ منها ولا مثلَها في الحسنِ والجمالِ ، والقدّ والاعتدالِ ، والدّل والدّلال؛ فخاطبَها واستنطقها ، فإذا هي أحسنُ النَّاسِ منطقاً ونُطقاً وفماً وكلاماً وفتنةً ، وألفاها فصيحةَ اللسانِ حسنةَ البيانِ ، يُضاف إلىٰ هذا كلّه أنّها كانت من أكملِ النساء شَكْلاً ودلاًّ ؛ وكأنَّ القائل عناها بقولهِ ووصّفه .

هَيفاءُ كالغُصْنِ الرّطيب إذَا انثنَتْ تختالُ في ثَوْبَيْ حَياً ودَلالِ
تَسْبي القُلوبَ بأَسْرِها فجميعُهم في أَسْرِها لكنْ بقيدِ جَمالِ

(١) انظر: ذم الهوى (ص ٣٤٠) ونوادر الخلفاء (ص ٤٣) مع الجمع والتصرف.
(٢) انظر: ذم الهوى (ص ٣٤١) ، والمنتظم (٥/ ٢٩٤).

* وقوله أيضاً:

وسَالبةٍ بالحُسْنِ عَقْل ذوي النُّهى ... لِطَلْعتِهــا أسْنــىٰ الــدَّراري آفِــلُ
إذا مَـا تَجلَّـتْ دُكَّ طَـوُر قُلـوبهـم ... وخرُّوا إلىٰ الأذْقَانِ والعقلُ زائِل

* وهنا زعمَ واضعُ القصَّةِ ومخترعها بأنَّ معاويةَ رضي الله عنه قد أُعجبَ بسعاد ، وأخذتْ بمجامعِ قلبه ، وهامَ بها حبّاً ، ومن ثمَّ سوّلَتْ له نفسُه أنْ يستوليَ عليها ، وأن يتنعَّم بها ، فهي درّةٌ من الدُّرر لا مثيل لها بين نساءِ عَصْرها وآنساتِ مِصْرها ، ويزعمُ الوضّاع أنَّ معاويةَ قال:

«عَليَّ بالأعرابي؛ فأُتي به ، وهو في غايةٍ من تغيّرِ الحالِ وسوءِ المآل ، فقال له: يا أعرابي هل لكَ عن سعاد من سَلْوة ، وأعوضك عنها ثلاث جوارٍ نهْدٍ أبكار ، كأنّهنّ الأقمار ، مع كلّ جاريةٍ ألف دينار[1] ، وأقسمُ لكَ في بيتِ المالِ كلّ سنة ما يكفيكَ وما يغنيك»[2].

* فلمّا سمعَ الأعرابي كلامَ أميرِ المؤمنين معاوية طار صوابُه وشهقَ شهقةً ظنَّ معاويةُ أنَّه ماتَ بها ، فقال له معاوية: «ما بالكَ بِشَرِّ بالٍ وسوءِ حال»؟

فقال الأعرابي: استجرتُ بعدِلك من جورِ ابن الحكم ، فبمَنْ أستجيرُ منْ جورِك؟!

فقال له معاوية: يا أعرابي ، هل لكَ من سلو عنْها بأفضل الرَّغبة؟

قال الأعرابي: نعمْ يا أمير المؤمنين ، أسلو عن سعاد إذا فرَّقْتَ بين

---

(١) نوادر الخلفاء (ص ٤٣) ، ولاحظ هذا السَّجع السَّخيف المقتبس من ألف ليلة وليلة ، والمنسوب إلى صحابي جليلٍ رفيع القدرِ ، كبيرِ المكانة.
(٢) لاحظ الزُورَ والكذبَ والافتراءَ على لسانِ سيّدنا معاويةَ ، وأنَّه يجعلُ بيتَ مالِ المسلمين تحت تصرّف أعرابي من أجلِ امرأةٍ ، سبحان الله هذا بهتانٌ عظيم.

رأْسي وجَسَدي[1] . ثم أنشأَ الأعرابي يقول :

لا تجعلَنّيَ والأمثالُ تُضْرَبُ بي ... كالمستغيثِ منَ الرَّمضَاءِ بالنَّار[2]
اردُدْ سُعَادَ علىٰ حيرانَ مكتئِبٍ ... يُمسي ويُصبح في همٍّ وتذكَارِ
قد شفَّه قلَقٌ ما مثله قلَقٌ ... وأُسْعِرَ القَلْبُ منه أيّ إسْعارِ
واللهِ واللهِ لا أنسىٰ محبَّتَها ... حتّى أُغيَّبَ في رمْسٍ وأحجارِ
كيفَ السُّلُوُّ وقد هَامَ الفؤادُ بها ... وأصبحَ القَلْبُ عنها غير صبَّارِ
أطلقْ وثَاقي ولا تبخلْ عليَّ بها ... فإنْ فعلْتَ فإنّي غيرُ كفَّارِ[3]

* ثم قال: واللهِ يا أمير المؤمنين ، لو أعطيتني الخلافةَ ما أخذتُها دونَ سعاد ، ثم أنشدَ يقول :

أبى القَلْبُ إلاّ حبُّ سعدىٰ وبُغِّضَتْ ... عليَّ نِساءٌ ما لَهُنَّ ذُنوبُ[4]

* قال الرّاوي الأفّاك مُتابعاً هذه المسرحيّة المصنوعة ذات الحبكة غير المحبوكة : فغضبَ معاويةُ غضَباً شديداً ، ثمَّ قالَ للأعرابي : إنّك مقرٌّ بأنَّكَ قد طلّقْتَها ، ومروانُ مقرٌّ بأنَّه طلّقها أيضاً ، ونحنُ أولاءِ نخيّرُ سُعاداً ، فإنِ اختارتْ سواكَ تزوجناهَا ، وإن اِختارتْكَ حولنَاها إليك .

---

(١) انظر : ذمّ الهوى (ص ٣٤١).
(٢) هذا البيتُ فيه تعريضٌ بسيّدنا معاوية رضي الله عنه ، وقوله : [كالمستغيثِ أو كالمستجيرِ منَ الرّمضاء بالنار] ، هذا شَطرٌ من بيتٍ قيل في كُليب عندما طعنَه جسّاس بن مرّة ، فَدقَّ صُلبَه ، فقال له كُليب : أغثني بشربةِ ماء؛ فقالَ له جسَّاس : تركتَ الماءَ وراءَك ، وانصرفَ عنه ، ولحقه عمرو بنُ الحارث ، فقال له كُليب : يا عمرو ، أغثني بشربةِ ماء ، فنزلَ إليهِ ، فأجهزَ عليهِ ، فضُرِبَ به المثُل فقيل :
المستجيرُ بعمروٍ عند كربتهِ ... كالمستجير منَ الرَّمضاء بالنَّار
انظر (مجمع الأمثال ٢/ ١٨٢) ، و(الفاخر ص ٩٣) ، و(فصل المقَال ص ٥٠٤) ، و(فرائد الخرائد ص ٣٠٢) وغيرها كثير .
(٣) انظر : ذم الهوى (ص ٣٤١) ونوادر الخلفاء (ص ٤٣) مع الجمع .
(٤) نوادر الخلفاء (ص ٤٤).

قال الأعرابيُّ: افعَلْ مَا بَدا لكَ يا أميرَ المؤمنين فأنا راضٍ بذلك.

* وهنا التفتَ معاويةُ إلى سعاد وقال لها: «ما تقولينَ يا سُعادي[1]، أيّما أحبّ إليكِ، أميرُ المؤمنين في عزّهِ وشرفهِ وقصورهِ وسلطانِهِ، وأموالِهِ وما أبصرتيه عنْدَه، أو مروانُ بن الحكم في تعسُّفهِ وجورِه، أو هذا الأعرابيّ في جُوعِهِ وفقْره»؟!

* وهنا انبرتْ سعادُ بأفصح لسان وأنشدتْ تقولُ:

هَذا وَإنْ كَانَ في جُوعٍ وإضْرار ... أعزّ عندي منْ قَومي ومنْ جَاري
وصَاحبِ التّاج[2] أو مروانَ عامله ... وكُلّ ذي درهم عندي ودينارِ[3]

* وفي رواية مكذوبةٍ مصنوعةٍ أخرىٰ ادعوا أنّها قد أشارت إلى ابنِ عمّها ثمّ أنشدَتْ:

هـذا وإنْ أصبحَ في أطْمارِ ... وكـانَ في نَقْصٍ منَ اليَسارِ
أكْبرُ عندي من أبي وجَاري ... وصَاحِب الدّرهم والدِّينارِ
أَخْشَى إذْ غدرْتُ حرَّ النَّار ... هـذا حَليلي ما بهِ من عَارِ
لَعَلّنا نَرجِعُ للدِّيَار ... نَنْشَقُ عِطْر البَانِ والعَرارِ[4]

* ثم إنَّ سُعاداً قالت لمعاويةَ: واللهِ يا أميرَ المؤمنين، ما أنا بخاذلته

---

(١) لاحظ هذا الكلام وهذا (الدلع) وهذا الهراء والسخف المنسوب إلى سيدنا معاوية والذي هو بريء منه براءة الذئب من دم يوسف؛ نعوذ بالله من الأهواء الباطلة والأحكام الجائرة، والأذواق المشينة.

(٢) «صاحب التاج»: المقصود به ـ كما أراد الوضاع ـ معاوية، فهل كان معاوية يضع تاجاً؟ أم أن صناعة الأبيات كانت رديئة؟! وحيكت في غفلة عن الناس!!

(٣) نوادر الخلفاء (ص ٤٤)، والمختار في نوادر الأخبار (ص ٩٢).

(٤) انظر: تزيين الأسواق (١/ ٣٢٩)، وقد وردت في «البداية والنهاية» أخصر من هنا حيث أورد خمس شطرات؛ وكذلك في «ذم الهوى» (ص ٣٤١).

لحادثةِ الزّمان ، ولا لغدراتِ الأيّام ، وإنَّ له صحبةً قديمةً لا تُنسى ، ومحبّةً لا تبلىٰ ، وأنا أحقُّ مَنْ يصيرُ معه في الضّرّاء ، كما تنعَّمْتُ معه في السَّرَّاء . . .

* قال الرّاوي الوضّاع : وتعجَّبُ معاويةُ من عقْلِها ومودّتها له ، وموافاتها ووفائها ، والتفتَ إلىٰ الأعرابي وقال له : خُذْهَا لا باركَ اللهُ لكَ فيها . . . فأنشأَ الأعرابيُّ يقول :

خَلُّوا عَنِ الطَّريقِ للأَعْرابي أَلَمْ تَرِقُّوا ويحكُم لِما بي[1] !

قال : فضَحِكَ معاويةُ ، وأمرَ له بعشرةِ آلافِ درهم ، وناقة ، ووطَاء ، وأمرَ بسعاد فأدْخِلَتْ في بعضِ قُصوره ، ومكثَتْ حتى انقضَتْ عدتّها من ابنِ الحكم ، ثمّ أمرَ بدفعهاإلى الأعرابي فأخذَها وانصرَف[2] . وكان لسانُ حاله ينشدُ ويقولُ شاكراً مَنْ فرّجَ كربته ، وردَّ له حبيبتَه :

لقد جُدْتَ يا بْنَ الأكرمينَ بنعمةٍ جَمَعْتَ بها بينَ المحبّين في سِتْرِ
فلا زِلتَ بالإحْسَانِ كَهفاً وملجأً وقد جَلَّ ما قد كانَ منكَ عن الشّكرِ

* هذه قصّة سعاد العذريّة المكذوبة والمنحولة ، ويظهرُ للقارىء الكريمِ كيفَ حاولَ الوضّاعون أنْ يضعُوا من قَدْرِ الأكابرِ في هذه القصّة المكذوبةِ التي لا يمكنُ أنْ تصدرَ عن الأصاغرِ ، فكيفَ بالأكابرِ من أعيانِ الصَّحابة؟!

* وهناك قصصٌ أخرىٰ مكذوبةٌ عن معاويةَ ، وفيها إساءةٌ واضحةٌ لسيرتِه ، وقد أوردَهَا النّهروانيُّ في كتابهِ «الجليسُ الصَّالح»[3] ومفادها أنَّ

---

(١) ذم الهوى (ص ٣٤١).
(٢) انظر : ذم الهوى (ص ٣٣٨ ـ ٣٤١) ، ونوادر الخلفاء (ص ٤٣ ـ ٤٤) مع الجمع والتصرف . وانظر بقية المصادر المشار إليها في مقدمة الترجمة .
(٣) انظر : الجليس الصالح الكافي للنهرواني (٣/ ٢٨٤ ـ ٢٩١) .

معاويةَ احتالَ على ابن عامرٍ ليطلّقَ زوجتَه ، ثم يتزوّج هو منها ، وذلك في خبرٍ طويلٍ يتسم بالحقدِ والافتراءِ والكذب والبلاهةِ من الوضّاعين.

* نرجو الله عزَّ وجلّ أنْ يلهمنا الصَّواب ، وأن يحشرنا مع الصَّحابة الكرام ، وأن يجعلَنا منَ الذين يستمعون القولَ فيتبعون أحْسَنَه.

* * *

شُهدة بنت أحمد الإبْري

* مُسندة العراق ، فخر النساء ، كاتبة ، مُعمِّرة ، عُرِفَتْ بـ «ستّ الكتبة» لجودة خطها ، وبراعتها به .

* امرأة جليلة ، صالحة ، ذات دِيْن ، وورع ، وعبادة ، ولها بِرٌّ ، وخير ، ورسوخ في العلم ، والأدب ، وسائر المعارف .

فَخْرُ النِّسَاءِ:

* فخرُ النِّساءِ لقبٌ عُرِفَتْ به شهدةُ بنتُ المحدِّث أبي نَصْر أحمد بن الفرجِ الدِّينوريّ ، ثمّ البغداديّ الإبريّ[1] ، الجِهَةُ ، المُعمَّرةُ ، الكاتبةُ ، مسندةُ العِراق ، فخرُ النِّساء. . . فهلْ سمعتمْ بشهدةَ هذه؟ وهل عرفتمْ مكانتَها العِلْميّة بينَ نساءِ المشرقِ العربيّ في دُنيا النِّساء الأديباتِ العَالماتِ الحافِظَاتِ؟

* وإذا عرفْنَا أنَّ معنىٰ شهدةَ: العَسْل ، فسيكونُ الحديثُ عنها طيّباً كالعَسلِ ، هنيّاً سائِغاً للشَّاربين والآكلين ، وفيه شفاءٌ لقلوبِ أولئك اللواتي يُرِدْنَ الاقتداءَ بسيرتها من بناتِ جنْسِها.

* فقد كانت شهدةُ ـ بالإضافةِ إلى أنَّها فَخْر النِّساء ـ منْ مفاخرِ نساءِ الدُّنيا ، ونساءِ المشرقِ العربيِ ، فكان لها في الخطِّ وتجويدهِ باعٌ طويلٌ ، شَهِدَ لها بذلك عُلماءِ عَصْرِها ومصْرِها.

* وكانَ لها في الحديثِ سَنَداً ، وأصحابُ السِّيَرِ يذكرونَها بـ: خطَّاطة ، ومسندة الحديث ، وفَخْر النِّساء ، ومسندة العراق.

---

(١) سير أعلام النّبلاء (٢٠/ ٥٤٢ـ٥٤٣) ، والكامل في التّاريخ (١١/ ٢٠٠ـ٤٥٤) ، والأنساب (١/ ١١٨) ، والمنتظم (١٠/ ٢٢٨) ، ووفيَات الأعيان (٢/ ٤٧٧ـ٤٧٨) والشّكر لابن أبي الدنيا (ص ٦١/ ٦٣) ، وتاريخُ ابن الدّبيثي (ص ٣٩٤ـ٣٩٥) برقم (١٥٢٠) ، وأعلام النّساء (٢/ ٣٠٩ ـ ٣١٢) ، والدرّ المنثور في طبقات ربّات الخدور (ص ٢٥٦ ، ٢٥٧) ، ونزهة الجُلساء في أشعار النِّساء ، (ص ٤٧ ـ ٤٩) ، وشذرات الذهب (٦/ ٤١٠ـ٤١١) ، والوافي بالوفَيات (١٦/ ١٩٠ ـ ١٩٢) ، ومرآة الجنَان (٣/ ٤٠٠) ، والعبر (٤/ ٢٢٠) ، وتتمة المختصر (٢/ ١٣٦) ، والرّوضة الفيحاء (ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥) وغيرها كثير جداً.

* وجدُّها كان يعملُ بالإبَرِ ، ولذلك عُرِفَ بالإبريّ .

* وأبوها رُزِقَ شَغَفاً بالحديثِ ، فأخذَهُ عن أربابهِ وأعليائِه في عَصْره ، وراعىٰ في تعليمِها إتقانَ الأساس ، كما سنرىٰ من خلالِ سيرتَها .

* لا نعرفُ متىٰ وُلدَتْ شهدةُ على وجْهِ التَّحديد ، بيدَ أنَّ الإمامَ الذَّهبيَّ ـ رحمه الله ـ يذكرُ بأنَّها منَ النِّساءِ العالماتِ المعمراتِ اللواتي بلغْنَ منَ الكِبَرِ عتياً ، وذكر بأنَّ مولدَها كانَ بعد عام (٤٨٠ هـ)[١] .

* ويفيدنا ابنُ خَلّكان بأنَّ شهدةَ هذه من دَيْنَور ، فهي دينوريّةُ الأصل ، بغداديّةُ المولد والوفَاة[٢] .

* إذاً ، فقد وُلدتْ شهدةُ بنتُ الإبري في بغدادَ مدينة السَّلام ، في أخريات القرنِ الخامسِ الهِجريّ .

العَالِمَـةُ ابنَـةُ الـمُحَـدِّثِ :

* تشيرُ الأخبارُ التي وصَلَتْ إلينا عن شهدةَ بنتِ أحمد الإبريّ[٣] الدِّينوريّة[٤] ، بأنَّها قد نشأتْ في بيتِ علْمٍ وفقْهٍ وحديثٍ ومعرفةٍ ، فقد كان والدُها أبو نصر أحمدُ واحداً من علماءِ عَصْره المهتمين بعلومِ الحديث النَّبويّ الشَّريف ، وعلْم التَّحديث والفقْه ، وقد اهتمَّ بتربيةِ ابنته شهدةَ اهتماماً بالغاً ، فربّاها على مائدةِ العلْم ، وعلىٰ حبّ الحديثِ والإسنادِ ، وقبل هذا كلّه غذَّاها على حبِّ القُرآنِ الكريمِ وعلومِهِ ، فنالَتْ حظّاً وافراً من

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٥٤٢) .

(٢) وفيَاتُ الأعيان (٢/ ٤٧٧) .

(٣) «الإبْري» : بكَسْرِ الهمزة وفتح الباء : هذه النّسبةُ إلى الإبَر التي هي جَمْعُ إبرة التي يُخاط بها ، وكان المنسوبُ إليها يعملُها أو يبيعُها .

(٤) «الدِّينَوريّة» : بكَسْر الدّال وسكون اليَاء وفتح النّون ، هذه النّسبة إلى الدّينَور ، وهي بلدةٌ منْ بلادِ الجَبل ، يُنْسَبُ إليها جماعةٌ منَ العُلَماء .

ذلك كلّه ، ونهلتْ من المعارفِ جميعها حتى غدتْ فَخْر النّساء ، فقد وردَ أنَّ أباها قد سمَّعها كثيراً من علماءِ عَصْره ومصرِه الذين هم فخْرُ الرِّجال ، ومجدُ العلْمِ والعُلماء.

* ولم يتوقفْ والدُها أبو نصر عند هذا فحسْب ، وإنَّما علَّمها الكتابةَ ، وكانتِ الكاتباتُ من النِّساء قليلاتٍ في ذلك العَصْر.

* واهتمَّتْ شهدةُ بتعلّم أصولِ الخطّ العربيّ وقواعدِه وفنونهِ ، حتى وردَ أنَّها كانت تكتبُ على طريقةِ سابقتها في الخطّ والعلْمِ الكاتبة الخطّاطة الشهيرة فاطمة بنت الأقرع البغداديّة[1] ، فقد كتبَتْ شهدةُ الخطَّ الجيد الجميلَ المليحَ الذي مشقَتْه أناملُها الغضّة.

* قال صلاحُ الدِّين الصَّفدي عندما استعرضَ سيرةَ شهدة في «وَافيْهِ»: «وكانت تكتبُ خّطاً مليحاً. . . وكانت تكتبُ على طريقِ الكاتبةِ بنتِ الأقرع ، وما كان في زمانها مَنْ يكتبُ مثلَها»[2]. . . . وقد عُرفَتْ شهدةُ هذه بالكاتبة أو ستّ الكتبة لجودَةِ خطّها وبراعتها به.

* قال الذَّهبي: «وكانت تكتبُ خّطاً جيّداً ، لكنّه تغيّر لكبرِهَا»[3].

---

(١) فاطمةُ بنتُ الأقرع: هي فاطمةُ بنتُ الحسنِ بن عليّ البغداديّة ، أمُّ الفَضْل ، الكاتبةُ المعروفةُ ببنتِ الأقرع ، وكانتْ أجودَ أهلِ زمانِها بالأدبِ والفَضْلِ ، وكان لها اطّلاعٌ تامٌّ في معرفةِ التَّواريخِ ، وتحفظُ شيئاً كثيراً منْ أشعارِ العربِ. وهي إحدىٰ فُضْلياتِ نساءِ المشرقِ العربيّ في القرنِ الخامسِ الهجريّ ، اشتهرتْ بجودَةِ الخطِّ ، فقد جوّدَ النّاسُ على خطّها لبراعةِ حُسْنهِ ، وكانت تنقلُ على طريقةِ ابنِ البوّاب ، وبكتابتها يُضْرَبُ المثَلُ ، توفيتْ فاطمةُ في سَنةِ (٤٨٠ هـ). (سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٨٠ـ ٤٨١) ، و(الرّوضة الفيحاء ص ٤٨٤) مع الجمع والتّصرف. واقرأ سيرتَها موسَّعةً في هذا الكتاب.

(٢) الوافي بالوفيَات (١٦/ ١٩٠).

(٣) سير أعلام النّبلاء (٢٠/ ٥٤٣).

* وكان أبوها أبو نَصْر من أكابرِ عُلماء عَصْره ، وكان يخدمُه أحد الكبراءِ وهو عليُّ بنُ محمد بن يحيى أبو الحسن الدَّريني المعروف بثقةِ الـدَّولـة ابـن الأنباري ، وكان هذا الرجل من الأماثِل والأعيان ، وقد اختصَّ بالإمام المقتفي لأمْرِ الله[1] ، وكان فيه أدبٌ ويقولُ الشِّعْرَ ، وبنىٰ مدرسةً لأصحابِ الشَّافعي على شاطىءِ دجلةَ ببابِ الأزج ، وإلى جانِبها رباطاً للصُّوفية ، ووقفَ عليهما وقُوفاً حسنةً ، وسمعَ الحديثَ النَّبويَّ الشَّريف.

* قال السَّمعاني: «كان عليُّ بنُ محمد هذا يخدمُ أبا نصر أحمد بن الفرج الإبريّ ، وزوّجه بنْتَه شهدةَ الكاتبةَ ، ثمَّ علَتْ درجتُه إلى أنْ صارَ

---

(١) المُقتفي لأمْرِ الله ، أبو عبد الله محمدُ بنُ المستظهر باللهِ العبّاسي أميرُ المؤمنين ، كانَ عالماً فاضلاً ديِّناً ، حليماً شُجاعاً ، مَهيباً خليقاً للإمَارة ، كاملَ السُّؤدد ، كان لا يَجْري في دولته أمْرٌ وإنْ صَغُرَ إلاّ بتوقيعهِ ، وكتبَ أيّام خِلافتَه ثلاثَ ربَعَات. وسببُ تلقيبه بالمقتفي أنّه رأىٰ في منامهِ قبل أنْ يُسْتَخْلَفَ بستةِ أيّام النّبيَّ ﷺ وهو يقولُ له: سيصلُ هذا الأمرُ إليكَ فاقتفِ بي ، فلُقِّبَ المقتفي لأمْرِ الله. وكان صاحبَ سياسةٍ ، جدَّد معالَم الإمامةِ ، ومهَّدَ رسومَ الخلافة ، وباشرَ الأمورَ بنفسهِ ، وغزا غير مرّة ، وامتدّتْ أيّامه.
وكانت أيّامُـه نَضِـرَةً بالعَـدْلِ ، زَهِـرةً بفعلِ الخيرات ، وكـان على قَـدَم منَ العبادة قبل إفضـاء الأمْر إليـه ، وكان في أوّل أمرِه مُتَشاغـلاً بالدّيْن ، ونَسْخِ العُلومِ ، وقراءةِ القرآنِ الكريـمِ ، ولم يُـرَ مع سماحتـهِ ولينِ جانبـه ، ورأفتِـه ، بعـد المُعتصـم خليفـةً ، في شهامتِـهِ وصرامتِهِ وشجاعتِـهِ ، مع ما خُصَّ به من زُهْـده وورعه وعبادتِه مثله ، ولم تزلْ جيوشُهُ منصورةً حيث يمَّمتْ. قال عنه ابنُ الجوزي: «كان شُجاعاً كريماً ، محبّاً للحديثِ وسماعه ، معنيّاً بالعِلْم مكرماً لأهلهِ». وكانت دولتُـه خمسـاً وعشرين سنـة ، وتوفي في ربيع الأوّل سنة (٥٥٥ هـ) عن (٦٦ سنة) ، وقد جدَّدَ بابَ الكعبةِ ، واتَّخذَ لنفسه منَ العقيقِ تابوتاً دُفِنَ فيه ، (شذرات الذهب ٦/ ٢٨٨ ـ ٢٩٠) و(العبر ٤/ ١٥٨ ـ ١٥٩) مع الجمع والتصرف

خصيصاً بالمُقتفي ، وكان مولدهُ سنة (٤٧٥ هـ) ، وتوفي في (١٦ شعبان) سنة (٥٤٩ هـ) ـ رحمه الله ـ»[١].

* وذكر ابنُ الجوزي زواج شهدةَ من عليّ بن محمد الدريني ، ووصفه بأنّه أحد وكلاء الخليفةِ المقتفي فقال: «وتزوجت بعضَ وكلاء الخليفة»[٢].

* وقال ابنُ الأثير في «الكامل» عن زوجِ شهدة: «كان يخدمُ أبا نصر أحمد بن الفرج الإبريّ ، فربّاه حتى قيل: ابن الإبري ، وزوَّجَه ابنته شهدة الكاتبة ، فقرّبه المقتفي لأمْر الله ، ووكّلَه فبنىٰ مدرسةً بباب الأزج»[٣].

* وهكذا عملَ أبو نصر أحمد بن الفرج الدَّينوريّ[٤] على تربيةِ شهدةَ ابنته أحسنَ تربية وأوفَاها ، حتى غدتْ أستاذ الأساتِذة الألىٰ الذين ملؤُوا الدّنيا بعلمِهم ، وشغلُوا النَّاس بفرائد معارفهم.

* قال ابنُ الدّبيثي عنها وعن أبيها: «شهدةُ. . . امرأةٌ جليلةٌ صالحةٌ ، ذاتُ دِيْنٍ ووَرَعٍ ، وعبادةٍ ، سمعتِ الكثيرَ ، وعُنِيَ بها أبوها ، وأحضرهَا مجلسَ السَّماع على الشّيوخ ، وعمرت وصارت أسندَ أهل زمانِها»[٥].

* ومن تلامذتها الذين شهدوا بفضلِها؛ أبو الفرج بن الجوزي الذي قال: «قرأتُ عليها ، وكان لها خطٌّ حَسَنٌ»[٦]. ويضيفُ ابنُ الجوزي بأنَّ شهدةَ قد كانت من العُلماء ، وأفادتِ الخَلْقَ ، وأنَّها ذات برّ وإحسانٍ طوالَ

---

(١) عن وفيات الأعيان (٢/ ٤٧٨) بتصرف يسير جداً.
(٢) المنتظم (١٠/ ٢٨٨).
(٣) الكامل (١١/ ٢٠٠).
(٤) ماتَ والدُ شهدةَ أبو نصر الإبري يوم السَّبت (٢٣ جمادىٰ الأولى) من سنة (٥٠٦ هـ) ، وكانت وفاتُه في بغدادَ ، ودُفِنَ ببابِ أبرز.
(٥) تاريخ ابن الدبيثي (ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥).
(٦) المنتظم (١٠/ ٢٨٨).

حياتها ، فقال : «وخالطتِ الدُّور والعُلماءَ ، ولها برٌّ وخيرٌ ، وعمَّرتْ حتى قاربتِ المئةَ»[1] .

المُتَعَلِّمَةُ الوَرِعَةُ :

* كانت شهدةُ بنتُ الإبريّ مثالَ المرأةِ المتعلّمة؛ التي تحرصُ على الاستفادةِ من وقْتِها وممن حولَها منَ العُلماء؛ الذين شهدَ بفضلِهم الأقرانُ من جميعِ البلدان .

* وكانت شهدةُ وهي في تلقّيها العلْمَ ورعةً تقيةً ، تحسّ بأنَّ العلْمَ مع الورعِ أبقىٰ وأنقىٰ وأتقىٰ ، وقد عُرِفَتْ عنها هذه الصّفاتُ المباركةُ ، فعَلا صيتُها ، وطارتْ شهرتُها في الآفاقِ تحملُ عبيرَ نسائِم علْمِها الذي طبّقَ البلاد .

* ولم تتوقفْ هذه المرأةُ العالمةُ المحبّةُ للعلْمِ المتعلّمة عن طلبِ العلْمِ يوماً واحداً ، بل سمعتِ العِلْمَ من أفواهِ العُلماء ، وتلقَّتْ عنهم المعرفةَ ، ورَوتْ عنهم الكُتُبَ المعتبرةَ ، والمصنفاتِ الشَّهيرةَ من مثل كتاب «الأموال» لابن سلام ، وكتاب «الشّكر لله ، والفرج بعد الشّدة ، واليقين ، وذمّ المُسْكر ، ومحاسبة النَّفس» لابن أبي الدنيا ، وغير ذلك من علوم ومعارف .

* وقد سمعتْ من عددٍ من أجلّةِ الكُبراء ، وأعلياء العُلماء في عَصْرها من مثل أبي الخطّاب نصر بن أحمد بن البَطِر ، والحُسين بن أحمد بن طلحة النِّعالي ، وأبي الفوارس طراد بن محمد الزّينبي ، وعلي بن الحُسين بن أيوب ، وعبد الواحد بن علوان ، وأحمد بن عبد القادر

---

(١) المصدر السَّابق نفسه .

اليوسُفيّ ، وثابت بن بُندار[1] ، ومنصور بن حِيْد ، وجعفر السَّراج ، وفخر الإسلام أبي بكر محمد بن أحمد الشَّاشي[2] وغيرهم[3] .

* ولكثرةِ أساتذة شهدة قال الإمامُ الذَّهبي : «ولها مشيخةٌ سمعْنَاها»[4] .

تـصَـدُّرُهَـا للتَّـدْرِيْـسِ :

* طلبت شهدةُ بنتُ الإبري العلْمَ من منابِعهِ ، حتّى رُزِقَتْ صيتاً طائراً به ، وخصوصاً الحديث الشَّريف ، وامتازت بعلو سَندِها ، وكان يحضرُ حلقةَ درسِها عددٌ وافرٌ من طلاّبِ العلْمِ وشُداةِ المعرفةِ من جميع البلاد ، ولحسنِ صيتِها وشهرتها وتمكّنها من العلْم ، ادّعى بعضُهم أنَّه تتلمذَ عليها

---

(١) ثابتُ بنُ بُندار أبو المعَالي البقّال ، المقرىءُ ببغدادَ ، روىٰ عن أبي عليّ بنِ شاذان وطبقتِهِ ، وهو ثِقةٌ فاضلٌ ، توفيَ في جمادى الآخرة سنَة (٤٩٨ هـ) . (شذرات الذّهب ٥/ ٤١٩) .

(٢) فخرُ الإسلام أبو بكر محمّدُ بنُ أحمد بن الحُسَين شيخُ الشَّافعية ، وُلدَ في ميّافَارقين سنة (٥٢٩ هـ) ، ثمَّ لزمَ ببغدادَ الشَّيخَ أبا إسحاقَ الشّيرازي ، وابنَ الصَّبَّاغ ، وصنَّفَ وأفتىٰ ، ووليَ تدريس النّظامية ، ومنْ تَصَانيفه : «حِلْية العُلماء» ، وانتهتْ إليهِ رئاسةُ الشَّافعية بعدَ انقراضِ مشايخه ، فكان ينشدُ ويقولُ متواضعاً :

خَلَتِ الدِّيارُ فَسُدْتُ غيرَ مُسَوَّدِ ... ومِنَ الغَنَاءِ تفرُّدي بالسُّؤْدُدِ

قال ابنُ شهبةَ : «كان مَهيْباً وقُوراً ، مُتَواضعاً وَرِعاً ، وكان يلقَّبُ بينَ الطَّلبةِ في حداثَتِه بالجُنَيد ، لِشدّةِ وَرعهِ ، وله شعْرٌ حَسَنٌ» وقَعَ بينَه وبينَ الدَّامغاني شيءٌ ، فأنشأَ فيه الشّاشي :

حجَابٌ وإعجَابٌ وفَرْطُ تَصَلُّفِ ... ومدُّ يَدٍ نحوَ العُلا بتكلُّفِ

ولو كانَ هذا منْ وراءِ كفايةٍ ... لهانَ ولكنْ منْ وراءِ تخلُّفِ

توفي في شوّال سنة (٥٠٧ هـ) ، ودُفِنَ عند الشّيخ أبي إسحاقَ الشّيرازي ـ رحمهما الله ـ (شذرات الذهب ٦/ ٢٨) بتصرف .

(٣) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٥٤٢) ، ووفيات الأعيان (٢/ ٤٧٧) ، والوافي بالوفيات (١٦/ ١٩٠ ، ١٩١) مع الجمع والتصرف .

(٤) سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٤٢) .

اختلاقاً وافتراء[1] ، وذلك كيما يروّج ما عنده منَ المعارفِ.

* وقد أقرَّ لشهدةَ بالفَضْلِ والعلْمِ شيوخُ عصرِها ، ومَنْ تلاهم ، ونعتوها بما تستحقّه من محاسنِ الفضائلِ ، وفضائلِ المحاسن ، ومن الخصائلِ الشَّريفة ، وشريفِ الخصَائل ، وقد ذكرُوا وأجمعُوا على أنّها كانت امرأةً ذات ديْن تعرفُ أمورَ ديْنها المترتّبةَ عليها ، وأنَّها كانت ذات ورعٍ ، وقد زيّنتْ كلّ هذه الخصائل الطّيّبة بالخصائلِ المباركةِ ، فكانت عابِدةً قانتةً ذاكرةً لله آناءَ الليلِ وأطرافَ النهار وحين تصبح وحين تمسي[2].

* وبعد أنْ تمكّنت شهدةُ منَ العِلْمِ والحديثِ اشتُهرَ ذكْرها ، وبَعُد صيتها[3] ، حتى تجاوزَ الأمصار على بُعْدِ ما بينها ، ثمَّ تصدَّرتْ للتَّدريسِ ونَشْر العلْمِ ، فقد سمعَ عليها خلقٌ كثيرٌ من أكابرِ علماءِ الدّنيا في عَصْرها ، وكثيرٌ من مشاهيرِ الفقهاء ممنْ طارتْ بسيرِهم الرّكبان ، وتحلَّتْ بعلومهم الأفواهُ والآذان.

* وقد أوردَ الإمامُ الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ في «سِيَرِه» سجلاًّ حافِلاً بأسماءِ طائفة ممّنْ حدَّث عن شهدةَ بنتِ الإبريّ من أكابرِ العُلماء والمصنّفين ، وأعلياء الفقهاء والمحدّثين ، فقال: «حدَّثَ عنها: ابنُ عساكر ، والسَّمعاني ، وابنُ الجوزي ، وعبد الغني ، وعبد القادر الرّهاوي ، وابن الأخضر ، والشّيخ الموفّق ، والشّيخ العماد ، والشّهاب بن راجح ، والبهاء عبد الرحمن ، والنّاصح ، والفخر الإربليّ ، وتاج الدّين عبد الله بن حمويه ، وأعزُّ بن العُلّيق ، وإبراهيمُ بن الخير ، وبهاءُ الدّين بن

---

(١) انظر: نفح الطيب (٤/ ١٥٦) طبعة دار الفكر.
(٢) انظر في هذا: الوافي بالوفيات (١٧/ ١٩٠) بتصرف.
(٣) انظر: وفيات الأعيان (٢/ ٧٧) ، والوافي بالوفيات (١٧/ ١٩١).

الجمّيزي ، ومحمّد بن المنّي ، وأبو القاسم بن قميرة ، وخلْقٌ كثير»[1].

* وما ظنُّكَ ـ أيها القارىء الكريم ـ بامرأةٍ تلامذتُها من عباقرةِ الدّنيا: ابنُ عساكر[2] ، وابنُ الجوزي ، والسّمعاني ، وأمثالُهم ممن يعمرونَ الدّنيا بالعِلْمِ والعَمَل؟!

* إنَّ النِّساءَ شقائِقُ الرّجال في تبليغِ العلْمِ ، وتعليمِ الكتابة ، وروايةِ الحديثِ الشَّريف وأدائِه ، فَضْلاً عن تحمُّلهِ وطلبهِ ودراستهِ وتدريسهِ ومعرفةِ علومه ، وفي هذا المجال الطَّيِّب الكريم يقول محمّد بنُ علي

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٥٤٢).

(٢) «ابنُ عساكر»: الحافظُ أبو القاسمِ عليُّ بنُ الحسن بنُ هبة اللهِ الدّمشقيّ محدّثُ الشّام ثقةُ الدِّيْن.

قال ابنُ شهبة: «فخرُ الشَّافعيةِ ، وإمامُ أهلِ الحديثِ في زمانهِ ، وحاملُ لوائِهم ، صاحبُ تاريخِ دمشق ، وغيرُه من المؤلّفات المفيدةِ المشهورةِ ، وُلِدَ سَنة (٤٩٩ هـ) ، ورحلَ إلى بلاد كثيرة ، وسمعَ الكثيرَ من نحو ألفٍ وثلاثمئة شيخ وثمانين امرأة ، وتفقّه بدمشقَ وبغدادَ ، وكان ديِّناً خيّراً يختمُ في كلّ جمعةٍ ، وأمّا في رمضانَ ففي كلّ يومٍ ، كثيرَ الأمْرِ بالمعروف ، والنّهي عن المنكر».

وقال السَّمعاني: «هو كثيرُ العِلْم ، غزيرُ الفَضْل ، حافظٌ ، ثقةٌ ، متْقِنٌ ، ديِّنٌ ، خيّرٌ ، حَسَنُ السَّمتِ ، جمعَ بينَ معرفةِ المتونِ والأسانيد ، صحيحُ القراءةِ ، متثبّتٌ ، مُحتاطٌ ، رحلَ وبالغَ في الطَّلَبِ ، إلى أنْ جمعَ مالم يجمعْ غيرُهُ ، وصنَّفَ التَّصانيف ، وخرَّج التّخاريجَ». وله شعرٌ حسنٌ منه قوله:

أَلا إنَّ الحديثَ أجلُّ عِلْمٍ وأشْرفُهُ الأحاديثُ العَوالي
وأنفعُ كُلّ نوعٍ منه عندي وأحسنُه الفَرائدُ والأَمَالي
وإنَّك لنْ ترىٰ للعِلْمِ شيئاً يحقِّقُه كأفْواهِ الرِّجالِ
فكُنْ يا صَاح ذا حِرصٍ عليه وخذْهُ منَ الرِّجال بلا مَلاَلِ
ولا تأخذْهُ من صُحفٍ فتُرمىٰ منَ التَّصحيف بالدَّاء العُضَال

توفي ابنُ عساكر في رجب سنة (٥٧١ هـ) ، ودُفن بمقبرة باب الصَّغير شرقي الحجرة التي فيها معاوية ـ رضي الله عنه ـ (شذرات الذهب ٦/ ٣٩٥ ـ ٣٩٧) بتصرف.

الشَّوكاني: «لم يُنْقَلْ عن أحَدٍ من العُلماء بأنَّه ردَّ خبرَ امرأةٍ لكونها امرأة ، فكَمْ من سُنَّةٍ قد تلقَّتْها الأُمَّةُ بالقَبول من امرأةٍ واحدةٍ من الصَّحابة ، وهذا لا ينكرهُ مَنْ له أدنىٰ نصيب من علْم السُّنَّة»[1] .

* وقال شارحُ «مُسَلَّم الثّبوت»: «يُقبلُ خبر المرأةِ العَادلةِ من غيرِ مشاركةِ رجلٍ معها؛ إذ اشتراط الذّكورة فيها بالنَّص»[2] .

* وذكر الإمامُ أبو الفرج بنُ الجوزي المتوفىٰ سنة (٥٩٧ هـ) في آخر مشيخته ، أنَّه قد سمعَ الحديثَ من ثلاث نسوةٍ عالمات محدّثات ، وأوردَ بسنده عنهن ثلاثة أحاديث ، عن كلّ واحدة منهن حديثاً:

الأولى: فاطمةُ بنتُ محمد بن الحُسين بن فضلويه الرّازي البزّاز؛ قال عنها: «كانَتْ شيختُنا فاطمة واعظةً متعبّدةً ، لها رباطٌ تجتمعُ فيه الزَّاهداتُ ، سمعتْ أبا جعفر بن المسلمة ، وأبا بكر الخطيب وغيرهما ، وتوفيتْ في ربيعِ الأوّل من سنة إحدى وعشرين وخمسمئة».

الثّانية: فاطمةُ بنتُ أبي حكيم عبد الله بن إبراهيم الخَبْرِيّ؛ قال عنها أيضاً: «كانت شيختُنا هذه خالةَ شيخنا أبي الفضل بن ناصر ، وكانت خيّرةً ، وتوفيتْ في رجب سنة أربع وثلاثين وخمسمئة».

الثّالثة: شُهْدَةُ بنتُ أحمد بن الفرج بن عمر الإبريّ؛ ـ ضيفة هذه الصَّفحات المباركة ـ قال عنها: «سمعتْ شهدةُ من جعفر بن السَّراج وطراد وغيرهما ، وكان لها خطٌّ حسَنٌ ، وعاشت مخالطةً لدارِ الخلافَةِ ، وكان لها بِرٌّ ومعروفٌ ، وقاربتِ المئة ، وتوفيتْ في محرّم سنة أربع وسبعين

---

(١) نيل الأوطار (٨/ ٢٢).

(٢) فتح الرحموت شرح مسلم الثبوت (١/ ١٤٤) بذيل المستصفى.

وخمسمئة ، ودُفنت بمقبرة باب بيرز»[1].

مِنْ أَحَادِيثِ ومَرْوِيَّاتِ شهْدَةَ:

* كانتْ شهدةُ بنتُ الإبري من المحدّثات في بغدادَ ، وكانت تروي بالإسنادِ إلى رسول الله ﷺ ، فقد ذكر أبو القاسم عليُّ بن بلبان المقدسيّ روايةَ شهدة للحديث فقال: أخبرنا الحاجب أبو القاسم عبد اللطيف بن محمد بن عُبيد الله سبط التّعاويذي قراءةً عليه وأنا أسمع ببغدادَ في شهورِ سنة ثلاث وثمانين وستمئة؛ قيل له: أخبرتْكَ الكاتبةُ فَخْر النّساء شهدة بنت أحمد بن الفرج بن عمر الإبريّ قراءة عليها وأنت تسمعُ في جمادى الآخرة سنة تسع وستين وخمسمئة ، فأَقرَّ به.

* قالت: أخبرنا الشَّريف الكامل نقيب النّقباء أبو الفوارس طرادُ بنُ محمد بن علي الزَّينبي ، قال: أخبرنا أبو نَصْر أحمد بن محمد بن أحمد بن حسنون النَّرْسيّ قراءة عليه وأنا أسمعُ في شهر رمضان سنة إحدى عشرة وأربعمئة ، قال: حدثنا أبو جعفر محمد بن عمرو بن البَخْتَريّ الرّزاز إملاء ، قال: حدثنا محمّد بن عيسى بن حبان ، قال: حدّثنا سفيان بن عُيينة ، حدثنا عبد الله بن أبي بكر ، عن عبدِ الملك بن أبي بكر ، عن خلاد بن السَّائب بن خلاد ، عن أبيه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أتاني جبريلُ عليه السَّلام فأمرني أنْ آمرَ أصحابي أنْ يرفعُوا أصواتَهم بالإهْلال»[2].

---

(١) انظر مشيخة ابن الجوزي (ص ١٩٨ ـ ٢٠٢) ، وانظر تراجم هؤلاء النّسوة الثلاث في المنتظم لابن الجوزي في مواطن مختلفة.

(٢) انظر: المقاصد السنية (ص ٣١١) ، والحديث أخرجه أبو داود في الحج برقم (١٨١٤) ، والترمذي برقم (٨٢٩). وقال: هذا حديث حسن صحيح ، والنّسائي (٥/ ١٦٢) ، وابن ماجه برقم (٢٩٢٢) ، ومالك في الموطأ (١/ ٣٠٩) و«الإهلال»: رفعُ الصّوت بالتّلبية ، يُقال: أهلَّ المحرِمُ بالحج يهلّ إهلالاً ، إذا لبّى ورفعَ صوتَه.

* ومما ذكره ابنُ بلبان المقدسي من مرويات شهدةَ قال: أخبرنا أبو طاهر خليلُ بنُ أحمد بن علي بن خليل الصَّرصري قراءةً عليه ببغدادَ في سنة ثلاث وثلاثين وستمئة، قال: أخبرتنا الكاتبةُ فخرُ النِّساء شهدة بنت أحمد بن الفرج الإبري قراءة عليها، قالت: أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن طلحة النِّعاليّ، قال: أخبرنا أبو الحسين عليُّ بن محمد بن عبد الله بن بشران، قال: أخبرنا إسماعيل بن محمّد بن إسماعيل الصَّفَّار، حدثنا عبد الكريم، حدثنا أحمد بن القاسم بن أبي بزَّة، حدثنا أبو العبّاس الوليد بن عبد العزيز بن عبد الملك بن جريج، قال: حدثتني أمّي عن جدّي عبد الملك، عن عطاء بن أبي ربَاح، عن أبي الدَّرداء، قال: «سمعتُ رسولَ الله ﷺ من فَلْقِ فِيْهِ إلى أذني هذه، ورآني أمشي بين يدي أبي بكر وعمر، فقال لي: «يا أبا الدّرداء! أتمشي بين يدي من هو خيرٌ منك»؟

فقلت: ومَنْ هو يا رسول الله؟

فقال: أبو بكر وعمر، ما طلعتِ الشَّمس ولا غربت على أحدٍ بعد النَّبيين خير من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما[1].

* ومن الأخبارِ الأدبيّةِ التي روتْها شهدةُ، ما رواه أبو الفرج بن الجوزي في «المنتظم» عنها قال: «أخبرتنا شهدةُ بنتُ أحمد الكاتبة،

---

(١) انظر: المقاصد السنية (ص ٤٩٤). والحديث رواه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٢٥)، وذكره ابن الجوزي في «العلل المتناهية في الأحاديث الواهية» عن الدارقطني قال: روى إسماعيل بن يحيى التّميمي، عن ابن جريج، عن عطاء، عن جابر؛ أن رسول الله ﷺ رأى أبا الدرداء يمشي أمام أبي بكر... إلخ الحديث. قال الدارقطني: إسماعيل ضعيف، وغيره يرويه عن عطاء، عن أبي الدرداء، والحديث غير ثابت.

قالت: أخبرنا جعفر بن أحمد السَّرَّاج قال: كنتُ مارّاً بين تيماءَ ووادي القُرى مبادراً من مكّةَ، فرأيتُ صخرةً عظيمةً مَلْسَاء فيها تربيعٌ بقدرِ ما يجلسُ عليها النّفر كالدّكّة، فقال بعضُ من كان معنا منَ العربِ، وأظنُّه جُهَنيّاً: هذا مجلسُ جميل وبُثينة، فاعْرِفْهُ»[1].

* ومن الجديرِ بالذّكر أنَّ ابن الجوزي قد روىٰ جملة صالحةً من كتابه «ذمّ الهوىٰ» عن شهدة، وفيه كثير من الأخبارِ الجميلةِ التي تدلُّ على رسوخِها في العِلْم، والأدبِ، وسائرِ العلومِ والمعارف، وروت هي كتاب الصَّمت واليقين لابن أبي الدنيا.

أثـارَةٌ مِنْ شِعْـرِهَـا:

* يبدو أنَّ شهدةَ بنتَ الإبري الدِّينوريّة كانت تجيدُ نظْمَ الشِّعرِ وقرضِهِ، وأنَّ لها باعاً طويلاً في هذا الميدانِ الجميلِ. وهذا ليس بغريبٍ على امرأةٍ رَوَتْ عدداً من الكتُبِ الأدبيّة وكتُبِ الأخبارِ؛ التي تزخرُ بنفائسِ الأَشْعَارِ، وروائعِ النّظمِ، وبدائعِ الحكم.

* وقد أوردتْ بعضُ المصادر لشهدةَ قصيدةً نونيّةً من بحرِ الكامل تعدُّ (١٦ بيتاً)، ومضمونُها الغزَل ووصفُ المحبوبة الشّابة ذات العينَيْن السَّاحرتَيْن، والتي تسكنُ العقيقَ في الحجاز، وتتابعُ وصْفَ سائِر الأشياء كما سنقرأ.

* ومن المصادرِ التي أوردت هذه القصيدة: «الوافي بالوفَيات»، و«نزهة الجَلساء في أشعار النّساء»، وقد قَبَسها الأخير كاملةً من الأوّل ونسبَها إليه.

* قال صلاحُ الدِّين خليل بن أيبك الصَّفدي: «رأيتُ بخطِ بعض

---

(١) انظر: المنتظم (٦/ ٤٢) طبعة دار الكتب العلمية ببيروت.

الأفاضلِ يقولُ: نقلتُ من مجموعٍ بخطِّ الصَّاحب كمال الدِّين ابن العديم لشهدةَ بنتِ الإبريّ الكاتبة»[1].

* ثمَّ يوردُ الصَّفديُّ قصيدةً نونيّةً قوامُها (١٦ بيتاً) وهيَ:

مِلْ بِيْ إلىٰ مَجرىٰ النَّسيمِ الوَاني ... واجْعَـلْ مَقيْلَـكَ دَوْحَتَـي نُعْمَـانِ
وَإذَا العُيونُ شَنَنَّ غَارَةَ سِحرِهَا ... ورمَيْـنَ عـنْ حِضْـنِ المُتونِ حَـوَانِ
فَاحْفَظْ فُؤادَكَ أنْ يُصَابَ بنظْرَةٍ ... عَـرضَـاً فـآفَـةُ قَلْبِـكَ العَيْنَـانِ
مِنْ كُلِّ جَائِلةِ الوِشَاحِ يهزُّهَا ... مَـرحُ الشَّبـابِ اللَّـدْنِ هـزَّ البَـانِ
بِيضٌ غَنيْنَ بحُسْنِهنَّ عنَ الحِلَىٰ ... ولِـذاكَ أسمـاءُ النِّسـاءِ غَـوانـي
سكنُوا العقيقَ وحرَّكُوا بِغرامِهمْ ... قَلْبـاً يكـادُ يَطيـرُ بـالخَفَقـان
حَمَّلْنَـهُ ثِقَـلَ السُّلـوِّ فَلَـمْ يَطِـقْ ... فـأطعْنَـهُ فـي طَـرْحِـهِ وعَصَـانـي
سَلَبَتْـه يـومَ الـدَّوحتَيْـنِ طليْعَـةٌ ... نـزلَـتْ بهـذا الحـيّ مـنْ غطَفَـانِ
حَتَّام تُقْرطُ في الصَّبابةِ أضْلُعِي ... وتلـحُّ مِـنْ عَبَـراتِهـا أجْفـانـي
وإذَا تبسَّـمَ ثغْـرُ بـرق مُنْجـدٍ ... أغْـرىٰ دمـوعَ العَيْـن بـالهَمَـلاَنِ
يا حَادِيَ النّكْرَانِ هَلْ لَكَ رَوْحَةٌ ... بـالعُمْـرِ عنـد مَسَـارِحِ الـرَّعَيَـانِ
فَتُذَكِّرَ النَّاسينَ عَهْدي بالحمىٰ ... فجـديـدُهُ أبْـلاهُ مَـنْ أبْـلانـي
وذكَرتُ ميدانَ الوداعِ فأرسَلَتْ ... عَيْنِـي إلـىٰ أمَـدِ البُكَـاء عنَـانـي
لَمْ أخْشَ من ظَمأ الحوادثِ إذ عَرَتْ ... ومعـي نظيـرُ الجـدوَلِ الـرَّيـانِ
إنْ مسَّنـي سَغَـبٌ قَـرانـي غَـرْبُـهُ ... أو قلَّنـي ظَمَـأٌ فَـرِي فَسَقَـانـي
وإذَا السُّيوفُ تحدَّثَتْ لجفُونها ... فحـديثُهَـا منْـهُ بـأَحْمـرَ قَـانـي[2]

(١) الوافي بالوفيات (١٦/ ١٩١).
(٢) انظر: الوافي بالوفيات (١٦/ ١٩١ ـ ١٩٢)، ونزهة الجلساء في أشعار النّساء (ص ٤٧ ـ ٤٩).
=

وبعد أنْ أوردَ صلاح الدِّين الصَّفدي هذه القصيدةَ الجميلةَ لشهدةَ قال: «أنا أستبعدُ أنْ يكونَ هذا الشِّعْرُ لشهدةَ، على أنّي رأيتُه أيضاً في مجموعٍ قديم بخطٍّ فاضلٍ وقد نَسَبهُ إليها، والله أعلم»[1].

= ومعنى «شننّ»: شَنَّ عليهمُ الغَارةَ؛ صبّها وفرّقَها من كلِّ وجْهٍ، و«الوشاح»: كلُّه حلي النّساء، كِرْسَان من لُؤلؤٍ وجوهَرٍ منظومان مُخالَفٌ بينَهما معطوفٌ أحدهما علىٰ الآخر، تتوشّحُ به المرأةُ، و«اللّدن» الليّنُ منْ كُلِّ شيءٍ. و«البان»: شَجَرٌ يسمو ويطولُ في استواءٍ مثل نباتِ الأثل، ولاستواءِ نباتِها ونباتِ أفنانِها وطولها ونعمتها شبّه الشُّعراءُ الجاريةَ النَّاعمةَ بها.
«غَواني»: جاءَ في لسانِ العرب: الغانيةُ التي غَنيتْ بحسنِها وجمالِها عن الحليّ؛ وقيل: هي التي تُطْلبُ. وقيل: الشّابة العفيفةُ، كان لها زوجٌ أو لم يكنْ. و«العقيق»: وَادٍ بالحجازِ، وفي بلادِ العربِ مواضعُ كثيرةٌ تسمّىٰ العقيق؛ قال أبو منصور: ويُقال لكلِّ ما شقَّه ماءُ السَّيل في الأرضِ فأنْهَره ووسَّعَه: عقيقٌ؛ والجمعُ: أعقّة وعقائق، و«الصَّبابة»: الشّوق ورقّة الهوى. و«العبرات»: الدُّموع. و«الثّغر»: الفم. و«الهملان»: الفَيَضَان والسَّيلان. و«الحادي»: المتعمد للشّيء، وحادي الإبل: زاجرها وسائقها. و«السَّغَب»: الجوعُ. وقيل: هو الجوعُ مع التّعب، و«قراني»: قَرى الضّيف: أضافَه. و«غَرْبُه»: الغَرْبُ: الرّاوية التي يُحمل عليها الماء. والغَرب: الدّلو العظيمة. و«قاني»: شديد الحمرة.

(١) انظر: الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (١٦/ ١٩٢). وللصَّفدي أحكامٌ على أشعارِ النّساء، وكثيراً ما تكونُ أحكامُه نابعةً عن ذوقٍ جميل يدلُّ على خِبْرتهِ بالشّعْر، فهو شاعرٌ مفْلقٌ له شعرٌ يدلُّ على فحولته، ولذلك فإنّه حكمَ على شعْرِ إحدىٰ النِّساء بأنّه نازلٌ، فقد ذكرَ في ترجمةِ الكاتبةِ البغداديّة ما نصُّه: «صفيّةُ بنتُ عبدِ الرحمن بنِ محمّد بنِ عليّ بنِ يعيش، الكاتبةُ البغداديّةُ، كانتْ واعظةً أديبةً فاضلةً، توفيتْ سنةَ عشرين وستمئة. وسَمعَتْ هذا البيت:

إذَا مَا خَلَتْ منْ أرضِ نجدٍ أحبّتي ... فلا سَالَ واديَها ولا اخْضَرَّ عُودُهَا

فأجازَتْه بقولها:

ولا نَطَقَتْ في الرَّبعِ بَعْدكَ غَادةٌ ... يلذُّ لِسَمعي شَدْوُها ونشيدُهَا
وإنّي لأبكي الرَّبعُ مذْ بانَ أهلُهُ ... وأنشدُ لَيْلاتٍ مضتْ مَنْ يعيُدها

قلتُ: شعرٌ نازِلٌ غير متعلقٍ بالأوّل». =

* وهكذا كانت شهدةُ عالمةً وأديبةً تنظم الشِّعر ، وتتعاطىٰ حرفةَ الأدب ، لتزيدَ من فضائلِ معارفها ، ولتكونَ إحدى النّساء الفاضلات النّبيلات اللواتي يردّدُ الزّمانُ صدىٰ أعمالهنَّ ، وكأنَّ لسانَ حالهنّ يقول :

تِلْكَ آثارُنَا تدلُّ علَيْنَا ... فانْظُروا بَعْدنَا إلىٰ الآثَارِ

ثَنَاءُ العُلَمَاءِ والأكَابِرِ عَلَيْهَا :

* انتزعتْ شهدةُ إعجابَ العلماءِ والأدباءِ والمصنّفين بما آتاها اللهُ من نجابةٍ في العِلْمِ ، وسَعةٍ في روايةِ الحديثِ وإملاءِ الكتُبِ النَّافعة على مُحبّي العلْمِ وطلابِ المعرفةِ الذين يَفِدونَ عليها منْ مكانٍ بعيد .

* ففي كتُبِهم ومصنّفاتهم أثنى عليها الكبراءُ والأعلام ، وشهدوا لها بالفَضْل والعلْمِ والمكانةِ العُليا في عالَم المعرفةِ ، وراحت ألسنةُ معاصريها تتحدَّثُ عنها وعن علمها بما هي أهلٌ له ، بينما راحَ المؤلّفون والمصنّفون في مختلفِ الأمصارِ والأعصارِ فيما بعد يتوارثون هذه السُّمعة الطّيّبة ، ومن ثمّ يصوغُ كلُّ واحدٍ منهم ما يراه في شهدةَ صاحبة العِلْم والفَضْل .

* ففي «المنتظم» يقولُ عنها تلميذُها ابن الجوزيِّ :

«شهدةُ بنتُ أحمد بن عمر الإبري ، المدعوةُ فخر النّساء ، سمعتِ الحديثَ . . . . وكان لها خطٌّ حَسنٌ . . . . وكان لها برٌّ وخير ، وقُرِىءَ عليها الحديثُ سنين . . . »(١) .

* ونقل الذَّهبيُّ عن الشَّيخ الموّفق أنّه قال عن شهدةَ : «انتهى إليها إسنادُ

= (الوافي بالوفيات ١٦/ ٣٢٨ و٣٢٩) ، وانظر أحكامه على شعر النساء في (أعيان العصر ٣/ ١٣٩٧) .

(١) المنتظم (١٨/ ٢٥٤) باختصار وتصرف ، طبعة دار الكتب العلمية .

بغدادَ ، وعُمِّرَتْ حتى ألحقتِ الصِّغَارَ بالكبارِ ، وكانت تكتبُ خطاً جيّداً ، لكنّه تغيّر لكبرِها»[1].

* وأثنى الذّهبي نفسُه عليها فقال: «الجِهةُ المعمَّرةُ الكاتبةُ ، مسندةُ العراقِ ، فخرُ النّساء»[2].

* وقال الذَّهبيُّ في الثَّناء عليها أيضاً: «كانت ديّنةً عابدةً صالحةً ، سمَّعَها أبوها الكثيرَ ، وصارت مسندة العراق»[3].

* وامتدحها صلاحُ الدّين الصّفدي وذكرَ بعضَ خصائِلها الجميلة وما حبَاها اللهُ من معارفَ فقال ما مفاده: «شهدةُ. . . الكاتبةُ فخرُ النّساء ، مسندةُ العراق ، كانت ذات دينٍ وورعٍ وعبادة ، سمعتِ الكثيرَ وعمرّت ، وكانت تكتبُ خطاً مليحاً. . . . وعاشتْ مخالطةً لأهَلِ العلْم ، وكان لها برٌّ وخيرٌ. . . وكانت تكتبُ على طريقِ الكاتبة بنت الأقرع ، وما كان في زمانها مَنْ يكتبُ مثلها ، وكان لها السَّماع العَالي ، ألحقتِ الأصاغرَ بالأكابر. . . . واشتُهِرَ ذكرُهَا وبَعُدَ صيتها»[4].

* وفي «وفيَاتهِ» أثنى عليها ابنُ خَلِّكان وذكر بأنَّها كانت عالمةً كاتبةً فقال: «شهدةُ بنتُ الإبري ، فخرُ النّساء. . . الكاتبةُ. . . . . كانت من العُلماء ، وكتبتِ الخطَّ الجيِّد ، وسمعَ عليها خَلْقٌ كثيرٌ ، وكان لها السَّماعُ العالي ألحقتْ فيه الأصاغرَ بالأكابرِ. . . واشتُهِرَ ذكْرُها، وبَعُدَ صيْتُها. . . »[5].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٥٤٣).
(٢) المصدر السابق نفسه (٢٠/ ٥٤٢).
(٣) العبر للذهبي (٤/ ٢٢٠).
(٤) الوافي بالوفيات (١٦/ ١٩٠ و١٩١) بتصرف واختصار يسير.
(٥) وفيات الأعيان (٢/ ٤٧٧) بتصرف.

* ولم يتركِ السُّيوطيُّ ترجمتها دون أنْ يثنيَ عليها في «نُزهته» حيث قال: «شهدةُ. . . الكاتبةُ فخرُ النّساء ، ومسندةُ العراق ، كانت ذات دِيْنٍ وورعٍ وعبادةٍ ، سمعتِ الكثيرَ ، وعمّرتْ ، وكتبتِ الخطَّ المنسوبَ على طريقةِ الكاتبةِ بنت الأقرع ، وما كان في زمانها مَنْ يكتبُ مثلهَا ، وكان لها الإسنادُ العالي ، ألحقتِ الأصاغرَ بالأكابرِ ، واشتُهِرَ ذكرها ، وبَعُدَ صيتها ، واختصّت بالخليفةِ المقتفي وقاربتِ المئة»[1].

* وأمّا ابنُ العماد فقد شهدَ لشهدةَ ببرّها وفَضْلِها وعلمها فقال: «شهدةُ بنتُ أبي نصر. . . الكاتبةُ المسندة ، فخرّ النّساء ، كانت ديّنةً عابدةً صالحةً ، سمَّعَها أبوها الكثيرَ ، وصارت مسندةُ العراق. . . . . . وكانت ذات برّ وخير. . »[2].

* وافتتحتْ زينبُ بنتُ يوسُف فواز العامليّة ترجمةَ شهدة بالثّناء عليها وعلى صِدقها بالرّواية ، وإجادتها الخطّ الجميلَ ، ومآثرها في العُلوم فقالت: «كانت منَ العُلماءِ الأكابرِ المحدّثات الصّادقات بالرّواية ، تعلّمتِ الخطَّ الجيّدَ ، وأخذتِ العِلْمَ عن كثيرٍ من العَلماء ، وأجازوها إجازةً لم تسبقْ لغيرها ، وأخذَ عنها كثيرون ، وكان لها النَّفَسُ العَالي ألحقتْ فيه الأصاغرَ بالأكابرِ. . وألَّفَتْ جملةَ رسائل في الحديثِ والفقْهِ والتَّوحيد ، ومآثرهُا كثيرةٌ في أصنافِ العُلُوم»[3].

* وفي «روضته الفيحاء» ذكرها ياسينُ العمريّ بالثّناء والمديح ، ووصفَها بالعِلْمِ والورع والصّوم وإقراء الطّلاب وشُدَاةِ العِلْم ، فقال: «شهدةُ بنتُ أحمد بن الفَرج العالِمةُ الفاضلةُ الصَّالحةُ ، الورعةُ العابدةُ ،

---

(١) نزهة الجلساء في أشعار النساء (ص ٤٧) بتصرف.
(٢) شذرات الذهب (٦/ ٤١٠ و٤١١) باختصار يسير.
(٣) الدر المنثور (ص ٢٥٦ و٢٥٧) باختصار يسير جداً.

التَّقيةُ ، برعَتْ في العلومِ ، وأتقنتِ المنطوقَ والمفهومَ ، وكانت تصومُ الإثنينَ والخميسَ ، وتَعِظُ النّساء الوعظَ النَّفيس ، واشتُهِرَ فضلُها في الآفاق ، ونَما بالعراق ، ولها مشاركةٌ في كثيرٍ من العُلوم لاسيما الفقْه ، وعلْم التّفسير ، وعلْم الحديث ، وكانت تجلسُ من وراءِ حجاب ، وتقرىءُ الطُّلاب ، وتلمذَ عليها خَلْقٌ كثير . . . وتُعَرفُ بالكاتبة»(١) .

* وأثنى عليها في مفتتحِ ترجمتهِ لها عمر رضَا كحّالة فقال : «شهدةُ . . . عالمةٌ فاضلةٌ وكاتبةٌ مجيدةٌ ، ذاتُ ديْنٍ وصَلاحٍ وبرٍّ وإحسان ، وُلدتْ ببغدادَ ، وسمعتْ من أكابرِ عُلماءِ عَصْرها»(٢) .

* وخلاصةُ القولِ ، فإنَّ شهدةَ كان لها باعٌ طويلٌ في الخطّ ، حيثُ سَحَرتْ أعْيُنَ النُّظّار ، وفتنَتْ نفوسَ المشتغلين بهذا الفنّ العربيّ الأصيل؛ وكانَ لها في الحديث يدٌ طولىٰ أيضاً ، وأصحابُ السِّيَر والعُلماء والفقهاء يذكرونها بألقابٍ منها : سَنَدُ الحديث ، وفَخْرُ النّساء ، ومسندُ العراق ، والفاضلةُ، والورعةُ ، والخطّاطةُ ، وما شابَه ذلك من أشياءَ عظيمة جعلتْها من النّساء العالماتِ اللواتي طار صيتهنّ في البلادِ، وعُرِفْنَ في كلّ وادٍ ونَاد .

الشَّيْخَةُ المُعَمَّرةُ :

* كانت شهدةُ واحدةً من نساءِ المشرقِ اللواتي عمّرنَ عمراً طويلاً ، فقد ذكروا أنّها عُمّرت حتى قاربتِ المئة؛ وكانت حياتُها الطويلةُ هذه التي تقتربُ من قرنٍ من الزّمان حياةَ علْمٍ وعملٍ وفضْلٍ وأثرٍ طيّبٍ في أفاضلِ عَصْرِها ومنهم : فخر الدِّين ابن تيمية الحرّاني المقرىء الواعظ الفقيه الحنبليّ شيخ حرّان وخطيبها .

---

(١) الروضة الفيحاء (ص ٢٨٤ و٢٨٥) .

(٢) أعلام النّساء (٢/ ٣٠٩) .

* فقد كان رجُلاً فاضلاً ، تفرّدَ في بلدهِ بالعِلْمِ ، وكان المشارُ إليه في الدِّين، لقيَ جماعةً منَ العُلماء، وأخذَ عنهم العلومَ ، ثمَّ قدمَ بغدادَ ، وسمعَ الحديثَ بها من شهدةَ بنتِ الإبري ، ولازمَ ابنَ الجوزي ، وقرأَ عليها «زاد المسير في علم التّفسير» قراءةَ بحثٍ وفَهْم، وكانَ زاهِداً يُعَدُّ من الأَبْدال، وأخذَ في التّدريس والوعظِ والتّصنيف ، وإلقاء التّفسير بكرةَ كلّ يوم بجامعِ حرّان ، واظبَ على ذلك حتى فسَّرَ القُرآن الكريمَ خَمْسَ مرّات. وكان بارعاً في تفسيرِ القرآنِ وجميعِ العُلوم ، له فيها يدٌ بيضاء ، وكان شيخاً صالحاً فاضلاً حسنَ الأخلاقِ صدوقاً متديناً ، توفيَ بحرّانَ سنة (٦٢١ هـ أو ٦٢٢ هـ) رحمه الله تعالى[١].

* أمّا شهدةُ فقد عاشت عمراً طويلاً حتّى وافتها المنيةُ يوم الأحد ثالث عشر المحرّم سنة (٥٧٤ هـ) ، وصُلّيَ عليها يوم الإثنين رابع عشر المحرم بجامعِ القَصْر ببغدادَ ، وأزيل شبّاك المقصورة لأَجْلِها ، وحضرها خلقٌ كثيرٌ ، وعامّةُ العُلماء ، ودُفِنَتْ بمقبرة باب أبرز ، وقد نيَّفَتْ على تسعين سنة منْ عمرِها رحمها الله تعالى[٢].

* ومن الجدير بالذّكْر أنَّ زوجَها عليُّ بن محمد قد نُقِلَ من قبرِه في داره برحبة الجامعِ إلى جوارِ زوجته شهدة ، حيث دُفنا بباب أبرز قريباً منَ المدرسةِ التّاجية ، وذلك في محرّم سنة (٥٧٤ هـ)[٣].

* وهكذا كانتْ شهدةُ بنت الإبري واحدةً من كواكبِ نساءِ المشرق العربيّ ، رحمها الله تعالى ، وبها فلتقدِ النِّساء في كلِّ عَصْر ومصْر.

* * *

---

(١) شذرات الذهب (٧/ ١٧٩ و١٨٠)، ووفيات الأعيان (٤/ ٣٨٦ و٣٨٧) مع الجمع والتصرف.

(٢) المنتظم (١٨/ ٢٥٤) ، ووفيات الأعيان (٢/ ٤٧٧) ، والكامل (١١/ ٤٥٤) والمصادر السابقة.

(٣) وفيات الأعيان (٢/ ٤٧٨).

فاطمة بنت إبراهيم البطائحية

* محدِّثة ، فاضلة ، عابدة ، ديِّنة ، فقيهة ، صالحة ، خيِّرة ، كاتبة ، مُسندة .

* لها آثار عظيمة في مجال خدمة السنة الشريفة ، ونَقْل العلم إلى أربابه ، وكانت إحدى الخالدات في سجل الخالدات .

الـخَيِّـرةُ أُمُّ الـخَيْـرِ:

* أمُّ الخيرِ هذه امرأةٌ محدّثَةٌ فاضلةٌ، وهي واحدةٌ من جواهرِ هذهِ الموسوعةِ المُباركةِ من نساءِ المشرقِ العربيّ، وهي واحدةٌ منَ الفَواطِم اللواتي أثْريْنَ عصرهُنَّ في علْمِ الحديثِ النَّبويّ الشَّريف، وكُنَّ من المجليات السَّابقات في العبادةِ والدّينِ والفقْه والصَّلاح.

* وهذه المرأةُ المحدّثةُ منَ المخضرماتِ من نساءِ القرنِ السَّابعِ والثَّامن الهجريّ؛ واسمُها: فاطمةُ بنتُ إبراهيمَ بنِ محمود بن جوهر البعلبكيّ المعروف بالبطائحيّ.

* ويُقال لهذه العالمةِ اختصاراً: فاطمةُ بنتُ جوهر، أو بنت البطائحي، وتكنى بكنيتَيْن: أمّ الخير؛ وأمّ محمّد[1].

* كان مولدُ فاطمةَ بنت البطائحي في الرُّبع الأوّل من القرنِ السَّابع الهجري، قال صلاح الدّين الصَّفدي: «ومولدُهَا سنة (٦٢٥ هـ)»[2].

* وُلدَتْ فاطمةُ في دمشقَ الشَّام، وأكَّدَ على هذا ابنُ القاضي في

---

(١) مرآة الجنان (٤/ ٢٥٠)، والدرر الكامنة (٣/ ٢٢٠ـ٢٢١)، ودرة الحجال في أسماء الرجال لابن القاضي (٣/ ٢٦٤) تحقيق. د. محمد الأحمدي أبو النور ـ المكتبة العتيقة ـ تونس ـ (١٣٩١ هـ)؛ وأعلام النساء (٤/ ٢٥)، وأعيان العصر وأعوان النصر (٣/ ١٣٩٢ ـ ١٣٩٣)، تحقيق فالح أحمد البكور ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٨ م، وشذرات الذهب (٨/ ٥٢)، وذيل العبر (٤/ ٢٨)، وتذكرة الحفاظ (ص ١٤٩٥)، وغيرها.

(٢) أعيان العصر (٣/ ١٣٩٣).

ترجمتهِ لها عندما قال: «الشَّيخةُ ، الخيّرةُ ، الفاضلةُ ، الكاتبةُ أمّ الخير ، وأم محمّد ، من أهل الشَّام. . »[1].

* بينما افتتحَ الصَّفديّ ترجمتَها بقولهِ: «أمّ محمّد البطائحيّة البعليّة ، فاطمةُ بنتُ إبراهيم بن محمود بن جوهر الشَّيخةُ المعمّرةُ المسندةُ العَابدةُ»[2].

أُسْرتُهَا وأولادُهَا:

* كانتِ المصادرُ التي تحدَّثَتْ عن فاطمةَ البطائحيّة نادرةً جدّاً ، أمّا الحديثُ عن زوجِها وأولادِها فأكثرُ نُدرةً ، وأصعبُ منالاً ، وقد استخلصْنَا أشياءَ بسيطة عن أسرتها وأولادِها من خلالِ ثنايا ترجمتِها ، وقد كلَّفنا ذلك عناءً كبيراً ، وجهْداً لا يعلمُه إلا الله عزّ وجلّ ، لأنّنا كنّا نعودُ إلى عددٍ كبير من المصادرِ المتنوّعة كيما نتعرّفُ على أولادها؛ فقد أوردَ صلاحُ الدِّين الصَّفدي في ترجمتهِ لفاطمةَ البطائحيّة بأنّها والدةُ الشَّيخ إبراهيم بن قُريشة ، وعُدنا من خلالِ هذه الإشارة إلى ترجمته في «الدُّرر الكامِنَة» و«أعيان العَصْر» ، و«شذراتِ الذَّهب» و«الوافي بالوفَيات» ، وغيرِ ذلك من مصادرَ ومراجعَ ، حتى استطعنا أنْ نرسمَ صورةً له ولأمّه أكثر وُضوحاً ، كيما نتعرف حياتَها العلمية بشكلٍ أقرب إلى الصَّواب.

* وتشيرُ المصادرُ إلى أنَّ فاطمةَ قد تزوَّجت من أحدِ أعيانِ عَصْرِها عِلماً وأدباً ومكانةً ، ويدعى بركات بن أبي الفضل البعليّ المعروف بابن

---

(١) أعيان العصر (٣/ ١١٩٣).
(٢) درة الحجال (٣/ ٢٦٤).

القريشة ، وقد أثمرَ هذا الزّواج المبارك عن إنجابِ عددٍ من الأولاد النُّجباء العُلماء الأكابر ، فولدت له ابنها أبا إسحاق نور الدّين إبراهيم[1] ، وعنيتْ عنايةً فائقةً بهذا الابنِ ، فقامَتْ بتعليمِهِ ، فأسمعَتْه الحديثَ على عددٍ من مسندي العَصْر ، ثمّ إنَّه سمعَ بنفسهِ الحديثَ والفقْه وتصوَّفَ ، وعلا إسنادُه ، حتى إنَّ البِرزالي قد خَرَّج له مشيخة .

* ولعلَّ إبراهيمَ هذا قد سمعَ من أُمّه فاطمةَ البطائحيّة ، وأخذَ عنها الحديثَ أسوةً بعلماءِ عَصْره ، فهي أمُّه ولاشكَّ في أنَّه قد سمعَها ، وكان لها كبير الأثرِ في حياتهِ العلميّة .

* ولفاطمةَ البطائحية ولدٌ آخر يُدعى عبد القادر بن بركات[2] ، وقد

---

(١) إبراهيمُ بنُ بركات بنِ أبي الفضل الشّيخ الصّالح ، أبو إسحاق الصّوفي البعلبكيّ الحنبليّ ، المعروف بابن قُرَيْشَة ، أحدُ الأعيانِ الصّوفية ، وأكابرُ الفقهاء القادريّة ، وَليَ مشيخةَ الشّبليّة والأسديّة بدمشقَ ، وإمامَ تربةِ بني صَصْري .
ـ سمعَ عن أعيانِ العُلماء ، وروى الكثيرَ واشتُهِر ، وكان صديقاً لوالدِ ابنِ حجر ، وسمعَ منه جماعةٌ ، وأجازَ لصلاحِ الدّين الصّفدي في سنةِ (٧٢٨ هـ) بدمشقَ ، وكان شيخاً ذا شيبةٍ منوّرة ، وشكالَةٍ بالمهابةِ مسوّرة ، حسنَ الملتقى لمن يعرفُه ، كثيرَ الإنصافِ لمن اجتمع به وإن كانَ ما ينصفُه، حلوَ المذاكرة ، ظريفَ المحاضرة ، وقد صحبَ المشايخَ ورآها ، ودخلَ غاب أُسْدِهم وعَراها ، عليه أُنْسُ الفقراء ، وحشمةُ الأمراء، روى عنه عَلَمُ الدّينِ البِرزالي في حياتِهِ وغيره ، وعاشَ هو من بعده وما انقطع سَيْره ، ولم يزلْ على حالهِ إلى أنْ لبسَ كفَنَه ، ولحدَهُ اللاحِدُ ودفَنَه .
وُلدَ سنة (٦٤٨ هـ) وتوفيَ سنة (٧٤٠ هـ) بجبل الصَّالحية رحمه الله .
(شذرات الذهب ٨/ ٢١٩) ، و(أعوان العصر ١/ ٣٦ـ ٣٧) .

(٢) عبدُ القادر بنُ بركات بنِ أبي الفضل بن أبي عليّ الدّمشقيّ ، محييّ الدِّين الصُّوفي المعروف بابن قُريشة البعليّ؛ وُلد عبدُ القادر سنة (٦٥٢ هـ) ، وسمعَ على كبارِ عُلماءِ عَصْره ، وأسنَّ وكبرَ وعجزَ عن المشي ، وكان يركبُ حِماراً ، وكانت له خصوصيّةٌ بالقاضي نجم الدِّين بن صصري. توفيَ في سنة (٧٤٩ هـ) في =

سمع ابنها هذا على عددٍ من حفّاظ العصرِ ، وربّما سمع من أمّه .

* وكان لفاطمة أولادٌ آخرين منهم : تقي الدِّين محمد بن بركات[1] ، وربما كان لفاطمة أولادٌ آخرون ، بيد أنَّ المصادرَ لم تذكرهم ، لأنّهم لم يشتهروا في ميادينِ العلْم أو الرّواية .

العَالِمَةُ المُتعلّمَةُ المُسْنِدَةُ :

* شاركتْ فاطمةُ ابنة إبراهيم البطائحيّ علماءَ عصرِها في تلقّي الحديثَ الشَّريف من خلالِ طُرقِ الآداءِ آنذاك ، وهي : القراءةُ ، والسَّماع ، والإجازةُ ، والمُكاتبة .

* إنَّ فاطمةَ وكثيراً من النِّساء العالمات في عصرِها ، قد أديْنَ ما تحملْنَه من علمٍ قراءةً عليهنّ أو سماعاً منهنّ أو إجازةً ، وإنَّ قليلاً منهنّ مَنِ اقْتَصَر أداؤُها على الإجازةِ والمكاتبةِ فقط . وقد شاركتِ المحدّثات في هذا الأمرِ ، فكُنّ يُجِزْنَ الطلبةَ بعد القراءة عليهم ، أو من غيرِ قراءة .

* ولقد أخذتْ فاطمةُ الحديثَ عن عددٍ من محدّثي عصرِها ومُسنديه ، فقد سمعتْ صحيحَ البخاري مرّات عن مسندِ الوقتِ ، الشّيخ المعمّر ، الحُسينِ بنِ المبارك بن محمد الزّبيديّ المتوفى سنة (٦٣١ هـ) .

= طاعون دمشقَ ـ رحمه الله تعالى ـ. (الدّرر الكامنة ٢/ ٣٨٩) و(أعيان العصر ٢/ ١٠٠٩).

(١) محمد بنُ بركات بن أبي الفَضْل بن أبي علي الشّيخ تقي الدِّين أبو عبد الله بن الشّيخ الصّالح البعلبكي المعروف بابن القُريشة ، سمعَ منَ الفقيهِ محمّد اليُونيني ، وشيخ الشّيوخ بحماة ، وكان شيخ الخانقاه ، والشّبلية بظاهر دمشق ، توفي بحصن الأكراد في (١٧ رمضان) سنة (٧٢٤ هـ). وكان مولدُهُ سنة (٦٤٥ هـ) في بعلبك.

* وسمعت كذلك صحيح مسلم من ابن الحصيري شيخِ الحنفيّة المتوفى سنة (٦٣٦ هـ).

* وسمعتْ كذلك من عبدِ الله بنِ الحُسين بن عبد الله بن رواحة الأنصاريّ المتوفى سنة (٦٤٦ هـ)[١].

* ولما اشتدّ عودُ فاطمة في علمِ الحديثِ، وصلُبَتْ قناتُها، وغدت أستاذة من كبارِ المُسندات في عصرِها، وبعد أنْ قضَتْ شطراً من عمرِها في طلبِ العلْمِ والحديثِ، أخـذت تؤدّي أمانـةَ العلمِ، وتبلِّغـه، وتنشـرُه بين أهله.

* وتذكرُ المصادرُ أنّها بدأتْ بالتّحديث قديماً من زمن ابن عبد الدّايم المتوفى سنة (٦٦٨ هـ)[٢]، ولا ندري أينَ حدَّثَت، وأغلب الظَّنّ أنّها حدّثت بدمشقَ، والدّيار المقدسة.

* فقد ذكر الرّحالة محمد بن عمر بن محمد المشهور بابن رُشَيد[٣] السّبتي أنَّه لقي فاطمةَ بنتَ إبراهيم البطائحي في رحلتهِ إلى الحج بمسجدِ الرّسولِ ﷺ، وأنّه قرأَ وسمَع عليها هناك وأجازت[٤] له ولأبنائهِ وبناتهِ،

---

(١) انظر: شذرات الذهب (٨/ ٥٢).

(٢) انظر: أعيان العصر (٣/ ١٣٩٣).

(٣) ستأتي ترجمته قريباً.

(٤) كان العَالِمُ أو العالمةُ يجيزُ طلاّبَ العِلْم، ومن شعرِ عَلَم الدّين المِصْري، وكان يكتبُ في الإجازات:

أجـزْتُ لهـم أبقـاهـم اللهُ كلّمـا ... رويتُ عن الأشياخِ في سالفِ الدّهرِ
ومـا سمعـتْ أُذنـايَ مـن كـلّ عـالـمٍ ... وما جادَ منْ نظمي وما راقَ من نثري=

وأخواتِه ، وكان في سنة (٦٨٣ هـ أو ٦٨٤ هـ أو ٦٨٥ هـ).

* وقد ذكرَ ابنُ رشيد[1] هذا في رحلتهِ المجلسَ الذي أخذَ فيه الحديثَ عن فاطمةَ فقال: «لقيتُها بمسجدِ المصطفىٰ ﷺ ، وقُرِىءَ عليها وهي مستندةٌ إلى جانب رواقِ الرّوضةِ الكريمةِ المحمدّية ـ على ساكنيها السَّلام ـ تجاه رأسِ المُصطفى الكريم». ثمّ قال: «وكتَبَتْ لي خطّها بالإجازة هنالك في جميع مرويّاتها ، ولبنيَّ: أبي القاسم ، وعائشةَ ، وأمَةِ الله ، ومن تسمّى معنا في الإجازةِ ، وبمحضرٍ من ابنها واسمُه في غالب ظنّي

= على شرطِ أصحابِ الحديثِ وضَبْطِهم … بريّاً منَ التّصحيف عارٍ منَ النكرِ
وبـالله تـوفيقـي عليـه تـوكّلـي … له الحمدُ في الحالين والعُسْر واليُسْر

(١) محمدُ بنُ عمر بن محمد بن عمر . . . ابنُ رشيد ـ بالتّصغير ـ أبو عبد الله الفِهْريّ السَّبتي عالمُ المغربِ الحافظ العلامة. وُلدَ في جمادى الأولى بسبتةَ عام (٦٥٧ هـ) ، ونشأ محبّاً للعربية ، واحتفلَ في صباه بالأدبيّات حتى برعَ في ذلك ، ومن شعرهِ:
تَغَـرَّبْ ولا تَجـزعْ لِفُـرقـةِ مـوطـنٍ … تفزْ بالمنىٰ في كلِّ ما شئتَ منْ حاجِ
فلولا اغترابُ المسْكِ ما حلَّ مفرِقاً … ولولا اغترابُ الدُّرّ ما حلَّ في التّاجِ
ـ ثمَّ رحلَ إلى فاس وطلبَ الحديث فمهرَ فيه ، وصنّفَ الرّحلةَ المشرقيّة في ست مجلداتٍ ، وحجَّ سنة (٦٨٥ هـ) ، وجاورَ ودخل مصرَ والشّام ، وسمعَ من الأعلامِ هناك.
ـ ولما رجعَ من رحلته ، سكنَ سبتةَ ملحوظاً عند الخاصّةِ والعامّة ، ثم ارتحلَ سنة (٦٩١ هـ)، وكان ورعاً مقتصداً منقبضاً عن النّاس ، ذا هيبةٍ ووقار ، يسارع في حوائج النّاس بجلب المصَالح ودرءِ المفاسد ، يؤثرُ الفقراءَ والغرباءَ والطلبةَ ، لا تأخذه في اللهِ لومة لائم.
ـ قال ابنُ الخطيب: «كان فريد دهرِه عدالةً وجلالةً وحفظاً وأدباً وهدياً عالي الإسناد ، صحيحَ النّقل ، تامّ العنايةِ ، عارفاً بالقراءات ، بارعَ الخطّ ، كهفاًللطلبة ، وكلّ مؤلّفاته مفيدة». وكانت وفاتُه في أواخر المحرّمِ سنة (٧٢١ هـ) بمدينة فاس وعمره (٦٤ سنة) ـ رحمه الله ـ.
(الدّرر الكامنة ٤/ ١١١ ـ ١١٣) ، وشذرات الذّهب (٨/ ١٠٢) ، ودرّة الحجال (٢/ ٩٦ ـ ١٠٠) مع الجمع والتّصرف.

محمّد ، وكانت تسدلُ جلبابَها[1] على رأسها حياءً وصوناً رضي الله عنها»[2].

نموذَجٌ منْ مرويَّاتِهَا :

* في رحلتهِ المشرقيّة الشَّهيرةِ الحافلةِ بصنوفِ العِلْمِ والمعرفةِ ، والتي

---

(١) هناك سؤالٌ مهمٌ جدّاً قد يتبادرُ إلى ذِهْنِ القارىءِ الكريم مفادُه : كيف كانَ الرّجالُ يسمعونَ على النِّساء ، وكيفَ تلقّىٰ الرّجالُ العِلْمَ والرّواية عن المحدّثاتِ العالماتِ؟!
ـ أمّا عن كيفيةِ تلقّي الرّجال الحديثَ الشّريفَ عن النِّساء ، فقد كانَ بالطّريقة التي سلكَتْها أمُّنا أمُّ المؤمنين عائشةُ بنتُ الصِّدِّيق ـ رضي الله عنها ـ من قبلُ ، وغيرُها منْ أمّهاتِ المؤمنين الطّاهرات ـ رضي الله عنهنَّ ـ حيث كُنَّ يحدثْنَ الصَّحابةَ الكرامَ من وراءِ حجاب ، ثم اقتدىٰ بهنَّ من بعدِ ذلك النِّساء المحدّثاتِ العالماتِ الفقيهات .
ـ قال الإمامُ السُّيوطي ـ رحمه الله ـ : «وكانَ السَّلفُ يسمعون من عائشة وغيرِها من أمّهات المؤمنين ، وهنّ يحدثْنَ من وراءِ حجاب» (تدريب الراوي ٢/ ٢٨).
ـ وقال السَّخاوي : «إنَّ عائشةَ وغيرَها منَ الصَّحابيات كُنَّ يحدثْنَ من وراءِ حجاب»؛ ثم نقل قولَ ابن أبي الدم : «أمّا النّساء فلا خلافَ في جوازِ الرّوايةِ عنهنّ مع وجوبِ احتجابهنّ» (فتح المغيث ٢/ ٢١١).
ـ وقد كانت فاطمةُ بنتُ إبراهيم البطائحيّ تتبَعُ ما سنَّتْهُ أمّهاتُ المؤمنين في التَّحديث . فقد كانت تحدّثُ منْ وراءِ حجاب ، وفي غايةِ التّصوُّنِ والأدبِ والحياء .
ـ ومن الجدير بالذّكر أنّه يجوزُ للرّجل أنْ يأخذَ عن المرأةِ العِلْم ، أو الفتوى ، أو الحديث وهي في مكان عام : كالمسجدِ؛ أو إذا كان معها بعضُ محارمها ، كما فعلتْ فاطمةُ البطائحيّة في المسجدِ النّبوي ، حيث كان معها ابنها محمّد .
ـ وكان سَماعُ الرجلِ من المرأةِ يتمُّ غالباً من وراءِ حجاب ، وإنَّ حالةَ ابن رشيد تعتبرُ نادرة ، إذْ أخذَ الحديثَ مشافهةً من فاطمةَ خلال رحلته إلى الحجّ ، حيثُ عَلِمَ بأنّها موجودةٌ في المدينةِ المنورةِ وفي المسجدِ النّبوي ، فذهبَ إليها ، وقرأَ عليها الحديث في المسجدِ ، ولكنّها ـ كما أشرنا ـ قد أسدلتِ الجلبابَ على وجهها ، وكان معها ابنها . وفي مثلِ هذه الحالة التي تؤمنُ فيها الفتنةُ تجوزُ القراءةُ على النساءِ من غيرِ ستار أو جدار ، مع مراعاة الضوابط الشّرعية عند التحديث .

(٢) ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة لابن رشيد (ص ٢١). تحقيق د. محمد الهيلة ـ دار الغرب الإسلامي .

جمعَ فيها منَ الفوائدِ الحديثيّة ، والفرائدِ الأدبيّة كلّ غريبةٍ وعجيبةٍ .

* أوردَ ابنُ رشيد بعضَ الأحاديث التي قرأَها على الشَّيخةِ العالمةِ المسندةِ أمِّ الخير وأمِّ محمّد فاطمة البطائحيّة . وهذا حديثٌ قرأهُ عليها بالإسناد ، ومن خلالهِ نعرفُ كيفَ كان يُقْرأُ الحديثُ علىٰ المحدثات في عَصْر فاطمة .

قال ابنُ رشيد : «قرأتُ علىٰ الشَّيخةِ الصَّالحةِ ، أمِّ الخير ، وأمّ محمّد ، فاطمةَ بنتِ إبراهيم البطائحيّ ، تجاه رأسِ المصطفىٰ الكريم ، عليه أفضل الصّلاة وأتمّ التّسليم بين قبرِه ومنبرِه ، في الرَّابع والعشرين لِذي القعدَة ، قلتُ : أخبرَك ـ رضي الله عنْك ـ الحسينُ بنُ المبارك بن محمد الزبيدي بسماعِك عليه .

فأشارت : أنْ نعمْ .

قال : أخبرنَا شيخُ الوقت ، أبو الوقْتِ ، عبد الأوّل بن عيسى بن شعيب السّجزي الصّوفي قراءة عليه ونحنُ نسمعُ .

قال : أنا أبو الحسن عبدُ الرحمن بن محمّد بن المظفّر الدّاوديّ البوشنجيّ قراءة عليه وأنا أسمعُ ببوشَنْج .

قال : أنا أبو محمّد عبدُ الله بن أحمد حمّويه السَّرخْسيّ قراءة عليه .

قال : أنا أبو عبد الله محمّد بن يوسُف الفِربْري قراءة عليه وأنا أسمع .

قال : أنا أبو عبد الله محمدُ بنُ إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن الأحنف الجُعفيّ مولاهم .

قال : أنا مُسَدَّد عن يحيىٰ بنِ عبدِ الله بنِ عمر .

قال : حدثني خُبيب بنُ عبد الرّحمن ، عن حفص بنِ عاصم ، عن أبي هُريرة عن النّبيّ ﷺ قال : «ما بين بيتي ومنبري روضةٌ منْ رياضِ الجنّة ، ومنبري على حوضي»[1] .

---

(١) أخرجه البخاري في أبواب التطوّع برقم (١١٣٨) ، وانظر الحديث في ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة (ص ٢٣) .

* ومن الجديرِ بالذّكرِ أنَّ السَّيدةَ العالمةَ والشَّيخةَ الصَّالحةَ فاطمةُ بنةُ إبراهيم البطائحيّ قد حدَّثت بصحيحِ البخاري مرّات ، وكذلك صحيح مسلم ، وحدَّثت بغيرهما أيضاً مثل جزء العَلاء بن موسى المعروف بجزءِ أبي الجهْمِ.

* وفي رحلةِ ابن رشيد هذه إلى الدّيار المقدّسة أجازت فاطمةُ ابنَ رشيد ، حيثُ جمعَ بين القراءةِ والسَّماعِ ، وبين الإجازةِ منها ، وناهيك بإجازتها.

* وقد علا إسنادُ فاطمة ـ وخصوصاً بعد أنْ بلغَتْ من الكبرِ عتياً ـ وأخذَ عنها كبارُ العلماءِ كالتّقي السّبكي ، ونجدُ أنَّ الحافظَ العالمَ العَيْلَمَ شمس الدّين الذّهبي يحرِصُ أشدَّ الحرص على أنْ يُسْمِعَ ولده عبد الله[1] عليها.

* ومن تلاميذِ السَّيدةِ العالمةِ الرّاوية فاطمة البطائحيّة: ابنُ قيم الجوزيّة العالم العَيْلم المشهور ، وكذلك حفيدُها المحدّث محمدُ بنُ عبد القادر بن بركات البعليّ الصّالحي المتوفى سنة (٧٦٥ هـ) ، حيث سمعَ عنها مسند الإمام الشّافعي ، بالإضافةِ إلى علماءَ ومحدّثين آخرين.

* كما أنَّ فاطمةَ أجازت لعددٍ من علماءِ عَصْرها وطلبةِ الحديث وهم: محمدُ بنُ أحمد بن عبد الرحمن المنبجيّ المتوفى سنة (٧٩٠ هـ) ، ومحمدُ بنُ رافع السّلامي المتوفى سنة (٧٧٤ هـ) ، وأبناءُ ابن رشَيد وهم: أبو القاسم ، وعائشةُ ، وأمَةُ الله.

---

(١) عبدُ الله بنُ محمّد بن أحمد بن عثمانَ الفارقيّ ابنُ الحافظ الذّهبيّ ، وُلدَ سنة (٧٠٨ هـ) وأحضرَهُ أبوهُ على ابنِ الموازيني ، وأسمعَهُ من محمد بنِ يعقوبَ بن الجرائديّ ، وفاطمةُ بنت جوهر ، وخلق كثير ، وحدَّث وسمعَ منه ابن سنَد وغيره ، ومات في ذي الحجة سنة (٧٥٤ هـ). (الدرر الكامنة ٢/ ٢٨٦).

* وهكذا كان لهذهِ المرأة العالمة آثار عظيمةٌ في مجالِ خدمةِ السُّنّةِ الشّريفةِ ، ونَقْلِ العلْمِ إلىٰ أربابهِ.

مَعَ الـمُعَمراتِ الخَالِدَاتِ:

* تُعتبرُ السَّيّدةُ فاطمةُ البطائحيّة إحدى نساءِ المشرق العربيّ المحدّثات المعمّرات ، ممن طالَتْ حياتهنَّ ، وحَسُنَ عملهنّ ، فقد اقتربَ سنّها من التّسعين عاماً قضَتْها في ألوانِ الطّاعات والقُربات إلى الله عزَّ وجلّ ، وفي مقدمتها: طلب العلْم ، وأداء الفرائض ، ومنها فريضة الحج ، كما أنَّها ربَّتْ أولاداً كانوا علماء عصرِهم ، وأعلياءَ دهرهم ، ونجومَ مصرهم ، وغرست في نفوسِهم حبّ الخير ، والسّعي في طلبِ العِلْم.

* كما أنّها ظلّت وفيةً أمينةً في أداءِ ما تحمّلته من حفظِ الحديثِ النّبويّ الشّريف ، وروايتهِ وتعلّمه وتعليمهِ ، وظلت على هذه الأنفاسِ طيلةَ ستةً وثمانينَ عاماً كانت أعواماً سِمَاناً مملوءةً بالعلمِ ، مفعمةً بالرّواية والتّحديث.

* وفي ليلة (٢٥) من شهر صفرَ من سنة (٧١١ هـ)(١) ، وفي مدينةِ دمشقَ وافتِ المنيةُ فاطمةَ البطائحيّة ، ودُفنَتْ بسفحِ جَبَلِ قاسيون ، حيثُ هنالك أعدادٌ لا تُحصى من أكابرِ علماءِ وعالماتِ الدّنيا ممن خلدوا في دنيا العِلْم.

* وقد حظيتْ فاطمةُ بنت إبراهيم البطائحيّ بالمكانةِ اللائقة في كتبِ المتقدّمين منَ المُحدّثين والمؤرّخين والعُلماء ، وأثنوا عليها ، ووصفوها بالدّين والخيرِ وعلوّ الإسناد وعلو الهمّة.

---

(١) أعيان العصر (٣/ ١٣٩١) ، وشذرات الذهب (٨/ ٥٢) ، والدرر الكامنة (٢/ ٢٢١) ، ودرة الحجال (٣/ ٣٢٣) ، وغيرها من مصادر.

* وممن ذكرهَا بالصَّلاح ومعرفةِ الكتابة ابنُ رشَيد الذي قال عنها: «الشّيخةُ ، الصَّالحةُ ، الكاتِبة»[1] .

* وقال الذَّهبيُّ: «الصَّالحةُ ، المُسندة»[2] .

* وذكرها اليافعيُّ في «مِرآته» ، وأثنىٰ عليها فقالَ: «وكانت صالحةً متعبّدة»[3] .

* وفي «درّته» قال ابن القاضي: «الشَّيخةُ ، الخيّرةُ ، الفاضلةُ ، الكاتبةُ ، أمُّ الخير ، وأمُّ محمّد»[4] .

* وقال الصَّفديُّ: «الشَّيخةُ ، المعمّرةُ ، المسندةُ ، العابدة ، أمّ محمد البطائحيّة البعليّة»[5] .

* بينما أثنى عليها ابنُ العماد وذكرَ دِيْنَها وصلاحَها فقال: «كانت ديّنةً ، متعبدةً ، صالحةً ، مُسندة» .

* وقال عمر رضا كحالة: «فاطمةُ بنتُ إبراهيم محدّثة ذات ديْنٍ وصلاحٍ وعبادة» .

* وبعد ـ عزيزي القارىء ـ فهذه امرأةٌ محدّثةٌ عالمةٌ فاضلةٌ من نساءِ المشرقِ العربيّ ، ومن عالماتِ القرنَيْن السَّابع والثَّامن الهِجري ، ممنْ ملأْنَ دنيا النّساء بالعلمِ والرّوايةِ ، فكانت إحدىٰ الخالداتِ في سجلّ الخالدات ، فرحمها اللهُ ، وأدخلها فسيح الجنّات .

* * *

---

(١) ملء العيبة (ص ٢١).
(٢) تذكرة الحفاظ (٤/ ١٤٩٥).
(٣) مرآة الجنان (٤/ ٢٨).
(٤) درة الحجال (٣/ ٢٦٤).
(٥) أعيان العصر (٣/ ١٣٩٢).

فاطمة بنت أحمد الحرازيّة

* محدِّثة ، مُسندة ، خيِّرة ، صالحة .

* من أهل الخير والدين والصلاح ، وقد أكثرت من السَّماع .

مِنْ أُسْرَةٍ علميّةٍ:

* محدِّثَةٌ ، مسندةٌ ، خيّرةٌ ، صالحةٌ ، جمعتْ كرَمَ الأصْلِ ، إلى كرمِ المحتدِ ، إلى كَرمِ الإقامةِ وطيْبِها ، ولها شأنٌ ونصيبٌ في نساءِ المشرقِ العربيّ من خلالِ حياتِهنّ العِلْميّة المتألّقَةِ .

* نشأتْ نشأةَ بناتِ العُلماء ، وفتحتْ عينيهَا على الدّنيا ومِنْ حولها العُلماء ، وأهلُ الحديثِ ، والفُقَهاءُ ، فرضعَتْ لبانَ العِلْم ، لتغدوَ واحدةً منَ النِّساءِ العالماتِ المحدِّثاتِ ، وواحدةً من أُمّهاتِ العُلماءِ في عَصْرِها .

* هذه المرأةُ العالمةُ من أمِّ القُرىٰ وسيِّدةِ البُلدان مكّةَ المكرمةِ البلدِ الأمين ، بلد الأمينِ الحبيبِ محمّد ﷺ ومولده ، ومولد أمِّنا أمِّ المؤمنين خديجةَ بنتِ خُويلد ـ رضي الله عنها ـ ، ومولد معظم أُمّهات المؤمنين ـ رضي الله عنهنَّ ـ.

* وهذه المرأةُ العالمةُ المحدّثَةُ هي فاطمةُ بنتُ أحمدَ بن قاسم بن عبد الرّحمن العمريّ الحَرازي ، المكّيّة المدَنيّة ، وكنيتُها: أمُّ الحَسنِ ، وأمُّ نَجم الدِّيْن المكّيّة[1] .

* ويعودُ أصلُ فاطمةَ الحرازيّة إلى أصولٍ يمنيّة ، لكنّها وُلدَتْ في مكّةَ المكرمةِ في أوائلِ القَرن الثّامنِ الهِجريّ بعد سَنَةِ (٧١٠ هـ) ، وكانَ مولدُهَا في أسرةٍ اشتُهرَ معظمُ أفرادِها بالعِلْمِ والفقْهِ والحديثِ والرّواية والمعرفةِ والأدبِ .

---

(١) الدّرر الكامنة (٣/ ٢٢١) ، والعقْدُ الثّمين (٨/ ٢٩٥ و٢٩٦) ، وإنباء الغمر (٢/ ٧٧) ، والذّيل على العبر (٢/ ٥٢٦) ، وشذرات الذّهب (٨/ ٤٨٣) ، وأعلام النّساء (٤/ ٢٩).

* فوالدُها: شهاب الدِّين أحمدُ بنُ قاسم من مواليد حَرَاز[1] باليمن؛ فقد ذكرَ ابنُ حجر العَسْقَلاني أنَّ مولدَه كان في حَراز سنة (٦٧٥ هـ)[2]، وبعد أنْ شبَّ عن الطَّوق، قدمَ مكّةَ المكرمة، فأقامَ فيها، واتّخذَها وطَناً، وصار يُنْسَبُ إليها فيقال: الحرازيّ المكّيّ.

* وفي أمِّ القُرى مكّةَ المكرمةِ راحَ أحمدُ بنُ قاسم الحرازيّ والدُ فاطمةَ يطرقُ أبوابَ العِلْم، وأخَذَهُ عن عددٍ من شُيوخها، وعن عددٍ منَ الواردينَ عليها.

* فقد سمعَ بمكّةَ منَ الفَخْر التَّوزَري، والصَّفي والرّضي الطَّبريَّيْن.

* ثمَّ توجَّه تلقاء المدينةِ المنوّرة لتلقي العِلْم، وهناك سمعَ بها كثيراً من كُتُبِ السُّنَّةِ المُطَهَّرة، والسِّيرةِ النّبويةِ العَطرةِ، فقد سمعَ كتاب «الشِّفَا» للقاضي عياض من محمّد بن محمد بن حريث العبدريّ، وسمعَ من غيرِه كُتُباً أخرى.

* وأقامَ الحرازيُّ بمكّةَ المكرمةِ، ومَهَرَ بالفقْهِ، ومن ثمَّ غدا شيخ مكّةَ الذي يُشَار إليهِ بالبنَان، والمعتمد عليه في أمورِ الفتوىٰ بها، حتى لُقِّب: «مفتي مكّة المكرمة»؛ إذ انتهتْ إليه رئاسةُ الفتوى بمكّة لِعِلْمِهِ وفَضْلهِ.

* وكانَ الحرازيُّ والدُ فاطمةَ رجُلاً عابداً صالحاً خيّراً، تزوّجَ من أسرةِ الطَّبريّ، وهي أسرةٌ منَ الأسرِ العريقةِ ذاتِ الجذورِ الثَّابتة في العلْم، حيثُ كان أبناؤُها يتوارثونَ مناصبَ إمامةِ مقام الشَّافعيّة في المسجدِ

---

(١) «حَرَاز»: بفتح الحاء وتخفيفِ الرّاء، مخلافٌ باليمنِ قُرب زَبيد، (معجم البلدان ١/ ٢٣٤). وذكر السَّخاويُّ: أنَّه نسبةٌ لحراز، وهو جَبلٌ عظيمٌ باليمنِ يشتملُ على قُرىً ومزارعَ على مسافةِ يومَيْن غربي صنعاء. (الضّوء اللامع ١١/ ١٩٨).
(٢) الدّرر الكامنة (١/ ٢٣٥).

الحرام ، وخطابته ، وقضاء مكّة المكرمة لعدّة قُرون .

* فقد تزوَّجَ الحرازيُّ سيّدة[1] بنت رضي الدِّين الطَّبريّ ، محدّث مكّة المكرمة ، وكان لِسَيّدة هذه سماعٌ للحديثِ النَّبوي الشَّريف ، وبلغَتْ فيه منزلة عُليا ، حيث أجازتْ للزَّيْنِ العِراقي ، وقد ولدت سيّدةُ أربعةَ أولادٍ منَ الذّكور ، كلُّ واحد منهم يُدعى محمّداً ، وله لقبٌ يُعْرفُ به .

كما ولدت سيّدة هذه عدداً منَ الإناثِ اشتُهرتْ منهنَّ فاطمةُ التي نحفلُ بسيرتها ، وماتَتْ سيّدة سنة (٧٥٧ هـ) .

* وعاشَ أبناءُ أحمد الحرازيّ عيشةَ أبناءِ العُلماء ، حيث عكفَ أبوهم طيلةَ حياتِهِ يعتني بهم ، ويربّيهم على حبِّ العلْمِ وروايةِ الحديثِ ، لاسيما أنَّه صَاهَرَ أسرةً ورثَتِ العِلْمَ كابراً عن كابر ، فعُنِي بأنجالِهِ منذ نعومةِ أظفارهم ، فصاروا علماء ، وكانُوا كبراء ، ومنَ المرموقين في عصرهم .

* فقد كان ابنُه محمّد الملقّب بمحبِّ الدِّين ، ويُكنى أبا عبد الله ممّن سمع الصَّحيحيْن وغيرهما ، وبحثَ في الفِقْه على والده ، وتوفيَ سنة (٧٦٤ هـ)[2] .

وابنه الثَّاني محمّد أبو الفَضْل درسَ الفِقْه أيضاً على والدِهِ ، واشتغلَ بالوعْظِ والتَّدريس والإفتاءِ ، وتوفي أبو الفَضْل في سنةِ (٧٤٩ هـ)[3] .

* وابنه الثَّالث محمّد أبو البركَات ، سَمِعَ بمكَّةَ ، وقدم دمشقَ سنة (٧٢٨ هـ) ، وسمَع بها أيضاً ، وتوفي سنة (٧٣١ هـ)[1] .

---

(١) انظر ترجمتها في العقد الثمين (١/ ٣٦٦) .
(٢) العقد الثمين (١/ ٣٦٦) .
(٣) المصدر السابق نفسه (١/ ٣٦٥ و٣٦٦) .

* ورابعُهم ابنه محمّد تقي الدّين ، ويكنى أبا اليمن ، وهو أشهرُ أولاده ، وأبعدهم صيتاً.

* وُلدَ تقيُّ الدِّين هذا بمكّةَ المكرمةِ سنة (٧٠٦ هـ) ، وسمعَ بها كثيراً ، وتفقَّه على والدِهِ ، ورحلَ إلى القاضي شرفِ الدِّين البارزي ، وأجازَه بالفتوىٰ والتَّدريس ، وكان منَ الفُضَلاء ، وصارَ إليه أمْرُ الفُتيا والتَّدريس بمكَّة ، ثمَّ وليَ القضاءَ سنة (٧٦٠ هـ) ، ثمّ أضيفَ إليه الخطابة ، فباشَرها نحو سنتَيْن ، ثم عُزِلَ عن ذلك كُلِّه في سنة (٧٦٣ هـ) بأبي الفَضْل النّويري ، فلزمَ بيتَه حتّى مات لا يخرجُ إلا لحجٍّ أو صلاةٍ غالباً ، وكان في قَضَائِهِ عفيفاً نَزِهاً ، وإنّما عُزِلَ بسبب حُكْمٍ نُقِمَ عليه أنَّه أخطأَ فيه.

توفيَ بمكّة في جماديٰ الأولىٰ سنة (٧٦٥ هـ)[١].

* في هذه الأسرةِ العِلْميّةِ الفريدةِ الزَّاخرة بالعِلْمِ والعُلماء ، كانت نشأةُ وحياةُ فاطمة الحرازيّة التي تَشْغَلُ سيرتها وقصّةُ حياتِها مساحةً لا بأسَ بها من هذه الموسوعةِ ، كما أنَّه كان لها في تاريخِ نساءِ الحديثِ النّبوي نصيبٌ كبير ؛ إذْ كانَ لها كبيرُ الأثرِ في علْم الحديثِ بين نساءِ عَصْرها ومِصْرها.

التّلميْذَةُ النَّجيبَةُ:

* يظهرُ لنا من خلالِ سيرةِ هذه العالِمة الجليلةِ فاطمة الحرازيّة ، أنَّها قد تلقّتْ مسموعاتها الحديثيّة على أقاربها ، فهي قد نشأَتْ ـ كما قُلْنَا ـ وسطَ أسرةٍ علميّة مرموقةٍ ، بل إنّ أسرتَها منْ أئمةِ العُلماء والفُقهاء.

---

(١) شذرات الذهب (٨/ ٣٥٠ و٣٥١).

* ولعلّ أكبرَ أثرٍ في حياةِ فاطمةَ العلميّة كان من أبيها الذي جعلَ همُّه في تنشئةِ أبنائِهِ علىٰ مائدةِ العِلْم.

* وتذكُرُ المصادرُ أنَّ فاطمةَ الحرازيّةَ قد سمعتْ من إمامِ المقامِ رضي الله إبراهيم بن محمد الطّبري[1] الكُتُبَ السِّتَّةَ خلا سُننِ ابن ماجه؛ كما سمعتْ عليه كُتُباً أخرى كثيرة، وهذا العالِمُ الإمامُ هو جدُّ فاطمة لأُمِّها.

* كما أنَّ فاطمةَ حضرتْ على أخي جدّها لأُمِّها صفي الدِّين أحمد بن محمد بن إبراهيم الطَّبريّ المتوفىٰ في سنة (٧١٤ هـ)، وكانت في سنٍّ صغيرة.

* كما تذكرُ المصادرُ أنَّه قد أجازَ لها من مكّةَ المكرمةِ ثلةٌ منَ العُلماء المشَاهير؛ فقد أجازَ لها فخرُ الدِّين أبو عمرو عثمان بن محمّد بن عثمان التّوزريّ[2] الحافظُ المالكيُّ نزيل مكّة المجاور، قرأَ ما لا يُوصف كثرة، ثم جاورَ للعبادةِ مدّة، وكان قد تلا بالسَّبعِ، وتوفي بمكَّةَ المكرمةِ في شهر ربيعِ الآخر سنة (٧١٣ هـ)، وله (٨٣ سنة).

* كما أجازَ لها الشّيخُ المسند أبو بكر أحمد بنُ محمد بن أبي القاسم الدّشتيّ المؤدّب الحنبليّ المتوفىٰ بدمشق سنة (٧١٣ هـ) عن ثمانين سنة.

* وأجازَ لها مقرئُ مكّةَ المكرمةِ عفيفُ الدِّين عبدُ الله بن عبد الحق الدّلاصيّ المتوفىٰ سنة (٧٢١ هـ).

* وأجازَ لها كذلك مسندُ الوقتِ شرفُ الدِّين عيسىٰ بنُ عبد الرّحمن بن

---

(١) أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ محمّد بنِ إبراهيم الطّبريّ المكيّ الشّافعي، شيخُ الإسلام وإمامُ المقام، كانَ صاحبَ حديثٍ وفقهٍ وإخلاصٍ وتألُّه، روىٰ عن عدّة منَ العُلماء وأجازَ له السّخاوي وغيره، وتفرّد بأشياءَ، وتوفي بمكةَ في ربيعِ الأول سنة (٧٢٢ هـ)، وله (٨٦ سنة). (شذرات الذّهب ٨/ ١٠٣).

(٢) «التّوزريّ»: توزر: مدينة بإفريقية.

معالي الصَّالحي المتوفى سنة (٧١٩ هـ).

* في هذه المدرسةِ العلميّةِ ، وعلى أيدي هؤلاء العُلماء الأفذاذِ تخرّجَتْ فاطمةُ الحرازيّة ، وغدَتْ واحدة من عالماتِ عَصْرها.

الأُسْتَاذَةُ الكَبِيرَةُ:

* كانت فاطمةُ الحرازيّةُ واحدةً ممن أكرَمها اللهُ عزَّ وجلَّ بهذا العِلْمِ ، فقامَتْ بأداءِ ما تحمَّلَتْهُ ، وتصدَّرَتْ للتّحديثِ حيث كثُرَ الرّاغبون من طلبةِ الحديثِ ، وكثُرَ السَّامعون عليها ، وكذلك المستجيزون منها ، وخصوصاً بعد أنْ عُمّرَتْ ، وغدتْ مسندةَ مكّةَ المكرمةِ.

* ولكي تكملَ فاطمةُ المسيرةَ العلميّة الحديثية ، أخذت توسِّعُ دائرة تحديثها ، فلمْ تكنْ جهودُهَا في نشْرِ الحديثِ وعلومهِ مقتصرةً على أمِّ القُرىٰ مكّة مولدها ومهوىٰ فؤادِها وأفئدةِ المؤمنين ، وإنّما حدَّثَتْ في المدينةِ المنوّرةِ التي كانت تزورُهَا في بعضِ الأحايين والأوقات ، حتى إنَّ وفاتها كانتْ في المدينةِ المنوّرةِ كما سنرىٰ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ.

* وقد أخذَ عن فاطمةَ الحرازيّةِ وتتلمَذَ عليها عددٌ من أكابرِ العُلماء وأعيانِهم في عَصْرِها ، ومن أبرزِهم: ابنُ سكّر ، وأبو زُرعة العِراقي ، والتّقيّ الفاسيّ ، والقاضي ابنُ الطّرابلسيّ ، وكان أكثرُ الآخذين عنها من البلدِ الحرَام.

* كما أنّ كثيراً منَ الآخذين عنها كانُوا من أقاربها ، من مثلِ أحفادِها ، وبناتِ أخيها.

* فمن أحفادها: حفيدُها محمدُ بنُ عليّ بن أحمد النّويري المكيّ الشّافعيّ، المتوفى سنة (٨٣٢ هـ) ، سمع بمكّةَ على جدّته فاطمةَ الحرازيةِ.

* ومن حفيداتها: أُمُّ الحسين بنتُ محمّد بن عبد الكريم بن ظهيرة

القرشيّ ، سمعت من جدّتها لأُمِّها فاطمة في سنة (٧٦٢ هـ) ، ولم تُعرفْ سنةُ وفاتها.

* وكذلك كماليّةُ بنتُ محمّد بن أحمد الحرازي المُتوفاة سنة (٨٤٩ هـ) ، سمعت بمكَّة على عمتِها فاطمة بعض مصابيح السُّنَّة للبغوي.

* وتذكرُ سيرةُ فاطمةَ الحرازية بأنَّها أجازَتْ عدداً منَ العُلماء منهم: القاضي عبدُ الرحيم بن محمّد بن أبي بكر الطّرابلسيّ الشّهير بابن الطّرابلسي المتوفىٰ سنة (٨٤١ هـ)، وكان هذا القاضي من أصحابِ ابن حجر العَسْقَلاني.

مـنْ أَخْـبـارِ فَاطِمَـةَ:

* لعلَّ الذي يهمّنا من أخبارِ فاطمة الحرازية هو تنشئةُ أولادِها على حبِّ الحديثِ وطلبهِ ، وحبِّ العِلْمِ والسَّعي وراءه.

* وقد تزوَّجَتْ فاطمةُ أكثرَ من مرّة ، فقد تزوَّجَتْ من محمّد بنِ يوسُف الزَّرَنْدي المدنيّ الحنفيّ ، كان عالماً جليلَ القَدْرِ ، وُلدَ سنة (٦٩٣ هـ) ، وهو أحدُ العلماءِ الذين اشتغلُوا بالعِلْم والحديثِ ، وصنَّف كتُباً عديدةً ، ودرسَ في الفقْهِ والحديث ، ورحلَ إلى شيراز ، فوليَ القضاءَ بها حتّى مات سنة (٧٤٨ هـ)[1].

* وقد أسفرَ هذا الزَّواج عن إنجابِ ولدٍ اسمُه عبد اللطيف بن محمّد الحنفيّ سراج الدِّين ويكنى أبا أحمد ، كان عفيفاً فاضلاً ، رأسَ بعد والدِه ، وسمعَ من الجمَالِ المطريّ تاريخَ المدينةِ له ، وحدَّثَ به ، وتوفيَ عبد اللطيف هذا في سنة (٨١٧ هـ).

* ويذكرون أيضاً بأنَّه كانَ لفاطمةَ ابنُ آخر يسمّىٰ عبدَ اللطيف أيضاً ،

---

(١) الدرر الكامنة (٤/ ٢٩٥ و٢٩٦) بتصرف يسير.

وقد اشتغلَ بالعِلْمِ قليلاً ، إلا أنَّه لم يشتهرْ كأخيهِ ، وماتَ ولم تُعْرَفْ سنةُ وفاتِهِ(١) .

* ولفاطمةَ الحرازية ابنةٌ اسمُها: أمّ كلثوم ، تزوَّجها محمد بنُ عبد الكريم بن ظهيرة ، وأنجبَتْ منه ابنتَيْن هما : أمُّ الحُسَين ، وأمُّ الخَير .

* وتزوَّجَتْ حفيدتها أمّ الحسين أحدَ علماءِ عَصْرها ، ويُدعى : ظهيرة بن حُسين بن علي بن أحمد بن عطيّة بن ظهيرة القرشيّ المخزوميّ المكّيّ المولود سنة (٧٤٥ هـ) ، وقد سمعَ بمكّةَ من العزّ بنِ جماعة وغيره ، وروىٰ عن غيرِه ، وأخذ عنه الحافظ ابن حجر؛ وكان ظهيرةُ وزوجتُه أُمّ الحسين قد عَرَفا مكانة فاطمة الحرازيّة جدّة أمّ الحسين ، فقدَّما لها خدمةً عِرفاناً بحقّها ، ومعرفةً لِقَدْرِها ومكانتِها الحديثيّة في الحرمَيْن الشَّريفَيْن ، وتوفي طهيرةُ هذا بمكّةَ ليلة العاشر من صفر سنة (٨١٩ هـ)(٢) .

* وأمّا فاطمةُ الحرازيّةُ ، فإنَّها بعد وفاةِ زوجها محمد بن يوسُف الزّرَنْدي، تزوَّجَتْ من عالمٍ شهير هو شهابُ الدِّين أحمدُ بنُ محمد بن محمد الطَّبريّ القاضي المكّي الشَّافعي من بيت العِلْمِ والقضاء والرّئاسةِ والحديثِ ، وليَ قضاءَ مكَّة وهو شابٌّ بعد أبيه ، ووليَ الخطابة ، وحدَّثَ بالمدرسةِ المجاهديّة ، والمدرسةِ المنصوريّةِ بمكّةَ ، وسمع من الأجلاءِ ، وسمعَ منه غيرُ واحدٍ من شيوخِ ابن حجر، وتوفي زوجُها هذا سنة (٧٦٠ هـ)(٣) .

* وقد أنجبتْ فاطمةُ من زوجِها هذا ولدها نجم الدِّين محمد بن أحمد

---

(١) انظر : التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة (٢/ ٧٣) .
(٢) انظر : شذرات الذهب (٩/ ٢٠٠) ، والضوء اللامع (٤/ ٢٥) مع الجمع والتصرف .
(٣) شذرات الذهب (٨/ ٣٢٤) ، والعقد الثمين (٣/ ١٦١ ـ ١٦٦) .

الطَّبريّ ، الذي خلَفَ أباه في التَّدريسِ بالمدرستَيْن المذكورتَيْن بمكّة ، وكان له أيضاً اشتغالٌ بالحديثِ النّبوي الشَّريف[٢] . وتوفيَ سنة (٧٦٥ هـ) .

* وقد ربَّتْ فاطمةُ أولادَها تربيةً صالحةً ، فكانُوا من أعلام عَصْرهم ، وكان غذاؤهم الحديثيّ منها غذاءً للألباب ، جعلهم منْ سادةِ العُلماء وعلماء السَّادة ، وهكذا فلتكُن النِّساء؛ فهي بحقّ قدوةٌ صالحةٌ ، وأمٌّ فاضلةٌ ، لم يشغَلْها زوجٌ أو ولدٌ عن تحصيلِ العِلْمِ وطلبهِ ، ولم تتركْ أولادَها هَملاً أيضاً بل رعتهم حقَّ الرِّعاية ، فحملُوا رايةَ التَّحديث ، وكانوا ذريّةً صالحةً نافعةً .

وفَـاتُهَـا والـثَّـنَاءُ عَليْهَـا :

* أمضتْ فاطمةُ الحرازيّةُ عمرها بينَ العِلْمِ وطلبهِ ، وبين تلقّيهِ عن العلماءِ ، وكانت حياتُها زاخرةً بالعَطاءِ ، فقد استفادَتْ وأفادَتْ ، ولم تتركْ أوقاتَها تمرُّ دونَ أنْ تلتقطَ فائدةً ، أو تقيّدَ علماً ، وعاشتْ حتى أربتْ عن السَّبعين .

* أمّا عن وفاتِها ، فتذكرُ المصادرُ أنَّها توفيتْ في واحدةٍ من زياراتها إلى المدينةِ المنوّرةِ ، فقد حدَثَ أنْ زارتِ المدينةَ وجاورَتْ هناك ، وذلك في أخرياتِ حياتِها ، فوافَتْها المنيّةُ في شوّالَ سنة (٧٨٣ هـ) عن عمر يقتربُ من (٧٣ عاماً) ، قضَتْه في طاعةِ اللهِ تعالى ، وفي العملِ الصَّالحِ الدّؤوبِ ، وطلبِ العلْم ، وتربيةِ أولادِها وأحفادِها وذويها على حبِّ اللهِ وكتابهِ ، وعلى حبِّ رسولِه وسُنَّتِه ، ولم تتوقّفْ عن طلبِ العلْم ، أو تبليغهِ طيلةَ حياتِها حتى لقيت ربَّها ، ودُفنَتْ في البقيع .

* وقد أثنى عليها أبو زُرعة تلميذُها فقال: «عُمّرَت وصارتْ مسندةَ

مكّة ، وهي من أهلِ الخيرِ والدّين والصَّلاح ، وأكثرت من السَّماع»[1].

* وقد أثنى على فاطمةَ كلُّ مَنْ ترجمَ لها ، ووصفَها بالخيرِ والصَّلاح ، وأنَّها مسندةُ مكّة ، ومحدّثة فاضلة.

* فرحمَ الله فاطمةَ الحرازية ، وأكثرَ في نساءِ المسلمين مثْلَها ، وجعلَها في مستقرّ رحمته ، وغفرَ لنا جميعاً ، إنَّه سميعٌ مجيب.

* * *

---

(١) شذرات الذهب (٨/ ٤٨٣) ، والدرر الكامنة (٣/ ٢٢١) ، وأعلام النساء (٤/ ٢٩) وغيرها.

فاطمة بنت الأقرع

* اشتهرت بجودة الخط وحُسْنه؛ على طريقة ابن البوّاب.
* واحدة من نوادر نساء عصرها ومِصْرها علماً، وأدباً، ومعرفة، وسعة اطلاع. مع الذكاء، والحصافة، وحدة الخاطر، وجمال النوادر، والتحديث، والحفظ.

الـخَطَّـاطَـةُ المَاهِـرَةُ:

* ما ظنُّـك ـ عزيزي القارىء ـ بامرأةٍ اشتُهِرتْ بجمالِ الخطّ وحسنِـهِ في دنيا نساءِ المشرقِ العربيّ فـي الـقرنِ الهجريِّ الخامس؟ وإذا أخَذَتِ الـقَلَمَ لتكتبَ على الـقرطاسِ ، خِلْتَ يمينها تـنضّدُ الجواهـرَ والـدُّررَ؟! .

* ومنَ الطّبيعي أنْ تشتهرَ المرأةُ بالفقْهِ والعِلْمِ والأدبِ والشِّعر؛ أمّا أنْ تتفوّقَ في الكتابةِ وجودَةِ الخطّ ، فذاكَ شيءٌ جميلٌ ، يزيدُ منْ رصيدِ نساءِ العربِ في مشرقهم في مجالِ هذا الفنّ البديعِ الجميلِ والرَّفيعِ .

* وامرأةُ هذهِ الصَّفحاتِ من نساءِ العربِ اللواتي اشتهرنَ بجودَةِ الخطّ وحسنهِ ، فقد انبثقَتْ من بينِ أنامِلها أجملُ آياتِ الخطّ العربيّ وصُوَرِه في التَّاريخ النَّسوي المشرقيّ، حيثُ ألبستِ الحروفَ العربـيّةَ الحللَ الجماليّةَ ، فسحَرتْ أعينَ النَّاظرين ، ومتذوّقي هذا الفنّ اللطيف ، الذي اختصَ اللهُ به فئةً قليلةً جدّاً منَ النَّاس في كلّ زمان ومكان؛ وكان سادتُه ـ علىٰ الأغلب ـ جماعةُ الرّجالِ ، ولم تَسُدْ فيه جماعةُ النِّساء إلاّ في حالاتٍ نادرة وقليلة .

* وأمّا هذهِ المرأةُ فكانَ يُضْرَبُ بخطّها المثَلُ في الحُسْنِ ، فهو كأنّه روضٌ ممطور ، أو لؤلؤٌ منثور ، وقد لازمَ جمالُ الخطّ أنامِلَها الخمس ، وانقطعَ لخدمها علانيةً وفي الهَمْس ، وأسَال قلمُها دمعَهُ على الورقِ ، فجاء ببدائعَ لا يجودُ الزّمان بمثلها ، و . . .

ذَوقٌ رفيــعٌ وخَــطٌ رائــعٌ ويَــدٌ　　　مَــا أَمْسَكَــتْ قَلمــاً إلاّ لإبْـدَاعِ(١)

---

(١) إنَّ حسنَ الخطّ وجمالَهُ نعمةٌ من اللهِ عزَّ وجلَّ؛ يروىٰ أنَّ الحسنَ بنَ رجاء نظرَ إلى خطٍّ حسَنٍ فقال: «مُتنزَّه الألحاظ ، ومُجتنى الألفاظ ، فلانٌ فصيحُ القلمِ» .

* والكاتبةُ الخطّاطةُ التي نحفلُ بسيرتها مشهورةٌ ببنت الأقرعِ؛ واسمُها: فاطمةُ بنتُ الحسنِ بن عليّ الأقرع[1]؛ وكنيتُها: أمُّ الفَضْلِ، إحدىٰ فواضلِ نساءِ الدّنيا اللائي توشحْنَ بفنونِ الأدبِ، وتحلّيْنَ بحلاه، وتسلحْنَ بالسَّجايا الحِسَان، والخلالِ الكريمةِ؛ وإحدىٰ القارئاتِ الكاتباتِ من ذواتِ الخطّ المليحِ الحسن الأنيقِ، الذي خلَّدها وخلّدته في دُنيا المرأةِ؛ ودنيا نساء المشرقِ العربيّ.

* وقد تبارىٰ الأدباءُ والبلغاءُ في وصفِ النّساء الخطّاطات، من ذلكَ ما حدَّثَ بهِ محمّدُ بنُ إبراهيم الأنصاريّ قال: وصفَ أحمدُ بنُ صالح جاريةً كاتبةً فقال: «كأنَّ خطَّها أشكالُ صورتها، وكأنَّ مدادَهَا سوادُ شَعْرِها، وكأنَّ قرطاسَها أديمُ وجهِها، وكأنَّ قلَمها بعضُ أناملِها، وكأنَّ بيانَها سِحْرُ مقلتِها، وكأنَّ سِكّيْنَها سيفُ ألحاظِها، وكأنَّ مِقَطَّها قلبُ عاشقِها»[2].

* وأمَّا الشعراءُ فقد بلغُوا السُّهَا في هذا المضمارِ، فقد قالَ العبّاسُ بنُ الأحنفِ فيمن جوَّدَتْ خطَّها:

أَهدتْ إِليَّ صَحيفةً مخْتُومةً ... نفْسِي الفِداءُ لخطِّ ذاكَ الكاتبِ
ففكَكْتُها فقَرأْتُ مَا قَدْ حبَّرَتْ ... فَإِذا مقَالةُ مُستزيدٍ عَاتِبِ

* وقالَ الصَّاحبُ بنُ عبّاد:

---

(١) شذراتُ الذّهب (٥/ ٣٤٨)، ومعجمُ الأدباء (١٦/ ١٦٩ ـ ١٧٤)، والرَّوضةُ الفَيحاء (ص ٢٨٤)، ومرآةُ الجنان (٢/ ١٣٢)، وسيرُ أعلام النّبلاء (١٨/ ٤٨٠، ٤٨١)، والبدايةُ والنّهاية (١٢/ ١٣٤)، والكاملُ في التّاريخ (١٠/ ١٦٣)، وأعلام النّساء (٤/ ٤١، ٤٢)؛ وغيرها.

(٢) انظر: أدب الكُتّاب للصّولي (ص ٣٩ و٤٠) طبعة دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٤م؛ وانظر: محاضرات الأدباء (١/ ١٠١).

غَـــزَالٌ يفْتِـــنُ النَّـــاسَ   مَليــــحُ الخَـــدِّ والخَـــطِّ
فَهـــذَا النَّمـــلُ فـــي العَـــاجِ   وهَـــذا الـــدُّرُّ فـــي السِّمْـــطِ

* ونظرَ أحدُ الشُّعراء إلىٰ كاتبةٍ ذاتِ بنَانٍ جميلٍ قد زَانَه عنَمٌ ، وزادَ من جَمالهِ الحنّاءُ فقال:

أفدي البَنَانَ وحُسْنَ الخطِّ منْ عَنَمٍ   إِذَا تقمَّــصَ بـــالحِنَّـــاءِ فَـــالكَتـــمِ
كأَنَّما قابلَ القِرطاسُ مِنْ يدِهَا   شبْهــاً ثــلاثــة أقــلامٍ علــى قَلَــمِ

* ورأىٰ آخر خطّاً جميلاً خطَّتْه أناملُ حسناء فقال:

بخـــطِ كـــأنَّ اللهَ قـــالَ لحسْنِـــهِ   تشبَّهْ بمَنْ قَدْ خطَّكَ اليوم فائْتَمِرْ

* وسُئِلَ بعضُ الكُتَّاب عن الخطّ متىٰ يستحقُّ أنْ يُوصَفَ بالجودةِ فقال: «إذا اعتدلَتْ أقسامُه ، وطالَتْ أَلِفُهُ ولامُه[١] ، واستقامَتْ سطُوره ، وضَاهىٰ صعودُه حدوره ، وتفتّحت عيونُه ، ولم تشبهْ راءَه نُونُه ، وأشرقَ قِرطاسُه ، وأظلمتْ أنْقَاسُه ، ولم تختلفْ أجناسُه ، وأسرعَ إلى العيونِ تصوُّره ، وإلىٰ العقولِ ثمرُه ، وقُدِّرَتْ فصولُه ، واندمجَتْ وصولُه ، وتناسبَ رقيقُه وجليلُه ، وخرجَ عن نَمطِ الورَّاقين ، وبَعُدَ عن تصنُّع المحدرين ، وقامَ لكاتبه مقامَ النّسبة والحلْيَة»[٢] .

* ومن العجيب أنَّ الصُّوليَّ قد ذكَرَ في كتابهِ «أدب الكُتَّاب» أنَّ الأماثلَ والنُّبلاء كرهُوا تعليمَ النِّساء الخطّ ، ونَسَبَ ذلكَ لابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ فقال: «وقد كَرِهَ أهلُ النُّبْل منَ النَّاس ، وذوو الرّأي منهم أنْ يُعلّمَ

---

(١) تفنَّنَ الشّعراءُ في وصْفِ اللام والألف وعناقهما ، فقال أحدهم:
حكَـتْ قـامتـي لامـاً وقـامـةُ مُنيَتـي   حكَـتْ أَلِفـاً للـوصْـلِ قُلْـتُ مُسَـائـلا
إذا اجتَمعـتْ لامي مع الألـفِ التي   حكَتْـكَ قـوامـاً مـا تَصيـرُ فقـالَ لا
(٢) انظر: أدب الكتاب ص (٤١ و٤٢).

النّساء الخطّ[1] ، وجاء فيه النّهيُّ عن ابن عبّاس أنّه قال: لا تسكنُوا النّساءَ العَلالي ، ولا تعلموهُنَّ الكِتَابة»[2] .

* وهذا يخالفُ ما تعارفَ عليه الصَّحابةُ الكرام ، فقد كانتْ بعضُ نساء الصَّحابة يُحْسِنَّ الكتابةَ والقراءةَ؛ فقد ذكرَ صاحبُ كتابِ «التَّراتيب الإداريّة» إجماعَ السَّلَف على تعلُّم النِّساء الكتابةَ فقال: أوردَ القلقشنديّ: «كُنَّ جماعةً من النّساء يكتبْنَ ، ولم يرِدْ أنَّ أحداً منَ السَّلَفَ أنكر عليهنَّ ذلك»[3] .

* إذاً ، فالمعروفُ منْ سيرِ نساءِ السَّلفِ الصَّالح ، أنَّهنَّ حظينَ بِسَهْم وافرٍ من العِلْم والكتابةِ والتَّدريس[4] .

---

(١) منَ الجديرِ بالذّكْر أنّه كانَتْ بالأندلسِ في القَرنِ الرَّابع الهجريّ مئاتُ الخطّاطاتِ ، ومنهنّ عائشةُ بنتُ أحمدَ القُرطبيّة ، التي قالَ عنها ابنُ بشكوال في «الصِّلَة»: «كانت حسنَةَ الخطِّ ، تكتبُ المصاحفَ والدّفاترَ ، وتجمعُ الكتبَ وتعتني بالعِلْم ، ولها خزانةُ عِلْمٍ كبيرة حَسَنَة». (الصِّلة ٢/ ٦٩٢ و٦٩٣) بتصرف.
ـ كما ذكرَ عبدُ الواحد المراكشيّ: «أنّه كانَ بالرّبضِ الشّرقيّ في قرطبةَ سبعونَ ومئةُ امرأةٍ كلّهنَّ يكتبْنَ المصاحفَ بالخطّ الكوفي».

(٢) أدب الكُتّاب (ص ٤٢). ورَووا ـ زُوراً ـ أنَّ عمرَ بنَ الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ قالَ في حقّ النِّساء: «جنِّبوهنَّ الكتابةَ ، ولا تُسْكنوهُنَّ الغُرفَ ، واستعينُوا عَليهنَّ بِلاَ ، فإنَّ نعم تُضَرِّيهِنَّ في المسْألة». انظر: (صبح الأعشىٰ ١/ ٦٤) ، و(محاضرات الأدباء ١/ ٩٩).
ـ ورويَ أنَّ «دقنسَ الفيلسوفَ» قالَ وقد رأىٰ جَاريةً تتعلّمُ الكتابةَ: «تَسْقي سَهْمَها سُمّاً لترمِيْكَ به يوماً».
ـ وقيل: سمعَ جريرٌ شِعْراً ، فَسَألَ عن قائِله ، فقيل: امرأةُ فلان ، فقال: «إذا زقتِ الدَّجاجةُ زقاءَ الدِّيك فاذْبَحُوها».
ـ ولا يُلْتَفَتُ إلى هذهِ الأقوال وأشباهِها ، لأنَّ معظَمها عارٍ عنِ الصِّحّة.

(٣) التّراتيبُ الإداريّة للكتّاني نقلاً عن صُبح الأعشىٰ (١/ ٦٤).

(٤) روىٰ أبو جعفر النَّحّاس بسندِهِ إلى الحَسَنِ أنَّ عائشةَ أمَّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ؛ كانتْ تكتبُ في مُكاتباتِها بَعْدَ البَسْمَلةِ: «منَ المُبَرأةِ عائشةَ بنتِ أبي بكرٍ حبيبةِ حبيبِ اللهِ».
=

* فتعليمُ النِّساء الكتابةَ أمرٌ لا يحتاجُ إلى نقاش، ولا يُلْتفتُ إلىٰ ما روي ـ كَذِباً ـ عن سيِّدنا عليّ بن أبي طالب ـ رضوان الله عليه ـ أنَّه مرَّ على رجلٍ يعلِّمُ امرأةً الكتابةَ فقال: «أفعىٰ تُسْقَىٰ سُمّاً»[1].

* وأنشَدوا للبسّامي قوله:

مَــــا لِلنِّســـــاءِ ولِلكِتَـــــا ... بـــةِ والعِمَـــالَـــةِ وَالخَطـــابَـــهْ
هَـــــذَا لَنَــــا ولَهُــــنَّ مِنْـ ... ـنَــا أنْ يَبِتْـنَ علــىٰ جَنَــابَــهْ[2]

* وهذا مصطفىٰ الرّافعيّ الذي يرىٰ أنَّ البناتِ لم يُخْلَقْنَ للدَّرسِ والكتابةِ، وإنّما يتعلمنَ نَشْرَ الغَسيل، وخياطة الثّياب، ومَسْكَ الإبرةِ بدلاً عن القَلَم، يقولُ الرّافعيُّ:

يـا قَـوم لـمْ تُخْلَـقْ بنـاتُ الـورىٰ ... للــدَّرسِ والطّـرسِ وقَــالٍ وقيْـل
لنَــا عُلــومٌ وَلهَــا غيــرُهَــا ... فعلِّمــوهــا كيــفَ نَشْــر الغسيْـل
وَالثّــوبُ والإبْــرةُ فــي كَفِّهــا ... طِــرسٌ عليــهِ خــطٌّ جَميْـــل

* وقَبْلَه صَالَ المعريّ وجَالُ في الميدانِ نَفْسِهِ فقال: عَلّموهُنَّ الغَزْلَ

= ـ وحكىٰ جعفرُ بنُ سعيد أنَّه ذُكِرَ لعمرو بنِ مسعدةَ كاتبِ المأمون توقيعاتُ جعفر بن يحيىٰ فقال: «قرأتُ لأمِّ جعفرَ توقيعاتٍ في حواشي الكتُبِ وأسافِلِها، فوجدتُها أجْوَدَ اختصاراً وأجمعَ للمعَاني».

ـ وكتبَ عاملٌ لزبيدةَ ـ رحمها الله ـ كِتاباً، فوقّعَتْ على ظهرِه: «أنْ أصلحْ كتابَكَ وإلاّ صرفْنَاكَ عن عَمِلِكَ»، فتأمَّله، فلمْ يظهرْ له فيهِ شيءٌ، فعرضَه علىٰ بعض إخوانِهِ، فرأىٰ فيه في الدُّعاءِ لها: وأدامَ كرامتَكِ، فقال: «إنّها تخيّلَتْ أنّك دعوتَ عليها، فإنّ كرامةَ النّساءِ دفنُهنَّ»، فغيَّرَ ذلك وأعادَ الكتابَ إليها فقبلَتْه.

(١) صبح الأعشىٰ (١/ ٦٤).

(٢) انظر: محاضرات الأدباء (١/ ٩٩)، وصبح الأعشىٰ (١/ ٦٤)؛ وانظر كتاب: أستاذ المرأة لمحمد بن سالم البيحاني؛ مطبعة المدني ـ القاهرة ـ ط٣ ـ دون تاريخ.

وَالنَّسجَ والرّدْنَ وخَلُّوا كتابةً وقراءَهْ ، فَصَلاةُ الفَتَاةِ بالحَمْدِ وبالإخْلاصِ تَجْزي عن يُونُس وبَراءهْ.

* ولا يُلتفتُ إلى هذا كلّه ، فقد كانَ أكابرُ العلماءِ علىٰ مرِّ العصور يثقونَ بالمرأةِ الكاتبةِ المتعلّمةِ ، فهذه ستّ الرّكب بنتُ علي العسقلانيّة ، أختُ الحافظ ابن حجر كانت قارئةً كاتبةً وأعجوبةً في الذّكاء ، قال عنها أخوها: «تعلَّمَتِ الخطَّ ، وحفظتْ الكثيرَ من القُرآن ، وأكثرَتْ مطالعة الكتبُ فمهرتْ في ذلك جدّاً»[1].

* هذا وقد امتدحَ اللهُ عزَّ وجلَّ الكتابةَ ، وجعلَ كَتَبَةَ الملائكةِ كِراماً فقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢]؛ وقال عزَّ شأنُه أيضاً: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٥ ـ ١٦].

* وقد امتدحَ السَّلفُ الكتابةَ والخطَّ ، وأطنبُوا في ذلك ، وحثُّوا على تعلّمهما ، ولم يتركُوا شأواً لمادحٍ حتىٰ قال سعيدُ بنُ العاص: «مَنْ لم يكتبْ فيمينُه يُسْرىٰ».

ـ وقالَ معنُ بنُ زائدةَ الشَّيباني[2]: «إذا لم تكتبِ اليَدُ ، فهيَ رِجْلٌ».

ـ وقال المؤيّدُ: «الكتابةُ أشرفُ مناصبِ الدّنيا بعدَ الخلافةِ ، إليها ينتهي الفَضْل ، وعندها تقفُ الرَّغْبَةُ».

* ومن كلامِ أبي جعفر الفَضْلِ بنِ أحمد في جملة رسالة له في مدحِ

---

(١) اقرأ سيرة ست الركب العسقلانية في كتابنا «نساء من التاريخ» (ص ٣٦٥ ـ ٣٧٦) حيث تجد فوائد كثيرة بإذن الله.

(٢) اقرأ بتوسع سيرة معن بن زائدة في موسوعتنا المنوعة «فرسان من التاريخ» طبعة دار اليمامة بدمشق.

الكتابة والخطّ حيث يقول: «الكتابةُ أسسُ المُلْكِ ، وعمادُ المملكةِ ، وأغصانٌ متفرّقةٌ من شجرةٍ واحدة ، والكتابةُ قطبُ الأدبِ ، ومَلاكُ الحكمةِ ، ولسانٌ ناطقٌ بالفضلِ ، وميزانٌ يدلُّ على رجَاحةِ العَقْل. . . . والكتابةُ نورُ العِلْمِ ، وميدانُ الفَضْلِ والعَدْلِ ، والكتابةُ حليةٌ وزينةٌ ، وجمالٌ وهيبةٌ ، وأفضلُ درجة وأرفعُ منزلة. . . »[1].

ـ وقد أطالَ الشُّعراء والبلغاءُ في امتداحِ الكَتَبَةِ وأهلِ الخطّ ، فقال أحدهم:

مَـــا النَّـــاسُ إلّا الكَتَبَـــهْ ... هـــمْ فضَّـــةٌ فـــي ذَهَبَـــهْ
قَـــدْ أحْـــرزُوا دُنْيَـــاهُـــمُ ... بِشُعْبَـــةٍ مـــنْ قَصَبَـــهْ

* وقال الخَليلُ:

كتبْتُ بخَطّي مَا ترىٰ في دفَاتِري ... عَنِ النَّاسِ في عَصْري وفي كُلِّ غابرِ
وَلَـوْلاَ عَـزَائـي أنَّـهُ غَيـرُ خَـالـدٍ ... علىٰ الأرضِ لاستودعْتُه في المقابرِ

* وفي بقاءِ الخطّ بعد كاتبه قالَ بعضُ بلغاءِ الشّعراء:

ومَـا مـنْ كَـاتـبٍ إلّا ستَبْقـىٰ ... كِتَـابتُـه وإنْ فَنِيَـتْ يَـداهُ
فَـلا تكْتُـبْ بخطّـكَ غيـرَ شـيءٍ ... يَسُـرُّكَ فـي القيـامـةِ أنْ تـراهُ

* وهذا الميدانُ واسعٌ جدّاً في أدبنا ، وقد أوردْنَا منه ما يفي بالغَرضِ.

الأديبةُ النَّاثِرةُ:

* قالَ الشّاعرُ في عالماتِ وأديباتِ المشرقِ العربيّ:

بغْـــدادُ دار العَـــالِمـــا ... تِ ومَنْـــزِلُ المُتـــأدِّبـــات
ودمشـــــقُ دارُ أميّـــــة ... أمُّ الجَـــواري النَّـــابغَـــات
فحَضَـــارةُ الإسْـــلامِ تنـ ... ـطـقُ عَـنْ مكَـانِ المُسلمَـات

---

(1) انظر: صبح الأعشىٰ (1/ 37) بتصرف واختصار.

* فاطمةُ ابنةُ الحَسن بن عليّ الأقرع هذه؛ واحدةٌ من نوادرِ نساءِ عَصْرِها ومصرِها عِلْماً وأدباً ومعرفةً وسَعة اطّلاعٍ ، ويُضاف إلى ذلك كلّه أنّها كانت كاتبةً ماهرةً ، وخطّاطةً مبدعةً ، جوَّدَ النّاسُ على خطّها لبراعةِ حُسنه ، وكانت تكتبُ وتجوّدُ الخطَّ على طريقةِ ابنِ البّواب[1] الخطّاط المجوّد المشهور ، وفاقتْ نساء أهلِ زمانها في هذا المضمار الطّريفِ الجميلِ ، ورحلتْ إلى بلاد الجَبلِ إلى العميدِ أبي نصر الكندريّ[2] ، وكان منَ

---

(١) «ابنُ البوّاب»: عليُّ بنُ هلال أبو الحَسن بنُ البوّاب صاحبُ الخطّ المنسوب ، كتبَ علىٰ محمّد بنِ أسد ، وأخذَ العربيَّة عن ابن جنّي ، وكانَ في شبابهِ مُزوِّقاً دهّاناً في السُّقوف ، ثم صار يذهِّبُ الخِتَمَ وغيرهَا ، فبرعَ في ذلك ، ثم عُنيَ بالكتابةِ ، ففاقَ فيها الأوائلَ والأواخرَ ، ووعظَ وعبَّر الرُّؤيا ، وقالَ النَّظمَ والنّثْرَ ، ونادم فَخْرَ المُلْكِ أبا غَالِبِ الوزير ، ولم يعرفِ الناسُ قَدْرَ خطِّهِ إلاّ بعد موتِهِ ، لأنّه كتَبَ ورقةً إلىٰ كبيرٍ يشفعُ له فيها في مساعدةِ إنسانٍ بشيءٍ لا يساوي دينارَيْن ، وقد بسطَ القولَ فيها ، فلمّا كان بعد موتهِ بمدّة ، بِيْعَتْ تلكَ الورقة بسبعةَ عشَر ديناراً. توفي ابنُ البوّاب في جماديٰ الأوليٰ سنة (٤١٣ هـ) ، ودفُنَ إلى جوار الإمام أحمدَ بنِ حنبل رحمه الله.

(٢) «الكندريّ»: أبو نَصرٍ محمدُ بنُ منصور بنِ محمّد الملقّب: عميد الملك الكندريّ ، كانَ منْ رجالِ الدَّهر جُوداً وسخاءً وكتابةً وشهامةً ، استوزرَهُ السُّلطان طغْرل بك السّلجوقي ، ونالَ عنده الرّتْبَةَ العالية ، والمنزلةَ الجليلةَ ، وهو أوّلُ وزيرٍ كان لهذهِ الدَّولة ، وصحبَ إمامَ الحرمَيْن أبا المعالي عبدَ الملك الجُويني. وكانَ عميدُ المُلك ممدّحاً مقْصِداً للشُّعراء ، مدحَه جماعةٌ من أكابرِ شعراءِ عَصْره؛ منهم: أبو الحسن عليُّ بنُ الحَسَن الباخرزيّ ، وصرَّدرّ أبو منصور عليّ بنُ الحسن الكاتبُ والشّاعرُ المعروفُ ، حيث مدحه بقصيدة نونيّة طويلةٍ مطلعُها:

أكــذا يُجــازَىٰ ودُّ كُــلِّ قــريــن ... أمْ هــذهِ شِيَــمُ الظِّبــاءِ العِيْــنِ

وختمها بقوله:

شَهِــدتْ عــلاهُ أنَّ عنصُــرَ ذاتِــهِ ... مسْــكٌ وعنصــرَ غيــره مــنْ طيــنِ

قُتِلَ الكندري سنة (٤٥٦ هـ) وعمره نيفٌ وأربعون سنة. (وفيات الأعيان ٥/ ١٣٨ ـ ١٤٣).

المشهورين بجودةِ الخط ، فأُعجبَ وتعجَّبَ من حُسْنِ خطّها ، وبلاغةِ معانيها ، فأعطَاها عندئذ ألف دينار(١) .

* وطارت شهرةُ فاطمةَ بنتِ الأقرع في الآفاق ، وفي هذا الميدانِ الأنيق ، وكتبُوا على منوالِ خطِّها ، واقتفوا آثارَها في هذا الفنّ الجميل ، وكأنَّ الشاعر قد عنىٰ خطّها بقوله :

خَـطٌّ مليـحٌ كـأَنَّ اللهَ أنْشَـأَهُ ... لـمْ يَحْكِـهِ كَـاتـبٌ يـومـاً وَلاَ قَلَـمُ
سُطُورُهُ زَهْرُ طُلاّبِ علىٰ شَجرٍ ... حـروفُـه دُرَرٌ فـي السِّمْـط تنتظـمُ

* وقول الآخر :

مُستـودعٌ قِـرطـاسُـهُ حِكَمـاً ... كـالـرَّوضِ ميّـزَ بينـه زهـرُهْ
وكَـأنَّ أحـرفَ خَطّـهِ شَجَـرٌ ... والشَّكْـلَ فـي أضعـافِهـا ثَمـرُهْ(٢)

---

(١) البداية والنّهاية (١١/ ١٣٤). وقال أبو بكر محمّد بنُ عبد الباقي بن محمد البزّاز العروضي : «سمعتُ الكاتبةَ بنتَ الأقرع تقولُ : كتبتُ ورقةً لعميد الملك أبي نصر الكندريّ ، وأعطاني ألفَ دينار» . (معجم الأدباء ١٦/ ١٧٢) .

(٢) انظر : أدب الكُتّاب للصولي (ص ٤٠) . ومنَ الطَّرائف التي تُستَحلىٰ فتُستَجلى أنّني كنتُ منذُ سنواتٍ خَلَتْ في مدينة الرّياضِ بالسّعوديّةِ ، وعرفْتَ هناكَ أحدَ الخطّاطينَ البارعين من مدينةِ الإسكندريّة بمصرَ ، ويُدعىٰ : محمّد محمود رُطيل ، وكانَ ذا أدَبٍ وكَرَمِ أخْلاقٍ ، هادىءَ الطّبع ، لطيفَ المَعْشَر ، كريمَ اليدِ ، مِضْيافاً ، يهوىٰ الأدبَ والأُدباء ، خفيفَ الظِّلّ ، يجيدُ النّكتة ، وخُصوصاً في الحَماةِ ، وإذا ما سلَّمَ علىٰ أحدٍ منَ الأصدقاءِ سأَله بدعابةٍ : كيفَ حماتُك؟! وقد حَباه اللهُ ريشةً جميلةً ، فكانَ خطّاطاً بارعاً ، وصادفَ أنْ قدّم لي دفتراً أكتبُ له بعضَ نثري وشِعْري ، فأذكرُ أنّني كتبتُ له هذَيْن البيتَيْن :

خَطَّـتْ أنـامِلُـهُ بـدائـعَ لَفْظِنَـا ... فكَـأنَّهـا مـنْ حُسْنِهـا تتكلَّـمُ
وأجَـادَ فـي مَشْـقِ الخطـوطِ جميعِهـا ... فقـدودُهَـا ميّـاسَـةٌ تتـرنّـمُ

ـ كما أنّني كنتُ أداعبُ في دمشقَ صديقي الخطّاط المفنَّ البارعَ صاحبَ الرّيشة السَّاحرة ، والخطّ المتميز الجميل أميرَ الخطّ : محمد غياث الدّين الكَيْلاني ، كنتُ أداعبُهُ بقصيدةٍ مطلعُها : =

* ولهذا فعندما ترجمَ لها ياقوتُ الحمويّ في «مُعْجَمه» نعتَها بحسنِ الخطِّ وملاحتِهِ فقال: «فاطمةُ بنتُ الحسن بن عليّ أمُّ الفَضْل المعروفة ببنت الأقرع ، الكاتبةُ صاحبةُ الخطّ المليح المعروف»[1].

* وقال ابنُ الأثير في «كامِله»: فاطمةُ بنتُ علي المؤدّب المعروفةُ ببنتِ الأقرع ، الكاتبةُ ، كانتْ من أحسنِ النّاس خطّاً على طريقةِ ابن البوّاب»[2].

* وقال السَّمعاني: «وكانَ لها خطٌّ مليحٌ حَسَنٌ ، وهي التي أُهِّلَتْ لكتابةِ كتابِ الهُدنةِ إلى مَلِكِ الرُّوم من الدِّيوان العزيز ، وسافرتْ إلى بلادِ الجبل إلى العميدِ أبي نصر الكندريّ ، وكتبَ النّاس على خطّها ، وكانت تكتبُ على طريقة ابن البوّاب»[3].

* وقال ابنُ كثير في «بدايته»: «فاطمةُ المؤدّبةُ الكاتبةُ ، وتُعرفُ ببنتِ الأقرع ، تكتبُ المنسوب علىٰ طريقةِ ابن البوّاب ، ويكتبُ النّاس عليها ، وبخطّها كانتِ الهدنةُ منَ الدّيوان إلى مَلكِ الرُّوم»[4].

* وقال عمرُ رضا كحّالة: «فاطمةُ بنتُ الحسن بن علي الأقرع ، كاتبةٌ منْ أحسنِ النَّاس خطّاً على طريقةِ ابن البوّاب»[5].

* وقبله بقرونٍ كثيرة قال الذّهبيّ ـ رحمه الله ـ في ترجمتها ، وأنَّ المثلَ

= كَيْـلانـي مَهـلاً كَيْـلانـي فـي فَنِّـكَ مـا لَـكَ مـنْ ثَـانـي
فـي خطِّـك فـنٌّ بـل أَلَـقٌ فـاكتـبْ هـذا بـالـدِّيـوانـي

(١) معجم الأدباء لياقوت الحموي (١٦/ ١٧١ و١٧٢).
(٢) الكامل (١٠/ ١٦٣)؛ وقال ابن الجوزي في المنتظم: «وكان خطّها مستحسناً في الغاية».
(٣) معجم الأدباء (١٦/ ١٧٢).
(٤) البداية والنهاية (١١/ ١٣٤).
(٥) أعلام النساء (٤/ ٤١).

كان يُضرب بحسن خطّها: «جوَّد الناسُ على خطّها لبراعةِ حُسْنه ، وهي التي نُدبتْ لكتابةِ الهدنةِ إلى طاغيةِ الرُّوم من جهةِ الخلافةِ ، وبكتابها يُضْربُ المثَل»[1].

* وفي «شَذَراته» قال ابنُ العماد الحنبليّ: «فاطمةُ بنتُ الحسن بن علي الأقرع ، أمُّ الفضل ، البغداديّة ، الكاتبة ، التي جوّدوا على خطّها ، وكانت تنقلُ على طريقةِ ابن البوّاب»[2].

* وقال العمريُّ في «روضته»: عن فاطمةَ بنتِ الأقرع: «كانت أجودَ أهلِ زمانها بالأدبِ والفَضْل ، وكانت حسنةَ الخطّ في الغايةِ مع سرعةِ الكتابةِ وفرطِ صحّته»[3].

* وهكذا كانت فاطمةُ بنتُ الأقرع أديبةً أريبةً فاضلةً مليحةَ الخطّ ، صحيحةَ الضَّبْط ، قضَتْ شطراً من حياتِها بين إجادةِ الخطِّ وتعلُّم الأدبِ ، حتىٰ بلغتِ السُّها بين نساءِ المشرقِ العربي ، وكأنَّ قولَ الخطَّاط المِصْريّ الشّهير «سيّد إبراهيم» ينطبقُ على حياتِها عندما يقول:

قَضَيتُ زهْرةَ عُمْريْ ... مَا بينَ خَطٍّ وشِعْرِ
هذا يفرّجُ هَمّي ... وذاكَ يسَّرَ أَمْرِي[4]

الشَّاعِرَةُ الحَصيفَةُ:

* في ميدانِ الأدبِ والشّعرِ وفنّ الكلمةِ ، كان لفاطمةَ ابنةِ الأقرع جولاتٌ باهراتٌ أظهرتْ خلالَها براعتَها ومقدرتَها الأدبيّةَ واللغويّةَ.

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٨٠).
(٢) شذرات الذهب(٥/ ٣٤٨).
(٣) الروضة الفيحاء في تواريخ النساء (ص ٢٨٤).
(٤) ولد سيد إبراهيم سنة (١٨٩٧م) بمصر وتوفي سنة (١٩٩٤م) وكان خطاطاً وشاعراً.

* فهي في علمِ التَّاريخ كانتْ واحدةً منَ النّساء اللائي تضلعْنَّ في قراءتهِ ، والتّبحّر به ، ومعرفةِ أصولِه ، حيث كان لها الاطلاع التّام في ذلك .

* أمّا الشّعْرُ وفنونُه ، وروايتهُ وحفظُه ، فكانت فيه من المجليات ، تحفظُ كثيراً من أشعارِ العرب ، ومن محفوظاتِها الشِّعْرية ، ما ذكره أبو القاسم إسماعيلُ بنُ أحمد بن عمر الحافظ الأشعبيّ قال : «أنشدتنا الكاتبة أمُّ الفضل فاطمةُ بنتُ الحسن بن علي المقرىء ، قالت : أنشدنا أبو القاسم المُطَرِّزُ في دارِنا بقطيعة الرَّبيع لنفسه :

سَرَى مُغْرماً بالعِيْشِ ينْتَجعُ الرَّكْبَا ... يسائِلُ عَنْ بَدرِ الدُّجىٰ الشَّرقَ والغَربا
إذَا مـلأَ البـدرُ العُيـونَ فعنـدهُ ... لعَيْنِـك بـدرٌ يمـلأُ العَيـنَ والقَلْبـا
ولمّـا هَـوىٰ دَمْعِـي لِيَـومِ فِـراقِـهِ ... عقيقـاً تَهَـاوىٰ دمْعُـه لُـؤلُـؤاً رطْبـا
إذا لـمْ تُبلّغْنِـي إليكُـمْ ركَـائِبـي ... فلاَ ورَدَتْ ماءً ولاَ رعَتِ العُشْبَا[1]

* ولعلَّ لها كثيراً من المحفوظاتِ الشِّعريّةِ قد وردت في كتبِ الأدبِ والتَّراجم ؛ إلاّ أنّه لم يَصِلْ إلينا شيءٌ منها .

* أمّا ذكاؤُها وحصافتُها ، وحدّةُ خاطرِها ، وحرارةُ نوادرِها ، فآيةٌ منْ آياتِ فاطرِها ، وكانت في نساءِ أهل زمانِها ، واحدةَ أقرانِها ، حضور شَاهد[2] ، فقد كانت خفيفةَ الظّلّ ، حاضرةَ الجواب ، سريعةَ الخاطرة .

* أوردَ العمريُّ قصّةً جميلةً تدلُّ على ما ذكرناه من صفاتِها فقال : «حُكيَ أنَّ رجُلاً سائِلاً أتىٰ دارَ فاطمةَ بنت الحسن يسألُها شيئاً يستعينُ به

(١) معجم الأدباء (١٦/ ١٧٣ و١٧٤) .
(٢) هذه الفقرات مقتبسة من كتاب «الذّخيرة» لابن بسّام (١/ ٢٦٨) .

على البردِ في يومٍ شديد البردِ ، وذكَّرها أنّه كثيرُ التّهجُّدِ بالليلِ ، وقد رمدتْ عيناهُ من السَّهر.

فقالت له: بِمَ تداوي عينيك؟

قال: بالعبادةِ ، والصَّوم ، والدّعاءِ.

فقالت له: لو خلطْتَ الثَّلاثَـةَ بالمثلثةِ مع قليلِ أنزروت لكان أسرعَ بالإجابة.

فقال لها: وما المثلّثة؟

قالت: النّوم ، والرّاحة ، وعدم السّؤال.

فولّىٰ الرجل وهو يقول: لا أفلحَ سائلٌ سألَ سائِلاً»[1].

البليغَة الكَاتبَةُ:

* في مجالِ الكتابةِ والبلاغةِ والنَّثْر ، كانت فاطمةُ بنتُ الأقرع آيةً من آياتِ الإعجاز ، ولها بضاعةٌ في الأدبِ صالحةً ، وفصاحةٌ وبلاغةٌ؛ وحسنُ خطاب.

- ذكرَ ياقوتُ الحمويُّ أنَّه وجدَ رقعةً بخطّها تدلُّ على تمكّنِها من ناصيةِ البلاغةِ والبيانِ ، ناهيك بحسن الخطّ وجودتِهِ وملاحتِه وتناسقِهِ؛ وقد افتخرتْ فاطمةُ في رقعتها بأنّها لمْ تُسْبَقْ فيما كتبَتْه منَ الذّكور دون الإناثِ ، وأظهرتِ المُعجزَ منْ عاجز ، والكاملَ منْ ناقص ، كما أحسنَتْ في رسمِ الحروفِ ، ترىٰ ماذا كتبَتْ فاطمةُ؟!

قال ياقوتُ الحمويّ: «وجدتُ بخطّها رقعةً هذه نسختُها: الأَمَةُ الكاتبةُ.

---

(١) انظر: الروضة الفيحاء (ص ٢٨٤).

بسم الله الرّحمن الرّحيم: ثقتي باللهِ وحدَه ، خشعتُ لصولةِ عزّ المجلسِ العالي العَادلي المؤيّدي المظفّريّ المنصوريّ العزّيّ السّعديّ الرّكنيّ النَّصيريِّ المجديّ الشّرفيّ الأميريّ ـ أعزَّ اللهُ أنصارَه ـ وضاعفَ اقتدارَه عَقِبَ الدّهور ، وانقادتْ لمشيئته تصاريفُ الأمور ، وامتدتْ إلى نوالهِ آمالُ السُّؤَال ، وأناخَتْ بفنائه رواحلُ الرّجال.

* فما إنسانٌ إلا موفورٌ ببره ، ولا لسانٌ إلا مسبِّحٌ بشكرِه ، ولا آملٌ إلا مصروفٌ إليه ، فأعطاهُ اللهُ تعالىٰ منَ الآمالِ في نفسهِ وذويه مالا يرنو إليه طَرْفٌ ، ولا يأتي عليه وصْفٌ:

حتَّى تسيرَ مَسيرَ الشَّمْسِ رايتُهُ   وتعْتَلي باسمِهِ العَالي علىٰ القَمرِ
ويخْتِمَ الأرضَ طُرّاً طِيْنُ خاتَمهِ   ويغْتَدي أمْرُهُ أمضىٰ منَ القَدرِ

* ومن بعد: فقد ذهبتُ ـ أطالَ اللهُ بقاءَ المجلسِ العالي وأعزَّ سلطانه ـ في دَرْجٍ قد قرنتُه بهذِهِ الرّقعة ، مذهبَ المطرفِ المعجِب ، وهو مما لم أُسْبَقْ إلى مثلهِ من مقدّمي أهلِ هذه الصّناعة من الذّكور دونَ الإناث ، أظهرتُ فيه المعجزَ من عاجز ، والكاملَ من ناقصٍ ، كما قالَ قابوسُ بنُ وشمكير ، وقد يُسْتَعذَبُ الشّريب منْ منبعِ الزُّعاق[1] ، ويُستطابُ الصَّهيل من مخرجِ النّهاق. جعلتُ في ذلك إقبالَ المجلسِ العالي ـ ضاعفَ اللهُ اقتداره ـ قائداً إلى طرقِ الرّشاد ، وعِزَّ سلطانه هادياً مبصِراً إلىٰ سُبُلِ الإصابةِ والمراد ، وأظهرتُ الحروفَ مفصولةً وموصولةً ، ومعماةً ومُفَتَّحَةً في أحسنِ صِيَغها ، وأبهجِ خلَقِها ، منخرطةَ المحاسن في سِلْك نظامِها ، متساويةَ الأجزاء في تجاورها والبناء. فهي لينةُ المعاطفِ والأرداف[2] ،

---

(١) «الزّعاق»: الماءُ المرّ الغليظُ لا يُطاق شُربه.

(٢) «الأرداف»: أعجاز الكلام وأواخره ، جمع ردف.

متناسبةُ الأوساطِ والأطراف ، ظاهرُها وقور[1] ساكن ، ومَفْتَشُها رهج مَائِن[2] ، وإن استُخدِمْتُ إلىٰ مهمّ يَسْنَحُ ، أوفيتُ فيه على كلّ مُرتَسمٍ في هذا الشَّأْن قديماً وحديثاً ، وسالِفاً وآنفاً ، أؤمّلُ بذلك الخطوةَ من إحمادِهِ ، وجميل رعايته ، سمعَ اللهُ سبحانه فيه كلّ دعاء مُستجاب من الأَمَةِ الكاتبةِ ، ومَنْ يتعلَّق عليها من وليدةٍ ومولودٍ ، وشريفٍ ومشروف ، وعجوزٍ داعية ، وأمَةٍ خادمةٍ لما يوليها وينعمُ عليها ، ويعرفُ موضعَ خدمتها ، ومحلّ صنعتِها ـ لا سلبَها اللهُ وسائرَ الخلق ظِلَّه بِمَنِّهِ ـ قد ترادفَ الإنعامُ عليها دفعةً بعد أخرىٰ ، وثانيةً بعد أولىٰ ، على يد الشَّيخ الأجلّ السَّيِّد فخرِالكفاءة أبي الحُسَين ـ أدامَ اللهُ تأييده ـ وتولّىٰ عنّي من غير حقٍّ عارِفَتَهُ[3] ، ما لا يقومُ بوسعهِ ألسنةُ القائلين ، وشكرُ الشَّاكرين ، فإذا أنعمَ على ما أَصْدَرْتُهُ من الخَدمِ بلحظة ، وأحسنَ إليه بلمحة ، أدركتُ حظّي وحزتُ أملي ، والرّأي السَّامي في إجابتي إلى ما سألت ، وإثباتي في جملة المغمورين[4] بالإحسانِ من الأدباءِ والحشمِ والعبيدِ والخدمِ ، دامَ عُلُوُّهُ وشَرَفُهُ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ»[5] .

* وبهذه الرّقعة تظهرُ بلاغةُ فاطمةَ بنت الأقرع ، ويظهرُ بيانُها السَّاحر ، ونثرهَا الفنّي ، بالإضافة إلى خطّها الجميل الذي يسحَرُ الألباب و :

وكَاتِبٍ يرقُمُ في طِرْسِهِ ... روضاً بهِ ترتعُ ألحَاظُهُ
فالدُّرُّ ما تنظمُ أقْلامُهُ ... والسِّحْرُ ما تنثرُ ألفَاظُهُ

---

(١) «وقور» : ثابت .
(٢) «مفتشها» : مخبرها . و«رهج» : السحاب بلا ماء . «مائن» : المترقرق اللامع .
(٣) «عارفة» : العارفة : العطية والمعروف ، والجَمع عوارف .
(٤) «المغمورين» : المشمولين المنغمسين .
(٥) انظر : معجم الأدباء (١٦/ ١٦٩ ـ ١٧١) .

المُحَدِّثَةُ الحَافِظَةُ:

* لم تكنْ فاطمةُ بنتُ الأقرع تجيدُ الخطَّ وفنون الأدبِ والإنشاءِ فحسب، وإنّما كانتْ إحدىٰ النّساء المحدثات اللواتي رويْنَ العلْمَ عن أهلِهِ، وسمعْنَه منَ الأكابر. وكانت من أسرةٍ محدثةٍ نشأَتْ بناتُها على حبّ علْمِ الحديث[1]، وترعرعتْ فاطمةُ على سماعِه؛ قال ابنُ الأثير عنها: «وسمعتِ الحديثَ وأسمعته»[2].

* فقد سمعتْ فاطمةُ بنتُ الأقرع الحديثَ من أبي عمر عبدِ الواحد بنِ عبد الله بن مهديّ الفارسي[3] وغيره.

* وسمعَ منها أبو القاسم مكّيُّ بنُ عبد الله الرّميليّ الحافظ.

* وروىٰ عنها أبو القاسم إسماعيلُ بنُ أحمد بن عمر السّمرقنديُّ، وأبو البركَات عبدُ الوهاب بنُ المبارك بن أحمد الأنماطيّ[4] ببغداد،

---

(١) لفاطمةَ بنتِ الأقرع هذه أختٌ محدِّثةٌ اسمُها: زينبُ بنتُ الحسن بن عليّ أمُّ الآمال، المعروفة ببنتِ الأقرع، وهي أختُ الكاتبة فاطمة. سمعتْ أبا طالب محمّدَ بنَ محمّد بنِ إبراهيم بن غَيْلان، وحدَّثت باليسيرِ، وكانت أصغر من فاطمة. وروىٰ عنها عبد الوهّاب الأنماطيّ، وأبو نصْر أحمدُ بنُ عمر الغازي الأصبهاني وتوفيتْ سنة (٤٩٣ هـ) ـ رحمها الله. (الوافي بالوفيات ١٥/ ٦٤).

(٢) الكامل في التّاريخ (١٠/ ١٦٣).

(٣) أبو عمر بنُ مهديّ، عبدُ الواحد بنُ محمّد بنِ عبد الله الفارسيّ ثمّ البغداديّ البزّاز، آخرُ أصحابِ المحامليّ، وابنِ مخلد، وابنِ عُقْدة، قالَ الخطيبُ: «ثِقةٌ». توفيَ في رجب سنة (٤١٠ هـ) وله (٩٢ سنة). (شذرات الذّهب ٥/ ٥٩).

(٤) أبو البركاتِ عبدُ الوهّاب بنُ المبارك بنِ أحمدَ الأنماطيّ الحافظُ الحنبليُّ، مفيدُ بغدادَ، وُلدَ في رجب سنة (٤٦٢ هـ)، وسمعَ الكثيرَ من خلْقٍ كثيرٍ، وكتبَ بخطّهِ الكثيرَ، وسمعَ العالي والنّازلَ، وكانَ بقيّةَ الشّيوخِ، ولمْ يتزوّجْ قطّ.
ـ قال الحافظُ أبو موسىٰ المدينيّ: «هو حافظُ عَصْرِه ببغداد».
ـ وقال ابنُ السّمعانيُّ عنه: «حافِظٌ، ثقةٌ، مُتْقِنٌ، واسعُ الرّواية، دائمُ البِشْر، =

وأبو سعد أحمدُ بنُ محمّد بن أحمد بن الحسن البغداديّ الحافظ بأصبهان وغيرهم. وسمعَ عليها ابنُ البطحي الجزءَ الأوّلَ من أمالي المحامليّ.

* ومن مرويّاتها التي تَصِلُ إلى رسولِ الله ﷺ ما ذكرَه ياقوتُ الحمويُّ في «مُعْجمه» قال:

* أخبرنَا أبو البركات عبدُ الوهاب بنُ المبارك بن أحمد الحافظ بقراءتي عليه، أخبرتنا فاطمةُ بنتُ الحسن بن علي العطّار المقرىء قالت: أخبرنا أبو عمر عبدُ الواحد بن محمّد بن عبد الله بن مهدي الفارسيّ، حدَّثنا أبو عبد الله الحُسينُ بنُ إسماعيل المحامليّ، حدّثنا أبو هشام الرّفاعي، حدّثنا ابن فُضيل، حدّثنا الأعمشُ عن عبد العزيز بن رفيع، عن تميم بن طرفة، عن عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ على يمينٍ فرأىٰ غيرها خيراً منها، فليأتِ الذي هو خيرٌ، وليكفّرْ عن يمينه»[1].

* وهكذا كانتْ فاطمةُ بنتُ الأقرع واحدةً منَ النّساء الموهوباتِ، اللاتي عرفْنَ كثيراً من العُلوم، وأَجَدْنَ كثيراً من المعارف، وفي مقدمتها: الخطُّ والأدبُ والإنشاءُ وروايةُ الحديثِ النّبويّ الشّريف، وغيرُ ذلك.

= سريعُ الدَّمعة عند الذّكر، حسَنُ المعاشرة، جَمَعَ الفوائدَ، وخرّجَ التّخاريجَ، وكان متفرّغاً للتّحديث إمّا أنْ يُقرأَ عليه، أو ينْسَخَ شيئاً».

ـ وذكره تلميذُه ابنُ الجوزيّ في عدّةِ مواضعَ من كُتبهِ، وأثنىٰ عليهِ كثيراً وقال: «كان ثقةً ثبتاً ذادِيْنٍ ووَرَعٍ، وكنتُ أقرأُ عليه الحديثَ وهو يبكي... وكان علىٰ طريقةِ السَّلَف، وانتفعتُ به ما لمْ أنتفعْ بغيرهِ... ، وكان لا يغتابُ أحداً، ولا يُغْتَابُ عنده أحدٌ...».

ـ توفي يوم الخميس (١١ محرم) سنة (٥٣٨ هـ)، ودُفنَ بالشّونيزية، وهي مقبرةُ أبي القاسم الجنيد غربي بغداد. (شذرات الذهب ٦/ ١٩١ و١٩٢) بتصرف.

(١) انظر: معجم الأدباء (١٦/ ١٧٣).

* أمّا وفاتُها فكانت في بغدادَ ، ففي يومِ الأربعاءِ في (٢١ من المحرّم) سنة (٤٨٠ هـ) لبّتْ فاطمةُ نداءَ ربّها ، وصعدت روحُها إلى ربّها راضيةً مرضيةً؛ ولعلَّ يوم وفاتها كانت من الأيّام المشهودةِ؛ إذ فَقَدَ النَّاسُ امرأةً نادرة المثالِ ، تفخرُ البلدانُ بمثلِها ، ثمّ دُفِنَتْ ببابِ أبزر ببغداد[1] .

* وبوفاتها فَقَدَ النّاس جمالَ الخطّ العربيّ النّسويّ الذي أبدعته أناملُها ، كما فقدوا ظرفَها وأدبَها ، لكنَّهم لمْ يفقدوا ما تركته من آثار حِسَان في تاريخِ المرأةِ المشرقيّة .

* فرحمَ اللهُ فاطمةَ بنتَ الأقرعِ الأديبة الخطّاطة الكاتبة وأجزلَ مثوبتها ، ونفعَ بها نساء المسلمين كي يسرْنَ علىٰ هُداها ، ويتعلمنَ ما يفيدهُنَّ ويفيدُ مجتمعهنَّ .

* * *

---

(١) انظر: معجم الأدباء (١٦/ ١٧٢)، وسير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٨١)، وشذرات الذهب (٥/ ٣٤٨)، والروضة الفيحاء (ص ٢٨٤)، وأعلام النساء (٤/ ٤٢)، والأعلام للزركلي (٥/ ٣٢٦).

فاطمة بنت سعد الخير

* مُحدِّثة يُشار إليها بالبنان ، وشيخة جليلة ، مُسندة ، فقيهة ، تصدَّت للعلم والتعليم .
* كانت أستاذة العلماء في عصرها علماً ورواية .

الـشَّيْـخَةُ الـمَيْمُونَـةُ :

* نحنُ الآن في رحابِ امرأةٍ جليلة القَدْر ، رفيعة الشَّأْنِ ، لها بين نساء القرنِ السَّادس الهجريّ مكانةٌ ورفعةٌ ، وعُدَّتْ من نساءِ المشرق العربيّ علْماً وفَهْماً ، مع العلمِ بأنَّ أصلَها من بلنسيةَ في بلادِ الأندلس.

* وهـذه الشّيخـةُ الميمـونـةُ العـالمـةُ هـي فـاطمـةُ بنـتُ المحـدّث سعد الخير بن محمد بن سَهْل الأنصاريّة البلنسية[1] المشهورة ببنتِ سعدِ الخير ، وكنيتها أمّ عبد الكريم.

* وكان أبوها أبو الحسن التَّاجر سعد الخير بن محمّد بن سهل الأنصاريّ البَلَنْسيّ المحدّث ، أحدَ مشاهيرِ عَصْرِه ومن أعلامهم ، رحلَ إلى المشرقِ العربيّ ، وسافرَ ورحلَ في التّجارة إلى أنْ دخلَ الصِّين ، ولذا كان يكتبُ الصّينيّ ، وركبَ البحار ، وقاسىٰ المشاقّ ، وكان فقيهاً عالماً متْقناً ، وتفقَّه ببغدادَ على أبي حامد الغزالي ، وسمعَ بها أبا عبد الله النِّعالي ، وطِرادَ بنُ محمد ، وطائفةً ، وسكنَ أصبهان مدّة وسمع أبا أسعد المطرّز ، وتزوّج بها ، ثمَّ سكنَ بغدادَ ، وروى عنه ابنُ عساكر ، وابنُ السَّمعاني ، وأبو موسى المدينيّ ، وأبو اليمن الكنديّ ، وأبو الفَرج بن الجوزي[2] ، وابنتهُ فاطمةُ بنت سعد الخير في آخرين ، وقرأَ الأدبَ على

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٤١٢ و٤١٣) ، وتذكرة الحفاظ (٤/ ١٣٦٩) ، والنجوم الزاهرة (٦/ ١٨٦) ونفح الطيب (٣/ ٣٨٧) ، وشذرات الذهب (٦/ ٥٦٤) ، وتاريخ مـدينـة دمشـق (تـراجـم النسـاء ص ٢٧) ، والعبـر (٤/ ٣١٤) ، وأعـلام النسـاء (٤/ ٥٩ ـ ٦٠) ، والأعلام (٥/ ٣٢٨) ، وتاريخ ابن الدبيثي (ص ٣٩٧ و٣٩٨) ترجمة رقم (١٥٣٧) ، وغيرها.

(٢) قال ابن الجوزي عن سعدِ الخير : «وحدَّثَ وقرأتُ عليهِ الكثيرَ ، وكان ثقةً صحيحَ السَّماع». (المنتظم ١٨/ ٥١) طبعة دار الكتب العلمية.

أبي زكريا التّبريزي، وحصّلَ كُتُباً نفيسة؛ وتوفي يوم السَّبت (١٠ محرم) سنة (٥٤١ هـ)، ودُفِنَ إلى جانبِ عبدِ الله بن الإمام أحمدَ بنِ حنبل بوصيّةٍ منه[١].

* وفي خلالِ إقامة والدها سعد الخير في مدينةِ أصبهان تزوّج هناك، ووُلدتِ ابنته فاطمة هنالك[٢] في سنةِ (٥٢٢ هـ)، وتيمَّنَ بها، وكانت قرّة عينَيْه، حيثُ لاحظَ شغفَها وحبَّها للعلْمِ منذ نعومةِ أظفارها عندما كانت في عمر الزَّهر، كما لاحظ أبوها شدّة اهتمامِها في حبّ الاطّلاع، ومعرفةِ الفقْه والحديثِ وسائرِ العلوم الدّينية.

نَشْأَتُهَا ومَسْموعَاتُهَا:

* في بيتِ سعدِ الخير الفقيهِ العالم المُتْقنِ، كانت نشأةُ ابنته فاطمة، فقد نشأتْ نشأةَ بناتِ العُلماء اللواتي أَلِفْنَ العِلْمَ وسماعه منذ أنْ فتحتْ عينيها علىٰ الدّنيا، فقد سمعتْ حضوراً في الثّالثة من فاطمةَ الجوزدانية[٣] جملةً من المعجمِ الكبيرِ.

---

(١) انظر: شذرات الذهب (٦/ ٢١٠)، والمنتظم (١٨/ ٥١)، ونفح الطيب (٣/ ٣٨٧ـ٣٨٨) مع الجمع والتصرف.

(٢) قال ابن عساكر: «ولدت ـ فاطمة ـ بالبحرين ورحل بها أبوها إلى أصبهان» (تاريخ مدينة دمشق، تراجم النساء ص ٢٨٧).

(٣) فاطمةُ الجوزدانية أمُّ إبراهيم بنتُ عبد الله بن أحمدَ بنِ القاسم بن عقيل الأصبهانيّة الجوزدانيّة ـ وجوزدان قريةٌ كبيرةٌ على باب أصبهان ـ، وُلدَتْ في الرُّبعِ الأوّلِ من القرنِ الخامسِ الهجريّ، وكانت محدّثةً ذات ديْنٍ وصَلاح، وسمعتْ من أبي بكر بن ريذه مُعْجَمَي الطَّبراني ـ وهما: المعجمُ الكبيرُ والمعجمُ الصَّغير، حيث ذكرَ ذلك الذَّهبي في سِيَرِ أعلام النّبلاء ١٩/ ٥٠٤ ـ وتفرَّدَتْ في وقتِها بروايتهما، وبكتابِ «الفتن» لنُعيم بنِ حمّاد المروزيّ، وحدَّث وقرأ وسمعَ عليها الحفّاظ، وأجازتِ السَّمعاني بجميعِ مسموعاتها؛ توفيتْ بأصبهان سنَة (٥٢٤ هـ)، وعاشتْ (٩٩ سنة) ـ رحمها الله ـ (شذرات الذّهب ٦/ ١١٥ و١١٦)، و(أعلام النّساء ٤/ ٦٨) مع الجمع والتّصرف.

* ثمّ إنّها رحلتْ بصحبةِ أبيها إلى بغدادَ ، وهناك حضرت على هبةِ الله بن الحُصين ، وزاهرِ بنِ طاهر ، وأبي غالب بن البناء .

* وكان أبوها سعد الخير عالماً جليلاً ، فسمعتْ منه ، وتتلمذَتْ عليه ، ثم سمعت من عددٍ من العُلماء مثل : هبة الله بن الطَّير ، والقاضي أبي بكر ، ويحيى بن حبيش الفارقيّ ، وغيرهم كثير ، وأجازَ لها خلقٌ كثير منَ العُلماء إجازة[1] الرّواية .

* وغدت فاطمةُ إحدىٰ المحدّثات اللواتي يُشار إليهنَّ بالبنانِ ، وغدت

---

(١) «الإجازة» : جَرَتِ العادةُ أنّه إذا تأهَّلَ بعضُ أهلِ العلْمِ للفُتيا والتّدريس ، أنْ يأذن له شيخُه في أنْ يفتيَ ويدرّسَ ، ويكتبَ له بذلك .
ـ ومن صور الإجازات إجازةٌ بالفُتيا والتّدريس على مذهبِ الإمام الشّافعي ، وذلك بعد التّحميدِ الطّويلِ ، والصّلاةِ على النّبي ، ثمّ بيانِ فَضْل العلْم ، وشخصيةِ المتعلّم ، يكتبُ الشّيخُ ما نصّه : «وأذنَ فلانٌ لفلان المسمّى فيه ، أدامَ اللهُ معاليه ، أنْ يدرّسَ مذهبَ الإمامِ المجتهدِ المطلقِ العالم الرّباني ، أبي عبد الله محمد بن إدريس المطلبيّ الشّافعيّ رضي الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنّة متقلّبه ومثواه ، أنْ يقرأَ ما شاءَ منَ الكتبِ المصنّفةِ فيه ، وأنْ يفيدَ ذلكَ لطالبيهِ ، حيث حلَّ وأقامَ ، كيفَ ما شاء متى شاءَ وأينَ شاء ، وأنْ يفتيَ من قصدَ استفتاءَه خطّاً ولفظاً ، على مذهبِهِ الشّريفِ المشارِ إليه ، لِعِلْمِهِ بديانتهِ وأمانتهِ ، ومعرفتهِ ودرايته ، وأهليّته لذلك وكفايته .
فليتعلقْ ـ أيدهُ اللهُ تعالى ـ هذه الحلّة الشّريفة ، وليترقَّ بفضلِ اللهِ تعالى ذروةَ هذه المرتبةِ المنيفةِ ، وليعلمْ قَدْرَ ما أنعمَ اللهُ تعالىٰ عليهِ ، وأسدىٰ منَ الإحسانِ الوافر إليهِ ، وليراقبه مراقبةَ مَنْ يعلم اطّلاعه على خائنةِ الأعينِ وما تُخفي الصّدور ، وليعامله معاملةَ مَنْ يتحقّق أنّه يعلمُ ما يخفيهِ العبدُ وما يبديه في الورودِ والصّدور ، ولا يستنكفْ أنْ يقولَ فيما لا يعلم : لا أعلمُ؛ فذاك قولٌ سَعِدَ قائلُه ، وقد جاء «جُنّةُ العالِمِ لا أدري فإنْ أخطأَها أصيبَتْ مقاتِلُه ، فاللهُ تعالى يرزقُنا وإياه التّوفيق والتّحقيق ، ويسلكَ بنا وبه أقربَ طريق ، ويهدينا إلى سواء السّبيل فهو حسبنا ونعمَ الوكيل» . وكتبَ في تاريخ كذا .
(صبح الأعشى ١٤/ ٣٢٢ ـ ٣٢٥) وللمزيد من ذلك انظر الصفحات بعدها .

بنت سعد الخير هي الشّيخةُ الجليلةُ المسندةُ الفقيهةُ المحدّثة ، حيث تصدّت للعلْمِ والتّعليم في دمشق ، وحدَّثت فيها ، وكذلك حدَّثت بمصرَ ، ورويتِ الكثيرَ هنالك .

زَوْجَـةُ الـوَاعِـظِ :

* من خلالِ رحلتنا الشّاقّة والعذبة في آنٍ واحد ، مع فاطمةَ بنتِ سعدِ الخير الأنصاريّة ، علمنا أنَّها تزوّجَتْ أحدَ أعيانِ عَصْرِها منَ الدّماشقةِ منْ نزلاءِ مصْرَ ، وهو الرئيسُ زين الدين ابن نُجيَّة الواعظ ، الذي سكنَ بها في دمشقَ ، ثم في مصرَ ، ورأت عزّاً وجَاهاً .

* وكان زوجُها ابن نُجيَّة هذا من أعلامِ عَصْره ، وهو كما وصفَه الذّهبيّ بقوله: «الشّيخُ الإمامُ العالمُ الرئيسُ الجليلُ الواعظُ الفقيهُ أبو الحسن عليّ بنُ إبراهيم ابن نجا بن غنائم الأنصاريّ الدّمشقيّ الحنبلي ، وُلدَ بدمشقَ سنة ٥٠٨ هـ»[١] .

* نشأَ ابنَ نجيّة هذا نشأةَ العلماءِ ، فسمعَ التّفسيرَ ، وأحبَّ الوعْظَ ، وغلبَ عليه ، واشتُهِرَ به ، وأحبَّ الوعظَ وهو طريّ العُودِ لم يتجاوز عَشْر سنينَ .

* وسببُ زواجه من فاطمةَ بنتِ سَعْد الخيرِ ، أنَّ نورَ الدِّين الشَّهيد قد بعثَه رسولاً إلى بغدادَ في سنةِ (٥٦٤ هـ) ، وخلعَ عليه خلعةً سوداء ، فكان يلبسُها في الأعياد .

* وفي بغداد أَلِفَ حلقاتِ العلْمِ ، فسمعَ الحديثَ من سعدِ الخيرِ بنِ محمد الأنصاريّ الذي أحبَّه ، ومن ثمَّ صاهَرَهُ على ابنته المسندةِ فاطمة ، ونقلَها معه إلى مصْرَ .

---

(١) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٩٣) .

* وعاشت فاطمةُ بنتُ سعد الخير معه عيشةً هنيّةً ، فقد كان زوجُها صَدْراً محتشماً نبيلاً ، ذا جاهٍ ورياسةٍ وسؤدد ، وأموال وتجمّل وافر ، وكان قد تنعَّمَ تنعُّماً زائداً ، حيث كان في دارهِ عشرون جارية ، تساوي كلّ جارية ألف دينار.

* وكان ابنُ نجيّة هذا كثيرَ البرّ بأمّه ، وفي ذلك يقولُ: «كانت صالحةً حافظةً ، تعرفُ التَّفسير ، كُنّا نسمعُ من خالي التَّفسير ، ثمّ أجيءُ إليها فتقول: إيش فَسَّر أخي اليوم؟ فأقولُ سورة كذا وكذا؛ فتقول: ذكرَ قول فلان ، ذكر الشّيء الفُلاني؟ فأقول: لا؟ فتقول: تركَ هذا»[1].

* وفي هذا الجوِّ العبقِ بالمكرماتِ ، كانت حياةُ فاطمة أمّ عبد الكريم ، وبجوار زوجها ، رأت من العزِّ والجاهِ مالم تَرَهُ امرأةٌ عالمةٌ سواها ، فقد كان زوجُها معظماً عند صلاح الدّين الأيوبي ، وكان ذا منزلةٍ رفيعةٍ في الدَّولة.

* وصفَه ابن النّجار بقوله: «كان مليحَ الوعظِ ، لطيفَ الطبع ، حلوَ الإيراد ، كثيرَ المعاني ، متديناً ، حميدَ السّيرة».

* وذكر ابنُ عساكر أنّها «قدمت دمشقَ مع زوجِها ، وسمعَ منها بعضُ طلبةِ الحديث»[2].

* مات زينُ الدّين ابن نجية سنة (٥٩٩ هـ) بمصر ، ودُفنَ في سفح المقطم[3].

---

(١) شذرات الذهب (٦/ ٥٥٥) بتصرف.
(٢) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢٨٧).
(٣) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٩٣ ـ ٣٩٦).

حَيَاتُهَا العِلْمِيَّةُ وأثـرُهَا في العُلَمَـاءِ:

* لم تتوقفِ الشّيخةُ الجليلةُ المسندةُ فاطمةُ بنتُ سعد الخير عن تلقّي العلمَ فحسب، وإنّما راحَتْ تعلّم الناسَ وطلبةَ المعرفةِ مما علمَها اللهُ وأودعه في صدرها؛ فقد تصدّرت للتّدريس والرّواية، ومن ثم بدأ علماء عَصْرِها يأخذون عنها.

* وتذكرُ المصادرُ أنَّ جماعةً من أعلامِ دَهْرِها قد حدثوا عنها، منهم: أبو موسى بن الحافظ، وعبد الرحمن بن مقرب، ومحمدُ بنُ محمد بن الوزّان الحنفيّ، ومحمد بنِ الشَّيخ الشَّاطبي، والحافظ الضّياء، وعبد الله بن علان، وخَلْقٌ سواهم.

* وروى عنها بالإجازةِ الحافظُ زكي الدّين عبد العظيم المنذريّ[(١)]

---

(١) هو الحافظُ الكبيرُ زكيُّ الدِّين عبدُ العظيم بنُ عبد القويّ المنذريّ الشّامي ثم المِصْريّ الشَّافعي، صاحبُ التَّصانيف، وُلدَ سنة (٥٨١ هـ)، وسمعَ أكابرَ العُلماء، وأكبَّ علىٰ العِلْم والإفادةِ، وكانَ حافظاً، كبيراً، حجّةً، ثقةً، عمدةً، له كتاب «التّرغيب والتّرهيب»، و«التكملة لوفيات النّقلة» و«مختصر مسلم» و«مختصر سُنن أبي داود»، وقد برعَ في الفقْهِ، وسمعَ الحديثَ بمكّةَ، ودمشقَ، وحرّانَ، والرُّها، والإسكندريّة، وروى عنه الدّمياطي، وابنُ دقيق العيد، واليُونيني؛ وخَلْقٌ، وتخرّجَ به العلماءُ في فنونِ العِلْم، وعلوم الحديث.
ـ وكان عديمَ النَّظر في معرفةِ علمِ الحديثِ على اختلافِ فُنونه، متبحّراً في معرفةِ أحكامهِ، ماهِراً في معرفةِ رُواته، وجرحِهم وتعديلهم، وكان إماماً حجّة ثبتاً ورعاً متحرّياً فيما يقوله: متثبّتاً فيما يرويه.
ـ قال الذَّهبي: «لم يكنْ في زمانِه أحْفَظُ منه».
ـ وكان المنذريّ ممن بَرعَ في العربيّة، وله نظمٌ منْه قولُه:

اعمـلْ لنفسـكَ صـالحـاً لا تلتفـتْ ... لظهـورِ قيـلٍ فـي الأنَـام وقَـالِ
فـالنّاسُ لا يُرجى اجتماعُ جميعهـم ... لابـدّ مـنْ مُثْـنٍ عليـك وقَـالِ

توفي المنذريُّ سنة (٦٥٦ هـ)، ودُفِنَ بسفح المقطّم بمصر ـ رحمه الله ـ (شذرات الذهب ٧/ ٤٧٩ ـ ٤٨٠).

العالمُ البارعُ ، وكفاك بهذا التّلميذ العالمِ فخراً بين الأنَام! وكفى فاطمة فخراً أنْ يتخرّج في مدرستِها مثل هذا الحافظ الحجّة الثّقة!

* وروى عنها كذلك خطيب مَرْدا محمّد بنُ إسماعيل بن أحمد المقدسي[١] ، وسمعَ عليها سنة (٥٩٥ هـ) بالقاهرة: «كتاب الضُّعفاء والمتروكين» لعليّ الدّارقطني.

* وعاشتِ السَّيدةُ العالمةُ المسندةُ أستاذةَ العُلماءِ فاطمةُ بنتُ سعد الخير حتى قاربتِ الثَّمانين ، وكانت حياتُها حياةً حافلةً بما هو مفيدٌ من علمٍ وتعليمٍ ورواية ، حتى غدَتْ من مشاهيرِ نساءِ عَصْرها ، بل كُلّ العصور ، وظلّت مرعيةَ الجانبِ ، كريمةَ المكانة ، حتى وافاها الأجلُ بمصرَ ، كما ذكر المنذريّ: «توفيتْ في (٨ ربيع الأول) منه ، سنة (٦٠٠ هـ)[٢] ، وذلك بعد وفاةِ زوجها ابن نجيّة بسنة واحدة.

* قال الذّهبي: «عاشَتْ ثمانياً وسبعينَ سنة ، وأجازت لشيخنا أحمد بن أبي الخير سلامة»[٣].

* وقال ابنُ تغري بردي في وفيات سنة (٦٠٠ هـ): «توفيت فاطمةُ بنتُ سعد الخير الأنصاريّة في ربيع الأوّل ولها ثمانٌ وسبعون سنة»[٤].

---

(١) هو أبو عبد الله محمدُ بنُ إسماعيل بن أحمد بن أبي الفتح المقدسيّ النّابلسي الحنبلي ، خطيب مَرْدا ، ولد بِمَرْدا سنةَ (٥٦٦ هـ) ، وتفقّه بدمشقَ ، وسمعَ من يحيى الثّقفيّ ، وأحمد بن المَوازيني ، وبمصرَ من البُوصيري وغيرِ واحد. توفي بمردا سنة (٦٥٦ هـ) ـ رحمه الله ـ. (شذرات الذهب ٧/ ٤٨٩ ـ ٤٩٠).

(٢) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٤١٣).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) النجوم الزاهرة (٦/ ٧١٦).

* وقال الزَّركليُّ : «وسكنتْ مصرَ فتوفيتْ فيها سنة (٦٠٠ هـ)»[1] .

* وبهذا تنطوي صفحةُ أمّ عبد الكريم فاطمة بنت سعد الخير الأنصاريّة ، لتظلَّ سيرتُها منشورةً نديةً بين نساء المشرق العربيّ ، وكل النّساء في الدّنيا ، وتبقى سيرتُها قدوةً لكلّ مَنْ أرادتْ أن تقتديَ بها من النّساء في كلِّ زمانٍ ومكان .

* * *

(١) الأعلام (٥/٣٠٨).

فاطمة بنت سليمان الأنصارية

* عالمة ، مسندة ، محدِّثة ، نالت إجازات علمية نحواً من مئة إجازة من مئة عالم .
* من تلاميذها : خليل بن أيبك الصفدي ، والبرزالي .
* كانت تعمل المبرّات والصدقات ، وتُنفق المالَ في وجوه الخيرات .

مِـنْ مُحَدِّثَـاتِ دِمشْقَ الـشَّـام :

* لئن كان علْمُ الحديثِ منْ أشرفِ العُلوم وأجلِّها عند الرِّجال ، لقد أبدعَتْ فيه أعدادٌ كثيرةٌ منَ النّساء منذ فجرِ الإِسلامِ إلى عُصور متأخّرة ، وكُنّ فيه من المجلّيات ، وبرزنَ فيهِ بروزاً مُلفتاً للنَّظر ، وكان أكثرهنَّ من المشرقِ العربيّ ، فمنهنّ النّساء المحدّثات الدّمشقيات وكُنَّ كثيراتٍ جدّاً لا يُحْصَيْنَ ، ومنهنّ المقدسيّات والمكّيّات والعراقيّات والمَدَنيّات ، كما نجدُ منهنّ المِصْريّات[1] .

* ومن النِّساءِ العالماتِ العاقلاتِ المحدّثات امراةٌ من نساءِ القرن السَّابع وأوّل الثّامن ، كانت من أبرزِ نساءِ دمشق والمشرقِ العربي في عَصْرِها ، هذه المرأةُ المحدّثة الكريمةُ هي فاطمةُ بنتُ سليمان بن عبد الكريم بن عبد الرحمن الأنصاريّة الدّمشقيّة أمُّ عبد الله[2] .

* كان مولدُ هذه المحدّثة العالمة بدمشق الشّام في الرُّبعِ الأوّلِ من القرن السَّابع الهجريّ ، حوالي سنة (٦٢٠ هـ) .

* ومن خلالِ استقراء أخبارِ فاطمة بنت سليمان الأنصاريّة يظهرُ لنا بأنَّ نشأتَها كانت نشأةَ بناتِ العُلماء اللواتي يعتني بهنَّ آباؤهنَّ وولاةُ أمورهنّ .

* فقد وُلدتْ فاطمةُ في بيتٍ كريمٍ من البيوتِ العريقةِ التي أُسّستْ على

---

(١) اقرأ كتابنا : «نساء من مصر والمغرب العربي» حيث تجد فيه ما يسرك إن شاء الله تعالى .

(٢) الدرر الكامنة (٣/ ٢٢٢ و٢٢٣) ، وأعيان العصر وأعوان النصر (٣/ ١٣٩٣) ، وذيل العبر (٤/ ١٨) ، وتذكرة الحفاظ (ص ١٤٨٥) ، ومرآة الجنان (٤/ ٢٤٤) ، وشذرات الذهب (٨/ ٣٢) ، والدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص ٣٦٦) ، وأعلام النساء (٤/ ٦١ ـ ٦٥) .

العلمِ والفِقْهِ والحديثِ والقراءةِ والإقراءِ ، حيث إنَّ أباها سُليمان بن عبد الكريم الأنصاريّ الدّمشقيّ المتوفىٰ سنة (٦٤١ هـ) ، كان واحداً من العُلماءِ القرّاء البارزين في دمشقَ في عَصْرِه ، وكان من المقرئين المجوّدين المتقنين ، ومن المحدّثين المشهورين المتثبّتين ، وقد ذكره الذّهبي في «تذكرتِهِ» بأنَّه «قارىءٌ محدّث»[1] ، وناهيك بهذهِ الصّفة التي تجعلُ صاحبَها من فئةِ أحبابِ اللهِ الذين يتلونَ كتابه آناءَ الليلِ وأطرافَ النَّهار ، بل كانَ القرآنُ الكريمُ ربيعَ قلبهِ ، ونعيمَ حياتهِ ، وحياةَ نعيمهِ؛ ولذلك سمّاه صلاح الدِّين الصَّفديّ عندما ترجمَ لفاطمة بالمقرىءِ المحدّث فقال: «فاطمةُ ابنةُ الشَّيخ الإمامِ المقرىءِ المحدّثِ جمال الدّين سليمان بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن سعد الله بن أبي القاسم الأنصاريّ الدّمشقي»[2] .

* ومنذ أنْ فتحَتْ فاطمةُ عينيها على الدّنيا ، أخذَ أبوها يعتني بها ، ويغذّيها على محبّةِ القُرآن العظيم ، وحبِّ الحديثِ الشَّريف ، وحبِّ العلْمِ وأهْلهِ وذويه ، وأخذَ يُحْضِرُها مجالسَ التّحديث في دمشق ، وكانت تلكمُ المجالس زينةَ الدنيا وبهجتِها في ذلك العصر ، حيث تخرّج أئمة الدّنيا في تلكم المجالسِ السّنيةِ المباركةِ ، ونشروا العلْمَ في أنحاءِ الأرض؛ ولذلك حرصَ والدُ فاطمة أنْ يسمعَها الحديثَ وعلومَه من كبارِ محدّثي ذلكم العَصْر في ذلكم المِصْر المبارك الميمون الحافل بالعُلماء والأعلياء.

* لذلك نالَتْ هذه المحدّثةُ المرتبةَ العُليا حيثُ جعلت علمَ الحديثِ والشَّريعة أملَ دنياها ودنيا أملها ، ولم تَسْعَ إلى الشُّهرة ، وإنّما كان هدفُها العِلْمَ والحديثَ ، وإثراء المجالس بالعلمِ والتَّحديث ، فالإنسانُ الذي

---

(١) تذكرة الحفاظ (ص ١٤٢٧).
(٢) أعيان العصر (٣/ ١٣٩٣).

يجعلُ العِلْمَ جانباً ، لن ينالَ شيئاً ، ولو صَعِدَتْ شهرتُه إلى الثّريا ، ولله دَرُّ مَنْ قال في هذا المعنى :

مَا نَالَ مَنْ جَعَلَ الشَّرِيْعَةَ جَانِباً شَيئـاً ولَـوْ بَلَـغَ السَّمَـاءَ مَنَـارُهُ

فـي رحَـابِ الشُّيوخِ والشَّيْخَـاتِ :

* قلنا : إنّ فاطمةَ قد نشأتْ وترعرعتْ في أسرةٍ علميةٍ تحبُّ العلْمَ ، وقد عُرِفَتْ أسرتُها بالاعتناءِ بالعلمِ ، وتنشئةِ أبنائِها عليه ، ولهذا كانتْ فاطمةُ ممن أكرمَها اللهُ بهذه الحليةِ العظيمةِ التي جعلَتْها من عالماتِ عَصْرِها ، وشهيراتِ مِصْرِها ، بل كانت قدوةً لكلّ النّساء بعدها؛ وفي سيرتها ـ كما سنلاحظ ـ وقفاتٌ مباركاتٌ تستحقُّ أنْ تذكرَ ، وأنْ تُشْهَرَ تقتدي بها النّساء في كلّ العصور والأوقات .

* وفي حياةِ فاطمة العلمية نجدُ أنَّ أباها قد أخذَ بيدها إلى طريقِ العلم ، حيثُ أسمعَها على المعمر المحدّثِ المسَلَّم بنِ أحمد بن علي المازني(١) ، والمحدّثِ أبي القاسمِ بن رواحة(٢) ، حيثُ سمعتْ على ابنِ رواحة هذا ، جزءاً فيه أحاديثُ سفيان بن عُيينة الهلاليّ .

* وقد سمعتْ فاطمةُ بنفسها على شيخةٍ شهيرة هي المسندةُ كريمةُ بنتُ

---

(١) المسَلّمُ بنُ أحمد بن عليّ أبو الغنَائم النّصيبيّ ثمّ الدّمشقي ، روىٰ عن عبدِ الرحمنِ بنِ أبي الحسن الدّاراني ، والحافظِ أبي القاسم بن عسَاكر ، وأخيه الصّائن ، وروى عنه الكثير ، وآخر مَنْ روىٰ عنه فاطمةُ بنتُ سُليمان الأنصاريّةالدّمشقية ، توفيَ في ربيع الأوّل سنة (٦٣١ هـ) ، ـ رحمه الله ـ (شذرات الذّهب ٧/ ٢٥٧) .

(٢) «ابن رواحة» : عزُّ الدّين أبو القاسم عبدُ الله بنُ الحسين بن عبد الله الأنصاريّ الحمويّ الشّافعيّ ، وُلدَ في صِقلْية ، وأبواه في الأسْرِ سنة (٥٦٠ هـ) ، وسمّعه أبوه بالإسكندرية من السّلفيّ الكبير ابن جماعةٍ ، توفي في (٨ جمادى الآخرة) سنة (٦٤٦ هـ) وله (٨٥ سنة) .

عبد الوهاب القرشيّة[1] ، وغيرُها من المحدّثين والمحدّثات ، والمسندين والمسندات .

* هذا وقد نالتْ أمُّ عبد الله فاطمة الدّمشقيّة إجازاتٍ علميةً كثيرةً من معظم علماءِ عَصْرها في الشَّام ، وفي العراقِ ، والحجازِ ، وأصبهان ، وبلغَ عددهم نحو مئة نَفْس كما ذكرَ ابنُ حجر[2] ، حتى إنَّ الإمام الذَّهبي قد قرأَ عليها وسمعَ منها .

* ومن شيوخها : مسندُ الشَّام شمسُ الدّين أبو القاسم الحسين بن هبة الله بن صَصْرَى الدّمشقي الشّافعي المتوفى سنة (٦٢٦ هـ) ؛ وأحمدُ بنُ الحسين بن عبد الله النّرسي المتوفى سنة (٦٢٨ هـ) ، ومحمدُ بنُ الليث بن شجاع البغداديّ المتوفى سنة (٦٢٤ هـ) ، وغيرهم كثير .

* ومن شيخاتها : شرفُ النِّساء أمَةُ اللهِ بنتُ أحمد الآبنوسي[3] .

الشَّيْخَـةُ المْتَفرِّغَـةُ لِلْعِلْـمِ :

* لم تركنْ فاطمةُ إلى الدَّعَةِ ، وإنَّما ظلَّتْ تطلبُ الحديثَ مدّةً طويلةً حتى اشتدَّ عودُها ، وكثُرتْ مرويّاتها ، ثم جلسَتْ للتّحديث ، حيثُ قصدَها شداةُ العلْمِ للقراءةِ ، أو السَّماعِ عليها ، أو طلبِ الإجازة منها .

---

(١) كريمةُ بنتُ عبد الوهاب بن عليّ بن الخضر ، مسندةُ الشّام أمُّ الفضل القرشيّة الزّبيرية ، وتُعرفُ ببنتِ الحبقبَق ، روتْ عن حسّان الزّيات وخلق ، وأجازَ لها أبو الوقت السّجزي وخلقٌ ، وروت شيئاً كثيراً ، وممن سمعَ عنها بدمشقَ المنذريّ ، توفيت في جمادى الآخرة ببستانها بالميطور سنة (٦٤١ هـ) . رحمها الله .

(٢) انظر : الدرر الكامنة (٢/ ٢٢٢) .

(٣) أمةُ اللهِ بنتُ أحمد بن عبد الله بن علي الآبنوسي ، روتِ الكثيرَ عن أبيها ، وتفرَّدَتْ عنه ، وتلقّبُ بشَرفِ النّساء ، وكانتْ صالحةً خيّرةً ، توفيتْ في المحرّم سنة (٦٢٦ هـ) رحمها الله .

* وقد صرفَتْ فاطمةُ هذه جلّ عمرها في طلبِ الحديثِ وكثرةِ التّحديث ، ولعلَّ الذي ساعدَها على ذلك أنَّها ظلّتْ خليّاً أيّماً لم تتزوجْ[1] ، وعمّرت دهْراً طويلاً ، حتى قاربتِ التّسعين ، وتفرَّدَتْ بالرِّواية عن بعضٍ من أخذتْ عنهم ، فكانت آخر مَنْ روى عنِ المُسلَّم المازني بالسَّماع[2].

* ومن تلامذتها المشاهير: صلاحُ الدّين خليلُ بنُ أيبك الصّفدي الأديبُ العالمُ المؤرّخُ المشهورُ المتوفىٰ بدمشقَ سنة (٧٦٤ هـ)؛ وكذلك الحافظُ عَلَمُ الدِّين القاسمُ بنُ محمد البِرزالي المتوفى سنة (٧٣٩ هـ) ، نقل ابنُ حجر قوله عن فاطمة: «روتْ لنا عن المسلّم وكريمة»[3].

* وقد أجازت لمحمد بن رافع السّلامي المتوفىٰ سنة (٧٧٤ هـ) ، ومحمّد بن محمد بن عبد الله الحنبليّ المتوفى سنة (٧٩٢ هـ).

* كما أخذَ عنها أيضاً قراءةً وسماعاً المحدّث المشهور محمّد الواني الذي قرأ عليها كثيراً[4].

* ولعلّ كثيراً منَ العُلماء قد قرأَ عليها ، أو أجازتْ لكثيرين من طلبةِ العلْم؛ ولكنَّ تاريخَها لم يسجّلْ لها ذلك كله ، إنّما سجّل لها أنّها عمّرت وتفرَّدتْ بكثيرٍ منَ المرويّاتِ حتى غدت من مشاهيرِ المحدّثات المسندات.

مـنْ فَضَائِلـهَا ومَآثِرهَـا وبرِّهَـا:

* كانت فاطمةُ بنتُ سليمان الدّمشقية من صَوالحِ نساءِ عَصْرها ،

---

(١) قال ابنُ العماد: «وروتِ الكثيرَ وتفرَّدتْ ولم تتزوجْ». (شذرات الذَّهب ٨/ ٣٢).

(٢) الدّررُ الكامنة (٢/ ٢٢٣).

(٣) الدّرر الكامنة (٣/ ٢٢٢).

(٤) انظر: أعلام النساء (٦٢ ـ ٦٥).

وكانت ـ إلى جانب كونها عالمة محدثة ـ امرأة صالحة ، وقّفَتْ وبرَّت أهلَها وأقاربَها في حياتِها[1] ، فقد كانت من بيت ثراءٍ ومالٍ وغنى ، لذلك كانت ذات ثروةٍ وافرةٍ ، وقد تمكّنت من خلال ثرائها أنْ تقومَ بأعمالِ خيراتٍ ومبرّاتٍ ، وشيّدت مدارسَ العلْم ، كما شيّدت المارستانات والتّكايا لمساعدةِ الناس ، وأوقفتْ لتلك الأبنية والمحلاّت الخيريّة أوقافاً كثيرة ، ورتَّبَتْ لمستخدميها رواتبَ وأجوراً ، حتى باهَتْ بأفعالها الخيريّة أعاظمَ رجالِ ونساءِ عَصْرنا[2] .

* ولعلَّ النّساءَ في عصرنا يقتدينَ بها في العلْمِ وعملِ المبرّات ، فالطّريقُ أمامهنّ مفتوحٌ وواضحٌ وسَهْلٌ ، وأودُّ أنْ أشيرَ إلى أنَّ هناك نساء معاصرات من حافظاتِ كتابِ الله ، وطالباتٍ لعلْمِ الحديث والفقْه ، وهنّ كثيرات ـ والحمد لله ـ ، كما أنّ هناك نساء يعملنَ المبرّات والأوقات ، فاللهم زِدْ وبارك .

* أمّا فاطمةُ الأنصاريّة فقد امتدَّ عمرها حتى تجاوزتِ القرن السَّابع ودخلت في القرنِ الثامنِ ، وهي لا تكلّ ولا تملّ في عملِ المبرّات والصّدقات وإنفاقِ المال في وجوه الخيراتِ ، كما بذلت جلّ عمرها في طلبِ الحديثِ الشّريف دون وهْنٍ أو ضعفٍ ، على الرغمِ من أنَّ الشَّيب قد علا رأسها ، وكبرتْ واقتربتْ من التّسعين[3] ، بيد أنّ علو همتها وحبّها للتّحديث جعلها ممن ثابرَ على العطاءِ حتى قُبيل وفاتِها ، فلم تركنْ إلى الكسلِ ، بل إنّ الإمامَ الذّهبي قد قرأ عليها قبل موتها بيوم ، وحضَرتْ معه

(١) أعيان العصر (٣/ ١٣٩٣).
(٢) الدر المنثور (ص ٣٦٦) بتصرف يسير.
(٣) شذرات الذهب (٨/ ٣٢).

جماعة ، وأسمعتْ كثيراً[1] ، فأكْرِمْ بهذه الهمّة! وأعظِمْ بها! .

* وكانت وفاةُ فاطمةَ ابنة سليمان الأنصاريّة في (١٢ ربيع الآخر) سنة (٧٠٨ هـ) ، وذلك في دمشق الشّام حيثُ دُفنت فيها .

* وقد أثنى عليها العلماءُ والكبراءُ ، فقد وصفَها الذَّهبيُّ بالمُسندة ، ووصفَها الصَّفدي بأنّها امرأةٌ صالحةٌ بارّةٌ بأهلِها ذات أعمالٍ خيرية؛ وذكرتْها زينبُ فواز بقولها: «كانت من النّساءِ العالماتِ العاقلاتِ والمحدّثاتِ الصّادقات في الرّواية»[2] ، وقال عمر رضا كحالة : «محدّثة ذات صلاح ودين»[3] .

* فرحم اللهُ فاطمةَ بنت سليمان ، وأسكنَها واسعَ الجِنَان .

* * *

---

(١) أعيان العصر (٣/ ١٣٩٣) .
(٢) الدر المنثور (ص ٣٣٦) .
(٣) أعلام النّساء (٤/ ٦١) .

فضّة النّوبيّة

* جارية السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها ، وهي من ذوات الفضل ، والصدق ، والعقل ، والطهر .

* صحابية لها شهرتها ، وقدرها الوافي ، ومكانتها العلية .

فـي بيـتِ الـزَّهْـرَاءِ:

* هذهِ امرأةٌ لم تكنْ منْ مشَاهيرِ النّساء لولا دخولُها البيتَ الفاطميّ العَلويَّ في عَصْرِ النُّبوّةِ الأزْهَر الزَّاهر.

* كانتْ قبلَ ذلك نَسْياً منسيّاً، وهي كغيرِهَا من الجواري اللّواتي لا يُؤْبَهُ لهنَّ، ولا يُلْتَفَتُ إلىٰ شأنِهنَّ؛ إذ إنَّ عملهنَّ ينحصرُ في الأعمالِ المنزليّةِ، وما يتعلّقُ بحوائجِ البيوتِ وأهلِها.

* بيد أنَّ هذه المرأةَ قبسَتْ شهرتَها من بيتِ سيّدتنا فاطمةَ الزَّهراءِ ابنةِ سيِّدنا وحبيبِنا رسولِ الله ﷺ، كما عَلَتْ شهرتُها من حادثةٍ جَرَتْ في بيتِ الزهراء ـ رضي الله عنها ـ كما سنذكرُها في حِيْنِها.

* وهذه المرأةِ المضمّخَةُ بالأنفاسِ الفاطميّة لا نعرفُ اسمَ والدِها، ولا كيفَ دخلَتْ بيتَ الزَّهْراءِ، وكلُّ ما نعرفُه عنها وعن حياتِها أنّها جاريةٌ منَ الجواري اللواتي كُنّ في ذلك العَصْر يعملْنَ في العَجْنِ أو الخَبْزِ أو جمعِ الحطبِ، أو رعايةِ الأطفَال، وما شابَه ذلك.

* وهذه الجاريةُ لا يملكُ المصنّفون سلسلةَ نسبِها، بل لا يعرفُ كتّابُ التّراجم والطّبقات سوى اسمِها المتفرّد في عالَم الصَّحابياتِ، وعالَم النِّساء المشرقيّات في عصْر النّبوّة.

* هذه المرأةُ هي: فِضّةُ النّوبيّة[1] جاريةُ فاطمة الزَّهراء بنت

---

(١) أسد الغابة (٦/ ٢٣٦ و٢٣٧) ترجمة رقم (٧٢٠٢)، والإصابة (٤/ ٣٧٦) طبعة دار الكتاب العربي، والدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص ٢٣٩ و٤٤٠)، وغرر التبيان فيمن لم يسم في القرآن لابن جماعة (ص ٥٢٥)، ونور الأبصار (ص ١٢٥)، والكشاف للزمخشري (٤/ ١٩٧)، وتفسير البحر المحيط (٨/ ٣٨٨)، وتفسير =

رسولِ الله ﷺ؛ ولم تزدِ المصادرُ جميعُها على هذا شيئاً ، بل لم تذكرْ أصْلَها وفَصْلَها؛ بل أجمعُوا على أنَّها امرأة نُوبيّة من بلاد النّوبة ، أو تُنْسَبُ إلى نوبة(١).

* ويذكر ابنُ حجرٍ ـ رحمه الله ـ في «الإصَابةِ» خبراً عن فضّة ، وذلك بسندٍ عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ: «أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ أخْدمَ فاطمةَ ابنته جاريةً اسمُها فضّة النُّوبية ، وكانت تشاطِرُهَا الخِدْمةَ؛ فعلَّمها رسولُ الله ﷺ دعاءً تدعو بهِ ، فقالَتْ لها فاطمةُ رضوان الله عليها: أتعجنينَ أو تخبزين؟ فقالت: بل أعجنُ يا سيّدتي وأحتطبُ. فذهبَتْ واحتطبَتْ؛ وبيدها حزمةٌ؛ وأرادَتْ حملَها ، فعجزَتْ ، ودعَتْ بالدُّعاءِ الذي علَّمها وهو: (يا واحدٌ

= القرطبي الجامع لأحكام القرآن (١٩/١٢٨ و١٢٩) ، والتفسير الكبير للرازي (٣٠/٢١٦) ، وروح المعاني للآلوسي (٢٩/٢٦٩) وغير ذلك كثير من المصادر والمراجع.

(١) نُوْبَةُ: بضمٍّ أوّله ، وسكونِ ثانيه ، وباء موحدة. والنُّوب: جماعةُ النَّحل ترعىٰ ثم تنوبُ إلى موضعِها ، والقطعةُ من النّحل تسمّى نُوبة ، شبّهوها بالنُّوبة منَ السُّودان ، وهو في عدّة مواضع ، والنّوبة: بلادٌ واسعةٌ عريضةٌ في جنوبي مصْرَ ، وهم نصارىٰ أهلُ شدّة في العَيْش ، أوّلُ بلادِهم بَعْدَ أسوان ، يُجْلَبون إلى مصرَ فَيُباعون بها ، وكان عثمانُ بنُ عفان رضي الله عنه صالَحَ النُّوبة على أربعمئة رأس في السَّنة ، وقد مدحهم النَّبيُّ ﷺ حيثُ قال: «مَنْ لم يكن له أخٌ فليتخذْ أخاً من النُّوبة»؛ وقال: «خيرُ سَبْيكُم النّوبة» ، ومدينةُ النّوبة: اسمُ دُمْقُلة ، وهي منزلُ المَلِكِ على ساحلِ النّيل ، وطولُ بلادهم مع النّيل ثمانون ليلة. قالوا: والنُّوبة أصحابُ إبلٍ ونجائبَ وبقرٍ وغنم ، ولملكِهم خيلٌ عتاق ، والعامّة يرمُونَ بالنّبل عن القسيّ العربية ، وفي بلدهم الحنطة والشّعير والذّرة ، ولهم نخلٌ وكرومٌ وأراك ، وبلدهم أشبه شيء باليمن ، وملوكُهم يزعمون أنّهم من حمير ، ولقبُ ملكهم كابيل ، والنّوبة عدّة مواضع: منها بلدٌ صغير بإفريقية ، ومنها موضعٌ على ثلاثة أيّام من المدينة ، ومنها ناحيةٌ من بحر تهامة ، وغيرها. (معجم البلدان ٥/٣٠٨ و٣٠٩) بتصرف واختصار.

ليسَ كمثلِهِ أحَدٌ ، تُميْتُ كلَّ أحدٍ ، وتفني كلّ أحدٍ ، وأَنْتَ علىٰ عرشكَ واحدٌ ولا تأخذُه سِنَةٌ ولا نومٌ) ، فجاءَ أعرابي كأنَّه من أَزْد شَنُوءة ، فحمَلَ الحُزْمةَ إلىٰ بابِ فاطِمة . . . »[1]!!! . . . !! .

* وتذكرُ السَّيّدة زينبُ فوّاز[2] العامليّة في مفتتح ترجمتِها لِفِضَّة بأنَّها منَ النِّساء ذواتِ الفَضْل والصِّدق فتقول : «فضَّةُ النُّوبيّةُ هي جاريةُ السَّيّدةُ فاطمة الزَّهراء بنتُ رسول الله ﷺ؛ كانت منَ النّساءِ العاقِلات الصَّادِقاتِ ، وقد اشتُهرت بالفَضيْلَةِ . . . »[3] .

* غير أنَّ فضّةَ النُّوبية هذه يتألّقُ مجدُهَا وشهرتُها أكثر ، في قصّةٍ منسوجَةٍ ، ظاهرةِ الاخْتِلاق ، حيثُ نجدُ فيها أشعاراً وكلاماً منْسُوباً لسيّدتنا فاطمةَ الزَّهراء رضي الله عنها ، وذلك حينما زَعَمَ الزَّاعمون خبرَ مرضِ الحَسَن والحُسين ـ رضي الله عنهما ـ ، وكيفَ صامَتْ فضّةُ مع البيتِ العلويّ الفاطميّ الحسنيّ الحُسَيني ثلاثة أيّام كَوامل . . . وفي السُّطور التّاليات نقرأُ ما تخيَّله المتخيّلون ، ومن ثمّ ألصقوهُ بأطْهرِ الطَّاهراتِ سيّدتنا فاطمة الزَّهراء وولدَيْها الحسن والحُسين ، وزوجها عليّ ، وجاريتها فضّة رضي الله عنهم جميعاً وحشرَنا في معيّتهم .

فِضَّـةُ ومَـرَضُ الحَسَن وَالحُسَيـن :

* تذكرُ الأخبارُ التي وصلَتْ إلينا قصّة صوم فضّة جارية الزّهراء ، وذلك لأنَّ الحسنَ والحُسين مَرِضَا ، فنذرَ جميعُهم إنْ شُفِيا أنْ يصومُوا ثلاثةَ أيّام ، ترى كيفَ كانَ ذلك وهل صحيحٌ أنَّ سيّدتنا الزّهراء وزوجَها تناشدَا في ذلك الأشْعَار والأَرْجَازَ ؟! أمْ أنَّ ذلكَ الكلام القريبَ جدّاً من

---

(١) انظر الإصابة (٤/ ٣٧٦).
(٢) اقرأ سيرتها في هذه الموسوعة اللطيفة .
(٣) الدر المنثور (ص ٤٣٩).

السَّذاجة قد أُلْصِقَ بهذَيْن الكريمَيْن البليغَيْن اللذين اشتُهرا بالفَصَاحة وفَصْل الخِطَاب؟! وهل وعَتْ فضّةُ تلكم الأشعار ، وهاتيكم الأخبار ، وكانت قسيمةَ البيتِ الفاطميّ في الصَّبْر والشّكر؟!

* السّطورُ التّاليات تفصحُ عمّا ذكرنَاهُ ، فقد أوردتِ المصادرُ مع الجمع بينها قصّة ذلك ، وأشارت إلى عليّ وفاطمةَ وفضّةَ في حادثةٍ ذكرَها القُرطبيُّ في «تفسيرهِ» ، والشَّبْلنجي في «نورِ الأبصار» نقلاً عنْ «مسامرة الأخيارِ» لابن عربي ، وابنِ الأثير في «أسد الغابة» أنَّ النَّقَّاشَ ، والثَّعلبيَّ ، والقشيريَّ ، وغيرَ واحدٍ من المفسّرين قد ذكروا قصّة عليٍّ وفاطمةَ وجاريتهما حديثاً لا يصحُّ ولا يثْبُتُ ، رواه ليثٌ عن مجاهد عن ابن عبّاس في قوله عزّ وجل: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٧ ـ ٨] ، قال: «مرضَ الحسنُ والحُسينُ ـ رضي الله عنهما ـ وهما صبيّان ، فعادهما جدّهُما رسولُ اللهِ ﷺ ، وعادَهُما عامّةُ العربِ ، فقالوا[1]: يا أبا الحسَن ، لو نذَرْتَ عن ولدَيْك شيئاً إنْ عافَاهُما الله ، فقال عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ: إنْ برأَ ولَداي ممّا بهما صمْتُ لله عزَّ وجل ، ثلاثةَ أيّام شُكْراً.

وقالَتْ فاطمةُ ـ عليها سحائبُ الرّضوان ـ: وأنا أصومُ ثلاثةَ أيّام شكراً لله عزّ وجلّ.

(١) جاء في تفسير القرطبي في رواية عن قنبر مولى عليّ قال: «مرضَ الحسنُ والحسينُ حتى عادهما أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا أبا الحسن: لو نذرتَ عن ولديك شيئاً ، وكلُّ نذْرٍ ليسَ له وفاء فليس بشيء . .» (تفسير القرطبي ١٩/ ١٢٩).
بينما جاءتِ الرّوايةُ عند الشّبلنجي في نور الأبصار ، «بأنَّ عمر قال لعليّ: لو نذرتَ عن ابنيك نَذْراً إنْ عافاهما الله . .» (نور الأبصار ص ١٢٤) ، ووردتْ أسماءُ أخرىٰ في بعضِ المصادر وأشياء أخرى ، وكل هذا يدلّ علىٰ اضطراب القصة وصنعها.

وقالَتْ جاريةٌ يُقال لها فضّةُ نُوبيّة: إنْ برأَ سَيِّدايَ صمْتُ لله عزَّ وجلَّ ثلاثة أيّام شُكْراً.

وقال الصَّبيانِ الحسنُ والحُسينُ: علينا مثل ذلك، فنحنُ نصومُ ثلاثةَ أيّام أيضاً..!!..!

* وأُلْبِسَ الغُلامان الكريمان العافيةَ، ونشطَا ممّا كانا فيهِ، فأصبحوا صِياماً، وليسَ عندهم طعامٌ، بل ليسَ عند آل محمّدٍ قليل ولا كثير؛ فانطلَق عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ إلى شمعون بنِ حاريا الخَيبريّ ـ وكان يهودياً ـ فاستقرضَ منْهُ ثلاثةَ أصْوعٍ من شعير[1]، فجاءَ بها فوضعَها في ناحيةٍ من نواحي البيت؛ فقامتْ فاطمةُ إلى صاعٍ فطحنَتَهْ واختبزته؛ وفي رواية الجُعفي: فقامتِ الجاريةُ فضّةُ إلى صاعٍ من شعير، فخبزَتْ منه خمْسَةَ أقراصٍ لكلّ واحدٍ منهم قرص، وصلّى عليٌّ مع النَّبي ﷺ المغربَ، ثمّ أتى المنزلَ، فوُضِعَ الطَّعَامُ بين يديه، وكان قد مضَىٰ صيامهم الأوّل ووُضِعَ بين أيديهم الخبزُ والملحُ والجريشُ، فأوّلُ لقمةٍ كَسَرَهَا عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ إذ أتاهم مسكينٌ، فوقفَ بالبابِ وقال: السَّلام عليكم أهلَ بيتِ محمّد، أنا مسكينٌ من مساكينِ أمّة محمدٍ ﷺ، وأنا واللهِ جائعٌ، أطعموني أطعَمَكُمُ اللهُ من موائدِ الجنَّةِ، فسمعَه عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ فأنْشَأَ يقولُ[2]:

---

(١) وردَ عند الشّبلنجي: «أنَّ عليّاً انطلقَ إلى جارٍ له منَ اليهود يُقال له شمعون يُعالج الصّوف، فقال له: هل لك أنْ تعطيني جزّةً من صوف تغزلُها لكَ بنت محمّد بثلاثة آصُعٍ من شعير؟ قال: نعم، فأعطاهُ، فجاءَ بالصُّوف والشّعير، فأخبرَ فاطمة، فقبلَتْ وأطاعَتْ، ثم غزلتِ الصّوف، وأخذتْ صاعاً من شعير فطحنته وعجنته وخبزته خمسة أقراص...». (نور الأبصار ص ١٢٤ و١٢٥).

(٢) هذه الأبياتُ والتي بعدها، أجمعتْ كلُّ نسخِ تفسيرِ القُرطبي على تحريفها، وهي كما يراها القارىءُ الكريمُ ظاهرةَ الاختلاقِ، وفيها أشعارٌ قد طَوَّعها الوضّاع لتوافقَ=

فَـاطِـمَ ذَاتَ الفَضْـل واليَقيْـن | يـا بنْـتَ خَيْـرِ النَّـاسِ أَجْمعيْـن
أَمَـا تَـريْـنَ البَـائِـسَ المسْكيـن | قـدْ قَـامَ بـالبـابِ لَـهُ حَنيْـن
يَشْكُـو إلـىٰ اللهِ ويَسْتكيـن | يشْكُـو إليْنـا جَـائِـعٌ حَـزيْـن
كُـلُّ امـرىءٍ بِكَسْبِـه رهيْـن | وفَـاعِـلُ الخَيْـراتِ يَسْتَبيْـن
مَـوعِـدُنَـا جنَّـةُ عِلييـن | حـرَّمَهـا اللهُ علـىٰ الضَّنِيـن
وللبخيـلِ مـوقـفٌ مهيْـن | تهـوي بـه النَّـار إلـىٰ سجّيـن
شَـرابُـه الحَميـمَ وَالغِسْليـن | مـنْ يَفْعَـلِ الخيـرَ يَقـمْ سَميـن

ويـدخـلُ الجنَّـةَ أيّ حيـن

* فأنشأَتْ فاطمةُ ـ رضي الله عنها ـ تقولُ من حينها :

أَمـرُكَ عنْـدي يـا بْـنَ عـمٍّ طـاعَـهْ | مـا بـيَ مـنْ لُـؤْمٍ ولا وضَـاعَـهْ
غَـذَيْـتُ فـي الخبـزِ لـه صِنَـاعَـه | أطْعِمـه وَلاَ أُبـالـي السَّـاعَـهْ
أَرجُـو إذا أشبعْـتُ ذَا المَجـاعَـه | أنْ ألحـقَ الأَخْيـارَ والجَمـاعَـهْ

وَأَدْخـلَ الجنَّـةَ لـي شَفَـاعَـه(١)

* وعمد عليٌّ وفاطمةُ وفضّةُ إلىٰ الطَّعام ، ودفعوهُ إلىٰ المسكين ، ومكثوا يومَهم وليلتَهم لم يذوقُوا شيئاً إلاّ الماءَ القَراحَ ، وباتوا جياعاً وأصبحوا صياماً؛ فلما أنْ كانَ في اليوم الثّاني ، قامَتْ فضّةُ إلى صاعٍ فطحنَتْه ، واختبزتْـهُ ، وصنَعَتْ منه خمسةَ أقراص ، لكلّ واحد منهم قرصٌ ، وصلّى عليٌّ المغربَ مع النَّبيِّ ﷺ ، ثمّ أتىٰ منزلَه ، فلما وُضِعَ

= وقائعَ القصّة ، وتوافقَ المسكين واليتيم والأسير ، وأشعارٌ متقوّلةٌ على لسانِ فاطمة ، كما سنرى زيفَ ذلك قريباً.

(١) لاحظْ هذا الشّعر المشْعُور الخالي منَ المشَاعر والشُّعور ، والذي نَسَبُوه زُوراً وبهتاناً إلى أبلغِ بليغاتِ بنَاتِ النّبي ﷺ ، والذي يشيرُ إلى أنَّ واضعه سقيمُ اللغة ، ضعيفُ العارضة ، جافي الطّبع ، وكذلك باقي الأشعار التي سَتَرِدُ في القصة.

الطَّعامُ بين أيديهم ، إذا يتيمٌ من يتامىٰ المُسلمين قد وقَفَ بالبابِ ، وقال: السَّلامُ عليكم أهلَ بيتِ محمد ، أنا يتيمٌ من أولادِ المهاجرين استُشْهِد والدي ، أطعموني ممّا تأكلُون ، أطعمَكم اللهُ من موائدِ الجنّةِ ، فسمعه عليٌّ فأنشأَ يقولُ:

فَـاطِـمَ بنْـتَ السَّيِّـد الكـريـم بنـتَ نَبـيّ ليـسَ بـالـزَّنيـم!!
لقـد أتـىٰ اللهُ بـذي اليتيـم مـنْ يـرحـمِ اليـوم يكُـنْ رحيـم[1]
ويـدخـلُ الجنَّـة أَيْ سَليـم قـد حُـرِّمَ الخُلـدُ علـىٰ اللئيـم
ألاّ يجـوزَ الصِّـراطَ المستقيـم يـزلُّ فـي النَّـار إلـى الجحيـم
شَـرابُـه الصَّـديـدُ والحَميـم

* فأقبلتِ السَّيدةُ فاطمةُ ـ رضي الله عنها ـ وأنشأَتْ تقول:

أُطعمُـه اليـومَ ولا أُبـالـي وأوثـرُ اللهَ علـىٰ عِيَـالـي
أمسُـوا جِيـاعـاً وهُـمُ أشْبـالـي أصْغـرهـمُ يُقْتَـلُ فـي القِتَـالِ[2]
بِكَـرْبَـلا يُقْتَـلُ بـاغْتِيـالِ يـا ويـلَ للقَـاتِـلِ مـنْ وَبَـالِ[3]
تَهْـوي بـه النَّـار إلـى سِفَـالِ وفـي يَـدَيْـهِ الغُـلُّ والأَغْـلالِ
كُبُـولَـةٌ زَادَتْ علـى الأَغْـلال

* ثمَّ عمدَ عليٌّ وفاطمةُ وفضّةُ إلى جميعِ الطَّعَام ، فأعطوهُ اليتيمَ ، وأطعموهُ الطَّعَام ، ومكثُوا يومَيْن وليلتَيْن لم يذوقُوا شيئاً ، إلاّ الماءَ

---

(١) جاء الشّعرُ المشعور في نورِ الأبصار على النّحو التالي:
فـاطِـم بنـتُ السّيـد الكـريـم قـد جـاءنَـا اللهُ بـذي اليتيـم
مَـنْ يطلـبُ اليـومَ رضـا الـرّحيـم مـوعـدهُ فـي جنّـةِ النّعيـم

(٢) هُم أشبالي: للجَمع ، وأصغرهم: للجمع أيضاً ، وهما اثنان ، فكيف يصحُّ ذلك؟ وهل نسيَ الوضّاع أنهما صبيّان اثنان ، لكنَّ قافيةَ الكذب غلبته ، فانساقَ وراءها والله المستعان.

(٣) مَنْ أوحى للقائل المفتري بأنه سيقتل أصغرهما في كربلاء!؟!؟!.

القَراحَ ، وأصبحوا صِياماً لليومِ الثَّالث؛ ثمَّ قامَتْ فضّة إلى الصَّاعِ الباقي ، فطحنَتْه وعجنَتْه واختبزَتْهُ ، وصلّى عليٌّ مع النبي ﷺ المغربَ ، ثمّ أتى المنزِلَ ، فوُضِعَ الطَّعامُ بين أيديهم ، وإذا ذاكَ أتاهم أسيرٌ ، فوقفَ بالبابِ فقال: السَّلام عليكم أهلَ بيت محمّد ، تأسرونَنا وتشدّونَنا ولا تطعمونَنا!! أطعموني فإنّي أسيرُ محمّد[1]؛ فسمعَه عليّ ، فأَنْشَأَ يقولُ:

فـاطِـمَ يـا بنـتَ النَّبـي أَحْمَـد — بنــتَ نبــيّ سيّــدٍ مُسَــوَّد
وسَمــاه الله فهــو محمّــد — قـدْ زانـهَ الله بحُسْـنٍ أغْيَـد[2]!!
هــذا أسيــرٌ للنّبــيّ المُهْتَـد — مثَقَّــلٌ فــي غُلّــهِ مُقيّــد
يشكـو إلينـا الجـوعَ قـد تمـدَّد — مـنْ يطعـمِ اليـومَ يجـدْهُ فـي غَـد
عنـد العلـيّ الـواحـدِ المـوحَّـد — مـا يـزرعُ الـزَّارعُ سـوفَ يَحصُـد
أَعْطيــهِ لَا لا تجعليْــه أَقْعَــد[1]

* فأقبلتْ فاطمةُ ـ رضي الله عنها ـ وسمعَتْ ما قالَ زوجها ، فأنشأَتْ هي الأُخْرىٰ تقولُ:

لـم يبـقَ ممّـا جـاءَ غيـرُ صَـاع — قـد ذهَبَـتْ كفّـي مـعَ الـذّراع[3]
ابنــايَ واللهِ هُمــا جيــاع — يــا ربّ لا تتــركْهُمــا ضِيَــاع
أبــوهُمــا للخيــرِ ذو اصْطِنــاع — يصطنـعُ المعـروفَ بـابْتِـداع!!
عَبْـلُ الـذّراعَيْـن شـديـدُ البَـاع — ومــا علــىٰ رأْســيَ مــنْ قِنـاع
إلاّ قنــاعــاً نَسْجُــه أَنْسَــاع[4]

---

(١) جاءتْ هذه العبارة في «نور الأبصار» على النّحو التالي: «إنَّ الكفّارَ أسرونا وقيدّونا وشدّونا فلم يطعمونا. . . » وكما نعلم فالمصيبة في الوضع والوضاع أدهى وأمرّ!! والله المستعان.
(٢) لاحظْ أنَّه لا وزْنَ لهذا الشّعر ولا عَروض ولا معنى ، بل هو صفّ كلام لا معنى له.
(٣) لاحظ المعاني السّاقطة والكلام الهزيل المنسوب لسيدتنا فاطمة رضي الله عنها.
(٤) هذا هراءٌ ليسَ له قيمةٌ في مجالِ الأدب أو في ميزانِ العلْم ، بل ليسَ له فائدة تُذكر ، =

* ثم عمدَ هذا الثّلاثي الميمون: عليٌّ وفاطمةُ وفضّةُ، فأعطُوا الأسيرَ الطَّعامَ، ومكثُوا ثلاثةَ أيّام ولياليْها لمْ يذوقُوا شيئاً إلاّ الماء القراح، وليس عندهم شيءٌ؛ فلما أنْ كانَ اليومُ الرّابعُ، وقد قضىٰ اللهُ النّذر، أخذَ عليٌّ بيدِهِ اليمنىٰ ابنه الحَسَن، وبيده اليُسرى ابنه الحُسين، ومن ثمَّ أقبلَ نحو رسولِ الله ﷺ، وهم يرتعشون من شدّةِ الجُوع، فلمّا أبصرهم رسولُ الله ﷺ قال: «يا أبا الحَسنِ، ما أشدَّ ما يسوءني ما أرىٰ بكم؛ انطلقْ بنا إلىٰ ابنتي فاطمة»، فانطلقُوا إليها وهي في محرابِها قائمةٌ تصلّي وقد لصقَ بطنُها بظهرِها!!!!!، وغارتْ عيناها من شدّة الجُوع، فلمّا رآها رسولُ الله ﷺ وعرف المجاعةَ في وجهِها، ضمَّها إليه، وبكىٰ وقال: «واغوثاه يا الله، أهل بيت محمّد يموتُون جُوعاً»!! فهبطَ جبريلُ عليه السَّلام، وقال: السَّلامُ عليك، ربُّك يقرئك السَّلام يا محمّد، خذْهُ هنيئاً في أهلِ بيتك..

قال: «وما آخذُ يا جبريل»؟

فأقرأه: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ١ ـ ٩]»[1].

= ومن العجيب أنَّ هذا الرجزَ المرجوزَ المهزوزَ قد وردَ في «نور الأبصار» على النّحو الآتي بشكلٍ مزعجٍ وبمصيبة أدهىٰ وأنكى وأشدَّ ونسبوه إلى سيدّتنا فاطمة وهي منه براء:

لم يبق مما جاء غير صاع … قد دبرت كفي مع الذراع

وابناي والله ثلاثاً جاعا … يا رب لا تهلكهما ضياعا!!!

(١) انظر المصادر الآتية مع الجمع بينها والتصرف اليسير فيها: تفسير القرطبي (١٩/ ١٢٨ ـ ١٣٢)، وأسد الغابة (/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧)، وغرر التبيان (ص ٥٢٥)، ومحاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار لابن عربي (١/ ١٥٠ ـ ١٥٣)، وروح المعاني (٢٩/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠)، ونور الأبصار (ص ١٢٤ ـ ١٢٦)، والدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص ٤٣٩ ـ ٤٤٠). والإصابة في تمييز الصحابة (٤/ ٣٧٦)، والتفسير =

* وفي روايةِ ابنِ مَهْران: «فوثبَ النّبيُّ ﷺ حتى دخلَ على فاطمةَ ، فأكبَّ عليها يبكي ، فهبطَ جبريلٌ عليه السّلام بهذهِ الآية: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ﴾ إلى آخره»[1].

* وفي روايةِ عطاء: «أنَّ الشَّعير ـ الذي استقرضُوه منَ اليهودي شمعون ـ كان عن أجرةِ سقي نَخْل ، وأنَّه جَعَلَ في كلّ يومٍ ثُلُث منه عصيدةً ، فآثروا بها»[2].

* وهكذا كانَتْ فضّةُ النُّوبية ممن حظيتْ بالفضلِ في هذه الحادثةِ المشهورةِ ، حتى قال أهلُ التّفسير: «إنَّ هذه الآية ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨] ، نزلتْ في عليّ وفاطمة ـ رضي الله عنهما ـ وجاريةٍ لهما اسمُها فضّة»[3].

* بيد أنَّ تلكم القصّة التي قرأناها عن فضّة والبيتِ الفاطمّي يكتنفُها شيءٌ من الغُموض ، وشيءٌ منَ الاختلاقِ والمبالغةِ والتّقوّل على بلغاءِ فُصَحاءِ عَصْر النُّبوّة ، وراضعي ثَدْي الرّسالة.

* ثمّ إنّ تلكم الآية عامّة في جميعِ المؤمنين ، قال القُرطبيُّ ـ رحمه الله ـ: «والصَّحيحُ أنَّها نزلَتْ في جميعِ الأبرارِ ، ومَنْ فَعَلَ فعلاً حَسَناً؛ فهي عامّة»[4].

= الكبير لفخر الدين الرازي (٣٠/ ٢١٦) ، والكشاف للزمخشري (٤/ ١٩٧) ، وغير ذلك من مصادر متنوعة ، ومعظمها يشك في الخبر ، أو يشير إلى ضعفه.

(١) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (٢٩/ ٢٧٠).

(٢) روح المعاني (٢٩/ ٢٧٠) ، وقد نقل الآلوسي عدة أقوال أخرى للمفسرين في هذه القصة ، وله تعليقات مهمة مفيدة فانظرها.

(٣) تفسير القرطبي (١٩/ ١٣٠٢).

(٤) تفسير القرطبي (١٩/ ١٣٠٢).

* وقد شكَّ القُرطبيُّ في صحّةِ القصّة فقال: «وقد ذكرَ النَّقاشُ والثَّعلبيُّ والقُشيريُّ وغيرُ واحدٍ منَ المفسّرين في قصّة عليّ وفاطمة وجاريتهما ـ فضّة ـ حديثاً لا يصحُّ ولا يثبُتُ. . . »[1].

* ولم يتوقفِ القُرطبيُّ عند هذا الحدّ في قصّة فضّة النّوبية وصوم البيتِ الفاطميّ ثلاثةَ أيّام كَوامِلَ، وإنَّما ساقَ بعضَ الأقوالِ التي تؤيّدُ ما ذهَب إليهِ منْ أنَّ هذه القصّة مَصْنُوعة، ونقلَ عن التّرمذي الحكيمِ في «نوادرِ الأُصُول» أنَّه قال: «فهذا حَديثٌ مُزَوَّقٌ مزيّفٌ قد تطرَّفَ فيهِ صاحبُهُ حتّى تشبَّه علىٰ المستمعين، فالجاهلُ بهذا الحديثِ يعضُّ شفتَيْه تلهُّفاً ألا يكونَ بهذهِ الصِّفة، ولا يعْلَمُ أنَّ صاحبَ هذا النعْلِ مذمومٌ، وقد قالَ اللهُ تعالى في تنزيله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ وهو الفَضْل الذي يفضُلُ عن نفسِكَ وعيالِكَ.

* وجرتِ الأخبارُ عنْ رسولِ الله ﷺ متواترةً بأنَّ «خير الصَّدقة ما كان عن ظَهْر غِنىً». «وابدأْ بنفسِكَ ثمّ بمن تعول»، وافترضَ اللهُ على الأزواجِ نفقةَ أهاليهم وأولادهم. وقال رسولُ الله ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أنْ يضيّعَ مَنْ يَقُوت»، أفيحسبُ عاقلٌ أنَّ عليّاً ـ رضي الله عنه ـ جَهِلَ هذا الأَمْرَ حتى أجْهَدَ صِبْياناً صِغاراً من أبناءِ خَمسٍ أو ستٍّ على جوعِ ثلاثةِ أيام ولياليهنّ؟! حتى تضوّرُوا منَ الجُوع، وغارتِ العيونُ منهم؛ لخَلاءِ أجوافِهم، حتى أبكىٰ رسول الله ﷺ من الجهدِ.

* هَبْ أنَّه آثرَ على نَفْسهِ هذا السَّائلِ، فهل كان يجوز له أنْ يحملَ أهْلَه على ذلك؟! وهبْ أنَّ أهلَه سمحَتْ بذلك لِعَليّ فهلَ جازَ له أنْ يحملَ أطفالَه علىٰ جُوعِ ثَلاثةِ أيّام بِلياليهنَّ؟! ما يَرُوجُ مثل هذا إلاّ على حَمْقى جهّال؛ أبىٰ اللهُ لقلوبٍ متنبّهة أنْ تَظنَّ بعليّ مثلَ هذا.

(١) تفسير القرطبي (١٩/ ١٣٠٢).

* وليتَ شِعْري مَنْ حَفِظَ هذهِ الأبيات عن عليّ وفاطمة ، وإجابة كُلّ واحد منهما صاحِبَه ، حتى أدّاهُ إلى هؤلاءِ الرُّواة؟! .

فهذا وأشباهُه من أحاديثِ أهْلِ السُّجون فيما أرىٰ؛ بلغَنِي أنَّ قوماً يخلّدُونَ في السُّجون ، فيَبْقون بلا حِيْلَةٍ ، فيكتبونَ أحاديثَ في السَّمَرِ وأشباهِهِ؛ ومثلُ هذه الأحاديث مفتعلَةٌ ، فإذا صارتْ إلى الجهابذةِ رموا بها وزيَّفوهَا ، وما من شيءٍ إلاّ وله آفةٌ ومكيدةٌ ، وآفةُ الدِّين وكيده أكثر»[1].

* ويشكُّ أبو حيّان الأندلسيّ في صحّةِ قصّة فضّة النُّوبية مع فاطمةَ وعليّ رضي الله عنهم جميعاً ، وصحّةِ ذلك الصّوم لمدة ثلاثة أيام كوامل ، وصحةِ الأَشْعارِ المنسوجَةِ فيقول: وهذه الآيةُ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ . . .﴾ قيل: نزلَتْ في عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه؛ وذكر النّقاشُ في ذلك حكايةً طويلةً جدّاً ظاهرة الاختلاقِ ، وفيها أشعارٌ للمسكينِ واليتيمِ والأسيرِ ، يخاطبون بها بيت النّبوّة ، وأشعارٌ لفاطمةَ ـ رضي الله عنها ـ تخاطبُ كلَّ واحدٍ منهم ظاهِرُهَا الاختلاقُ ، لِسَفْسَافِ ألفاظِها ، وكسْرِ أبياتها ، وسفاطةِ معانيها»[2].

* كما أنَّ فخر الدِّين الرّازي أشارَ إلى أنَّ الآيةَ السَّابقةَ لم تنزلْ في حقّ فضّة وسيّدَيْها عليّ وفاطمة فقال: «لم يذكرْ أحدٌ من أكابرِ المعتزلةِ ، كأبي بكْرٍ الأصمّ ، وأبي عليّ الجبائي ، وأبي القاسم الكعبيّ ، وأبي مسلم الأصفهانيّ ، والقاضي عبد الجبّار بن أحمد في تفسيرهم أنَّ هذه الآيات نزلَتْ في حقّ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه»[3].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٩/ ١٣٢).
(٢) تفسير البحر المحيط (٨/ ٣٨٨).
(٣) التفسير الكبير (٣٠/ ٢١٦).

* وذكر الآلوسي بأنَّ الواحدي ذكر الخبرَ في كتاب البسيطِ ، وذكر بيتَيْن منَ الشّعر:

إلاَمَ أُلامُ وحَتّى متَى أُعَاتَبُ في حُبِّ هذا الفَتى
وهَلْ زُوِّجَتْ غيرهُ فَاطِمٌ وفي غيرِه ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾

وتعقّبَ بأنّه خبرٌ موضوعٌ مُفْتَعَلٌ ، كما ذكره التّرمذي ، وابنُ الجوزي ، وآثارُ الوضعِ ظاهرةٌ عليه لَفْظاً ومعنى»[1].

* وهناك ناحيةٌ مهمةٌ لا يجبُ أنْ تُهْمَلَ ، وهي أنَّ سورةَ الإنسانِ مُختَلَفٌ في مكيّتها أو مدنيّتها ، فهي مكيّةٌ عند كثيرٍ من العُلماء ، وبهذا تضعُفُ قصّة فضّة وأسيادِها الأبرار الأطهار ، لأنَّ حوادثَ تلكم القصّة جَرتْ في المدينةِ المنوّرة؛ كما أنَّ السُّورة مدنيّةٌ عند فريقٍ كبيرٍ من العُلماء ، وهذا يقوّي قصّة سبب نزولها في هؤلاء الثّلاثة ، وقيل: فيها مكيٌّ ، وفيها مدنيّ؛ والله أعْلمُ.

* ثمّ إنَّ هاتيكم الأشعارَ المُهلهلةَ في معانيها ومبانيها لا تصلحُ بأنْ تُلْصَق بسيّدتنا فاطمة الزّهراء ابنة إمام الأنبياء وسيّد الفصحاء ، وخاتم الأنبياء ، وكانت فاطمةُ بليغةً فصيحةً فلا يمكن أنْ تصدرَ عنها هذه الألفاظُ وهذه القوالبُ الشّعريةُ المقلوبةُ المنحدرةُ المحمّلةُ باللحنِ والتّكسيرِ والسَّفاطة والسّفْسَاف؛ ونحنُ إذا سلّمنا بأنَّ سيّدتنا فاطمة الزّهراء قد قالت مثلَ هذه الأشياء السّاذجة ، فإننا واللهِ لا نعرفُ لها قَدْراً ، بل نخفضُ منَ القَدْرِ البلاغيّ ، والقَدْرِ البيانيّ لها ولسيّدنا عليّ ـ رضي الله عنهما وحشرَنا في معيتهما وعفا عنّا ـ ، ولعلّ الوضّاعين وأهْلَ حياكَة الأخبار أرادوا

---

(١) روح المعاني للآلوسي (٢٩/ ٢٧٠) ، ووصلَ الآلوسي إلى حقيقةٍ مُفادها:

أنا عبدُ الحقّ لا عبدُ الهوىٰ لَعَنَ اللهُ الهَوى فيمن لَعَن

بزعمهم أنْ يجعلُوا من الأشعارِ التي نسبوها لفاطمة[1] ولعليّ قَدْراً كبيراً ، ولكنّهم وقعُوا في ترَّهاتِ زعمهم المبتور، ففاطمةُ وعليٌّ أعْلىٰ قَدْراً من ذلك ، بل هُما من أعلياءِ الصَّحابة وساداتهم ، بل إنَّ فاطمةَ سيّدةٌ من سيّداتِ نساءِ العالَمين ؛ وحَسْبُها قَدْراً بهذا أنَّ أباها رسولَ الله ﷺ قال عَنْها ذلك .

* وهناك أشياءُ أخرى كثيرةٌ يمكنُ أنْ تُقالَ في هذا المجالِ ، ويدركُها القارىءُ الفَطِنُ ، ولكنّنا تركناها حتى لا يطولَ بنا البحثُ ، ونستطردَ أكثرَ في الموضوعِ .

وقْـفَـةٌ أَخِيْـرَةٌ مَـعَ فِضَّـة :

* بعد أنْ استوفَتْ زينبُ فوّاز قصّة فضّة النّوبية مع سيدتها الزّهراء في قصّة مرضِ الحسنِ والحُسينِ قالت عنها: «ومن ذلك يُعْلَم أن المترجمةَ

---

(١) إن معظمَ كُتّابِ التّراجم وكُتّابِ الطبقات والسيرة من الذين ترجمُوا لسيّدتنا فاطمة الزَّهراء ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ لم يذكروا هذهِ الأرجاز السّقيمة التي قرأنَاهَا في ثنايا قصّة جاريتها فضّة النّوبية؛ ولكنْ ذكرُوا لها بعضَ الأبياتِ والمقطعاتِ في أبيها رسول الله ﷺ ، فقد ذكرَ ابن سيّد النّاس في كتابهِ المعروف: «منح المدح؛ أو شعراء الصَّحابة ممن مدح الرَّسول ﷺ أو رثاه» ، مقطوعتان لفاطمةَ قال بأنّها أنشدتِ الأولىٰ لما دُفِنَ رسولُ الله ﷺ وهي خمسةُ أبيات أوّلها:

اغبـرَّ آفـاقُ السَّمـاء وكـوِّرَتْ ... شمـسُ النَّهـار وأظلـمَ العَصْـران

ـ والثّانية: بيتان مشهوران قال عنهما: «وممّا يُنْسَبُ لعليّ أو فاطمة رضي الله عنهما»:

مـاذَا علـىٰ مَـنْ شـمَّ تـربـةَ أحمـدٍ ... ألا يشـمّ مـدىٰ الـزَّمَـانِ غَـواليـا
صُبَّـتْ علـيَّ مصـائـبٌ لـو أنَّهـا ... صُبَّـتْ علـى الأيـام عُـدنَ ليَـاليـا

(منح المدح من ص ٣٥٨).

ـ وهنالك كثيرٌ من المصَادرِ والمراجع قد أوردت أبياتاً وأشعاراً لفاطمةَ الزَّهراء ـ رضي الله عنها ـ والصَّحيح أنَّ سيّدتنا فاطمة فوقَ الشّعر وفوقَ هذا النّظم المصنوع ، فهي أبلغُ من ذلك بكثير ، وقد توسّعنا في هذا المجال بترجمتها في كتابنا «نساء أهل البيت» فليراجع .

ساوَتْ نفسَها بسيدتها فاطمة الزّهراء ، فنالت بذلك فخراً لم ينلْه غيرُهَا من نساءِ العرب ، وبقيتْ بخدمةِ هذا البيت حتّى توفّاها اللهُ رضي الله عنها»[١] .

* ولا ندري من أينَ أتَتْ زينبُ فواز بهذا الخبرِ الذي لم نجدْ له أثراً في «أسدِ الغَابة» ، ولا في «الإصَابة» ، ويبدو أنّه اجتهادٌ من زينب فواز التي تأخذها نشوةُ الكتابةِ أحياناً ، فتتحدّثُ بمثل هذه الأخبار التي قد تضلّل الباحثَ الغرّ ، وتبعده عن جادّةِ الصَّواب .

* بيد أنَّ الأغْرَبَ من ذلك ، وما يدعونا إلى التّوقّف قليلاً عند سيرةِ فضّة النّوبية ، ما قرأتُه في بعض الكتُب ، من قصّةِ تكلُّمِها بالقُرآن؟ وبالتّالي نقعُ في حيرةٍ من الأمْرِ ، إذ يزعمُ هؤلاء بأنَّ فضَّة هي المرأةُ المتكلّمةُ بالقُرآن[٢] ، وهي التي نشأَتْ في البيت الفاطميّ الطّاهر ، وألزمَتْ نفسَها أن لا تتكلمَ إلا بآيٍ منَ القُرآن الكريم ، وإليك القّصة كما ذكرَهَا أكثرُ من كتابٍ وكاتب؛ وسأنقلُها حرفيّاً كما وردَتْ .

* قال هؤلاء : روى أبو القاسم القشيريّ في كتابِه : قال بعضُهم : «انقطعتُ في الباديةِ عنِ القافلةِ ، فوجدتُ امرأةً ، فقلتُ لها : من أنتِ؟! فقالت : ﴿ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

فسلّمتُ عليها ، فقلتُ : ما تصنعينَ هاهُنا؟

قالت : ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ﴾ . ؟

فقلتُ : أمِنَ الجنِّ أنْتِ أمْ منَ الإنْس؟

قالت : ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ ﴾ .

فقلتُ : من أينَ أقبلتِ؟

---

(١) الدر المنثور (ص ٤٤٠).

(٢) اقرأ قصة المتكلمة بالقرآن في هذا الكتاب ، وانظر تعليقنا على ذلك .

قالت: ﴿ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾.

فقلت: أينَ تقصدين؟

قالت: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ﴾.

فقلتُ: متى انقطعتِ؟

قالت: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾.

فقلت: أتشتهينَ طعاماً؟

فقالت: ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾.

فأطعمتُها، ثم قلتُ: هَرولي وعجِّلي.

فقالت: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾.

فقلتُ: أردفك؟!

فقالت: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾؟!!؟!.

فنزلتُ فأركبتُها.

فقالت: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا ﴾.

فلمّا أدركنا القافلةُ قُلْتُ لها: ألكِ فيها أحد؟

قالت: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾.

﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾.

﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾.

فصحتُ بهذهِ الأسماء، فإذا أنا بأربعةِ شبابٍ متوجّهين نحوها، فقلتُ: مَنْ هؤلاء منْكِ؟

قالت: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

فلما أتوها قالَتْ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾. فكافؤوني بأَشْيَاء.

فقالت: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾.

فزادُوا لي فَسَأَلْتُهم عنها فقالُوا: هذه أمُّنا فضّة، جارِيةُ الزَّهْراء، ما تكلَّمتْ منذُ عشرينَ سَنةٍ إلاّ بالقُرآن»(١).

* هذه هي قصّة فضّة المتكلّمة بالقُرآن، ترى هل يزيدُ هذا التكلّفَ غير المنطقيّ من رصيدِ فضّة النّوبية؟! وهل يزيدُ هذا الحديثُ المزعومُ في قَدْرِها عندنا؟!

* ممّا لا شَكَّ فيه أنَّ فضّةَ النُّوبيةَ معدودةٌ في الصَّحابيات اللواتي نعمْنَ بهذا الشَّرفِ العظيمِ الذي لا يُدانىٰ ولا يُجارىٰ، ومهما تقوَّلْنا وألَّفْنا الأَحْدَاثَ والقَصَصَ لنزيدَ من شُهرتها أو من قَدْرِها، فلنْ نبلغُ المقصود، ولَنْ نبلغَ الشَّرفَ الوافي الذي بلغَتْه فضّة بالصُّحبةِ النّبوية، والقيامِ بالخدمةِ لأعلىٰ بناتِ الأنبياءِ قَدْراً ومكانةً، ومَنْ نرجو بمحبتها الفوزَ والمعيّة.

* أرجو أخيراً أنْ أكونَ قد وفّقْتُ في عرضِ صورةِ امرأةٍ مشرقيّة، وأرجو الله أنْ يتقبّل عملَنا ويجعلَنا مِنَ المقْبولين، ورضي الله عن فضّة وعن سيّدتها فاطمة وعن الصَّحابة أجمعين.

* * *

(١) انظر: أعلام النساء المؤمنات (ص ٥٩٦ ـ ٥٩٧)، لمحمد الحسون، وأم علي مشكور، وأعلام النساء (ص ١٥٢ ـ ١٥٣) لعلي محمد دخيل.

كريمة بنت أحمد المروزية

* هي ركن حصين للحديث وروايته في عصرها. روت صحيح البخاري وغيره عن عدد من العلماء الأثبات الثقات.
* كانت شديدة الدقة لما تنقل من العلم، كثيرة الضبط؛ لتأمين التصحيف والتحريف، وكانت إذا روتْ قابلتْ بأَصْلِها.

العَالِـمَـةُ الصَّالِـحَـةُ:

* لم يكنِ العِلْمُ مُقْتصراً على جماعةِ الرِّجال وحدهم ، وإنّما ظهرَ اهتمامُ النِّساءِ بالعلْمِ والرِّواية منذُ الهمَسات الأولى للإسلامِ إلىٰ وقتنا الحاضر.

* ففي عَصْر النبوّة الأَزْهر ، كانتِ النِّساءُ يحرصنَ على سماعِ حديثِ النَّبيّ الكريم ﷺ ، وقد طلبْنَ منه ﷺ أنْ يخصِّصَ لهنَّ يوماً يتعلمنَ فيه دونَ الرِّجال؛ وفي الصَّحيحَيْن ما يروي الغُلّة من ذلك.

* أخرجَ الشَّيخان عن أبي سعيد الخُدري ـ رضي الله عنه ـ قال: «جاءت امرأةٌ إلىٰ رسولِ الله ﷺ فقالتْ: يا رسولَ اللهِ ، ذهبَ الرِّجال بحديثك ، فاجعلْ لنَا من نفسِكَ يوماً نأتيكَ فيه ، تعلّمُنا ممّا علمَك اللهُ ، قال: «اجتمعنَ يومَ كذا وكذا»؛ فأتاهُنّ فعلمهنّ مما علّمه الله»[1].

* وكانتِ النِّسوةُ ـ وخصوصاً نساء الأنصار ـ مشغوفاتٍ بالمجالسِ العلميّةِ النّبويّةِ ، وكُنَّ أحياناً يأتينَ بيتَ النَّبيِّ ﷺ كي يستفدنَ منه ، ويتعلّمْنَ بعضَ الأمورِ الخاصّة بهنّ ، ولم يكنِ الحياءُ يحولُ بينهنَّ وبينَ هذا العلْمِ ، حتى حُزْنَ إعجابَ أمِّنا عائشة بنت أبي بكر الصِّديق ـ رضي الله عنهما وأرضاهما ـ فقالت عنهنّ مادحة: «نِعْمَ النِّساءُ نساء الأنصار ، لم يكنْ يمنعهنّ الحياءُ أنْ يتفقهنَّ في الدِّين»[2].

---

(1) أخرجه البخاري في العلم برقم (١٠١) ، ومسلم في البرّ والصّلة برقم (٢٦٣٣) ، وأحمد في المسند برقم (٧٣٥١) عن أبي هريرة.

(2) أخرجه مسلم في الحيض (١/ ٢٦١) ، وأخرجه البخاري معلقاً عن عائشة في العلم (١/ ٦٠) ، وأبو داود برقم (٣١٦) ، وابن ماجه برقم (٦٤٢).

* ومنذ ذلك الوقت وذلك الزّمن المبارك الميمون ، كانَ للنّساءِ دورٌ مهمٌّ وواضحٌ في سَماعِ الحديثِ النَّبويِّ الشّريف ، ثمّ روايتُه وتبليغُه ، ولم يكدْ يخلو عَصْرٌ من العصورِ بعدها إلا نجدُ فيه عدداً ضخماً منَ الرّواياتِ المُسندات ، ومَنْ يطّلعْ ويطالع كتُبَ رواةِ الحديث النّبوي ، وكُتُبَ التّراجم والسِّير يَجِدْ حَشْداً هائِلاً منَ المحدثات اللائي سمعْنَ الحديثَ النّبوي ورويْنَه ، وأخذ عنهنّ جلّةُ الحفّاظ ، وكبار المحدثين ، وأعلياء المُسندين ، وكبراء العلماء والمصنّفين.

* وعندما نمرُّ في سِيَرِ محدّثاتٍ ومسنداتٍ وعالماتِ القرنِ الخامس الهجريّ ، تستوقفُنا سيرةُ امرأةٍ جليلةِ القَدْر ، رفيعة الذّكْر ، من صوالحِ نساءِ عَصرها ، ومن عالماتِ نساءِ المشرقِ العربي ، وهذه المرأةُ اسمها كريمةُ بنتُ أحمد بن محمد بن حاتم المروزيّة[1] ، وتكنى أمّ الكرام ، وأصلُها من مرو الشّاهجان[2] من خراسان ، أمّا مولدها فكانَ في الرّبعِ

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٢٣ ـ ٢٢٥) ، وتاج العروس (٩/ ٣٢١) ، والبداية والنهاية (١٢/ ١٠٥) ، والكامل (١٠/ ٦٩) ، وشذرات الذهب (٥/ ٢٦٦) ، والعبر (٣/ ٢٥٤) ، والدر المنثور (ص ٤٥٨) ، والمنتظم (٨/ ٢٧٠) ، وأعلام النساء (٤/ ٢٤٠) ، وبرنامج ابن جابر الوادي آشي (ص ١٩٠ ـ ١٩١) بتحقيق د. محمد الحبيب الهيلة ـ تونس ـ (١٤٠١ هـ) ، وغيرها كثير.

(٢) «مرو الشَّاهجان»: هي مرو العظمىٰ ، أشهرُ مُدنِ خُراسانَ وقصبتُها ، والنّسبةُ إليها مروزيّ على غيرِ قياس. (معجم البلدان ٥/ ١١٢ و١١٣).
ـ ومعنى مرو بالعربيّةِ: الحجارةُ البيضُ التي يقتدحُ بها النار؛ إلا أنَّ هذا اللفظَ عربيٌّ ، ومرو ما زالت عجميّة ، وقد زارها ياقوتُ الحموي صاحبُ كتابِ «معجم البلدان» ، ولم يرَ بها شيئاً من هذهِ الحجارة.
ـ وأمّا الشّاهجان ، فهي فارسيةٌ معناها: «نَفْس السُّلطان» ، لأنَّ الـ «جَان» هي النَّفْس أو الرُّوح؛ و«الشَّاه»: هو السُّلْطان ، وسمّيت بذلك لجلالتها عندهم.
و«المروان»: بلدان بخُراسَان ، إحداهما هذه مرو الشّاهجان ، والأخرى يُقال لها: =

الأخيرِ من القَرنِ الرّابع الهجْريّ حوالي سنة (٣٦٣ هـ) تقريباً ، حيث خرجَ بها أبوها من مرو الشّاهجان إلى بيتِ المقدس ، ثمّ عاد بها إلى مكّةَ ، وهناك جاورتْ بحرمِ الله .

* وتحكي سيرةُ كريمة المروزيّة هذه أنَّها نشأَتْ نشأةً علميّة دينيّة ، فقد أحبَّتْ علومَ الدِّين وخاصّة عِلْم الحديث النّبويّ الشّريف الذي بلغَتْ فيه مكانة كبيرة ، حتى عُرِفت بأنّها هي التي تروي صحيح البُخاري ، وأضحت رُكْناً حصيناً للحديثِ وروايته في عَصْرها .

اهتِمَامُهَا بِالعِلْمِ وَضَبْطِهِ :

* من الواضحِ في سيرِ هؤلاء العالماتِ المحدّثات في مختلفِ القُرون أنهنّ كُنَّ من المسارعاتِ إلى ساحة روايةِ الحديث ، حيث كان لهنّ نصيبٌ وافرٌ وحظٌّ عظيمٌ في هذا المجالِ العظيم .

* إنَّ هؤلاءِ العالماتِ المُسلمات استطعْنَ أنْ يقمنَ بأنشطةٍ علميةٍ تعودُ بالخيرِ والنَّفع علىٰ المجتمعِ ؛ وأنْ يتركْنَ بصماتٍ واضحات في تاريخ نساءِ المشرقِ العربيّ .

= «مرو الرّوز» ؛ والرَّوز هو بالفارسيّة : النَّهر ، فكأنَّهما مرو النَّهر . (معجم البلدان ٥/ ١١٢ وما بعدها) .

ـ ومرو الشّاهجان هي مدينةُ العِلْمِ والعُلماء ، وقد أخرجَتْ منَ الأعيانِ والعُلَماء مالم تخرجْهُ مدينةٌ أخرى ؛ وحسبُكَ أنْ تعلمَ أنَّ من هذهِ المدينة : إمامُ السُّنَّة الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل ، وسفيانُ الثّوري ، وإسحاقُ بنُ راهويهِ ، وأبو بكر القفَّال ، وأبو إسحاق المروزيّ الشّافعي ، وعبدُ الله بنُ المبارك ـ رحمهم الله جميعاً ـ . وفي هذه المدينةِ يقول الشاعر :

لَيالٍ بمـروِ الشّـاهجـان وشملُنـا ... جميـعٌ سَقـاكِ اللهُ صَـوْبَ عِهَـادِ
سَرقنـاكِ من ريْبِ الزّمانِ وصرفهِ ... وعيـنُ النّـوىٰ مكحـولـةٌ بسهـادِ
تَـنَبّـهَ صِرفُ الدَّهرِ فاستحدثَ النّوى ... وصيَّـرَنـا شتّـى بكـلِّ بـلادِ

* وقد ظهرَ اهتمامُ كريمة المروزية بالعلْمِ وخصوصاً رواية الحديث وضَبْطه ، فقد روت كريمةُ صحيحَ البخاري عن عددٍ من العلماءِ الأثْبَاتِ الثّقات ، حيث سمعتْ من أبي الهيثم محمّد بن علي المروزيّ الكُشْمَيْهَني[1] وروتْهُ عنه. . . ، وسمعتْ من زاهر بن أحمد السَّرخْسي[2] ، ومن عبد الله بن يوسُف بن بامُويه الأصبهاني[3] .

* وكانت كريمةُ بنت أحمد المروزية شديدةَ الدِّقَّةِ لما تنقلُ منَ العِلْمِ والرِّواية ، وكانت شديدةَ الاهتمام بذلك فتضبِطُ كتابَها ضَبْطاً تامّاً كي تأمنَ التَّصحيف أو التَّحريف ، أو الالتباس ، وتقابل بنسخِها عمن نقلَتْ عنه ليكونَ أقرب إلى الدِّقَّة والصِّحَّة والحقيقة والصَّواب.

* قال الإمامُ الذَّهبي عن حُسْنِ روايتها ، وضبطِها وصحّة مقابلتها

---

(١) أبو الهيثم محمد بنُ مكّيّ المِروَزيّ الكُشْمَيْهَني ـ نِسْبةٌ إلى كُشْمَيهن قريةٌ بمرو ـ راويةُ البُخاري عن الفربريّ ، توفيَ يوم عَرَفة سنَةَ (٣٨٩ هـ) ، وكان ثقةً وله رسائلُ أنيقةٌ. (شَذَرات الذّهب ٤/ ٤٧٨).

(٢) زاهرُ بنُ أحمدَ السَّرخسيّ أبو عليّ ، فقيهٌ شافعيٌّ ، أحدُ الأئمةِ ، روىٰ عن أبي لبيد السَّامي ، والبغويّ ، وطبقتهما.
ـ قال الحَاكمُ: «شيخُ عَصْره بخراسانَ ، وكان قد قرأَ على ابنِ مُجاهد ، وتفقَّه علىٰ ابنِ إسحاقَ المروزيّ ، وتأدَّبَ على ابنِ الأنباريّ ، وأخذَ عِلْمَ الكلامِ عن الأشعريّ ، وعُمِّر دهْراً».
ـ وقالِ ابنُ قاضي شهبة: «كان يقولُ عند الموتِ: لَعَنَ اللهُ المعتزلةَ ، مَوَّهُوا ، ومخْرقُوا».
ـ مات السّرخسيّ في ربيع الآخر سنة (٣٨٩ هـ) ، وله (٩٦ سنة) ، (شذرات الذَّهب ٤/ ٤٧٧).

(٣) عبدُ الله بنُ يوسُف بنِ أحمد بن باموية أبو محمد المعروف بالأصبهانيّ ، نزلَ نيسابور ، وكان منْ كبارِ الصُّوفيّة ، وثقاتِ المحدّثين الرَّحالة ، روىٰ عن أبي سعيدِ بنِ الأعرابيّ ، ومحمد بنِ الحُسين القطّان ، وجماعةٍ ، وتوفيَ في رمضان سنة (٤٠٩ هـ) ، ولهُ (٩٤ سنة). (شذرات الذَّهب ٥/ ٥٣ و٥٤).

واهتمامِها بالرّواية: «وكانت إذا روت قابلَتْ بأصْلِها»[1].

* وعن دقّةِ ضبطها ومقابلتها يقولُ ابنُ العماد: «وكانت تضبطُ كتابَها، وتقابلُ بنسخِها»[2].

* وممّا يُضاف إلى رصيدِ كريمة بنت أحمد هذه، أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد رزقَها نباهةً، وحَباها فهماً، تدركُ بهما العِلْم، وتحفظُ ما تسمعُ، وما تقرأُ، حتى إذا ما تمكّنتْ واشتدَّ ساعِدُها بالرِّواية والعِلْمِ، أصبحتْ إحدىٰ العالماتِ المُسندات في عَصْرِها، حتى عدّها ابنُ الأهدل من الحفّاظ، وهذه منقبةٌ كبرىٰ لها، بل إنَّ محدّث هَرَاة أبا ذرّ قد وصّى الطلبة ألّا يأخذوا الجامع الصَّحيح إلاّ عنها، لذا تهافَتَ الآخذون عنها من العلماء والكبراء كما سنرىٰ في الفقرة التّالية.

كَـرِيْمَـةُ وَالآخِـذونَ عَنْهَـا:

* عُرِفَتْ كريمةُ المروزيةُ بأنّها عالمةٌ فاضلةٌ ذات نباهةٍ وفَهْمٍ واستيعاب، وكانت أكثر ميولها العلميّة تبدو في محبّة الحديثِ النّبويّ وروايته حتى بلغَتْ فيه حدّاً عظيماً لم تكدْ تبلغُه امرأةٌ غيرها في عَصْرِها، حيث احتلّت روايةُ الصَّحيح جوانِحَها، وحتّى عُرفت به.

* ذكرَ الإمامُ الذَّهبي هذه النّاحية المهمّة في سيرتها فقال: «روتِ الصَّحيح مرّاتٍ كثيرة، مرّة بقراءةِ أبي بكر الخطيب في أيّام الموسمِ»[3].

* ولهذا فإنّها لما بلَغتْ هذه المكانة الرَّفعية في الرّوايةِ، شُدَّت إليها الرِّحالُ، وقدمَ أفاضلُ العلماء من جميعِ الأقطارِ كي يستفيدوا ممّا علّمها

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٣٣).
(٢) شذرات الذهب (٥/ ٢٦٦).
(٣) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٣٣). و«الموسم»: موسم الحج.

اللهُ من هذا العلْمِ الشَّريف ، حتى أخذَ عنها عددٌ منَ العُلماء الكبار ممن لا يُحْصَون.

* وتذكرُ المصادر المتنوِّعة التي وصلَتْ إلينا بأنَّ الآخذين عن كريمةَ بنتِ أحمد المروزيّة هم صفوةٌ من أعلامِ العُلماء ، وثلّةٌ منَ الأئمةِ الكبار الذين ملؤُوا بعلمِهم البقاعَ والأمصار ، وشغلُوا بمسائِلهم النّافعة العلماءَ الكبارَ؛ فقد قرأَ عليها وحدَّث عنها من الأئمة المشَاهير : الخطيبُ البغدادي ، وعليُّ بنُ الحسين الفرّاء ، وأبو المظفّر منصور بن السَّمعاني ، وأبو الغنائم النَّرسي(١) ، وأبو طالب الحُسين بن محمد الزَّينبي ، ومحمدُ بن بركات السَّعيدي ، وعبدُ الله بن محمد بن صدقة بن الغزال ، وأبو القاسم علي بن إبراهيم النّسيب ، وآخرون كثيرون من أهلِ العِلْم من الأكابر والفقهاء(٢).

* ولعلّنا ندركُ مكانةَ كريمةَ المروزية العلميّة إذا عرفنا أنّ من تلامذتها : الخطيب البَغْداديّ ، والفَرّاء ، والسَّمْعاني ، فما ظنُّك بامرأةٍ هؤلاء الأعلام من تلامذتها ، وممن تلقّوا الرّواية عنها؟!

---

(١) «النّرسي» : أبو الغنائِم محمدُ بنُ عليّ بن ميمون الكوفيّ الحافظُ القارىءُ ، لُقِّبَ أُبَيّاً لجوْدَةِ قراءتِه ـ تشبيهاً بالصَّحابيّ الجليلِ أبيّ بن كعب ـ ، وكانَ ثقةً ذا إتقان.
ـ روى عن محمد بن عليّ بنِ عبد الرحمن العلويّ وطبقته بالكوفةِ ، وعن أبي إسحاقَ البرمكيّ وطبقتهِ ببغدادَ ، ونابَ في خطابةِ الكوفةِ ، وكان يقولُ: «ما بالكوفةِ منْ أهل السُّنَّة والحديثِ إلاّ أنا».
ـ وقال ابنُ ناصر : «كان ثقةً حافظاً مُتقناً ، ما رأينا قَبْلَه؛ كان يتهجّدُ ويقومُ الليل».
ـ وكان أبو عامر العبديّ يثني عليه ويقول: «خُتِمَ به هذا الشَّأن».
وكان ينسخُ ويتعفّفُ ، توفي في شعبانَ سنة (٥١٠ هـ) وعمره (٨٦ سنة). (شذرات الذهب ٦/ ٤٧).

(٢) انظر: البدايةَ والنّهاية (١٢/ ١٠٥) ، وسير أعلام النّبلاء (١٨/ ٢٣٤) مع الجمع والتّصرّف.

هـلْ رأىٰ إنْـسَـانٌ مثْـلَ كَرِيْمَـةَ؟

* كريمةُ ابنةُ أحمد المروزيّة هذ امرأةٌ نادرة في فنّ التَّحديث ، وفنّ التّعليم والإقراءِ والرِّواية ، فقد كانت تجيدُ ما تعلمُه وما تعرفُه ، فقد تلقَّتْ عنِ الأكابرِ ، وتَـتَـثَـبَّـتُ من ذلك تماماً ، لذا فإنّها لما تصدَّرت للإقراء والتّحديث علَّمَتْ تلامذتها هذه العادةَ الكريمةَ المباركة التي تحقّقُ الهدفَ المنشودَ من العِلْم ، وبالتَّالي يكون المتعلّم متقناً ثبتاً دقيقَ المعرفة ، فلا تسمح أنْ تمرَّ فكرة أو كلمة دون مراجعة وتثبّت مع طلابها .

* روى أبو الغنائم النّرسي القارىء المتقن المجود ، ما حدَثَ له مع أستاذته العالمة المتقنة الضَّابطة كريمة من حرصِها على القراءة الصَّحيحة ، ومعارضة ما تمليه معه فقال: «أخرجتْ كريمة إليَّ النُّسخة بالصَّحيح ـ أي صحيح البخاري ـ فقعدتُ بحذائِها ، وكتبتُ سبعَ أوراق ، وقرأتُها ، وكنتُ أريدُ أنْ أعارضَ وحدي؛ فقالت: لا؛ حتّى تعارضَ معي ، فعارضتُ معها»[1] .

* وقال أبو الغنَائم أيضاً: «وقرأتُ عليها من حديثِ زاهر»[1] .

* وقال أبو بكر بن منصور السَّمعاني[2] : «سمعتُ الوالدَ يذكرُ كريمة

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٣٤).

(٢) أبو بكرِ السَّمْعاني تاجُ الإسلام ، محمّدُ بنُ منصور بنِ محمّد التّميميّ المِروزيّ الحافظُ ، والدُ الحافظِ أبي سَعْد ، وُلدَ سنة (٤٦٦ هـ)؛ وكانَ بارعاً في الحديثِ ومعرفتهِ ، والفِقْهِ ودقائقه ، والأدبِ وفنونهِ ، والتَّاريخِ والنَّسَبِ والوعظِ ، روىٰ عن جماعةٍ منَ الكبراء في عدد منَ البلدان.
ـ قال عبد الغَافِر في «الذّيل»: «هو الإمامُ ابنُ الإمام ابنِ الإمام ووالد الإمام ، شابٌّ نشأَ في عبادةِ اللهِ تعالى ، وفي التَّحصيل في صِبَاه ، حتّى أرضى أباهُ ، حظيَ من الأدبِ والعربيّةِ ، وتميَّز فيهما نظْماً ونثراً بأعلىٰ المراتبِ ، ثمَّ برعَ في الفقْهِ مستدرّاً=

ويقول: وهل رأىٰ إنسانٌ مثلَ كريمة»[1]؟

* ومنَ الجديرِ بالذّكر أنَّ والدَ السَّمعاني هذا هو منصور بن محمد التّميميّ المِروزيّ ، كان من أئمةِ عصره في العلْم ، وله مصنّفاتٌ كثيرةٌ ، وله تفسير جيّدٌ ، وجمعَ في الحديث ألفَ جزء من مئةِ شيخ؛ هذا العَلَمُ العالمُ الكبيرُ يشهدُ لأمّ الكرام كريمة المروزية بالتفرّد في عالَم النّساء في ميدان العلم ، وأنّه لا يوجد لها شبيهٌ في مِصْرِها .

* وقد زيّنَت كريمةُ هذه الفَضَائلَ الكريمةَ بخصائلَ كريمة ، فكانت بالإضافةِ إلى تبحّرها بالعلْمِ والحديثِ والرِّواية ، عابدةً قانتةً وَرِعةً ، شهدَ لها أقرانُها بالصَّلاح والورعِ وكثرةِ العبادة ، مع الإكثار من عَملِ الخيرات .

* قال الحافظُ ابن كثير: «وكانت عالمةً صالحةً»[2].

* وقال الحافظُ الذَّهبي: «ولها فَهْمٌ ومعرفةٌ مع الخيرِ والتّعبُّد»[3].

* وقال ابنُ الجوزي: «وكانت عالمةً صالحةً»[4].

* وقال ابنُ نقطة: «وكانت عالمةً ، تضبطُ كتبَها»[5].

= أخلاقَه من أبيهِ ، بالغاً في المذهب ـ الشافعي ـ والخلاف أقصىٰ مراميه ، وزادَ على أقرانه وأهلِ عصرهِ بالتبحُّر في علمِ الحديث ، ومعرفةِ الرّجال والأسانيد ، وحفْظِ المتون ، وجُمعتْ فيه الخلالُ الجميلةُ من الإنصاف ، والتّواضع والتّودد ، وصنف في الحديث تصانيف كثيرة». توفي بمرو في صفر سنة (٥١٠ هـ) وعاش ثلاثاً وأربعين سنة .

(١) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٣٤).

(٢) البداية والنهاية (١٢/ ١٠٥).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٣٣).

(٤) المنتظم (١٦/ ١٣٥) طبعة دار الكتب العلمية.

(٥) التقييد لمعرفة الرواة والسنن والمسانيد (٢/ ٣٢٤).

* وقال الذَّهبي: «وكانت تضبطُ كتابَها، وتقابلُ نُسَخَها، ولها فَهْم ونباهةٌ وما تزوَّجَتْ قطّ»[1].

* وقال أيضاً: «الشَّيخةُ، العالمةُ، الفاضلةُ، المسندةُ، أمُّ الكرام، كريمةُ المروزيّة المجاورةُ بحرمِ الله»[2]. لهذا كلّه يحقّ لنا أنْ نقولَ مع مَنْ قال: «وهل رأىٰ إنسان مثل كريمة»؟!.

فـي دِيْـوَانِ العَالِمَـاتِ المُعَمَّـراتِ:

* عاشت كريمةُ المروزيّةُ دهراً طويلاً، حتى بلغتْ قرناً من الزَّمان، وظلّتْ على حالِها من الهيبةِ والعلْمِ والمعرفةِ والرِّواية، وظل العلماءُ يشدّونَ رِحالَ العلْمِ نحوها، حيث جاورتْ بمكّة المكرمةِ.

* وظلت كريمةُ خليّةً منَ الأزواجِ، وبقيت طيلةَ عمرها بكْراً لم تتزوجْ، ولم تذكرِ المصادرُ سببَ ذلك، وإنَّما ذكر الذّهبي هذا بقوله: «وماتتْ بكْراً لم تتزوجْ قطّ»[3].

* ولعلّه كان لكريمة إخوة ينفقونَ عليها، إلاّ أنَّ أبا بكر السَّمعاني أفادنا بهذه المعلومة فقال: «وسمعتُ بنتَ أخي كريمة تقول: لم تتزوجْ عمّتي كريمةُ، وكان أبوها من كشميهن، وأمّها من أولادِ السَّيَّاري، وخرجَ بها أبوها إلى بيتِ المقدس، وعاد بها إلى مكّةَ، وكانت قد بلغتِ المئة»[1].
وأفادَ الذَّهبي بأنَّها توفيت سنة (٤٦٣ هـ)[1].

* قال هبة الله بنُ الأكفاني: «حدّثني عبد العزيز بن علي الصّوفي قال:

---

(١) العبر (٣/ ٢٥٤).
(٢) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٣٣).
(٣) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٣٣ و٢٣٤).

سمعتُ بمكّةَ من مخبرٍ بأنَّ كريمة توفيت في شهور هذه السَّنة» ـ أي سنة (٤٦٣ هـ)[١].

* وقال أبو جعفر محمدُ بنُ عسلي الهمذاني: «حججتُ سنةَ ثلاث وستين ـ وأربعمئة ـ فنُعِيَتْ إلينا كريمةُ في الطّريق، ولم أدركْها»[٢].

* وأفادَ ابنُ الأثير بهذه المعلومة فقال: «توفيتْ كريمةُ المروزيّة ـ وهي التي تروي صحيح البخاري ـ بمكّةَ، وإليها انتهى علو الإسناد، إلى أنْ جاءَ أبو الوقت»[٣].

* وقالت زينب فواز العامليّة: «لم تتزوجْ قطّ، وبلغَ عمرها مئة سنة، وتوفيتْ بمكّةَ المكرمة»[٤].

* وقال ابنُ العماد: «وما تزوجت قطّ، وقيل: إنّها بلغت المئة، وتوفيت سنة (٤٦٣ هـ)»[٥].

* وهكذا عاشتْ كريمةُ المروزيّة كريمةَ الجانبِ، كريمةً بالعلمِ، وماتت كريمةً، فرحم الله كريمة، وأكرمها بكرمهِ، وأحسن نُزُلَها، ومثلُ الكريمة فلتكنِ النّساء في ضَبْط العلْمِ وحبّه وتعليمه.

* * *

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٣٤ و٢٣٥).
(٢) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٣٣ و٢٣٤).
(٣) الكامل (١٠/ ٦٩) بتصرف يسير.
(٤) الدر المنثور (ص ٤٥٨)، ولم تذكر سنة الوفاة؛ وانظر: أعلام النساء (٤/ ٢٤٠).
(٥) شذرات الذهب (٥/ ٢٦٦).

المتكلّمة بالقرآن

* قصة مزعومة لا أصل لها.

فـي رحَـابِ الـحَـقِّ:

* لم تكنْ هذهِ المتكلّمةُ بالقُرآنِ الكريمِ سوى امرأةٍ مجهولةٍ لا تُعرفُ هُوِّيّتُها، ولا منْ أينَ أتتْ، ولا أينَ ذهبَتْ، فلا موطنَ لها ولا سكَنَ، ولكنّها - هكذا - اشتهرتْ بأنّها لا تتحدَّثُ إلّا بألفاظِ القُرآنِ الكريمِ.

* وقد زعمَ القُصّاص والمذكّرون وصانِعُو الأَخْبارِ، ومخترعو القَصَصِ والأحداثِ، أنَّ هذه المرأةَ العجيبةَ الأعجوبةَ، لم تكنْ كغيرِها منَ النّساء أو النّاس تنطقُ بالكلام العادي، بل كانت منذُ أنْ شبَّتْ عنِ الطَّوقِ لا تتفوّهُ إلا بآياتٍ منَ القُرآنِ الكريم، وعدُّوا ذلكَ منَ الكَراماتِ والخوارِق، ومنَ الأشياءِ المُدهشةِ التي تزيدُ في رصيدِ هذه المرأةِ الأعجوبة!

* إنَّ القرآنَ الكريمَ سيّدُ الكُتُب وأجمعها، والشَّريعةُ الغراء والسُّنّةُ المطهّرة الزّهراء أوضحُ الشَّرائع وأدقُّها، فمن لم يقرأ القرآنَ الكريم، ويفهمْ معانيه، ويحفظِ السُّنَّة، ويفهمْ مراميها، فلا يصحُّ الاقتداءُ به مهما كانَ أمرهُ، ومهما بلغَتْ شهرتُه، بل مهما زعمُوا وزخرفُوا وصنعُوا له الكَرامات والعَلامات.

* ونحنُ لا ننكرُ الكرامةَ لأحدٍ ما دامَ يسلكُ طريقَ الولاية التي أقرَّهَا كتابُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونُس: ٦٢ ـ ٦٤]. نعم الإيمانُ، والتّقوىٰ عنوانُ الولاية.

* إنَّ أولياءَ اللهِ الذين تحدثَتْ عنهمُ الآياتُ السَّابقة، همْ المؤمنون حقَّ الإيمانِ، المتّقونَ حقَّ التّقوىٰ، والإيمانُ ما وقَرَ في القَلْبِ وصدَّقَه العَملُ؛ والعملُ هو تنفيذُ ما أَمَر اللهُ به، واجتناب ما نهىٰ اللهُ عنه.

* هكذا يجبُ أن نفهمَ معنى الولايةِ لله عزّ وجلَّ ، وأنْ نعيَها تماماً ، لا كما يفهمُه العوام وسوادُ النّاس منْ أنَّ الأولياءَ هم المهبُولُون المخبولُون الذين يدعونَهم بالأولياءِ!! ، ويعتقدون بهم ويعقُدون لهم الولاية والكرامة!!.

* وقد ذهبَ جمهورُ أهل السُّنَّةِ إلى إثباتِ الكرامةِ ، وإلى جوازِ وقوعها منْ أولياءِ اللهِ المؤمنين المتّقين ، الذين لزمُوا الصِّراط المُستقيم ، والنَّهجَ المُستبين ، وراقبُوا اللهَ ، واتّقوه في السِّرِّ والعلانيّة؛ وفي ذلك يقولُ صاحب الجوهرة:

وأثْبِتَنْ لِلأَوْلِيَا كَرَامَهْ   ومَنْ نَفَاهَا فانبذَنْ كَلامَهْ

* وقد عرَّفَ عبد السَّلام اللقاني الكرامةَ فقال: «الكرامةُ أمرٌ خارقٌ للعادةِ غير مقرون بدعوىٰ النّبوّة ، ولا هو مقدّمة لها ، وتظهرُ على يدِ عبدٍ ظاهرِ الصَّلاح ، ملتزمٍ لمتابعةِ نبيّ كُلّفَ بشريعتِه ، مصحوب بصحيحِ الاعتقادِ ، والعملِ الصَّالح ، علمَ بها أو لم يعْلَم»[(١)].

* ولكنَّ بعضَ النَّاسِ قد بالغَ في هذا المجالِ ، فجعلَ من الحبَّةِ قُبّة ، فزاد بذلك الطِّين بلّة ، والقلْب علّة ، واللسان زلّة ، فمن ذلك أنهم ينقلون بعضَ الكراماتِ عن أحدِ مَنْ زعموا أنَّ له كرامات أنّه قال: «سِرتُ إلى مكّةَ على طريقِ التّوكّل حافياً ، فكانتِ الشّوكةُ تدخل في رجلي فأحكُّها بالأرضِ ولا أرفعُها ، وكان عليَّ مِسْحٌ[(٢)] ، فكانت عيني إذا آلمتني أُدلّكُها بالمِسْحِ ، فذهبَتْ إحدى عينيّ»[(٣)].

---

(١) شرح جوهرة التوحيد (ص ٢٠٦).

(٢) «مِسْح»: كساء من شعر.

(٣) انظر: صيد الخاطر (ص ٦٢) بتحقيق يوسف بديوي ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٩م.

* وانظر ـ عزيزي القارىء ـ إلى تخليطِ هذا السَّفيهِ وأمثاله ، الذي خالفَ الأصول والسُّنَن ، وظلمَ نَفْسَه ، وجهلَ بالأحكام ، فظنَّ بعضُ النَّاسِ أنَّ هذا من الكراماتِ ، وعظّموها ، واعتبروا أنّه أعلىٰ مرتبة منْ أعلياءِ الأئمةِ كأبي حنيفةَ ، ومالك ، والشّافعي ، وأحمد ، رضي الله عنهم ورحمهم وحشَرنا في معيّتِهم.

* ومن الألاعيبِ بالعقولِ والنّفوس ، أنّهم يَرْوُون عن ذي النّون العابدِ الزّاهدِ ، صاحبِ الفصاحَةِ والحكمة ، أنَّه لقيَ امرأةً في السِّياحةِ فكلَّمها وكلَّمَتْه ، ونسيَ هؤلاء القُصَّاصُ ، الأحاديثَ الصِّحاح المتواترة في النَّهي عن هذا ، ومنها ما جاء في الصَّحيحَيْن عن أبي هُريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا يحلُّ لامرأةٍ أنْ تسافِرَ يوماً وليلةً إلاّ بمحْرَم»[1].

* وفي خضمّ هذهِ الأقاصيص تطلعُ علينا بعضُ الكتُب ، بقصّةٍ مزعومةٍ عن امرأةٍ ـ غير معروفة ـ ادعوا أنّها منذ أربعينَ سنة لم تتكّلم إلا بالقُرآن ، هذه المرأةُ لا نعرفُ اسمَها ولا رسْمَها ، ولا مكانَها ولا مصْرَها ، إلاّ أنَّ مصممَ القصّةِ ومهندسَها ، ومؤلّفَها ومخرجَها ، جعلَ مكانَها طريقَ الحجّ ، أو عرفة ، وبعضُهم جَعَلَ مكانَها في الطَّريقِ إلى الحجّ ، وبعضُهم جعلَ مكانَها البادية ، وادّعى بعضُهم أنَّ اسمَها «مريم» ، بينما زعمَ آخرون أنَّ أباها يُدعى «نوحاً» ولكي تتمّ الأكذوبةُ جعلوا للقصّة يدَيْن ورجلَيْن ، ولسَاناً وشفتَيْن كيما تتحدثَ بطلاقةٍ ، فهل سمعتم بهذه المرأةِ المتكلّمة بالقُرآن الكريم؟ والتي جعلَ بعضُ المصنّفين عنوانها: المُتكلّمة بالقُرآن[2]؟

---

(١) أخرجه الشيخان: البخاري برقم (١٠٨٨) ، ومسلم برقم (١٣٣٩) من حديث أبي هريرة ، كما أخرجاه من حديث ابن عمر ، فالبخاري أخرجه برقم (١٠٨٦ و١٠٨٧) ، ومسلم برقم (١٣٣٨).

(٢) المستطرف (١/ ٥٦ ـ ٥٧) ، وقصص العرب (٢/ ١٩٠ ـ ١٩٢) ، وصفة الصفَوة =

حكَايَـةُ المُتكلِّمَـةِ بالقُـرآنِ:

* تُـنْسَبُ روايةُ هذه القصّة إلى عبد اللهِ بنِ المبارك[1] ، بل إنَّ بعضَ الكتبُ تنسبها لأكثرَ منْ رجل ، فبعضُها تنْسِبها إلى عبدِ الله بن داود الواسطيّ ، وبعضُهم ينسبُها إلىٰ الأصمعيّ ، كما أنَّ بعضَ المؤلّفين نسبَها إلى بعضِ الصُّلحاء أو الأولياء ، وبعضُهم لا يَعرِفُ لمن ينسبُها ، المهمُّ أن يُورِدوا قصَّةَ المرأة المتكلّمة بالقرآن بشيءٍ من الإعجابِ ، وشيءٍ من هالةِ

= (٤/ ٢٨٦) ، وجـواهـر الأدب (١/ ٣٧٣ـ ٣٧٤) ، وثمـرات الأوراق بهـامـش المستطرف (٢/ ٢٣٤) ، وروضة العقلاء (ص ٧٢ ـ ٧٣) ، والاقتباس من القرآن الكريم (٢/ ٧ ـ ٩) ، وغيرها.

(١) عبدُ الله بنُ المبارك الحنظليّ المروزيّ الفقيهُ الحافظُ الزّاهدُ ذو المناقب ، جمَع العِلْمَ والفِقْهَ والأدبَ والنّحو واللغةَ والشّعرَ وفصاحةَ العرب مع قيامِ الليل والعبادةِ؛ وكانَ عبدُ الله واحدَ وقتهِ ، وفيه يقول الشّاعر:

إذا سـارَ عبـد اللهِ مـنْ مـرو ليلـة ... فقـد سـارَ منهـا نـورُهـا وجمـالُهـا
إذا ذُكِـرَ الأخيـارُ فـي كـلّ بلـدةٍ ... فهـم أنجـمٌ فيهـا وأنـتَ هـلالُهـا

ـ وكان عبدُ الله كثيراً ما يتمثّلُ بهذَيْن البيتَيْن:

وإذا صـاحبـتَ فـاصحـب صـاحِبـاً ... ذا حيـــاءٍ وعفَـــافٍ وكَـــرمْ
قـــائـــلاً للشّـــيء لا إنْ قلـــتَ لا ... وإذا قلـــتَ نعـــم قـــالَ نعـــمْ

ـ قال الذّهبيُّ: «كانَ رأساً في العِلْم ، رأساً في الذّكاء ، رأساً في الشّجاعة والجهادِ ، رأساً في الكرم». وقال الذّهبي أيضاً: «شيخُ الإسلام ، فخرُ المجاهدين ، قدوةُ الزّاهدين ، صاحبُ التصانيف النّافعة ، أفنى عمره في الأسفار حاجّاً ومجاهداً وتاجراً. . .» إلى أنْ قال: «والله إنّي لأحبّه ، وأرجو الخيرَ بحبّه ، لِما منَحه اللهُ منَ التّقوى والعبادةِ والإخلاصِ والجهادِ وسعةِ العلْم والإتقان والمواساة والفتوة والصّفات الحميدة». وقال النّووي عنه: «عبد الله بن المبارك أبو عبد الرحمن الإمامُ المُجمع على إمامته وجلالته في كلّ شيء ، الذي تُستنزلُ الرحمة بذكْره ، وتُرتجى المغفرة بحبّه». . ومناقبه كثيرة لا تُحصى ولا تُحصر ، ولد حوالي سنة (١١٨ هـ) بمرو ، وتوفي في الغزو في رمضان سنة (١٨١ هـ) ودفن في بلدة هيت من نواحي بغداد.

التّعظيم ، حتى إنَّ بعضَ الخطباءِ قد جعلَها مادةً دسمةً لخطبةِ الجمعَةِ ، فألقاهَا على المصلّين الذين هتفُوا بالإعجابِ وكبّروا وسبَّحُوا وهلّلُوا و . . . . .

* تقولُ القصّةُ الموضوعةُ المزعومةُ المرصوفةُ المصفوفةُ ، والتي جعلُوا بطلَها وراويها عبدُ الله بنُ المبارك في إحدىٰ حجّاته[1] أنّه التقى المرأةَ المتكلّمةَ بالقرآنِ ، وأنّه روى قصّتَها فقال ما مفادُه ومُحصّله: «خرجتُ مرّةً منَ المرّاتِ حاجّاً إلى بيتِ اللهِ الحرّام ، وزيارة قبرِ نبيّه عليه الصّلاة والسَّلام ، وبينما أنا سائرٌ في بعض الطريق[2] ، إذا أنا بسوَادٍ قد

---

(١) من لطائفِ عبد الله بنِ المبارك ـ رحمه الله ـ أنّه قد خرجَ مرّةً إلى الحجّ ، فاجتازَ ببعضِ البلادِ ، فمات طائرٌ معهم ، فأمرَ بإلقائهِ على مَزْبلةٍ هناك ، وسارَ أصحابُه أمامَه ، وتخلَّفَ هو وراءهم ، فلمّا مرَّ بالمزبلةِ ، إذ بنْتٌ قد خرجَتْ من دارٍ قريبةٍ منها ، فأخذتْ ذلك الطّائر المّيت ، ثم لفَّتْه ، ومن ثمَّ أسرعتْ به إلى الدّار.
ـ فجاءَ فسألَها عن أمرِها وأخْذِها الميتَةَ ، فقالت: أنا وأخي هنا ليسَ لنا شيءٌ إلاّ هذا الإزار ، وليسَ لنا قوتٌ إلا ما يُلقىٰ على هذه المزبلةِ ، وقد حلَّتْ لنا الميتة منذ أيّام ، وكان أبونا له مالٌ ، فَظُلِمَ ، وأُخِذَ ماله ، وقُتِلَ ، فأمرَ ابنُ المبارك بردّ الأحمالِ ، وقال لوكيلهِ: كمْ معكَ منَ النّفقة؟ قال: ألف دينار. فقال: عُدَّ منها عشرين ديناراً تكفينا إلى مرو ، وأعْطِها الباقي ، فهذا أفضلُ من حجّنا هذا العام ، ثمّ رجعَ. (البداية والنّهاية ١/ ١٨٧).
ـ وسأله مرّة سائلٌ ، فأعطاه درهماً ، فقال له بعضُ أصحابه: إنَّ هؤلاء يأكلون الشّواء والفَالوذج ، وقد كان يكفيه قطعةٌ ، فقال: واللهِ ما ظننْتُ أنّه يأكل إلاّ البقلَ والخبزَ ، فأمّا إذا كان يأكلُ الفالوذجَ والشّواء ، فإنّه لا يكفيه درهم ، ثم أمرَ بعضَ غلمانه فقال: رُدّه ، وادفعْ إليه عشرةَ دراهم. (البداية والنهاية ١٠/ ١٧٨).

(٢) وردَ هذا الخبرُ في «روضةِ العُقلاء» على النّحو الآتي: أنبأنا عمرو بنُ محمّد الأنصاري ، حدّثنا الغلابي ، حدثنا إبراهيم بنُ عمرو بن حبيب ، حدثنا الأصمعيّ ، قال: «بينا أطوفُ بالباديةِ ، إذا أنا بأعرابيةٍ تمشي وحدَها على بعيرٍ لها ، فقلتُ: يا أمةَ الجبَّار ، مَنْ تطلبين؟! فقالتْ: مَنْ يهدِ اللهُ فلا مُضلَّ له ومَنْ يضلل فلا هادي له؛ فعلمتُ أنّها قد أضلّت أصحابَها ، فقلتُ لها: كأنّك قد أضللتِ=

ظهرَ من بعيدٍ ، فتميَّزْتُ ذاكَ السَّواد ، فإذا هي عجوزٌ ، عليها درعٌ من صوفٍ ، وخمارٌ من صوفٍ أيضاً ، وكانت تقفُ على قارعةِ الطَّريق .

* فدنوتُ منها، وقلتُ لها : السَّلام عليكِ ورحمةُ اللهِ وبركاتُه يا أَمَةَ اللهِ ، فردّتْ عليَّ السَّلام قائلة : ﴿ سَلَٰمٌ قَوۡلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس : ٥٨](١) . ! !

فقلتُ لها : يرحمكِ الله ما تصنعينَ في هذا المكانِ الموحش المُقفر؟

قالت : ﴿ مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ﴾ [الأعرافُ : ١٨٦] ، فعلمتُ أنَّها ضالّةٌ عن الطّريق وعن أصحابها ، وقد وقفَتْ في هذا المكانِ وحيدةً علَّها تجدُ مَن يهديها إلى طريقها .

فقلتُ لها : ما اسمُكِ يا أَمَةَ اللهِ(٢)؟

قالت : ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ ﴾ [مريم : ١٦] .

قلتُ : ما اسمُ أبيك يا هذهِ؟(٢) .

قالت : ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ ﴾ [نوح : ١] .

فقلت لها : أيّ مكانٍ تريدينَ الآن؟

= أصحابَك؟ قالت : ﴿ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمًا وَعِلۡمًاۚ ﴾ [الأنبياء : ٧٩] ، فقلتُ لها : يا هذه ، مِنْ أينَ أنتِ؟ قالت : ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلًا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا . . . ﴾ ، فعلمتُ أنّها مقدسيّة . ثم يتابعُ القصّة في تشابهٍ أحياناً وخلافٍ أحياناً أخر . (روضة العقلاء ص ٧٢) .

(١) وقد وردَ هذا الخبر في «الاقتباسِ» على النحو الآتي : قال : «قال بعضُ الرُّواة : قال : خرجتُ حاجّاً ، فإذا أنا بامرأةٍ على بعيرٍ وهي تتلو : ﴿ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ ﴾ و﴿ مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ﴾ ؛ فقلت لها : يا أمة الله ، أحسبُك ضالّة . . » ثمّ يتابع الخبر (الاقتباس ٢/٧) .

(٢) لاحظ ـ عزيزي القارىء ـ هذا التكلّفَ الباردَ العجيبَ ، وهذه التّركيبة المهلهلة السقيمة؟

قالت: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١].

فعلمتُ أنّها قد قضَتْ حجّتها، ومسحتْ بالأركانِ مع مَنْ هو ماسِح، وهي تريدُ بيتَ المقدس(١).

فقلت لها: يا أمةَ اللهِ، أنْت مُذْ كَمْ في هذا الموضعِ تنتظرينِ؟

قالت: ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠].

فقلتُ لها: ـ لاحظْ هنا فَنَّ التّزوير ـ ما أرىٰ معكِ طعَاماً تأكُلين؟

قالتْ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾ [الشّعراء: ٧٨ ـ ٧٩].

قلتُ: ألا تريدين الأكْلَ؟

قالت: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ [مريم: ٢٦].

قلت: يا أمةَ الله؛ ليسَ معك ماء، فبأي شيءٍ تتوضئين؟(٢).

قالت: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

فقلت لها: يا هذه، لعلكِ متْعبَةٌ، ولا أرىٰ معك زَاداً، وإنَّ معي بعضَ الطَّعام، فهل لكِ في الأكْل؟!

---

(١) لاحظْ هنا أنَّ المرأةَ قضَتْ حجّها، وراوي القصّة ذاهبٌ إلى الحجّ، فهل يحجُّ هذا والنّاس راجعون؟ أمْ أنَّ ناسجَ القصّة فاتَه هذا العيب، فجاء السَّقط في نسْجهِ!!.

(٢) لاحظْ هذا الاستخفافَ بالعقولِ في هذه التّركيبة العجيبةِ، لكي يتوصّلَ ناسجُ القصّة وحائكها إلى التّيمم!!

قالت: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ﴾ [البقرة: ١٨٧].

فقلت لها: ليس هذا شَهْرُ رمضانَ(١).

قالت: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].

فقلت لها: أنتِ تعلمينَ أنَّه قد أُبيحَ لنا الإفطار في السَّفَر، وقد فعلَ ذلك السَّلفُ منَ الصَّحابة وغيرهم.

قالت: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤](٢).

فقلت لها ـ وقد عجبتُ من أمرِها ـ: يا أمةَ اللهِ، لمَ لا تكلمينَني مثلما أكلمكِ؟!

قالت: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٨].

فقلت لها ـ وقد أحببتُ أنْ أعرفَ عشيرتَها ـ: من أي النّاس أنتِ؟

قالت: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦].

فقلت: يا هذه، لعلّي قد أخطأتُ في حقّكِ، فاجعليني في حلّ ممّا تكلّمتُ.

قالت: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

* وإلى هنا ينتهي هذا الشّوط من القصّة المُتكلَّفَةِ، وينتهي هذا الحوارُ

---

(١) لاحظْ جهلَ واضع القصّة في قوله: «ليس هذا شهرُ رمضان»، فهل في أيّام الحجّ يكونُ شهرُ رمضان؟!

(٢) إنَّ القارئَ الحصيفَ يدرك تماماً أن الإجابة بهذه الآية لا تتوافقُ مع سؤال الرّجل! ولكنْ هكذا أرادَ مخرجُ القصة.

مع هذه المرأةِ المتكلّمة بألفاظِ القرآنِ الكريم ، ولا تحيدُ عن ذلك ، وربما تجيبُ بآيةٍ ، ولو لم يكن الكلام منسجماً!! هكذا يريدُ مَنْ صنعَ هذه القصَّة وركَّبها ورسمَها ولحّنهَا وغنَّاها.

* ثم إنَّ ناسجي القصَّة أرادوا أنْ يتابِعُوا عملَهم ، فجعلوا لها رجلَيْن ، بعد أنْ صنَعوا لها يَديْن قبل قليل؛ والآن فقد أرادوا منَ المرأةِ أنْ تَصِلَ إلى أهلِها وذويها وأولادها ، وجعلوا ذلك أيضاً على لسانِ عبدِ الله بنِ المبارك الذي زعموا أنّه تابعَ روايةَ بقيّة القصّة على النّحو الآتي:

قال عبدُ الله بنُ المبارك متابعاً قصَّة المتكلّمة بالقُرآن:

«قلتُ لها: يا هذه إنّي مرتحلٌ ، فهل لكِ أنْ أحملَك على ناقتي هذه ، فتدركي القافلة[1].

قالت: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

قال عبدُ الله: ولما رأيتُ أنَّ هذه المتكلّمة ترغبُ في الرّكوبِ على ناقتي ، تقدّمتُ منها ، فأنختُ ناقتي أمامَها ، ثم قلتُ لها: يا أمةَ اللهِ ، تقدّمي فاركبي.

فتقدمَتْ وقالت: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: ٣٠][2].

قال عبد الله: فغضضتُ بصري عنها ، وقلتُ لها: اركبي يا أمةَ اللهِ ،

---

(١) لعلَّ واضعَ القصّة ومخرجَها نسيَ أنّه جعلَ ابنَ المبارك في طريقهِ إلى الحجّ ، والآن يريدُ أنْ يعودَ بالمتكلّمةِ بالقرآن إلى طريقِ بيت المقدس ليوصلَها إلى أهلها ، فمتى يحجّ؟ أمْ كيفَ يسوقُ الرّواة والأخباريون والقصّاص مثل هذه القَصَص وهم يَسْتَخِفُّونَ بعقول السّامعين ولا يَسْتَخْفُونَ منَ النَّاس؟ ولا حياءَ عندهم فيصدهم عن الكذب!!

(٢) لاحظْ غضَّ البصر عن العجوزِ! ولِمَنْ؟! لعبدِ الله بنِ المبارك!!!...

وابتعدتُ عنها قليلاً كيما تستوي فوقَ ظهْرِ النّاقة. ولما أرادتْ أنْ تركبَ، نَفَرتِ النّاقةُ ورمَتْها، فمزقَتْ ثيابَها[1]، فقالت: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

فقلتُ لها: اصْبِري يا أمَةَ اللهِ حتّى أعقلَ لكِ النَّاقة حتى لا تنفرَ مرّةً أخرى.

قالت: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩][2].

* ثمّ إنّي تقدمْتُ منَ النَّاقةِ وأنختُها، ثم عقلتُها، وقلتُ لها: اركبي الآن فقد استوثقتُ من عَقْلِ النَّاقة.

* وتقدَّمتِ المرأةُ من النَّاقةِ، وعَلَتْ ظهرَها، فلما ركبتْ قامتِ النّاقة، وبدأتِ المسير، فأخذتْ تتلو وهي على ظَهْرِها: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ ١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزّخرف: ١٣ ـ ١٤].

* وبعد أن استوتِ المرأةُ على ظهْرِ النَّاقة، أخذتُ بزمامها، وجعلتُ أسرِعُ، وأصيحُ على النَّاقة كي تسرِعَ؛ فقالتِ المرأةُ: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ﴾ [لقمان: ١٩][3].

وقصدتُ في مشْيي، وخففْتُ من سُرعتي، وجعلتُ أمشي بالنَّاقَةِ

---

(١) لعلَّ واضعَ القصةِ أرادَ أنْ تتمَّ الحبكةُ في صياغته هذه القصّة القصيرة، أو هذه المسرحية الصّغيرة ـ إنْ صحَ التّعبير ـ فجعلَ المرأةَ تقعُ عن النّاقة، وتتمزّقُ ثيابها، ولكنّه ـ مع الأسف ـ نسيَ أنْ يستعيرَ لها ثياباً لتسترَ جسْمَها!!!.

(٢) لاحظْ هذه التّركيبةَ العجيبةَ، والخلطةَ الغريبةَ المريبةَ!! لكي تتمَّ الكذبة، ويتمّ وضْعُ الكلام حَسبَ هوى القُصّاص، وإنْ لم يكنِ الكلامُ في محلّه المناسب.

(٣) منَ المُلاحَظ لدىٰ كلّ ذي بَصَرٍ وبصيرة؛ أنَّ هذا تعريضٌ بسائقِ النّاقة، والقارىءُ اللبيبُ يدركُ ذلك منْ سياقِ الآية، ولكنَّ الناسجَ فاتَه ذلك!!..

رويداً رويداً حتى لا تشعرَ هذه المرأةُ ـ العجيبةُ ـ بوعثاءِ السَّفر ومشقّة الطَّريق.

* ولمّا طالَ عليَّ المسيرُ، وكدتُ أسأمُ منْ طولِ الطَّريق، أخذتُ أترنَّمُ بشيءٍ منَ الشّعر كيما أسلّي به نفسي، وأقطعُ به المسافة، وهنا هتفتِ المرأةُ وقالت: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠][1]؛ فقلتُ لها ـ وقد غبطتُها على هذه الخصائِلِ الجميلة والحصائِلِ اللطيفة، والفضائِلِ الحسَنة ـ: لقد أوتيتِ خَيْراً كثيراً، فهنيئاً لكِ، وزادك الرحمنُ خيراً وحكمةً، فقد بلغتِ الغايةَ في التّقوى، باركَ اللهُ فيك يا أمةَ اللهِ.

قالت: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

* وأخذتُ أمشي وأقطعُ الطَّريق، ولما مشيتُ بها مسافةً، قلتُ لها: يا هذه، ألَكِ زوج[2]؟

قالت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١].

* وعند ذلك سكتُّ ولم أكلمْها مُطْلقاً، وما زلتُ أقطعُ بها الطَّريقَ حتى أدركتُ بها القافلة، وإذ ذاك لابدَّ منَ الكلام معها، فقلتُ لها: هذه القافلة، فمن لكِ فيها؟ فقالت: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦].

فعلمت أنَّ لها أولاداً، وأنّهم موجودون في القافلةِ بين النَّاس، فقلتُ لها: وما شأنهم في الحجّ وأين أجدهُم وكيف؟ قالت: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ

(١) لاحظْ هذه التّركيبة السّاذَّجة!!.

(٢) لاحظ هذا السّؤال السَّخيفَ!! وذلك بعد الحوار المركب المصنوع.

هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ [النّحل: ١٦]، وعندها عرفتُ أنَّ أولادَها هم أدلّاء الرّكب[١]، وهم منَ الماهرين في الطّريق؛ فقصدتُ بها القِبابَ والعمارات، فقلتُ: يا أَمةَ اللهِ، هذه القبابُ، فمن لكِ فيها منَ الأولاد؟!

قالت: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴾ [النّساء: ١٢٥].

﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ [النّساء: ١٦٤].

﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ ﴾ [مريم: ١٢].

وأخذتُ أنادي بأعلى صوتي: يا إبراهيم، يا موسىٰ، يا يحيى[٢].

* وما هي إلا لحظات يسيرة حتى جاءَ شبّان ثلاثة كأنّهُم الأقمار، وقد أقبلوا ينْسِلُون من هاتيكَ البيوت، وسلموا على أمّهم وعليَّ؛ ولما استقرَّ

---

(١) لاحظ ـ عزيزي القارىء ـ أن أولادها أدلاء الركب، ونسوا أمهم في الطريق؛ ولعل ناسخ القصة هو الذي نسي ذلك.. إن الكذب حبله قصير!! أليس كذلك؟!

(٢) وردَ هذا الخبرُ وهذا المقطعُ هنا في «روضةِ العُقلاء» على النّحو الآتي: «فبينما نحنُ نماشيها إذْ رُفعَتْ لنا قبابٌ وخيَمٌ، فقالت: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾، قال: فلمْ أفطَنْ لقولها، فقلتُ: ما تقولينَ؟ فقالت: ﴿ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ ﴾، فقلتُ: بمنْ أصوّتُ وبمن أدعو؟ فقالت: ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ ﴾، ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ﴾؛ ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾؛ قال: فإذا نحن بثلاثة إخوةٍ كاللآلىء، فقالوا: أمّنا ورب الكعبة، أضللناها منذ ثلاثٍ!! فقالت: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴾، فأومأتْ إلى أحدهم فقالت: ﴿ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ ﴾ فقلتَ: إنّها أمرتهم أنْ يزوّدونا، فجاؤوا بخبزٍ وكعْك...». (روضة العقلاء ص ٧٢ ـ ٧٣).

ـ بينما وردَ هذا الخبُر من هذه النّقطة في الاقتباس: «.. فأشرفتُ على قافلةٍ شاميّة تريدُ مكّة، فأشارتْ بيدها تريدُ ﴿ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾؛ فعلمتُ بأنّها اهتدتْ لمن فقدت، فقلتُ: لِمَنْ أنادي؟ قالت: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ ﴾، وقالت: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾. فناديتُ: يا يحيىٰ، يا زكريا، يا داود، فجاءَ فتيان يتعادُونَ فإذا هم بنوها...». (الاقتباس من القرآن الكريم ٢/ ٨).

بهم الجلوس؛ توجَّهَتْ إليهم، وخاطبتْهُم قائلةً: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا...﴾ [الكهف: ١٩].

* وانطلقَ أحدهُم ممتثلاً أمْرَ والدتِه ولم يتوقَّف، وبسرعةِ الرّياح اشترىٰ طعاماً طيّباً، وجاء بهِ سريعاً، ثمّ إنّهم أعدّوا الطَّعام، وقدّموه بين يدي كيما آكلَ معهم، فقالت لهم: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]؛ فدعاني أولادُها لأشاركهم الطَّعامَ والشَّراب، فقلتُ لهم: واللهِ إنَّ طعامكم الآن عليَّ حرام، ولن يدخلَ جوفي منْهُ شيءٌ، أو تخبروني خَبَرَ هذه المرأة التي حِرْتُ في أمرِها وأحوالها.

فقالوا: حسَناً أيّها الرّجُل الصَّالح؛ إنَّ هذه أمّنا، وهي منذ أربعين سنة لم تتكلّم إلاّ بالقُرآن العظيم مخافةَ أنْ تزلّ، فيسخط عليها الرّحمن»[١].

* ولكي تتمّ حبكة القصّة، بل المسرحيّة وفصولها، زاد بعضُ النسَّاجين والأخباريين هذا الفَصْل، وهذه الزّيادة غيرِ المعقولة، وجعلَ للمرأةِ المتكلّمة بالقرآن نهايةً ووفاةً ثمّ بعد الوفاة رؤيا وأحلاماً ومناماتٍ؛ ومن العجيب أنّه قد رآها في الجنَّة، ومع وجودها في الجنَّة ـ طبعاً لا نعرفُ أي جنّة ـ تتكلَّم في القُرآن، فلنستمعْ إذاً إلى الفَصْل الأخير والمُلحق بهذه القصّة المُمسرحة.. قال راوي القصّة: «... فلما أكلت هجعت قليلاً؛ فقلتُ لها: ما شأنُكِ يا أمةَ اللهِ؟! قالت: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]؛ فلما ماتَتْ، رأيتُها في المنام فسألتُها: كيف حالك بعد لقاءِ اللهِ؟! فقالت: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤ ـ ٥٥][٢].

(١) انظر: المستطرف (١/٥٦ـ٥٧)، وجواهر الأدب (١/٣٧٣ـ٣٧٤)، وقصص العرب (٢/ ١٩٠ ـ ١٩٢)، مع الجمع والتصرف؛ وانظر المصادر المشار إليها سابقاً.

(٢) نجدُ في بعضِ المصادر نهايةً عجيبةً للقصّة، فقد جاء في «روضة العُقلاء» ما يلي: =

* وإلى هنا ينتهي هذا المُسلسل عند بعضِ الرُّواة ، أما ابنُ الجوزي ، فقد ذكرَ في «صفة الصَّفوة» قصَّة عابدة لُقِيَتْ في عرفةَ بمكةَ المكرمةِ ، ولكنْ علىٰ الرّغم منْ أنَّ هذهِ العابدةَ كانت في عَرفَة ، إلاّ أنّه لا يعرفُها أحدٌ حتّى راوي القصّة لم يعرفْها ، وإنَّما كانت تتكلّمُ بألفاظِ القرآنِ الكريم.

إذاً ، فلنستمعْ قصَّةَ العابدةِ المتكلّمة بالقرآن عند ابن الجوزي ، حيث ذكر أنَّ عبَد الله بنَ داود الواسطيّ قال: «بينا أنا واقفٌ في عرفَات؛ إذا أنا بامرأةٍ وهي تقولُ: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٦ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ﴾ [الزّمر: ٣٦ ـ ٣٧]؛ فقلتُ: امرأة ضالّة؛ فنزلتُ عن بعيري ، وقلتُ لها: يا هذه ما قصّتكِ؟

فقالت: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

= «فدنوتُ منها ، فقلتُ: يا أمَةَ اللهِ ، أوصيني! فقالتْ: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى: ٢٣]؛ فَعلمتُ أنّها شيعيّة ، فانصرفتُ». (روضة العقلاء ص ٧٣).

ـ وفي كتاب «الاقتباس» ، جاءت النّهاية على النّحو التالي: «فأكلتُ ، وخرجتُ ساعةً فقلْتُ: أوصيني ، فقالت: ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى: ٢٣]؛ فعلمتُ أنّها متشيّعة ، فركبتُ ، وانصرفتُ». (الاقتباس ٢/ ٩)!!!.

ـ وهناك قصصٌ كثيرةٌ جداً تشبهُ هذه القصّة ، ومنها ما جاءَ في كتاب «نوادر الأخبار» قال: «قال الشّبلي ـ رحمه الله ـ: رأيتُ امرأةً في الطّواف وهي تصرخُ وتقولُ: هذا بيتُ ربيَ ، هذا بيتُ محبوبي ، هذا بيتُ سيّدي ، ثم وضعَتْ خدَّها على البيتِ وقالت:

الشّوقُ حيّرني والشّوقُ طيّرني ... والشّوقُ أقْلقَني والشّوقُ أحرقَني
والشّوقُ قرّبني والشّوقُ أبعدني ... والشّوقُ أيْسَرني والشّوقُ أطلقني
والشّوقُ هذبني والشّوقُ أسعدني ... والشّوقُ فرّق بينَ الجفْنِ والوسنِ

ثم سكتَتْ فإذا هي ميتة ـ رحمة الله عليها ـ». (نوادر الأخبار ص ١٩٦).

فقلت: حروريّة لا ترىٰ كَلامنَا.

ثمّ قلتُ لها: منْ أينَ أنتِ؟

فقرأتْ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ. . .﴾ [الإسراء: ١]؛ فأركبتُها بعيري، وقفلتُ بها أريدُ رحالَ المقدسيّين، فلمّا توسّطتُ قلتُ لها: يا هذه، لمن أصوِّتُ؟!

فقرأتْ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]، ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [مريم: ٧]، ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢].

* فناديتُ: يا زكريا، يا يحيى، يا داود؛ فخرجَ إليّ ثلاثةُ فتيان من بينِ الرّجال؛ فقالوا: أمُّنا وربِّ الكعبة ضلَّتْ منذ ثلاث، وأنزلُوها وأكرموني، فقلتُ لهم: مالَها لا تتكلَّم؟

قالوا: ما تكلمَتْ منذُ ثلاثين سنة مخافةَ أنْ تَزِلّ»[(١)].

فـي الـمِيـْزَانِ:

* لقد قرأنا قصَّة المتكلّمة بالقُرآن، ولاشكّ في أننا قد استمتعْنَا بها لِطَرافَتِها، ولكنْ لو وضعْنَا هذه القصّة في ميزانِ الحقّ والعَقْل، فهل تصحُّ هذه القصّة كاملة، أم أنَّها صُنِعَت في مصانعِ الأخباريّين والقُصَّاص والمذكّرين؟!

(١) صفةُ الصّفوة (٤/ ٢٨٦). قال ابنُ الجوزيّ ـ رحمه الله ـ: «هذه امرأةٌ صالحةٌ، إلاّ أنّها لِقِلّةِ علمها، لم تَدْرِ أنَّ هذا الفِعْل مَنْهيٌّ عنه، إلاّ أنّها استعملتِ القرآنَ فيما لمْ يُوضَعْ له. قال ابنُ عقيل: لا يجوزُ أنْ يُجْعَلَ القُرآن بدلاً من الكلام لأنَّه استعمالٌ له في غيرِ ما وُضعَ له، كما لو أرادَ استعمال المصحفِ في الوزنِ به، أو توسّده، قال: ويُكْرهُ الصّمتُ إلى الليل، لأنَّ النّبي ﷺ نهى عن صمتِ يومٍ إلىٰ الليل». (صفة الصّفوة ٤/ ٢٨٦).

* في اعتقادِنا وتصوّرنا أنَّ قصَّة المتكلّمةِ بألفاظِ القرآنِ الكريم ضَرْبٌ منَ الأوهام ، وليسَ لها في ميزانِ الشَّرعِ قيمة كبيرة؛ لأنَّه لو كان فيها ذلك ، لألفَينا مَنْ هو خيرٌ منها مَنْ سارعَ إلى ذلك ، وفي مقدمتهم حُفّاظُ القرآنِ الكريم منَ الصَّحابة[1] الكرام ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ ، أو علماءُ التّابعين وفقهاؤهم وأعلياؤُهم؛ وقد رأينا في قصّة المتكلّمة بالقُرآن شيئاً منَ التّنطّع والتّكلّف والصَّنعة وصفِّ الكلام ، وأشياءَ أخرى.

* ولعلّ الذي اخترعَها واحد من الذين خُلِّدوا في السُّجون ، وكان عندهم شيءٌ منَ الأدب ، فطارَ به خيالُه وركَّبَ هذه التّركيبة العجيبة ، وأنشأَ هذه المقامة غير المُتناسقة ، وجعلَ لها بطَلاً منَ المشَاهير ، وعملَ منها روايةً وقصّةً وواقعةً ومسرحيّةً يمكن حدوثها ، وتلطَّف كيما ينالُ ـ بزعمه ـ كُنْهَ القُلوب وأضالعها ، ويأخذَ بمجامعِ الألباب ، وذلك بأن انتقلَ منْ حالٍ إلى حالٍ ، ومنْ حَدَثٍ إلى حَدثٍ ، لأنَّ النَّفس قد جُبِلَتْ على محبّةِ التّحوّل ، وطُبعتْ على إيثارِ التَّنقُّل.

* ثم إنَّ هذا النّسّاجَ الوضّاعَ الذي لم يُحكمْ بين اللحمة والسَّداة ، وطّأَ للقصّةِ توطئةً تلفتُ الأنظار نوعاً ما ، بحيثُ يقفُ السَّامع على أسماءِ أشخاص مشهورين من مثل عبدِ الله بن المبارك ، أو الأصمعيّ ، أو الواسطيّ ، ومن ثم لا يشكُّ السَّامع أو القارىء بالخبر ، ثمّ عرّجَ على مكانِ

---

(١) جمعَ أحد العُلماء الأدباء أسماءَ حفّاظ الصَّحابة للقُرآن الكريم ونظمَهم في قولَه:

لقــد حفــظَ القــرآنَ عَهْــدَ نبيّنــا ... ثمانيةٌ عن سيرةِ الحقّ ما مانوا
أُبــيٌّ أبــو الــدَّردا معــاذُ عبــادةٌ ... تميـمٌ أبـو زيـد وزيـدٌ وعثمــانُ

(لطف السَّمَر ١/ ٢٠).

والثّمانية هم: أُبيُّ بنُ كعب ، وأبو الدّرداء عُويمر ، ومعاذُ بنُ جبل ، وعبادةُ بن الصّامت، وتميمُ الدّاري ، وأبو زيد هو ثابت بن زيد ، وزيد بن ثابت ، وعثمان بن عفان ، ولاشكّ بأنَّ هناك غيرهم.

الحادثةِ ، فكان مرّةً في الطَّريق ، ومرّةً في الأراضي المقدسة ، ثم إنَّه ختمَ رواية المتكلّمة بالقرآن بخاتمةٍ ترضي أذواقَ العامّة بحيث تُرضي نفوسهم ، وترتاحُ قلوبهم ، بعد أنْ ملأَ أذانَهم بمعسولِ الكلام عن هذه المرأةِ الأعجوبة.

* ترى هل توجدُ نساء بهذا المستوىٰ في المشرقِ ، أو المغرب؟! بل هل يستطيعُ إنسانٌ أن يمضيَ حياتَه جميعها في التّحدّثِ بألفاظِ القُرآن الكريم؟!

* إنَّ الإسلام دينُ علمٍ وعملٍ وعَقْلٍ وذوقٍ وجَمالٍ وكمالٍ ، وليس دين قولٍ وفلسفةٍ وآراء. . . وأرجو من القُراءِ الكرام الأفاضل ـ الذين أحببتُهم والذين هم رصيدي الحقيقيّ في هذه الحياة ـ ألّا يغضبُوا وألا يحزنوا وألا يأخذَ على خاطرِهم منّا إذا لم نصدقْ أمثالَ هذا القَصَصَ التي لا تزيدُ في الدِّين شيئاً ولا تنقصُ ، بل هي لونٌ من ألوانِ التَّسليةِ وقطْع الأوقاتِ بالأسْمارِ والأحاديث؛ أمّا قراءةُ القرآنِ الكريم فإنّها من أعظمِ القُربات إلى اللهِ؛ ولا مانع أنْ يقتبسَ الإنسانُ في كلامهِ في الشّعر أو النَّثر آياتٍ من القُرآن الكريم؛ وهاهي كتُب المصادر ودواوين الشّعراء تملأُ الأَسْماع بألوان الاقتباسِ من القُرآن الكريم ، والحديثِ الشَّريف ، وها نحنُ أولاء مع فقْرة لطيفةٍ من الاقتباس نزيّن بها جِيْد هذه الموسوعةِ اللطيفة من نساءِ المشرقِ العربيّ. . .

وقـفَـاتٌ لطيْفَـةٌ مَع الاقتِـبَـاسِ:

* هذه وقفاتٌ بين رياضِ الأدبِ نقتطفُ منْ أزاهِرها الملونةِ ، ما تزيّنُ به موسوعتَنا ، وننتقي من الاقتباساتِ الجميلةِ التي أُولعَ بها الشَّعراءُ قديماً وحديثاً ، ونحنُ مرسلو القولَ في بعضٍ منها.

* قال بعضُ الشُّعراء في الصَّلاةِ على النّبي ﷺ مُقتبساً:

صَلّى الإلهُ على ابْنِ آمِنةَ الذي ... جاءَتْ به سَبْطَ البَنَاتِ كَريما

قُلْ للذين رَجُوا شَفَاعةَ أحْمدٍ ... و﴿وصَلُّوا عليه وسَلِّموا تسليما﴾[1]

* وقال بعضُ أدباءِ العُلماءِ مُقتبساً من سورةِ الحُجرات:

ظُنَّ بالنَّاسِ جميلاً ... واتْبَعِ الخَيْراتِ تَسْمو

واجْتَنِبْ ظَنّاً قبيحاً ... ﴿إنَّ بعضَ الظَّنَّ إثْمُ﴾[2]

* وقالَ في الاقتباسِ من الآيةِ السَّابقة نفسها:

عَاذِلي ظَنَّ قبيحاً ... مُذْ رأىٰ عشْقي ينمُّ

ظَنَّ بي مَا هوَ فيهِ ... ﴿إنَّ بعض الظَّنّ إثمُ﴾[2]

* وقال:

يا غَزالاً قَدْ دهَاني ... لم يكنْ لي منْه علْمُ

لا تظننْ ظنَّ سُوءٍ ... ﴿إنَّ بعض الظَّن إثم﴾[2]

* وقال أحدهم في امرأةٍ سفيْهةٍ سيئةِ الخُلُق والخَلْق:

مَرْأَةٌ ذاتُ سُوءِ خَلْقٍ وخُلقٍ ... بعلُها دونَ سائِرِ الخَلْق يُظْلَم

فَهيُ نارٌ والقُربُ منها عذابٌ ... ﴿ربّنا اصْرِفْ عنَّا عَذَابَ جهنَّم﴾[3]

* وقال ابنُ الرّومي في الاقتباسِ من سورةِ إبراهيم:

لئنْ أخْطأْت في مَدْ ... حكَ مَا أخطأْتُ في منعي

لقد أنزلتْ حَاجَاتي ... ﴿بوادٍ غيرِ ذي زَرْع﴾[4]

---

(١) اقتباس من سورة الأحزاب [آية: ٥٦].

(٢) اقتباس من سورة الحجرات [آية: ١٢]؛ وانظر: شذرات الذهب (١٠/ ٥١٢).

(٣) اقتباس من سورة الفرقان [آية: ٦٥]؛ وانظر: شمامة العنبر (ص ١٣٠).

(٤) اقتباس من سورة إبراهيم [آية: ٣٧].

* وقال أبو القاسم بنُ الحسن الكاتبيّ مُقتبساً من سورتَي آل عمران ويوسُف:

إنْ كُنتَ أزمعتَ على هَجْرِنا		منْ غيرِ مَا جُرم: ﴿فَصْبر جميل﴾[1]
وإنْ تبدّلَتَ بنا غيرَنا فَـ		ـ﴿حَسْبُنا اللهُ ونعم الوكيل﴾[2]

* وما أحسنَ قول مُجيرِ الدّين بنِ تميم في وكيلٍ بدارِ القاضي يدعى بالعزّ:

لا تَقْربِ الشَّرعَ إذا لم تكُنْ		تخْبرُهُ فهو دقيقٌ جَليلْ
ووكّلِ العِزَّ الذي وجْهُه		علىٰ نجاحِ الأمْر أقوىٰ دليلْ
ولا تَمِلْ عنْه إلى غيرِه فـ		ـ﴿حَسْبنا اللهُ ونعم الوكيل﴾[4]

* ومن الاقتباسِ الجميلِ قول أبي جعفر الإلبيري:

يَا صَاحبَ المَالِ أَلَمْ تَسْتَمعْ		لقولهِ ﴿ما عندكم يَنْفَد﴾[3]
فاعْمَلْ به خيراً فواللهِ ما		يبقىٰ ولا أنتَ به مُخلّد

* وقال أيضاً:

إنْ شئْتَ أنْ تجدِ العدوَّ وقد غَدا		لكَ صاحِباً يُولي الجميلَ ويحْسِنُ
فاعْملْ كَما قالَ الخَبيرُ بخلقِهِ		في قولهِ ﴿ادفعْ بالتي هي أحْسَنُ﴾[4]

* وله:

إذا شئتَ رزْقاً بلا حسْبةٍ		فلُذْ بالتُّقى واتّبِعْ سُبُلَه
وتَصْديقُ ذلكَ في قَولهِ		﴿ومَنْ يتّقِ الله يَجْعَلْ لَه﴾[5]

---

(١) اقتباس من سورة يوسف [آية: ١٨].
(٢) اقتباس من سورة آل عمران [آية: ١٧٣]، وانظر: معاهد التنصيص (٤/ ١٠٩).
(٣) اقتباس من سورة النحل [آية: ٩٦]، وانظر نفح الطيب (٣/ ٤٣٤).
(٤) اقتباس من سورة المؤمنون [آية: ٩٦]، وسورة فصلت [آية: ٣٤].
(٥) اقتباس من سورة الطلاق [آية: ٢]، وانظر: نفح الطيب (٣/ ٤٣٥).

* وله:

لا يُقْنِطَنَّـــك ذَنْـــبٌ ... قـد كانَ مِنْـكَ عظيم

فـالله قَـدْ قَـالَ قـولاً ... وهـوَ الجَـوادُ الكَـريم

﴿نبّـىءْ عِبـادِيَ أنّـي ... أنَـا الغفـورُ الـرّحيم﴾[1]

* وقال الأوحديّ:

إنّـي إذا مَـا نَـابَنـي ... أَمْـرٌ نَفَـىٰ تَلـذُّذي

واشْتـدَّ منْـه جَـزَعـي ... ﴿وجهْـتُ وجْهـيَ للـذي﴾[2]

* ومنَ الاقتباساتِ الجميلةِ قول خليل البصيريّ:

لَستُ أهوىٰ سِواكمُ اليومَ حتّى ... أطلب الموتَ في هَواكم حثيْثَا

يـا لقـومٍ مـنْ معشَـرٍ عنّفُـوني ... ﴿لا يكـادونُ يفقَهـون حـديثـا﴾[3]

* وله أيضاً هذا الاقتباس الرّائع:

يا مُبتلَى بذوي المظَالم لا تهنْ ... واصبـرْ فـإنَّ الله كـانَ بَصيـرا

واستنصـرنَّ اللهَ يهـدِكَ عـاجِـلاً ... ﴿وكفى بربّك هادياً ونصيرا﴾[4]

* وله أيضاً:

ذَروا العصيانَ إخوانَ المعاصي ... فمـولاكـم عـزيـزٌ ذو انتصَـار

يَـرىٰ بـالليـلِ مـا بيّتُمـوهُ ... ﴿ويعلمُ ما جرحْتُم بالنَّهار﴾[5]

* وله:

قـال لـي احْـذَرْ رقيبـاً قصَـارىٰ ... سـؤْلـهِ أنْ يكيـدنَـا ويحيْفَـا

---

(١) اقتباس من سورة الحجر [آية: ٤٩]. وانظر المصدر السابق (٣/ ٤٤٠).

(٢) اقتباس من سورة الأنعام [آية: ٧٩].

(٣) اقتباس من سورة النساء آية (٧٨).

(٤) اقتباس من سورة الفرقان آية (٣١).

(٥) اقتباس من سورة الأنعام آية (٦٠).

قلتُ دَعْني منه فلسْتُ أبالي ﴿إنّ كيدَ الشَّيطانِ كانَ ضعيفاً﴾[1]

* والاقتباسُ إذا كانَ من آيةٍ أو من آيتَيْن لا بأسَ به ، وأما سورة بكمالِها ، ففي هذا من إساءةِ الأدبِ ما فيه .

* وهذا بابٌ طويل جدّاً ليس له نهاية ، وقد أفاضَتْ كتبُ البلاغةِ والأدب بذكْرِ كثيرٍ من الاقتباس ، وقد اكتفينا ببعضِ النُّتَف الجميلة في هذا المجالِ الذي استطردنا فيه بالحديثِ، بعد أن عشْنا زَمناً مع المتكلّمة بالقرآن .

* اللهم وفّقنا لتلاوةِ كتابكَ الكريم آناءَ الليلِ وأطرافَ النَّهار ، واجعلِ القرآنَ ربيعَ قلوبنا ، واجعلنا نتخلّق به ، وأدخلْنا برحمتك في عبادكَ الصَّالحين .

* * *

(١) اقتباس من سورة النساء آية (٧٦) .

الباب الرّابع

نساءٌ من العصر الحديث

زينب بنت يوسُف فوّاز

وداد بنت محمّد سكاكيني

زينب بنت يوسف فوّاز

* أديبة ، فاضلة ، لها مشاركة حسنة في الأدب والشعر والنثر ، وبراعة في العلم والمعرفة .
* لها مؤلفات متنوعة في التراجم والسير ، والمقالات ، والرسائل ، والرواية ، والقصة ، والمسرح ، والشعر .

مَـنْ هَـذهِ الـمَـرْأَة؟

* كثيرٌ منْ أهلِ القَلَمِ والبَيانِ؛ واللَّسَنِ واللّسانِ؛ سَمِعُوا بهذهِ المرأةِ، ولكنّهم لا يعرفُون عنها إلاّ النَّزْرَ اليسير؛ وهذا النَّزرُ فيهِ بعضُ الأَغَالِيْط التي جعلَتْ كثيراً منَ المُتأدّبينَ يظنُّون بأنَّها ليسَتْ من نساءِ المشرق.

* وعلى الرّغمِ منْ أنَّ هذهِ المرأةَ منَ المُعَاصراتِ، بيد أنَّ شَطْراً من آثارِها قد تلاشى بين طيّاتِ الزَّمنِ، وأَرْدَانِ خَبايا الزَّوايا، وبعضُه قد هُضِمَ في بُطونِ المجلات التي يصعُبُ العُثورُ عليها الآن؛ بل وجدتُ كثيراً منَ العَناء في جمعِها.

* وهذه المرأةُ واحدةٌ ممّن نبغْنَ في نهايةِ القرن الماضي وأوائلِ القرنِ العشرين، في الوقتِ الذي نَبَغَ ونَبَهَ فيه عباقرةُ العِلْمِ والمعرفةِ والأدبِ في العالَم العربيّ؛ ولكنَّ هذه المرأةَ استطاعَتْ أنْ تقارِعَ الأعلياء، وتسطِّرَ اسمَها عالياً في الفضَاء، لتكونَ من شهيراتِ النِّساء، ومنْ نابهاتِ العَصْر اللواتي برزْنَ في المعرفةِ والأدب.

* ومنَ العجيبِ حقّاً أنَّ هذه المرأة قد ترجمتْ لِنِساء كثيراتٍ منْ مختلفِ العُصور والبُلدان، ولكنَّها لم تتركْ ترجمةً لِنَفْسِها، ولعلَّها كانَتْ تخشى أنْ ترى في ذلك شيئاً منَ الزَّهْوِ والإعجابِ الأدبيّ، أو لأنَّها لَمْ تنشأْ في الحِلْيةِ تنعمُ بالدّيباجِ والحليّ والحُلل.

* غير أنَّ الأصواتَ النِّسائية التي بدأتْ تخترقُ الفضاءَ الأدبيَّ في عصرِها قد امتزَجَتْ بالحريّةِ، وأخذتِ الهمسَاتُ النّسويّةُ تتبلْورُ لِتُصبحَ كلمات لها أثرهَا في الوسَطِ الأدبيّ والعِلْميّ، وأخذتِ الآثارُ الأدبيّة النّسائية تظهرُ جليّةً على صفحاتِ المجلاّت والصُّحف، وقد بلغَ عددُ المجلاّت والصُّحفِ في مطلعِ القرنِ العشرين أكثر من أربعين مجلّة

وصحيفة ، وقد تضمَّنَتْ هذه الصُّحفُ والمجّلاتُ كثيراً من المقالاتِ الأدبيّة ، وشيئاً منَ الشّعرِ والنَّثرِ والنَّقدِ والمُعَارضاتِ والمناظراتِ والمواضيعِ التي تتعلَّق بالمرأةِ وشؤونها .

* ومن أشهرِ تلكم المجلاّت النَّسوية وأوّلها في الوطنِ العربيّ هي مجلّة «الفتاة» التي صدرت عام (١٨٩٢ م) وتوقَّفَتْ عام (١٨٩٤ م) وخلال هذهِ الفترةِ البسيطةِ كَتَبَ بهذه المجلّة عددٌ منْ مشاهيرِ الكُتَّاب والكاتبات ومنهم ضيفتُنا اليوم .

* ثمَّ صدرت مجلّة «الأنيس» عام (١٨٩٨ م) ، ثمَّ صدرتِ مجلّة «المرأة الجديدة» في بيروت ، وظلّت سبع سنوات كوامِلَ ثمّ توقَّفت .

* وبعد ذلك أخذتْ كثيرٌ من المجلاّت النّسويةِ تبرزُ إلى ساحةِ الثَّقافَةِ في العِقَديْن الأوّلَيْن منَ القرنِ العشرين ، ومن هذه المجّلات التي أخذَتْ مساحةً واسعةً في ميدانِ الصَّحافة النَّسويّة المجلاّت الآتية :

١ ـ «المرأة» صدرتْ عام (١٩٠١ م) .

٢ ـ «السَّعادة» صدرت عام (١٩٠٢ م) .

٣ ـ «شَجرة الدُّرّ» صدرتْ عام (١٩٠١ م) .

٤ ـ «الخِدر» صدرَتْ عام (١٩١٢ م) .

٥ ـ «فتاة لُبنان» صدرَت عام (١٩١٤ م) .

٦ ـ «فتاة النّيل» صدرت عام (١٩١٣ م) .

٧ ـ «منيرفا» صَدَرَتْ عام (١٩١٦ م). وكانت أحسن مجلّة في الشَّرق العربيّ ، وكان ينشرُ فيها أدباء مشاهير من مثل : مصطفى صادق الرّافعي ، وعمر فاخوري ، وأمين الرّيحاني وغيرهم .

٨ ـ «المرأة السّورية» صدرت عام (١٩١١ م) .

٩ ـ «العروس» صدرت عام (١٩١٠ م) ، وغيرها كثيرٌ جدّاً.

* والآن مَنْ هذه المرأة وما بطاقتها الشّخصيّة؟!

* في الصَّفَحةِ الأُولى من كتابِها «الدُّرُّ المنثور في طبقات ربّاتِ الخُدور» نقرأُ بطاقتَها على النَّحو الآتي: الأديبةُ الفاضلةُ والبارعةُ الكاملةُ السَّيِّدةُ زينب بنت علي بن حُسين بن عبد الله بن حسن بن إبراهيم بن محمّد بن يوسُف فوّاز العَامليّة(١).

* وفي قريةٍ تُدعى «تبْنين» ـ وهي من قُرى جَبَل عامِل ـ كان مولدُ زينب فوّاز وذلك في عام (١٨٤٦ م)(٢) ، وذكر مُحسنُ الأمين أنَّ مولدها في تبْنين حوالي (١٢٦٢ هـ).

* ومنَ المعروفِ أنَّ قريةَ تبنين من القُرى التَّابعة لِصَيدا ـ جنوب لبنان ـ ، وكان مولدها في أسرةٍ بسيطةٍ تعيشُ حياةً هادئةً في تلكَ القريةِ الصَّغيرة ، ولم يأبَهْ أحدٌ لهذهِ الفتاة التي وُلدَتْ في منتصفِ القرنِ التّاسع عَشَر في بيئةٍ لا تهتمُّ بأمورِ العلْمِ ، بل كانت نسبةُ الأميّةِ النَّسويّة تصلُ إلى نسبةٍ عاليةٍ جدّاً ، فلا تكاد تجدُ امرأةً كاتبةً أو قارئة ، في حين نجدُ نسبةَ الأميّة أقلّ بين الرّجال.

نشْأتُهَا وَشَذَرَاتٌ مِنْ أَخْبَارِهَا:

* في تلكَ القريةِ الهادئةِ «قرية تَبْنين» كانت نشأةُ زينب فوّاز ، ولم تكنْ

---

(١) الدّرّ المنثور (ص ١) ، وأعلام النّساء (٢/ ٨٢ ـ ٩١) ، وأعيان الشّيعة (٧/ ١٣٤ و١٣٥) ، وأديبات عربيّات (ص ٧٣ ـ ٧٨) ، والأعلام (٣/ ٦٧) ، وتاريخ آداب اللغة العربية (٤/ ٢٩٥) ، ومعجم المؤلفين (٤/ ١٩٨ و١٩٩) وانظر مصادره ، ومصادر الأدب النّسائي (ص ٢٣٧ ـ ٢٣٩).

(٢) ذكر عمر كحالة أنَّ مولدَها سنة (١٨٦٠) ، وذكر صاحب كتاب أديبات عربيات أنّ مولدها في سنة (١٨٥٠ م).

أسرتُها بادىء الأمْرِ منَ الأسرِ ذات الصِّيتِ البعيد ، بل كانت أسرةً فقيرةً متواضعةً ، تعيشُ كغيرِهَا منَ الأُسَرِ الأخرى حَياةً ريفيّةً بسيطةً ، بيد أنَّ مخايلَ الذّكاء كانت تنمُّ عنِ الفتاةِ الصَّغيرة زينب ، ولكنَّ ذلك لمْ يلفتْ نظرَ أسرتها ، إنَّما حَسبوَها كغيرِها من بناتِ عَصْرِها ، وألحقوها للخدمةِ عند الأُسْرةِ الأسعديّة.

* وكان لآلِ علي الصّغير وقتذاك حُكْمُ قسمٍ منْ جبلِ عامل ، ومقرّ إمارتهم قلعة تبنين ، وحاكمُهَا يومئذ علي بك الأسعد.

* وفي داخل هذه القلعةِ قضَتْ زينبُ شَطْراً من صباها ، وما لبثَتْ زينبُ أن استرعَتِ انتباهَ فاطمةَ بنت أسعد الخليل زوجة علي الأسعد ، ولاحظتْ فاطمةُ فِطنةَ زينب فوّاز ، ولفَت نظرُهَا ذكاءَ هذه الصَّبيّة التي تحبُّ العِلْمَ والمعرفةَ ، فحدَبَتْ عليها ، وأولَتْها كُلّ عنايةٍ ، فقد كانت فاطمةُ هذه أديبةً محبّةً للعِلْمِ ، وكان لها مشاركةٌ حَسَنةٌ في الأدبِ والشِّعرِ والنَّثرِ ، وبراعةٌ في العلْمِ والمعرفةِ؛ وبدأتِ السَّيِّدةُ فاطمةُ أسعد تهتمُّ بزينبَ فوّاز ، وأخذتْ تعلّمُها القراءةَ والكتابةَ واللغةَ العربيّة ، إذِ اللغةُ العربيةُ لغةٌ شريفةٌ ، وهي سيّدةُ لغاتِ العالَم ، وهي أغنىٰ لُغاتِ الدُّنيا ، اصطفاهَا اللهُ لتكونَ لغةَ كِتابهِ ورسولهِ وشريعتهِ ، واختصَّها بأسرارٍ وأساليبَ لم توجدْ في غيرِها منَ اللّغَاتِ.

* ويبدو أنَّ السَّيِّدةَ فاطمة أُعْجِبَتْ بهذه النَّابهة التي راحتْ تلتهمُ المعرفةَ التهاماً ، فشجَّعَتْها على طلَبِ العلْم وحُبّه ، وكانتْ فاطمةُ ترى أنَّ الفتاةَ تكونُ ذات شأْنٍ إذا كانت كما قالَ الرّاجز:

فَضْـلُ البَنَـاتِ الشُّغْـلُ والتَّطـريـزُ　　　ومَــنْ حَــوَتْ عِلْمــاً بِــهِ تَفُــوزُ
فــي سَــائـرِ الأَحْـوالِ الاحتِشَـا　　　م مِــنْ جنْسِهــنَّ والحيَـا يُــرامُ

* ولقد خدمتِ السَّعادةُ زينبَ فوّاز في البيتِ الأَسْعَديّ الذي كان

يحتوي خِزَانةً كبيرةً منَ الكتُبِ والمخطوطاتِ النَّادرة ، فجعلتْ زينبُ هذه الخزانةَ شُغْلَها الشّاغل ، حيث شُغِفَتْ بالقراءةِ والمطالعةِ ، والبحثِ والغوصِ وراءَ العِلْمِ والمعرفةِ ، فاقتنصَتْ كُنوزاً عظيمةً منَ المعارفِ رفدَتْ بها التُّراثَ النَّسويَّ ـ كما سنعرفُ ذلكَ إنْ شاءَ الله ـ.

* وظلَّتْ زينبُ ملازمةً لِنِساءِ آل الأسعد حيناً من الدَّهرِ ، ولا سيّما فاطمة أسعد الخليل التي استفادَتْ منها كثيراً ، والتي وصفَتْها زينبُ بقولها عندما ترجمَتْ لها: «كانت ذات عقْلٍ وفطنةٍ ونباهةٍ وكياسةٍ ، فحفظتِ القُرآنَ العظيمَ ، ودرستِ التَّفاسيرَ الجمَّةَ ، ودرستِ النَّحوَ والصَّرف والبيانَ حتى فاقَتْ نساءَ عَصْرِها ، وأهلَ جِلْدتها ، فذاعَ صِيتُها في الآفاق. . »[1].

* وقالَتْ عنها أيضاً ما مفادُه: «كانت محسنةً إلى الفقير ، ومُعينَةً للمسكين ، وعائدةً للمريضِ ، وكان شقيقُها يعتمدُ عليها في بعضِ الآراء ، على الرّغم من صِغرِ سِنّها. . »[1].

* وتمضي الأيّامُ بزينب فوّاز وهي تتولى خدمةَ الأسرةِ الأسعديّة ، وتتحلّى بحُلى الآداب من خزانةِ كتبهم الكبيرة ، ثمّ اتّصلَتْ زينب بأخي فاطمة الأصغر ، وهو خليلُ أسعد ، وذلك في بلدة الطّيّبة؛ وكان قد اشتدّ عودُها وبلغَتْ مبلغَ النّساء ، ودخلتْ ميدانَ الحياةِ الحقيقيّ ، فتزوجَتْ من رجلٍ من حاشيتِه كان يعملُ صَقَّاراً عنده ـ وهو الذي يتولّى أمْرَ الصُّقور التي يصْطَادُ بها ـ ، كما كانَ رئيسَ سُوّاسٍ في قلعةِ تَبْنين ، ومن رجالاتهِ ، وكان يُدعى محمّد حمود فوّاز ـ ولعلَّه كان أحدَ أقاربها ـ ، بيد أنَّه كان كبيراً في السِّنّ ، قد اشتعلَ رأسُه شيباً ، بينما اشتعلَ قلبُ زينبَ بالحَسْرة على هذا الزَّواجِ غيرِ المتكافىء ، فلم تمكثْ معه زمَناً طويلاً ، ولم تمتزجْ روحُها

---

(١) الدر المنثور (ص٤٢٦ و٤٢٧) بشيء من التصرف.

بروحِهِ ، إذ الفارقُ والتَّفاوتُ كبيرٌ بينهما ، فهي أديبةٌ ذاتُ شعورٍ مرهَفٍ ، ومستوى علميٍ رفيع ، وهو صقّار ليس له في صناعة الأدبِ يدٌ ولا مَيْلٌ ، فطلَّقَها ؛ وفارقها.

* وقد وصفَ صاحبُ مجلّة العرفان هذا الزّوج لمَّا رآهُ فقَال: «رأيتهُ منذ خمسَ عشرةَ سنة في دار كامل بك الأسعد ، وهو يومئذ في سنّ السّبعين ، وأخبرنا أنَّ هذا الخادم الشَّيخ تزوَّج بزينب فواز ، ثمّ طلَّقها لعدمِ امتزاج طبيعتهما وتباعدِ أخلاقهما»[1].

* وتحدَّث أحمد عارف الزّين عن هذا الزَّواج الزّينبيّ الفوّازيّ فقال: «بالطَّبعِ لم يكنِ الفَشَلُ فَشَلَها هي ، وإنّما فَشَلُ مجتمعِها الذي عاشَتْ فيه ، فكيفَ لمثلِ هذه الشَّابّة وقد التمعتْ في أفقِ تفكيرها معالمُ الوعي والإدراك أنْ تعيشَ مع رجلٍ أُميّ بينَه وبينَها تفاوتٌ كبيرٌ في المُستوى الفكريّ والثّقافي؟! وأينَ لِمثْلِ هذه الزَّوجة أنْ تلتقيَ مع زوجٍ لا يتّسعُ أُفُقه لطموحاتِها الأدبيّة والفكريّة ، وتطلّعاتها الإنسانيّة البعيدة في عَصْرٍ كعصرِها»[2]؟!

* ولعلَّ هذا الزَّواجَ الفاشلَ قد أثَّر في نفسٍ ونفسيَّةِ السَّيّدة زينب فوّاز ، فكتبَتْ في «رسائلها الزَّينبيّة» بعضَ الخواطرِ عنِ الزَّواج غيرِ النَّاجح ، وعن تمادي الزَّوج ونفوره ، وفتورِه عن شريكةِ حياتهِ فتقول: «ماذا تؤثّر آدابُ المرأة وحسنُ سياستِها في نَفْس الرّجُل السّيىء الأخلاق؟! فالمرأةُ إذا اقترنَتْ بالرّجُل السّيىء ، وأوقفتْ قلبَها عليه ، وسلّمَتْ أمرها إليه ، واجتهدَتْ في مرضاتِهِ ، فلا ترى منه إلاّ الفتور ، والتّمادي في طريقِ اللهو

---

(١) أعيان الشّيعة (٧/ ١٣٤).
(٢) انظر: زينب فواز (ص ٥٥) لزينب بحبوح.

والغرور ، واتباع خطّة الشّهوات والشُّرور ، فتصير كمن كتَبَ على صفَحاتِ الماء ، أو تعلَّق بالهواء ، فتندم من حيثُ لا ينفعُ النَّدم ، ويصعُب الخلاصُ بعد رسوخِ القدم ، وحينئذ يلازمُها الحُزْنُ الذي لا ينقطعُ إلاّ بانقطاعِ التَّواصل ، وإذا كانتِ الحالُ كما وصفت ، فَلِمَ لا تفضل حالتها الأولى على قرين السُّوء»[1]؟ .

* وهكذا فضّلتْ زينبُ فوّاز أنْ تحتفظَ بأنوثتها ومشاعرِها ، لِتُحلّقَ في آفاقِ العِلْمِ والمعرفةِ ، وقد كانت ترنُو إلى رجلٍ يحفظُها ويقدّرُ مواهبها ، إذ:

حِفْظُ الأُنوثَةِ في يَدي رَجُلٍ لا العِلْمُ يحفَظُهَا وَلاَ الحُجبُ

* ولكنَّ حظَّ زينب فوّاز لم يكُنْ مُوفّقاً في هذا الزَّواجِ الأَوّل ، فكان الفِراق .

* وتروي الأخبارُ التي وصلَتْ إلينا عن زينب فوّاز أنَّ هذا الفشلَ في الزَّواج لم يقعدْهَا عن طلَبِ المعالي ، وطلبِ المعرفة والعلْمِ ، ولعلَّ هذه التّجرِبةَ الفاشلةَ قد زادَتْها طموحاً نحو المعَالي ، بيد أنَّ ظروفَها وقتذاك كانت مضطربةً ، وقد واجهتْ زوَاجاً جديداً من قريبٍ لها ، وحاول إكراهَها وإرغامَها على الزَّواج منه ، فصدَّتْ عنه وصدَّتْه ، فحاول أنْ يختطفَها ، لكنّها تخلَّصَتْ منه بأعجوبة؛ إذ تمكَّنَتْ من السَّفرِ إلى مصْرَ بمساعدة أخيها محمّد علي فوّاز ، ويُقال: إنَّها سافرت مع أسرةِ يوسُف حمدي يكَن المِصريّة ، وهناك بدأتْ زينبُ رحلةَ حياةٍ جديدة ، ترى ما مراحلُ وصِفاتُ هذه الرّحلة المصريّة؟! هذا ما توضحه السُّطورُ التَّاليات ، وتفصحُ عنه الفِقْرات الآتيات .

---

(١) المرجع السابق نفسه (ص ٥٦).

زَيْـنَبُ والـرّحْلَـةُ المِصْرِيَّـةُ:

* منذ أنْ حطّتْ زينبُ فوّاز رحالَها في مصْرَ ، وألقت عصَاهَا واستقرَّ بها النّوى ، تألّقَ مجدُهَا ، إذْ أبدَتْ هنالك ذكاءً خارقاً ، ووعياً شامِلاً للثّقافةِ والمعرفةِ ، وقد لفتَتْ بِنَباهتِها وذكائِها نظرَ حسَن الطُّوَيْراني[1] الذي تتلمذتْ على يديهِ ، وأخذتْ عنه علومَ العربيّة كالصَّرفِ والبَيان والعَروض ، كما تلقَّتْ عنه دُروساً في التّاريخِ وفي التّراجم .

* ولما كانتْ تطلّعاتها أوسعَ من ذلك ، فإنّها طلبتِ العِلْمَ من أساتذة آخرين ، فقد تلقّتْ علومَ النّحو والقواعدِ والإنشاءِ عن الشيخِ محمّد شبلي ، وعن الأستاذ محيي الدّين النّبهاني .

* وظلّت زينب فواز عاكفةً على التّحصيل وعلى الدَّرسِ ، حتى اشتدَّ عودها ، وشبّتْ عن الطَّوق ، وغدا قلمُها يجري بين أناملِها مِطْواعاً سيّالاً جوّالاً بين أزاهرِ رياضِ فِكْرِها ، وبين أنداءِ خطراتها الأدبيّة والشعريّة والاجتماعيّة ، وبذلك حقّقَتْ زينب فوّاز آمالَها وأحلامَها العلميّة

---

(١) حَسَن حُسني حُسين الطّوَيْراني ، شاعرٌ منشيءٌ ، تركيُّ الأصْلِ ، مستعربٌ ، ولدَ بالقاهرة سنةَ (١٨٥٠ م) ، وجَالَ في بلادِ إفريقيّة وآسيا والرُّوم ، كان أبيّ النّفس ، بعيداً عن التّزلف للكُبراء ، في خِلقَتِهِ دمامةٌ ، وكان يجيدُ الشّعْرَ والإنشاءَ باللغتين العربيّة والتّركيّة ، وله في العربيّةِ نحو ستّين مصنّفاً ، وفي التّركيّة نحو عشرة ، وأكثرُ كتبهِ مقالاتٌ وسوانحُ؛ ونظمَ ستّة دواوين عربيّة ، وديوانين تركيين ، وأنشأ مجلّةَ «الإنسان» بالعربية ، ثمَّ حوّلها إلى جريدة ، فعاشت خمسة أعوام.
من كتبهِ العربيّة : «ثمرات الحياة»؛ مجلّدات وكلُّه من منظُومه؛ و«النّشر الزّهري» ، مجموعة مقالات له. و«رحلة إلى السّودان» ، وفي شعره جودة وحكمة؛ وأقام حسن حسني الطُّويراني في مدينة القسطنطينيّة إلى أنْ وافتْه المنيّةُ في عام (١٨٩٧ م) وعمره (٤٧ عاماً). (الأعلام ٢/ ١٨٧) بتصّرف ، وانظر (أعلام من الشّرق والغرب ص ٨٢ ـ ٩٢).

والفكريّةَ ، وراحت ترسلُ دُرّهَا المنثورَ وتنشرُهُ في صُحُفِ ذلك العهد ، واتّخذت منَ الصَّحافةِ فضاءً رحباً ، ومنبراً عالياً كي يعرفَ ويسمعَ النّاسُ أصداءَ أدبِها وأنباءَ شِعْرِها؛ وبذلك سجّلَتْ زينبُ فوّاز أعظمَ إنتاجٍ فكريّ وأدبي نسويّ مشرقيّ في عَصْرِها؛ إذْ غدا الأدبُ الزّينبيُّ الفوّازيُّ ملءَ الأسماعِ في أرجاءِ الوطن العربيّ ، في مشرقهِ وفي مغربهِ.

* ومن خلال الأدبِ الزَّينبي والفكْر النّسويّ نلمحُ أنَّ السَّيدة زينب فواز تريدُ إثباتَ فضْل النِّساء ، وتعزيز شأنهنّ ، وأنّهنّ يساويْنَ الرّجالَ في العَقْلِ والمنزلةِ. ولعلَّ في رسالتها إلى صاحبِ مجلّة «العرفان» الشّيخ أحمد عارف الزَّين ـ الذي انتقدها لأنّها كتبتْ مقالةً أفصحتْ من خلالها عن إطلاقِ حريّة المرأة في مجالات النَّشَاط الإنسانيّ جميعهِ ـ دليلاً على ذلك؛ إذْ كتبتْ إلى الشَّيخ أحمد الزَّين تقول: «أمّا مَا جَالَ في فكْرِ سيادتكم من أنَّ المرأةَ لا تقدرُ على القيامِ بأعمالِ الرّجال ، فهو غلَطٌ أيّها الفَاضِلُ ، وهاهُنّ نساء الغَربِ يتفوقْنَ على الرّجال ، كما تدلّ سيرهنّ التي وضعتُها في الكتابِ المُرسَل إليك: الدّرّ المنثور في طبقات ربّات الخُدور؛ ونحنُ نساء الشَّرق لا يمنعنا الحجابُ منَ التّفوّقِ والخوضِ في كُلّ مجال»[1].

* كان الصّوتُ الزّينبيُّ يجوبُ الأوطانَ من مصر إلى الشَّام ، ويسمعُه الأدباءُ والشُّعراءُ من خلالِ الصُّحفِ والمجلات التي تزورُ البيوتَ في كلّ مكانٍ منَ الأقطارِ العربيّة ، والتي سجّلَتْ زينبُ من خلالها صوتَها ، ورسمتْ على صفحاتِها كثيراً من كلماتها وآرائها ، ومن تلكم الصُّحف والمجلات: النّيل ، الفتاة ، المُقتطف[1].

* ومن المطربِ في الأدب النّسويّ المُعَاصر أنْ نرى تنوُّعَه في عدّةِ

---

(١) زينب فواز (ص ٦١ و٦٢) بشيء من التصرف.

جِوانبَ مُتَباينةٍ ، ونلمحُ هذا التّنوّع عند زينب فوّاز التي تحدَّثَتْ عن أدبِ المرأةِ ، وحرّيتها ، وعنِ الصَّداقةِ والمودّة ، وعن النّواحي الإنسانيّة كالجوعِ والمرضِ والفَقْر ، وعن النَّواحي العربيّة كالحديث عِن الوطنية ، وعن بعضِ النّواحي السّياسيّة المبكرة ، وهانحنُ أولاء نسمعُ صوتاً نسويّاً زينبيّاً جريئاً يدعو بحزمٍ وعزيمةٍ إلى طَرْد الاستعمار الغاشم الذي يعملُ على إفقار الشّعوب العربيّة ، أو يسخرُ من بعض الأعيان ليتسنّى له المجال فيصولَ ويجولَ وحدَه ، ويخلُو له الميدانُ ، فلنستمعْ إلى زينب فوّاز في هذه الصَّحوة المبكّرة ، وإلى هذا النّداء الذي يكادُ يكونُ الأوّل من نوعهِ ، ويصدرُ عن امرأةٍ مشرقيّةٍ ، تقولُ زينبُ فواز تخاطبُ أمّتها وأبناء قومها :

«. . . لماذا تصبرون ، ولأي شيءٍ تنتظرون؟ . . . إنّي ليحزنني ما أراه في حالةِ أبناءِ الوطنِ منَ الذّلّ والامتهان؛ ويذيب المهجَ تأسّفاً وحسرةً على أمّةٍ تقطَّعتْ بها الأسبابُ ، وحرمت ظلماً وعدواناً من منافع بلادها ، وقد تمتّعَ الأجانبُ بتلك المنافع دون أبناء الوطن ، حتى إنَّ الوطنيَّ يُطْرَدُ من محلِّ خدمتهِ ويخوضُ في بحارِ الفقر ، وقد يلهونَهُ برتبةٍ أو نيْشَانٍ ليفتخرَ به على أقرانه»(١) .

* ثمّ تأخذُ زينبُ فوّاز بذكْرِ الاستعمارِ وتعدادِ مساوئهِ وتفنيدِ تعسُّفِه ، ثمّ تشيرُ إلى الحكومةِ السَّاهيةِ اللاهيةِ آنذاك ، وتبكّتُ الرّجال وتسْخَر منهم وخصوصاً إذا سُلبتْ منهم المناصبُ والمقاماتُ الزّائلة ، ثم تغرسُ في نفوسِهم روحَ الأَملِ والحياةِ ، وروح الشَّجاعة ، فتقول : «. . . هذا وحكومتُنا ساهيةٌ غافلةٌ لاهيةٌ ، وقد ضلَّت منها الأَفْهامُ ، وغلَبَتْ عليها الأوهامُ ، وهي خاضعةٌ لعواملِ الاحتلالِ ، متناسيةٌ مصالحَ الأُمّةِ ،

---

(١) زينب فواز (ص ٦٢) .

متمسكةٌ بمنافع رجالِها الشّخصيّة. . . هل تخشونَ أيّها الرّجالُ أنْ تُسْلَبَ منكمُ المناصبُ؟ لو أنصفتمُ هذه الأمّة التّعيسة التي توليتمْ شؤونها ويتولاها غيرُكم منَ الأجانب؛ أَلَمْ تنظُروا إلى الأمّةِ البويريّة وما فعلَتْ في سبيلِ استقلالها، وكيف أنّها اختارتِ الموتَ أو تعيشَ حرّةً لا تقبلُ السُّلطة البريطانيّة؟ أَلَمْ تروا أنَّ الحكومةَ البويريةَ أَلّفَتْ من الضّعف قُوّة، وقاومَتْ هذا الطّود العظيم؟

* لم أسمعْ بأنَّ حكومتَنا عارضَتْ رجالَ الاحتلالِ في شيءٍ ما، ولو عارضَتْ في أمْرٍ يعودُ على أبناءِ الوطنِ لنجَحَتْ، ولكِنْ وجَدَكم رجالُ الاحتلالِ لقمةً ليّنةً هيّنةَ المأكلِ فابتلعُوكم.

* وإنّي لَيسرّني أنْ أرى من أبناءِ وطني روحَ الحياةِ، فيؤلّفُون الأحزابَ، ويدافعون عن حُقوقهم المهضومةِ، فَلْتَقْوَ منكمُ العَزائِمَ أيّها الرّجال، فأقدمُوا على العظائِم، وقد علّمتكُم كيف يقترنُ العِلْمُ بالعملِ؛ وإنّي لأرى من خلالِ الحِجابِ أنَّ فيكم الكفاءةَ لأَنْ تقِفُوا أمامَ العالَم الدّولي، وتناضلُوا مدافعين عمّا لكمُ منَ الحقوقِ، فهبُّوا من رقادِكم أيّها المُسلمون، واعلموا أنَّ الحكومةَ لا تسعى، ولن تسعى في ترقيتِكُم، فالأجدرُ لكم أنْ تسْمُوا بأنفسِكم، واللهُ المُسْتَعان»[1].

* وكانتْ هذه الكلماتُ الزّينبيةُ تملأُ الأسماعَ في كافّةِ الأصقاع، ممّا جَعلَ شهرتَها تغزو البقاع، وتغزو القلوبَ، وهذا ما حدَثَ فِعْلاً، فقد غزتْ زينبُ قَلْبَ الكاتب «أديب نظمي»[2]؛ واحتلّتْ جوانحَه من بُعْد،

---

(١) زينب فواز (ص ٦٢ و٦٣).

(٢) أديب نظمي الطّناحي المصريّ ثمّ الدّمشقيّ، صحفيّ أديب، ساعَدَ في تحريرِ جريدة الشّام الرّسميّة أوّل صُدورها بدمشق، وعيّنَ رئيساً لكتّاب محكمةِ الاستئناف بولايةِ سوريةَ في أواخرِ العَهْدِ العثمانيّ، وهذّبَ رسالةَ الأصداف والدُّرر، ونَشَرها سنة (١٣٠٢ هـ) وعَلَتْ له شُهرة. وتزوّج بالأديبةِ المؤرّخَةِ زينب فوّاز، وافترَقا،=

ولا عجبَ في هذا ، [فالأذنُ تعشقُ قَبلَ العينِ أحياناً]؛ ترى كيف تمَّ هذا اللقاء الزّينبي الأديبيّ؟ هذا ما ستكشفُ عنه سُتور السُّطور الآتية.

زَيْنَبُ وَأَديبٌ وَالزَّوَاجُ:

* إذا كانتِ الكلماتُ النّسويّةُ الهامسةُ الآسرةُ تستولي على القلوبِ والنُّفوس ، فكيفَ بالنَّظراتِ الجميلةِ من نواعسِ الأحداقِ؟! خصوصاً إذا كانَتْ عن كثَب.

* بيد أنَّ الأديبةَ الألمعيَّة زينب فوّاز لم تكنْ ممن يستولي على القُلُوبِ بالنَّظَرات ، أو همسِ الكلمات ، وإنّما وصلَتْ شهرتُها الأدبيّةُ إلى بلاد الشَّام ، وأُعجِبَ بأسلوبها الجميلِ الأديبُ والكاتبُ أديب نظمي الدّمشقي المولود عام (١٨٤٠ م) ، فوجدَ فيها بغيتَه ، وراحَ يراسلُها ، ويعرِبُ لها عن إعجابهِ بمقدرتها الأدبيّة ، وبادلَتْهُ زينبُ المشَاعِرَ نَفْسَها ، وأخَذا يتراسلان حتّى انتهى بهما الأمْرُ إلى التّـآلفِ الرُّوحي ، ثمّ الزّواج؛ وكانت زينبُ تحسبُ أنَّها ستحقّقُ مجداً أدبيّاً أعْلى ، وسعادةً عظمى ، ورغبةً لأمومةٍ كانت تحلُمُ بها وتتمنّاها.

* وبدأتْ مراسمُ الزَّواج تأخذُ مسَارهَا بين زينبَ وأديب ، وعُقِدَ له عليها وهي في الإسكندريّة بمصرَ عند أستاذِهَا حَسن حُسني الطُّويرانيّ ، ثمّ إنّها قدمَتْ دمشقَ الشَّام وهي زوجةٌ له شَرْعاً. وكان قدومُها من مدينةِ الإسكندريّة إلى بيروت فوقَ متْنِ البحر بالباخرةِ؛ ومن بيروت إلى الشّام بالقِطَار ، ثمّ إلى قرية «الشَّيخ مِسْكين» جنوبي دمشق ، ومنْ هذه القرية

= وأصدرَ جريدةَ «الكائنات» أسبوعيّة قبل الحربِ العامّة الأولى ، ومرضَ وأُقعِدَ ، ولما دخلتْ طلائعُ العربِ والإنكليز دمشقَ ، خرجَ على كرسيٍّ متحركٍ إلى صَحْنِ داره ، فحامتْ طائرةٌ عثمانيةٌ ، وألقتْ قنبلةً أصابته شظاياها ، وكانتِ القنبلةُ الفريدة التي ألقيت على دمشق طول مدّة الحرب ، فقتلته عام (١٩١٨ م). (الأعلام ١/ ٢٨٦).

ركبَتْ بغلةً مكسّوةً إلى حيثُ يقيمُ الأديبُ الوامقُ أديب نظمي في قرية «الشَّيخ سعد» من قرى حَوْران جنوبي الشَّام.

* وفي قريةِ الشّيخ سَعْد بدأتْ زينبُ فوّاز حياةً جديدةً، وكانت حياةً جافّةً قاسيةً عليها منْ عدّةِ نواحي، وفي مقدمتها حياة الضَّرائر، حيثُ استقبلَتْها ضرّاتُها الثّلاث في حفاوةٍ عاطفيّةٍ بسيطةٍ، وكذلك رحّب بها أربعُ بناتٍ من زوجتهِ الأولى زكيّة التّركية؛ ومن ناحيةٍ تقلّص نشاطُها الأدبيُّ قليلاً عمّا كان عليهِ في مصْرَ، وكادتِ اتّصالاتُها الأدبيّةُ تنضُبُ، واطلاعاتُها تضمحلُّ، وعلاقاتُها الاجتماعيّة تتلاشى، ويُضاف إلى هذا كلّه اضطراب وصول الصُّحف والمجلّات إلى تلك القريةِ البعيدةِ عن مركزِ العاصمةِ دمشق.

* ورأتِ السَّيِّدةُ زينب فواز أنّ هذهِ الحياةَ القاسيةَ تكادُ تقْضِي علَيْها لولا تأسّيْهَا، وأخذتْ تتبرّمُ بحياتِها غير الطَّبيعيّة، وغيرِ ما أَلِفَتْ عليه من حياةٍ في مصْرَ.

* ورأى زوجُها أنَّ زينبتهَ طفِقَت تهجرُ وكْرهَا الزّوجيَّ الذي لم تجدْ فيه الهناءَ والصَّفاءَ؛ فحاولَ أنْ يعيدَ عصْفُورتَه زينب إلى عشِّهَا الدَّافىءَ، فانتقلَ إلى دمشقَ ليرضيَ رغباتِها الأدبيّةَ والفكْريّةَ؛ إذ كانت ترغبُ في الانفتاحِ على الأجواءِ الأدبيّةِ؛ وحاول أديب نظمي أن يضفيَ على دارِه بدمشقَ الرُّوحَ الأدبيّةَ، فكان ينعقدُ في دارِه مجلسٌ أدبيٌّ أسبوعيٌّ جميلٌ مندّى برحيقِ الأدبِ والمعرفةِ، ويحضرهُ ثلّةٌ منْ أعلياءِ الأدباءِ والعُلماء والمفكّرين والشُّعراء والمؤلّفين من مثلِ: حسن عبد المجيد الدُّوماني، وعبد القادر بدران الدُّوميّ، ومحمد عبد المجيد الدُّومانيّ، وأبو السُّعود مراد، وحسين حسني، وعمر نحولي، وصالح طه، ومحمود حمدي، وصالح البغداديّ، وغيرهم كثير من أدباءِ ذلك العَصْر.

* وكان هؤلاء القوم الأدباء يحضرون مجلسَ السَّيِّدةِ الأديبةِ زينب

فوّاز ، ويسودُ جلستَهم الأدبُ ، حيث كانوا يتطارحون الشّعْرَ وألوانَ البديع من نظمٍ وتخميسٍ وتشطير ، وكانوا يتناقشون في الشُّؤونِ الأدبيّةِ والنَّقديّةِ ، وكان زوجهُا أديب نظمي سفيراً بينَها وبينَ القوم ، إذ كانت تجلسُ هي من وراءِ ستار بحيثُ تسمعُ كلامَهم ، فكان يحملُ ما قالوه أو نظموهُ ، وما قالَتْ أو نظَمتْ؛ ومع هذا استطاعت زينبُ أنْ تجعلَ من شخصّيتها الأدبيّة شخصيةً مرموقةً على الرّغمِ من أنّها كادت تنقطعُ عن الكتابةِ والتّأليفِ والتَّدوين.

* ومنَ الطَّريفِ في حياةِ زينب فوّاز أنَّ هذه المجالسَ الأدبيّةَ لم تكنْ تبثُّ الطَّرفَ في حياتِها ، والسَّعادة في عيشتِها هذه ، وتاقتْ نفسُها إلى العودةِ لأرضِ النِّيل؛ وأخذتْ زينبُ تبثُّ نجواها وشجونها إلى زوجِها أديب نظمي ، فما كان منه إلاّ أنْ لاحظَ رغبتَها في الفراقِ ، فطلَّقها بعد أنْ تركَتْ في قلبهِ أثراً غائِراً لفراقها ، على الرّغم من أنَّ هذا الزَّواج لم يَدُمْ سوى ثلاثِ سنوات.

* وكَعادةِ مُلَحِ الأُدباءِ فيما بينهم ، سُئِل أديب نظمي عمّا إذا صادفَ أنْ تشَاجرَ مع زينب ، أو ضربَها ، فكان أديب نظمي يجيبُ السَّائل متمثّلاً بشعرِ القاضِي شريح زوج زينب بنت حُدير التّميميّة ، فقد كان هذا القاضي مُدْنَفاً بحبِّ زوجته زينب وكان ينشدُ ويقولُ:

رأيتُ رِجالاً يضْربُونَ نسَاءَهُم ... فشُلَّتْ يَميني يومَ أضْرِبُ زَينبا
أأَضْرِبُها في غَيرِ ذَنْبٍ أتَتْ بهِ ... فما العَدْلُ مِنّي ضَرْبُ مَنْ لَيْسَ مُذْنبا
فَتَاةٌ تزينُ الحيَّ إنْ هيَ زُيِّنَتْ ... كأَنَّ بِفيْها المِسْكَ خالَطَ مَحلبَا
فَزَينَبُ شَمْسٌ والنّساءُ كواكبٌ ... إذا طَلَعَتْ لم تُبقِ مِنْهُنَّ كوكبا[1]

(١) انظر كتابنا «نساء من التاريخ» (ص ٣٦١) طبعة دار اليمامة الثانية بدمشق ـ ١٩٩٩ م.

* هكذا كان أديب نظمي يتمثّل بهذه الأبيات كلّما سُئِلَ عن زينب فواز التي أحبَّتِ الانفصال عنه.

* أمّا زينب فوّاز فقد ظلّت مدّة بعد طلاقها في دمشق، ثمّ تزوجت من أميرالاي عسْكَري مصْري، حيث صحِبَها معه إلى مصر؛ وهناك ساعدتْها البيئةُ لتتابعَ رحلةَ مواهبها الأدبيّة التي تفجّرت تفجيراً، فكتبتْ عدّة رسائل في صُحفِ مصرَ الكُبرى، وحظيَتْ بشهرةٍ عاليةٍ في الكتابةِ النَّثريّة والشّعريّة؛ وممّا زادَ من علوِّ صيتها أنْ نسجَتْ روايتَيْن نالَتْ بهما ومنْ خلالِهما زيادةً في الشُّهرة؛ وتمَّ مجدُها الأدبيّ عندما أَلَّفَتْ كتابَها الشَّهير في تراجم النّساء: «الدُّرّ المنثور في طبقاتِ ربّاتِ الخُدور»، فنالَتْ به شهرةً أوسعَ على امتدادِ المشرقِ والمغْرِب.

* وكانتِ السَّيدةُ زينبُ فوّاز واحدةً من نساءِ المشرقِ العربيّ، اللواتي يُنْظَمْنَ في سِلْكِ المؤلّفاتِ الشّاعراتِ الكاتباتِ، النّاقداتِ الرّوائيات المَسرحيَّات، وغيرِ ذلك من أعمال أدبيّةٍ تشهدُ لبراعتها وفنّها المعرفيّ كما سنرى في الفِقْرة الآتية:

مُـؤَلَّـفَـاتُ وَأَعْمَـالُ زَيْـنَـب فَـوَّاز:

* عندما نتأمّلُ في أعمالِ النِّساء الأديبات المُعاصرات، نجدُ أنَّ عدداً منهنّ قد برعْنَ في فنِّ التّأليف والتَّصنيف، ولكنَّ قليلاً منهنّ منْ كانَتْ أعمالُها تحملُ طابَع الشُّمولية، وإنّما يبرعْنَ في مجالٍ واحدٍ، أو أكثر، والأمثلةُ على ذلك كثيرة، والأديبُ البصير المُطّلع يدركُ صحّةَ ما ذكرناه.

* بيد أنّنا نجدُ أنَّ أعمالَ السَّيِّدة زينب فوّاز فيها بعضَ التّنوّع، ويمكنُ أنْ نجملَها على النَّحو التَّالي:

أولاً ـ في التَّراجم والسِّير: «الدُّرُّ المنثورُ في طبقاتِ ربَّاتِ الخُدور»،

ويحتوي (٤٥٦ ترجمة) لمشهوراتِ النّساءِ من شرقيّاتٍ وغربيّاتٍ، متقدّمات ومتأخّرات، وفيه ترجمةٌ واحدةٌ لامرأةٍ عامليّة هي السَّيّدةُ فاطمةُ بنتُ أسعد الخليل زوجة علي الأسْعَد، وهو أكبرُ مؤلّفاتها وأحسنُها؛ وقد طُبِعَ في مصر عام (١٨٩٣ م).

* وعلى الرّغم منْ أنَّ هذا أكبر كتبِها إذ ينوفُ عن (٥٥٠ صفحة) إلا أنَّ فيه كثيراً منَ الأغلاط الأدبيّة والتّاريخية، وكثيراً ما تأخذُها هزّةُ الطَّربِ الأدبية، فتحلِّقُ في سماءِ الخيَال، وتبحرُ في بحارِ الوهم، وتقعُ في الأَخْطاء[1]، وقد نَبَّهْتُ على ذلكَ في كثيرٍ من مؤلَّفاتي، وفي هذا الكتابِ بعضَ التَّنبيهات المهمّة على طيْشِها الأدبيّ؛ وعلى تعصُّبها لبعض النِّساء، ومن ناحيةٍ أخرى ألفيتُ السَّيِّدةَ زينب فواز قد أهملَتْ تراجمَ مشاهير النّساء في بعضِ العُصور، وقد أشرتُ إلى ذلك بين ثنايا مؤلّفاتي، كإهمالها ـ مثلاً ـ ترجمة أمّ البَنين بنت عبد العزيز أخت عمر بن عبد العزيز، وغيرها.

* وعلى الرّغم من ذلك كلّه، فالكتابُ ذو قيمةٍ أدبيّةٍ جميلةٍ، وذو قيْمَة تاريخيةٍ قيِّمة؛ إذ أوردتْ فيه طائفةً من نساء العالمَ، ومن مختلفِ العُصور التّأريخيّة، ومختلفِ الأعمالِ التي قُمْنَ بها على مدارِ تاريخهنَّ. ومنَ الجديرَ بالذّكْر أنَّ السَّيّدة زينب فوّاز قد استغرقَتْ في جَمْعِ الكتاب وتصنيفهِ قرابة عامين كاملَيْن من عام (١٨٩١ م)، إلى عام (١٨٩٣ م)، وكانت تفخرُ بما أنجزتْهُ، وتعتزُّ بما أوجزَتْهُ، وتُري بناتِ جنسها ـ اللطيف ـ بأنَّها قد خدمتهُنَّ بتأليفهِ وإخراجهِ إلى حيِّزِ الوجود الأدبيّ، لذلك صدَّرَتْ كتابَها بهذَيْن البيتَيْن فقالت:

---

(١) مثل قولها في ترجمة عائشة التيمورية: «أديبةٌ فاضلةٌ، حكيمةٌ عاقلةٌ، بارعةٌ باهرة، شاعرةٌ ناثرة... لم تَدَعْ لولّادة مقالاً، ولم تتركْ للأخيليّة مجالاً، وقد أخنستِ الخنساءَ وأنْسَتْها صَخْر، وسارت في مضمارِ أدباء هذا العصر..» (الدر المنثور ص ٣٠٣).

كِتَابي تَبدَّى جَنَّةً في قُصُورِهَا	تـروحُ رُوحَ الفِكْـرِ حُـورُ التَّـراجـمِ
خَدمْتُ بهِ جنْسي اللّطيف وإنَّه	لأكْـرَمُ مـا يُهْـدَىٰ لِغُـرِّ الكَـرائـمِ

* وعندما خرجَ الكتابُ بحلّتهِ الجميلةِ من مطبعة بُولاقَ ، تنادت بناتُ جنْسها الأديبات الشّاعرات لتقريظهِ وإشهاره إذ يحكي سيرهنّ ومسيرةَ حياتهنّ في الحاضرِ والغابر ، وممّن قرّظَ كتابها منَ الأوانسِ المشهورات عائشة التّيموريّة ، الشّاعرة المصريّة المعروفة[1] حيث قالتَ :

سَجَـدت لعَـزَّةَ بـالبطيـحِ فُحـولُ	لمّـا تحلَّـى جيْـدُهَـا المصْقُـولُ
لمَعَتْ لآلي العقْدِ تزهُو نضرةً	كصَفـا لُجيـنٍ رَاقَ فيـهِ شُمـولُ
دعْنِي ومَا التَقَطُوهُ منْ بحرٍ طمَى	فمـنِ ادّعـىٰ طبـقَ القيـاسِ جهـولُ
هـذا هُـوَ الـدُّرُّ الـذي غـوَّاصُـهُ	بعـزيـزِ آيـاتِ الثَّنـا مشْمُـولُ
إذْ ذاكَ من صَدَفٍ وهذا جوهَرٌ	لفَطَنْـهُ أذْهَـانُ ذكَـتْ وعُقـولُ
درٌّ كَـدريٍّ زهَـتْ أنـوارُهُ	يشْهَـدْ بهـا المعقـولُ والمنقـولُ
هنُّوا ذَوَاتَ الخِدْرِ بالفوزِ الذي	يعْلُـو علـىٰ سُحـبِ البَهـا ويَطـولُ
ولقـد عَلَـتْ طَبَقـاتُهـنَّ وزَانَهـا	بتفَـاخُـرٍ بَعْـدَ الخُمـولِ قبـولُ
طبَقَـاتُ منثـورٍ بـريـقُ ضيـائِهـا	كشُعَـاعِ شَمْـسٍ بـالسُّهـا مـوصُـولُ
كم أَمْطَرتْ غَيْثَ الدُّموعِ بقولها	تـاجُ الفَخَـار وهـل إليـهِ وصـولُ
نالَتْ سواعدُ عزّها ما لم تكُنْ	رؤيـاهُ فـي سِنَـةِ الكـرىٰ مـأمـولُ
لله درّ طبـاقِ زينـبَ أصبحَـتْ	بـدراً لـه بيـنَ الأنـامِ هُلـولُ
مذْ أسْفَرتْ عن أصلِ جوهرٍ عفّةٍ	قـد كـان قبـل سُطُـورِهـا مجْهُـولُ
فَعَلـى العَفيْفَـاتِ الثّنـاء لِفَضْلِهـا	مـا جُـدّدتْ فـي العَـالَميـن فُصُـولُ

* وممّن قرّظَ كتاب الدّرّ المنثور شِعراً ونثراً حسن حُسني الطّويراني صاحب جريدة النّيل فقال :

---

(١) اقرأ سيرة عائشة التيمورية في كتابنا «نساء من التاريخ ص ٤٤١ ـ ٥٠٩».

بَدا درُّهَا المنثورُ بالفضل زينبُ فيـا حبَّـذا الـدُّرُّ النَّثيـرُ المـرتَّـبُ
جَلَـتْ لعيـونِ الفِكْـرِ آثـارَ حكمـةٍ عرائسُها تزهو وبالفَضْل تخطبُ
حكى الفَلَكَ الأعلى فكلّ صحيفةٍ بـه أفـقٌ فيهـا مـنَ الـزَّهْـر موكـبُ
حوى حَسَناتِ الدَّهْر بين سُطوره وقـوَّمَهـا ذاكَ اليـراعُ المهـذَّبُ
فلا برحَتْ للفَضْل بالفضلِ زينبُ تقولُ مقالَ الفاضلينَ وتكْتُبُ[1]

* وقرَّظَه أيضاً عبد الله فريج بأبياتٍ أوّلُها:

الشَّرقُ لا تعجبوا إنْ عمّر النور الشّرقُ بالنّور منذُ الدهرِ مَشْهورُ

* وجاء في آخرها:

أبهى كِتَابٍ سمَا جَاهاً لِفَاضِلةٍ بـالسَّعْـد فيـه بهـيّ الـدّرّ منثـورُ[1]

* وقرّظ كثيرون نثراً كتاب الدّرّ المنثور، ونَشَرت كثيرٌ من الصُّحف والمجلّات هذه التّقاريظ، ومعظمُها يدورُ حولَ فكرةٍ واحدةٍ هي امتداحُ هذا العَمل النَّسويّ الجميل المَسْبُوك في أسلوبٍ رصين، أو ذكْر نَقْد الكتاب وما وقعت فيه من هَنَات.

* ففي تقريظٍ مُطرّزٍ بجميلِ العبارة، ولطيفِ الإشارة، يقولُ الأديبُ الكاتب حسن حُسني الطُّويراني: «أحطتُ خبراً بمجملِ هذا الكتابِ الجزيلِ الفائدة، الجليلِ العائدة، النَّبيل المقصد الشّريف المبدأ والغاية، فألفيتُه سديدَ المآلِ ثمينَ المضمون عالي الأملِ مبرورَ العمل، جمعَ إلى رشاقةِ الأُسْلوب لطفَ المفاد، وضمَّ إلى حُسْنِ السِّياق والتّرتيب جمالَ العبارة وكمالَ التّركيب، فجاء اسمُه: الدُّرُّ المنثور في تراجِم ربّات الخدور؛ عنواناً على مسمّاه، متجلّي عرائس الأفكار في أعالي قُصور الاعتبار، متحلّي السُّطور بجواهرِ المعَاني، مسترقّ أحرارِ الأذهان برصانةِ هاتيكَ

(١) أعيان الشيعة (٧/ ١٣٤).

المباني ، فقد اشتملَ على تراجمِ العددِ العظيمِ من ربّات الخُدور ، وسيّدات القُصور ، وأميراتِ العُصور ، على سياقٍ غيرِ مسبوقِ المثال ، في متقدّمي الأجيال ، فسبحان مَنْ وفَّقَ ووهَب؛ وأقام للسَّيّدات ظهيرة فَضْلٍ وأدب. والحقُّ أحقُّ بأن يُقَال ويُسْمع ، إنَّ هذا الموضوعَ من أهمّ ما يجبُ أنْ يعتنيَ به العالَمُ المدنيّ ، لاشتمالهِ على قسمٍ عظيمٍ من تراجمِ شهيراتِ نصف العالَم البشريّ ، وهُنّ القيمُ الوحيدُ على تربيةِ المَلَكَاتِ الأولى ، والشّريك الأمين في الأعمالِ الحياتية ، وناهيك ما هنالك من الأهميّة التّهذيبية ، التي تُستفاد بتداول مثل هذه الآثار النّفيسة ، خُصُوصاً وقد قامَتْ بأداء هذا الواجبَ حضرةُ المصنّفةُ الفاضلةُ البارعةُ الكاتبةُ الشّهيرةُ ، ذاتُ العفَافِ السَّيّدةُ زينب فوّاز ، فجادَتْ وأجادَتْ في هذا الكتاب ، بمّا يروقُ ذوي العقول ويشوفُ أربابَ الألباب ، ولا غرابةَ فإنّها ربّةُ الفِكْرِ والقَلَم اللذَيْن طالَما زيّنا الأوراق ، وطارا بجناحَي شهرتها الفاضلة في الآفاقِ ، وسابَقَا الشَّمسَ في السَّيرِ والإشْراقِ ، فنثني على هذه السَّيّدة الثَّناءَ الجزيلَ ، ونشكرُ مسْعَاها المثيل بكلّ لسانِ شكرٍ جميل ، فلا برحت زينة العلْم والأدب، ولا زالَتْ مشكورةَ الأيادي العالية عند كلّ مَنْ قال وكَتَب. . »(١).

* وقال صاحبُ «مجلّة العرفان» في زينب فواز مُشيراً إلى تفرّدها في عالَم الأديباتِ على الرغم من وجودِ بعض الأغلاط: «إنَّ زينبَ فوّاز كانت في عَصْرها نسيجةَ وحدِها ، وفريدةَ عَصْرِها ، مع ما كان في كتبِها وكتاباتها وشعرِها من الأَغْلاطِ ، ولم يكن اشتُهر غيرُهَا من النّساء في مصر بالكتابةِ والشّعر والتّأليف. . »(٢).

---

(١) زينب فواز (ص ٨٥ و٨٦).
(٢) أعيان الشيعة (ص ١٣٤).

* وكتب حمدي يكَن في بعضِ المجلّات: «إنّه لم يُسْمَعْ في مصرَ إلّا باثنتيْن منَ الكاتبات: عائشةَ التّيموريّة، وزينبَ فوّاز»[1].

ثانياً- في المقالَة والخَواطر: لزينب فوّاز باعٌ في هذا المجالِ، حيثُ كان قلمُها سيّالاً في مجالِ المقالة، ولها عَمَلان هما:

أ ـ **«الرسائلُ الزَّينبية»**: وهي مجموعةٌ من المقالاتِ والرّسائلِ النَّثرية والشِّعريّة، كتَبَتْها في الجرائدِ والصُّحفِ المصريّة المعروفةِ آنذاك، ثم جمعتْهَ في كتابٍ مؤلَّفٍ من (٢١٨ صفحة)، كانت قد كَتَبتْه مقالات بين عام ١٨٩٢ وعام ١٨٩٩ م؛ وأكثرُ أبحاث هذه الرّسائل في المرأة وحقوقها ومكانتِها الاجتماعيّة والأدبيّة.

ب ـ **«كشفُ الإزارِ عن مخبآتِ الزَّار»**: والزَّار شعوذةٌ من شعوذاتِ شيخات مصْرَ، وصنْفٌ من تدجيلهنّ، حضرتْهُ ووصفَتْه في ذلك الكتاب، ونوَّهَت إلى واقعِ المجتمعِ المصريّ، والآفاتِ الاجتماعيّة المُسيطرة عليه، وفي مقدمتها الشَّعوذة.

ثالثاً ـ في الرّواية والقصَّةِ: من واجبِ الحقّ علينا ومن مستلزماتِ الحقيقة، أنْ نذكرَ بأنَّ السَّيّدة زينب فواز هي أوّلُ شخصٍ يحلّقُ في ميدانِ القصّةِ الطّويلةِ أو الرّواية، حيث كتبَتْ زينب روايةً قُبيل العِقْدِ الأخيرِ من القرنِ الميلادي الماضي، وقبل أنْ نتحدَّث عن الرّوايةِ الزَّينبية نشيرُ إلى أنَّ للسَّيدة زينب فواز روايتَيْن هما:

أ ـ «رواية الملك كورش»، أو «ملك الفُرس»؛ طُبعتْ عام ١٩٠٥ م.

ب ـ «روايةُ حُسن العَواقب» أو «غادَةُ الزَّهْراء»؛ طُبعتْ عام ١٨٩٩ م.

* وممّا لا شكَّ فيه أنَّ السَّيّدةَ زينب فواز قد أصدرت أوّل روايةٍ بالعربيةِ المعاصرة، وذلك حوالي سنة ١٨٨٥ م، في حين أنّ بعض دارسي الأدب

العربيّ الحديث يشيرُ إلى رواية «زينب» للدكتور محمد حسين هيكل هي أوّلُ روايةٍ عربية ، والصَّحيح أن رواية زينب فواز قد سبقتْ روايةَ هيكل بأكثرَ من ربع قرن ، حيث صدرتْ روايةُ هيكل عام ١٩١٤ م .

* فأمّا روايةُ الملكِ كورش ، فهي روايةٌ تاريخيّةٌ غراميّةٌ ، ذكرت فيها زينب قُبح العادةِ المجوسيّة ومساوئها ، وصوّرَتْ حُسْنَ الوحدانيّة؛ وتُعتبَرُ هذه الرّواية من أحسنِ الرّوايات مغزى ومعنى ، وقد طُبعت بعد روايتها حُسن العواقب بست سنوات .

* وأمّا رواية حُسن العواقب ، فقد أودعَتْها كثيراً من العاداتِ العامليّة ، لا سيما عادات الأُسْرة التي قضَتْ مدّةً في خدمتها . وهي مُـؤلَّـفَـةٌ من سبعةٍ وثلاثين فَصْلاً ، تجمع بين الفكْرِ والفائـدة؛ وذلك لأنّها تروي أحداثاً جَرَتْ فِعْلاً خـلال القرن التّاسع عشر الميلادي؛ وقد زيّنتِ الأديبةُ زينب فوّاز روايتها هذه بالأشعار الجميلـةِ الملائمةِ للأحداث ، كما أنّها جعلَتْ من المرأةِ عنصراً مهمّاً فـي تسلسُل فصولِ الرّواية وأحداثها ، مما جعل لهذه الرّوايـةِ مكانةً كُبْرى بين الأعمالِ الأدبيّة في نهايةِ العقْدِ الأخير من القرنِ الماضي ، واعتبرَها القُرّاء والنّاقدون آنذاك موهبةً نادرةً ، وعملاً مبكراً جميلاً ، فامتدحوها وامتدحوا زينب فواز ، ونصحوا بقراءتها .

* وممن أثنى على الرِّواية الزَّينبية «حسن العَواقب» رئيسُ تحرير جريدة النّيل الأديب الكاتب: حسن حُسني الطّويراني فقد كتَبَ تقييماً لهذه الرِّواية؛ وأجادَ بنثرِهِ وشِعْره فقال: «قرأتُ روايةَ حُسْن العواقب للكاتبةِ الشَّهيرة زينب فوّاز ، التي لا توازي شهرتَها شُهرةٌ ، وذلك لفكْرِها النّيّر ، وقلمِها المُبدع ، فوجدتُ الرِّوايةَ تتمتّعُ ببنيةٍ جيّدة ، ومواضيعَ بعيدةِ المنال ، ومزايا أدبيّةٍ جميلة ، فلا غرو أنْ تجودَ على العالَم الأدبيّ العربيّ بأمثالِ هذه النّفائس الغاليّة ، والآثار العاليّة ، فقد عوّدتِ العالمَ العصريَّ

المصريَّ بكثيرٍ من هذه المآثر ذات المفاخر ، نأْمُلُ أنْ تستمرَّ كاتبتُنَـا بمنح عصرِنا الحاضر مثل هذه الكتابات الأدبيّة القيّمة». ثمَّ قرظَ حسن حُسني هذه الرِّواية بأبياتٍ بائيةٍ تناسبُ عنوان الرِّواية فقال:

رُوَايـة إبْـداعٍ أجَـادَتْ وجُـودَهَـا ... براعَةُ فَخْرِ الفَاضِلاتِ الكَواتبِ
زَهَـتْ بمعَـانٍ لُطْفهـا فـي كِتـابِهـا ... بـرقَّـةِ مـوضـوعٍ وأسمـى مَطـالـبِ
ترى العينَ فيها وجْه كُلِّ براعةٍ ... وتسمو لها الأفكارُ منْ كُلّ جانبِ
فَلا برحَتْ تُهْدي المعَارفَ زينبٌ ... هدايَا المزَايَا في أعَالي المراتبِ
وَلاَ زَالَ هذا العَصْرُ منها مُمتّعاً ... بخَيْرِ مَباديها (وحُسْنِ العَواقبِ)

* وممنِ امتدحَ الرّوايةَ نثراً وشِعراً ، وأشاد بأسلوبِها وهدفها الشّاعر محمّد توفيق حيثُ قال: «مَنْ أنكرَ وجوب تعليمِ ربّاب الخُدور ، فليمتعْ نظَره بهذا السِّفر المَسْطُور ، فإنّه دلالةٌ لا تمنعُ ، وبرهانٌ لا يدفعُ ، حيث قامَ الدّليلُ على صحّة دعوى التّعليم ، وفوق كلّ ذي علْم عليم ، إذ جاءَتْ هذه الرّوايةُ طيّبةَ الغاية ، في البدايةِ والنّهايةِ. . ».

* ثمَّ ذيّلَ الشَّاعر محمّد توفيق هذه السُّطور بهذه الدَّاليةِ الجميلةِ التي ترّقق ستورَ السُّطور فقال:

أَعُقــودُ درٍّ فــي جِيــادِ الخُــودِ ... تزهُو فتظْهَرُ في صُدورِ الرُّود[1]
أمْ تلكَ أضواءُ الصَّباحِ أتَتْ بها ... شمسُ الفضيلةِ في سَماءِ زَرودِ[2]
أمْ تلكَ آياتُ الطُّروسِ تبرَّجَتْ ... لتَشُــدَّ أزْرَ الفَضْــلِ بــالمــوروِدِ
جاءَتْ ترتّلُ من حديثٍ قَدْ زَهَا ... ســورَ البَهــاء بمــوكــبٍ وبنــودِ
وتلـتْ علـى آذانٍ مـا قـد فُصّلَـتْ ... رسـلُ الفَصَـاحـةِ فـي بنـي منشـودِ

---

(١) «جياد الخود»: رقاب الشابات. والخود: المرأة الشابة. و«الرود»: أصلها الرؤد: الشابة الحسنة.

(٢) «زرود»: اسم مكان في الجزيرة العربية.

وجلَتْ محاسنَ ما جلَتْ عَصْرَ الذي ... زانَتْـهُ زينـبُ فـي بَهـا وسُعـودِ
سَتَرتْ محاسنَها ولكنْ قد بَدَتْ ... منهـا البـراعَـةُ فـي جـلاءِ صُعـودِ
إنْ كانَ خلفَ الخدرِ ظَلَّ مقامُها ... فلَهـا السَّنـاءُ بفـارسٍ وهنـودِ
جـاءَتْ مبَاديهـا بِحُسْنِ عـواقبِ ... وأتَـتْ أحـاسنُهـا بـلا مجهـودِ
جـاءَتْ بمـا فـاقَ اللـواتـي قبلَهـا ... فـأقمـنَ فـي حِـلٍ مـنَ المعقـودِ
روَّحتُ فكري في تلاوةِ أسْطرٍ ... جـاءَتْ بمثـلِ اللـؤلـؤِ المنضُـودِ
فعلمـتُ مـن بِكْـرِ المقـالـةِ أنَّهـا ... تغْتَـاضُهـا عـن ابنـةِ العنْقُـود
سَكِرَتْ بها الآمالُ حيثُ سرورها ... يجلـو عنـاءَ متيّـمٍ مَكْـدودِ
لا زَالـتِ الأفكـارُ تـرقُـبُ منَّـةً ... مـن زينـبٍ لتجـودَ بـالمـوجـودِ
فلـزينـبٍ حُسْـنُ العـواقـبِ زُيّنَـتْ ... كعقـودِ درٍّ فـي جيـادِ الخُـودِ

* وقرّظ محمّد علي غالب روايةَ زينب فواز شِعراً فقال:

هَـذي لآلـىءُ أمْ كـواكِـب ... بسَنَـائِهـا ظهَـرَتْ عجـائِـبْ
أمْ ذَا كِتَـابٌ نُـورُه ... ضـاءَ المشَـارقَ والمغَـاربْ
لا غَـروَ أنْ عجبـتْ بـهِ ... مصـرٌ فكَـمْ فيـهِ عجـائِـبْ
أهْـدَتـهُ سيّـدةٌ لَهـا الـ ... ـفضـلُ العميـم أجـلُّ طَـالـبْ
حسُنَـتْ مبـاديهـا بـهِ ... فـزَهَـتْ بهـا حُسْـنُ العَـواقـبْ

* وأمّا الشّاعر عبد الله فريج فقد أنشأ قصيدةً بائية جميلة، قرّظ فيها روايةَ زينب فوّاز مُشيراً إلى انتشار روايتها في الآفاقِ والبُلدان، بالإضافةِ إلى قيمتها الأدبيّة في عالم ذوات الخُدور والكواعب، يقول عبد الله فريج:

لَعَمركَ إنَّ العِلْمَ خَيرُ المكَاسِبِ ... ذووه بـهِ يـرقَـونَ أعْلـىٰ المَـراتـبِ
بإحْرازِه كَمْ فَاقَ في النَّاس يافعٌ ... على كُلِّ كهلٍ في أجلِّ المَناصبِ
وكمَ غادةٍ حَسْناءَ أضحَتْ بخدرِها ... تُباري بهِ أهلَ اللحى والشَّواربِ
وحَسْبُـكَ فيـهِ ربَّـةُ الخـدرِ زينـبٌ ... فريدةُ هذا العَصْر خيرُ الكَواعبِ

كَـريمـةُ فـوّازٍ هـيَ الغـادَةُ التـي حبـاهَـا إلـهُ العـرشِ عـزّ المنـاقـبِ
لَـنَا أَنْشَأَتْ عن فضلِ ربٍّ روايةً يقصِّـرُ عـن أمثـالِهـا كـلُّ كـاتـبِ
فأكْرِمْ بها مِن مُلحةٍ ذاتِ بهجةٍ بـآيـاتِ سحْـرٍ للقُلُـوبِ جَـواذبِ
بها حِكَمٌ لو شَام لقمانُ بعضَها لقـالَ وربِّ البيـتِ يـا للعَجـائـبِ
كَـدُرٍّ بهـيٍّ فـي عقـودٍ منضَّـدٍ لـه حَسَـداً تـرنُـو عيونُ الكـواعـبِ
معَانٍ لَعَمْرُ الحقّ تلعبُ بالنُّهى وتُـزْري بِهـاتيـكَ الظِّبـاءِ الرّبـاربِ
فبالمدحِ ما قَدْ خَصَّها غيرُ صادقٍ ومَا عَابَها منْ جَهْلهِ غيرُ كاذبِ
لـــربّتهـــا منّـــا ثَنـــاءٌ معطَّـــرٌ وذلـك فَـرضٌ واجـبٌ أيّ واجـبِ
مخـدّرَةٌ مـن خيـرِ قـومٍ وأمّـةٍ سليلـةُ مجـدٍ مـن كـرامِ الأَعـاربِ
تحلَّـتْ بـأخـلاقٍ أرقَّ مـن الصَّبَـا وأوصـافِ أمـلاكٍ فسبحـانَ واهـبِ
وقد أُرضعَتْ ثديَ العُلومِ فأصبحتْ تصـوغُ لنـا دُرَّ النُّهـىٰ فـي قَـوالـبِ
تـآليفُهـا عمَّـتْ بـلادَ مشَـارقٍ وذاعَتْ بفخرٍ في جميعِ المغَاربِ
فللّـــهِ آدابٌ بهـــا قَـــدْ تفـــرَّدَتْ وللهِ أفكـــارٌ كشُهْـــبِ الثَّـــواقـــبِ
حَبَتْنَـا مـنَ الفكْـرِ المنيـرِ بتحفـةٍ وكنـزٍ ثميـنٍ مـن أجـلِّ المطـالـبِ
ولما ازدهَتْ بالطَّبعِ في أفقِ حسْنِها كروضٍ جنَيْنَا منه خيرَ الأطايبِ
تــرنَّــم عبــدُ اللهِ يشــدو لِصَحْبــهِ ونـادى بتـاريخَيْـن كُـلَّ الحبـائـبِ
تهنّــوا ذوي عــزّ بطيــبِ روايــةٍ تجلَّت لنا زَينا بِحُسْنِ العَواقبِ[1]

* وهناك آثارٌ أدبيّةٌ ونقديّةٌ كثيرةٌ عن روايةِ زينب فواز «حُسْن العَواقب» وكلُّها تُطري وتثني على عَملِها ، وتُشيرُ إلى أنّها أديبةٌ منَ الطِّراز الأوَّل ، وأنَّها ذاتُ قَلَمٍ سيّالٍ بجودةِ الفكْرة ، وجمالِ العبارة ، وتجسيدِ المشَاعر في قوالبَ أدبيّةٍ جميلة ، تحملُ بين ثناياها الأخلاقَ الحميدةَ ، وتغرسُ الأهدافَ النّبيلة .

---

(١) زينب فواز (ص ٩٩ و ١٠٠).

رابعاً ـ في المسْرَح وفنونهِ: مسرحيّةُ «الهوى والوفاء»؛ وهي مسرحيةٌ صغيرةٌ من أربعةِ فُصولَ ، وتقعُ في (٩٤ صفحة) طُبِعَتْ عام (١٨٩٣ م) وفكرتها نبيلةٌ؛ إذ تتحدَّثُ عن قصّةِ حبّ في بلادِ العراق ، وتدورُ حوادثُها بينَ البصرةِ وبغداد ، وتتخللُها مواعظُ وإرشادات أدبيّةٌ وخُلقيةٌ ، وهي رقيقةُ الموضوعِ لطيفةُ الأسلوب.

* وقد أخذَتْ هذه المسرحيّةُ مكانَها بين الأعمالِ الأدبيّة وقتذاك ، واطلّعَ عليها أدباءُ العَصْر ، وأمراءُ البيَان ، وقرّظَها كثيرون ، وفي مقدمتهم حسن حُسني الطّويراني صاحب جريدة النّيل ، الذي نالت هذه المسرحية إعجابَه ، وذكرَ بأنَّها روضة غنّاء ، قد رقّتْ معانيها وألفاظُها وأدبُها ، فلنستمعْ إليه حيثُ يقول:

هَـــذا يَــراعٌ بَــارعٌ قَــدْ كَتَــبْ	أمْ ذَاكَ قَــسٌّ فــي عُكَــاظِ خطَــبْ
أمْ روضَـــــةٌ غنّـــــاءُ أفْنــــانُهـــــا	مــالَــتْ بنّــا مــن نشــوةٍ فــي طَــربْ
منَــاظِــرٌ فــي كُلّهــا حكْمَــةٌ	تهدي لرائيها المعَاني والعَجبْ
رقَّـــتْ معَـــانيْهَـــا وألفـــاظُهـــا	كالرَّاحِ في كأسٍ صفَا واضطربْ
جـادَتْ بهـا ذاتُ عفـافٍ سَمَـتْ	فكْـــراً بَـــدتْ أنـــوارُهُ واحتجَـــبْ
مفْضَـــالـــةٌ أحيَـــتْ بـــآدابِهـــا	آثـــارَ ربّـــاتِ خـــدورِ العَـــربْ
فَلْتَـــزْدَهِ فـــي عَصْـــرهـــا زينـــبٌ	ولْتَسْمُ في الفضلِ أعالي الرّتبْ
أحبّـتِ الشَّـرقَ فَشَمْسـاً غَـدَتْ	بعلْمِهـا والمـرءُ مـع مَـا أحَـبْ
لــم يَغْتَــدِ العِلْــمُ لهــا حليــةً	بــل صَــارَ ذاتيــاً لهــا وانتسَــبْ
وهـــذهِ آثـــارُهَـــا أقْبلَـــتْ	تقـولُ يـا سبحـانَ مـن قَـدْ وهَـبْ
رِوَايَــةٌ جــاءَتْ لأَهْــلِ النُّهَــىٰ	فقلْـتُ تـاريخـاً لهـا قَـدْ وجَـبْ
أنعـمْ بتمثـالِ الهـوىٰ والـوَفَـا	روايـــة فـــاقَـــتْ جمـــالَ الأدَبْ

* وقرّظَ المسرحيّة الزّينبيّة الشّاعرُ عبدُ الله فريج بقصيدةٍ تائيّةٍ طويلةٍ نَقْتَطفُ منها قوله:

والعلْمُ في عَصْرِهِ أعلامُهُ خفقَتْ ... فَـنَـكَّسَتْ لجيوشِ الجهلِ راياتِ
عَصْرٌ به الشَّرقُ في آفاقِهِ سطَعَتْ ... شمـوسُ فَضْـلِ بـأنـوارٍ بهيّـاتِ
فَما عَجَبٌ إذا الغَاداتُ قد نبغَتْ ... فيـهِ وفُـزْنَ لـدى سَبْـقٍ بغـايـاتِ
لا سيّما زينبُ الحسْنَاءُ مَنْ وصِفَتْ ... بكـلِّ فَـوزٍ وفَخْـرٍ بيـنَ غَـاداتِ
أديبةُ العَصْرِ ذاتُ الخِدْرِ مَنْ شَرُفَتْ ... كتـاجِ فخـرٍ علـى هَـامِ الأديبـاتِ
في كل علمٍ لها الباعُ الطَّويلُ كما ... فـي كـلّ فـنٍّ لهـا أوفـى مقـالاتِ
يثنِي عَلَيْها جميعُ الخَلْقِ في أدبٍ ... مـنْ سيّـداتِ تُحَـاكيْهـا وسَـاداتِ
لهـا يـراعٌ رعَـاهُ اللهُ مـن عطَـبٍ ... لـه فعـالٌ تُحـاكـي السَّمهـريّـاتِ
أهدَتْ لنا من نظيمِ الدّرّ فكرتَها ... روايــةً هــذَّبَتْهــا بــالكمــالاتِ
فيها المعَاني إلى أهْلِ النُّهى طَلَعَتْ ... بُدورَ تَمٍّ زَهَتْ في وسْطِ هَالاتِ
سِحْرٌ حَلالٌ إلى القُرّاءِ فيهِ أَتَتْ ... بمعجــزاتٍ وآيــاتٍ جليّــاتِ
لنا شموسُ الهُدىٰ في أفْقِهِ بزغَتْ ... فَنُورُها قد مَحا لَيْلَ الضَّلالاتِ
واليومَ إذْ رقَّ طبعاً في محاسنِهِ ... فيـه تغنَّـتْ بتـاريخَيْـنِ أبيـاتـي
هذا كتابٌ به جلَّ الهوى بوفا ... بالفخرِ فيه صَفَا نادي الرّواياتِ

* وقرّظَ مَسْرحيّةَ زينب فوّاز «الهوىٰ والوفاء» مديرُ جريدةِ النّيل؛ إذ شَدا بقصيدةٍ خفيفةٍ لَطيفةٍ فقال:

هَــذي عُقــودُ جُمــانٍ ... فــي سِمْــطِ درٍّ مُحبَّــبْ
أَمِ الثُّــريّــا تجلَّــتْ ... علــى انتظَــامٍ مُــرتَّــبْ
بَــل تلــكَ آيــاتُ حُسْــنٍ ... مــن فكــرةٍ ليــسَ تُغْلَــبْ
روايـــــةٌ نمَّقَتْهَـــــا ... لطفــاً أنــامــل زينــب
مــنْ أهــلِ فــوّاز فــازَتْ ... فــي كــلٍّ فــنٍّ بمطلَــبْ

رِوَايــــــــةٌ كــــــــلُّ راوٍ يُطْــــــري علَيْهـــــا ويَطْـــرَبْ
هِــــي الهـــوى للمُعَنّــــى وهــــيَ الـــوفَــا للمهـــذَّبْ
فــأَيــنَ «مـــوليــرُ» يـــروي وأيـــنَ «نقّـــاشُ» يُعْجَـــبْ
يقُـــولُ هــــذا لهـــذا هلـــمَّ كـــي نتـــأَلَّـــبْ
فقـــد أغَـــارَتْ علينـــا بـــراعـــةٌ مِـــنْ مُحَجَّـــبْ

* وهذه الثّناءاتُ والتَّقاريظُ دليلٌ على المكانةِ الأدبيةِ التي اقتعدتها زينب فوّاز في هذا المجال الفنّي الأدبيّ الجميل.

خامساً ـ في التَّراجم والطَّبقات: لزينب كتُبٌ في التَّراجم لم تُطْبَع، ولم يُعْثَرْ عليها وهي:

أ ـ «مدارِكُ الكَمالِ في تراجمِ الرِّجَال».

ب ـ «الجوهرُ النَّضيدُ في مآثرِ الملكِ الحَميد».

سادساً ـ في الشِّعر والنَّظْم: لها ديوانُ شعْر مطبوع، ولكنْ لم نعثرْ عليه؛ وأكّدَ مترجمُو سيرتها بأنَّه مَطبوعٌ.

* بيد أنَّها قد أودعَتْ كثيراً من نفثاتِها وقصائدها في مصنّفاتِها ومؤلّفاتها. وسنتحدثُ عن أدبِ شعْرها، وشعْرِ أدبِها، وفنونها الشّعرية في الفقْرة الآتيّة بإذن الله.

* كما سنشيرُ إلى نثرِها وبراعتِها في هذا الميدانِ بفقرة خاصّة.

* ولعلَّ لهذه السّيّدة الأديبّة كُتباً ومقالاتٍ أخرى هضَمَتْها بطونُ المجلاّت والصُّحف في وقتها، وعفّا عليها الزَّمنُ، كما أنّ لها تقاريظ لكتبٍ مهمةٍ صدرت في عَصْرِها، وربما كان لها بعضُ المقالاتِ النّقدية التي تدلُّ على تذوّقها الأدبيّ، والله أعلم.

زَيْـنَبُ وَفُـنُـونُ الـشِّعْـرِ:

* اشتُهِرتْ السَّيِّدةُ زينب فوّاز في ميدانِ الأدبِ والتّأليف أكثر من شهرتها في مجالِ الأدب، بيد أنَّ ما قرأناه من أشعارِها جعلَنا نعقدُ لها فَصْلاً كامِلاً نتحدَّثُ فيه عن فنّها الشِّعريّ، ومذهبها، وألوانِ وأنواعِ الشّعر الذي طرقَتْه، من مديحٍ، أو هجاء، أو تقريظ، أو غَزَل، أو حنين لمسْقَط الرّأس، أو رثاء، أو من الشّعر الحماسيّ والوطني وغير ذلك ممّا نطّلع عليه منَ الفُنون الأخرى وخاصّة في البديع، ولهذا فإنّنا نرى أنّ السّيّدةَ زينب فواز من أميراتِ الشّعر في عصرها؛ وقد استطاعت أنْ تُسْمِعَ صوتَها الشّعري الأدباءَ والشُّعراء، فأقرُّوا لها بالتّقدّمِ والتّفرُّدِ بين عالَم ذواتِ الخُدور.

* وعلى الرّغمِ من أنَّ الشِّعْرَ أعمُّ بينَ رجالِ عَصْر زينب، إلاّ أنّها سجّلَتْ سبقاً في هذا الميدانِ، ونحنُ لا نوافقُ «عبّاس محمود العقاد» عندما يتحدّثُ عن شعْر النِّساء ونَظْمِهِنَّ في معرضِ ترجمته لعائشة التّيمورية إذ يقول: «فالمرأةُ قد تحسنُ كتابةَ القَصَص، وقد تحسنُ التَّمثيل، وقد تحسنُ الرّقْصَ الفنّي من ضروبِ الفنون الجميلة، ولكنّها لا تحسنُ الشِّعْرَ، ولمّا يشتمل تاريخُ الدّنيا كلّه بَعْدُ على شاعرةٍ عظيمةٍ، لأنَّ الأنوثَةَ ـ من حيث هي أنوثة ـ ليستْ معبّرة عن عواطفِها ولا هي غلابة تستولي على الشَّخصيّة الأخرى التي تقابلُها، بل هي أدنى إلى كتمانِ العاطفةِ وإخفائها، وأدنى إلى تسليم وجودِها لمن يستولي عليه من زوجٍ أو حبيب، ومتى فقدتِ الشّخصيّة صدق التّعبير، وصدق الرّغبة في التّوسّع والامتداد واشتمال الكائنات كلّها، فالذي يبقى لها من عظمةِ الشّاعرية قليل.

ولا ينفي قولنا هذا أنَّ الأنثى قد تعبّرُ عن الحزنِ، لأنَّ الحزنَ لا يناقضُ

استعداد الشَّخصية للتّسليمِ والاستنادِ إلى غيرِها ، ولهذا كانتِ الشَّاعرةُ الكُبرى التي نبغَتْ في العربية باكيةً راثيةً وهي الخنساءُ ، ولم يكنِ الشَّواعرُ المعروفات منَ الجواري والعقائلِ في الدَّولتَيْن العبّاسيّة أو الأندلسيّة إلا مقلّدات مردّدات ، لا تجتمعُ من شعرهنّ الجيّد صَفَحات»[1].

* وبالطَّبع فهذا الكلامُ يمثّلُ رأيَ العقّاد وحْدَه ، والواقعُ يخالفُ ذلك ، حيث نجدُ كثيراً منَ النّساء في مختلفِ العُصور يُجِدْنَ فنونَ الشّعر ، وقد تعرّضنا لذكْرِ طائفة منهنّ في موسوعتِنا الجميلةِ الشَّهيرةِ الكبيرة : «نِسَاء في حَيَاةِ المشَاهِيْرِ»[2] وسيجدُ القارىءُ فيها ما تشتهيهِ نفْسُه بإذنِ الله.

* أمّا السَّيّدةُ زينب فوّاز فكان لها نصيبٌ موفورٌ في هذه الموسوعةِ الجميلةِ ، ولها أشعارٌ جميلةٌ ، أجادَتْ من خلالِها في فنونٍ شتّى ، ومن شِعْرها في فَضْل الشَّرق ـ وهذا ما يتوافقُ مع فكرتنا في هذا الكتاب ـ قولُها :

لِلشّــرقِ فَضْــلٌ فــي البَـريّـةِ إنّـه ... يأتي الوجُوْدَ بِكُلّ حُسْنٍ معْجبِ
والغَـربُ أظْلـمُ مَـا يكُـونُ لأنَّنـا ... نشْقى بفرقةِ شمسنا في المغربِ

* وفي مضمارِ المعارضاتِ الشّعريّة كان لزينب فوّاز أثرٌ جميلٌ ، وصوت صدّاحٌ ، وهمسٌ ممْراحٌ ، ففي رحلة الغَزلِ النّسوي الرّقيق ، عارضَتْ زينب فوّاز بحتريَّ الأندلس ابن زيدون في نونيتهِ الشَّهيرة كَما سَنَرى ، وكذلك في قَافيّتهِ الجَميلةِ :

إنّـي ذكـرتـكِ بـالـزَّهـراءِ مُشْتـاقَـا ... والأفقُ طَلْقٌ ووجْهُ الأرضِ قَدْ راقَا

* فقد احتلّتْ هذه القصيدة جوانح الشُّعراء ، في جميعِ العُصور من

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي (ص ١٢٦) منشورات المكتبة العصرية صيدا.
(٢) سيصدر هذا الكتاب في مجلدين كبيرين بعون الله ومدده وتوفيقه وكرمه.

الرِّجالِ والنِّساء ، فقالَتْ تعارضُها بمعانٍ تحاكي الحِسَان جَمالاً ، وتُناعي الغيدَ الأوانِس دلالاً :

لَا زَالَ قَلْبِي مَدَىٰ الأَيَّام خَفَّاقَا ... وبَدْرُ حُسْنِك يَجْلُو العَيْنَ إِشْرَاقَا
تكَوَّنَ الجِسْمُ منْهُ مِنْ سَنَا قَمَرٍ ... حتّـى تكَـامَـلَ إِلْمـاعـاً وإِيْنَـاقـا
نُـورٌ تَجلَّـىٰ عَلـى الأرواحِ منْفَـرِداً ... حتّى جَلى منْهُ في الأَحْشَاءِ إِحْداقَا
سَرى غَرامُك في قَلْبِي وفي جَسَدِي ... لِـذَاكَ أَثَّـرَ إِسْقَـامـاً وإِحْـراقَـا
كُلّـي بِكُلِّـك مَشْغُـولٌ ومُـرتَبِـطٌ ... فلَسْـتُ أَشْكُـو إِلـى لُقيـاك أَشْـواقـا
وأَصْبحَ القَلْبُ منْ وجْدٍ يُذَوِّبُه ... نـورُ الشَّبيبـةِ تهْيَـامـاً وإِشْفَـاقَـا[1]

* ولزينبَ مُتغزّلةٌ بهذهِ القصيدةِ اللاميّة على طَريقةِ شُعراء عَصْرِها وما قَبْله ، حيثُ تقول :

جَمَعتنـي يـومـاً والحبيـبُ منَـازِلُ ... وتَعَطَّفَ الدَّهْرُ الذي هُوَ باخِلُ
دَارَتْ كـؤوسُ الأُنْـسِ فيمـا بيننـا ... وبَـدا لَـدَيْنَـا فـي الغَـرام دَلائِـلُ
وغَـدا يُعَـاطينـي مُـدَامَ حَـديثِـهِ ... واللّحظُ بـالسِّحْـرِ الحـلالِ يغـازِلُ
مالَتْ بنا الصَّهباءُ في سُنَنِ الهَوىٰ ... حتّـى وجَـدْنَـا للكـلام أوائِـلُ
جـاذبْتُـه نحـوي وكـانَ مقنّعـاً ... فتمـايـلَ القـدُّ الـرّطيـبُ العَـادِلُ
فَلَمسْـتُ بَـدْرَ التَّـمِّ بيـنَ أنـامِلـي ... لكنَّـه قـد حَـالَ دُونـيَ حَـائِـلُ[2]

* وفي المجالاتِ السِّياسيّة والوطنيّة نجدُ صوتَ زينب فوّاز يملأُ الأَسْماع ، من ذلك أنَّها قالَت مهنّئة جلوس السُّلطان عبد الحميد الثّاني عام (١٩٠٥ م) :

عيدُ السُّعود على سَعْدِ السُّعود عَلا ... وغَيْهبُ النَّحسِ عنَّا شَطَّ وارتحلا
ويـومُـهُ زادَ فـي الأفـلاكِ بهجتهـا ... وزيّنتْ مصرُ حيثُ البشرُ قد شَمَلا

---

(١) انظر موسوعتنا (نساء من الأندلس ص ٤٤٧) ، وأعلام النساء (٢/ ٨٣).
(٢) أعلام النساء (٣/ ٨٢ و٨٣).

ولجنةُ العيدِ قامتْ تحتفي فرحاً ... مقرونةً بسخاءٍ غيثُه هَطَلا
فأشْعَلتْ ضوءَهَا بالكهرباءِ وقد ... جازَ الحدائقَ حتّى السَّهلَ والجبلا
وتلكَ راياتُ مصْر صفَّقَتْ طرباً ... يومَ الجُلوسِ وضجَّ الجمعُ مُبتَهِلا
بقولِه دُمْ أميرَ المؤمنين لنا ... ركْناً ركيناً وكهفاً لا يُنالُ ولا
أرسَلْتَ للعِلْمِ ضوءاً فاستنارَ وقد ... كان انزوى زمناً واليومَ قد كَملا
تذكارُ مولىٰ الورى عبدُ الحميد لنا ... روحُ الحياةِ ونجمُ البؤسِ قد أفَلا
فاستبشروا معشرَ الإسلامِ أنَّ لنا ... حصْناً منيعاً يردُّ الخصمَ مُعْتَقلا(١)

* وهذه دعوة زينبيّةٌ إلى الجِدّ والاجتهادِ، إذ كان هدفُها أنْ يقومَ مجتمعٌ عربيٌّ على أساسٍ منَ العدالةِ والمُسَاواة، فترفع صوتها مدوياً في الشّرق والغرب، تهيبُ بأمّتها أنْ تنفضَ عن كاهلِها غبارَ الجهْلِ والتّواكلِ، وأن تسعى إلى العلياء بالتّضحيةِ وبذْلِ الدّماء، فهذا هو السَّبيل إلى العُلا وإلى المجدِ، لذلك نراها تنظمُ قصيدةً طويلةً منها قولُها:

لَولاَ احْتِمالُ عَناً وبَذْلُ دمَاءِ ... لمْ يَرْقَ شَخْصٌ ذِروةَ العَلياءِ
[لا يَسْلمُ الشَّرفُ الرفيعُ منَ ... الأذى] إلاّ بسَفْكِ دَمٍ على الأَرجَاءِ
هذا مقالُ الأقدمينَ ولم تَجدْ ... بدّاً لنَا منْ شرعَةِ القُدَماءِ
إنْ لَمْ نُشَيّدْ ما أقامُوا أُسَّهُ ... فلْنَجتنِبْ قصْداً لهدم بنَاءِ
يا حَسْرةَ الآباءِ في أجداثِهم ... إنْ أخْجَلَتْهم خيبَةُ الأَنْباءِ
يا حَسْرةَ الأمواتِ لو نُشِروا فلمْ ... يجدوا الذي ظنُّوه في الأحياءِ
يا خَجْلَةَ الأحبابِ لو فخروا بِنا ... إذْ ينظرونَ شماتَةَ الأَعْداءِ
وَاهاً رجالَ الشَّرقِ صرنا عبرةً ... بينَ الورى من سَامعٍ أوْ رَائي
وهناكَ في الأصلابِ قومٌ بعدنا ... يحصُون ما يَمْضِي منَ الأَنْبَاءِ
لم يُنزلِ الرّحمنُ داءً في الورى ... إلاّ وجادَ له بخيرِ دواءِ
ولئن نَبا السَّيفُ الصَّقيل ففي النّهى ... والعِلْمِ سَيْفَا حِكْمةٍ ووفَاءِ

ولئن كَبَا الطَّرفُ الجوادُ فلم يزَلْ   للعقْــلِ ميــدانٌ لِنَيْــلِ عَــلاءِ
ولئنْ أبى ذو الحقْدِ نيلَ رجائِنا   فـالـرّأي يضمـنُ نيـلَ كـلّ رَجَـاءِ
هَيْهَـاتَ مَـا العُميـانُ كـالبُصَـراء   كــلاّ ولا الجُهــلاءُ كــالعُلَمــاءِ
نَروي عنِ الماضين ما فعلُوا فما   يـروي بنـو الآتـي عـنِ الآبـاء[1]؟

* ومن الفنونِ الشِّعريّةِ التي طرقَتْها زينب فوّاز فنَّ الحنين إلى الأوطانِ ، إذ كان لها وطنٌ آلَتْ ألاّ تبيعَه مهما كانتِ الظُّروف ، وهي لن تَنْسَاه مهما بعُدتِ المسافاتُ ، فوطنُها مهوى فؤادها ، ومسقطُ رأسِها ، ومجمعُ أحبّتها؛ فقد كانت زينب فوّاز في مصر مشهورةً ناجحةً في مجدِها الأدبيّ والعلميّ ، إلا أنَّ ذلك كلَّه لم يستطعْ أنْ ينسيَها وطنَها الأوَّلَ ، فقد كانت زينبُ دائمةَ الحنينِ إلى مسقطِ رأسِها في قَلْعَةِ «تَبْنِين» تلك القلعة التي بنَاها «هيوسنت» صاحبُ طبريّة ، وذلك في سنة (١١٠٧ م) وجعلَها آنذاك معقلاً لغزوِ صُور وما يليها .

* ومن بدائعِ شعْرِها في الحنينِ إلى وطنِها وقلعتها ما أرسلتْهُ من مصرَ إلى صاحبِ مجلّة العرفان ، حيثُ بعثَتْ له أبياتاً تخاطب بها قلعةَ «تبنين» وقالَتْ له : «ذكَّرتَني يا صَاحِبَ العِرفانِ ما لا أنْسَاهُ منْ معَالم أوْطَاني ، فنَطَقَ لِسَاني مُخَاطباً لِقَلْعةِ تَبْنين التي أفْنَتِ الأَجْيَالَ لَمْ يؤثّرْ على أسوارِها الدهرُ ، فقلتُ :

يَا أَيّها الصَّرْحُ إنَّ الدَّمعَ منهملُ   فهَلْ تعيدُ لنَا يا دهْرُ مَنْ رحلُوا
وهلْ بقي فيكَ مَنْ ينعىٰ معي فئةً   همُ المقاديمُ في يومِ الوغىٰ الأُوَلُ
قد كُنْتَ للدّهْرِ نُوراً يُسْتَضاءُ بهِ   أخنَى عليكَ البلىٰ يا أيُّها الطَّللُ
كـمْ زيَّنَتْـكَ قـدودُ الغيـدِ رافلـةً   بالعزّ تسمو ووجْهُ الدّهْرِ مقتبلُ

(١) أعيان الشيعة (٧/ ١٣٥) نقلاً عن مجلة العرفان (١/ ٢٨١) .

أبكيكَ يا صرحُ كالورقاءِ نادبةً ... شوقاً إليهم إلى أنْ ينتهي الأجَلُ
قد كُنْتَ مسقطَ رأسي في رُبى وطني ... إنَّ الدُّموعَ على الأوطانِ تنهملُ
«تبنين» إنْ كنتِ في بُعْدي على حزنٍ ... فعند قربي الحشَى بالوجْدِ يشتعلُ
وقفتُ وقفةَ مشتاقٍ به شغفٌ ... علّيْ أرى أثَراً يَحْيَا بهِ الأملُ
إذِ الأحبَّةُ قد سارتْ رحالهمُ ... فزادَ شوقي كما قَلَّتْ بيَ الحِيَلُ
القلعةُ؛ الشَّوقُ! لا الوادي بها فَرِحٌ ... كعهْدِه بالأُلى كانُوا ولا الجبَلُ
فالنَّفْسُ شاكيةٌ والعينُ باكيةٌ ... والكبدُ داميةٌ والقلبُ مشتعلُ
أَعْلَى «هيوسنت» أبراجاً لها عَجَباً ... تصارعُ الدّهرْ لا ضعفٌ ولا مَللُ[1]

* ومن ألوانِ أدب زينب فوّاز ، تلك النَّفثات الفلسفيّة ، والوقْفات التّأمليّة ، التي تدلُّ دلالةً واضحةً على إيمانها بزوالِ زُخرفِ الدُّنيا وبهجتِها ، وأنَّ الأمانيَّ ستكونُ متلاشيةً يوم المنايا ، والذي يبقى منَ الإنسانِ هو ذكْراه الطّيّبة ، ومحاسنُهُ وشمائلُه الفاضلة ، تقولُ زينب :

بَدْءُ الحيَاةِ وجُودٌ حيثُ نَغْشَاهُ ... نظَلُّ نرجُو وما نرجُوه نَخْشَاهُ
والمَرءُ في جوهَرِ الدّنيا حكىٰ عَرضاً ... يزولُ عنها وتبقى عنْه دنْياهُ
والعَيْشُ في كرةِ الغبراءِ مشْغَلَةٌ ... بينَ الحوادثِ والعُقبى قُصاراهُ
والجَمعُ مَهْما صفَتْ أيّامُ نضْرتهِ ... فإنَّ تبديدَ ذاك الشَّمْلِ عقباهُ
وَالسَّعيُ في الدَّهْرِ آمالٌ يمرُّ بهِ ... عمرٌ تحيلُ أمانيهِ منَايَاهُ
لاَ شَيءَ منْ زِينَةِ الدُّنيا لِسَاكِنها ... سوى محاسنِ ما تبقيهِ ذِكْراهُ[2]

* وفي مجال الرّثاء كان لزينب فواز مشاركةٌ ، وكانت أنّاتُها تصلُ إلى

(١) أعيان الشيعة (٧/ ١٣٥) نقلاً عن مجلةِ العرفان (٢/ ٢٨٩). ومنَ الواضح أنَّ في هذه الأبيات أنّاتِ الحنين ولوعتَه ، ومكابدةَ الشّوق الذي لم يتركْ زينب لحظةً واحدة ، ولكنّها همساتُ المحبين المشتاقين إلى أوطانهم يرسمونها على صفحات الأيّام.

(٢) زينب فواز (ص ٧٠).

القلوبِ ، ومن أمثلة ذلك قولُها في رثاء أخيها محمّد فواز الذي وافَتْه المنية عام (١٩٠٣ م) ؛ إذ رثته بقصيدة لاميّة[١] ومنها :

مُصَابٌ عظيمُ الوقْعِ في النَّفْسِ هائلُ ... وخَطْبٌ جَسِيمُ الصَّدعِ للقلبِ غائِلُ
سَأبكيكَ مَا الأطيارُ تألفُ وكْرَهَا ... ومَا صَدعَتْ بين الصُّدورِ البَلابلُ

* ومنَ الأَشْعارِ الوجدانيّة التي ضمَّنَتْها في رواياتِها ، قولُها في روايةِ «حُسْنِ العَواقبِ» :

مَا سَلَّمَ اللهُ هُوَ السَّالمُ ... ليسَ كمَا يزعمُهُ الزَّاعِمُ
تَجري المقَاديرُ التي قدّرتْ ... وأنفُ مَنْ لا يرتَضي راغِمُ

* وقولُها :

إذا رَامَ التَّخلُّقَ جاذَبَتْه ... خلائقُه إلى الطَّبْعِ القديمِ

* ولم تكن زينبُ فوّاز تجيدُ المديحَ والرّثاء والحنين فحسب ، وإنّما كانت تجيدُ جميعَ الألوانِ الأدبيّة ، فقد ذكروا أنّه قد جرت مناظرةٌ حادّةٌ بينها وبين كاتبٍ مصريّ يُدعى أبو المَحاسِنِ ، ويبدو أنَّ أبا المحاسنِ هذا كان يتَفَاصَحُ ويتعالَم ويتحدّثُ عما ليس فيه ، فأحياناً يتحَدَّث في الفلسَفَةِ ومرّة يتحدَّث في الفِقْه ، وطوراً في النّحو والعروض يتفاصَحُ وينتقدُ الخليلَ بنَ أحمد الفراهيدي ، وهكذا يجري في طرقٍ ليست منْ مجراه ، فكتبتْ إليه تهزأُ به وتقول :

أَوَلَسْتَ أرسْطَاليسَ إنْ ... ذُكِرَ الفَلاسِفَةُ الأكابِرْ
وأبو حَنيفةَ سَاقِطٌ ... في الرَّأْيِ حين تكونُ حَاضِرْ
وكَذاكَ إنْ ذُكِرَ الخليـ ... ـلُ فأنْتَ نحويٌّ وشَاعِرْ
مَنْ هرمس مَنْ سِيبويـ ... ـهِ من ابن فَورَكَ إنْ تُناظِرْ

---

(١) سنذكر القصيدة كاملة بعد قليل بإذن الله ؛ أو سنوردُ معظمها لجَمالِها.

* ولزينب فنونٌ شعريةٌ أخرى ، ومنها أنَّ محمّد بك غالب قد قرّظ كتابَها «حُسْن العَواقب» ، وكان إذ ذاك في الرَّابعة عشرة من سنيّه ، فقالَتْ تمدحُه من جملةِ أبيات :

يَـــا وَاحِـــداً فـــي عُـــلاهُ ... لَـــكَ الثَّنَـــاءُ المـــؤبّـــدْ
وَخَـــاطَبَتْـــكَ المعَـــالـــي ... اهْنَـــأْ وسُـــدْ يـــا محمّـــدْ
لاَ زِلْـــتَ تَعْلُـــو وتَـــرقـــىٰ ... لكـــلِّ مَجْـــدٍ وسُـــؤددْ

* وقالت في تاريخِ ولادة مَنْ اسمُها فاطمة على حسَاب الجُمّل ، وهذا مما يزيدُ في براعتها :

زَهَــا أُفــقُ العَلْيَــا بِشَمْــسٍ مُنيــرةٍ ... لَها مَنْبَتٌ تَروي الليالي مكَارِمَه
وجَــاءَ بــإقبــالٍ فقلْــتُ مــؤرِّخــاً ... ألا وَافَتِ البشْرىٰ بميلادِ فَاطِمَه

* ولزينب فواز يدٌ طُولى في فنّ التَّشطير ، من ذلك ما ذكَرهُ صاحب مجلّة المنار في مجلّته قال : «لنادرةِ العَصْرِ ، وأميرةِ النّظمِ والنّثر ، السَّيّدة زينب فواز حفظها الله ، تشطيرُ هذَيْن البيتَيْن ، ولكنّنا لم نرتَضِ التَّشطير فتركْنَاه» . ثمّ أوردَ البيتَيْن وهُما :

وَمصْبَـــاحٌ كـــأَنَّ النُّـــورَ منْـــهُ ... مُحيّـــا مَـــنْ أحـــبَّ إذا تَجلّـــى
أغَارَ على الدُّجى بِلِسَانٍ أفْعَىٰ ... فَشَمَّـــر ذَيْلَـــه فَـــرقـــاً وَولّـــىٰ

قال : ولَها أمدَّ اللهُ في حياتِها تشطيرُ هذَيْن البيتَيْن :

أَمِنْــتُ إلــى ذَا وذَاكَ فَلَــمْ أجِــدْ ... أَخَا ثِقَةٍ إلاّ استحَالَ إلى العكْسِ
فأَصْبحتُ مرتاباً بمن شَطَّ أو دنَا ... منَ النَّاسِ حتّى كدتُ أرتابُ من نفسي
[أَمِنتُ إلـى ذَا وذَاكَ فَلَـمْ أَجِـدْ] ... منَ النَّاس مَنْ أرجوهُ في اليُسْرِ والبؤسِ
وَمَا رُمْتُ مِنْ أَبناءِ دَهْرٍ مُعَانِدٍ ... [أخَا ثِقَةٍ إلاّ اسْتَحالَ إلى العَكْسِ]
[فَأَصْبَحْتُ مُرتاباً بِمَنْ شَطَّ أو دَنَا] ... وأَلفَيْتُ أَهْلَ اليومِ مثْلَ بني أَمْسِ

وأيقَنْتُ أنَّ لاَ خِلَّ في الكَونِ يُرتَجى [مِنَ النَّاسِ حتّى كدْتُ أرتابُ من نَفْسي][1]

* وكان لزينبَ غرامٌ في فَنّ التَّشطيرِ ، ومن ذلك أنّها قد شطّرْت هذَيْن البيتَيْن الشَّهيرَيْن :

ومَـا مْـن كـاتـبِ إلا سَيَبْلـىٰ ويُبقـي الـدَّهـرُ مَـا كتَبَـتْ يَـداهُ
فـلا تكتُـبْ يمينُـك غيـرَ شـيءٍ يسُـرُّكَ فـي القيـامـةِ أنْ تَـراهُ
[وَمَـا مِـنْ كَـاتـبِ إلاّ سَيَبْلَـى] ويَبلـغُ بـدءَ غَـايتِـهِ انتهَـاهُ
وتمحـوهُ اللّيـالـي فـي سُـرَاهَـا [ويُبقـي الـدَّهْـرُ مـا كتَبَـتْ يَـدَاهُ]
[فَـلا تَكْتُـبْ يَمينُـكَ غيـرَ شَـيءٍ] بـهِ يـرضـى لـكَ الـزُّلْفَـى الإلـهُ
ولاَ تَعْمَـلْ سِـوى عَمَـلٍ مُفيـدٍ [يَسُـرُّكَ فـي القِيـامَـةِ أَنْ تَـراهُ]

* وهكذا رأينا كيف طرقَتْ زينبُ فوّاز فنونَ الشِّعْر وألوانه ، وكانت شاعرةً منَ الطَّبقةِ الأُولى بين نساءِ عَصْرِها ، قال عنها صاحب مجلّة العِرفَان : «وبالإجمالِ فإنَّ زينبَ فوّاز كانت في عَصْرِها نسيجَ وحدِها ، وفريدةَ عَصْرِها ، مع ما كان في كتبِها وكتاباتها وشعرْها من الأَغْلاطِ ، ولم يكن اشتُهِر غيرها منَ النّساء في مصرَ بالكتابةِ والشّعر والتّأليف»[2] .

* وفي تاريخِ نسائِنا المُعاصرات نجدُ شاعرةً مجليةً من مثل ضيفتنا زينب فواز ، قد تفنَّـنَتْ في فنونِ الشّعر ، ممّا جعَل الزّركليّ يقول عنها : «لها ديوانُ شعْر جمعَتْ فيه منظومات لها . . »[3] .

وبذلك نعتبرُ زينب من أميراتِ الشّعر في عَصْرنا الحاضرِ ، حيثُ ملأتْ بصوتها الأسماعَ في كثيرٍ من المجالاتِ ، وكثير من المتفرّقات التي تدلُّ

---

(١) أعيان الشيعة (٧/ ١٣٥).
(٢) أعيان الشيعة (٧/ ١٣٤).
(٣) الأعلام (٣/ ٦٧).

على نبوغها في فنّ الشّعر ، ومن ذلك استخدامها حسَابَ الجُمَّلِ في شعْرها ـ كما أسلفنا ـ كقولها في قصيدةٍ بائيةٍ جميلةٍ تقرّظُ منْ خلالِها جريدةَ الفَتَاة ، وأرَّخَتْ لها في سنَةِ (١٣١٠ هـ) ، فلنستمعْ إلى زينب فواز وهي تشدو مقرّظةً جريدة الفَتاة؛ ومشيرةً لمكانةِ الجنْس اللطيف :

عِـزُّ الفتـاةِ يـزيـنُ أربـابَ الأدب ... وبها ازْدهَى الجنْسُ اللطيفُ كَما أُحِبْ
جَـاءَتْ لنَـا هِنْـدٌ[1] تَـزُفُّ فتَـاتَهـا ... حورَ المعاني المُسْفراتِ ولاَ عَجَبْ
وغَـدَتْ مُحَـلاَّةً بكـلٍّ فَضِيْلَـةٍ ... جمَعَتْ حضَارتَهَا فصيْحاتُ العَربْ
وَصَفَتْ فلو وصَفَتْ جَمالَ سِماتِها ... أفكـارُنَـا مـالَـتْ وملْنَـا فـي طَـرَبْ
لله درُّ فتـاتِنَـا وفُنـونِهـا ... فلقد حَوَتْ من كلّ مَعْنَى منْتَخَبْ
فَلْيَهْنَـأ الجنْسُ اللطيـفُ بنهضـةٍ ... ما كانَ يبلغُها الزَّمانُ ولو طَلَبْ
بُشْـرى بَنَـات الشَّـرقِ إنَّ فتـاتَنَـا ... وفَّـتْ بمـا نـرجُـو وتـمَّ لنَـا الأَرَبْ
وزَهَتْ فقلتُ مع الهَنَا تاريخُها ... عـزُّ الفَتـاةِ يـزيـنُ أربـابَ الأَدَبْ[2]

٧٧ + ٩١٢ + ٧٧ + ٢٠٦ + ٣٨ = ١٣١٠ هـ

* ومن شِعرِها في مَجالِ التَّهنئةِ أيضاً قولُها مِنْ قصيدةٍ لاميّة بعثَتْها لجريدةِ النَّيل ، بحلولِ عامٍ جديدٍ ، وذلك سنة (١٣١٠ هـ) :

وَنيـلٍ قـد جَرى فـي أرضِ مصْرٍ ... يحـاكـي نِيْلهـا الطَّـامـي الجَليْـلاَ
فهــذا مَــدُّهُ مِــنْ بَحْــرِ عِلْــمٍ ... وذاكَ مُسَلْسَــلٌ يــروي الغَليْــلاَ
تَهَنَّــأْ أيُّهــا المــولــىٰ بعــامٍ ... أفــاضَ اليُمْــنَ والعــزَّ الجَميْـلاَ
يبشّــرنــا بــأنَّ العِلْــمَ ينمــو ... وأنَّ الجَهْــلَ شــارفَ أنْ يــزولاَ
فـلا زَالَـتْ لنَـا الأيّـامُ تـزهُـو ... ويَجْـري نيلُنَـا بـالصَّفْـو نِيْـلا

---

(١) «هند»: المقصودُ فيها هند نوفل التي أسَّستْ جريدةَ «الفتاة» عام (١٨٩٢ م) في القاهرةِ؛ وهي من أول المجلات النسائية التي أصدرتها النساء في العصر الحديث.

(٢) معجم الأديبات الشواعر (ص ٢٦٨ و٢٦٩).

* وقد عَارضَتِ السَّيِّدةُ زينب فوّاز أكَابرَ الشُّعراء في الأَعْصُر الخاليةِ منَ المشارقَةِ والمغَاربةِ ، وأَشَرْنَا قبلَ قليلٍ إلى أنَّها عارَضت ابنَ زيدون في قافيتهِ الشّهيرة؛ وقد عارضَتْه أيضاً في نونيّته الأَشْهر:

أضْحى التَّنائي بديلاً منْ تدانينَا ونـابَ عـن طِيْـبِ لُقيـانـا تَجَـافيْنَـا

فقالَتْ قصيدةً منها هذه الأبيات الجميلة:

أَهْـوى لِقَـاهَـا ويُصْبِيْنـي تَـوَدُّدُهَـا مـعَ العَفَـافِ وهَـذا القَـدْرُ يكْفيْنَـا
أَلْهو بهَا وهْيَ تَلْهُو بي على شَرفٍ ما أَقْدسَ الحُبَّ في قَلْبِ العَفيفينَا
لا أبْتَغـي جنَّـةً فـي طيّهـا سَقَـرٌ إذاً يُســاوي أعَــادينَــا مُحبينَــا
ومَـا علينـا إذَا مـا لاَمَنَـا بَشَـرٌ نحنُ المجَانين إنْ لُمْنَا المجَانينَا

* ولها في المعارضةِ أيضاً هذه التّائيّةُ الرّاقصةُ الجميلةُ التي نسجَتْ معانيها على طريقةِ القُدماء ، وأتت بما يشبهُ أنفاسَهم ونفثاتِهم ، وتغنَّتْ بمعانيهم ومغانيهم ، فقالت:

عَــزيـزٌ علَيْنَـا يـا أَعـزَّ الأحبَّـةِ بـأَنْ ينْظُـمِ الـوَلْهَـانُ غَيْـرَ المـوَدَّةِ
ولم آتِ ذنباً في هَوَاكَ اقترفْتُه علـى الحـبِّ غَيْـرَ الِاتّشَـاحِ بعِفَّـةِ
فَتِلْـكَ سَجـايـا الغَـانيـاتِ فَضيْلَـةٌ وقد خصَّني الرّحمنُ منها بمنْحَةِ
غَرامِي وسَقْمِي في هَوَاكَ أَبَحْتُهُ وإعْلانُ هذا الوَجْدِ منْ دُرِّ مُقْلتِي
بِحَقِّـكَ لا تُصْغِـي لِتَفْنيـدِ عـاذِلٍ فمـنْ عـادَةِ العُـذَّالِ إلقـاءُ فِتْنَـةِ
فَجُدْ لي بلُطْفٍ من محيّاك يا رشَا بـإشْـراقِ تلـكَ الطَّلَعـة المُسْتَهلّـةِ
بِبَاهي المحيّا والغرامِ وعَاذلي لقد صارَ ذلّي والهَوانُ وشقْوَتي
أعاتبُ دهْري فيكَ يا غايةَ المُنَى عسَـى تسمـحُ الأيّـامُ منْـكَ بنظْـرَةِ
مَتَى تنقَضِي تلكَ اللّيالي تكرُّماً فقد أرجَفَ اللاجي بِبيْنٍ وجَفْوَةِ

* وفي ميدان الرّثاءِ كان لزينب فوّاز صولات وجولات ، فهي في رثائها تذكّرُنا بأكابرِ القُدماء الذين برعوا في الرّثاء من جماعةِ النّساء ، من مثل:

الخِرنِق بنت بدر ، وليلىٰ بنت لكيز المعروفة بليلى العفيفة ، وجنُوب أخت عمرو ذي الكَلْب ، وصفيّة الباهليّة ، والخنْساء بنت عمرو السُّلميّة ، وصفيّة بنت عبد المطّلب ، وعمرة بنت مِرداس التي أمُّها الخنساء ، وعمرة الخثعميّة ، والفارعة بنت معاوية ، وأمّ كُلثوم العامريّة ، وليلىٰ الأخيليّة ، وليلى بنت سَلمة ، وليلى بنت طريف الشَّيبانية ، وميّة بنت ضِرار الضَّبيّة ، وهند بنت أسد ، وهند بنت عتبة ، وهند بنت حذيفة ، والهيفاء بنت صبيح ، وغيرهنّ كثيرات جدّاً ممن عمرَتْ بِسِيرهنَّ وأخبارهنّ موسوعتي الجميلة «نسَاء في حياةِ المشَاهير» ، و«نساء في قُصور الأمراء» ، و«فارسات من التّاريخ» وغير ذلك من كتُبٍ صنّفتُها في النِّساء ، وهي مطبوعةٌ منتشرةٌ بين أيدي النّاس ، وقد لاقتِ القَبولَ من القرّاء الأحبّة الذين هم رصيدي الحقيقيّ ، وأرجو اللهَ أنْ يزيدَ في هذا الرّصيدِ المفيدِ المبارك ، وأنْ يتقبّلَ منّا عملنا ، وأنْ يجعلَنا من زُمْرة السُّعداء .

* ونعودُ إلى السَّيِّدة زينب فوّاز ، وإلى رثائِها الذي ترسَّمَتْ فيه خُطى مَنْ سبقها من النِّساء ، بل ومنَ الرِّجال الشُّعراء ، فقد رثَتْ زينب أخَاهَا وشقيقَها محمّد علي فوّاز الذي ماتَ في شَهر ذي القعدة عام (١٣١١ هـ) ، فرثتْه بمراثٍ عديدة ، قُرِئَتْ في المجالسِ الأدبيّة ، فنالت إعجابَ الأدباءِ والنُّقّاد في مصرَ والعالَمِ العربيِّ ، ومن بدائع مراثيها في محمد أخيها ، تلك القصيدة اللاميّة الطّويلة التي بلغَتْ فيها السُّها ، وذكَّرتْنا بالخنْساء في رثائها لأخيها ، فقد رثتْ زينبُ أخاهَا رثاءً حارّاً أظهرتْ من خلالهِ عظَمَ مصابها ، وخاطبتْ عينَها كي تجودَ بالدّمع الحزين الغزير ، كما تحدثَتْ عن الشَّجن الذي سكَنَ فؤادَها ، والحسْرةِ التي جعلَتْها باكيةً نائحةً كنواحِ الخنساء على فَقْد صخرٍ ، ولن أذهبَ ببهاءِ هذه القصيدة اللاميّة الزَّينبية ، وها أنا ذا أقتطفُ لكَ ـ عزيزي القارئَ ـ من أزاهرِها ما تزكو به النُّفوس ،

وأهْصُرُ منْ معانيها ما يغذّي الألباب ، تقولُ زينبُ في رثاء أخيها محمّد الذي وافته المنية في يوم (٢٩ ذي القعدة) من عام (١٣١١ هـ) :

مُصَابٌ عَظيمُ الوَقْعِ في النَّفْسِ هَائِلُ ... وخَطْبٌ جَسِيمُ الصَّدعِ للقَلْبِ غَائِلُ
وحُزْنٌ بِهِ فَاضَتْ دموعٌ وهُيِّجَتْ ... شجُونٌ تَوالَتْها الرَّزَايا النَّوازِلُ
بهَا القَدَرُ الأَعْلىٰ تنزَّلَ حُكْمُهُ ... فصَبْراً وإنْ عَزَّ المعينُ المُجامِلُ
نعمْ يُحْمَدُ الصَّبرُ الجميلُ وإنَّما ... يذَمُّ إذا بِالبَيْنِ جَدَّتْ رَوَاحِلُ
حرامٌ على الأَجْفَانِ صَوْنُ دُموعِها ... إذا الشَّمْل غالَتْه الخطوبُ الغَوائِلُ
فيا عَينُ جُودي ثمّ يا نَفْسُ فاجْزَعي ... وإلاّ فدعْوَاكِ الأخُوَّةَ باطِلُ
ويا لِمّتِي عُودي علىٰ غيرِ عودةٍ ... لعلَّ الليالي أغْفلَتْ ما تُحاوِلُ
وهَيْهاتَ ما عادَ الزَّمانُ براجعٍ ... إليَّ وقَدْ ضَنَّتْ بجَمْعي المحَافِلُ
سَرى البَيْنُ في أطنابِ بيتي فَهَدَّهُ ... وقد أظلمَتْ منّي العيونُ الهَوامِلُ
أَلا يا غُرابَ البَيْنِ جُوزيْتَ بالذي ... فعَلْتَ ولمْ يَشْغَلْكَ عنّيَ شَاغِلُ
فَحسْبُكَ ما أَلقيْتَ بينَ جَوانِحي ... فتلْكَ شُجونٌ في الفُؤادِ شَواغِلُ
ولو بُثَّ ما لاَقيْتُ منْ أَلَمِ النَّوى ... لجالَ علىٰ الغَبْراءِ منْه الزَّلازِلُ
فيا شَهْرَنا ذا القِعْدةِ الوافرِ الرَّدى ... لقد هَطَلَتْ فيكَ الدُّموعُ الهَواطِلُ
وفي التِّسْعِ والعشرينَ منكَ تبادَلَتْ ... كؤوسُ المنَايَا والخطوبُ الصَّوائلُ
فنَالَ أخي ريْبُ المَنونِ ونَالَني ... بهِ حَسَراتٌ شَأْنُها إذ تُشَاغِلُ
تَطَاوَلَ فيهِ سُقْمُهُ فَتَطَاوَلَتْ ... لياليهِ حتّى لَيْسَ يرجُوهُ آمِلُ
وجاءَ طبيبُ العَصْرِ بشَّر بالشّفَا ... وقالَ اصطبْر يا صَاحِ فالبُرءُ حَاصِلُ[1]

---

(١) يشبهُ قولَ زينب فوّاز هنا قول معاصرتها عائشة التيّمورية في رثائِها لابنتها حيثُ تقول :

جاءَ الطّبيبُ ضحىً وبشّرَ بالشّفا ... إنَّ الطّبيبَ بطبِّه مغرورُ
وَصَفَ التّجرّعَ وهو يزعُمُ أنّه ... بالبُرءِ من كلِّ السّقام بَشيرُ
فتنفَّسَتْ للحُزنِ قائلةً لهُ ... عجّلْ ببُرئي حيثُ أنتَ خبيرُ
وارحمْ شَبابي إنَّ والدتي غدتْ ... ثكلى يشيرُ لها الجوى وتشيرُ=

فقالَ له المحزونُ ويْكَ أَلَمْ يكنْ ... إلى فَحصِ جسْمِي من سبيلٍ تحاولُ
فَعَجِّلْ بِبُرئي حيثُ إنَّكَ عَارِفٌ ... فدونَ عنائي ثابتُ الجأْشِ واجِلُ
ولمّا رأى يأْسِي الطبيبُ تَنَاثَرتْ ... على الخدِّ مِدْراراً منَ الدَّمْع سَائِلُ
ونَادى إلى الأُخْتِ الحزينةِ قائِلاً ... إلـى اللهِ مـا أرجُـوه والعُمـرُ زائِـلُ
أظـنُّ طَبيبي مـلَّ عـوْدِي وفَـاتَنـي ... بطـرفٍ حَسيـرٍ والتَّعَلُّـلُ بـاطِـلُ
ويا أخْتُ قد عزَّ اللِّقَاءُ تَجلُّدِي ... فقَدْ بَطَلَتْ دونَ الحَياةِ الوسَائِلُ
فـواللهِ مـا أشْكـو مَمَـاتـي يَـافِعـاً ... ولاَ أنَّنـي قـدْ ضَمَّنَتْنِـي الجنَـادِلُ
ولكنّنـي أبكـي علَيْـكِ وحيْـدةً ... وقَـدْ حَـالَ مـا بيـنَ الأُخـوَّةِ حـائِـلُ
وقد ضنّتِ الأيّامُ في الشَّمْلِ بالبَقَا ... ومـنْ عـادةِ الـدّنيـا جُمُـوعٌ زَوائِـلُ
فقلـتُ لـه والنّـارُ تلتهـمُ الحَشَـا ... وفي الجفْنِ أَنْهَارُ الدُّموعِ سَوائلُ
سَأبكيْكَ مَا الأَطْيارُ تأْلَفُ وَكْرَهَا ... ومَا صَدَحَتْ بينَ الصُّدورِ البلابلُ
ومَا نَاحَتِ الخَنْسَا على فَقْدِ صَخْرِها ... وإنْ عزَّ في حُزني عليكَ المُماثِلُ
سأَبكي ومَا يُغْني البُكاءُ مُودَّعاً ... بـهِ ذَهَبَـتْ تِلْـكَ المنَـايـا مَـراحِـلُ
سأبكي عليكَ الدَّهر منّي بحسْرَةٍ ... أواخِـرُهَـا فـي كُـلِّ حيـنٍ أوائِـلُ

* هذه نفثاتٌ من قصيدةِ زينب فواز اخترتُها لتدلَّ على تمكّنِها من ناصيةِ الشِّعْر ، وحسنِ استخدامها لِمُحَاكَاةِ القدماء من شعراءَ وشاعراتٍ ، كما ضمنتْ خلالَها مشاعرها وأبانَتْ ببراعةٍ عن روابطِ الأخوّة العظيمةِ ، كما تحدثَتْ عمّا يجولُ بخاطرِها من أحاسيس تجاه أخيها الذي ودَّع الحياةَ الدنيا وتركَها وحيدةً؛ ولكنّها ستظلّ تبكيهِ وتبكيه بدموعٍ حرّى ما صدحَ طيرٌ ، وما ناحتِ امرأةٌ ، وإن كان لا يُغني البكاء شيئاً .

أَمِيرَةُ النَّثْرِ وَالبَيَانِ :

* لئن حلَّقَتْ زينبُ فوّاز في سماءِ الشِّعر ، وكانت من السَّوابقِ والمجلّياتِ في ميدانِ النَّظم ، لقد كانتْ أيضاً من أميراتِ البيَان في النَّثر

والإنْشَاءِ؛ وكانت مِنْ ذواتِ الخُدور، اللواتي كتَبْن رقائقَ السُّطور، ونثرنَ أدبهنّ على الأوراق كالدُّرِّ المنثور.

* وكانت زينبُ فوّاز رائدةً من رائداتِ الحركةِ الأدبيّة في عصرِها، وكاتبةً اعترف لها أولُو العزم في الكتابةِ وأثنوا عليها؛ فقد كتبَ «حَمْدي يكَن» في بعضِ المجلاّت: «بأنّه لم يُسْمَع في مصرَ إلا باثنتَيْن منَ الكاتباتِ: عائشة التّيمورية، وزينب فواز»[1] وقال خيرُ الدّين الزّركليّ: «زينب فواز... أديبةٌ مؤرّخَةٌ، من شهيراتِ الكاتبات..»[2].

* ومنَ المعروفِ والمتعالَم عند كبارِ الأُدباءِ والمفكّرين، أنَّ السَّيدة زينب فواز يُقرنُ اسمُها مع أمراءِ البيَان الذين نَبَهُوا ونبغُوا في عَصْرِها من مثل جمال الدِّين الأفغَاني، ومحمد عبده، وأحمد فارس الشّدياق وغيرِهم من رجالِ الأدب، أمّا من بليغاتِ النّساء وأميراتِ البيان فيُقْرنُ اسمُها مع عائشة التّيموريّة، ومَلَك حَفْني ناصف، وغيرهما ممن نضَتْ قلمَها، وساهَمَتْ في إثراءِ الأدب وفُنونه.

* ومنَ الطَّريف في حياةِ زينب فواز الأدبيّة، أنّها لم تتركْ لنا بطاقتها الأدبيّة، كيما نتعرفَ حياتَها بشكلٍ أدقّ وأفضل، مع العلْم أنَّها تحدّثَتْ عن (٤٥٦ امرأة) من الشَّرق والغرب، ولم تذكر شيئاً عن نسبِها الأدبيّ، أو عن أسرتها، أو ذاتِها، ولعلَّ مردَّ ذلك الأمْرِ يعودُ إلى طبيعةِ الحياةِ التي عاشَتْها، والبيئةِ التي كانت تكتبُ من خلالها، فلعلّهم كانُوا يعدّون هذا الأمْرَ من المعايبِ التي تدين النّساء؛ أو لعلَّ زينب فواز بالذّات كانت تتمشّى مع آداب عَصْرِها وعادات مصْرِها، فلم تترجمْ لنفسِها، وإنما

---

(١) أعيان الشيعة (٧/ ١٣٤).
(٢) الأعلام (٣/ ٦٧).

تركتِ الأمْرَ لمن يتولون الكتابةَ والتّرجمة ، في الوقتِ الذي كان اسمُها يملأُ الأسماع ، يقول «أحمد الزّين» صاحب مجلّة العرفان عن زينب فواز وشهرتها : «مَنْ لم يسمعْ بذكْرِ هذه النّابغةِ العامليّةِ في هذا القرنِ سواء في سورية أو مصْر ، أو في سائرِ البُلدان العربية؟ فزينبُ لم تكنْ أبداً مجهولة منذُ أواخرِ القرن التّاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين ، فَمَنْ يطّلعْ على مقدّمات كتبها ، وما كان يأتيها من تقريظٍ لهذه الكتب ، يجدْ فيها دليلاً على شهرتها في الأوساطِ الأدبيّة والفكريّة في ذلك الحين»(١).

* لقد كانت زينب فوّاز أميرةَ النَّظم في عَصْرِها، وأميرةَ البيان في مصرها، وإنَّ أسلوبها يشهدُ لها لا عليها ، وإنَّ كلماتها تشيرُ إلى تمكّنها من ناصيةِ البلاغَة ، وإن كانت متأثّرة بأسلوبِ أهلِ البديعِ الذين ينمّقُونَ كلامَهم ، ويتأنّقُون في اختيار جملِهم ، ويعمدون إلى السَّجع في غالب تصنيفهم.

* وأستطيعُ أنْ أشيرَ إلى بلاغةِ زينب فوّاز ، وإلى جمالِ عباراتها من خلال مقدمتها لموسوعتها الجميلةِ الشَّهيرة في تراجم النِّساء : «الدّرّ المنثور في طبقات ربّات الخدور» حيثُ قالت ما نصُّه : «بسم الله الرحمن الرّحيم. الحمدُ لله الذي أزْهَر روض المُنى بما تألّفَ من منثورِ الأفْراح ؛ وبما أسْفَر من حُسنِ أبكارِ الابتكار ، على مشهدِ الإيضاحِ والإفصاح ، وانجابتْ براقعُ الغياهِبِ عن مخدّراتِ العبارات ؛ وتألّفَ نبراسُ عقائلِ الفضائلِ فاستنارتْ أرجاءُ البَراعات ، وأشكرُك يا مَنْ زيَّنْتَ بشكركَ صدور سطورِ المباني ؛ كما زيّنتَ بقلائدِ الفَصَاحةِ نحورَ خرائدِ المعاني ، وأَنَرْتَ مشكاةَ البصيرة ؛ بزواهرِ جواهرِ معارفكَ المستنيرة، ونظمتَ أخبارَ الأوّلين ؛ في سمْطِ كتابك المستنير المستبين ، فسبحانك مَنْ إلهٍ اتّسعَتْ دائرةُ علْمهِ فأحاطتْ جميعَ

---

(١) زينب فواز (ص ٥٤) نقلاً عن مجلة العرفان مجلد (٨) جزء (٦) آذار عام ١٩٢٣ م). =

الكائنات؛ وعَلِمَ ما تحتَ الأرضِ كما عَلِمَ ما فوقَ أديمها منَ المخلُوقات، وشرَّفَ نوع الإنسان؛ بما خصَّه به من كمالِ القوى والعرفان، ونشرَ نورَ المعرفةِ بين أولي الألباب؛ فمن أصابَ من ذلك النّور فعقله على قدرِ ما أصاب، والصّلاة والسّلام على مَنْ أرشدنَا بكتابٍ قويم؛ إلى صراطٍ مستقيم، محمّدٍ الذي جمعَ منَ المحاسنِ ما تشتّت في غيرِهِ؛ أحسنِ مَنْ حَسُنَت سيرتُه وأحْسَنَ في سيرِهِ، وعلى آلهِ مصابيح الدّجنّةِ؛ وأصحابِه الذين حازوا المجدَ بالأقْلامِ والأسنّة . . . وبعد . .»[1].

* ومن خلالِ هذه المقدمة نلمحُ جمالَ الأسلوب الزّينبيّ الفوّازيّ، بالإضافةِ إلى اتّساق العباراتِ، ولطيفِ الإشارات، التي تدلُّ على سَعَةِ اطّلاعها، وكثرة معارفها.

* وكانت زينب فوّاز تعتمدُ على رشاقةِ العبارة في كثيرٍ من ترجماتها، وذلك في تقديم الشَّخصية التي تودُّ الحديث عنها، ومن أمثلةِ أسلوبها الأنيقِ الرّاقصِ قولُها في مفتتح ترجمة أمَةِ العزيز ابنة دحية الأندلسيّة الشّريفة الحسنيّة: «كانت ذاتُ قناعٍ تفرعَتْ من دوحةِ سنَاء؛ أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السَّماء، وتجرَّدَتْ من سُلَالةِ أكابر وأشْراف؛ رُقَاةِ أَسِرَّةِ منابر من بني عبد منَاف، تصرَّفَتْ في أثناءِ شبيبتها بين دراسةِ معارف؛ وإفاضةِ عَوارف، لها أشعارٌ رائقةٌ معنَاها؛ بديعةٌ مبناها . . .»[2].

* وفي ترجمتها لفاطمةَ بنتِ عبد الملك تقول: «كانت فصيحةَ زمانها، وأديبةَ عَصْرها وأوانها، ذات جمالٍ رائق، وحسنٍ فائق . . .»[2].

* ولم يكن هذا التّأنّق الدّائمُ من ديدَنِ زينب فواز، ولكنّ إشراقَ

---

(١) انظر: الدر المنثور (ص ٥) المقدمة.
(٢) الدر المنثور (ص ٦٦ و٣٦٦).

العبارة ، ووضوحَ الفكْرة هُما العاملُ الأدبيّ الذي كانت زينب فوّاز تعتمدُ عليه في ترسُّلِها ورسائِلها ومقالاتها. وفي مقالةٍ لها بعنوان: تقدّم المرأة ، نلحظُ أسْلُوباً آخر لزينب وإن كانَ متأثّراً بالصَّنعةِ قليلاً ، إلاّ أنّه منطلقٌ في فضَاء البلاغةِ ، ووضوحِ الفكرة. وهانحنُ أولاء نقتطفُ فقْراتٍ كاشفاتٍ من مقالةِ زينب فواز «تقدّم المرأة» إذ تتحدّثُ بالحكمةِ مفتتحة مقالتها ببيتٍ من الشِّعر ، ثم تبدأُ بالنَّثر ، فتقول:

«تَـأَمّـلْ سُطـورَ الكَـائِنـاتِ فـإنَّهـا مِنَ المَلأ الأعْلىٰ إليكَ رسائِلُ»

* لا يخفى أنَّ الزَّمان أدوارٌ؛ والأيّامَ أطوارٌ ، فدورٌ للصَّلاح ، وطورٌ للفَساد ، ودورٌ للرّاحةِ ، وطورٌ للفَساد ، ودورٌ للعلْمِ ، وطورٌ للجهل ، وقد مضَتْ هذه الأطوارُ في القُرون البالية؛ والأعصار الخالية ، إذ كان ليلُ الجهلِ أُرْخيَ سدالُه ، ومُدَّ فيها شراعُهُ ، وأقامَ الاستبدادُ حِجاباً بين الشَّرق والعلُوم ، فجزى اللهُ الأعصر الأخيرةَ خيراً عنِ الإنسان ، كيف أدَّبته وهذَّبته ورقَّتْه إلى مدارجِ السَّعادة والخيرِ ، ولقَّـنَـتْه دروسَ الحياةِ والمعارف ، ولولاها لَبَقِيَ ـ ولو عُمِّر عُمْرَ نوح ـ وحْشيّاً جاهلاً. . . » .

* وتمضي زينبُ فواز في مقالتها ، ثم تذكرُ ارتقاءَ الأفرادِ بالعِلْمِ ، وتشيرُ إلى إنشاءِ الجرائدِ والمجلاّت ، ودَوْرِ النّساء في تطويرها وتزويدِها بالمقالاتِ والمعارف ، فتقول ما مُلخّصُه: « . . . أمّا الآن وقد تحسَّنتِ الأحوالُ؛ وقويتِ الآمالُ ، وتعددتِ المدارسُ في جميعِ النّواحي. . . إذ لا يخفى أنَّ ارتقاء أيّ أمّة كانَتْ، لا يكونُ إلاّ بارتقاءِ أفرادِها وتهذيبهم. . . ولقد أُنْشِئَتِ الجرائدُ العلميّةُ والسِّياسيّةُ ، وتداولَتْها أيدي النّاس على اختلافِ طبقاتِهم ، وتباينِ أعمارِهم ولهجاتِهم ، فصارُوا يقتطفُون من أشجارِها النَّضيرة ، وثمارِها اليانعةِ ، وأزْهَارِها المفيدة. وللنّساء اليدُ الطُّولى ، والفضلُ الأعظم في تحريرِ هذه الجَرائد؛ ومكاتبتها ، . . .

وأَمَامنَا في هذا العَصْرِ الحاضرِ منَ النّساء الفَاضِلات من امتازَ البعضُ منهنّ بالشّعر الرّقيق؛ والبعضُ بالإنشاءِ الرّشيق ، والبعضُ بالمباحثِ الجدليّة؛ والبعضُ بالاستنباطاتِ المفيدةِ الجليّة ، هذا وقد كثُرَتِ الاختراعاتُ في هذا العَصْرِ حتى عجزتِ الأعدادُ عن حَصْرِها ، وللنّساءِ أعظمُ نصيبٍ في استنباط جزءٍ عظيم منها . . . » .

* ثم تختمُ زينب فوّاز مقالتها مذكّرةً ومنوهةً للمرأةِ وللنّساء ، وأنّهنّ عنوانُ التّمدُنِ والحضَارة ، وأنّهنّ عضوٌ مفيدٌ في جسمِ المجتمعِ ، ولا يحولُ الحجابُ الشَّرعيّ بينهنّ وبيَن تحصيلِ العُلوم واكتسابِ المعارفِ ، فتقول : « . . . والحاصلُ أنَّه ما من أمّةٍ انبعثَتْ فيها أشعّةُ التّمدّن في أيّ زمَانٍ كان ، إلاّ وكان للنّساء فيه اليدُ الطُّولى ، والفضْلُ الأعظم ، كما لا يخفىٰ على من اطّلع على تواريخ المصريين واليُونان القدماء ، فكلُّ هذه الأممُ المتمدنةُ ، كانت تعتبرُ النّساءَ كعضوٍ لا يتمُّ العملَ إلاّ بمساعدتِه . نعم وإن كان بيننا وبينَ نساءِ الغَربِ بوناً بعيداً ، من حيثُ الحجاب والمنعة والبعد عن مخالطةِ الرّجال ، بحكم الشّرع ، إلاّ أنّه لا حِجاب بيننا وبينَ دَرْسِ العُلوم واكتسابِ المعارف التي نرفعُ بواسطتها رايةَ الفَخْر بأنفسنا إظهاراً لعلوّ منزلتنا . وما المانعُ يا ترىٰ بعد أنْ علمَ الكُلُّ منَ الرّجالِ مزيّة تعليم المرأةِ ، لو قام البعضُ منهم بتشييدِ مدارس لتعليمِ البَنَات على مقتضى القواعدِ الدّينية؟! لأنّنا نعلمُ علْمَ اليقين أنَّ التمدّنَ في شريعتنا الغرّاء؛ متوفّرةٌ أسبابُه وأنَّ (كل الصّيد في جَوفِ الفراء)[1] . ولعلّنا باتّباع

(١) هـذا مثَلٌ قديم ، و«الفِرَا» : الحمارُ الوحشيّ ، وجمعُه فِراء . ويُضْرَبُ هذا المثَلُ لمن يُفَضّل على أقرانه . قال الميدانيّ : «وأصلُ المثَلِ أنَّ ثلاثةَ نفرٍ خرجُوا متصيّدين ، فاصطادَ أحدهم أرنباً ، والآخر ظبياً ، والثّالث حماراً ، فاستبشرَ صاحبُ الأرنـبِ وصاحبُ الظّبيّ بما نـالا ، وتطاولا عليه ، فقال الثالثُ : كلُّ =

هذا المنهج المفيدِ ، والطَّريقِ المستقيم ندركُ في المستقبلِ رفعةً وشَأناً في الحضارة ، ونسترجعُ ما سُلِبَ منّا ظُلماً وعدواناً ، ونتحصّل على حقوقنا بعونِ الله ، وهمّة رجالنا ، وليسَ ذلك على الله بعزيز»[1] .

* وزينبُ فوّاز أديبةٌ فاضلةٌ ، وبارعةٌ كاملةٌ ، وكاتبةٌ ناظمةٌ ، وناثرةٌ من أميراتِ النَّثْر في عَصْرِنا الحاضرِ ، وهي مؤلّفةٌ مجيدةٌ ، أجادَتْ فنَّ النَّثر والتّحدث ، فكانَتْ حَسَنَةَ المحاضرةِ ، جميلةَ الأخلاقِ ، مصونةً ، عفيفةً ، ذات عقْل متفتّح على الحضارةِ الأوربيّة ، تتابعُ بجِدٍّ ونشاطٍ أحوالَ المرأةِ في العالمَ العربيّ والغربيّ ، فكانت تراسلُ بعضَ النّساء وتدلَي دلْوهَا في كثيرٍ من الآراء ، وقد وصَلَ صوتُها الجريءُ إلى الغربِ يفصحُ عن رأيها وحياتها ، كما يفصحُ عن أسلوبها وبيانِها؛ ومن ذلك رسالتها إلى رئيسةِ قسْم النّساء في مَعْرِض «شيكاغو» ، وسنطّلعُ على هذه الرّسالة لنعرفَ بشكلٍ أوضحَ شخصيّة زينب فواز وأدبها .

* بعثَتْ زينبُ فوّاز رسالةً إلى «برثَا بالِمْر» رئيسةِ معرض شيكاغو الخاص بالنّساء؛ وقد نُشِرَتْ هذه الرّسالة في جريدة «وادي النّيل» ، في العددِ رقم (١٦٩) ، وتاريخ (٩ محرم) من سنةِ (١٣١٠ هـ) ، ونصّ الرّسالة هو :

* «إلى واشنطون [أمريكا] في (٣٠ يوليو ـ تموز) . حضرة الأديبة الفاضَلة السّيدة «برثا هونوري بالمر» رئيسة قسم النّساء في معرض

= الصَّيدِ في جوفِ الفِرا ، أيْ هذا الذي رُزِقْتُ وظفرتُ بـه يشتملُ على ما عندكما ، وذلك أنّـه ليس مما يصيدهُ النّاس أعظمُ منَ الحمارِ الوحشيّ» . (مجمع الأمثال ٣/ ١١ و١٢) .

ـ ومنَ الجديرِ بالذّكر أنَّ النبي ﷺ قد تألّف أبا سفيان بهذا القولِ فقال له : «يا أبا سفيان ، أنتَ كما قيل : كلُّ الصَّيد في جوفِ الفِرا» ، يتألّفه على الإسلام .

(١) انظر : قضيّة المرأة (٣/ ٢٧٧ ـ ٢٨٢) باختصار وتصرّف ، نقلاً عن كتاب : بلاغة النّساء لفتحيّة محمّد .

«شيكاغو». ثمّ تبدأُ زينبُ فواز رسالتها بالسّلام ، وتُنَوِّهُ إلى شهيراتِ عَبْر التّاريخ من جميعِ الطّبقات ، وتعتذرُ عن عدمِ حضورِها لتلك الاجتماعاتِ ، وتعتزُّ بلسانِها العربيّ الذي صاغَتْ فيه رسالتَها فتقول:

* «من بعدِ إهدائِكم أزكى التّحيّات ، أبدي أنّني هزّتني أريحيّةُ الشّوق إلى مساعدةِ القسْمِ النِّسائيّ الذي صار إعدادُهُ لِعَرضِ مصنوعاتِ النّساء في معرضِ شيكاغو سنة (١٨٩٣ م)؛ ولعِلْمي أنَّ التَّقدُّمَ الأميركاني والأوروباوي ، لم يتركا لنا ، نحن الشَّرقيات ، شيئاً من تقدّم الصّناعة التي يمكنُ للنّساءِ أنْ يعملْنَها ، ونظرتُ في النّساء ، وأدبهنّ ، وتقدمهنّ ، في السّنين الغابرةِ والحاضرةِ ، ولم أرَ هديةً ترفعُ للمعرض النّسائي من مثلنا ، نحن الشّرقيات ، أجْدرَ من هذا الكتاب الذي يحتوي على تراجم النّساء ، وطبقاتهنّ في الهيئة الاجتماعية ، فعقدتُ العزْمَ ، واستعملتُ الحزمَ ، وألّفتُ كِتاباً في هذا الباب[1] ، فجاء بحمدِه تعالى ، على طِبْقِ المَرام ، وجمعتُ فيه منْ تراجِم شهيرات العربِ ، ومتقدّمات الإفرنج ، ومِلِكات الشّرق والغَرب من كلّ أديبةٍ فاضلةٍ ، ومَلِكةٍ عاقلةٍ ، وفارِسةٍ ، وشاعرةٍ ، وخطيبةٍ ، وناثرة[2] ، فرأيتُ أنْ أقدّمَ نسخةً منه لأجْلِ حَصْرِها ضمنَ معروضات القسمِ النِّسائي في المعرض ، وبما أنّني لا أعلمُ كيفيّة تقديم المعروضات بأي صفةٍ تكون ، ولم أطلعْ على تفصيلِ ذلك في الجرائد

---

(١) تقصُد زينب بهذا الكتاب كتابها: «الدّرّ المنثور في طبقات ربّات الخدُور» وهو أوّلُ سِفْرٍ مُستطاب في بابِهِ ، وقد ابتدأتْ في تأليفهِ في (٤ ربيع الأوّل) سنة (١٣٠٩ هـ) الموافق (٧ تشرين الأول) سنة (١٨٩١ م) ، وطبعَتْه بالمطبعةِ الأميريةِ الكبرى بمصر سنة (١٣١٣ هـ).

(٢) اقرأ سِيرَ جميع هؤلاء وغيرهن في موسوعتنا «نساء في حياة المشاهير» حيث تجد فيه الأديبة ، والملكة ، والشّاعرة ، والفارسة ، والخطيبة ، والنّاثرة ، والعالمة ، والفقيهة وغيرهنّ.

العربية ، فأرجو أنْ تفيدوني عن كيفيّة إرسالِ الكتاب المنّوهِ عنه ، حتّى أرسلَه مع مزيدِ الشّكر والممنونية[1] ، ولو كانت عوائدنا[2] ، نحنُ النّساء المُسْلمات ، تسمحُ لنا بالحضور في مثلِ هذه الاجتماعات ، لكنتُ سعيتُ بنفسي لتقديمـه ، وحضرتُ المعرضَ مع مَنْ يحضرْنَ فيه منَ النّساء ، ولكنْ إطاعةٌ لأَمْرِ الدِّينِ لا يمكنُني ذلك ، وعلى هذا فإنّي أقدمُ لكم مزيدَ الشّكر المقرونِ بالممنونيـة على حُسْنِ مَسَاعيكم فـي تقديمِ النّساء أمامَ الهيئةِ الاجتماعيّة ، وإذا تفضلتم عليّ بالإفـادةِ باسمي ، زينب فوّاز ، عن يدِ شقيقي محمّد أفندي علي فـوّاز الأفوكَاتُو[3] بمصر ، وأرجوكم العفَو عن قُصوري ، حيثُ كتبتُ تحريري هذا ـ رسَالَتي ـ باللسان العربيّ ، لأنَّه لِسَاني ، وأعلمُ أنَّه يسْهُلُ عليكم معرفة أيّ لسانٍ من أيّ لُغَةٍ كانت».

* وقد وصلَتْ رسالُة زينب فوّاز «بارثا بالمر» ، فوردَ عليها ردّ هذا التّحرير منَ الرّئيسةِ المذكورةِ ، وقد دُرِجَ في العددِ ٣٣٩ من جريدةِ النَّيل بتاريخ (٢٤ ربيع الأوّل) سنة (١٣١٠ هـ) وهذه صورته: شيكاغو في ٣٠ سبتمبر ـ أيلول ـ سنة ١٨٩٣ م. حضرة الفَاضِلة السَّيدة زينب فواز:

* «أيّتها السِّتُّ العزيزة ، وصَلَني كتابُكِ في ٣٠ يوليو ، سنة ١٨٩٢ م ، وأنا مسرورةٌ كلَّ السُّرور بقَبولِ هدّيتك اللطيفةِ لمعرض النّساء ، وهو الكتابُ الذي كتَبْتِهِ عن أحوالِ النِّساء ، ويمكنكِ إرْسَاله عندما تشَائين تحتَ عنواني ، وأنا أُسَرُّ بأنْ يفسحَ له مكانٌ في مكتبةِ النِّساء ، وأؤمل منك أنْ

---

(١) «الممنونية»: الممنون من الأضداد تعني القوي والضعيف. والأفضل أن تقول: الامتنان.

(٢) «عوائدنا»: العَوائد: اللاتي يَعُدْنَ المريض ، والأحسنُ أن تقولَ: عاداتنا.

(٣) «الأفوكاتو»: كلمةٌ أجنبيةٌ معناها باللغة العربية: المحامي ، وجاءَ في المعجمِ الوجيزِ أنَّ معناها: المدافعُ عن أحد الخصمَيْن. =

تكتبي لي عن وصولِ مكتوبي هذا ، وأُسَرُّ جدّاً إذا كُنتِ تخبريني عن السَّبب الذي يمنعُك منَ المجيءِ إلى المعرض في ديانتكم الإسلاميّة ، هذا وإنّني أشكرُكِ على الفائدةِ التي تكرّمْت بها ، وأنا محبتك». بارثا هونوري بالمر رئيسةُ القسمِ النّسائي في معرضِ شيكاغو.

* فكتبَتْ زينب فوّاز الجوابَ ، وقد دُرِجَ في العَدد ٣٤٧ من جريدةِ النّيل في (١٥ ربيع الثّاني) سنة (١٣١٠ هـ) ، وهذه صورتُه: قالَتْ رحمها الله بَعْد الدّيباجةِ ما مفادُه: «قد وصَلَنِي كتابُكِ العزيز المؤرّخ في ٣٠ سبتمبر ، وتلوتُه ، وأنا في غايةِ السُّرور والممنونية ، وشكرتُ لكِ إنسانيّتكِ المزدانة بحليةِ الآداب التي أنتِ من مَعْدِنِها ، وزادني سُروراً قبولكِ لِهدّيتي ، والذي ضاعفَ مَسرَّاتي ، وقلَّدني قلائدَ الممنونية ، هو سؤالُكِ لي عن السَّبب الذي يمنعُني منَ الحضورِ إلى المعرضِ في ديانتنا الإسلامية ، وها أنا أشرحُه لك شَرْحاً مُوجَزاً ، ولي في كلّ جارحةٍ لسانٌ ناطقٌ بالثَّناء على همّتكِ العالية ، ولأبدأ أولاً بذكْرِ العَاداتِ الإسلاميّة التي نشَأْنا عليها ، ونحنُ نجدُهَا منَ الفُروض الواجبة ، ونتوارثُها فنتلقّاها بغايةِ الاِنْشِرَاحِ ، حتى إنَّ المرأةَ منّا لو أُجبِرتْ على كشْفِ وجهها الممنوع عندنا لوجدَتْه من أصعبِ الأُمور ، مع أنَّ كشْفَ الوجْهِ واليدَيْن ليس محرّماً على قولِ فريقٍ عظيم من العُلماء[1] ، ولكنْ منَعتْهُ العَادةُ قطعيّاً ، وهي التي توارثْنَاهَا؛ إذ إنَّ البنتَ منّا لا تتجاوزُ الثّانية عشرة من سنيّها إلاّ وهي داخلُ الحِجابِ ، والولدُ متى بلغَ الحلْمَ ، لا يحلُّ له قطعاً النّظر إلى النّساء.

---

(١) الصَّحيحُ تغطيةُ الوجْهِ وسترُهُ وعدمُ كشْفِهِ ، وهذا هَو الذي أجْمعَ عليه الجمهور.

* وإنّ من عاداتنا المحترمة عندنا ، عدم حضورِ المرأة في المجتمعاتِ العامّة التي يجتمعُ إليها الرّجال ، كالقَهَاوي ، والملاعبِ ، والتّياترات[1] إلاّ من وراءِ حِجاب ، والبَالوات[2] والكُلوبات[2] ، وكلّ ما كان كذلك ، ولكنْ للنّساء محافلُ خصوصية لا تختصُّ إلا بهنَّ ، وليس للرِّجال فيها محلّ ، حتّى إنّ الرَّجُلَ لا يجوزُ له أنْ يدخلَ دائرةَ النِّساء منْ منزلهِ ما دُمْنَ فيها إلا بإذنٍ عند الحاجةِ حتى لا يرىٰ إحداهنّ ، وهذه المحافلُ قد تكونُ للأفراح ، والدّعوات العامة ، والأحوالُ الاستثنائية : كالمآتمِ ، وما أشبه ذلك. . . . فتجتمعُ النّساء في دائرةِ الحرم من داخلِ المنزل ، ويجتمعُ الرّجال في الخارجِ ، كي لا يختلطَ الجنْسَان. . . وكلٌّ منَ الجنسيْن المجتمعَيْن لا يرىٰ الآخر في سائرِ الاحتفالاتِ المُعْتَادة.

* والحجابُ عندنا مأمورٌ به في الدّين بنصوصِ الكتابِ الكريمِ ، كقولهِ تعالى : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ [النوّر : ٣١]. قال بعضُ العُلماء : المرادُ بها مواضِعُ الزّينة ، لا الملابسُ والحليُّ ، ولذلكَ وجَبَ علينا التّسترُ والحجابُ.

* وأمّا عدمُ الإباحةِ لنا بالسَّفر ، فلا يحلُّ للمرأةِ السَّفَر إلا بصحبةِ أحد ذوي قُرباها إنْ لم يكنِ الزَّوج ، وأعني بذوي قُرباها : محارمها الذين لا يحلّ لها التّزوج بهم ، كقولهِ تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم . . . ﴾ [النساء : ٣٣] ، فإذا سافرتِ

---

(١) «التياترات والبالوات والكلوبات» : كلمات أجنبية جاءت على لفظها ثم جمعت جمع مؤنث سالماً.

المرأةُ مسافةَ ثلاثة أيّام فأكثر ، يلزم أنْ يكونَ معها أحدٌ من هؤلاء المذكورين في الآيةِ الشَّريفة ، كالأبِ والابنِ والأخِ والعم والخَال. . . أو الزّوج وغيرهم من المحارم وذوي القُربى ، فهذا الذي يمنعُني منَ الحضورِ إلى المعرضِ من وجْهٍ.

* والوجْهُ الآخر: هو ما تقدَّم من عدمِ تعوّدنا على الخُروجِ إلى المجتمعاتِ؛ إذ إنَّ المرأةَ منّا لا يجوزُ لها الخروج إلى خارجِ المنزلِ إلاّ مؤتزرةً بإزارٍ يسترُهَا من الفَرْقِ إلى القَدمِ ، وبرقعٍ يسترُ وجهَها حتى لا تبينَ منه إلاّ العيونُ ، وإذا مرّتْ إحدانا على قهوةٍ ، أو مجتمعٍ ، مع أنَّها مؤتزرةً لا يظهرُ منها شيء ، يستولي عليها الخجلُ ، حتى تكاد لا ترى أحداً ، ولا الطّريق ، وهذا كلّه ناشىءٌ عن التّمرُّنِ من الصِّغَر على حَسَب العَادةِ المألوفَة. . . ودُمْتِ لمحبّتِك»[1].

* ولم يكنْ نثرُ السَّيّدة زينب فوّاز مقتصراً على ما ذكرناهُ من ألوان متنوّعة ، بل إنّها كانت تكتبُ بعضَ الأسئلة إلى المجلات وتستفسرُ عن بعضِ المفاهيم الإسلاميّة؛ من ذلك أنَّها كتبَتْ سؤالاً إلى «مجلّة الأُستاذ» في عددِها الخامس بتاريخ (٢٩ صفر) سنة (١٣١٠ هـ) ، والسُّؤال هو: قالتِ المجلَّةُ المذكورةُ: سؤال. . . ورَدَ إلينا هذا السُّؤال من درّةِ صدفِ الحِجاب ، الجامعةِ بين فضيلَتَي العُلوم والآداب ، السّيّدة زينب هَانم[2] فوّاز ونصُّه:

* «قد عَلِم السَّوادُ الأَعْظَم ما لفلاسفةِ العَصْرِ الحاضِر وأشهرِ العُلماء منَ البحثِ في أمْرِ المرأةِ ، والمساواةِ بينها وبين الرّجل ، في العَقْل والذّكاء

---

(١) انظر: معجم الأديبات الشواعر (ص ٢٦١ ـ ٢٦٦) باختصار وتصرف.

(٢) «هانم»: كلمة من الكلمات العامية المصرية الدارجة ، وهي بمعنى: السيدة.

والقدرة على الأعمالِ ، ولكنْ لم نعلمْ أنَّ أحَداً منهم بحثَ في الموضوعِ الآتي ، وهو: أيّهما أشدُّ تعباً في هذه الحياةِ الدُّنيا؟ الرّجل بتعاطيهِ الأشغال ، من تجارةٍ ، وصناعةٍ ، وسياسةٍ ، وزراعةٍ وغير ذلك ، أمِ المرأةُ في حملِها ، ووضْعِهِ ، وتربيتهِ ، وتدبيرِ منزلها ، ومشاركتها للرّجل أحياناً في أعمالِهِ؟

* فأرجو منْ حضَراتِ علمائنا الأفاضل جَواباً شافياً ، فقد سطعَتْ علينا أنوارُ عُلوم الأفاضِلِ ، فأضاءتِ الخَافقَيْن ، وأتتْ تتهادىٰ على أكفّ نسيمِ رياضِ الصُّحف ، مبشّرةً بإدراكِ درجة الفَلاح ، وارتقاءِ أريكة التّقدّم ، وإنّنا نهنّي الطّرسَ والقلمَ ببزوغِ شمس معارفكمِ بعْدَ الأفولِ ، ولكم منّي ومن الجنسَيْن خالصَ الشّكرِ والثَّناء»[1] .

* فأجابَها صاحبُ مجلّة الأستاذ السّيد عبد الله نديم قائلاً هذه الأبيات الميميّة:

وَأَعْطِ أباكَ النّصْفَ حيّاً وميّتاً   وفَضّلْ عَليهِ مِنْ كَرَامتِهِ الأُمَّا
أَقَلَّكَ خِفّاً إذْ أَقَلتكَ مُثْقَلاً   وأَرضَعَتْكَ الحَولَيْنَ واحتملَتْ تمّا
وأَلْقَتْكَ عن جَهْدٍ وألقاكَ لذّةً   وضمّتْ وشَمَّتْ مثلَّ مَا ضَمَّ أو شَمَّا[2]

* ولزينب فوّاز أسئلةٌ مهمّة ، واقتراحاتٌ جمّة في معظمِ المجالاتِ الأدبيّة والدّينيّة والاجتماعيّة والتّاريخيّة وغيرها ، كما أنَّ لها رسائل جيّدةُ المضمونِ؛ ومن رسائِلها المهمّة في المجالِ الاجتماعيّ رسالة «باعث العَجَب» وهذه الرّسالة فَنّدَتْ فيها أعمال الدَّجالين ، وشعبذات المشعوذين تفنيداً خلّدَ لها الشّكْرَ الجزيْلَ ، والثَّناء الجميل.

---

(١) معجم الأديبات الشّواعر (ص ٢٦٧ و٢٦٨).
(٢) معجم الأديبات الشّواعر (ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨).

* وقد أشرنا من قبلُ أنَّها ألَّفَت «كشْفَ الإزار عن مسألةِ الزّار» أقنعَتْ من خلالِه الأمّةَ المصريّة في عَصْرِها بالأدلّة العقليّة والنّقليةِ إقناعاً أُعجِبَ به أهلُ العلْمِ والفَضْل كلّ الإعجاب ، وأظهرتْ فسادَ هذه العادة القبيحة وما فيها من الأمورِ المخلّة بالآدابِ والشَّرف والدّين إظهاراً يحتمُ على كلّ ذي قلْب إبطالَ هذه العادة المُخجلة.

* ومن رسائِلها المهمّة أيضاً «وجوبُ النّهضة العلميّة للمرأةِ الشّرقية» ، وكثير من الرّسائلِ والمباحثِ النّافعة ، وعلى الأخصّ رسائلها التي ردَعَتْ بها ناقصي التّربية ، قليلي الأدَبِ من الشُّبّان المتهوسينَ الذين هم شذّوا عنِ الفَضائِلِ ، وبرعُوا باقترافِ الرّذائل ، أصلحهم الله وهداهم.

* لقد كتبتِ السَّيّدةُ الفاضلةُ زينب فوّاز رسالاتها في المواضيع المهمّة التي تبعثُ الفضائلَ في النُّفوس من مثل: «ليستِ السَّعادةُ بكثرةِ المال»؛ و«تقدّم المرأةِ»؛ و«العزبةُ والزّواج»؛ و«انتقادُ تقرير يعقوب باشا أرتين» وكيل المعارف العمومية بمصر بالنّسبة لزيارتهِ مدرسة البَنات ، وهذا الانتقادُ علّقَتْ عليهِ جرائدُ مصْرَ اليوميّة تعليقات مهمّة للغايةِ ، حيث نال هذا التقريرُ إعجابَ العمومِ ، وذلك سنة (١٣٠٩ هـ).

* ومن رسائِلها أيضاً «الإنْصَاف» ردّاً على «هنا كُوراني» حيث كتَبَتْ هذه الأديبةُ رسالةً تحت عنوان: «المرأة والسّياسة» دَرَجَتْهَا في لبنان الغرّاء ، وهذه الرّسالة كانتِ افتتاح محاوراتِ أدبيةٍ في موضوع المرأةِ والتّربية المنزليّة بين هاتَيْن الأديبتَيْن: زينب فواز ، وهنا كُوراني؛ وقد كان الفوزُ والسَّبْق حليفَ السّيّدة زينب فوّاز ، وذلك بجميعِ أدوارِ تلك المحاورات المفيدة لهذا الجنس اللطيف. ولها من الرَّسائلِ المهمّة أيضاً: «ملخص التّفسير» وغير ذلك كثير.

* وهكذا رأينا زينب فوّاز أديبةً مفكّرة باحثةً عالمةً شاعرةً من خلال

رسائِلها ومقالاتها وأسلوبِها ، وعرفنا منهجَ حياتها وطريقةَ كتابتها ، قال عمر رضا كحالة ما مفاده: «ونشرت زينب فوّاز مقالات شائقة في الصُّحف والمجلات تدلّ على تضلّعهـا في العُلوم الأدبيـة ، وتنبئنا أنّها كانت من أسرعِ المُطالبات بحقوق النّساء ورفع مستواهنّ ، ورفع مكانةِ المرأةِ الاجتماعيّة. . »[1].

* ولزينب فواز مقالاتٌ أخرى ورُدودٌ على أديباتِ عَصْرِها أبانت فيها عن آرائِها ، وطريقتها في معالجةِ الأُمورِ الاجتماعيّةِ والإدارية والسّياسيّة ، ومن أرادَ الاستزادةَ فليرجعْ إلى مؤلّفاتها ومظانّ ترجمتها يجدْ مصداق ما قُلْنَاه.

وَدَاعـاً دُرَّةَ الـشَّـرْقِ:

* لا شكَّ في أنَّ حياةَ السَّيِّدة الأديّبة الشّاعرة زينب فوّاز متعةٌ ، وروضةٌ للنَّاظر في سيرتها ، بيد أنّنا قد شارفْنا الآن على ودَاعِ سيرتها الشّائقة ، لنلتقيَ سيرةَ امرأةٍ معاصرةٍ أخرىٰ من نساءِ المشْرقِ العربي.

* لقد كانت زينبُ فوّاز درّةً أدبيةً في عقْد أديباتِ النّساء المشرقيّات ، وكانت شاعرةً لا تُجارى ، وأديبةً لا تُبارى ، تسنّمتْ ناصيةَ البيَان ، وكانت فصيحـةً بين النّسوان ، جمعَتْ بيـن جمالِ الأنوثةِ ، وكَمالِ الأدب ، ولطافةِ العلْمِ والمعرفةِ ، قال الزِّركليّ عنها في «الأَعْلام»: «وكانت جميلةَ المنظرِ ، عذْبَةَ الحديثِ ، من خيرة ربّاتِ البيوت تربيةً وعِلْماً»[2].

* وهذه الصِّفاتُ الجميلةُ ترفعُ من شأنِها ومجدِها ، زِدْ على ذلك أنّها

---

(١) أعلام النساء (٣/ ٨٣ و٨٤) بتصرف.

(٢) الأعلام (٣/ ٦٧).

كانتْ لِشِدّة إعجابِها بالشّرقِ والمشارقةِ وبالأدب النّسوي المشرقي كانت تكتبُ أسْمَاء مُستعارة ، ومنها : «درّةُ الشَّرق» و«حاملةُ لواءِ العَدْل»[1] وغير ذلك ، وهذا ممّا يزيدُ في رصيدها النّسويّ الأدبيّ في عالم نِساءِ المشرقِ العربيّ المعاصرات اللواتي لم تغْفِلْهُنَّ أذنُ التّاريخ ، بل أسمعتْ أذنَ الجوزاء همساتهنّ .

* وظلت زينب فوّاز في أرضِ الكنانة بقاهرةِ مصر حيناً من الدّهر ، وهي تمارسُ الأدبَ ، وتشاركُ في ألوانِ الثّقافة ، بيد أنّها كانت تنوي العودةَ إلى مَسْقطِ رأسِها في تَبْنين ، وعزمتْ على ذلك ، وكانت ترسلُ الزّفراتِ الزّينبية ، والأشواقَ الممزوجة بالحنين ، والأشْعار والأسْمار ، غير أنَّ الأمراضَ قد أَلَمّتْ بها غير مُحتشمة ، وداهمتْ همّتها التي لم تفتُرْ في يومٍ من الأيّام ، وتغلّبتْ على جسمِها ، فأوهنَ المرضُ عزيمتَها ، وكان سدّاً منيعاً دون تحقيقِ أملِها الزّينبي في العودةِ إلى تبنين ، وبالطَّبع فتلك مشيئةُ الله ، إذ ما تدري نفْسٌ بأي أرضٍ تموت ، ولا بأي بقعَةٍ توافيها المنيةُ .

* وظلّتْ زينبُ تغالبُ المرضَ ويغالبها مدّةً منَ الزَّمن ، إلى أن كانتِ النّهاية؛ ففي يومٍ منْ أيّام الشّتاء القاهريّة ، وبالتّحديد يوم (١٩ كانون الثاني) من عام (١٩١٤ م) ، والذي يوافقُ يوم (٢٠ صفر) من عام (١٣٣٢ هـ) سكتَ الصّوتُ الزّينبيُّ ، وتوفيت زينب فوّاز في القاهرةِ ، بعد أنْ غرّدت على أغصانِ الأدب بأعذبِ الألحان ، وأجملِ الأصواتِ التي بلغت المشرق والمغرب .

* وتلاشى الصّوتُ الزّينبي الذي ترجمَ للزّيانِبِ وغيرهنّ من نساءِ

---

(١) مصادر الأدب النسائي في العالم العربي الحديث (ص ٢٣٨) .

المشرقِ العربي والعالم؛ وانتشر خبرُ وفاتِها في العالَم العربي من خلال الصُّحف والمجلات.

* وعندما صدرت مجلّة العِرفان في (٢٧) كانون الأوّل عام (١٩١٤ م) جاء فيها الخبرُ الآتي ينقلُ ما تناقلته الصّحفُ المصريّةُ عن وفاةِ زينب فواز ونصّه: «نَعَتْ إلينا أنبـاءُ مصْرَ المرحومة زينب فوّاز، وهي عامليّة وُلَدتْ في قريةِ تَبْنين من أعمالِ صُور جنوب لُبنان، واطّلعْنَا على كتابِها: الدُّرّ المنثور في طبقات ربّـات الخُدور، لنرى إذا كانَتْ قد ترجَمَتْ لنفسِها فيه، فلمْ نَحْظَ ببغيتنا. هذه هي فقيدةُ الآدابِ العربيةِ اليوم، التي لمْ يعرفْ لها أهلُ هذا الجيلِ حقّها، شأْنَهم في عدمِ تكريم نوابغهم، فضلاً عن نابغاتِهم، وقد انتقلَتْ لجوارِ ربّها عن عمرٍ ذَرَّف على السّتين، تاركةً آثاراً خالدةً وذكرى جميلةً، تغمّدها اللهُ برحمته، وأسكنَها فسيحَ جنّته».

* وقبل ذلك كانتِ الصُّحفُ اللبنانية والمصريّة التي تهتمُّ بالأدبِ والأدباءِ، قد نعتِ السَّيّدة زينب فوّاز إلى محبيّ الأدب النّسويّ والإنساني عقب وفاتِها فقالت: «نَعَتْ إلينا أنباء مصر المرحومة زينب فواز الكاتبة والشّاعرة والمؤلّفة، وأوّل امرأة اشتُهِرَ اسمُها في عالَم الأدبِ والكتابةِ في الصُّحف، وقد نالت شهرةً بعيدةً في حياتها، ونالت حظوةً كبيرةً عند كبارِ أدباء مصر وسورية ولبنان».

* وهكذا رحلَتْ زينب فوّاز إحدى نساء المشرقِ العربي، رحلَتْ زينب درّة الدّر المنثور، وغابتْ فيمن غابَ من ربّات الخُدور، بعد أن تركْنَ آثارهنّ على السُّطور، وما أجمل تلك السّطور!

* بل ما أجمل أنْ نودّع زينب بأثَارةٍ من قولها، حيث أسفرتْ عن «سِفْرٍ يسفرُ عن محيَا فضائل ذَوَاتِ الفَضَائل، من الآنساتِ والعقَائل، وجمع

شتات تراجمهنّ بقدر ما يصلُ إليه الإمكان ، وإيراد أخبارهنّ من كلّ زمان ومكان»[1] .

* وكذلك نودّعُ سيرتَها بأثارةٍ من نظمِها ، إحياءً لذكْرِها ، ولأدبها ، وأعمالِها:

لاَ شَيءَ مِنْ زِيْنَةِ الدُّنْيا لِسَاكِنِها ... سِوى مَحاسِنِ مَا تُبْقيهِ ذِكْرَاهُ

* * *

(١) الدر المنثور (ص ٦) من المقدمة.

وداد بنت محمّد سكاكيني

* أديبة مرموقة ، طعَّمت إنتاجها الفكري بشتى عناصر الأدب العربي ، وكانت تهوى السياحة ، وركوب الأسفار ، وإلقاء المحاضرات عن المرأة العربية ، وإبداعها .
* أثرت المكتبة النسوية بعددٍ من المؤلفات ذات المشارب المتنوعة ، والمسارب المتعددة ، من القصة ، والرواية ، والمقالة ، والتراجم ، والسِّير ، والنقد الأدبي والفني .
* أول امرأة تحدثت من الإذاعة السورية واللبنانية .
* دقيقة الملاحظة ، جيّدة الفكرة ، ترتفع بالمعاني والأسلوب إلى مصافِّ كبار الأدباء المعاصرين .
* أول امرأة سورية تفوز بجائزة القصة في منتصف الثلاثينات في لبنان .
* أول امرأة سورية تطبع مجموعة قصصية في القاهرة عام (١٩٤٧ م) .

الـفَـتَاةُ الأَديـبَـــةُ :

* أديبةٌ من ربَّاتِ الخدورِ ، أظهرتْ من أدبها الدّرّ المنثور ، بما يرقّقُ ستورَ السُّطور ، ويجلو محاسنَ كُلِّ منظومٍ ومسطور .

* وهي قبل هذا كلّه امرأةٌ صاحبةُ نفسٍ وهمّة كبيرة ، كانت مثلاً شروداً للأديبةِ التي أحبَّتِ الأدبَ وكلَّ ما يتعلّقُ بفنونِه ؛ إذ ظهرَ نبوغُها الأدبيّ وهي ما تزالُ في عمرِ الزَّهْرِ ، وسنّ الورد ، فقد تفتّح أدبُها منذ طفولتها ، وفاحَ أريجُ أدبها ولمَّا تشبَّ عن الطَّوق بعد .

* هذه الأديبةُ الصَّغيرة سنّاً الكبيرةُ أدباً الوضيئةُ عِلْماً : ودادُ بنتُ محمّد سكاكيني الصَّيداويّة الدّمشقيّة[1] ، إحدىٰ كواكبِ الأدبِ في عصرِنا الحاضر ، وإحدىٰ الأديبات اللواتي سطعَ نجمهنَّ في القرنِ العشرين الميلادي ؛ فهل نستطيع أنْ نَفِيَ هذه المرأة قَدْرها؟! ونعرفَ مكانتها؟!

* ولَعلّي ـ في هذه الموسوعةِ الطَّريفةِ ـ أستطيعُ أنْ أبرزَ بعضَ السِّمات في حياةِ هذه المرأة الأديبةِ ، التي برزَ أدبُها وضيئاً ناصِعاً أكثرَ من نصفِ قرن ، وكان يحملُ بين طيّات همساتِهِ الأنداءَ النّسويّةَ التي تضْفِي إلىٰ الأدبِ النَّسوي المعاصر مائدة شهيةً حافلةً بألوانِ الأدب والمعرفة والقصّة .

* وها نحنُ أولاءِ مرسلو القولَ في أزاهرِ أدبِ وداد سكاكيني ، ومنْ ثَمَّ

---

(١) وافتني السيدة الأديبة سماء زكي المحاسني ابنة المرحومة وداد ساكيني بكثير من المعلومات والأخبار الأدبية والعلمية والاجتماعية عن والدتها وداد ، فلها جزيل الشكر مني ومن القراء الذين أحبوا أدب النساء في مشرقنا العربي . وانظر : مصادر الأدب النسائي في العالم العربي الحديث (ص ١٤١ و١٤٢) وانظر مصادره. وانظر : أعلام الأدب العربي المعاصر (٢/ ٧٣٦ و٧٣٨) وغير ذلك كثير .

نجولُ في الرِّياضِ الوِدَاديّةِ الأدبيَّةِ الوارفةِ الظِّلالِ ، ونستمتعُ بربيعِ محاسنِ بلاغتها ، ونرىٰ عيونَ زهْر أدبِها الذي تفتّحَ عن أكمام المعرفة ، فغدتْ آدابُها رياضاً مُستطابةً كأنّها عرائسُ يخطرنَ بين تمايلِ المعاني ، وتبختُرِ الألفاظ ، وتَثَنّي الأفكارِ الجميلةِ الهادفةِ الإنسانيةِ ، التي تجعلُ قلْبَ الأديبِ يخفقُ فرحاً لاجتناءِ زهْرِ أدبها الذي يضحكُ في أكمامهِ ، ويشيرُ بعيونِ نرجسهِ إلى صاحبته التي اقتعدتْ مكانةً مرموقةً بين أديباتِ العَصْر ، وسابقاتِ الدهْر في الأدبِ والمعرفةِ والكتابة .

* والآن سنبدأُ الرحلةَ الودادية في رحابِ وداد سكاكيني تلكم الأديبةُ الحصيفةُ ذات المجدِ المتطاول في عنانِ المعرفة ، الثّابت في أصولِ العلْمِ والأدبِ؛ في عصر تألُّقِ الأدب ، في بلاد العرب .

* فقد وُلِدتْ ودادُ بنتُ محمد سكاكيني في بلدةٍ تنْجبُ العُلماءَ والأُدباءَ ، والمحدّثين والبُلغاء ، هذه البلدةُ العريقةُ هي صيْدا[1] في لبنان

---

(١) «صَيْدا»: مَدينةٌ على سَاحلِ بحر الشّام ، من أعمالِ دمشقَ ، شرقيّ صُور ، بينهما ستّة فراسخ . ـ وهي الآن مدينةٌ مشهورةٌ في لبنان ـ .
ـ والنّسبةُ إلى صيدا: «صيداوي» ، وهذه نسبةٌ ما لا ينصرفُ منَ الممدودِ ، ولو كان مقصُوراً لكان: «صَيْدويّ» ، كقولهم: في ملْهىٰ: ملهويّ؛ وفي مرمى: مِرمويّ.
وذكرَ السّمعاني أنّه يُنْسبُ إليها «صيداني» بالنُّون ، كأنَّه لِحَقَ بصنعاءَ وصَنْعانيّ ، وبهراء وبهرانيّ .
ـ وممن نُسِبَ إليها: أبو الحسن محمّدُ بنُ أحمد بن يحيىٰ بن عبد الرحمن بن جُميع الغسَّاني الحافظ الصَّيداني ، رحَلَ في طلبِ الحديث إلى مصرَ والعراقِ والجزيرةِ وفارس ، وسمعَ فأكثرَ ، روى عنه ابنه الحسن وأبو سعد الماليني وغيرهما ، وجمعَ لنفسه مُعْجماً لشيوخه .
ـ وروى عنه جماعةٌ منَ العُلَماء ، وكان ابن جُميع من الأعيانِ والأئمة الثّقات ، ومات بصَيْدا في رجب سنة (٤٠٢ هـ) ، وأكثر ما يُقال له الصَّيداويّ .
ـ وممن نُسبَ إلى صيدا بهذه النّسبة: هشامُ بنُ الغاز بن ربيعة الجرشيّ الصَّيداوي ، =

من بلاد الشام والمشرقِ العربيّ ، وكان مولدُهَا حوالي سنة (١٩١٣ م)؛ وذلك قُبيل الحرب العالميّة الأولىٰ بسنة واحدة تقريباً.

* وكان والدُها محمّد سكاكيني أحدَ المعروفين والمشهورين في صيدا؛ وكان ميسورَ الحال آتاهُ اللهُ سَعَةً في الرّزق ، وبسطةً في المال؛ بيد أنَّ يُسْرَهُ انقلب إلى عُسْر ، وفَقَدَ ثروتَه العريضة ، التي تتكوّنُ من مزرعةٍ وخيلٍ وأرضٍ زراعية مغروسةٍ بأنواعِ الشَّجر؛ وأوعز إلىٰ وكيله أنْ يتدبَّر أمرَهُ ويتصرَّفَ في أموالِه بحكمةٍ ودرايةٍ ، ومن ثمّ توارىٰ عن أسرتِهِ وأولادِه عند أحدِ أصدقائِه المخلصين.

* ولم تمض مِدّةٌ بسيطةٌ حتىٰ علمتْ زوجتُه بخبرِ تواريه ، وأدركتْ أنَّ هذه المحنةَ الماليّة التي أصابته قد هدّتْه وضعضعته ، وجعلته يتوارىٰ عن الأنظار.

* وكانت هذه الزَّوجةُ امرأةً عاقلةً مدبّرةً ، ونظرتْ فيما حولَها فلم تجدْ مَنْ يعينها علىٰ ما أصابَها ، وكانتِ الظّروفُ آنذاك صعبةً ، فالحربُ قد فتكَتْ بالنّاس وأكلتهم؛ ولكنَّ هذه الزّوجةَ الحصيفةَ لم تستسلمْ لمريرِ الأحداثِ ، ولهيبِ نيران الحرب المدمّرة ، وفكّرت إنْ هي بقيت في صيدا ، فسيكونُ الدَّمارُ من مصيرِها ومصيرِ أولادِها؛ وهدَاها تفكيرُهَا إلى

= روى عن مكحول ، وابن المبارك ، ووكيع ، ومات سنة (١٥٦ هـ).
ـ وأخبارُ ابنُ جُميع مشهورة في المصَادر المتخصّصة. انظر: (معجم الشّيوخ لَهُ ص ٩ ـ ٤٠).

(معجم البلدان ٣/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨) بتصرف.
ـ وقال ابنُ منظور: «الصَّيداء: الأرضُ التي تربتُها حمراءُ غليظةُ الحجارة ، مستويةٌ بالأرض ، و«الصَّيداء»: الحصىٰ. وقال أبو عمرو: الصَّيداء: الأرضُ المستويةُ إذا كان فيها حصىً ، فهي قاع؛ والصَّيداء: أرضٌ غليظة ذاتُ حجارة ، وصيداء: موضعٌ ، وقيل: ماءٌ بعينه». (لسان العرب ٣/ ٢٦٣) بتصرُّف.

الرَّحيل ، وأبَتْ أن تظلَّ قعيدة البيتِ في صيدا؛ فحزمتْ أمرها ومضَتْ إلى بيروت مصطحبةً أولادَها حيثُ عاش جميعُهم في مسكنٍ صغير.

* وقد أثّرتْ هذه الأحداثُ في الفتاةِ الصَّغيرة وداد ، بيد أنَّها لم تؤثّر على حبِّها للقراءةِ والكتابة؛ فدرستْ وتعلّمتْ في بيروت ، وظهرَ نبوغُها الأدبي في سنّ مبكرة[1] ؛ وتخرَّجَتْ في كليّةِ المقاصدِ الإسلامية.

* وذكرتْ لي ابنتُها السَّيّدةُ «سماء زكي المحاسني» أنَّ والدتَها «وداد» قد أحبَّتِ الكتابةَ وشُغِفَتْ بها وهي ما تزالُ في سنٍّ صغيرة ، وكانت تصوغُ مواضيعَ الإنشاء الجميلة التي تنتزعُ إعجابَ أربابِ البلاغة من مدرسيها في كليةِ المقاصدِ الإسلاميّة ، وممّا صَقَلَ موهبتَها الأدبيّةَ والفكريّةَ أنّها حفظتِ القرآنَ الكريمَ وهي غضّةُ العودِ ، وأصبحت لغتُها متينةً سَلِسَة.

* وتضيفُ السَّيّدةُ سماء «بأنَّ أمّها قد تلقَّتْ رعايةً وعنايةً من الشَّيخ الجليلٌ «مصطفىٰ محمّد الغلاييني[2]» الذي أُعجبَ بمواضيعِ الإنشاء

---

(١) روَتْ لي السَّيّدةُ سَماءُ المحاسني ابنةُ الأديبةِ وداد سكاكيني أنَّ أمَّها ، قد اشتغلَتْ بالتَّعليم وهي في سنٍّ صغيرة ، وقد مارستِ التّدريسَ وعمرها لا يتجاوزُ خمسة عشَر عاماً ، وذلك كي تساعدَ أمّها في سَدادِ تكاليفِ الحياةِ الثّقيلة آنذاك.

(٢) مُصطفىٰ بنَ محمّد سليم الغلاييني البيروتيّ ، وُلدَ في بيروت سنة (١٣٠٢ هـ) حوالي عام (١٨٨٦ م) ، وتلقّى علومَه الابتدائيَّة على عددٍ من العُلماء والمشايخ. أصْدَر مجلّة «النّبراس» وتركَ بيروتَ وقصدَ دمشقَ فعمّان ، وتتلْمَذ عليه هناك الملكُ طلال ملكُ الأردن مدّة إقامتهِ فيها ، وله مؤلّفات قيّمة في الأدبِ العربيّ وغيره. ومنها: نظراتٌ في السّفور والحجاب ، ونظراتٌ في اللغة والأدب ، ونخبةٌ من الكلام النّبوي ، ورجالُ المعلّقات العشر ، وديوانُ الغلاييني ـ شعر ـ وجامع الدّروس العربيّة ٣ أجزاء وغيرُها.
ـ وقد طبعَ له ما يقاربُ العشرينَ كتاباً ، وانتقدَ التّعليم في الأزْهر ، وله خطبٌ أكثر منْ أنْ تحصىٰ ، وقصائدهُ وافرةٌ جداً ، ناصر المرأةَ شِعراً ونَثراً ، وحرَّرَ كثيراً من الصُّحف ، وانتُخِبَ عضواً في المجمعِ العلميّ العربيّ بدمشق ، ومؤتمر القدس =

والتّعبير التي كانت تدبّجها وهي ما تزالُ في مرحلةِ الصّبا المبكّرة ، فتتلمذَتْ على يدهِ ، وأخذَ بيدِها إلى واحةِ الأدب ، وساعدَها علىٰ صقْلِ موهبتها الأدبيّة ، حيث كان يشجّعُها بعد أنْ لاحظَ نباهتَها ونبوغَها المبكّر» .

* ولم تتوقَّفْ ودادُ سكاكيني عند هذا الحدّ من تلقّي العِلْم والمعرفةِ وفنونِ الأدب ، بل تابعَتْ تحصيلَها علىٰ يدِ الأستاذ «أديب فرحات» و«الشّيخ مُصطفى وهيب البَاروديّ الطَّرابلسيّ[1] العَالِمِ الفاضلِ المقرىء

= الإسلاميّ العام ، وتولّى القضاء الشّرعيَ مدة عَشْر سنوات كان فيها مثالَ العدلِ والنّزاهةِ والتّجرّد ، لا يخافُ في اللهِ لومة لائم ، ولا يخشىٰ سلطةَ سلطانٍ إلا سلطان الحقّ والشّريعة. ولما بلغَ عامه السّابع والأربعين أُقيم له مهرجان تكريميّ كبير ، خطبَ فيه ما لا يقلّ عن عشرين خطيباً ، وله مواقفُ جريئة مشهورةٌ مشهودٌ له فيها .
ـ وصفَه الشّيخ العربيّ العزّوزي: «بالعلاّمة ، أديبِ العلماء ، وعالمِ الأُدباء ، سيبويه زمانه ، وفارسِ ميدانه ، ذي القلم السّيّال ، والمؤلفاتِ التي سارت بها الرّكبان ، وتلقتها بالقبول فطاحلةُ الرّجال» .
ـ وقال الزّركلي: «شاعرٌ ، من الكتّاب الخطباء ، من أعضاءِ المجمع العلميّ العربيّ ، تعلّم ببيروت ومصر ، وتتلمذ للشّيخ محمّد عبده سنة ١٣٢٠ هـ. . عُيّن خطيباً للجيش الرّابع العثماني في الحربِ العامة الأولىٰ. . . وبعد الحربِ أقام مدّةً في دمشقَ ، ثم عادَ إلى بيروت ، ثم رحلَ إلى شرقي الأردن فمكثَ مدة ، وانصرفَ إلى بيروت ، فنُصّبَ رئيساً للمجلس الإسلاميّ فيها ، وقاضياً شرعياً إلىٰ أن توفي. . » .
ـ توفي مصطفىٰ الغلاييني سنة (١٩٤٤ م) ، واشتركَ بتأبينهِ كلٌّ منَ الحكومةِ السّورية واللبنانية ، والمجمع العلميّ العربي ، وجمعية المقاصد الخيريّة الإسلاميّة ، وعدد كبير من مختلفِ الأدباء. فرحمه الله .
(موسوعة تاريخ علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي ٥/٩٦ ـ ١٠٠) ، والأعلام (٨/١٤٦ و١٤٧) مع الجمع والتصرف .

(١) مُصطفىٰ وهيب بنُ إبراهيمِ بن محمّد بنِ مصطفىٰ الباروديّ الطّرابلسيّ ، من شيوخِ طرابلس ، وُلدَ سنة (١٢٩٠ هـ) ، وتلقّىٰ علومَه على نخبةٍ من أفاضلِ علماءِ =

= طرابلس ، مثل الشَّيخ حُسين الجِسْر ومحمّد الحُسيني ، ومحمود نشّابة ، وعبد اللطيف نشّابة.

ـ وقد حفظ الشّيخُ مُصطفىٰ الباروديّ القرآنَ الكريمَ على القِراءاتِ السَّبْع المشهورة ، وتخرّج عليهِ عددٌ منَ الشّيوخِ والأفاضل. وقد مارسَ مهمّتي الإمامةَ والتَّدريس زهاء أربعين عاماً في المدرسةِ القرطاويّة ، وكان يقرأُ التّفسيرَ والحديثَ والفقْه الشّافعيَّ ، وتولّى إدارةَ المدرسةِ العلميّة الشّرعية ، فقام بواجبهِ خيرَ قيام ، ونظراً لمكانتهِ العلميّة وعلو كعبهِ في العلوم الإسلاميّة ، قدم له أهلُ طرابلس داراً خُصِّصت في طرابلس لأجلِ العلماء الأفاضل ، فبقيَ يسكنُها حتىٰ توفيَ سنة (١٣٧٢ هـ) وعمره (٨٢ سنة).

ـ وقد تولّىٰ منصبَ مفتي لبنان مدّةً لوفاة الشَّيخ محمد توفيق خالد ، ثمَّ رفَضَ هذا المنصب لكي ينقطعَ إلىٰ العبادةِ والعلْم. وكان محبّاً للعزلةِ والبعدِ عن اللغطِ ومخالطةِ النّاس ، فكان يحلو له أنْ يخرجَ إلى ضاحيةِ مدينةِ طرابلس إلىٰ شاطىءِ البحر متأمّلاً عظمةَ الله عزَّ وجلَّ ، وفي بعضِ الأحيان يصطحبُ في خلواته بعضَ الغُنيمات يرعاها متأسياً بسيّدنا رسولِ الله ﷺ.

ـ وللشّيخِ مُصطفىٰ وهيب البارودي عدّة مؤلّفات منها: الفوزُ الأبديّ في الهديّ المحمّدي ، وخلاصةُ البهجةِ في سيرةِ صادقِ اللهجة ، والفوائدُ الجِسَام بشهرِ الصيّام. وله مؤلّفات أخرىٰ.

كما أنَّ له شِعْراً جيّداً منه قوله:

تـزوّدْ جَميـلاً مـنْ فعـالِـكَ إنّمـا … حديثُ الفتى منْ بعدِ مَا كانَ يفعلُ
أَلَا إنَّمـا الإنسـانُ ضَيـفٌ بـأهلـهِ … يقيـمُ قليـلاً عندهـم ثـمّ يـرحـلُ

وقوله:

خـذْ مـنَ الـدّنيـا مـا كَفَـىٰ … ومـنَ العَيْـش مـا صَفَـىٰ
كـلُّ هـذا سَيَنْقَضـي … كسِـراجٍ إذا انْطَفَـا

وقوله:

احـذرْ أخـي بَـرْدَ الخـريـفِ فـإنّـه … مُسْتَعْـذَبٌ مُستلْطَـفٌ خطَّـافُ
يَسْري إلىٰ الأجسادِ في غَسقِ الدّجىٰ … بلطـافـةٍ ومـنَ اللطيـفِ يُخـافُ

وقوله:

أنفقْ ولا تخشَىٰ إقْلالاً فقد قُسِمَتْ … علـى العبـادِ مـنَ الـرّحمـن أرْزَاقُ =

المفسِّر ، الأديبِ ، وراحت تنهلُ من معارفهِ علومَ القُرآن الكريم والعلومَ الإسلامية؛ وقد لاحظَ الشَّيخ مصطفىٰ وهيب هذا أنَّ وداداً فتاةٌ ذات ذكاءٍ لمّاح ، وحافظة مدهشة ، فسَرَّهُ ذلك كثيراً ، فكان يدعوها: «يَا بُنَتي» ، وقد حرصَ رحمه الله على تعليمها وتهذيبها وبخاصةٍ حينما لمسَ رغبتها الشَّديدة في القراءةِ والمُطَالعةِ والكتابةِ والتَّرسُّل ، وكان يحضّها ويرغّبُها في حفظِ القرآنِ العظيم؛ إذْ إنَّ القُرآنَ الكريم حليةُ الأدباءِ ، والعلماءِ ، والمحدثين ، وطلاّب العلْم في كلّ زمانٍ ومكان ، وكثيراً ما كان يُوصيها ويقول لها: «يَا بُنَتي ، عليكِ بحفظِ القُرآنِ الكريم؛ لأنَّه يعلّمُكِ الدِّيْنَ ، والأدبَ ، واللغةَ ، والتَّاريخَ ، والبَيانَ».

* وامتثلتِ الفتاةُ الأديبةُ الأريبةُ أمْرَ أستاذِها العالِمِ الأديب ، ولم تتوقّفْ عن متابعةِ ما أوصَاها به ، فراحتْ تنهلُ وتحفظُ من القُرآن الكريمِ ما تُندّي به روحَها ونفسَها ، وتصقلُ بهِ موهبتَها ، حتى غدا أسلوبُها قويّاً جميلاً تُحلّيه بألفاظِ القرآنِ الكريم ـ كما سنلحظُ ذلك عندما نتعرّضُ لهذا المجال ـ. كما كان أستاذُها يشجّعُها على الكتابة الأدبية؛ حتىٰ إنّها استطاعت أنْ تجمعَ المختارَ من وظائفِ الإنشاء ، كيما تنشره في كتابِ المُفسِّرِ وذلك حوالي عام (١٩٣٠ م) ، وكانت إذ ذاك في عُمْر الزَّهر ، إذ لم تكدْ تبلغُ السّابعةَ عشرَ ربيعاً من عمرها. . . وهذا الذّكاءُ الفطريُّ الممزوجُ بحبّ المطالعةِ قد مَهّدَا الطَّريق أمامَ الفتاةِ الموهوبةِ إلى فضاء الشُّهرة ، وإلى دنيا الأعلام من النّساء في عصرِنا الحديث.

= لا ينفعُ البخلُ مع دنيا مُوليةٍ ولا يضرُّ مع الإقبالِ إنفاقُ
وأخبار مصطفىٰ البارودي كثيرة ـ رحمه الله ـ. (موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي ٥/ ١٢٤ ـ ١٢٩) بتصرف.

ودَادُ بَيْنَ الشُّهْرَةِ وَالأَدَبِ:

* حبَا اللهُ عزَّ وجلَّ هذه الفتاةَ موهبةً أدبيّةً منذ نعومةِ أظفارِها ، وقد فتحتْ عينيها علىٰ دُنيا المعرفةِ المتنوعةِ من كتُبٍ ومجلّات ، وخصوصاً تلك المجلّات النّسوية التي أصدرتها النّساءُ في لبنانَ وسوريةَ ومصرَ ، وكانت بعضُ هذه المجّلات تحملُ طابعاً أدبيّاً نسويّاً؛ ولعلَّه من الفائدةِ أنْ نشيرَ إلى بعضِ المجلّات النّسوية والتي صدرتْ تحت إشرافٍ نسويّ ، أو أنشأتها امرأةٌ ، وذلك قبل مولدِ وداد سكاكيني بقرابةِ ربع قرن من الزَّمن ، وإلى أواسط الخمسينيّات ، أي إلى عام (١٩٥٥ م).

* ومن تلك المجلّات التي صدرت قبل عام (١٩٠٠ م) أربع مجلّات نسوّية ، وكلّها صدرتْ في القاهرةِ بمصر؛ وهي مجلَّةُ «الفتاة» وصدرت عام (١٨٩٢ م) ، ومجلّةُ «الفردوس» وصدرت عام (١٨٩٦ م) ، ومجلّةُ «أنيس الجليس» وصدرتْ عام (١٨٩٨ م) ، ومجلّة «العائلة» وصدرت عام (١٨٩٩ م) ثم تَلَتْها مجلّات نسويةٌ كثيرةٌ بعد عام (١٩٠٠ م) ، وظهرتْ في مصرَ ودمشقَ ولبنان وبغداد ، ومن هذه المجلّات النّسوية ، مجلّةُ «شجرة الدّرّ» وصدرت في الإسكندريّة عام (١٩٠١ م)؛ ومجلّةُ «المرأة» وصدرتْ في القاهرةِ عام (١٩٠١ م) أيضاً ، ومجلّةُ «السَّيّدات والبنات» وصدرتْ في الإسكندريّةِ عام (١٩٠٣ م) ، ومجلّةُ «السَّعادة» صدرتْ في القاهرةِ عام (١٩٠٣ م) ، ومجلّةُ «فتاة الشَّرق» صدرتْ في القاهرةِ عام (١٩٠٦ م) ، ومجلّةُ «العروس» وصدرت في دمشق عام (١٩١٠ م) ، ومجلّةُ «فتاة النيل» صدرت في القاهرة عام (١٩١٤ م) ، ومجلّةُ «فتاة لبنان» وصدرت في بيروت عام (١٩١٤ م) أيضاً ، ومجلّةُ «فتاة الوطن» وصدرت في زحلة عام (١٩١٩ م) ، ومجلّة «الخدر» صدرت في الشّويفات وعاليه عام (١٩١٩ م) أيضاً ، ومجلَّةُ «نور الفيحاء» صدرت في دمشق عام (١٩٢٠ م) ، ومجلّةُ

«المرأة المصرية» صدرت في القاهرة عام (١٩٢٠ م) أيضاً ، ومجلّةُ «المرأة الجديدة» صدرت في بيروت عام (١٩٢١ م) ، ومجلّةُ «فتاة مصر الفتاة» صدرت في القاهرة عام (١٩٢١ م) أيضاً ، ومجلّةُ «السّيّدات والرجال» صدرت في القاهرة عام (١٩٢٢ م) ، ومجلّةُ «ترقية الفتاة» صدرت في القاهرة عام (١٩٢٣ م) ، ومجلّة «ليلىٰ» وصدرت في بغداد عام (١٩٢٣ م) أيضاً ، ومجلّةُ «مورد الأحداث» صدرت في بيروت عام (١٩٢٣ م) أيضاً ، ومجلّةُ «مينرفا» صدرتْ في بيروت عام (١٩٢٣ م) ، ومجلّة «الحِسَان» صدرت في القاهرة عام (١٩٢٥ م) ، ومجلَّة «الأمل» صدرت في القاهرة عام (١٩٢٥ م) أيضاً ، ومجلّة «دوحة الميماس» صدرت في حمص عام (١٩٢٨ م) ، ومجلّةُ «المرأة» صدرت في حماة فحلب فالشام عام (١٩٣٤ م) ، ومجلّةُ «صوت المرأة» صدرت في بيروت عام (١٩٤٤ م) ، ومجلّة «بنت النّيل» صدرت في القاهرة عام (١٩٤٥ م) ، ومجلّة «المرأة والفنّ» صدرت في بيروت عام (١٩٤٨ م) ، ومجلّة «حواء» صدرت في القاهرة عام (١٩٥٥ م)[١] .

* وقد اهتمّتْ ودادُ سكاكيني بمنابع الثَّقافة المتنوّعة ، وراحت تكتبُ المقالاتِ التي تشيرُ إلى نبوغها ، والخواطر التي تدلُّ على سعةِ ثقافتها وتمكّنها من اللغةِ ، ففي عام (١٩٣٢ م) دفعت ودادُ إلىٰ «مطبعةِ الكَمال» في بيروت كتابَها الأوّلَ بعنوان «الخَطَرات» وهو عبارةٌ عن مقالاتٍ وخواطرَ في الأدبِ والأخلاقِ والاجتماع ، وقد أهدتْه ودادُ إلى الفتاةِ العربيّة التي ترنو إلى المعرفةِ؛ ولمّا صدر هذا الكتابُ كانت ودادُ ما تزالُ فتاةً لم تتجاوزِ العشرينَ من عمرها .

---

(١) قضية المرأة (١/ ٤٧١ و٤٧٢) بتصرف واختصار ، مطبوعات وزارة الثقافة بدمشق .

* ولما بلغتْ ودادُ من العمر إحدىٰ وعشرين سنة اقترنت بالأديبِ الدكتور «زكي شكري المحاسني» الدّمشقيّ المولود سنة (١٩٠٩ م) ، وكانا متقاربَيْن في السِّنّ ، إذ يكبُرهَا زوجُها بنحو أربعِ سنين ، وكان زواجُها منه في عام (١٩٣٤ م) ، وقد أنجبتْ وداد ولداً اسمُه «ذكوان» وابنتين هما «ذكاء» و«سماء»؛ فكانت لزوجها زكي زوجةً زَكيَّةً فاضلةً مثالية ، ولأولادها أمّاً فاضلةً غذتهم على حبّ العلْمِ والمعرفةِ ، وأحاطتهم بكلّ عنايةٍ ورعايةٍ ، ليكونوا لِبناتٍ صالحاتٍ مفيداتٍ في المجتمع .

* وأخذ اسمُ السَّيّدة وداد سكاكيني يصافحُ الأسماعَ في الأوساطِ الأدبيّة في لبنان وسورية ، وخصوصاً لمعَ اسمُها عالياً في الشّام ، حينما صِحبَتْ زوجَها لتكون معه في دمشق الشّام ، بلدِ السّحْرِ والجمالِ واللطفِ والدَّلال ، بلدِ الغُوطة الخضراء ، والأريافِ الشّامية الوادعةِ الباسمة ، وبلدِ المصايفِ التي تسحرُ الألبابَ ، وتدلُّ على عظمةِ الخالقِ الوهّاب .

* ولقد فتنت دمشقُ وغوطتَها السَّيِّدة وداد سكاكيني ، فتنتْهَا برياضِها وغوطتها الغنّاء ، وأزاهيرِها وجداولها وخمائِلها وأطيارِها ، وتفاعلتْ هي بحنانِ قلبها الحسّاس المُفعم بحبّ الطَّبيعة ، ووقفَتْ بوجهٍ باسم ونَفْسٍ متعطّشَةٍ إلى شذا رياحينها ، فأشجتها عبقاتُ الزَّهر ، وساجعات الطَّير ، وتعانقُ الأغصان ، ممّا جعلَ آفاقها تتفتّحُ مع تفتّحِ الأزهار الملوّنة في هذه البلدةِ الجميلةِ التي فتنتْ قلوبَ العشّاق منذ أزمان بعيدة وحتىٰ العصرِ الحاضرِ؛ ولله درُّ «خليل مردم»[1] إذ يخاطب دمشق التي شُغِفَ بها حبّاً كما

---

(١) خليل مردم من شعراء الشام المعاصرين المشاهير ، ولد سنة (١٨٩٥ م) ، وكان من رجال الأدب والعلم والبيان ، ومن كبار الشعراء الذين خلدوا دمشق والغوطة في أشعارهم ، ورأس المجمع العلمي بدمشق ، وتوفي في ٢١ تموز عام (١٩٥٩م) الموافق ١٥ محرم (١٣٧٩ هـ) ، فكان فقده أليماً على الناس . وله ديوان فخم مطبوع . =

شُغِفَ من قبل شاعر الرّسول ﷺ «حسّان بن ثابت الأنصاري» رضي الله عنه ، يقول خليل مردم من كافيّةٍ بعنوان «دمشق» :

أَدِمشـقُ مَـا للْحُسـنِ لا يعْـدوكِ ... حتّى خُصِصـتِ بـهِ بغيـرِ شَـريكِ
سبحـانَ مَـنْ أعطـاكِ أشهـدُ أنَّـهُ ... وفّـىٰ وزادَ بِسَيْبِـهِ مُعْطيْـكِ
مهـوىٰ القلـوبِ لكـلِّ روحٍ راحـةٌ ... ولكـلِّ عيـنٍ قـرةٌ وَاديْـكِ
الحـبُّ بـرَّحَ بـي وأنـتِ بَعَثْتِـهِ ... أإليـكِ أشكـو الحـبَّ أمْ أشكـوكِ
يا مهبطَ السِّحرِ الحَلال أَلَمْ يكنْ ... حسَّـانُ ينشـي سِحْـره مـن فيـكِ
رُدّيتِ منْ زَهْرِ الرّياضِ مَطَارفاً ... مـا بيـنَ محلـولٍ إلـىٰ محبـوكِ
فكـأنّمـا الأشجـارُ فيـكِ عـرائـسٌ ... مـاسَـتْ بكـلّ منمنَـمٍ وَمَحُـوكِ
الغُـوطَتَـان وأنـتِ مثـلُ جـزيـرةٍ ... بحـرانِ يلتطمـانِ فـي شـاطيْـكِ
والغُـوطَتَـان وأنـتِ بـدرٌ سَـاطـعٌ ... لكَليْلَـةٍ ظلمـاءَ ذات حُلـوكِ[1]

* وكما فتنتْ دمشقُ الفيحاءُ بسحرها قلبَ وداد ، فتنَتْ كذلك الغوطةُ الغنّاء لبَّها ، وخصوصاً في أيّام فصل الرَّبيع ، حيث تصبحُ الغوطةُ كالعروس من شدّة جمالِها وأناقتها ، وما أجمل أنْ نقرأ هذه الأبيات المختارة في وصْفِ الغُوطةِ للمرحوم خليل مردم ، وهذه من قصيدةٍ رائيةٍ تزيدُ عن أربعينَ بيتاً نقتطفُ منها هذه الأزاهرَ الفوّاحةَ بالرّقَّةِ والجمالِ والدَّلال ، وحسن السَّبْكِ الذي يشبهُ السِّحْرَ الحلال ، فيقولُ من قصيدة بعنوان «الغُوطة» :

كَـمْ فـي أزاهيـرِ الـرّيـاض لنـاظـرٍ ... مـنْ مقْلَـةٍ وَسَنَـىٰ وخـدٍّ نَـاضِـرِ
ماسَتْ أماليدُ الغُصونِ بوشْيِهَا ... معْطَـارةً وازَّيـنَـتْ بجـواهِـرِ
للهِ مـا صنَعَـتْ ومـا جـاءَتْ بـهِ ... فـي الغُـوطتَيْـن يـدُ الـرَّبيع البَـاكِـرِ

---

(١) ديوان خليل مردم (ص ٤٣ ـ ٤٦) باختصار ، والقصيدة جميلة تبلغ (٤٩ بيتاً) .

بسَطَتْ وثيرَ قَطيفةٍ فوقَ الثَّرىٰ خضْراءَ فيها كلُّ لونٍ زَاهِرِ
من أحمر قانٍ وأصفرَ فاقِعٍ أو أزرقٍ زَاهٍ وأبيضَ سافِرِ
وكَسَتْ وحَلَّتْ سمحةً أشجارُهَا فجلَتْ عرائسُها بوشيٍ فاخِرِ
معقودةُ الإكليلِ زهراءُ الحلىٰ خفاقةُ الأقْراطِ ذاتُ أسَاورِ
أرخَتْ منَ الظِّلِّ الظَّليلِ غُصُونَها طرراً وأذْيَالاً وفَضْلَ مآزِرِ
تَتَناثَرُ الأزْهَارُ في أجْوَائِها مبثوثةً مثْلَ الفَراشِ الثَّائِرِ
عَرِقَتْ جِبَاهُ الزَّهْرِ من قَطْرِ النَّدىٰ ملْتفَّةَ الأعناقِ ذاتَ تآطُرِ
وإذا الرّياحُ تأَوَّهَتْ سَقَطَ النَّدىٰ من كلِّ زاهرةٍ كَدمْعٍ هَامِرِ
والشَّمسُ من خَللِ الغُصُون على الثَّرىٰ كدَراهِمٍ ألقَتْ بها يَدُ ناثِرِ
مرآةُ أحلامي ومرتعُ صَبْوتي وهوىٰ فؤادي بل ومتعةُ ناظري
في كلِّ مغْنَىٰ من فؤادي شعْبَةٌ وبكلِّ وادٍ هائمٌ مِنْ خَاطِري
يقتادني في كُلِّ شَطْرٍ جاذِبٌ من منظرٍ نَضِرٍ وحسْنٍ باهِرِ
وأرىٰ الغصونَ كأذرُعٍ ممدودةٍ لتَعانُقٍ من بعْدِ طولِ تهاجُرِ
تتجاوبُ الأطيارُ في أفنانِها من هَاتِفٍ أو ساجِعٍ أو صَافِرِ
تتراقَصُ الأَغْصَانُ من تغريدِها ميَّادةً لتطاولٍ وتقاصُرِ
والطَّيرُ لو أبْصَرتَ أسعد عيشةٍ يا ليتَ للإنسانِ عيشَ الطَّائرِ(١)

* وهكذا أخذَ جمالُ الشَّامِ وما حولَها بمجامعِ قلب وداد سكاكيني؛ وتذكرُ الأستاذةُ «سُليمىٰ العظم» في مقالةٍ لها بعنوان: «وداد سَكاكيني.. نجمُ هَوىٰ» وتشيرُ إلى سِحْرِ الشَّام وجمالِ الغوطةِ الذي استولىٰ علىٰ قلبِ الأديبةِ وداد سكاكيني فتقول: «عند زواجها ـ أي وداد ـ انتقلَتْ إلى الشَّام، وما أجمل الشَّام، إنَّها ساحرةٌ بالغوطةِ الخضراء، وروابي قاسَيون،

---

(١) ديوان خليل مردم (ص ٧٦ ـ ٧٩) بانتقاء واختصار.

والأريافِ الشّامية ، وتتذكَّرُ ـ رحمها الله ـ دائماً الزَّبداني ، بقَّيْن ، مَضَايا ، لأنَّها كانت تقصدُها صحبةَ زوجِها ، بدعوةٍ من الشَّاعر ميخائيل خليل الله ويردي».

* ومما تجدرُ الإشارةُ إليه أنَّ المرحوم زكي شُكري المحاسني[1] زوجَ السَّيّدة وداد كان من أساطينِ الأدب ، ورائداً من روّاده ، وعلماً بارزاً من أعلامهِ في دمشق الشَّام ، وممن حملُوا رايةَ العلْمِ والمعرفة ، وأناروا الطَّريقَ لغيرهم ممن سار على طريقِ الأدبِ والعلْمِ ، فقد كان ـ رحمه الله ـ أوّلَ دمشقيّ مُوفَدٍ من الشَّام لتحصيلِ شهادة الدّكتوراه من مصرَ من جامعةِ القاهرة ، وذلك بعد أن تلقَّىٰ تعليمَه الجامعيَّ في دمشق.

* كان هذا في عام (١٩٤٤ م) عندما قَدِمَ الدكتور «طه حسين» دمشقَ ، وكان قدومُه عام ذاك بدعوةٍ منَ المرحومِ الأستاذِ الأديب «محمّد كُرْد علي» رئيس المجمع العلميّ ، فالتقاهُ المحاسني وذكرَ له بأنَّه لم يُرسَلْ إلىٰ فرنسا في بعثةٍ ، فقال له طه حسين: «هذا من حظّك يا محاسني ، أقترحُ عليك أنْ تطلبَ من الحكومةِ أن ترسلَكَ في بعثةٍ إلى القاهرة».

* وبالفعلِ كان لزكي المحاسنيّ ما رغبَ فيه ، فأرسلتْهُ الحكومةُ السّوريةُ آنذاك إلى القاهرةِ ، ليحصلَ علىٰ درجةِ دكتور في الآداب من جامعةِ فؤاد الأوّل.

* ورافقتِ السَّيّدةُ وداد زوجَها إلى القاهرةِ في تلك الأيّام ، إذ عُيِّنَ وقتَها مُلْحقاً ثقافيّاً في السَّفارة السُّورية ، وتابعَ دراستَه العاليةَ في جامعة القاهرة ، ومن ثم حصلَ على درجةِ الدكتوراه في الآدابِ بأطروحةٍ عنوانها: «شِعْرُ الحربِ في أدبِ العرب».

---

(١) توفي بدمشق في ٢٣ آذار (١٩٧٢ م) وعمره (٦٣) سنة ميلادية.

* وكانتِ السَّيِّدةُ وداد سكاكيني قبل سفرِها إلى مصر ، قد برزتْ أديبةً لامعةً في الأوساطِ الأدبيّة ، وفي ميدانِ القصَّة ، فقد فازت في عام (١٩٣٨ م) بالجائزةِ الأولىٰ في مسابقةِ القصّةِ القصيرة ، وذلك في جريدة «المكشوف» الصّادرة في بيروت ، فقد اشتركَ بهذه المسابقة (٥٩) قاصاً وكاتباً من سورية ولبنان وسائرِ البُلدان ، وفازت عليهم جميعاً ، وكان عنوان قصّتها الفائزة «الشَّيخ حمدي» ، وعلى الرّغم من فوزِها بالجائزة الذَّهبيّة ، فإنّها لمْ تحْظَ وقتَها بالشُّهرةِ الكافيةِ علىٰ مستوىٰ الأديباتِ في العالمَ العربيّ ، ولعلَّ السَّبب في ذلك أنَّه لم تهتمّ الجرائدُ والمجلاّتُ بامرأةٍ أديبة ، ولم يوجدْ مَنْ يُطبِّل ويزمّر كما يحدثُ لبعض مَنْ شهرهم أو شهرتْهم صنعةُ التّطبيل والتّزمير والدّعاية! .

* ولكنّ هذا كلّه لم يؤثّر في حياةِ وداد الأدبية ، وإنّما زادهَا ذلك تصميماً على متابعةِ الفوز ، والمُسَاهمة في الحركةِ الأدبية ، وخصوصاً عندما وطئت أرضَ مصر كما سنرىٰ .

ودَادُ فـي مِـصْـرَ :

* هي ذا ودَادُ سَكاكيني في أرضِ الكنانةِ ، في مصرَ ، ومصرُ أرضٌ تُـنْبتُ الشُّهْرةَ والمشَاهير ، وسُرعانَ ما تطيرُ الأسماءُ محلِّقةً في فضاءِ الشُّهرة في معظمِ مجالات المعرفةِ والأدبِ والفَنّ .

* ففي القاهرةِ لقيتِ السَّيِّدةُ وداد خَيْرَ تكريم[1] ، فقد كانت ترافقُ زوجَها وتصحبُه إلى المنتدياتِ الأدبيّةِ ، والجمعياتِ الفكريّةِ والعلميّةِ ؛ ممّا

---

(١) لقيتِ السَّيدة وداد سكاكيني في القاهرةِ الإكْبَار والتَّشجيعَ من كبارِ الأدباء هناك إذ وفّوهَا حقَّها ، وقد عرفتْ كُلّاً من : «محمود تيمور ، طه حُسين ، عبد الحميد جودة السّحّار ، سيّد قطب ، نجيب محفوظ ، ومحمّد عبد الحليم عبد الله» .

جعلها تنتعشُ بالأدبِ أكثرَ وأكثر ، وتروي ظمأَها من مناهلِ الأدبِ التي تبثُّها محاضراتُ الأدباء المشاهير آنذاك من أمثالِ: «إبراهيم عبد القادر المازني ، وأحمد أمين ، ومُصطفىٰ عبد الرَّازق ، ومحمود عزمي ، ومحمّد كامل حسين»؛ وكانت ودادُ ترافقُ زوجَها في المحاضراتِ التي يُلقيها هؤلاء الأُدباء ، وتستفيدُ من سعةِ آفاقِهم ، ومن آرائِهم المفيدة. وقد نوَّهَ إلى ذهابها للمنتدياتِ الأدبيةِ الأستاذُ «وديع فلسطين» ، وذكرَ بأنَّه ما من منتدىً أو محاضرةٍ فكريّة ، إلا كانت ودادُ وزوجُها من الحاضرين ، وما كانت تفوتُهما سانحةٌ من سوانحِ الحياةِ الفكريّةِ ، يقولُ وديع فلسطين: «ولا أكادُ أذكرُ منتدىً من منتدياتِ القاهرة التي كانَتْ في ذلك الحين ، وقبل الخمسين ، تموجُ بنهضةِ الفكرِ والأدبِ ، وحيوية الثَّقافة والجدلِ ، والمناظرة بين أعلامِ المحاضرين من المصريّين والمستشرقين؛ إلاّ ذكرتُ بين الحاضرين هذَيْن القُطبَيْن اللذين ما كانت تفوتُهما سانحة من سوانحِ الحياةِ الفكريّة الخصبةِ المتجدّدة».

* وتذكرُ المرحومة ودادُ بقلمها أنَّها أمضتْ مدّةً في مصرَ وقد تفتَّحتْ أزاهيرُ عبقريتها الأدبيةِ والقصصيّةِ ، فتقولُ ما مفادُه ومحصله وملخّصه: «تفتَّحَ زهرُ أدبي ، واتَّسعتْ ثقافتي وأينعتْ في مصرَ معارفي ، ونشرتُ أكثر كُتبي فيها ، وكنتُ على الحَداثةِ حينذاك ، ومنذُ تعلَّقْتُ بالمطالعةِ والقراءة ، شُغِفْتُ بالمقالةِ ، وكنتُ مفتونةً بفنّ القصّة ، متتبّعةً ما طابَ لي من قديمِها وحديثها ، وما تُقدّمُ الصُّحفُ من آثارها ، حتىٰ أنْشَأَتِ الصّحافةُ الأدبيةُ التّحرريةُ في القاهرةِ ، ودمشقَ ، وبيروتَ مجلاّتٍ عُنيتْ بالقصّةِ في أعقاب الثلاثين ، وكان منها «مجلّة الدّهور» في لبنان. . . وقد تنافسَ تسعةٌ وخمسون قاصّاً ، من مختلفِ البُلدان ، وكنتُ وحدي الفائزةَ بالجائزةِ من بينهم حيث كان ترتيبي الأوّل بين القصّاص. وعند انتقالي عام ١٩٤٤

و١٩٤٥ م إلى القاهرةِ مع زوجي «زكي شكري المحاسني» ، كانت حياةُ الأدبِ والنَّقد مزدهرةً بأعلامها ونتاجِها ، متألّقة بأسماءِ المشهورين بالقصّة والرّوايّة والمسرحيّة ، من مثل: نجيب محفوظ ، وعبد الحميد السَّحّار ، ومحمّد عبد الحليم عبد الله ، وباكثير ورفاقهم. . . »[١].

* ولقد أمضتِ السَّيّدةُ مع زوجها في مصرَ أكثر من عشرِ سنوات ، كانت سنوات سِماناً ، أتاحَتْ لها الشُّهرة والامتداد على رقعةِ وطننا العربيّ من مشرقهِ إلى مغربهِ ، وتذكرُ السَّيدةُ وداد سكاكيني ـ رحمها الله ـ أنَّ سِنِيّها التي قضَتْها فوقَ ربوعِ القاهرة ، وأنَّ الأيّام القاهريّة الخوالي ، كانت من أجملِ أيّامِ حياتها ، فقد التقتْ عدداً كبيراً من أدباءِ مصرَ في ذلك العَصْرِ ، وفي مقدمتهم عدو المرأة ، أو من كانتِ المرأةُ عدوةً له ـ «عبّاس محمود العقّاد» ، الذي حضَرتْ صالونَه الأدبيَّ ، وجلستْ عنده يكتنفُها الحياءُ والخجلُ لأنَّها قد نعتَتْه في عدائهِ للمرأةِ المثقّفة المتعلّمة الذّكية.

* ومنَ الطَّريف في حياة وداد أنَّ بنتَ الشَّاطىء عائشة عبد الرحمن[٢]

---

(١) انظر: أعلام الأدب العربي المعاصر (٢/ ٧٣٦ ـ ٧٣٨) بشيء من الاختصار والتصرف.

(٢) عائشةُ محمّد عبد الرّحمن الدّمياطيّة المِصريّة ، المشهورة ببنتِ الشّاطىء ، وُلدَت في مدينة دمياط بمصر ، وتربّت تربيةً إسلامية أصيلةً ، إذْ بدأتْ دراستها في كتّاب البلدةِ ، وحفظتِ القرآنَ الكريم وهيَ صغيرةٌ ، وحصلَتْ على شهادةِ الكفاءة ، واشتغلَتْ بالتدريس في مدارسِ البنات ، ولكنّها لم تنقطعْ عن الدّراسة ، فالتحقتْ بجامعةِ القاهرة وحصلَتْ على ليسانس الآداب في اللغةِ العربيّةِ ، سنة ١٩٣٩ م ، ثمّ الدّراسات العُليا ، وتابعت حتى حصلَتْ على الدكتوراه حوالي عام ١٩٥٠ م ، وعملت بالتدّريس في جامعةِ عين شَمْس ، ثم عملت أستاذةً زائرةً لجامعاتِ أمّ درمان الإسلاميّة ، والخرطوم ، والقاهرة ، ومعهد البحوث والدّراسات العربيّة ، وجامعة المغرب ، ولها أعمالٌ أخرىٰ من مثل عضويتها في المجلس الأعلىٰ للشّؤون الإسلاميّة بمصر ، والمجلس الأعلىٰ للثّقافة ، كما أنّها عضو هيئة التّرشيخ لجوائز الدّولة التّقديرية بمصر. =

الأديبةَ المصريَّة المشهورةَ ، قد ناصبتِ السَّيِّدة ودادَ سكاكيني العَداء ، وحَسَدَتْها ، حيث كانتْ عائشةُ تظنُّ أنَّ الأديبةَ وداداً قد جاءَتْ من الشَّام كيما تزاحمَها وتزاحم مثيلاتها على عرشِ الشُّهرة الأدبيّة. . . ولله درّ عمر بن أبي ربيعة إذ قال:

حَسَـــدٌ حُمِّلْنَـــهُ مِـــنْ أَجْلِهَـــا وقَديماً كانَ في النَّاسِ الحَسَدُ[1]

* والحقيقةُ ، فإنَّ ودادَ سكاكيني لم تزاحمْ بنت الشّاطىء ، ولا واحدةً من نساءِ عَصْرها على شاطىءِ الأدبِ ، وإنّما انتقدتْ بنتَ الشَّاطىء نقداً علميّاً في كتابها «أمّهات المؤمنين» وأبانَتْ ما وقعت فيه ابنةُ الشَّاطىء من

= ـ عُرِفَتْ عائشةُ باسم «بنت الشّاطىء» منذ أوّل مقالٍ أدبي كتبتْهُ ونشرتْه في جريدة الأهرام عام (١٩٣٦ م) ، ووقّعتْه بهذا الاسم بسببِ ظروف عائلتها المحافظة ، وعُرِفَتْ بهذا الاسم فيما بعد حتّى طغىٰ على اسمها الأصلي. وتزوّجت بنت الشّاطىء من الأديبِ الكاتب أمين الخولي.

ـ ولعائشة عبد الرحمن أكثرُ من خمسين مؤلّفاً ، من أشهرها: «تراجم سيّدات بيت النبوة ، والتّفسير البياني للقرآن الكريم ، والإعجاز البياني للقرآن ، والإسرائيليات في الغزو الفكري ، والخنْساء ، والريف المصري ، وسرّ الشّاطىء ، وأعداء البشَر ، وأبو العلاء المعرّي ، والحياة الإنسانية عند أبي العلاء المعري ، وصور من حياتهنّ ، القرآن وحقوق الإنسان ، وعلىٰ الجسر ، ومع المصطفىٰ ، وقضية الفلاح. . . » وغيرها كثير.

وقد حصلتِ السّيدةُ عائشة بنت محمد عبد الرحمن ابنة الشّاطىء على جائزةِ الدولةِ التقديرية للآداب في مصر عام (١٩٧٨ م) ، ووسام الاستحقاق من الطّبقة الأولىٰ ، وشهادة تقدير من منظمة اليونسكو عام (١٩٨٠ م) ، ووسام الكفاءة الفكرية في المغرب؛ وجائزة الأدب من الكويت عام (١٩٨٨ م) ، وأُطلقَ اسمُها على عددٍ من المدارسِ وقاعاتِ المحاضرات بعددٍ من الدّول العربية ، وفازت بجائزة الملك فيصل للأدب العربي مناصفة مع الدكتورة وداد القاضي عام (١٤١٥ هـ) (١٩٩٤ م) وتوفيت بنت الشاطىء عام ١٩٩٩ م.

(١) انظر: ديوان عمر بن أبي ربيعة (ص ١٦٥) طبعة دار الجيل الأولىٰ ـ ١٩٩٢ م ـ بيروت.

سقَطات في كتابها «نساء النّبي» ، وكانت بنتُ الشَّاطىء قبلُ قد نشرتْ مقالاً في مجلتي «الهلال والكتاب» عام (١٩٤٧ م) تُظهِرُ عدم إعجابَها بودادِ وبكتابها أمّهات المؤمنين ـ كما سنقرأُ هذا فيما بعد ـ.

* ومع هذا كلّه فقد كانت ودادُ تعتزُّ بمصرَ ، وتعدُّها موطنها الثّاني ، بل موطنها الأثير لدىٰ قَلْبِها الكبير الذي أحبَّ الأدبَ وأهلَ الأدبِ في كلّ مكان؛ وكانت ودادُ قد عملت في القاهرةِ في المعهدِ العالي لمعلّماتِ الفنون مع العميدة «إنصاف سرّي» ، وقد تكلّمت ودادُ باسْمِها عن صديقتها المربيّة القديرةِ إنصاف سري ، وذلك في الحفلِ التّكريمي الذي أُقيمَ لها بمناسبة اعتزالها العملَ الحكوميّ.

* ويظهرُ من خلالِ حياةِ السَّيّدة وداد ، ومن خلالِ ما كانت تبثُّه من أحاسيس ، بأنَّ مدينةَ القاهرة الجميلة قد استهوتْها بحضاراتها العريقةِ المعرقةِ ، وبجبَلِها المقطّم ، وبنهرِ النّيل والنّخيل؛ بل إنّها اتّخذت ذلك عنواناً لكتابِها الذي صدرَ في القاهرةِ عام (١٩٤٦ م) بعنوان «بين النّيل والنّخيل» وهو عبارةٌ عن صُورٍ وأقاصيصَ مصرية بحثَتْ من خلالهِ عن موضوع الزَّار؛ وفي هذه الفترة أصدرت كتبَها: «أروىٰ بنت الخطوب ، وأمّهات المؤمنين ، وأخوات الشّهداء ، ومرايا النّاس».

* وكانت ودادُ قد تعرفَتْ على عددٍ من الأدباء الكبار من مصر ، وقد ذكرنا بعضهم ، كما تعرفتْ عدداً من كبار الأُدباء السّوريين من مثل: «الشّاعر عمر أبو ريشة ، ومحمد كُرد علي ، والدّكتور بديع حقي ، والدكتور عبد السّلام العُجيلي ، وحُسين كنعان ، وبشير زهدي» وغيرهم ، كما تعرّفت عدداً من الأديبات من مثل: ابنة الشّاطىء عائشة

عبد الرحمن ، وتماضر توفيق ، وسُهير القلماوي[١] ، وماري عجمي[٢] ،

(١) سُهير القلماوي ، أديبةٌ مصريّة قاصّةٌ ناقدةٌ ، وُلَدتْ في القاهرةِ عام (١٩١١ م) ، وتخرجتْ في الكُليّةِ الأمريكيّة للبنات عام (١٩٢٩ م) ، ثمَّ التحقتْ بكليةِ الآداب في جامعةِ القاهرة ، فكانت أوّلَ فتاةٍ تدخلُها بتشجيعٍ من لطفي السّيّد ، وطه حُسَين ، ونالَتْ ليسانس الآداب قسم اللغة العربيّة عام (١٩٣٣ م) ، ثمّ الماجستير عام (١٩٣٧ م) ، ثمّ الدكتوراه من جامعةِ الأزهر عام (١٩٤١ م).
ـ وعملَتْ سهير مدرّسةً للأدبِ العربيّ بجامعةِ القاهرة ، ورئيسةَ قسمِ اللغةِ العربية بجامعة القاهرةِ مِن عام (١٩٥٨ ـ ١٩٦٧ م) ، ثمّ رئيسة مجلس التّأليف والنّشر بوزارة الثّقافة من عام (١٩٦٧ ـ ١٩٧١ م) ـ حيث أُحيلت على المعاش. وهي مدّرسةٌ زائرةٌ بالجامعة الأمريكية، وسكرتيرةٌ عامّة لجميعِ الاتحاداتِ العربيةِ النّسائية ، ورئيسة اتّحاد النّساء بالجامعات في القاهرة ، وعضو مَجلس إدارة المجلس الأعلىٰ للفُنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، وهي عضو أيضاً في عدّة لجان ومؤسسات.
ـ أحرزتْ سُهير جائزة كُتّاب آسيا وإفريقية عام (١٩٥٥ م) ، وقد زارتْ جميعَ البُلدان العربية عدّة مرّات ، كما زارتْ أمريكا عدّة مرّات في زياراتٍ متبادلةٍ لعدّة جامعات ، وزارت أيضاً إنكلترا ، فرنسا ، إيطاليا ، ألمانيا ، الاتحاد السّوفياتي ، الدانمارك ، بلجيكا ، كوبا ، اليابان ، الصّين ، الهند ، الباكستان ، الفلبين ، غانا ، الحبشة ، ونيجيريا ، وعدّة دول إفريقية أخرىٰ.
ـ وكانت سُهير القلماوي من الرَّعيلِ الأوّلِ منَ الآنساتِ اللاتي دخلْنَ الجامعة عام (١٩٢٩ م) ، وقد آثرت سهير التخصص في اللغة العربية وآدابها ، لأنها قد استشعرت خاصة موهبتها الفنية الخلاقة إلى الصقل بدراسة الأدب ، وما ينبغي له من معارف تاريخية وفلسفية ولغوية.
ـ وقد تفتّحتْ مواهبُها الأدبيّةُ والمعرفيةُ وهي ما تزالُ شابّة في ميعةِ الصِّبا تطلبُ العلْمَ ، ولم تنقطعْ عن الإنتاجِ الخصب إلى آخر حياتها. ومن الجديرِ بالذكر أنَّ سُهير القلماوي متزوجة ولها ابنان.
ـ ولسُهير أكثر من عشرين مؤلّفاً منها: «أدب الخوارج ، وألف ليلة وليلة ، وفي النقد الأدبي ، وأحاديث جدتي ، وفن الأدب ، ومع الكتب ، والنقد الأدبي ، والعالم بين دفتي كتاب. . .» وغيرها. توفيت سهير القلماوي عام (١٩٩٨ م).

(٢) انظر ترجمتها في كتاب «نساء شهيرات» (ص ٩٣ ـ ١٠٢) لوداد سكاكيني وتماضر توفيق.

وروز غريب[١] ، وغيرهنّ ـ كما سنرىٰ ـ.

* وبالجملة ، فقد فتحتْ ودادُ قلبَها الصَّافي للأدبِ الصَّافي ، وللأدباءِ والأديباتِ من جميع البُلدان ، وكان معظمُهم يفخرُ بوداد ويفتخرُ بها ، وكلُّ أديبٍ ـ أو أديبة ـ يعدُّهَا من بلدتِه ومن أبناءِ جلدتِه .

* وقد شهدَ لوداد سكاكيني بهذهِ الميزة الطَّيبةِ عددٌ كبيرٌ من معارفها من مختلفِ البلادِ العربيّة ، وأكبروا حبَّها لهم ، ومن ذلك ما ذكرتْه الأديبةُ المصريةُ «أمينةُ السَّعيد»[٢] ، حيث نشرتْ في مجلّة «حوّاء» التي ترأسُها مقالةً تحدَّثَتْ من خلالها عنِ السَّيِّدةِ وداد سكاكيني الأديبةِ ذاتِ الشهرةِ اللطيفة ، والأصالةِ الكريمةِ في لبنانَ ، وسوريةَ ، ومصرَ والعراقِ ، فتقول : «حين يَرِدُ ذكْرُ وداد سكاكيني يعتبرُهَا كلُّ شعبٍ عربيّ واحدةً منه ؛

---

(١) انظر ترجمتها في كتاب : «مصادر الأدب النسائي في العالم العربي الحديث» (ص ٢٢٥ـ٢٢٦).

(٢) أمينةُ السَّعيد : أديبةٌ مصرّيةٌ معاصرةٌ وراويةٌ ومترجمةٌ ، ولدَتْ في مصر في مدينةِ القاهرةِ عام (١٩١٤ م) ، وتلقَّتْ علومَها في معاهدها ، تخرَّجَتْ في كليةِ الآدابِ في جامعةِ القاهرة عام (١٩٥٣ م) ، متخصّصة بالآدبِ الإنكليزي؛ ومن ثمّ اتّجهت إلى النَّشاط النّسائي. ورأسَتْ تحرير مجلّة «المصرية» النَّاطقة بلسانِ الاتّحاد النّسائي. وبعد توقف المجلة عملت كاتبةً في مجلّة «الهلالِ» ، ثمّ إنّها أصبحت رئيسة مجلسِ دار الهلال. ورأست تحرير مجلّة «حوّاء» النِّسائية منذ إنشائها حوالَي عام (١٩٥٤ م). انتخبت عضواً في مجلسِ نقابةِ الصَّحفيين ، ووكيلة لهذا المجلس.
ـ ولأمينة السَّعيد أكثر من عشر مؤلّفات منها : «آخر الطريق ـ رواية ـ وأمطار : ترجمة بتصرّف لمنتخبات من القَصَص القصيرة ، وأوراق الخريف : منتخبات بتصرف لمجموعة من القَصص القصيرة عن الإنكليزيّة ، والجامعة ، والشّارع الرئيسي ، ومشاهدات في الهند ، والهدف الكبير ، ووجوه في الظّلام ، ووحي العزلة» وغيرها. ولأمينة السَّعيد أنشطةٌ أخرىٰ في ميادين الصَّحافة والترجمة والأدب.

فاللبنانيون يعتزّون بمنْبَتِها ـ في بلدة صَيْدا ـ[1] والسُّوريّون يتمسّكُون بتوطّنِها وجنْسِيّتها ، والمصريّون يَروْنَ في إنتاجِها أصدقَ صورةٍ للعقليةِ الأدبيّة المصريّة. والحقيقةُ أنّهم جميعاً مُصيبون؛ ففي وداد نفحةٌ من لبنانَ ، وعمقٌ من سوريّة ، وحساسيةٌ من مصرَ ، وهي إذْ تكتبُ تحملكَ على أجنحةِ الأدبِ إلىٰ آفاقِ هذه المجموعة من الصِّفات الثَّمينةِ التي أكسبتها توسُّعاً فنيّاً ملموساً ، وطَعَّمَتْ إنتاجَها الفكريَّ بشتّىٰ عناصرِ الأدبِ العربيّ».

* وذكرتِ الأستاذةُ «سُليمىٰ العظْم» بأنَّ السَّيدةَ وداد سكاكيني كانت تهوىٰ السّياحةَ وركوبَ الأسفار ، فزارتْ مع زوجها عدداً من البلادِ الأوربيّة ، وألقتْ فيها كثيراً من المحاضراتِ عن المرأةِ العربيّة ، وعن إبداعِها في الوطنِ العربي الكبير من محيطهِ إلىٰ خليجهِ ، ومن البلادِ الأوربيّة التي زارتها السَّيّدةُ وداد مع زوجها زكي المحاسني: بريطانيا ، فرنسا ، هولندا ، النّمسا ، بلجيكا ، ويوغسلافيا[2].

* ولم تتوقفْ زيارةُ وداد سكاكيني على دولِ الغرب حيث أفادتْ واستفادتْ ، وإنّما زارت بلادَ المشرقِ العربيّ ، فقد زارت العراقَ ، واجتمعتْ في بغدادَ بالقاضية «صبيحة الشَّيخ داود» و«نازك الملائكة»[3]

---

(١) يقول الشّيخ عبد الغني النابلسي هذَين البيتَيْن الجميلَيْن في صَيْدا:

صَيْدا التي في الهوىٰ تزهُو مراكبها ... والبحـرُ أمـواجُـه زادت مـراكبهـا
وحيـن جئْنـا لهـا طـابَـتْ سـواكبهـا ... واستقبلتْنَـا وقـد هــزَّت منـاكبهـا

(موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان ٣/ ٥٨).

(٢) من مقال: «وداد سكاكيني. . . نجم هوىٰ» للأستاذة سُليمىٰ العظم؛ بشيءٍ من التّصرف اليسير.

(٣) نـازكُ صـادق المـلائكـة البغـداديّـة العـراقيـة شـاعـرةٌ ونـاقـدةٌ مـن نسـاءِ المشـرقِ المُعاصرات ، وُلدتْ سنة (١٩٢٣ م) ، وكان أبواها شاعران ، فأبوها صادقُ =

كما أنَّ السَّيدة وداد قد التقتِ الشَّاعرةَ العربيّة البغداديّةَ صاحبة «أنْفاسِ السَّحَر» و«لألاءِ القمر» الدّكتورة عاتكة الخَزْرجيّ[1].

= الملائكة شاعرٌ معروف، وأمّها سَلمىٰ «أمّ نزار» شاعرةٌ مجوّدة؛ وفي أحضانِ هذه الأسرةِ كانت نشأةُ نازك، فقد درستْ في مدارسِ بغداد الابتدائية حتّى المرحلة الثّانوية؛ إذ تخرّجت عام (١٩٣٩ م) في دار المعلمين العاليةِ في بغدادَ، ثمّ حصلَتْ على ليسانس اللغة العربيّة عام (١٩٤٤ م)، ثم تابعتْ دروساً خاصّة في جامعةِ برنستون عام (١٩٥٠ و١٩٥١)، وفي جامعة وسكونس لإعدادِ الماجستير في الأدبِ المقارن عام (١٩٥٤ ـ ١٩٥٦م).

ـ عملتْ نازك معلمةً، وأستاذةً للأدب العربيّ في جامعاتِ بغداد، والبصرة، والكُويت، وهي شاعرةٌ مجيدةٌ من شواعر العَصْر الحاضر. أقامت مدّةً في لندن والولاياتِ المتحدةِ (للدروس الجامعية) وزارت كُلًّا من فرنسا، وإيطاليا، وسورية، ومصر، والكويت، وهي متزوّجة ولها ابن.

ـ بدأتْ نظمَ الشّعر منذ طفولتها الأولىٰ، حيث نظمتِ الشّعر العامي ثم تدرجَتْ منه إلى الفصيح، وقد لاحظَ والداها ميولها الأدبيّة، وأدركا أنّها شاعرة بالفطرة، فشجّعاها ودرّساها اللغة والنّحو حتىٰ غدت شيئاً مذكوراً في عالَم الشّاعرات، وفي عالَم المعرفةِ إذا كانت تنشرُ قصائدها في الجرائدِ العراقيّة، ولها ديوانٌ معروف متداولٌ بين النّاس. كما أنّ لها دراسةً قيمةً عن الشاعر الغنائي الرّومانسي علي محمود طه. وكانت نازك في أوّل حياتها مادّية ملحدة كما قالت عن نفسها، ثمّ مالت إلى الصُّوفية، وانصرفت بعدها إلى ذكْرِ الله وتلاوةِ القرآن الكريم والصَّلاة، ونبتَتْ فيها روحُ الإيمان، وكثيراً ما تنحدرُ دموعها لفرطِ سعادتها بالإيمان، وبالله عزّ وجلّ. ولنازك أكثر من (١٣ مؤلّفاً) في الشّعر والنّثر والدّراسات الأدبية ومنها: «ديوان نازك الملائكة، وقضايا الشّعر المعاصر، والصّومعة والشّرفة الحمراء» وغيرها. وما تزال تتابعُ طريق الأدبِ والمعرفة.

(١) عاتكةُ بنتُ وهبي الخزرجيّ البغداديّة العراقيّة؛ وُلدتْ في مدينةِ بغدادَ حوالي سنة (١٩٢٤ م)، وهي صريحةُ النَّسب في جذورِ العربيةِ والعُروبة، فأبوها خزرجيّ، وأمّها عبيدية، وجدّها كان يقرضُ شيئاً من الشّعر الصّوفي، وأبوها يحفظُ شيئاً منه.

ـ ولما ولدتْ عاتكةُ أرّخ والدها ذلك، وأعقبَها بهذهِ الدّعوات لها فقال: «ستَرَها اللهُ تعالىٰ، وجعلَها خادمةً له، ولحبيبهِ ﷺ». بَيْدَ أنَّ أباهَا لم يمتّعْ بها، ووافته المنيةُ =

ودَادُ سَكَاكِينِي وَالتَأْلِيف:

* مِمّا لا ريبَ فيه أنَّ النِّساءَ المُسلمات في تاريخنا العربي الإسلاميّ

= ولها ستّة أشهر ، فأولَتْها أمّها كلَّ عنايةٍ ، واهتّمت بتعليمها ، ولاحظت أمُّها نبوغَها وهي ما تزالُ طفلةً في العاشرةُ من عمرِها ، فكان سرورُها عظيماً ، وخصوصاً عندما حصلَتْ على الثّانويةِ بتفوّق وامتياز ، كما اشتهرتْ عاتكةُ بالإنشاءِ الجيّد ، والإلقاءِ المتميز ، ثـم لحقـتْ بقسـمِ آداب اللّغـة العـربيـة ، وتخـرّجـت عـام (١٩٤٥ م) ، وبعدها عملتْ بالتّدريس.

ـ ثمَّ التحقتْ بجامعةِ القاهرة ، وظهر نبوغُها الشّعريّ وحبُّها لكتبِ التّراث العربي ، ومن ثمَّ سافرتْ إلى باريس وحصلَتْ علىٰ شهادةِ الدكتوراه ، وعملتْ بعدها في التَّدريس في جامعةِ بغداد ، وزارتْ عدداً من البلدانِ العربيّة ، حيث ظهرتْ وأظهرتْ ثقافتَها ونتاجَها الأدبيَّ الجميلَ. ونشرتْ بعضٍ دواوينها التي احتلّتْ مساحاتٍ واسعةً من قلوبِ الأُدباء ، ومنهم الشّاعر «عزيز أباظة» الذي قرّظَ ديوانها «أنفاسِ السَّحر» في (١١/ ٨/ ١٩٦٣ م) وقال في نهايةِ التّقريظ لعاتكة: «سيّدتي الشّاعرة العزيزة. . . إنّ الشَّاعريةَ مركوزةٌ في طبعكِ ، وإنّك لشاعرةٌ من فرعِكِ لقدمكِ؛ [ولَولاَ أَنْ يُقالَ صَبَا نُصَيْبٌ] لَقُلْتُ: مِنْ فرعِكِ الذي يتوَّجُ فيما يتوَّجُ بالشَّبابِ والجمالِ ، إلى قدمكِ التي تحملُ النّبوغَ والكَمال»!!!.

ـ ولعاتكةَ عدّةٌ مؤلّفات منها: «إسماعيل صَبْري الشّاعر الظّريف المحدث ، وديوان العبّاس بن الأحنف تحقيق؛ وأفوافُ الزَّهر ، وأنفاسُ السّحر ، ولألاءُ القمر». ولعاتكة مجموعةٌ شعرية كاملة تحتوي ستّة دواوين ومسرحيّة طُبعَتْ في الكويت عام (١٩٨٦ م) ، وجـاء فـي الإهـداءِ قـولُهـا: «إلـى السَّـابحيـن فـي ملكـوتِ الله. . . الخاشعين في محرابِ الحُسْنِ. . . المؤمنين بوحي الشّعر . . . إليهم. . إلى هؤلاءِ جميعاً. . . أهدي هذه النَّفحات». . وفي مقدّمة ديوانها الوطن من المجموعة الشّعرية الكاملة قالت:

أنـا بنـتُ كـلّ العُـرْب بنـتُ بُـداتِهـا أو حـاضِـريهـا
مَهْـدي الجـزيـرةُ إنّمـا قلبـي تـوزَّع سَـاكنيهـا

ـ وشعر عاتكة الخزرجيّ شعرٌ جميلٌ فيه النَّفحاتُ الدّينية ، وفيه الهمسَات اللطيفة ، وحوارٌ مع النَّفس ، وفيه مشاركاتٌ لكثيرٍ من الأحداث الوطنيّة ، وأحداث الوطنِ العربي ، ويمتازُ بالجزالة والسَّلاسة والجمال. توفيتْ عاتكةُ في تشرين الثَّاني عام (١٩٩٧ م) وعمرها (٧٣ سنة ميلادية).

الوضيء ، قد شاركْنَ الرِّجالَ العلماءَ في الحياةِ العِلْميّة ، وأثريْنَ المكتبةَ العربيّة والإسلاميَّة بنفائسِ الكتبِ النَّسويّة التي تنبىءُ عن فضلهنّ وحبّهنَ للعلْمِ والتَّصنيفِ في شتّىٰ ألوان المعرفةِ وصنوفِ الأدب.

* وقد عرفَ التّاريخُ ـ بعامة ـ كثيراً من النّساءِ ذواتِ الفضلِ والإحسانِ في كلّ ميدان ، فكان منهنّ أوانسُ كاتباتٌ وشاعراتٌ ، وقارئاتٌ ومحدّثاتٌ وفقيهاتٌ ، وكان منهن كذلك أديباتٌ ونحوياتٌ وخطّاطات ، وكان منهنّ من يَرُحْنَ إلى الحروبِ مع الغُزاة ؛ ولكنْ هل خلّدَ التَّاريخ من بينهن مؤلّفات ومصنفات؟! وهل يعرفُ أحدنا عدداً من النّساء قد خُضْنَ هذا المجال؟!

* من الطَّبيعي أنَّ عددَ المُؤلِّفات منَ النّساء قليلٌ جدّاً إذ قِيْسَ بالرِّجالِ الذين أَثْروا الشَّرقَ والغربَ بمؤلّفاتهم ، ولكنَّ هذا لا يعني أنْ نغضَّ من حقّ النّساءِ اللواتي ساهمن في هذا الميدان ، وحلقْنَ في سمائِه ، ومنهنّ السَّيِّدةُ وداد سكاكيني التي أثْرتِ المكتبةَ النّسويةَ بعددٍ من المؤلّفات ذاتِ المشاربِ المتنوّعة ، وذاتِ المسَارب المتعدّدة.

* وقبل أنْ نتعرّض إلى مؤلّفاتِ السَّيدة وداد سكاكيني ـ رحمها الله ـ أو لمؤلّفات غيرِها من النّساء عبر العصور أودُّ أنْ أشيرَ إلى بعضِ أسباب قلَّة التّأليف عند النّساء ، وعدمِ انسجامهنّ الكبير في أمْرِ التَّصنيف ؛ ويمكنُ أنْ نرجعَ ذلك إلى بضعةِ أمورٍ منها :

١ ـ قلّةُ تراجمِ النِّساء في كتبِ الأقدمين ، بل إنَّ كثيراً من كتبِ التَّاريخ أغْفَلَتْ ذِكْر النِّساء ، أو كانت شحيحةً في أخبارِ النّساء ؛ ولا تُوليها اهتماماً كبيراً ذا شَأن.

٢ ـ صعوبةُ تتبّع أخبارِ المرأةِ ، إذ كانتِ الحياةُ الاجتماعيّةُ لا تسمحُ بذلك كثيراً ، ولسيطرةِ أخبارِ الرِّجالِ علىٰ السَّاحةِ العلميّة في معظم العُصور ؛ حتّى في عَصْرِنا الحاضر.

٣ ـ عدمُ الإلمامِ الكافي بحياةِ المرأةِ العلميّة ، ومعظمُ ما وصلَ إلينا من أخبارٍ عنها كان بالمشَافَهةِ عن تلميذٍ ، أو ابنٍ أو زوج أو قريبٍ ، وما شابه ذلك ، فجاءتِ الأخبارُ مبتورةً ناقصةً ، لأنَّ حياةَ المرأة كانت مبنية على الصَّون والعفَاف والتَّستُّر ، ومن هنا كان الاستفسارُ عنها مضْطَرباً وغيرَ سَهْل ، بل إنَّ بعضَ النَّاس كان يشعرُ بالحرجِ إنْ تحدَّثَ عن المرأةِ في هذا المجال؛ اللهم إلا ما وردَ عن روايةِ المرأةِ للحديث النَّبوي وللعلْم في مشرقِ شَمْسِ الرِّسالةِ المحمديّة ، وصَدْر الإسلامِ وعصر التَّابعين[1] .

٤ ـ وهناك أمْرٌ مهمٌّ جدّاً ذكَره «محمد خير رمضان يوسُف» في مقالةٍ ممتازةٍ له بعنوان «المؤلِّفاتُ من النّساء ومؤلفاتهنَّ في التَّاريخ الإسلاميّ»[2] ، حيث ذكر بأنَّ من أسبابِ قلّة التّأليف عند المرأةِ ما مفاده: «عدم تفرّغ المرأةِ المتعلّمةِ الباحثةِ أو المرأة المحبّة للمعرفةِ والأدب ، وذلك بسببِ طبيعةِ تكوينها وعملها في شؤونِ البيت الكثيرة المتعدّدة ، بالإضافةِ إلى ذلك كلِّه أنَّ أيّامَ الحمْلِ تسيطرُ على معظمِ شؤونها ، ثمّ الولادة ، ومن ثمَّ العناية بالأولادِ ورعايتهم وتربيتهم ، والوقوف على ما يحتاجون من اهتمامٍ وعناية وتوجيه . . . . إلخ . ومن الواضحِ أنَّ التّأليفَ والتَّصنيفَ والكتابةَ وجَمْعَ المادّةِ العلميّةِ أمْرٌ مهمّ يحتاجُ إلى الهدوءِ ، وإلى صفاءٍ في الذّهْنِ ، وإلى تفرّغٍ نوعاً ما ، وهذا ما تفتقدهُ المرأةُ المشْرفَةُ على المنزلِ في أكثرِ الأحيان. وبالمقارنةِ بين عددِ المؤلّفين وعددِ المؤلّفاتِ في حياتِنا المعاصرةِ ، تتبيّنُ وجهةُ النَّظرِ الصَّائبة ـ إنْ شاء الله ـ ولا يعدمُ المرءُ

---

(١) للمزيد في هذا المجال الطّيب الرّحب المبارك اقرأ كتابنا: «نساء من عَصْر التّابعين» حيث تجدُ دورَ المرأةِ المسلمة العالمة في نشر العلم وتعلّمه وتعليمه.

(٢) انظر المقالة في مجلة عالم الكتب ـ المجلد ١٤ ـ العدد الخامس ـ سنة (١٩٩٣ م) (ص ٥٢٤ ـ ٥٤٠).

أنْ يلاحظَ هذا الفرقَ البارزَ بزيارةٍ إلى أيةِ مكتبة ، أو معرضٍ للكتاب ، ليرىٰ بنفسهِ عددَ الكتبِ التي تحملُ أسماءَ المؤلّفين ، وعددَ التي تحملُ أسماءَ المؤلّفات . . »[1].

٥ ـ وثمّة أمرٌ آخر لا يقلُّ أهميةً عن سابقه ، وهو الأمرُ الماديّ والماليّ؛ إذْ إنَّ المرأةَ قد لا تمتلكُ المالَ الكافي لتغطيةِ شراءِ المصادرِ والكتبِ ، والرَّجلُ أقْدَرُ على هذا منها ، لأنَّ العرفَ جرىٰ بأنَّ الرَّجُلَ هو الذي يملكُ المالَ في غالبِ الأحايين والأوقات؛ وإذا ما تيسَّرَ المالُ في أيدي النّساء فغالباً ما ينفقْنه في شراءِ أدواتِ الزّينةِ والحُليّ والحُلل ، وقلّما تجدُ مَنْ تبتاعُ كِتاباً ، إلاّ مَنْ شملتْها العنايةُ الإلهيّة في ذلك ، وسلكَتْ دربَ العلمِ وطريقَ المعرفةِ ، وكانت لها هوايةٌ جامحةٌ في محبّةِ الكتب والثّقافة .

* ومن الأمورِ المهمّة جدّاً في قلّة تأليف النّساء ، هو أنَّ المرأةَ بعامّةٍ ميالةٌ بطبعِها وطبيعتِها وما تُمْليهِ عليها أمورُ الحياةِ الاجتماعيّة النّسويةِ من حبٍّ للكلام وحبٍّ للسَّماع من غيرهنَّ ، ومنَ الملاحظِ في أيّامنا هذه أنَّ المرأةَ أو النّساء ينتَصِبْنَ كالمشْدُوهاتِ ساعاتٍ طوال أمامَ جهاز التّلفزيون يتابعْنَ المُسلْسَلاتِ والأفلامَ وما تعرضُه هذه الشَّاشة السَّاحرةُ الآسرةُ التي تشبُه الأفعىٰ في ملمسِها ، ولكنْ عند التّقلُّبِ في أنيابها العَطَبُ والدّمارُ والتّلاشي[2].

---

(١) انظر: مجلة عالم الكتب (مجلد ١٤/العدد ٥/ص ٥٢٥ و٥٢٦) بشيء من التصرف ، وشيء من إضافة بعض المعلومات. ويستحسن قراءة هذا بالمجلة المذكورة.

(٢) انظر ضرر التلفزيون وآثاره السّلبية على المرأة والطفل في كتابنا «الطفل في ضوء القرآن والسنة والأدب» (ص ٤٩٨ ـ ٥٢٣) ففي هذا الفصل فوائد مهمة جداً بإذن الله.

* ومن الملاحظِ أنَّ المرأةَ ميّالةٌ إلى السُّهولةِ ، أو إلىٰ الحصولِ على الأشياء دون أدنىٰ تَعبٍ ، والتّلفزيون يحقّقُ لها جزءاً من ذلك ، والمجالسُ النّسويّةُ المُفْعَمةُ بالثَّرثرةِ والغيبةِ للأُخْريات تحقّقُ شَطْراً آخر ، وربّما يساعدُ غِنَىٰ الزَّوج ويُسْرُ حالِهِ المرأةَ في التّمادي في اللهو وعدمِ الاهتمام بالعلمِ ، إلاّ في حالاتٍ نادرة ، حيث نجدُ أنَّ بعضَ النّساء يَمِلْنَ إلى الأدبِ وإلى الشّعر وبعضِ الفُنون الأدبية والتّاريخية التي لا تحتاجُ إلى كبير جهدٍ وعناء. . . وهذا ما يخصُّ غالباً نساءَ عصرِنا الحاضر ، بَيْدَ أنَّ نساءَنا قديماً كُنَّ أقلَّ بليّة ، وأقلَّ ميلاً إلى اللهو من مثيلاتهنّ فيما بعد ، ونجدُ كثيراتٍ منهنّ راويات أو شيخات لأعلياءِ العلماءِ ، يقولُ: «محمد خير رمضان يوسف» في مقالتهِ الآنفةِ الذّكْر: «ولو تجوّلَ القَارىءُ بين كتُبِ تراجمِ الرُّواةِ من المُحدِّثين ، لرأىٰ كَمّاً هائلاً من أسماءِ النِّساءِ يملأُ جوانبَ هذه الكُتب ، منهنّ شيخاتٌ علىٰ مستوىً عالٍ من العلْمِ والحفظِ ، وقد أَجَزْنَ شُيوخاً كِباراً ، أمثال: الإمام الذّهبيّ ، وابن حجر العسقلانيّ ، والحافظ السَّخاويّ ، وغيرهم كثير. ولو ضربْنَا مِثَالاً أقربَ لكان أوضح؛ ففي «أعلام النِّساء» لكَحَّالة ، الذي جمعَ فيه تراجمَ نساءٍ كثيراتٍ من العصورِ القديمةِ حتّى العَصْرِ الحاضر في خمسةِ مجلّدات: أكثر النِّساء منهنّ محدّثات ، والحديث مبناهُ على السَّماعِ والرِّواية ، ولا تُشْتَرَطُ فيه الكتابة»[1].

* وهناك أسبابٌ أخرىٰ لِقلّة تأليفِ النّساء ، وقلّة تصنيفهنّ للكتب يدركها القارىءُ الحصيفَ من خلال قراءته للمصَادرِ والمراجعِ المُتخصّصة بتراجمِ النّساء في كافةِ العصورِ القديمةِ والحديثة.

---

(١) انظر مجلة عالم الكتب (مجلد ١٤/ العدد ٥/ ص ٥٢٦).

* ونعودُ إلى السَّيِّدة وداد سكاكيني ، وإلى تراثها وما تركَتْه من مؤلّفات ، حيثُ أعطتني ابنتُها السَّيدةُ سماء المحاسني قائمةً بمؤلّفات أمّها ، كتَبَتْها سماءُ بخطّها ، وهي حسبُ صُدورها :

١ ـ الخطرات ـ مجموعة مقالات وخواطر ـ مطبعة الكمال ـ بيروت ١٩٣٢م .

٢ ـ مرايا النّاس ـ مجموعة قصص ـ لجنة النثر للجامعيين بالقاهرة ١٩٤٥م .

٣ ـ أمّهات المؤمنين وأخواتُ الشّهداء ـ دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٤٥م .

٤ ـ أروىٰ بنتُ الخطوب ـ رواية ـ دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٤٥م .

٥ ـ بين النّيل والنّخيل ـ صور وأقاصيص مصرية ـ دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٤٦م .

٦ ـ الحبُّ المحرّمُ ـ رواية ـ دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٤٧م .

٧ ـ إنصاف المرأة ـ مطبعة الثّبات دمشق ١٩٤٧م .

٨ ـ الستار المرفوع ـ نادي القصة بالقاهرة ١٩٥٥م (سلسلة الكتاب الذهبي) .

٩ ـ العاشقةُ المتصوفة ـ دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٥ م (سلسلة اقرأ) .

١٠ ـ سوادٌ في بياض ـ مطبعة الثّبات دمشق ١٩٥٩م .

١١ ـ نساء شهيرات في الشرق والغرب ـ بالاشتراك مع السيدة تماضر توفيق ـ مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر القاهرة ١٩٥٩م .

١٢ ـ نقاط على الحروف ـ دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٦٠م ـ نفد .

١٣ ـ نفوسٌ تتكلم ـ دار المعارف القاهرة ١٩٦٢م (سلسلة اقرأ).

١٤ ـ مي زيادة في حياتها وآثارها ـ القاهرة ١٩٧٠م (دراسة).

١٥ ـ قاسم أمين ـ دار المعارف ـ سلسلة نوابغ الفكر.

١٦ ـ عمر فاخوري ـ القاهرة ١٩٧٠م (سلسلة أعلام العرب).

١٧ ـ أقوىٰ من السنين ـ مجموعة قصص ـ اتحاد الكتاب العرب بدمشق ١٩٧٨م.

١٨ ـ شوكٌ في الحصيد ـ دار مجلة الثقافة دمشق ١٩٨١م.

١٩ ـ سابقات العصر وعياً وسعياً وفناً ـ الندوة الثقافية النسائية في دمشق ١٩٨٦م.

٢٠ ـ سُطور تتجاوب ـ منشورات اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ١٩٨٧م.

* وللسَّيدة وداد مؤلّفات أخرىٰ لا تزالُ مخطوطةً، وقد أطلعتني ابنتُها الأديبةُ السَّيدة سماء زكي المحاسني على مخطوطٍ جميل بعنوان: «نساءٌ مجاهداتٌ من تاريخنا»(١) وأعطتني صورةً عنه، كي أعلّقَ عليه وأدرسه

---

(١) هذا المخطوطُ الجميلُ يتألّفُ من عدّةِ أقسام أقربُ إلى المقالاتِ في بعضِها من مثل عنوانٍ اختارته السَّيّدةُ وداد باسم: «حاميات الحِمىٰ والدِّيار» وهو بضعُ ورقاتٍ تحدّثَتْ من خلالِها عن شجاعةِ بعض النِّساء في العَصْر الجاهليّ والإسلاميّ؛ كما وضعتِ السَّيّدة وداد قسماً آخر ترجمت فيه لبعضِ الصَّحابيات وهن: «أسماءُ بنتُ أبي بكر، ونسيبةُ بنتُ كعب، وأمُّ حرام بنت ملحان»؛ كما خصَّتْ خولةَ بنتَ الأزور ببضع ورقات تحدّثت من خلالها عن حياتِها.
ـ وخصَّت وَدادُ قسماً ثالثاً تحدّثت فيه عن الوافداتِ على سيِّدنا معاويةَ ووضعتْ لهذا القسم عنواناً هو: «سِياسيّات تَهيَّبهُنَ معاوية»!!!! ونقلَتْ ما جاءَ في المصادرِ عنهنَّ دونَ تمحيصٍ أو تدقيقٍ في صحّةِ الأخبار، وقد سردَتْ سيرة عشْر نساءٍ =

وأصحّحه ومن ثم يخرجُ إلى النّاس في حُلّة قشيبةٍ ، ومضمونٍ مفيد ، وهذا ما أقومُ به ، راجياً من اللهِ العون والسَّداد والتَّوفيق؛ إذ إنّ في إحياءِ مثل هذا العمل إحياءً لسيرةِ هذه المرأةِ الفاضلِة ، والتي أرادت أنْ تبرزَ صورةَ المرأةِ العربيّة المسلمة بشكلٍ وضيء في معظمِ ميادين حياتها .

* ويمكنُ لنا أنْ نقسمَ إنتاجَ وداد سكاكيني إلىٰ عدّةِ أقْسَام منها :

١ ـ القَصَصُ .

٢ ـ الرّواياتُ .

٣ ـ المقالاتُ والتّراجمُ والسِّير .

٤ ـ النَّقْد الأدبيّ والفنّي .

* وفي السُّطورِ التَّاليات نتعرفُ بعضاً من نواحي إبداعِ وداد في تلكم الأقْسام السَّابقة ، كي تتوضَّحَ صورتُها الأدبيّةُ والعلميّةُ أكثر؛ وكي نرىٰ موهبتهَا في شتّىٰ ألوانِ المعرفةِ النّسويّةِ المعاصرةِ ، مع حبِّها للقديم .

ودَادُ والـقَصَـصُ :

* القصَّةُ العربيَّةُ فنٌّ مستحدثٌ في الأدبِ العربيّ الحديثِ ، وقد استمدَّ شطراً من مقوّماته من بعضِ آدابِ الغربِ ، واستقىٰ بعضَ عناصره أيضاً من سالفِ أدبِ العرب .

* ولقد عرفَ العربُ قديماً عَملاً قَصصيّاً جميلاً هو كتابُ «كليلة ودمنة»

= منهنّ؛ كما تحدثت عن سكينةَ بنتِ الحُسين ، وغزالةَ الحرورية. هذا هو مضمون المخطوط ، وإذا ما طُبع على ما هو عليه فسيكون حوالي (١٠٠ صفحة) من القطَع المتوسّط .

ـ إلا أنّني ـ والحمد لله ـ استدركتُ كثيراً من التَّراجم ، وزدتُ في الكتابِ بحيثُ يخرجُ في ثوبٍ قشيب يناسبُ قَدْرَ الأدبِ والأدباءِ ومحبّي اللغةِ والتّراث .

الذي عرَّبَه وهذَّبه ابنُ المقفّع عن الفارسيّةِ القديمةِ ، كما أنَّ العربَ المعاصرين عرفُوا أعمالاً قصصيةً جمّةً ، ترجموها عن لغاتِ الغربِ المتعدّدة كالإنكليزيّة ، والفرنسيّة ، والرُّوسيّة ، والألمانية ، والإيطالية وغيرها.

* وبالإضافةِ إلى ما تقدَّم ، فقد استطرفَ الأدباءُ قصصَ «البُخلاء» لأبي عثمان الجاحظ ، وغيرها من الخُرافات وقصص الأمثالِ التي أثّرت وأَثْرتِ الأدبَ العربيَّ منذُ العصر الجاهليّ القديم.

* وكان للقصصِ الشَّعبي مساحةٌ واسعةٌ في قلوبِ النَّاس على مختلفِ العصور ، ومختلفِ الطَّبقات ، ومختلف البُلدان ، خذْ مثالاً على ذلك قصصِ «ألف ليلةٍ وليلة» التي سكنتِ القلوبَ ، وشاعَتْ بين النَّاس ، وتداولَها الأدباءُ والظَّرفاء والمثقّفون لما فيها من إثارةٍ ومفاجآت.

* ولم يتوقفْ شغفُ النَّاس على قصصِ ألف ليلة وليلة وحْدهَا ، وإنّما شُغِفُوا بهذا اللون السَّاحر المشوق من الأدبِ الشَّعبي من مثلِ سيرة: «عنترة بن شدّاد ، وسيف بن ذي يَزَن ، وحمزة البهلوان ، وفيروز شاه بن الملك ضَاراب ، والزّيناتي خليفة ، وذات الهمّة...».

* وكان في قصصِ الأنبياءِ والمُرسلين الذين وردَ ذكْرهم في القرآنِ الكريمِ ، إلىٰ جانبِ قصصِ العرب وأَخْبارِهم ومآثِرهم وسيرِ عظمائِهم ، وقصَصِ عشّاقهم ، وما زخْرفَهُ أصحابُ المقامات الأدبية خيرُ ما يرفدُ المشاعر والنّفوس بهذا النّمط الأدبيّ الشّائق الجميل منذ منتصفِ القرن التّاسع عشر.

* وتألّق عددٌ من كتّاب القصّة وكاتباتها في المشرق العربيّ ، وخصوصاً في سوريةَ ولبنان؛ وظهرت أعمالٌ أدبيةٌ قصصيةٌ رائعةٌ على أيدي الرّواد من الرّجال والنّساء.

* ومن النساءِ الرّائداتِ اللواتي حلقْنَ عالياً في سماءِ القصّة أديبتُنا السَّيِّدةُ وداد سكاكيني ـ رحمها الله ـ التي كان لها النّصيبُ الموفورُ في هذا البُسْتان الزَّاهرِ المُزهرِ الأنيق.

* وقد سجّلَتْ ودادُ سَبْقاً متميّزاً في ميدانِ القصّة، يقولُ مؤلّفا كتاب «الكاتبات السُّوريات»[1] عن قَصصِ السَّيدةِ وداد سكاكيني ما نصُّه: «قصصُها عَرفَتْ نُضْجاً فنيّاً قَلَّما نلمسُه عند غيرها من الرّواد السُّوريين الذين كتبوا القصّةَ الواقعيّة».

* وقال لي الأستاذُ راضي صدّوق[2] الأديبُ والشَّاعرُ المعروف ما مفاده: «إنَّ السَّيِّـدةَ وداد سكاكيني من أوّلِ الكاتبات القَاصَّات السُّوريّات اللواتي تنبَّهْنَ إلىٰ الواقعيةِ في كتاباتِها القَصصيّة، وهي تمثّل انطلاقةً أدبيةً فنيّةً متميزةً في نسَاءِ العَصْرِ الحديث، ونُضَجاً قَصَصيّاً متميّزاً شهِدَ لها بهِ الدّكتور محمّد مندور وغيرُهُ من أساطينِ القصَّة المعاصرين».

* ويذكرُ الدكتور عمر الدّقاق شيئاً من واقعيّةِ وداد سكاكيني القصصيّة فيقولُ في معرضِ حديثهِ عن فنّ القصّة: «وتدخلُ القصّةُ العربيّة في النّصفِ الثّاني من القرن العشرين، وفي أثرِ انقشاعِ غيوم الحرب العالميّة الثّانية، في طورِ الواقعيّةِ بعد أنْ ظَلّتْ حيناً ترتعُ في رحاب الرُّومانسيّة، وهذا الاتجاهُ الواقعيُّ سادَ سائر الفنونِ الأدبيةِ بوجْهٍ عام، ووضعَ مياسمه عليها. وقد تجلّتِ الواقعيةُ في قصصِ الكاتبةِ السّورية وداد سكاكيني من خلالِ

---

(١) الكاتبات السّوريات (١٨٩٣ ـ ١٩٨٧) (ص ١٠٧): تأليف: مروان المصري، ومحمد علي وعلاني، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ١٩٨٨ م.

(٢) استفدتُ كثيراً منَ الأستاذ الأديبِ الشَّاعر راضي صدّوق عند صياغتي لسيرةِ وداد سكاكيني، حيث قدَّم كثيراً منَ المعلوماتِ المهمّة عنها وكتب لي بخطه أشياء مفيدة.

مجموعتَيْها: (مرايا النّاس ، وبين النّيل والنَّخيل) ، فكلتاهما تستلهمُ البيئة المحليّة ، وما تنطوي عليه من ملامحِ الحياةِ الشَّرقية الصَّارمة ، وتقاليدها المستحكمة. وأكثرُ هذه القصص منصبٌّ علىٰ حياةِ المرأةِ القابعةِ داخل ذلك المجتمع المغلقِ الذي يتحكّمُ فيه الجَهَلةُ من الرّجال ، كقصّةِ (هاجر العانس وحظّها المكتوب ، والضّرتان ، والشّيخة عطيّة. . .) ، وهي تدورُ في الغالب حولَ العُقْم وتعدّد الزَّوجات ، وحول عيشِ الحريم في أجواءِ الدَّسِ والكيد»[1].

* وقد ظلتِ السَّيدةُ وداد تكتبُ القصَّة على مدىٰ ثلثِ قرن من عام (١٩٤٥م) إلى عام (١٩٧٨ م) ، حيث أصدرتْ خلال هذه السّنين السِّمَان بالأدبِ خمسَ مجموعاتٍ قصصيّة ، طُبعَ أربعٌ منها في مصْرَ ، وواحدةٌ في دمشقَ ، وهذه القَصص هي:

١ ـ مرايا النَّاس ـ مجموعةُ قصص ـ القاهرة ـ ١٩٤٥ م.

٢ ـ بين النَّيل والنّخيل ـ مجموعةُ قصص ـ القاهرة ـ ١٩٤٦م.

٣ ـ السِّتار المرفوع ـ مجموعة قصص ـ القاهرة ـ ١٩٥٥م.

٤ ـ نفوسٌ تتكلّم ـ مجموعة قصص ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٦٦٢ م ـ سلسلة اقرأ. (١٢٨ صفحة).

٥ ـ أقوىٰ من السّنين ـ مجموعة قصص ـ اتّحاد كُتّاب العرب بدمشق ـ ١٩٧٨ م.

* ويمتازُ أسلوبُ وداد في هذه القصص بالجمالِ وحُسْنِ التّركيب ، بالإضافةِ إلى روعةِ الحبْكَةِ التي تشدُّ القارىءَ شدّاً كيما يصلَ إلى نهايةِ

(١) مواكب الأدب العربي عبر العصور ، لعمر الدقاق (ص ٢٧٢ و٢٧٣) دار طلاس ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٨٨م.

القصّةِ ، وفي هذا دليلٌ واضح على موهبتِها القصصيّةِ الفذّة وقدرتها الفائقة على تحليلِ شخصيّاتها القصصيّة؛ ومن الجدير بالذّكر أنَّ أكثر هذه الشَّخصيّات مستمدّةٌ من الواقعِ الموشّحِ بالخيالِ الأدبي الأنيقِ اللطيف ، ونلحظُ هذا في مجموعتِها القصصيّة الأولىٰ «مرايا النَّاس» والتي تضمُّ (١٤ قصة) في حوالي (١٦٠ صفحة) ، وتؤكدُ السَّيدةُ وداد في هذه المجموعةِ على أنوثةِ المرأةِ ، وأمومتِها ، وتحبيذ الزَّواجِ الذي هو مبتغىٰ المرأةِ ، وأملُ حياتِها ، وحياةُ أملِها ، وهدفُها الأوّل والأخير ، ويظهرُ ذلك جليّاً في كلمةِ الإهداءِ التي وشَّتِ السَّيدةُ وداد من خلالها كتابها فقالت: «إلىٰ مرايا أمومتي ووحي صورتي ، وإلى فلذات كبدي ، أهدي قصصي ليقرؤوها كباراً كما قرأْتُهم صغاراً».

* ومن اللطيفِ في أخبار النّساء أنَّ هذه المجموعة القصصية اللطيفة قد حازتْ إعجابَ الجنْسِ اللطيف ، ومنهنّ الدكتورة عائشة عبد الرحمن ابنة الشَّاطىء ، وصرَّحَتْ بالثّناء الجزيل عليها ولكنْ قبل أنْ يحلَّ الحَسَدُ ضيفاً على بنتِ الشَّاطىء وتقعَ القطيعةُ بين هاتَيْن الأديبتَيْن حولَ كتاب «أمّهات المؤمنين» الذي ألَّفَتْه وداد سكاكيني ونشرتْه عام (١٩٤٧ م).

* وتتميَّـزُ قصصُ السَّيدةُ وداد سكاكيني بشكلٍ عام بالتّحليل الواضحِ والبارعِ لأعماقِ أبطالها ، خصوصاً إذا كانوا من النّساء ، وهذا غالب شخصيّاتِ وأبطالِ قصصها ، ومن هنا ندركُ أنَّ السَّيدةَ وداد شديدةُ الملاحظةِ ، وذات مقدرةٍ خاصّة على فَهْم نفسيّة المرأةِ ، فهي أمٌّ وزوجةٌ ومعلّمةٌ ومربيّةٌ وأديبةٌ وحصيفةٌ ، ولعلّنا من هذا الباب الجميلِ ندركُ لِمَ آثرتِ السّيدةُ وداد اختيارَ معظم أبطال قصصِها من العناصر النّسائية ذات الأصالة المتميّزة.

* ومن أجملِ ما في مجموعتها «مرايا النَّاس» قصّة (هَاجر العانس)

حيث تبلغُ السَّيدةُ وداد الذِّرْوةَ في تحليلِ عواطفِ المرأة؛ وتتلخّصُ قصّة هاجر هذه في أنّها الأخت الكبرىٰ الدّميمة لأختَيْن جميلتَيْن أصغر منها، وتتهافتُ الخاطباتُ عليهما، ومن ثم تتزوّجان، وتنعمانِ بدفءِ الحياةِ الزّوجية، والإنجاب، بينما تبقىٰ هاجرُ عانساً وقد فاتَها قطارُ الزّواج، وتجافى عنها الخاطبون، فامتهنَتِ التَّدريسَ تسليةً وعزاءً عمّا فاتَها من نعمةِ الزَّواج. وهنا تظهرُ براعةُ السَّيدةُ وداد حيث رسمتْ بالكلماتِ الموضوعيّةِ الصَّادقةِ أدقَّ مشاعرِ هاجر الإنسانية، وهواجِسَها النّفسية التي عاشَتْها، وعانت منها، ورسمتْ نظراتها السّاهمة وراء سرابِ الأمل، وخصوصاً كلما لمحت إحدىٰ أختيْها: (مليحة أو سعاد)، كما تحدثت عن أحاسيسِ هاجر التي تعتملُ في داخلها؛ ومن العجيب أنَّ القارىءَ لا يتوقّع نهايةَ قصّة هاجر، في حين أنَّ السَّيدة وداد قد اختارتِ النّهايةَ ببراعةٍ فائقة غيرِ متوقعة، حيث جعلتْ مديرةَ المدرسةِ التي تعملُ فيها هاجر تسمعُ هَمْساً ولَغَطاً من الصّفِ الذي تدرّسُه هاجر، وكأَنَّ الصَّفَّ دون معلّمة، وهنا تتسلّلُ المديرةُ في حَذَرٍ إلى الصَّف، فتجدُ هاجرَ ساهمةً ذاهلةً عمّنْ حولَها من الفتيات وعن الصَّفّ. ولما سألَتْها المديرةُ عن سِرِّ وجومها هَمْساً، أجابتْ هاجرُ في أسىً ومرارةٍ وحزنٍ: «انظري يا سيّدتي مآسي الدَّهْر... إنّني أفكّرُ في أمِّ هذه البنْتِ، فقد كانَتْ تلميذتي».

* وكذلك نلحظُ الأمرَ نفسه تقريباً في معظمِ قصصها، فالقارىءُ لا يستطيع أنْ يتصَّور الخاتمة التي تودّ وداد سكاكيني رسْمها. وقد أعْجبُ محمود تيمور[1] بأقصوصة هاجر العانس، وذكر ذلك في مقدّمةِ

(١) محمود أحمد تيمور المصريّ أديبٌ وكاتبٌ مَسْرحيّ وروائيّ، وُلدَ في القاهرةِ سنة (١٨٩٤ م)، وتعلَّمَ في المدرسةِ النَّاصريّةِ الابتدائيّةِ، فالإلهاميّة الثّانوية، ولم يكملْ دراسته العُليا لأسباب صحية. التحقَ بالوظيفةِ لفترةٍ بسيطة لا تتجاوزُ سنة =

المجموعة ، حيث أثنىٰ على السَّيّدة وداد بأنّها تجيدُ: «تحليل النَّفس وبخاصّةٍ في تحليلِ عواطف المرأة. . . وليس أدلّ على ذلك من أقصوصةِ هاجر العانس ، فقد تغلغلتِ الكاتبةُ بنظرتِها في أطواءِ النَّفسِ البشريّة ، وجلتْ في طريقٍ طبيعيّ ما يعتورها من تطوّرٍ غير مُفْتَعل. . . .

* هذا وقصص السَّيّدةُ وداد سكاكيني تمتزجُ بالواقعِ ، وتبرهنُ على علاقاتها الاجتماعيّة الصّحيحة ، وتدلُّ على دقّة ملاحظتِها ورهافةِ إحساسها ، فهي أديبةٌ ، وهي امرأة تدركُ مذاقَ الأدبِ ، فترسمه بأجملِ اللوحات».

* ولا نستطيع هنا أنْ نتعرّض إلى القيمةِ الفنيّةِ لأقاصيصِ وداد سكاكيني ، لأنَّ المقام لا يتّسعُ إلى ذلك ، ولوجودِ دراساتٍ وكتبٍ

= ونصف ، ثم تقاعدَ وتفرّغ للكتابةِ والمحاضرات ، وهو عضو مجمع اللغةِ العربيةِ ، والمجلس الأعلىٰ لرعايةِ الفُنون والآدابِ والعلومِ الاجتماعيّة ومقرّرُ لجنة القصّة به.
حازَ الجائزة الأولىٰ من مجمعِ اللغةِ العربيّة ، وجائزة الدّولة للأدب عام (١٩٥٠ م) وجائزة الدولة التّقديريةَ في الآداب سنة (١٩٦٢ م) ، ولم يتزوّجْ.
ـ وعن تكوينه كاتباً هناك أربعةُ عوامل عملتْ في تكوينهِ كاتباً ذكرَها بقلمه فقال: «عندما التفتُّ خلفي متكشّفاً ماضي حياتي ، أرىٰ أربعةَ عوامل أساسيّة قد عملَتْ في تكويني كاتباً:
الأوّل: والدي أحمد تيمور ، والثّاني: شقيقي محمد ، والثّالث: حوادثُ خاصة كان لها تأثير في تحويل مجرىٰ حياتي ، والرابع والأخير: مُطَالعاتي. . ». مات محمود تيمور سنة (١٩٧٣ م) ، وله أكثر من ثمانين عَملاً توزّعتْ بين القَصصِ والرّواياتِ والمسرحيّات والمقالات والدّراسات وأدب الرّحلة. ومن مشاهير أعماله: «الشّيخ جمعة وقصص أخرىٰ ، ونداء المجهول ، والوثبةُ الأولىٰ ، ودنيا جديدة ، ومسرحيّة: المزيفون ، والصّعلوك ، وعروس النّيل ، وفي المقالات والدراسات: المسرح المصريِ ، ونشوء القصّة وتطورها ، وفي أدب الرحلة: أبو الهول يطير وغير ذلك. . .». (أعلام الأدب العربي المعاصر ١/ ٤٠٠ ـ ٤٠٦) بتصرف.

ومقالاتٍ كثيرة عنها في هذا المجالِ ، وحسبنا أنّا أشْرنا إلى بعضِ أعمالِها في القصّة ، وإلى براعتِها في ذلك ، وكيف شَهِدَ لها بالتّفوّق أساطينُ هذا الفَنّ وأعلامُه في العَصْر الحاضر في الوطن العربيّ جميعه.

ودَادُ والـرِّوايَـات:

* كانتِ السَّيدةُ وداد سكاكيني قد غَمَستْ قلمَها في مدادِ الرِّوايةِ الأدبيةِ ، فأصدرتْ روايتَيْن اثنتَيْن ، وهما:

١ ـ أروىٰ بنت الخطوب ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ ١٩٤٥م.

٢ ـ الحبُّ المحرّم ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ ١٩٤٧م.

* ومن الواضحِ أنَّ هاتَيْن الرّوايتين كانتا من الواقعِ الذي عاشَتْه السّيدة وداد في الشَّام ، فرواية «أروىٰ بنت الخطوب» صورةٌ جميلةٌ للشّام في القديمِ الذي لم تتغير طبيعته ، وللمرأةِ العربيةِ في حفاظِها ووفائها ، وتجذبك السَّيدةُ وداد بأسلوبها السَّاحر لتكملَ قراءة روايتها على الرغمِ من أنَّها لا تتجاوز (١٣٠ صفحة).

* وأمّا رواية «الحبّ المحرم» فقد صوَّرتْ من خلالِها التطور الشّاميَّ من القديمِ إلى الحديثِ ، ومن ثم تَبيّن كيف اضطربتِ الفتاةُ في دراستها ، وراحتْ تتطلَّع إلى الحياةِ الزَّوجية إذ كان ذلك مُنَاها ومبتغاها ، وهذه الرّوايةُ أيضاً تشدُّ القارىءَ إلى النِّهاية علماً بأنَّ عدد صفحاتها لا يتجاوزُ مئتي صفحة.

ودَادُ وَالـمَقَـالاتُ وَالتّراجـمُ وَالسِّيَـر:

أوّلاً: الـمَقَـالاتُ:

* أكثرُ ما يميّزُ أدبَ السَّيِّدةِ وداد سكاكيني هو أدبُ المقالةِ ، فمعظمُ كتبها المتبقية تندرجُ تحتَ المقالاتِ ، والدّراسات ، ومنها كتابُها الأوّلَ:

«الخَطَرات» ، ثم تلاهُ «سوادٌ في بياض» ، وقبله «إنصافُ المرأةِ» ، وكذلك «نقاطٌ على الحروف» و«شوكٌ في الحصيد» و«سطورٌ تَتَجاوب».

* وكانتْ مقالاتُ وداد ذاتَ طابَعٍ خاصّ ، «فهي تتميّزُ بالجرأةِ والصَّرَاحةِ ، ورصانةِ العبارة ، وقوّةِ السَّبْك ، ومتانةِ الأسلوبِ ، وإشراقِ الألْفَاظ ، ودقّةِ الحبْكِ ، فلا نعثرُ في مقالاتِها على لفظٍ عامّيٍّ ، أو عبارةٍ ركيكةٍ ، بل تختارُ كلماتِها وألفاظَها بذوقِ الأديبِ البارعِ ، وتختارها اختيارَ الفنّانِ الأصيل ، كما لو أنّها غُرِسَتْ غَرساً ، وهُيِّئَتْ لهذا الموضعِ دون سواه»[1].

* نعم ، فالسَّيّدةُ وداد كاتبةٌ ذاتُ ذوقٍ أدبيّ متميّز ، ونسجٍ جميل ، يدلُّ على تمكّنِها من ناصيةِ الكلام ، حتىٰ إنّها تعدُّ من أعلامِ الكُتّاب في عصرِنا الحاضر ، بل إنّ أعلياءَ الكُتّابِ والشُّعراء في الوطنِ العربي قد أنزلُوها منزلاً صحيحاً ، وقدَّروا أدبَها ومنهم: أحمدُ حَسَن الزّيّات ، ومحمود تيمور ، ومحمّد كُرْد علي ، والأخطلُ الصغير ، وإبراهيم المنذر ، وعبّاسُ العقّاد وغيرُهم ممّن كان لهم باعٌ طويلٌ في الأدب.

* إنَّ مقالاتِ وداد التي توزَّعت في كتُبِها تشيرُ إلى فكْرِها الثَّاقب ، ووعيها الصَّحيح ، ومن ذلك مقالتُها الشَّهيرة «المرأةُ والتَّعليم العالي» ، حيثُ تحدَّثَتْ وداد عن ضرورةِ تعليمِ المرأة ، كما دعَتْ إلى الوعيِ والاستفادةِ من الشَّهادة لخدمةِ الأُمَّةِ ، لا للسُّمعة والقَالةِ والتّرفّع على مَنْ سواها من غيرِ المتعلّمات ، وأستطيعُ أنْ أبرهنَ علىٰ ذلك من خلالِ هذه المُقتطفَات ، والفقْراتِ الكاشفاتِ من مقالتها: «المرأة والتّعليم العالي» من كتابها الشّهير «إنصاف المرأة» إذ تتحدّثُ السّيدة وداد بما مفادُه بعد أن

---

(١) أدبيات عربيات (ص ٢٤١) باختصار يسير.

قدَّمَتْ لمقالتها بمقدمةٍ جميلةٍ عن حوارٍ سمعته من عددٍ من المثقّفين ذوي الجنسيّات حيث فيهم: السُّوري ، والمصري ، واللبناني ، والعراقي ، فتقول:

«دُعَي هؤلاء المفكرون ، للتّحاور في موضوعٍ معاصرٍ خطير يمسُّ الحياةَ العلميةَ والاجتماعيةَ في البلادِ العربية وهو «المرأة والتّعليم العالي» وقد أقبلتُ على السَّماع إقبالي على القراءةِ والاطلاعِ ، وهذا من أجلّ روائعِ الحضارةِ الراهنةِ ، فمَنْ لأجدادنا الأوائل حين كانوا يتفننَون في السّماع ، ويبتغون إليه الوسيلة؟ حتىٰ صار عندهم طريقةٌ في تلقّي العِلْم والمعرفة ، فكانوا يخفقون آباطَ الإبل ، فييمِّمونَ وجوهَ البيد ، سعياً وراء التلقي والسّماع ، من عالمٍ كبيرٍ أو شيخٍ خطير ، ويحرصون كلَّ الحرص حين يروون ويكتبون ما سمعوا ، على أن يذكروا مكان السّماع ، وكيفَ جرىٰ أمرهُ وخبرهُ ومَنْ كان معهم في حلقتِه ، حتى أدخلوا في الأدبِ مناهجَ السماع في الحديثِ ، فأطلقُوا على أفذاذِ هذا الفنِّ ألقاباً خاصّةً به ، كأنْ يقولوا: كان فلانٌ من أصحابِ السَّماعات العاليةِ ، أي إنّه كان يأخذُ الحديثَ من الصَّحابةِ والتّابعين ، وللأدبِ صحابتهُ وتابعوه ، سقىٰ اللهُ عهودَ تلك الحلقَاتِ العامرة والمجالسِ الزَّاهرة التي كان فيها هواةُ الشّعرِ والأدبِ ينصتون للمتحدّث أو النَّاقد مأخوذين بسحرِ البيان ، وفَصْل الخطاب.

* أولئك قومٌ كانوا يقدّرون قَدْر الكلام ، فلا يغادرون منه صغيرةً ولا كبيرةً ، إلا تثقفوا بها وتلقّوها بالوعي والتّمحيص ، وسلكتْ مسامعَهم على هون وهدىٰ ، لتستقرَّ حتى موتهم ، في قلوبهم الذّكية ، وخواطرهم الصَّافية.

* سأل السَّائل ما رأي السَّادةِ المتحاورين في تعليم المرأةِ تعليماً عالياً؟

وكان الأحرىٰ به أن يسألَ ما رأيهم في تعليم الفتاةِ العربيّة تعليماً عالياً ، لأنّي أجدُ كلمة الفتاة هي الحجر الكريم لهذا الخاتم الجميل! . . . . وتناقشَ جميعُ الحاضرين ، وانتهىٰ التّحاورُ والنّقاشُ دونَ أنْ يُجْمعَ أصحابُه على رأي واحدٍ ، أو توجيهٍ شامل ، ولم يحيروا الجوابَ الكافي حولَ الموضوع .

* ولو أنّ سيّدةً مثقفةً خبيرةً بهذا التعليم شاركتهم في الحديثِ ، لكان لها رأيٌ يخالفُ عن آرائهم أو يمضي معهم فترة ، ثم ينعطفُ إلىٰ وجهته التي ينسابُ فيها ، وقد يكون من الجَور أنْ يتناولَ الرجالُ وحدَهم ما يتعلّقَ بحياةِ المرأةِ وقضاياها ، فيدرسوها ويقطعوا بها أمراً أو يتركوها للزمن ، دون أن يسألوا المرأة أو يعبؤوا برأيها ، ولئن جازَ هذا في الماضي فتفرَّد الرَّجلُ بالرّأي والحكم ، كأنَّه الوصيُّ الأبدي على القاصر الذي لا يرشُد ، فقد تبدلتِ اليوم العقول ، وتحوّلتِ المفاهيم ، وأدرك أهلَ الفكْرِ والوعي أنْ لا قيام لأمةٍ بغير نسائِها ، وأرىٰ أنْ يتاحَ التّعليمُ في مراحلهِ الابتدائيةِ والثانويةِ للجنسين على السّواء ، وأن يكونَ للمرأةِ رأيٌ ويَدٌ في الإشرافِ على هذا التَّعليم ، وتحقيقُ أهدافه ومراميه ، أمّا العالي أو الجامعيّ فإنّه يقتضي وعياً كافياً وثقافةً متينةً في الفتىٰ والفتاة ، ولا يُعدُّ هذا التّعليم استتماماً للمرحلتين السّابقتين ، بل ينبغي أن يكونَ مقصوراً على الموهوبين والنّوابغ وذوي الاجتهادِ المكين ، والرغبة الأكيدة في الجنسين ، فليستِ الدراسةُ العاليةُ والشّهادات الرفيعةُ ، زينةً للفتىٰ أو حلّة للفتاة ، ولا وسيلةً للوظيفة ، وإنّما هي أفق بعيد لقطاف العلم والأدب ، وتحقيق الإنتاج الفكري والإبداع الفني ، وقد تكونُ المنالة المادية من مقاصدهِ وأهدافه ، لكنها ليستِ الغايةَ ولا النهايةَ ، وخيرٌ للفتاة ألف مرة أن تقنعَ بالتّعليم الابتدائي أو الثّانوي إذا كانا صحيحَيْن ، فإنّهما أفضل من تعليمٍ عالٍ أو جامعي يزيد في جهلها ويملؤها سخفاً وغروراً .

* ومن عجبٍ أن يعالجَ هؤلاء الأساتيذُ المتحاورون تعليمَ الفتاةِ العربيةِ تعليماً عالياً ، ولا ينظروا إلى تعليمها الرّاهن ، وهل هو قائمٌ على قواعدهِ المحكمةِ حتىٰ تمضيَ الفتاةُ بعده إلى المعاهدِ العُليا والجامعات ، فأشبهوا عندي بمعالجتهم هذا الكمَال أناساً بحثُوا في كساءِ الرأسِ لمن لا يزالُ عارياً أو حافياً.

* فإذا بُني تعليمُ الفتاةِ على دعائمه الرّاسخةِ ابتدائياً وثانوياً ، صحَّ بعد ذلك أن يرفعَ بناء التعليم عالياً ، وحينئذ لا مناص من فتحِ الأبوابِ لمن توافر لديها الاقتدارُ والموهبةُ والذّكاء ، وإلا فلا تزيدوا الفتاةَ زهواً وخيلاء فيما تصنعون لها من بهرجِ الألقاب التي ما أرىٰ إلا القليل من حامليها ، قد رفعوا شأنها وحفظوا حقّها.

* وقد تتفاوتُ الحاجةُ إلى التعليمِ العالي بتفاوتِ الاستعداد والبلاد ، فالتّدريسُ والطّبُّ والآدابُ والفنونُ تجدي على المرأةِ العربية المعاصرة ولا تعوقُها عن رسالتها ، بل تكونُ سبباً للتّجويد في عملها ، وامتدادِ الآفاق أمامها ، ولا ضيرَ علىٰ الفتاةِ الموهوبة بأن تكون مهندسة أو زراعية أو عالمة بالطبيعة والرياضيات.

* وقد دلتِ المرأةُ التي تعلَّمت تعليماً عالياً ، على أنها أكثر مِنْ سواها صلاحاً للحياة الزّوجيةِ والمنزلية ، وأن تعليمها هذا قد زادها تعلّقاً بالزّوج والولد ، وإلماماً بشؤونِ التَّربيةِ والبيت ، واستطاعت إلى ذلك أنْ تمارسَ عملاً تتقنه ، وتتكسبَ منه وتفيدَ المجتمع ، ولم يؤدّ تعليم المرأة عندنا إلى مضرّة أو مساءة ، بل فتحَ للمرأةِ آفاقاً جديدةً صرفتها عن اللهو الفارغ واللغو الثقيل ، ولو أنصفنا وقلنا كلمة الصّراحة ، لوجدنا أنَّ النساءَ جميعاً يؤثّرن في الرّجال مهما كابرَ الرّجالُ ، فإن كنّ متعلّمات كان منتوجُ هذا التأثير أقربَ إلى الخير والصَّواب ، وأبعدَ عن الشّر والضّرر.

* إنَّ هذا العصرَ يكشفُ ظلامةَ المرأةِ ، ويضعُ حداً لغلو الرّجالِ في تحرّجهم من ظهورِها ، ومهما وضعوا في طريقها منْ عثراتٍ فإنّها قادرةٌ على تذليلها ، ماضيةٌ في سبيلها ، وقد أتاحتْ لها الحاجةُ والثّقافة ، أنْ تقوم بأعمالٍ كانت وقفاً على الرّجال .

* وبعد فإنَّ غريزةَ الأمومةِ أسمىٰ ما تطمحُ إليه المرأةُ مهما كانت مكانتها ومواهبُها ، ولن يشغلَها عن البيت والزّوج ، وعن الولدِ والأسرةِ أي شاغل إذا كانت واعيةً مثقفةً ، سليمةَ الشّعور ، راجحة التّفكير والتّدبير»[1] .

* وفي مقالةٍ أخرىٰ بعنوان «أعداءُ المرأة» تظهرُ وداد سكاكيني ذاتَ قلَمٍ سَاحرٍ سَاخرٍ سخرية العالِم المتمكّن الذي عرفَ الحقائقَ وخبرهَا ، ومن ثمَّ أتىٰ بالدليل الدّامغ بأسلوبٍ قوي آسرٍ لمجامعِ القُلوب ، ولن أذهبَ ببهاءِ وجمالِ فكرة وأسلوب السّيدة وداد من خلالِ مقالتِها «أعداء المرأة» والتي ضمَّنَتْها كتابها «إنصاف المرأة» ، وسأقدّمُ للقارىءِ الكريمِ لقطاتٍ جميلةً ، كيما يدركَ عمق ثقافتِها الشّاملة ، فتقول :

* أمرٌ منَ الرّجلِ قد وقع ، وقضاءٌ قد حُمّ على رأسِ المرأة. وكأنّ الدّهرَ أبىٰ منذُ الأزل إلا أن يقطعَ أسبابَ المودّةِ والصّفاءِ بين الرّجالِ والنّساءِ ، فسخّر من غلاظِ القلبِ والجسم مَنْ كادَ لهن وتربَّصَ بهنَّ ، وزعمَ متلطفاً أنهنّ شرٌّ لا مفرّ منه ولا غناء عنه ، فأساءَ الرّجل إلى جنسهِ ، وإلى مَنْ خُلقَتْ من نفسه ، فكان كَمَنْ ضلَّ وأضلَّ ؛ إذ كيفَ جازَ في شرعةِ الحقِّ والرّجولةِ ، أنْ يخلقَ هذا الإنسانُ الجبّارُ عداوةً بين الجنسين ، أو في دنيا مخلوقين يكملُ كلّ منهما الآخر. ومذْ بدرَتْ من الطّبائعِ بوادر

---

(١) إنصاف المرأة ، بتصرف واختصار ، مطبعة الثبات ـ دمشق ـ ١٩٥٠ م .

الخصومة والتّهكم هبَّ نفرٌ من الرّجالِ وقد حسبوا أنّهم يحسنون صنعاً ، فتنادوا إلى مناوشةِ النّساء والغضّ من حسناتهنّ ، لِيقالَ إنّ العالمَ يشقىٰ بشرّهنّ ويعيا بأمرهنَّ؛ وأخذَ المتنادون والأشياعُ يهتفون في كلّ جريمةٍ وقعت أو خصومةٍ قامت: فتّشْ عنِ المرأةِ. . . ثم غدا النّاقمون مباهين بعداوةِ النّساء ، فروّعت بنات حوّاء ، وفزعنَ إلى أخواتهنّ مسائلات:

* من الشّاهرُ سيفَه ، الكاشرُ عن أنيابهِ ، النّاشرُ لمخالبه ، يريدُ بنا الأذىٰ وينوي لنا الرّدىٰ. . . ؟!

* مِنْ هؤلاءِ الخصومِ في بلادِ العرب «توفيق الحكيم»[1] الذي جدَّ في عداوتهِ للمرأةِ فطعَنَ فيها ، ورماها بكلِّ نقيصةٍ في كتُبِهِ ومقالاتِهِ ، ثمَّ ظهرَ بوادي النَّيل عدوٌّ جديدٌ ، على أنَّ أكثر هؤلاءِ الأعداءِ منَ المفكّرين والفلاسفةِ ، ما شاعَ ذكرُهُم ولا ذاعَ صيتُهم إلا حين تهجّمُوا علىٰ النِّساء بالمثَالبِ والتَّسفيهِ ، فإذا بمطاعِنهم تدورُ وتحورُ ، ويتردَّدُ صدَاها في كلِّ مكانٍ ، وينبسطُ مداها مع الزَّمان ، ويقبلُ على بضاعتَهم الشّامتون بالمرأةِ ، والغاضبون عليها ، فَيَشْتَرون من تلك البضاعةِ المُزْجَاة ، ويرتؤون آراءَهم القاتلةَ ، وإذا بها تَرِنُّ في المسَامِع ، وتطوفُ بالمجامعِ ، فيهتفُ التَّاريخ بأسماءِ: المعريّ ، والعقّاد ، وتوفيق الحكيم ، وغيرهم.

* ومن عجبٍ أنْ يجورَ هؤلاء الأعلامُ على النِّساء بما يخالفُ التّطوّرَ ، وينافي الواقعَ ، ليكتسبوا من هذه المناوأة والمكابرةِ شهرةً جديدةً ، وصِيْتاً بعيدةً ، وطالما جارَ الثّالبون على أنفسهم ، فتعسّفُوا وتكلّفوا ، وكان خطبُهم أعشىٰ ، أليسَ منّا أمّهاتُهم وأخواتُهم ، وخالاتُهم وعماتُهم ، ولمَ

---

(١) ولد توفيق الحكيم سنة (١٩٠٢ م) في الإسكندرية بمصر ، وتوفي في (٢٦/ ٧/ ١٩٨٧م) ، وهو كاتب مسرحي مشهور ، كان عدواً للمرأة ، لكنه تزوج في خريف حياته ، وأنجب ابناً فمات ابنه عام (١٩٧٨ م) ، وله ابنة.

لا أقول زوجاتِهم وبناتِهم؟ ثم أستغفرُ الله ممّا فرطَ منَ القولِ وزلّ بهِ اللسان ، فإنَّ كفيفَ المعرّةِ كَفّ نفسهُ عنِ المرأةِ ، ولعلَّ له عذراً ، فلو كان كحَّل عينيهِ بجمالِ الغيد ، ولم يكنْ دميماً لاجتاحَتْ قلبَه واحدةٌ من النّساء غيّرت معالم اللزوميات ، فلم يتهكّم علينا فيها بالتّائيات ، ولَما أدارها معنا وقيعةً سجالاً وحرباً عَواناً ، فإنَّ في كلّ بيتٍ منها سيفاً وسناناً. ولقد بنىٰ أبو العلاء صروحَ شعرِه على ذمّ المرأةِ وما دلَّ عليها ، وكان منها أو إليها ، فالدّنيا عنده أمّ دفر ، وهو أبداً ينحتُ أثلتها ويبري عودَها ، معتقداً أنَّ كلَّ خطبٍ فيها سببُهُ المرأة.

وإذا كان لهؤلاءِ الأعداءِ الغابرين معاذيرُهم في الغضبِ على النّساء وفي عهودٍ كُنّ مستضعفاتٍ ، فأيّ عذر للنّاقمين منهن في عصرنا؟ وكأن هذه النقمة من بعض المفكرين في أيامنا خصومة منهم أو دلالة عليهم ، فإذا ركدَ لهم صيتٌ أو فترَ مِنْ حولهم إعجابٌ أثاروا لأنفسهم رياحَ الشّهرة بمقالٍ يرسلونه ، أو رأي يقولونه ، في شأنِ المرأةِ ، فقذفوا بالباطلِ عليها ، ودعوا الرّجال إلى البطشِ بها ، وعدّوا الحقوق التي تطلبُها ضرباً من الأوهامِ والأباطيل. من هؤلاء الأعداءِ نابغةُ مصر توفيق الحكيم الذي يجهرُ بعدائهِ للنّساءِ في كلّ نهزةٍ وسانحة ، ويسخِّرُ قلمهُ للسّخر منهنّ ومنْ ثقافتهنّ ، وما كان هذا منه إلا ألعوبة أدبية يلوّحُ بها في وجوه النّاس ليزيدَهم لآثارهِ تقديراً ، وعليهِ إقبالاً ، ولعلّهم كانوا كذلك بادي الرّأي ، أمّا وقد عرفُوا أفانينَه ، فإنّ «توفيقاً» أصبحَ لدىٰ العارفين أديبَ تربّصٍ وانتهاز ، فمنذ عهدٍ قريبٍ دعا قومَه إلى تعدّدِ الزّوجات ، وحين نشرَ الدكتور «طه حسين» كتابَه «أحلام شهرزاد» ضاقتْ عينُ الحكيمِ عن تسريحِ النّظر في هذه الأحلام التي صوّر فيها الأديبُ العميدُ «شهرزاد» في رداءٍ من الحَصافةِ والذّكاء. ومن قبل نشرَ الأستاذُ توفيق الحكيم فُصولاً عرّىٰ فيها

المرأة من مواهبِ الفنّ فزعم أنّها لا تحسنُ إنشاءَ القصصِ التمّثيلية ولا تستطيعُ أنْ تكونَ موسيقيةً تبتكرُ الألحان ، وقد فاتَه من أدبنا القديم براعة المغنِّيات في عصر بني العبّاس ، وفي العصرِ الحاضرِ من أهلِ اللحون نساءٌ في المشارقِ والمغارب.

* ومن أعجبِ العجبِ أن تسكنَ عداوةُ الحكيمِ للنّساء أشهُراً لتكونَ وحياً جديداً للأستاذ «عبّاس محمود العقّاد» فقد نشرَ هذا الأديبُ العظيمُ مقالَين زعم فيهما أنّ المرأةَ لا تجيدُ من الفنونِ غير فنِّ الرّواية ، وكأنَّ هذا الفنّ في نظرهِ أهزولةً هينةً على كل كاتبٍ ، وقال: إنَّ المرأة ليست بشاعرةٍ مبتكرة بل هي مقصرةٌ ومكررة ، لأن الشّعر ابتِكارٌ واقتدار ، وأنّها لم تنبغْ حتىٰ فيما هو أقربُ إليها وأحرىٰ أن تتفوقَ به على الرجلِ وهو الرّثاء ، وإذا كانوا يضربون المثل بالخنساءِ فإنّه ليس في ديوانها غيرُ أبياتٍ متفرقاتٍ في البكاء لا ترتقي إلى منزلةِ الشّعر السيّار إذْ كلّه تكريرٌ لمعنىٰ واحد ، ولا يصحّ أن يقالَ إنه معنىٰ من معاني القريحة والخيال.

* ونحنُ نقولُ: إنَّ في عديدِ شاعراتِ العربِ قديماً وحديثاً ، وفي شاعراتِ العرب اللواتي روىٰ شعرهنّ أبو تمّام وأبو نُوَاس ، أو اللاتي ينشرنَ القريضَ بلغةِ الضّاد ، أو بِلُغَاتٍ أجنبية مما ينقضُ رأْيَ العقّاد ، وفي الأديباتِ المعاصراتِ مَنْ أحرزَتْ جائزةَ نوبل التي ما أحسبُ الأستاذ يزهدُ فيها.

* أليسَ فيما أشرتُ إليهِ حجّةً بالغةً عليه؟ ونحنُ لم نَنْسَ بَعْدُ مرثيته للآنسة «ميّ» ، فعداوةُ العقّاد إذاً كعداوةِ الحكيم ، وكلاهما أديبٌ أعزبُ ، وعن النِّساء بمعزِلٍ ، فالعقّاد يعيشُ مع خادمِه الأمين ، وما وقفتْ في مطبخهِ طاهيةٌ ولا جاريةٌ ، ولا امرأةٌ يدعوها بأمِّ أولادِه. والحكيمُ يعيشُ

متجافياً عنِ المرأة؛ وقد آثرَ مرّة إلْفَةَ حمارٍ كما قالَ عن نَفْسهِ في كتابه «حمار الحكيم».

* ويثورُ بالمرأةِ أديبٌ آخر يمزجُ مُزاحاً فيه حلاوة، وفيه مرارة، هو الأستاذ «إبراهيم المازني» الذي يتهكّمُ علىٰ المرأةِ ويستهزىءُ بها في كثيرٍ من قصصهِ ومقالاتِه، حتىٰ إنَّ زوجتَه وبناتِه لا يَسْلمْنَ من سخريتهِ وزرايتهِ.

* وهناكَ أدباءُ كانوا لا يؤثرونَ الجدّ كلّه، وإنّما يقصدون إلى تسليةِ القارىء بأحاديثَ يختلقونَها، أو ينفخون في حُجومها الصَّغيرة حتى تبدو متضخمةً بدينةً كالذي كتبَه الدكتور «زكي مبارك» عن المرأةِ حين قال: «كان أبوهُ يجرّبُ متانةَ حذائهِ الجديدِ برأسِ زوجته، وأنّ المرأةَ لا يليقُ بها إلا العنفُ والازدراءُ».. !!!!

* وأحسبُ هذه الضّروبَ منِ الأدبِ المستهزىءِ العابثِ بالنّساء أصبحَ لدىٰ معشر من أدباءِ العصر فكاهة الفنِّ وطرفة التّجديد، وما المرأةُ في هذا الزّمانِ إلا مستيقظةً من سبات، ناهضةً من خمولٍ وهوان، فعلامَ يحولُ أدباؤنا دون تحريرها ورقيها، ويباهون بالعداوةِ لها والزّراية عليها! وكان الأَوْلىٰ بهم أنْ يعالجوا مشاكلَها ويتفقدونها في مجتمعاتهم، ويجعلوا منها شريكاً في حياةٍ كاملةٍ طيبة، وما بالُ هؤلاء الأعداء ـ وما جادتِ الأيّامُ بأندادهم إلا على هاماتِ العصور ـ يسخّرون أقلامَهم للهدم والتّحطيم، وقد شرّفها اللهُ فأقسمَ بها، وما كان مدادها، إلا ليشرق من سوادهِ نورُ الحقِّ والخيرِ على بياضِ الأوراق.

* وإذا دعوتُم إلى تحقيرِ المرأةِ، والبطشِ بها، فإنَّ وراءَ دعوتكم تشفياً وانتقاماً، فقد يكونُ الدَّهْرُ ابتلاكم بأهواءِ الحسانِ، أو بلوتُمْ زيوفَ النِّساء، فتجافيتُم عن الخوالصِ الصِّحاح، وقد ثبتَ بالعيانِ والبُرهَان، وفي شواهد التَّاريخ الأدبيّ والسّياسي أنَّ عداوةَ المفكّرين للمرأةِ لم تكن

لوجهِ الحقّ؛ وينبغي لنا أنْ نحاسبَ أعداءَ المرأةِ الحسابَ العسيرَ ، لأنّهم قد أفسدُوا المجتمعَ بآرائِهم وأهوائِهم .

* وإذا بحثتم أيُّها المنصفون تاريخَ السَّرائر والنُّفوس ، فلن تجدوا منذُ حوّاءَ واحدةً قد نصَّبَتْ نفْسَها لعداوةِ الرَّجُل ، ولو بحثتُم عن أعداءِ النِّساءِ منذ آدم لوجدتم فيهم الكثير» . . . فخلُّوا عنكم أيّها الأعداءُ ، وحسبُكم تَسْفيهاً للمرأةِ وتجريحاً ، وعَلامَ هذه البغضاءُ والقطيعة؟ فما العمرُ مديداً حتىٰ يُحْتَملَ فيه الكدرُ والخصامُ ، ولا فيه صفاءٌ يدوم لإنسان»[1] .

* وهكذا رأينا أسلوبَ وداد سكاكيني السَّاحر ، ذلك الأسلوبُ الذي يجمعُ جمالَ الفكْرةِ إلى حسنِ التّناغم الجميلِ بالكلماتِ الجميلةِ الهادفةِ إلى الإصلاح؛ والهادفةِ أيضاً إلى إيقاظِ روحِ العَدْلِ عند أعداءِ المرأةِ الذين يختبئُ بعضُهم وراءَ جدارٍ وَاهٍ من العناد .

* وفي مقالتها «نهضة المرأة السُّورية» تَجدُ السَّيِّدة وداد سكاكيني تسعىٰ لتؤكّد النّهضةَ الحقيقية للمرأةِ ، وتؤكّد بأسلوبها الرَّائق كيف أخذَ الوعيُ يدبُّ إلى شعورها ، فبرزتْ عديداتٌ في مجالاتٍ عدّة ، وكلّهنّ من كرائمِ الواعيات ، فقد نهضتْ في العلمِ والأدبِ والطّبّ ، كما ساعدتِ الرّجُلَ في الحربِ ، وشدَّت من عزمِ الأبطالِ ، بالإضافةِ إلى أشياءَ أخرىٰ نقرؤها فيما اقتطفناها من مقالتِها المهمّة «نهضة المرأة السّورية» حيث تقول ما مفاده :

* «كانتِ المرأةَ السّوريةُ تشاركُ الرّجلَ في همومهِ ، وتتمرّسُ من وراءِ حجابها بالخطوبِ والآفاتِ ، وكان صوتُ واحدةٍ أو اثنتين من الأُنوفَاتِ الغِضَاب يضيعُ في غمراتِ الحربِ ، وأنّاتِ التّظلّمِ والإجحافِ ، وقد حجبَتْ صلصلةُ الوعيدِ والتّهديدِ جهودَ النّساء ، فلم تظهرْ في غيرِ النّجدةِ

---

(١) إنصاف المرأة .

والإسعافِ ، غير أنَّ الوعيَ الوطنيَ أخذَ يدبُّ في عالم المرأةِ ويتسرَّبُ إلى شعورها ، ويكشفُ عنها حجابَ الخمولِ والإهمال.

* ولما أظلَّ البلادَ السّوريةَ عهدٌ جديدٌ تنسَّمَ فيه أهلوها الحريةَ والاستقلالَ اتّسعَ نطاقُ التّعليم بجميع ألوانِه وفنونهِ ، واتّسعت بقعةُ الجامعةِ السُّورية ، فتنوّعتْ فيها الدّراسةُ العليا والجامعيّة ، إذ أُسستْ فيها كلّيتان جديدتان إحداهما : للآداب ؛ والثانية : للعلوم ، وإلى جانبهما معهدٌ عالٍ للمعلمين والمعلّمات ، وقد وجدتِ الفتاةُ السّوريةُ بغيتهَا في هذا المعهدِ وتينك الكلّيتين ، كما ازدادَ إقبالُ الفتياتِ على كليتي الطبّ والحقوق ، حتى جاوزَ في كلّ منهما المئة.

* أمّا نهضةُ الأدبِ النّسائي في سورية فكانت سبّاقة لنهضةِ التعليم ، وكانت مقصورة على أفراد قلائل ، وطالما كان أمثالُ هؤلاء في كلّ أمّةٍ يمتازون باستعدادٍ خاص ومواهبَ ذاتية. قبل أنْ يكونَ في الأمةِ تقديرٌ فرديٌّ أو جماعيٌّ ، وفي سورية كما في غيرِها من بلادِ العربِ سيّدات وفتياتٌ هنّ مثقفاتٌ ومتأدبات ولكن بغير لغتهن. ولقد ألمّتْ بعضُ السّوريّات بآدابٍ غربيةٍ إلى جانبِ ثقافتهنّ العربية فتتبعنَ الحركةَ الفكريةَ في العالَم وأقمنَ في ميزانِ الاعتدال ، متمسكاتٍ بالطّابعِ الأصيل والعروبة المثلىٰ كالآنسة وجيهة جزَّار وشقيقتها السّيدة ماجدة جزّار فصيح والسّيدة إنعام عظم داغستاني والطّبيبة منيرة عظم.

* وقد لمعتْ في فاتحةِ النهضةِ النّسوية كرائمُ الواعياتِ الرّاقياتِ من الأسرِ الرّفيعةِ ، وكانت زعيمةَ الحركةِ الأولىٰ السّيدةُ العظيمةُ نازك عابد ، فقد سَعتْ إلى الوعي النَّسوي الجديد وأنشأتْ مجلّتها «نور الفيحاء» في عهدِ «العروس» وأسستْ مع صواحِبها مدرسةً لبناتِ الشُّهداء.

* كلُّ هذا من نهضةِ المرأةِ التي تمضي على رسْلِها ، والشّعب السّوري

في غلابٍ ونضالٍ مع الأجنبي الغاصب يصطرعان ويتنازعان ، وكان عبءُ المناوأةِ والطغيان قد أرسىٰ على كواهلِ الرّجال ، وضاقَتْ به النّساء ، فهببنَ غاضباتٍ متأبيّاتٍ ، يشددن عزمَ الأبطالِ ، وقد فعلنَ أفاعيلهم في الثّورة السُّورية ، فكنّ أشبه بنساءِ الحربِ الطّروادية .

* وقد أسَّستْ جمعيّةُ خريجاتِ دورِ المعلّمات داراً لِكَفَالةِ بناتِ الشُّهداء ، شهداء العُدوان الفرنسيّ الأخير ، ترعاهُنّ فئةٌ مثقّفةٌ من المدرسات البارّات ، لا يتركْنَ سانحةً من السَّوانح في بذلِ المجهود للعنايةِ بهؤلاءِ اليتامىٰ ، وتوفيرِ المواساة والتّرفيه لهنّ ، وتقوم هذه الجمعيةُ النَّسويةُ من حينٍ لآخر بمحاضراتٍ علميّة وأدبيةٍ تدعو إليها طائفةٌ من المثقّفين والمثقّفات .

* وفي دمشقَ ، تنادتْ منذُ سنوات بعضُ المثقّفات والمعلّمات من ذواتِ الفكْر والتّقدمية ، إلى تأسيس ندوةٍ للمرأة ، وضعْنَ لها أهدافاً جديدةً ، لم تستهدفْها بقيّةُ الجمعيات النّسويّة ، فكانتِ الندوةُ بخُطَاها واتجاهِها مشبهةً عندي نادي سيّداتِ القاهرة بمصر ، ولا تزالُ هذه الجمعيّةُ الثَّقافيّةُ ساعيةً إلى إنشاءِ مكتبتِها ، وإقامةِ محاضراتِها ، واستقبالِ الزَّائراتِ العالياتِ اللاتي يفدْنَ من الشَّرقِ أو الغربِ إلى دمشقَ ، فَضْلاً عمّا تقومُ به النَّدوةُ من برٍّ بالموهوباتِ الفقيرات من الطَّالباتِ إذ تُعِدُّ لهنّ في كلّ عامٍ ما تيسّرَ من الكِساءِ وأدوات الدَّرس والتَّحصيل .

* وهيئةُ النَّدوة تضمُّ نخبةً ممتازةً من زَهْراتِ المجتمع السُّوري فيهن السَّيّدة إلفة عمر إدلبي ، وفلك دياب دسوقي ، وبلقيس ، وريمة كرد علي . . . وغيرهنّ من الفُضْليات ، ورئيسةُ الندوةِ الآنسةُ جيهان موصلي .

* ولا تقتصرُ هذه النَّهضةُ على دمشقَ فحسب ، ففي كلّ بلدٍ سوريّ يشعُّ الفكرُ النّسويُّ الجديد ، وتتنافسُ السّيداتُ والفتياتُ في خدمةِ الثّقافةِ

والإنسانية ، ففي حلبَ الشّهباءِ تمضي بصمتٍ وتواضعٍ جمعيةُ المشاريعِ الخيريةِ النّسائية إلى غايتها النّبيلةِ في خدمةِ المجتمع وإسعافِ المرضىٰ والمساكين والوالدات ، ومن ألمعِ العاملات في هذه الجمعيةِ وفي كلّ حركة فكرية ووطنية السّيدة أنيسة حميد باشا من ذوات المروءةِ والأدبِ في حلب .

* لقد شملَ التقدمُ حياةَ المرأةِ السُّورية ، في بيتها ومجالسها ، في زِيّها وحديثها ، ولم تبقَ قعيدة دارها لا تخرجُ منها إلاّ إلى قبرها ، فقد صارتْ تغتربُ في سبيلِ الثّقافةِ والمعرفةِ ، وتتمازجُ بغيرها من نساءِ الشّرقِ والغربِ ، فأفادت من الاغترابِ والتمازجِ إفادةً مشوبةً بالبهرجِ والتكلّفِ ، ولو شاءت لآثرتِ التقليدَ والتّجديد فيما يبقي عليها طابَعها الأصيل وشعارَ بلادها ، على أنَّ المحنةَ التي ألمت بفلسطين ألهبتْ شعورَ المرأةِ السّوريةِ متعلّمة وأميّةً ، فكانت غضبتُها للحقّ تعدلُ غضبةَ الرجلِ ، وسعيها إلى التطوّعِ والتّبرع لا يقلّ عمّا بذل الرّجلُ من المجهودِ في هذه المحنة ، ولعلَّ ذلك يعودُ إلى عروبتها وحماستِها ونهضتِها الحميدة ، فتمضي قُدُماً إلى أهدافها غير مترددة ولا منحرفة ، حتىٰ تدركَ المُثلَ العُليا في دهرِ العربِ الحديث»[(١)] .

* ولعلّنا نلحظُ السَّيدةَ وداد تبلغُ ذِروةَ الفَنّ الأدبي المقالي في مقالتِها : «إنصاف المرأة» التي أودعتْ فيها كثيراً من المعارفِ والعُلومِ التي تدلُّ دلالةً واضحةً على أنّها أديبةٌ من الطِّرازِ الأوّلِ في نساءِ المشرقِ العربي ، كما تدلّ على تعمّقِها ودقّةِ ملاحظتها وفهمِها لكثيرٍ من قضايا الشَّريعة الإسلامية ، وقضايا الأدب المعاصر في المشرقِ والمغربِ ، وسأتركُ القارىءَ الكريمَ

---

(١) انظر : إنصاف المرأة (ص ١٣٢ ـ ١٤١) باختصار وتصرف يسير .

مع هذه المقاطعِ والفقْراتِ الجميلةِ للسَّيدة وداد من مقالتها «إنصاف المرأة» ليدركَ بعينِ بصيرته ما ذهبنا إليه من الحكم على أدبها؛ تقول وداد بعد مقدّمة عن معنىٰ الإنصاف في كُتب الأقدمين:

* لا جرم أنَّ القضية النَّسويةَ متوغلةٌ في الدهرِ متشابكة شائكة، أعضلت آدم، واختلفتِ الآراءُ والأهواءُ فيمن كان سببَ المعضلةِ الكبرىٰ، فتحيز ناسٌ إلى آدم وعنفوا حواء واتّهموها بالإغراء والإغواء، وقد فاتهم أنَّ القرآن ذكرآدمَ وحده بالغواية والعصيانِ، ولم يفردْ حواءَ بوسوسةِ الشيطان.

* من ذلكَ الحين ضاقتِ المرأةُ باتهامِ الرجل وأوهامه، فراحت تتظلمُ وتبحثُ عن منصف لقضيتها، وقد عاشت خلالَ العصورِ وفي كلّ الأمم والشعوبِ تسعىٰ إلى غايتها لا تريمُ عنها، وكانت تطلّ فترة بعد فترة، من كوىٰ بيتها أو من منافذِ خدرها متبسمةً، متأملةً مشرفةً على عالمٍ لا بدّ أن يأتي، ولم يكنْ يعوقها عن أنْ تحلُمَ طويلاً في إقبالِ هذه العالم، فهي في منزلِها بين أمومتِها ومطبخها، وبين ثقافتِها وزينتها كانت ولا تزال تَوّاقة إلى عالمِها المنشود، ترتقبُ اليوم الذي يسودُه الإنصافُ، وتعمّ الناسَ جميعاً حقوقُ الحياةِ وكرامةُ الإنسان.

* وقد مرّتِ المرأة بعُصور كانت تبدو فيها أو تحتجبُ، حسبما كانت تقتضي الأوضاعُ القوميةُ والنظُمُ الاجتماعية، فتقاذفتها أمواجُ التغيرِ والتطور التي كانت بين مدٍّ وجزرٍ في خلال تلك العصور حتى استهدفت حياةُ المرأةِ وخطواتها لأحداثٍ وصدماتٍ، جعلتها تتخلّفُ حيناً وتقفُ أحياناً، فإذا تزحزحت الأثقالُ والأغلال، ولاحتْ لها بشائرُ الحرية والخلاص، أخذتْ ترفعُ صوتَها وحجتها، لتشعرَ الرجل بأنّها إنسانٌ، لا تمثالٌ أو متاعٌ.

* وأتيحَ للرجل في خطراتِ الأدبِ الغابر والمعاصر أنْ يصورَ حياةَ المرأةِ ويعبّرَ عن مشاعرها وخواطرها كما تخيل تلك الحياةِ وتمثل تلك المَشاعر والخواطر ، لا كما كانت أو كما هي ، إذ لم يعرفِ المرأةَ على حقيقتِها فقد عرفَها غير أمّه وزوجتهِ ، وغير ابنته وأخته ، وتناول قضيّتها وفيها دعواها وشكواها ، وكان في كلٍّ شأن لها هو الخصمُ وهو الحكم.

* أمّا الرّجالُ الذين صوروا عالمَ النساءِ وعبّروا عن مظاهرهِ وخفاياه ، وخاضُوا في شؤونهِ وشجونهِ وهماً وزعماً ، فكان معظمُهم من المفكّرين والشّعراء في الشّرق والغرب ، غلبَ عليهم الطبعُ الموروثُ والرأيُ الذي لم يتغيْر على الرغمِ من تغيّر الحضارةِ وتطور الثّقافة وتبدلِ الآفاق ، فضيقوا الأبوابَ على المرأةِ بأشتاتِ المطامع والأحابيل ، لكي تبقىٰ حبيسةَ الدارِ ، وطاهيةَ المطبخ ومربيةَ الطّفلِ ، أو لتكونَ زهرةً نديةً عطرةً يتمتعون منها بشمٍّ وضمٍّ ونَظرٍ ، فكانت كتبهُم وآثارهم تدورُ حولَ هذه الآراء والأهواء ، ولم تخرجِ المرأةُ في شِعْرهم وأدبِهم ، وفي فلسفتِهم ومنازعهم من نطاقِ مخلوقةٍ وُجدت على الأرضِ لِتتم سعادتهم وتقومَ بخدمتهم.

* وجاء عصرُ المرأة ، أو هذا العصر الذي طغَتْ فيه حدودٌ وفكّت قيود ، وعاد الأدبُ في نهضةِ المرأةِ التي جدّت ووجَدَتْ من يتطرّفُ علىٰ حساب النّساءِ ، فيستهزىء بحركتهنّ الجديدة ، ويزدري أهدافهنّ ، ويحملهنّ غرامةَ الشّهرة المصطنعةِ ، وكم أدّتِ المرأةُ العربيةُ من خلالِ العصور أمثال هذه الغرامةِ وذلك الحساب ، وإذا بنابغةِ مصر توفيق الحكيم يمضي عارضاً نساءَ العَصْرِ في صورِ المتطاولات على الرّجال ، ومنتهياً من تمثيليته إلى جعل المرأةِ ـ كَدأْبه ـ موضع السُّخريةِ والزّرايةِ ، ولا يدعُ عدوُّ المرأةِ سانحةً من السَّوانح دون أنْ يندّدَ في صددِ النَّهضة النّسوية ، وراحَ

يطمسُ روحَ المرأةِ مدفوعاً بما يسمونَه مركّبَ النّقص ، إلى آخرِ هذه التّهاويل التي سَئِم النَّاسُ تردادَها.

* وراح كاتبُ الشَّرقِ الأستاذُ العقّاد ينصرُ في ذلك الحين كتابَه: «هذه الشّجرة» مشْفِقاً من توريطِ المرأةِ فيما لمْ تُخْلَقْ له ولم يخْلَقْ لها ، فهيَ لا تصلُحُ عنده لشيءٍ ، وليس فيها منَ المزايا والسَّجايا ما ترقى به إلى سويةِ الرَّجُل ، فيجدُ مطاليبَ المرأةِ الحديثةِ سابقةً لأوانها ، فهي نزوةٌ من نزواتِ العَصْر ، وطرازُ حديث الفكرِ النّسائي يشبهُ ما تتعلّقُ به المرأةُ من تجديدِ الأشياء.

* ورأَتِ المرأةُ أنَّ الأدبَ لا يخْلُصُ لها ولا ينصفُها ، لأنَّ موضوعَه الفنُّ والجمالُ ، وهي موضوعُه أيضاً ، ولا نُصْرة لها كما تشاءُ عنده ، لأنَّ مالكَ العَبْدِ يؤثرُ ألا يعتقَهُ ولا يطْلِقَه ، فارتدَّتْ إلى المجتمعِ الذي أخذَ يتحرّرُ ويتخلصُ من قيودِه تنشدُ فيه النَّصير المنصف ، فوجدت أنَّ رجالَ التَّشريعِ والإصلاحِ لا يتحرّجُون من إنصافِها علىٰ ضوءِ الشَّرع والعَقْل والمصلحَةِ العامّة في حدودِ الحاجة والضَّرورةِ الاجتماعيةِ.

* وقد بادرَ بعضُهم وقدَّم الحجَّةَ والبرهانَ على أنَّ للمرأةِ المتعلمةِ والمثقفةِ حقَ البحث والنّظر في أمورٍ تمسّها وتهمها ، كتعدّدِ الزّوجات وحضانةِ الأطفالِ والطّلاقِ ، واختيار الزّوج والتعليم النّسائي ، ونحو ذلك ، ورأىٰ أحدُهم بأنْ تأخذَ المرأة حقّ الانتخاب إذا كانت متعلّمة ، فكيف تُحرمُ هذا الحق الصّحافيةُ والأديبةُ ، والحقوقيةُ والطبيبة ، والنّابغةُ الموهوبة ، والأستاذةُ في التربيةِ والتّعليمِ ، وأمثالهنّ من ذواتِ الفكْر والرأي.

* والنّساءُ نصفُ الأمَة ، أفلا يحقّ للمثقفةِ اختيارَ مَنْ تراهُ أهلاً لهذا

التّمثيل ، إنْ لم يُتَحْ لها مهما كانت ممتازة متفوقة أن تنوبَ عن شعبِها وبلادِها كنيابة الرّجال.

* ولا يحسبنّ الرجلُ أنّ أخْذَ المرأةِ حقّ الانتخاب هو كلّ ما تنشدُه من الإنصافِ ، فإنَّ هنالكَ حقوقاً ألصقُ بالنّساءِ وأجدىٰ على البيتِ والمجتمعِ من الحقوقِ السياسيةِ كحقّ الحياةِ الكريمةِ والقسمةِ العادلةِ وتنسم الحرية المقدسة وغيرها من الأمور التي طمسَ الرجلُ حقّ المرأةِ فيها ، غير أنَّ المجتمعَ الذي دبَّ فيه الوعيُ ، والزمن الذي يشبهُ السَّيلَ فيجتاحُ الحدودَ والسّدود هما الكافلان إنصاف المرأة.

* إنَّ أشّعة الأملِ بزغَتْ في هذا العصر من أفقِ المرأةِ ، فعمّتْ أنوارُها الأولىٰ جانبَ الدنيا ، ومن هذه الأشعة السّاطعة مطالع الزُهر من نسوةٍ معاصراتٍ ، تقسمتهن أقطارُ العرب كما تقسمت الرّوضاتُ أزاهيرَهَا الفواحةَ ، فطلعتْ نسوةٌ ممتازاتٌ فِكراً وثقافةً ، وعبقريةً وشخصيةً ، وجهاداً وإخلاصاً ، هنّ الرّعيلُ الفاتحُ للنهضةِ النّسوية المعاصرة ، ففي مصرَ غير الفقيدات الخالدات ، كثيراتٌ عديداتٌ ، تتعطّرُ الشّفاه عند ذكرهنّ كالسّيدات : إنصاف سرّي ، وأسماء فهمي ، وسهير قلماوي ، وعائشة إقبال راشد ، وسيزا نبراوي ، وفي سورية ، ولبنان ، وفلسطين ، والعراق ، طليعةٌ من أصيلاتِ الرّأي والفضل والنبوغِ كالسّيدات : عنبرة سلام الخالدي ، وسلمىٰ صايغ ، وابتهاج قدورة ، وأمينة السعيد ، ونازك عابد ، وغيرهنّ ، وسواهنّ من طلائعِ النهضةِ وبشائرها في كلّ بلد عربي يتطلعُ إلى حياة حرّةٍ عادلةٍ.

* وما أتيتُ بهذه الأسماء إلا مكاثرةً ومفاخرةً ، وليس لأحدٍ أن يقولَ هؤلاء قلّة ، وسوادُ النّساء ليس كمثلهنّ ، فأجيبُ ومتىٰ كان سوادُ الرّجال أفضل ، فإنّ الأفذاذ قليلٌ في الجنسَيْن ، ولعلّ الرّجال سيثوبون إلى العدل

والتبصّرِ ، فلا يتحرجوا من إنصافِ المرأة والاعترافِ بحقها ، حين يجدون هذه الطليعة التي تزيدُها الأيامُ عدداً ومدداً ، فسيسيرون في العنادِ وينقلبون من أعداء إلى أصدقاء ، وسيكونون معنا في الرّأي ، بأنّه ليس منّا بعضُ نسوة هنّ حربٌ علينا وعلى الرّجال معاً فيما يصطنعن من عداوة لجنسهن حين ينحرفْنَ عن الحقيقةِ ويخالفن عن مقتضياتِ العصر ، فيلححن بأن تقتصرَ المرأةُ على خدمةِ البيت وهن أبعد النّساء عن البيوتِ ، وأولئك المتطرفات فإنهنّ ألدُّ الخصام للجنسين إذ كنّ بالتبذّلِ والاستهتارِ والشذوذِ من أسبابِ عداوة الرّجال للنّساء.

* على أنَّ الصحيحَ في الدعوةِ التي تمكثُ في الأرضِ ويذهبُ كلّ شيءٍ جفاءً دونها هي أنْ تمضيَ المرأةُ إلى طبيعتها وعلى سجيتها متزودةً بالعلمِ والأخلاقِ ، وقد عرفتْ نفسها وقدّرتِ التّبعاتِ ، حتى تستطيعَ وحدها أَنْ تحلّ قضيتها بيدها ، حسب حاجتها وطاقتها ، وحينئذ تكون مثل جيش فاتح ، تتداعىٰ أمامه الحصون ، وتعنو له الخصوم ، فتتحقّقُ لها الآمالُ ويطلعُ عليها صباحها الكبير»[1].

* وهكذا قرأنا نماذجَ من نَثْرِ السَّيِّدة وداد سكاكيني ، ورأينا كيفَ أنَّها كانَتْ تتأنَّقُ في إنشاءِ عباراتِها واختيارِ ألفاظِها ، ليخرجَ كلامُها مشْرِقاً رائقاً منيراً ، لطيفَ الوقْع في النَّفس حلْوَ النّبرة في الأذن.

* ومن المعروفِ أنَّ هذا النَّثرَ أقربُ الأنواعِ إلى الشّعر ، ولهذا نجدُ فيه بعضَ البديع ، وقد رأينا ذلك يأتي عادياً في مقالاتِ وداد دون تكلُّف منها ، فلا تسوقُ الجملةَ لمجرّدِ اصطيادِه ، بل كان يأتي عفويّاً وجميلاً.

* وهذا كلُّه يحتاجُ إلى معرفةٍ بأسرارِ اللّغةِ العربيّةِ ، ومعرفةِ كثيرٍ من

---

(١) إنصاف المرأة.

مفرداتها ، وخبرةٍ بالكلامِ الجيّد ، أو حفظِ كثيرٍ منَ المنثورِ والمنظوم ، ناهيك بالحسِّ المرهَفِ ، والذّوقِ الرّقيق ، والفطنةِ إلى مواطنِ الجمال ، وهذا كلّه قد توفّر في السَّيِّدة وداد سكاكيني رحمها الله .

ثانياً: التَّراجمُ وَالسِّيَرُ:

* إذا كانتِ السَّيدةُ ودادُ سكاكيني قد بلغَتْ شأواً بعيداً في المقالةِ ، فإنّها قد حلّقَتْ عالياً عالياً في فنِّ التَّراجمِ والسِّيرةِ ، وذلك في أكثرَ من عَملٍ لها ، وكانت سبّاقة لكثيراتٍ في هذا المضمار الخيِّرِ المفيد .

* فقد أصدرتِ السَّيدةُ ودادُ عام (١٩٤٥ م) كتابَها الجميل : «أمّهات المؤمنين وأخوات الشُّهداء» ، ثمَّ بعد فترة أصبح اسم الكتاب بعد أنْ زادت فيه : «أمّهات المؤمنين وبنات الرّسول ﷺ» .

* وقد لقيَ هذا الكتابُ الجميلُ مكاناً رحْباً في نفوسِ النَّاس ، ومساحةً واسعةً في المكتبةِ العربيةِ الإسلامية ، وقرّظَتْه كثيرٌ منَ الصُّحف والمجلاّت ، ومنها : «مجلّة المرأة»[1] وغيرها .

* وكانتِ السَّيدةُ وداد ترمي من وراءِ تأليف هذا الكتاب ، إلى إلقاءِ الضُّوء على المرأةِ المُسلمة في أبهىٰ العُصُور ، وقد عبَّرت بمدادِ قلمها وروحِ وجدانِها عن ذلك فقالت في مقدمةِ الطّبعة الأولىٰ لكتابها «أمّهات المؤمنين وأخوات الشُّهداء» ما نصُّه : «تَطَلَّعْتُ إلى سماءِ العَربِ في أزهىٰ عصورِهم ، فرأيتُ فيها كواكبَ نسوةٍ ساطعات ، بَهَرني تألّقُ نورهنّ ، وغمرَني شعاعٌ من بركةِ إيمانِّهنّ وإحسانهنّ ، وكنتُ كأعرابيةٍ تهتدي بهدي النّجوم في صحراءِ الحياةِ ، فتمرّستْ بمطالعِ هذه الكواكب ومغاربها ، وعرفتْ مسارحَها ومساربَها ، فأحببتُ أنْ أقتبسَ من نورها ، وأنْ أنشرَ هذا

---

(١) انظر : مجلة المرأة ـ العدد ـ ٣ ـ حزيران ـ ١٩٤٧ م ـ ص ٢٦ .

النّور الذي تجلّتْ في ألوانِه وأفانينه أكرمُ معاني الأمومةِ والإيمانِ ، وأسمىٰ مزايا البطولةِ والاستشهاد ، فتخيرتُ لها طائفةً من أمّهات المؤمنين ، ومَنْ أَوْلىٰ من هؤلاءِ الفُضليات العبقريّات بالذّكْرِ والتّصويرِ والاعتبار ، فلقد رفعنَ في دنيا العرب والإسلام مكانةَ المرأةِ ، وكُنّ حجّةَ التّاريخ على الرّجال».

* وتتابعُ وداد هذه الرّحلة الشّائقة في عالَم الطُّهر والطّاهرات والعلْم والعالمات لتروي لنا أنَّ المرأةَ في تلك الحقبة كانت أعظمَ أمّ ، وأخلصَ زوجٍ ، كما أنّها استطاعت أنْ تكونَ أنبلَ امرأةٍ ، وأصدقَها ، وأطيَبها نَفْساً ، وأثبتها في ساعاتِ الرَّوع فتقول: «فقد رأيتني ماضيةً في هذا السَّبيل ، على طريقتي التي جعلتُ سدَاها الحقيقة ، ولحمتها التّاريخ ، ساكبةً مداد قلمي على هذه الصُّور الإنسانيّةِ المثالية ، من شعورٍ طالما اهتزّ فخراً واعتزازاً بهؤلاءِ الأمّهات والأخواتِ اللاتي لم تنجبْ أمثالهنّ أمّةٌ من الأُممِ في قديمِ الدَّهْر وحديثِهِ ، وكان يفيضُ في قلبي ذلك الشّعور ، وأنا أقرأُ سيرهنّ وأتتبعُ أخبارهُنَّ ، حتىٰ جلوتُها في صورٍ فنيّة ، تأنسُ بها النَّفسُ ، ويعْلَقُ بها الخاطرُ ، وها أنذا أزْجيها إلى فتياتِ العرب المتنوّرات ، وأمهاتهنّ اللواتي هَبَبْنَ إلى حياةٍ واعيةٍ راقية».

* ثم تختمُ مقدمتها بهذه العبارات العِذاب قائلةً: «وما أحرانا ونحنُ على وصيدِ حياةٍ جديدةٍ حرّة بأنْ تتخذَ المرأةُ المعاصرةُ من هذه السِّيرِ المثاليّةِ نشيداً تحدو به نهضتنَا ، وأهزوجةً تهدهدُ طفْلَها ، وتمضي في بيتها وبينَ النَّاس على هذا النُّور المنبعث من صوتِ الجزيرة ودارةِ الوحي ، مستلهمةً من أمّهات المؤمنين أخواتِ الشُّهداء معانيَ الإيثارِ والوفاءِ ، وآياتِ التّقوىٰ والفداء».

* وفي الحقيقةِ فقد صدقَتْ ودادُ ـ رحمها الله ـ فيما قالت ، فما منِ

امرأةٍ مسلمةٍ أو عاقلةٍ تقرأُ ما قرأتْهُ السَّيِّدة وداد عن هؤلاءِ الفُضْلَيات الكريمات إلا تحملُ الشَّعور بالإكبارِ لهنَّ ، بل وتقديرهنَّ سيرة وسلوكاً ، إذ نجدُ في حياتِهنَّ الأنشودةَ المطربةَ الخالدةَ للنَّوعِ النَّسويّ جميعهِ ، فلا تدنو من قَلْبٍ حتى تصقُلَه بالتَّهذيب ، ولا من فكرٍ حتّى تسموَ بهِ في فضَاءِ المكارمِ وميادينِ الفضائل .

* لذا فإنّنا نجدُ السَّيِّدةَ وداداً تدعو الفتياتِ الصّاعداتِ لقراءةِ سيَرِ المُسْلماتِ ، وتدعو بعد أربعين عاماً من صدورِ طبعةِ الكتاب الأولىٰ أنْ تُقْبِلَ الفتياتُ علىٰ المطالعةِ النَّافعةِ ، فتقول في مقدّمةِ الطَّبعةِ الثَّالثةِ عام (١٩٨٦ م) ما نصُّه : «علىٰ أنَّ محتوىٰ الكتابِ جديرٌ باطّلاعِ فتياتِنا الصَّاعدات منَ الجيلِ الجديدِ المُقْبلِ بِنَهمٍ علىٰ المُطالعةِ النَّافِعَةِ ، فإنَّ ثقافتهنّ ينقصُها الوقوف على هذا الموضوع ، وهنّ اليوم يتزوّدنَ بخيرِ ما في المعرفةِ والإلمامِ بحياةِ طائفةٍ كبرىٰ من نسائِنا في تاريخهنَّ البعيد والقريب . ومن فيضِ الله عليهنَّ أنْ تقيَّضَ لهنَّ أسباب المعرفةِ الواسعةِ» .

* ولـم تتـوقـفِ السَّيِّـدةُ ودادُ عنـد هـذا الكتـابِ الجميـلِ «أمّهـات المؤمنين . . . ، وإنّما راحَتْ تستشفُّ التَّاريخَ النَّسويَّ ، وتتوغّلُ في أعماقِهِ ، حتى توقَّفَتْ عند «رابعة العدويّة» تلك العاشقةُ المتصوّفَةُ التي ملأَتِ الدُّنيا وشغَلَتِ النَّاس في البصرةِ في القرنِ الثَّاني الهجريّ ، وقد استطاعَتْ ودادُ أنْ تستهويَ القارىءَ وتجتذبَه من أوّلِ صفحةٍ إلى آخر صفحةٍ من كتابها ، وذلك بما آتاها اللهُ من جمالٍ في الأسلوبِ والعرضِ والخيالِ الجميلِ في الألفاظِ المونقة ، ولكي نأتيَ بالدَّليل على ما نقولُ ، علينا أن نعيشَ السُّطور الأولىٰ من كتابِها «العاشقة المتصوفة» حيث تقول : «أروعُ الأساطيرِ ما شَابَه الحقائقَ ، فمن أساطيرِ النُّجوم التي لمعَتْ في السَّماء ، وارتعشتْ أشعّتُها في مدىٰ الغُيوب كأنَّها أعينُ الأبد ، شاخصةٌ مؤرّقةٌ ،

نجمٌ طلعَ في سماءِ البصْرةِ العراقيّة آخر القرنِ الأوّل للهجرة ، وبقي مرموقَ الضّياء حتىٰ هوىٰ في أعقابِ العصرِ الثّاني للهجرة ، متحوّلاً إلى أحدوثةٍ لا تنسىٰ ، خلّدتها السُّطور ، ولهجتْ بها الألسنةُ ، وتداولَتْها بالذّكْر والتّأليف طائفةٌ من الباحثين في القديمِ والحديثِ.

* لو سألوا رابعةَ العدويّةَ مَنْ أَنْتِ ، وكيف جئتِ وعشْتِ؟ لقالت: نجمتُ في السَّماء ، ثم كنْتُ فكرةً في الأرضِ ، مضيتُ مثلَ غيري ، أحببتُ وكرهتُ ، وضحكتُ وبكيتُ ، وأخطَأْتُ وأَصَبْتُ ، حتى تحرّرتُ من استعبادِ الإنسانِ ، وسموتُ بروحي وتفانيتُ ، فرآني النّاسُ عجيبةً غريبةً في هذه الدُّنيا»[1].

* بهذِهِ اللغةِ الآسرةِ ، وبهذهِ الرُّوح الأدبية السَّاحرة ، مضَتْ ودادُ في عرضِ سيرةِ رابعةَ إلى النِّهاية ، وعندما تتحدَّثُ عن عشقِ رابعةَ وعن حُبِّها تقولُ: «أمَّا رابعةُ فكان حبُّها من طرازٍ أسْمَى ، تأبّىٰ على البشريّةِ ، وارتقىٰ إلى الإنسانيةِ المُثْلىٰ ، بل تجاوزَهَا إلى الذَّوبانِ والاحتراق في حبٍّ سماويّ لم يسبقْها إليهِ أحدٌ في الإسلام».

* وتتوقّفُ ودادُ عند حبِّ رابعةَ ، وسموّ روحها ، وتتحدَّثُ عن الأبياتِ الكافِيّةِ المشهورة لها ، حيثُ تقولُ رابعةُ:

أُحِبُّـكَ حبَّيْـنِ حُـبَّ الهَـوىٰ ... وحُبّـاً لأنَّـكَ أَهْـلٌ لِـذَاكَـا
فـأَمَّـا الـذي هُـوَ حُـبُّ الهَـوىٰ ... فَشُغْلِـي بـذكْـرِك عمّـن سـواكَـا
وأمَّـا الـذي أنْـتَ أهْـلٌ لَـهُ ... فكَشْفُكَ لي الحُجبَ حتّى أراكَا
فَـلا الحَمـدُ فـي ذَا ولا ذَاكَ لـي ... ولكِـنْ لـكَ الحمـدُ فـي ذَا وذَاكَـا

* وتعلِّقُ ودادُ على هذهِ الأبياتِ فتقولُ: «لقد فسَّرَ بعضُ الصُّوفيّينَ

---

(١) العاشقة المتصوفة (ص ٥) دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٥٥م.

معاني هذه الأبياتِ المشهورة وأَوَّلُوهَا بما يتّفقُ مع النَّزعةِ الرُّوحيّةِ التي كانت تجيشُ في هواجسِ رابعةَ وجوانِحها ، وما يلائمُ طبيعةَ الفَهْم الصُّوفي ، فكَانَ كلامُهم على هذا الحبّ المزدوجِ أو هذَيْن الحبَّيْنِ اللذين ذكرتْهُما رابعةُ في منظومتِها متقَارباً متلاقياً ، وقد راعَهم أوّلَ الأمْرِ أنْ وجدُوا رابعةَ تحبُّ ربَّها عشْقاً وهوىً ، وخاضُوا في مرامي هذا العشْقِ الذي لا ينبغي أنْ يكونَ كعشقِ البشَر»[1] .

* وقد مرَّ أكثر من (١٢ قرناً) على رحيلِ رابعةَ بَيْدَ أنَّنا في القرنِ الخامس عشر الهجريّ لا نزالُ نقرأُ سيرتَها بشغَفٍ بقلمٍ نسويّ موهوبٍ هو قلمُ وفكْرُ المرحومةِ وداد سكاكيني التي جعلَتْ ذكْرىٰ رابعةَ خالدةً مجيدةً ، لذلك نجدُ وداداً تنهي ترجمةَ رابعةَ بقولها : «وحسْبُها فضْلاً أن سبقتِ العصورَ إلى مثالٍ علويّ خطَّ للصَّالحين والمُخْلصين وعاشَتْ فيه على معرفةٍ وبصيرة وإيمانٍ ، وقد تركتْ للنّساء بابَ عزٍّ وحمْدٍ لا يُغْلَقُ ، إذ كانت منهنّ ، تقدّمَتْ صفوفَ المتّقين ، وعدّت حجّة لهنّ في العبادةِ والدِّين» .

* وفي الحقيقةِ لقد حلّقَتْ ودادُ في هذا الكتابِ عالياً ، وجلَتْ ما علقَ بسيرةِ رابعةَ من حيرةٍ ومن تناقضات علقَتْ في الأذهانِ ، لذلك لَفَتَ هذا الكتابُ الأنظارَ ، فَتُرجِمَ إلى اللّغةِ الإنكليزيّة ، وصدرَ عن دار نَشْر «أوكتاجون» (Octagon) في لندن عام (١٩٨١ م) .

* وكذلك نجدُ وداداً مجليةً في بقيةِ كتبها ذات طابع التّرجمة والسّيرة الذّاتية مثل : «ميّ زيادة ، وقاسم أمين ، وعمر فاخوري وسابقات العصر . .» ، واستطاعت أنْ ترسَم هذه الشَّخصيّات بأجملِ الحروف ، وأدقّ العباراتِ ، وأبهىٰ المعاني ، فاحتلّتِ الصّدارة في المكتبةِ العربيّة .

---

(١) العاشقة المتصوفة (ص ٨٩) .

ودَادُ وَالـنَّـقْـدُ الأدبـي وَالـفَـنّـي :

* لم تكنْ ودادُ سكاكيني ـ رحمها الله ـ كاتبةَ مقالاتٍ وروايات وقصصٍ وتراجمَ وسيَرٍ فحسبُ ، وإنّما كانت ناقدةً من الطِّرازِ الأوّل ، فهيَ حصيفةٌ في نَقْدِها ، رصينةٌ في الأحكام ، لا تجرُّهَا العواطفُ إلى مهاوي الرَّدىٰ ، وإنّما ميزانُها العَقْل والتذوق الأدبيّ ، والصِّدقُ في نقدِ ما تريدُ نقده ، وإنْ كانت تؤمنُ «بأنَّ حاملَ النَّقْد أشدُّ تعباً وأشقىٰ . . . وأكثرُ أعداءً وأقلُّ أصدقاء»[1] ، كما كانت تدركُ بأنَّ النَّاقدَ الصَّادق يكْثُرُ حاسِدُوه ، وعذّالُه ، ولكنَّ الحقيقة ينبغي أنْ تظْهرَ للعَيان وللبصيرة .

* يقول مؤلّف كتاب أديبات عربيّات : «وكان من حظِّها أنّها أدركَتْ عَهْداً من ازدهارِ النَّقد الأدبيّ أثناءَ إقامتها في مصرَ ، فأحبَّتِ المطارحات النّقدية ، وتتبّعتْها بشوقٍ واهتمام ، حتّى استهوتها هذه الممارسةُ ، وخاضَتْ غمارها بجرأةٍ واقتحام ، تهاجمُ وتردُّ الصَّاع صاعَيْن ، سعيدةً بشهودِ الأعلامِ من نقّادِ الأدبِ المعاصر ، دون أنْ تتأثّر بموقفٍ محدّد ، أو هدفٍ مرسُوم»[2] .

* ويقول المؤلّف نفسُه : «لقد بدأتْ ودادُ سكاكيني حياتَها النّقديّة بِنَقْدِ ذاتِها وسُطورها أوّلاً ، قبل أنْ يقرأَها غيرُهَا ، وأخذتْ تستعدُّ لهذهِ المهمّةِ الصَّعبة بزادٍ ثقافي واسعٍ ، وتتسلّحُ بمعايير دقيقة ، لأنَّ النَّقد وإن كان عِلْماً يقومُ على قواعدَ ثابتةٍ متّفقٌ عليها ، فإنَّ على النَّاقد أنْ يكونَ واعياً ، نافذَ البصرِ والبصيرة ، صحيحَ المعيار . . . كلُّ هذه الشُّروط والصِّفات والمعايير . . . اجتمعتْ في السَّيّدة وداد سكاكيني ، بالإضافةِ إلى الجُرأةِ

---

(١) أديبات عربيات (ص ٢٤٥) بشيء من التصرف .

(٢) المرجع السابق نفسه باختصار يسير .

الأدبية ، والثّقة بالنفس ، والتمكّن من الأداة ، وعدم التّهيّب من التّصدي للكبار الكُتّاب والمفكّرين العرب الذين تتبعَتْ آثارهم ، وتناولَتْ مؤلفاتِهم بالنّقد النّزيهِ ، والدَّرس الهادىء ، والمناقشةِ المطمئنّة ، ليقينها بأنّها لا تقولُ غير الحقّ ، ولا تتعاملُ مع الباطلِ ، ولا تتجنّىٰ علىٰ أحد»[1] .

* لقد انتقدت ودادُ كبارَ الأدباءِ والشُّعراء ، والأديبات والشّاعرات في مؤلّفاتهم وإنتاجِهم الأدبيّ والفنّيّ ، في عددٍ من كتاباتِها ومقالاتها وكتبِها ، ويدلُّ هذا كلّه على ثقافتِها العميقةِ الواعيةِ ، وقراءتها الهادفة المتفحّصةِ لما ينتجه هؤلاء الأدباء ، كما تطَّلعُ على ما تصدره دورُ النَّشْر في الأقطار العربية كي تكونَ على بصيرةٍ من أمرِها .

* ومن ألوانِ نقد السَّيّدة وداد للأدباء ، ما نقدتْ به ابنة جنْسِها بنت الشّاطىء عندما أصدرت كتابها «نساء النّبي» فاطّلعَتْ عليه وداد ، ووضعتْ حولَ كثيرٍ من فقْراتِهِ وألفاظِهِ علاماتِ استفهام ، وتصويبات ، وتصحيحات ، وانتقدتْ بنتَ الشّاطىء في إصْرارِها على تناولِ الجانبِ البَشَريّ في حياةِ سيّدنا وحبيبنا محمّد رسولِ الله ﷺ ، تقولُ السَّيّدة وداد : «لقد ذكَرَتْ ـ يعني بنت الشّاطىء ـ في بضْعِ صَفَحاتٍ كلمات : (بشَر ، وبشريّة ، وبَشَريّ) عشَرات المرّات ، قالت في خلالها : إنَّ إيمانَها قد عصَمها من التَّحرج المنكر فيما لا يحتاجُ إلى سترٍ وكتْمان من أنباءِ الحياةِ الزَّوجية الخاصّة بالرَّسولِ ﷺ الذي لم يحاولْ قطّ أنْ يبرأَ من بشريته ! ! » .

* وتتابعُ وداد كلامَها في نقد ابنة الشّاطىء فتقولُ : «فعدْتُ أحاوِرُ نفسي خطرةً ثانيةً ، متعجّلةً متسائلةً ، قبل أنْ أمضيَ في قراءةِ الكتابِ ، ما هي هذهِ البشريّة في معناها اللغويّ والاصطلاحيّ؟ والتي نصَّ عليها القرآنُ كما

---

(١) المرجع السابق نفسه باختصار يسير .

قالت: «فقد زيّن الإجلالُ لمن كتبُوا عن محمّد ﷺ أنْ ينزّهوهُ عن بشريّته، وأصرُّوا على تقريرها والاعترافِ بها». تبيّنَ لي أنَّ المؤلِّفةَ الفاضلةَ شاءتْ كما ذكَرتْ في المقدمة: «أنْ لا تكونَ دراستها هذه على النّحو التّقليدي المألوفِ في تراجمِ الأشخاص»، وإنّما عناها أنْ «تتمثّل حياةَ النّسوة اللاتي عشْنَ في بيتِ النّبي محمّدٍ ﷺ وأنْ تصوّر شخصياتهنّ تصويراً يجلو كلاًّ منهنّ زوجةً وأنثىٰ في بيتٍ كريم تلاقَتْ فيه البشرية بالنّبوة».

* ثم إنَّ وداداً تتعرّضُ في نقدِها ابنة الشّاطىء بأنّ تشابهاً ما بين كتاباتها وكتاباتِ المستشرقين خصوصاً في تعدّدِ الزَّوجات فتقول: «ألاَ يَفْهَمُ القارىءُ من هذا كلّه؛ أنَّ البشريّة التي عَنَتْها المؤلّفة هي التي عَناها المستشرقون، فكيفَ ضاقَتْ بإرجافهم ولمزهم هذا الجانب ممّا تَقَوَّلُوا فيه على النّبي ﷺ، ثم تسمحُ لقلمها بأنْ يصرَّ ويلحَّ على أنَّ محمّداً لم يبرأْ من بشريّته، فَعَدَّدَ الزّوجاتِ كما قالَتْ، ومارسَ حياته الزّوجيّة ببشريةٍ سوية، لم تجرّدْهَا النّبوّةُ من العواطفِ والمشَاعر والرغَبات»!!.

* ثم تتعرضُ السَّيّدة وداد في نقدِها الجميلِ لابنة الشّاطىء إلى زواجِ النّبي ﷺ من ابنةِ عمته زينب، وكيف لاكَتْ هذه القصّة كما يلوكُها المستشرقون وبعضُ المستعربين فقالت: «وبعد، فما كان أغْنَىٰ المؤلّفة عن الخوضِ في هذا الإلحاحِ والإصرارِ على بشريّة محمّد ﷺ، وإيثارِ الكلام على هذا الجانب بالتّوكيد والتّأييد، لما زعم الذين تَجَنّوا على الرَّسول والرّسالة بمثلِ هذه الأقاويل، وهي تعلمُ بأنَّ الإنسانيةَ والمرأةَ العربية لم تعرفْ أحبَّ إليها من محمّد ﷺ، الذي كان لهما محرّراً ومبشّراً بمكانةِ النّساء، وداعياً إلى تكريمهنّ أمّهاتٍ وزوجاتٍ وتعليمهنّ كالرّجال، وكانت سيرتُه مع المرأةِ زوجةً وبنتاً وقريبةً وغريبةً تتجلّىٰ في معاملتهِ وتوجيهِ نُصْحهِ ورأيهِ لما ينبغي لها من حقّ، وما عليها من

تكاليفَ ، وأن لا غضاضةَ على الرّجل في أنْ يتلقّىٰ عنها ، ويقتدي بها إذا كانت من ذواتِ النّبوغ والتّقوىٰ والكفاية في علمِها. . . فالرّسول ﷺ الذي أحبَّ المرأةَ لِحَقها عليه وعلى الإنسانيّة ، وعاملَها بما ينبغي لها ، حاشاه أنْ يكون عدَّدَ الزَّوجاتِ لبَشريته التي ألحّتْ عليها الدّكتورة بنت الشّاطىء ، وهل لها من تأويل غير ما عَنْت وأكّدَتْ؟ وقد قالت إنّها «الفطرةُ السَّويّةُ» التي جعلَتْ محمّداً مُعدّداً للزّوجات ، وكأنَّ بشريّته المتمثّلة في رجولتهِ ونزعتهِ الجنسيّة غلبَتْ على طبعهِ فلم تحصنْها زوجة واخدة ، ولو شاء محمّدٌ ﷺ أنْ يكونَ التَّعدُّدُ لمصلحته وبشريّته ، لاختارَ زوجاتِه من أنْضَرِ الصَّبايا عمراً وعُوداً. . . أيكونُ محرّرُ المرأةِ والدّاعي إلى حقوقها ومكانتها عبداً لِهَواه وفنونِها ، وقد أحاطَه اللهُ بها منذُ وُلِـدَ وفَـقَدَ الأبوين ، حتى تزوّج ليعرفَها على حقيقتِها وطبعِها ، فعرفَها مرضعةً وحاضنةً ومربيةً ونسيبةً؟!. . . . ولم يقُلْ أحدٌ في تحريرِ المرأةِ ورعايتها مثلما قالَ محمّدٌ ﷺ الذي كانت رسالتُه العالميةُ قائمةً على تكافؤ الجنسَيْن وانطلاق الجناحَيْن. . وهذه المساواة الإسلاميّة التي سنّها الرّسولُ ﷺ للمرأةِ لم ترْقَ إليها أحْسَنُ النُّظُم والقوانين في أرقىٰ الشّعوب الدّيمقراطيّة المعاصرة. . . كانت مجامعُ بيزنطة وغيرها في عَصْرِ الرسالةِ تتحاورُ وتتشاورُ في قضايا المرأةِ وإنسانيّتها ، فقررت أنّها مخلوقةٌ لمتعةِ الرّجل وخدمته. . . أمّا محمّد ﷺ الذي وعدَ المؤمنين بالجنَّة ، فإنَّه رآها تحتَ أقدام الأمّهات ، على أنَّ أحرارَ الفكْر من علماءِ الغرب في العصورِ الحديثة ، جعلوا تحريرَ المرأةِ الذي جاءَ به الإسلام منَ الأسبابِ القويّة في نهضةِ العرب وفتحهم المبين وقيام حضارتهم ، لكنّ الذين امتهنوا المرأةَ بعد حين ، كانوا ممّن ضعْضَعُوا الحضارةَ والنَّهضة ، وأساؤوا في المعاملة».

* ثم إنَّ وداد سكاكيني تتعجّب من إصرار بنتِ الشاطىء على الجانبِ

البشريّ في حياةِ الرّسول ﷺ ، فتقول: «فما هي الفائدةُ العلميّةُ والمنهجيّة وراءَ هذا الإصرار على الجانبِ البشريّ في حياةِ محمّد ، وكم يجدُ فيه الذين أضلَّهمُ الهوىٰ والتّعصبُ في الشَّرقِ والغربِ تثبيتاً لمآربهم ، وبُعْداً بالرّسول عن حقيقتهِ ورسالتهِ السّماوية؟! وهل كان من الطّباع البشريّة التي عنتها المؤلّفة جواز الدّنايا والانحراف ممّا يصيبُ البشَر جميعاً ، وقد وُصِفَ الرّسول ﷺ بأجلِّ المزايا والخصَال؟. . . ولو أنّ مؤلّفة «نساء النّبيّ» بذلَتْ جهودَها في بحثِها لإلقاء النّور على جوانبَ من إنسانيةِ الرّسول ﷺ لم يَرهَا الباحثون ، لأحسنَتْ صنعاً ، وجاءتْ بجدٍّ وجديد ، أمّا (البشريّة) التي أَلَحّتْ في إيجادِها وتأييدها ، فما كانت لتمسّ قلوبَ المؤمنين ، ولا كان الإقدامُ على بحثِها مأْثَـرة فكريّة أو تحرّراً منهجيّاً ، لأنَّ هذا المذهب تأبّىٰ عليه المنطقُ والواقع ، ولم تلتزمْهُ إلاّ بعضُ الفِرنجة من المستشرقين»[1].

* وهكذا نجدُ أنَّ السَّيّدةَ وداد سكاكيني ناقدةٌ من طرازٍ فريد ، وقد أتقنَتْ أُسسَ النَّقد الأدبي السّليم؛ إذ تقومُ في نقدِها لمن أرادت على إلقاءِ الأضواءِ على إنتاجِ الأديبِ أو الأديبةِ في الكتاب المُنْتَقد ، ومن ثمَّ الإلمام بتاريخِ حياتِهِ الأدبيّةِ والفكريّة ، ثم ترفدُ ذلك كلّه ثقافتُها المتنوّعةُ المتنورةُ في الأدبِ وفنونه ، والتّاريخ وأصوله ، وتعرضَ نقْدهَا بلغةٍ تُراثيةٍ متّزنةٍ رصينة ، وبأسلوب يأْسِرُ العقول والنّفوسَ بوضوحه وظهورِ الحجّة فيه.

* كانتِ السَّيدةُ وداد ـ رحمها الله ـ تعلم علمَ اليقين أنَّ نقدهَا لمشاهيرِ الأديباتِ والأدباء ، سيجعلُ القطيعة تحلُّ فيما بينهم ، وكانت تدركُ تماماً ما جاء في حديث أبي الدَّرداء رضي الله عنه في قوله: «إنْ نقَدْتَ النّاسَ

---

(١) انظر مقدمة: «أمهات المؤمنين وبنات الرسول» (ص ٧ ـ ١٩) باختصار وتصرف يسير.

نَقدوك ، وإنْ تركْتَهم تركوك»(١) ومعنىٰ نقدتهُم هنا: عِبْتَهم؛ أو ميّزْتَ جَيّدهم من رديئهم في كلامِهم.

* ومـن هـذا المنطَلـقِ حـدَثـتِ الـوقيعـةُ والقطيعـةُ بيـن وداد وبنـت الشّاطىء ، بيد أنَّ وداداً ـ رحمها الله ـ استوعبَتْ ذلك كلّه؛ إذ طريقُ النّقد محفوفٌ بالمخاطرِ ، ولكنَّ هذا لا يهمّها ما دامَتْ تنشدُ الحقَّ ، لتبرزَهُ لأهلِ الحقّ ، ومحبّي الحقّ في كلّ زمان ومكان.

* وللسّيّدة وداد سكاكيني آراءٌ نقديّةٌ جميلةٌ ، تحملُ بين طيّاتها حبّ اللغة العربيّة والغيرة عليها ، وتدعو إلى نبذِ العاميّة في الكلام الإذاعيّ وفي الكتابة ، كما تدعو الذين يتوانون عن التّعمّق في القراءةِ إلى القراءةِ الجادّة الواعيةِ في المصادرِ الأصلية ، لا أنْ يركنُوا فقط إلى الجرائد والمجلاّت وأدواتِ الإعلام من مذياع أو تلفزيون وغيرِه ، تقولُ وداد: «أين تلك الجلسَاتُ الطّويلةُ التي كان يقضيها القارىءُ عاكِفاً علىٰ كتابٍ يحبُّ أدبَه ويتدارسهُ بشوقٍ وتأمُّلٍ؟! لقد فارقَ الكتبَ أحبابُها ، وعلاها الغبارُ على الرُّفوف ، ونُصِبَتْ فوقها للزّينة ، وقنع العشّاق المُحدثون بنزواتٍ عابرة ، ونظراتٍ خاطفة ، فليس للمثقّف اليومَ أو المتأدّب إلا أنْ يطيفَ بعينيه في جريدةٍ أو مجلّة ، راضياً بالمقالِ الخفيف ، والنّبأ المُثير ، والصّورة المغرية ، أو يديرُ مفتاح المذياع ، فيسمعُ حديثاً مستعجِلاً ، أو تمثيلية هزليّةً خفيفة»(٢).

---

(١) لسان العرب (٣/ ٤٢٦) مادة «نقد».

(٢) منَ المؤسفِ حقّاً أنْ نجدَ الآن كثيراً منَ المثقّفين أو القُرّاء ينصرفون عن القراءةِ إلى التّلفزيون والمحطّات الفضائيّة أو حتّى إلى أجهزةِ الحاسب الآلي بما تحملُه من معلوماتٍ غزيرةٍ على أقْراصِها المُثيرة ، ولكنّها في الحقيقةِ لا تروي الغُلّة ، ولها أضرارٌ جسيمةٌ على الثّقافَةِ والمثقّفين ليس ها هنا محلّ ذكرُها ، وبدأ الضّعفُ في القراءةِ والتمكّنِ من اللغة السّليمة يدبُّ في صفوفِ المتعلّمين نتيجةً لوسائلِ الإعلام=

* وكانتِ السَّيدةُ وداد ـ رحمها الله ـ تسعىٰ سعياً حثيثاً إلى التّراثِ ، وتحضُّ النَّاشئةَ والمتأدّبين على العكوفِ عليه ، وظلَّ هذا الهاجسُ بالتّراث يرافقُها إلى آخر حياتها ، وكانت تحدّثُ عن شغفِها بالقُرآن الكريم ، وبالثّقافة الأصيلة كلّ من يلْتقيها ، ففي آخر لقاءٍ معها تحدّثت عن ذلك إلى الأستاذة «رغداء مارديني» حيث أجرتْ رغداءُ مع وداد لقاءً جميلاً تحدّثت فيه ودادُ عن بدايةِ مسيرتها الثَّقافية فقالت: «من خلالِ وظائفِ الإنشاء التي كان يكلّفُني بها أستاذُ اللغة العربيّة ، ومن مقاعدِ الدّراسة في مدينةِ بيروت . . . كانت بدايتي الأدبيّةُ الأوّلىٰ عندما أوْصَاني أستاذي بأنْ أحفظَ القُرآن الكريم قائلاً لي: «إنّه قاموسُ الفُقراء ، ونحنُ يا بُنيّتي منَ الفُقراء ، فهو يعلّمنا العربيّة والتّاريخ والبيَان». كما شجّعني على إمعانِ النَّظر والبحثِ في كتُبِ التُّراث بمختلفِ علومها ، وفعلاً كان للقُرآن أثرٌ كبيرٌ على كتابتي الإنشائيّة التي جمعتُها فيما بعد بكتاب حمل عنوان «الخطَرات» باكورة أعمالي»[١] .

* ومن خلالِ هذا اللقاء تبدو السَّيّدة وداد حزينةً على هذا الجيلِ الذي لا يقرأُ فتقول: «أَمَلي من كلّ وسائلِ الإعلام المسموعةِ والمقروءةِ والمرئيةِ أن تسعفَ نفوسَ هؤلاء الفتيانِ بِحَثّهِم على أَهميّة القراءةِ ، لأنَّها السَّبيلُ إلى بنيانٍ ثقافي حضاري يخلقُ ذهناً مستنيراً يحقّقُ الفردُ من خلاله الأَمَلَ المُرتجىٰ»[٢] .

= المغرية والتي اختطفتِ القارىءَ واختطفت الكتابَ ، ولكنْ لا بدّ منَ الصّحيح أنْ يسودَ ويبقىٰ.

(١) هذه الفقرة مقتطفة من حوار أجرته رغداء مارديني مع السّيدة وداد بتاريخ (٢/ ٧/ ١٩٩٠ م) في صحيفة «تشرين» الدمشقية.

(٢) المرجع السابق نفسه.

* ألا يرىٰ القارىءُ الكريمُ أنَّ في كلامِ وداد هذا نقْداً رائعاً وصحيحاً لما نلمسُه هذه الأيّام من التَّراجعِ الثّقافي عند النّاشئة؟! وكيف تساعدُ وسائلُ الإعلام على اختطافهم من بين أحضانِ الكتبِ وأُمَّاتِ المصَادر؟!

* هذا والحياةُ مع نقْد السَّيدة وداد سكاكيني ممتعة ولا تستوفيها هذه الصَّفحات ، ويمكنُ للباحث أن يخرجَ بمجلّدٍ كبير عن ذلك ، وقد نوَّه عددٌ كبيرٌ من الأدباء والنُّقَّاد إلى موهبتِها الأدبيّة وإلى تمكّنها من ناصيةِ النَّقد ، وقد نشرتِ الصُّحف كثيراً عن وداد وعن آرائِها النّقدية وأشادوا بطولِ باعِها في هذا المضمار.

الـثَّـنَـاءُ عَـلـىٰ ودَاد:

* من المطربِ والمفيدِ والجميلِ في سيرةِ وداد سكاكيني ـ رحمها الله ـ أنَّ الذين واللواتي كتبُوا عنها ، أجمعُوا علىٰ الثَّناءِ عليها أدَباً وأخْلاقاً وسُلوكاً وعمقاً وراء الحقيقةِ والحقّ ، وتفرّداً في عالَم النَّقْد النَّزيهِ الذي لم يعرفِ المحاباةَ أو الخواطر.

* وقد تبارىٰ الأدباءُ والشُّعراء من مختلفِ البُلدان ، في تسجيلِ الثَّناء لِصَالحِ أديبتنا الموفَّقَةِ وداد سكاكيني ، ومنهم الدّكتورُ الأديبُ النّاقد «عمرُ الدّقاق» صاحبُ القلمِ الجميلِ في الأدبِ والنّقد ، حيثُ يشهدُ لوداد سكاكيني بما تستحقُّه من إكبارٍ وتقديرٍ في فنونِ الأدب فيقولُ عنها: «هي منَ النّساءِ القليلاتِ اللواتي أنجبتهُنَّ سورية ، وكان لهنَّ باعٌ طويلٌ في نهضةِ المرأةِ وانفتاحِها الفكْريّ ، عُرِفَتْ برصانتها في نتاجِها ، وقد لا تضارعُها أديبةٌ أخرىٰ في تعدادِ الجوانبِ وغزارةِ الإنتاج... فهي كاتبةٌ قصصيّةٌ ، عالجتِ القصَّة القصيرةَ في طابعها الاجتماعيّ ، ولونها المحليّ ، وهي من

جهةٍ أخرىٰ ناثرةٌ بارزةٌ ، مارستْ كتابةَ المقالة الاجتماعيّةِ والأدبيّةِ بنَجاحٍ».

* ويثني عليها «إبراهيمُ المنذر»[1] ثناءً خاصّاً ، حيث يعتبرُهَا من

---

(١) إبراهيمُ منذر كَمال (من بني المعلوف) يتّصل نسبُه بالغَساسنةِ ، وأجدادُه بنوا بلدةَ «المُحيدثة» في لبنان ، وهي البلدةُ التي وُلدَ فيها بتاريخ (٧/ ٦/ ١٨٧٥ م) ، وتعلَّم في مدرستِها الابتدائية ، ولمّا أيفعَ اشتغلَ معلّماً للغةِ العربيةِ في عدّة مدارسَ وكلياتٍ بلبنان ، وأنشأ في المُحيدثة مدرسة «البُستان الدّاخلية» ، وتولّى رئاسة بعضِ المحاكم ، وكان أديباً لغوياً عملَ في الصَّحافة ، وكان من أعضاءِ المجمع العلميّ اللبناني ، وبالمجمع العلميّ العربيّ بدمشق ، وكان من أبرزِ شخصيّات لبنان الاجتماعيّة ، عاشَ حياةً زاخرةً بالأحداثِ ، فعاصرَ الاستبدادَ التُّركي ، وشهدَ ويلاتِ الحربِ العالميةِ الأولىٰ والثّانية ، وله أكثرَ من (١٥ مؤلّفاً) ما بينَ مطبوعٍ ومخطوط ، منها «ديوانُ المنذر» و«المملوك الشّارد» و«عثراتُ الأقْلام» وغيرها.
وله قصيدة: «قلب الأم» المشهورة وقصيدة «حديث ضرير» ، وتوفي إبراهيم المنذر في بيروت بتاريخ (٢٧/ ٨/ ١٩٥٠ م)؛ ولجمَالِ قصيدته قلب الأم أحببتُ أنْ أوردها هنا للفائدة:

أَغْرىٰ امـرؤٌ يـومـاً غُـلامـاً جَـاهِـلاً ... بنقـودِهِ حتّـى ينـالَ بـه الـوَطَـرْ
قـالَ ائْتِنـي بِفُـؤادِ أُمِّـكَ يـا فتـىٰ ... ولـكَ الـدَّراهـمُ والجـواهـرُ والـدُّررْ
فمضىٰ وأغـرزَ خنجراً فـي صَدرِهَـا ... والقَلْـبُ أجـرحَـهُ وعـادَ علـىٰ الأثـرْ
لكنَّـه مـنْ فَـرطِ سُـرعَتِـهِ هـوىٰ ... فتَـدحْـرَجَ القلـبُ المعفَّـرُ إذْ عَثَـرْ
نــاداهُ قَلْــبُ الأمّ وهــو معفّــرٌ ... ولَدي حَبيبيْ هَلْ أصَابَكَ من ضَرَرْ؟
فكـأنَّ هـذا الصَّـوتَ رغـمَ حُنُـوِّهِ ... غضبُ السَّمَاءِ علىٰ الوليدِ قدِ انهمَرْ
ورأىٰ فظيـعَ جنـايـةٍ لـمْ يـأْتِهَـا ... أحَـدٌ سـواهُ منـذُ تـاريـخِ البشَـرْ
وارتـدَّ نحـو القلـبِ يغسلُـه بِمَـا ... فـاضَـتْ بـهِ عينـاهُ مـن سيـلِ العِبَرْ
ويقـولُ يـا قلـبُ انتقـمْ منّـي ولاَ ... تغفِـرْ فـإنَّ جـريمَتـي لا تُـغْـتَـفَـرْ
وإذا رحمْـتَ فـإنّنـي أقضـي انتِحـا ... راًمثلمـا يـوضَـاسُ مـن قبلـي انتحـرْ
واستـلَّ خنجـرهُ ليطعـنَ صَـدْرهُ ... طعْنــاً سيبقــىٰ عبـرةً لمـن اعتبَـرْ
نــاداهُ قَلْــبُ الأمّ كُــفَّ يــداً ولا ... تـذبـحْ فُـؤادي مـرتَيْـن علـى الأَثَـرْ

ـ ومن شعرهِ الجميلِ قصيدتُه الشهيرة «حديث ضرير» حيثُ يقول:

يــا أمُّ مــا شكْــلُ السَّمــا ... ء ومــا الضّيــاءُ ومــا القَمَــرْ
بجمــالِهــا تتحــدّثُــو ... ن ولا أرىٰ منهــا الأثَــرْ=

أدياتِ المشرقِ العربيّ المجليات في العِلْم والمعرفةِ والرّقيّ والتّهذيب ، وكان ثناءُ إبراهيم المنذر هذا عام (١٩٣٢ م)[1] حيث قال : «لم يخطرْ لي في بالٍ أنَّ الأديبةَ وداد سكاكيني هي ذلك الكاتبُ على ندورِ المُنْشِئاتِ المجيداتِ في هذه الدّيار ، فبرقَتْ أَسِرَّةُ وجهي ، وأثنيتُ عليها ثناءً طيباً ، وغبطتُ البلادَ بفتاةٍ تقفُ بفخرٍ إلى جانبِ سيّدات العِلْم ، وفتياتِ الأَدَبِ ، فتختطُّ فريقاً جديداً من الرّقي النّسويّ تسلكُه صغيراتُ العصرِ الجالساتِ على مقاعدِ المدرسةِ ، وُصُولاً إلى الهدفِ الذي نرمي إليه من تعليمِ المرأةِ وتهذيبها تهذيباً نقيّاً عالياً» .

* وفي العام ذاتِه (١٩٣٢ م) أصدرتْ وداد سكاكيني كتابَها «الخَطَرات» فاطّلع عليه شاعرُ الأَرْزِ وشاعرُ لبنان «الأخطل الصّغير بشارة الخوري» فأُعجبَ به ، واعتبرَهُ غذاءً للنّاشئة ؛ إذ يشرقُ بالفكرِ والأدبِ والبيَان ، يقولُ الأخطلُ هذا في عام (١٩٣٢ م) ما نصُّه : «تصفَّحْتُ كتابَ «الخطَرات» الذي وضعَتْهُ الأديبةُ وداد سكاكيني ، فإذا أنا عند خطراتٍ خليقة بأنْ تكونَ

= هلْ هذهِ الدّنيا ظلا ... مٌ في ظلامٍ مُستمرْ
يا أمُّ مدّي لي يدَيْـ ... ـكِ عسىْ يُزايلني الضّررْ
أمشي أخافُ تعثّراً ... وسط النّهار أو السَّحرْ
لا أهتدي في السَّيْر إنْ ... طالَ الطريقُ وإنْ قَصُرْ
أمشي أحاذرُ أنْ يصا ... دفَني إذا أخطُو خَطَرْ
والأرضُ عندي يستوي ... منها البسَائطُ والحُفَرْ
عكّازتي هيَ ناظري ... هلْ في جمادٍ منْ بَصَرْ
يجري الصِّغارُ ويلعبونَ ... ويرتعونَ ولا ضَرَرْ
وأنا ضريرٌ قاعدٌ ... في عقْرِ بيتي مُستقرْ
اللهُ يلطفُ بي ويصرفُ ... ما أقاسي من كَدَرْ

(١) لاحظْ عزيزي القارىء أنَّ وداد سكاكيني كانت لا تزال في سن الورد والزهر لم تتجاوز تسعة عشر عاماً ، ومع هذا انتزعت بأدبها إعجاب البلغاء والأدباء .

غذاءً للنّاشئة فكْراً ، وبياناً ، وأدباً ، وتساهلاً. إنّ «الخطراتِ» هذه تثني من نفسها على اليراعةِ الحكيمةِ التي دبَّجَتْها ، والرُّوح الطّيبة التي أوحتها».

* وممن أدلىٰ دلْوه في الثَّناء العَطرِ على السَّيّدة وداد سكاكيني الشّيخُ الأديبُ «أحمد عارف الزَّين» صاحبُ مجلّة «العرفان» الشّهيرة في الثّلاثينات ، فقد أثنىٰ على وداد الأديبةِ التي كانت تنضحُ وتنفحُ مجلّتَه بنفحاتِها الجميلةِ الزّاهرة ، فقال في عام (١٩٣٢ م): «وقد نبغَ في مصرَ وسورية نساءٌ يُفْتَخرُ بعبقريتهنَّ ونهضتهنَّ؛ منهنَّ الأديبةُ ودادُ سكاكيني التي رأيناها تنفحُ «العِرفانَ» من وقتٍ لآخر بنفحاتِها الطيّبة ، وأُعجِبْنا باختيارِ المواضيعِ التي طرقَتْها ، وحُسْنِ كتابتها».

* أمّا الأديب المتميز «سامي الكيالي» صاحب كتاب «الأدب العربيّ المعاصر في سورية» ، فإنّه أثنىٰ على السَّيّدة وداد بما تستحقُّه من ثناءٍ عَطِر ، إذ قال عنها: «نال المجتمعُ العربيُّ بشتّىٰ صُوَره ومختلفِ ألوانه الكثيرَ من اهتمامِها ، فوصفَتْه ووصفَتْ مفارقاتِه ، ومظاهر حياته بنزعةِ الأدبِ وروحِ القاصّ. تلمسُ هذا واضحاً في الكتب والقصص التي أصدرتْها؛ وبالرغم من استجابتها لِنزعاتِ التطوّر في الأدبِ الحديث ، ظلّتْ مشدودةً إلى أدبِ القديمِ تَعُبُّ من روائعِهِ ، وتستلهمُ صُوَرَهُ».

* ويأتي النّاقدُ المشهور الدكتور «محمد مندور» ليسجّلَ لوداد سكاكيني ثناءً خاصاً ، إذا اعتبرهَا قاصّة وناقدةً كبيرةً قديرةً ، يقول الدكتور مندور عن وداد سكاكيني: «وإذا كان قرّاءُ العربيةِ قد عرفُوها أديبةً قصصيةً ملتزمةً بالقيم الإنسانيةِ الرّفيعةِ ، فإنّهم قد عرفوها أيضاً ناقدةً ملتزمةً ، وبخاصةٍ بعد أن أوضحنا أنَّ السَّيّدة وداد سكاكيني لم تأتِ إلى الالتزام متأثّرةً بمفهومهِ الجديدِ في الأدبِ العالمي ، بل أتَتْ إليه مسوقةً بطبعها المخلصِ الجريءِ الذي لا يخشىٰ مسؤوليّة الرّأي ولا يماري فيها. فهي كناقدةٍ

لا تجرحُ إلاّ ما تراه جديراً بالتّجريح من الآراءِ والاتّجاهات التي ينتهي إليها الأدباءُ والباحثون ، فيما تتناوله النّاقدة من مؤلفاتِهم الأدبية أو الثّقافية العامّة».

* وتقولُ الأستاذة «سُليمىٰ العظم» في الثَّناء على وداد سكاكيني ما محصّله وملخّصه: «كانت أوّل امرأةٍ تحدّثَتْ من الإذاعةِ السُّورية واللبنانية. . كان إبداعُها مبكّراً في الثّلاثينات. . . كانت ثقافتُها ثقافةً عربيةً خالصةً ، فكانت تأخذُ ألفاظَها من القُرآنِ الكريم ، وهو سندها ومقياسُها وقاموسُها ، وموقفُها من العربية موقفٌ صريحٌ هو الالتزامُ بالعربيّة ، والدّفاع عنها إلى آخر لحظة. . ».

* وقال «سمر روحي الفيصل»: «كانت قصصُها ومقالاتُها تتصدَّرُ الصَّحافةَ الأدبيةَ ، وكان صوتُها المملوءُ حماسةً يدوي دفاعاً عن الأدبِ والأدباء ، ويعلنُ ميلادَ صوتٍ نسويّ ذي نكْهةٍ خاصّة في عالَم القصّة. . ».

* ويقولُ كاتب هذه السُّطور أبو نور الدِّين أحمد خليل جُمعة الحرستانيّ الدّمشقيّ عن السَّيّدة وداد سكاكيني: «الأديبةُ الكبيرةُ ، والنَّاقدةُ القديرةُ ، وداد بنتَ محمّد سكاكيني الصَّيداويّة ثمّ الدّمشقية ، صاحبةُ القلم السَّاحر ، والأسلوبُ الآسر ، والكلماتُ الجميلة ، والمعاني الجليلة. . . فكلماتُها تدلُّ عليها ، وأسلوبُها يرسمُ شخصيّتها ، فهو يمتازُ بالسُّهولةِ والوضوح ، ويزدانُ بالذَّوق الرّفيع في سَبْك الكلام ، وحسْنِ المقام ، كما تمتازُ بالعاطفةِ الصَّادقة الغيورة على الأدبِ الأصيل والتّراث الجليل. . تزوّدت بالعِلْم والمعرفةِ ، وتسلّحَتْ بأدبِ القُرآن ، حتى غَدَتْ دقيقةَ الملاحظةِ ، جيّدَة الفكْرة ، ترتفعُ بالأفكارِ والمعاني والأسلوب إلى مصافِّ كبارِ الأدباءِ المعاصرين ، ويجعلُها من الخالداتِ في دنيا نساءِ المشرقِ العربيّ».

* هذا ولو أردنا أنْ نجمعَ ما كُتِبَ من تقاريظَ وثناءاتٍ عن السَّيّدة وداد سكاكيني لما اتّسع المجالُ لذلك ، ولكنْ فيما أوردناه كفايةً ، ويمكنُ أنْ يلقيَ الأضواءَ على مكانتِها الأدبيّة ، كما يوضّحُ قيمةَ الأدبِ النّسوي المعاصر في شتّىٰ ألوانِ الأدب وفُنونه .

* بقي أنْ نعلمَ بأنَّ الكلماتِ لا تَسُدُّ إلا جزءاً يسيراً من مكانةِ السَّيدة وداد الأدبيَّة ، لأنَّها قاصّةٌ ، وروائيةٌ ، وناقدةٌ ، وباحثةٌ ، وأديبةٌ ، ومفكّرةٌ واعيةٌ ، وهي أوّلُ امرأةٍ سوريةٍ تفوزُ بجائزةِ القصّة في منتصف الثّلاثينات في لبنان ، وهي كذلك أوّل سورية تطبعُ مجموعةً قصصيّة في القاهرة عام (١٩٤٧ م) ، بالإضافة إلى أوّليات كثيرة تزيدُ من رصيدها في عالمي الأدبِ والمعرفة .

الـرّحْلَـةُ الأَخيْـرَةُ:

* على مدىٰ أكثر من نصف قَرنٍ من الزَّمن ، والقلمُ يصاحبُ أناملَ السَّيّدة وداد سكاكيني ، ليسكبَ بمدادِهِ ما يمليهِ عليها وجدانُها وفكرُهَا في أنواعِ الأدبِ وفنونِهِ ، وكلّما تقدمتْ بها السِّنُّ ارتقىٰ فكرُهَا ، وحلا أسلوبُها ؛ وتألّق عطاؤُها .

* ولما شارفت على السَّبعين بدأتْ رحلتُها مع المرضِ الذي كان يزورُها دائماً ، ولا يكادُ يفارقُها ، وكانت تفرشُ له المطارفَ والحشايا ، بيد أنَّه أبىٰ إلاّ أن يبيتَ في عظامِها وأعصابِها . . . وأبىٰ هذا المرضُ إلا أن يؤثّر في أديبتنا الفاضلة التي عاركَتْه حيناً من الدَّهر . . . وغدتْ في سنيّها الأخيرةِ قعيدةَ الفراش ، فكانت تشعرُ أحياناً بمرارةِ العزلةِ الأدبيّة ، وتشعرُ بالأسىٰ لأنَّها لا تقدرُ على المشاركاتِ الأدبيةِ والفكريةِ ، بيد أنَّ ابنتَها الفاضلة السَّيدة «سماء زكي المحاسني» كانت تكتبُ ما تمليه عليها ، ومن ثمّ تنشرُ مقالاتها في بعضِ المجلاّت الثّقافية في سورية .

* وقد عبّرتِ السَّيدةُ وداد عن مشاعرِها التي كانت تنتابُها وهي مريضةٌ ، فقالت في الحوارِ الأخير الذي أجرتْهُ معها «رغداء مارديني» بتاريخ (٢/ ٧/ ١٩٩٠ م) أيّ قبل وفاتها ببضعة شهور: «أعيشُ في وحدتي وغربتي مع المرضِ المُستعصي ، فأتلهّىٰ بالقراءةِ والكتابةِ ، راجيةً أنْ يأتيَ اليوم الذي ستظهرُ فيه آخرُ أعمالي مطبوعةً ومنشورة».

* وفي يومٍ من أيّام دمشق ، كان رحيلُ السَّيّدة وداد سكاكيني ، حيث شيّعَتْ دمشقُ بل دنيا الأدب والعالمُ العربي فقيدةَ الأدبِ وداد سكاكيني ، وكان ذلك يوم (٣ كانون ثاني) من عام (١٩٩١ م) عن عمر يناهزُ (٧٨ عاماً) وبموتها انهدّ ركنٌ حصينٌ منَ الأدبِ النَّسوي المشرقيّ المعاصر. . . بيد أنَّ آثارها تدلُّ عليها ، وتجعلُها ماثلةً في وجدانِ من يحبّون اللغة العربيّة.

* وشاركتِ الصُّحفُ والمجلاّتُ والأديباتُ وعددٌ من الأدباءِ في الكتابةِ عنها ، وأسفُوا لوفاتِها ، ولكنَّ الموتَ مصيرُنا جميعاً ، فرحمَ اللهُ وداد سكاكيني ، وأدخلنا جميعاً برحمتهِ في عبادهِ الصَّالحين.

* * *

من وحي الشعر

* بينما كنتُ أدفعُ هذا الكتابَ للطَّبع ، إذ وصلَتْ إليَّ قصيدةٌ جميلةٌ تميسُ بقدّها اللطيف ، وقافيتها المُقمِرة ومعانيها التي تداعبُ الألبابَ والأفكار ، وتهتزُّ كالغُصنِ الذي أشرقَ فوقَه النّوار ، وقد صاغها محمّد منير الحمويّ الشّاعر الذي يحرّكُ بشعرِه القُلوبَ والمشَاعر ، وكان قد اطّلع على فكرةِ الكتاب ، وقرأَ أبوابَه وفصولَه ، وفهمَ مقاصِدَهُ ، فجادتْ قريحتُه بهذه الهمزيةِ التي تشبهُ اعتلالَ النّسيم في أصائلهِ ، والورد في تألقه ودلاله ، والقصيدة هي :

أَعْدَدتَ سِفْراً مُونقاً مثلَ السَّنَاءْ ... ضَمَّنْتَه سِيَرَ المَصُون منَ النِّساءْ
كـرَّمْـتَ ذاتَ أَصَـالـةٍ ومكَـانَـةٍ ... مَنْ ساهَمَتْ بالعلْمِ مثلَ العُلَماءْ
دافَعْـتَ عمَّـنْ قَدْ أثَارُوا حَوْلَهـا ... تُهَمـاً ومَـنْ رُميَـتْ بـزُورٍ وادّعَـاءْ
فجَلَوْتَ صُورتَها وصُنْتَ عفَافَها ... بصَحيحِ حُكْمٍ ناصِعٍ صَفْو الضِّيَاءْ
واليـومَ نَقْـرأُ فـي كِتَـابـكَ نُخْبـةً ... ممّن عُرِفْنَ بطيْبِ أَصْلٍ وانتماءْ
أوْ كُـنَّ ممّـنْ يُسْتَشَـرنَ بحكْمَـةٍ ... أو فَكْـرةٍ يهفـو إليهـا الأذْكيَـاءْ
منهـنَّ مَـنْ تَـروي وتحفـظُ سُنَّـةً ... ولَها الفَضَائِلُ والمكارِمُ والحَياءْ
فَبدأْتَ سِفْركَ مَنْ بُهَيْسَةَ وانتهىٰ ... بِوِدادِ هذا العَصْر تَـنْـقُدُ في جَلاء
ولسيـرة الخَنْسـاءِ كنْـتَ مـوضّحـاً ... ومبيّنـاً عمّـا عَـراهَـا مـنْ هـرَاءْ
وذكرْتَ هِنْداً والزَّيانِبَ بَعْدَها ... وذكرتَ فَارِعَةَ الفَصَاحةِ لا مِراءْ
أكْثَرْتَ منْ ذِكْرِ الفَواطِمِ يَا لَهَا ... مـنْ لفْتَـةٍ لـلإِسْـمِ يَسْمُـو بـارتقَـاءْ
عنْ شُهْدَةٍ قد كُنْتَ فيْها منْصِفاً ... وكَـريْمـةٍ وكـذاكَ آمنـةَ السَّخَـاءْ

أظْهَرْتَ بالرّأيِ السَّديدِ مكَانةً لجميعهِنَّ فَنِعْمَ أَخْلاقُ الوَفَاءْ
ولهُنّ كنْتَ أخَا دِفَاعٍ منْصِفٍ كيلا يُهانَ لهنَّ عرضٌ أو إبَاءْ
فبذَلْتَ أقْصَى ما أتىٰ مِنْ حجّةٍ وبحثْتَ في الأَخْبارِ تُصْمِي الأدعياءْ
ورقَشْتَ صَفَحاتٍ كأَنَّ نظَامَها مثْلُ اكْتِحَالِ الغِيْدِ في يَوم الهَنَاءْ
فتوجَّهَ القُرّاءُ في ثِقَةٍ لكُمْ يا أَحْمدَ الخَيْراتِ يُهْدُونَ الدُّعَاءْ

* والآن ، تعالوا أحبّائي الكرام ندعو اللهَ أنْ يجعلَنا منَ الذين يستمعونَ القَولَ فيتّبعون أحْسَنه ، وأنْ يجعلَنا من أهلِ الفَلاحِ والصَّلاحِ.

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

* * * *
* * *
* *
*

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المصادر والمراجع[1]

١ ـ القُرآنُ الكريم .
٢ ـ الصَّحيحان : [البخاري ومسلم] .
٣ ـ السُّنَنُ الأَربعة .
٤ ـ المسَانيد .
٥ ـ كتُبُ التَّفسيرِ المتنّوعةِ : قديمُها وحديثُها .
٦ ـ الآدابُ الشَّرعيّة : لابنِ مفلح المقدسيّ ـ تحقيق شُعيب الأرناؤوط وعمرُ القيّام ـ مؤسَّسةُ الرّسالة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٩٦ م .
٧ ـ اتّجاهاتُ الشِّعرِ العربيّ في القُرن الثَّاني الهِجريّ : د. محمّد مصطفى هدّارة ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٧٨ م .
٨ ـ الأخبارُ الموفّقيّات : للزُّبير بن بكّار ـ تحقيق د. سامي مكّي العاني ـ بغداد ـ ١٩٧٢ م .

---

(١) كانت المصادرُ والمراجعُ التي عُدنا إليها في هذا الكتاب كثيرةً جداً ، بالإضافة إلى كثير من الدّواوين الشّعرية والمجلاّت والدّوريات والأبحاث المنثورة المنشورة هنا وهناك على امتدادٍ واسعٍ من هذه الأرض؛ وسيجدُ القارىء الكريم مصداق ذلك وهو يسافرُ بذهنهِ في هذا السّفر المزدان بما تشتهيه الأنفسُ ، وقد سجّلنا أهم المصّادر والمراجع في هذا الثّبت ، ومن أراد الاستزادة فعليه بالحواشي .

٩ ـ **أخبارُ النِّساء**: لابن قيّم الجوزيّة ـ مكتبةُ الحيَاة ـ بيروت ـ لبنان.

١٠ ـ **أدبُ الدّنيا والدِّين**: للماورديّ ـ تحقيق ياسين السَّوّاس ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٢ م.

١١ ـ **أَدبُ الكُتَّاب**: للصّوليّ ـ شرح وتعليق أحمد حَسَن بَسَج ـ دار الكتبُ العلمّية ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٤ م.

١٢ ـ **أساسُ البَلاغةِ**: للزّمخشريّ ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٩٤ م.

١٣ ـ **أسبابُ النّزول**: للواحديّ ـ تحقيق كمال بسيوني زغلول ـ دار الكتبُ العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩١ م. وطبعة دار ابن كثير بدمشق.

١٤ ـ **أستاذُ المرأةِ**: لمحمّد سالم البيحاني ـ مطبعة المدنيّ ـ القاهرة ـ ط ٣ ـ دون تاريخ.

١٥ ـ **الاستيعابُ ـ بهامشِ الإصابةِ ـ**: لابن عبد البرّ ـ تحقيق د. طه محمّد الزّيني ـ مكتبةُ ابن تيمية ـ القاهرة ـ ط ١ ـ ١٤١١ هـ.

١٦ ـ **أسدُ الغابةِ في معرفةِ الصَّحابةِ**: لابن الأثير ـ دار الفكْرِ ـ طبعة مصوّرة عن طبعةِ دار الشَّعب المحقّقة ـ بيروت ـ ١٩٨٩ م، وطبعة دار الكتُب العلميّة المحقّقة.

١٧ ـ **الاشتقاقُ**: لابنِ دريد ـ تحقيق عبد السَّلام هارون ـ القاهرة ـ ١٩٥٨ م.

١٨ ـ **الإصابةُ في تمييز الصَّحابة**: لابن حجر العَسْقَلاني ـ تحقيق د. محمّد طه الزّيني ـ مكتبة ابن تيميّة ـ القَاهِرة ـ ط ١ ـ ١٤١١ هـ.

١٩ ـ **الأعلامُ**: لخير الدِّين الزِّركليّ ـ دار العِلْم للملايين ـ بيروت ـ ط ٨ ـ ١٩٨٤ م ـ وطبعة مصورة في عشرةِ أجزاء.

٢٠ ـ **أعلامُ النّساء**: لعمر رضا كَحّالة ـ مؤسَّسةُ الرِّسالة ـ بيروت ـ ط ٩ ـ ١٩٨٩ م.

٢١ ـ **أعيانُ العَصْر وأعوانُ النَّصر**: لخليل بن أيبك الصَّفديّ ـ تحقيق فالح أحمد البكور ـ دارُ الفكْرِ ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٨ م.

٢٢ ـ **الأَغاني**: للأَصْفَهانيّ ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٩٢ م. وطبعة مصر.

٢٣ ـ **الاقتباسُ منَ القُرآن الكريم**: للثَّعالبي ـ تحقيق ابتسام الصَّفار ـ طبعة مصوّرة.

٢٤ ـ **الأمَالي**: لأبي علي القاليّ ـ طبعة مصر ـ ١٩٥٣ م؛ وطبعاتٌ أخرى.

٢٥ ـ **أمالي المُرتضى (غررُ الفوائد ودررُ القلائد)**: للشَّريف المرتضىٰ ـ تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ـ دار إحياء الكتب العربيّة ـ القاهرة ـ ١٩٥٤ م.

٢٦ ـ **الإمتاعُ والمؤانسةُ**: لأبي حيّان التّوحيدي ـ تحقيق أحمد أمين ورفيقَيْه ـ مطبعةُ لجنةِ التّأليف ـ مصر ـ ١٩٣٩ م ـ وطبعاتٌ أخرى.

٢٧ ـ **إنباءُ الغَمر**: لابن حجر العَسْقلاني ـ طبعة مصوّرة ببيروت.

٢٨ ـ **الأنسابُ**: للسَّمعاني ـ طبعات مختلفة.

٢٩ ـ **أيّامُ العربِ في الإسْلام**: لمحمد أحمد جاد المولى ورفيقَيْه ـ طبعة مصوّرة عن طبعة مصر ـ دون تاريخ.

٣٠ ـ **أيّامُ العربِ في الجاهليّة**: لمحمد أحمد جاد المولى ورفيقَيْه ـ طبعة مصوّرة عن طبعةِ مصر ـ دون تاريخ.

٣١ـ بدائعُ البَدائِـهِ: لابن ظافر الأَزْديّ ـ تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ـ مكتبة الأنجلو المصريّة ـ ١٩٧٠ م.

٣٢ـ البدايةُ والنّهايةُ: لابن كثير ـ دار الفكْر ـ طبعة مصوّرة ـ بيروت ـ ١٩٧٨ م. وطبعاتٌ أخرى متنوعة.

٣٣ـ برنامجُ ابنِ جابر الوادي آشي ـ لابنِ جابر الوادي آشي ـ تحقيق د. محمد الحبيب الهيلة ـ مطبوعات مركز البحث العلميّ بجامعة أمّ القرى بمكة ـ ١٩٨١ م.

٣٤ـ البصائرُ والذَّخائر: لأبي حيّان التّوحيدي ـ تحقيق د. وداد القاضي ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٤٠٨ هـ.

٣٥ـ بلاغاتُ النّساء: لابن طيفور الخراسانيّ ـ طبعة القاهرة ـ ١٩٠٨ م ـ وطبعة مكتبة السُّندس بالكويت ـ ١٩٩٣ م.

٣٦ـ بلوغُ الأربِ: للآلوسي ـ تحقيق محمد بهجة الأثريّ ـ المطبعة الرّحمانية ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٢٤ م.

٣٧ـ بناتُ الصَّحابة: لأحمد بنِ خليل جُمعُةَ الحرستانيّ الدّمشقيّ ـ دارُ اليمامة ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٩ م.

٣٨ـ بهجةُ المجالِس وأُنْسِ المُجالس: لابن عبد البرّ ـ تحقيق محمّد مرسي الخولي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ دون تاريخ.

٣٩ـ البيانُ والتّبيين: لأبي عُثمان الجاحظ ـ تحقيق عبد السَّلام هارون ـ مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنَّشْر ـ القاهرة ـ ١٩٤٩ م.

٤٠ـ تاجُ العروسِ من جواهرِ القاموس: للزَّبيدي ـ المطبعةُ الخيرية ـ مصر ـ ١٣٠٦ هـ. وطبعةُ دارِ الفكر ببيروت. وطبعة الكويت.

٤١ ـ **تاريخُ آدابِ العربِ**: لمصطفى صادق الرّافعيّ ـ طبعة مصر ـ وطبعةُ دار الكتاب العربيّ ببيروت.

٤٢ ـ **تاريخُ الأدبِ العربيّ**: لعمر فرّوخ ـ دار العلْمِ ـ بيروت ـ ط ٤ ـ ١٩٨١ م.

٤٣ ـ **تاريخُ الأُممِ والمُلوك (تاريخ الطَّبري)** للطَّبري: دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٨٨ م ، وطبعة مصْرَ المحقّقة.

٤٤ ـ **تاريخُ بغداد**: للخطيب البغداديّ ـ دار الكتاب العربيّ ـ بيروت.

٤٥ ـ **تاريخُ مدينةِ دمشق (تراجم النّساء)**: لابن عسَاكر ـ تحقيق سكينة الشّهابي ـ مصوّرة دار الفكر ـ دمشق.

٤٦ ـ **تاريخ مكّة**: للأزرقيّ ـ المكتبةُ التّجارية ـ مكّة المكرمة ـ ط ١ ـ ١٤١٦ هـ.

٤٧ ـ **تحفةُ العروسِ ومتعةُ النُّفوس**: للتّجاني ـ تحقيق جليل العطيّة ـ دار الرّيس ـ لندن وقبرص ـ ط ١ ـ ١٩٩٢ م.

٤٨ ـ **تذكرةُ الحفّاظ**: للذَّهبيّ ـ طبعةُ مصوّرة بدارِ إحياءِ التّراث العربيّ.

٤٩ ـ **التّذكرة الحمدونيّة**: للحمدونيّ ـ تحقيق د. إحسان عبّاس وبكر عبّاس ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٨ م.

٥٠ ـ **التّراتيبُ الإدارية**: للكتّاني ـ طبعة مصوّرة.

٥١ ـ **تزيينُ الأسْواق بتفصيل أشواق العشّاق**: لداود الأنطاكيّ ـ تحقيق د. محمّد التونجي ـ عالَم الكتب ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٣ م.

٥٢ ـ **تطوّرُ الغزَلِ بين الجاهليّةِ والإسلام**: د. شكري فيصل ـ دار العِلْم للملايين ـ بيروت ـ ط ٥ ـ دون تاريخ.

٥٣ ـ تغريدُ السِّيرةِ النّبويةِ: لمحمد عايش عُبيد ـ دار التّراث ـ القاهرة ـ دون تاريخ أو رقم الطَّبعة.

٥٤ ـ التَّقييد لمعرفةِ الرّواة والسُّنن والمسَانيد: لابن نقطة ـ دائرةُ المعارفِ العثمانية بالهند ـ ١٩٨٣ م.

٥٥ ـ تهذيبُ الأسماءِ واللّغات: للنَّووي ـ دار الفكْرِ ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٦ م.

٥٦ ـ تهذيبُ تاريخِ دمشق الكبيرِ لابن عساكر: هذّبه عبد القادر بدران ـ دار المسيرة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٣٩٩ هـ.

٥٧ ـ تهذيبُ التَّهذيب: لابن حجر العَسْقَلاني ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٥ م. وطبعةُ دار الكتاب الإسلاميّ بالقَاهرة.

٥٨ ـ ثمارُ القلوبِ في المُضاف والمنْسُوب: للثَّعالبي ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار نهضةِ مصر ـ ١٩٦٥ م.

٥٩ ـ ثمراتُ الأوراقِ بهامش المُستطرف: للحمويّ ـ طبعة دار الفكر المصورة ـ بيروت ـ دون تاريخ.

٦٠ ـ الجليسُ الصَّالح الكافي: للنَّهرواني ـ تحقيق د. محمد مرسي الخولي، ود. إحسان عباس ـ عالَم الكتب ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٣ م.

٦١ ـ جمهرةُ الأمثالِ: للعَسْكري ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٨ م.

٦٢ ـ جمهرةُ أنسابِ العربِ: لابن حزم الأندلسيّ ـ تحقيق عبد السَّلام هارون ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط ٥ ـ دون تاريخ.

٦٣ ـ جهودُ المرأةِ في روايةِ الحديث: للدكتور صالح يوسُف معتوق ـ دارُ البشَائر الإسلاميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٧ م.

٦٤ ـ جوامعُ السِّيرةِ النّبوية : لابن حزم ـ تحقيق د. إحسان عبّاس ود. ناصر الدّين الأسد ـ دار المعارف ـ مصر ـ دون تاريخ.

٦٥ ـ جواهِرُ الأدبِ في أدبيّات وإنشاءِ لغةِ العرب : للسّيّد أحمد الهاشميّ ـ مؤسّسة المعارف ـ بيروت ـ لُبنان ـ دون تاريخ.

٦٦ ـ الحَدائقُ الغنَّاء في أخبارِ النّساء : لأبي الحَسَن المعافريّ المالقيّ ـ تحقيق د. عائدة الطّيبي ـ الدّارُ العربيّة للكتاب ـ ليبيا ـ تُونُس ـ ط ١ ـ ١٩٧٨ م.

٦٧ ـ حضَارةُ العرب : لجوستاف لُوبون ـ ترجمة عادل زعيتر ـ مصر ـ ط ٢ ـ ١٩٤٨ م.

٦٨ ـ حليةُ الأولياء : لأبي نُعيم الأصبهانيّ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٦٧ م.

٦٩ ـ الحماسةُ : لأبي تمّام ـ تحقيق د. عبد الله عسيلان ـ جامعة محمد بن سعود الإسلاميّة ـ الرّياض ـ وطبعة مصر ـ المكتبة التّجارية.

٧٠ ـ الحماسةُ : للبُحتري ـ طبعة مصوّرة ـ بيروت ـ ١٩٨٠ م.

٧١ ـ الحماسةُ البصريّة : لعلي بن أبي الفرج البصريّ ـ تحقيق د. عادل سُليمان جمال ـ القاهرة ـ ١٩٨٧ م.

٧٢ ـ حياةُ الصَّحابة : للكاندهلويّ ـ بعنايةِ نايف العبّاس ورفيقه ـ دار القَلَم ـ دمشق ـ ط ٤ ـ ١٩٨٦ م.

٧٣ ـ الحيوانُ : للجاحظ ـ تحقيق عبد السَّلام هارون ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٦٥ م.

٧٤ ـ خريدةُ القصرِ وجريدةُ العَصْر (قسم شعراء مصر) : للعمادِ الأصفهاني ـ طبعة تونُس المحقّقة.

٧٥ ـ خزانةُ الأدب: للبغداديّ ـ قدم له: د. محمد نبيل طريفي ـ دار الكتُب العلمية ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٨ م. وطبعةُ بولاق ـ ١٢٩٩ هـ.

٧٦ ـ خُطط الشَّام: لمحمد كُرد علي ـ طبعة مصوّرة ـ بيروت ـ ١٩٦٩ م.

٧٧ ـ الخنساءُ: لبنتِ الشَّاطيء ـ طبعة مصر ـ ١٩٥٧ م.

٧٨ ـ الخنساءُ شاعرةُ بني سُليم: د. محمد جابر الحيني ـ سلسلة الأعلام ـ مصر.

٧٩ ـ دائرةُ المعارفِ الإسلاميّة: نقَلها إلى العربية ـ إبراهيم خورشيد ورفيقيه ـ كتاب الشّعب ـ مصر ـ ١٩٣٣ م.

٨٠ ـ الدّارسُ في تاريخِ المدارس: للنّعيمي ـ تحقيق جعفر الحُسيني ـ منشورات المجمع العلميّ العربيّ ـ دمشق ـ ١٩٤٨ م.

٨١ ـ الدّررُ الكامنةُ في أعيانِ المئةِ الثّامنة: لابن حجر العسقلاني ـ طبعة مصوّرة دون ذكْر التّاريخ أو اسم الدّار أو رقم الطَّبْعة.

٨٢ ـ الدُّر المنثور: لزينب فوّاز ـ طبعة مصوّرة ـ الكويت ـ دون تاريخ.

٨٣ ـ درّةُ الحجالِ في أسماءِ الرّجال: لابن القاضي ـ تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور ـ دار التّراث بالقاهرة والمكتبة العتيقة بتونس ١٣٩١ هـ.

٨٤ ـ الدّليلُ الشّافي على المنهلِ الصَّافي: لابن تغري بردي ـ تحقيق فهيم محمد شلتوت ـ جامعة أمّ القرى ـ مكّة المكرمة ـ ١٩٧٥ م.

٨٥ ـ ديوان أبي نُواس: لأبي نُواس ـ عدّة طبعات مختلفة آخرها طبعة دار صادر ـ بيروت.

٨٦ ـ ديوانُ الأعشىٰ: للأعشى ـ طبعة مصوّرة ـ بيروت.

٨٧ـ **ديوان امرىءِ القيس**: لامرىءِ القيس ـ تحقيق محمد أبو الفَضْل إبراهيم ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط ٢ ـ دون تاريخ وطبعات أخر.

٨٨ـ **ديوانُ أميّةَ بنِ أبي الصَّلت**: لأميّة بن أبي الصَّلت ـ جمع وتحقيق ودراسة د. عبد الحفيظ السَّطْلي ـ المطبعة التّعاونية ـ دمشق ـ ١٩٧٤ م.

٨٩ـ **ديوانُ البُوصيري**: للبُوصيري ـ تحقيق محمد سعيد كيلاني ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٣٧٤ هـ.

٩٠ ـ **ديوانُ جرير**: لجرير ـ بشرحِ محمد بن حبيب ـ تحقيق د. نعمان محمد أمين طه ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط ٣ ـ دون تاريخ.

٩١ ـ **ديوان حاتم الطَّائي وأخباره**.

٩٢ ـ **ديوان حسّان بن ثابت**: لحسّان ـ تحقيق د. سيد حنفي حسين ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٧٤ م ـ وطبعة البرقوقي ـ وطبعات أخر.

٩٣ ـ **ديوان حمَام**: لمحمد مصطفى حمام ـ الهيئةُ المصريّة العامّة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٧٤ م.

٩٤ ـ **ديوانَ الخِرنِق بنت بدر**: للخِرنق ـ تحقيق د. حُسين نصار ـ مطبعة دار الكتبُ ـ مصر ـ ١٩٦٩ م ـ وطبعة دار صادر ببيروت.

٩٥ ـ **ديوانُ الخَنْساء**: للخنْساء ـ تحقيق د. إبراهيم عوضَيْن ـ مصر ـ دون تاريخ ـ وطبعة دار الكتاب العربيّ ببيروت ـ وطبعات أخر.

٩٦ ـ **ديوانُ دريد بن الصِّمة**: لدريد ـ تحقيق د. عمر عبد الرّسول ـ دار المعارف ـ مصر ـ دون تاريخ.

٩٧ ـ **ديوانُ طرفةَ بنِ العبد البكريّ**: طبعة بيروت.

٩٨ ـ ديوانُ عاتكة الخزرجي: د. عاتكة الخزرجيّ ـ (المجموعة الشعّرية الكاملة) ـ الكويت ـ ١٩٨٦ م.

٩٩ ـ ديوانُ العَكَوّك (عليّ بن جَبَلة): للعكوك ـ جمعَه وحقّقه د. حسين عطوان ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط ٣ ـ دون تاريخ.

١٠٠ ـ ديوانُ ليلى الأخيليّة: لليلى الأخيليّة ـ عُني بجمعهِ وتحقيقه خليل العطيّة وجليل العطيّة ـ دار الجمهوريّة ـ بغداد ـ ١٩٦٧ م.

١٠١ ـ ديوانُ المتنبيّ: للمتنبي ـ طبعة البرقوقي وغيرها.

١٠٢ ـ ديوانُ مَجد الإسلام: لأحمد محرم ـ مكتبة الفلاح الكُويت ـ ط ١ ـ ١٤١٢ هـ.

١٠٣ ـ ديوانُ النَّابغةِ الذُّبياني: للنَّابغة ـ طبعةُ تونُس ـ ومصر ـ وطبعة بيروت ـ ١٩٦٨ م.

١٠٤ ـ الذَّخيرةُ: لابن بسّام ـ دار الثّقافة ـ بيروت ـ طبعة مصوّرة عن طبعة تونُس ـ وطبعةُ بيروت في أربعةِ أجزاء.

١٠٥ ـ ذمُّ الهوى: لابنِ الجوزي ـ تحقيق مصطفى عبد الواحد ـ دار الكتبُ الحديثة ـ مصر ـ مطبعة السَّعادة ـ ١٩٦٢ م.

١٠٦ ـ ذيلُ الأمالي والنّوادر: للقالي ـ المكتب التّجاري ـ بيروت.

١٠٧ ـ الذّيل على الرَّوضتين: لأبي شَامة ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٧٤ م.

١٠٨ ـ الذُّيل على طبقات الحنابلة: لابن رجب الحنبليّ ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ دون تاريخ.

١٠٩ ـ **الذُّيل على العِبَر**: لأبي زرعة العراقيّ ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ١٩٨٩ م.

١١٠ ـ **ربيعُ الأبرار**: للزّمخشري ـ تحقيق د. سليم النّعيمي ـ دار الذّخائر للمطبوعات ـ إيران ـ دون تاريخ.

١١١ ـ **رجالٌ مبشّرون بالجنَّة**: لأحمد بن خليل جُمُعَة الحرستانيّ الدّمشقيّ ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ٤ ـ ١٩٩٩ م.

١١٢ ـ **الرّحلةُ الأُنْسيّة في الرّحلة القدسيّة**: لعبد الغني النابلسيّ ـ تحقيق أكرم حَسَن العلبيّ ـ دار المصادر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٠ م.

١١٣ ـ **رحلةُ ابن بطوطة**: لابن بطوطة ـ تحقيق د. علي الكتّاني ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ٤ ـ ١٩٨٥ م.

١١٤ ـ **رسائلُ الجاحِظِ**: للجاحظِ ـ تحقيق عبد السَّلام محمّد هارون ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ دون تاريخ. وطبعة بيروت.

١١٥ ـ **رسالةُ الغُفْران**: لأبي العلاء المعريّ ـ طبعة بيروت.

١١٦ ـ **الرّسالةُ المحمديّةُ**: لعبد العزيز الثّعالبي ـ تحقيق د. صالح الخرقي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٧ م.

١١٧ ـ **روضةُ العُقلاء ونزهةُ الفُضلاء**: لأبي حاتم البُسْتي ـ مكتبةُ نزار الباز ـ مكّة المكرّمة ـ ط ١ ـ ١٩٩٦ م.

١١٨ ـ **الرّوضةُ الفيحاء في تواريخِ النّساء**: لياسين العُمري ـ تحقيق د. رجاء محمود السَّامرائي ـ الدار العربيّة للموسوعات ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٧ م.

١١٩ ـ **روضةُ المحبيّن ونزهةُ المشتاقين**: لابن قيّم الجوزية ـ دار ابن كثير ـ

دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٧ م ـ وطبعة بيروت ١٩٦٧ م ، وطبعات أخرى.

١٢٠ ـ **زادَ المعاد**: لابن قيّم الجوزيّة ـ تحقيق شُعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط ـ مؤسَّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ٦ ـ ١٩٨٤ م.

١٢١ ـ **زهرُ الآدابِ وثمرُ الألباب**: لأبي إسحاق الحصريّ القيروانيّ ـ تحقيق علي محمّد البجاوي ـ دار إحياء الكُتُب العربيّة ـ القاهرة ـ ط ١ ـ ١٩٥٣ م.

١٢٢ ـ **سُبُلُ الهدى والرّشاد في سيرةِ خيرِ العباد**: للصَّالحي ـ تحقيق د. مصطفى عبد الواحد وآخرون ـ لجنة إحياء التّراث الإسلاميّ ـ القاهرة ـ ١٩٩٣ م.

١٢٣ ـ **سرحُ العيون في شَرِح رسالةِ ابنِ زيدون**: لابن نُباتةَ المصريّ ـ تحقيق محمد أبو الفَضْل إبراهيم ـ منشورات المكتبة العصريّة ـ لبنان ـ صيدا ـ ١٤٠٦ هـ.

١٢٤ ـ **سلْكُ الدُّررِ في أعيانِ القرن الثّاني عَشَر**: لخليل المراديّ ـ دار البشَائر الإسلاميّة ـ بيروت ـ ط ٣ ـ ١٤٠٨ هـ.

١٢٥ ـ **السُّلوك في معرفةِ دولِ الملوك**: للمقريزي ـ قام بنشرِه محمّد مصطفى زيادة ـ مصر ـ ١٩٥٦ م. وطبعة دار الكُتب العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٧ م.

١٢٦ ـ **سمْطُ اللآلي في شرح أمالي القالي**: للبكريّ ـ تحقيق عبد العزيز الميمني ـ مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنَشْر ـ مصر ـ ١٣٥٤ هـ.

١٢٧ ـ **سيرُ أعلامِ النّبلاء**: للذّهبيّ ـ تحقيق ثلّة من العُلماء والأفاضل ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ٣ ـ ١٩٨٥ م.

١٢٨ ـ **السّيرةُ الحلبيّة (إنسان العُيون)**: لبرهان الدِّين الحلبيّ ـ مطبعة البابي الحلبيّ ـ مصر ـ ط ١ ـ ١٩٦٤ م.

١٢٩ ـ **السّيرةُ النّبويّة**: لابن هشام ـ تحقيق السَّقا ورفاقه ـ مطبعةُ البابي الحلبيّ ـ مصر ـ ط ٢ ـ ١٩٥٥ م. وطبعةُ دار الخير بدمشق، وطبعة دار ابن كثير.

١٣٠ ـ **شاعراتُ العربِ**: جمعُ وتحقيق عبد البديع صقر ـ المكتب الإسلاميّ ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٦٧ م.

١٣١ ـ **شاعرُ الغَزلِ**: لعبّاس محمود العقّاد ـ المكتبة العصريّة ـ صيدا.

١٣٢ ـ **شذراتُ الذّهبِ**: لابن العماد الحنبليّ ـ تحقيق محمود الأرناؤوط ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٨٦ وما بعدها ـ وطبعة مصر.

١٣٣ ـ **شرحُ ديوانِ امرىءِ القيس وأخبارُ المراقسة والنّوابغ**: جمعها حَسن السَّندوبي ـ دار إحياء العُلُوم ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٩٦ م.

١٣٤ ـ **شرحُ ديوان المتنبي**: للعكبريّ ـ تحقيق السَّقا والأبياري وشَلبي ـ القاهرة ـ ١٩٣٦. وغير ذلك من شُروح.

١٣٥ ـ **شرحُ ديوان الهُذليين**: للسُّكريّ ـ تحقيق عبد السّتَّار أحمد فراج ومراجعة محمود محمّد شاكر ـ مكتبة دار العروبة ـ القاهرة ـ دون تاريخ.

١٣٦ ـ **شرحُ شواهدِ المُغني**: للسّيوطي ـ القاهرة ـ ١٣٢٢ هـ ـ وطبعة بيروت ـ دون تاريخ.

١٣٧ ـ **شرحُ المعلّقات السّبع**: للزّوزني ـ طبعاتٌ مختلفة.

١٣٨ ـ **شرحُ المعلّقات العشر وأخبارُ شعرائها**: للشَّنقيطي ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ دون تاريخ.

١٣٩ ـ **شرحُ مقامات الحريريّ**: للشّريشي ـ تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ـ تصوير المكتبة العصريّة ـ صيدا ـ ١٩٩٢ م. وطبعة دار الكتبُ العلميّة المصوّرة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٣٩٩ هـ.

١٤٠ ـ **الشّعر والشّعراء**: لابن قُتيبة ـ تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ـ دارُ المعارفِ ـ مصر ـ ١٩٦٦ م.

١٤١ ـ **شعراء إسلاميّون**: لنُوري حمودي القيسيّ ـ عالَم الكتب ـ بيروت ـ دون تاريخ.

١٤٢ ـ **شفاءُ الغرامِ**: للفاسي ـ تحقيق د. عمر تدمريّ ـ دار الكِتاب العربيّ ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٥ م.

١٤٣ ـ **الشّكر للهِ عزَّ وجلَّ**: لابن أبي الدّنيا ـ دار ابن كثير ـ دمشق.

١٤٤ ـ **شمامةُ العَنْبر والزَّهر المُعَنْبر**: لمحمد بن مصطفى الغلاميّ ـ المجمع العلميّ ـ العراق ـ ١٩٧٧ م.

١٤٥ ـ **صبحُ الأعشى**: للقلقشندي ـ طبعة وزارة الثّقافة والإرشاد القوميّ ـ مصر.

١٤٦ ـ **صحيحُ ابن حبّان**: بعنايةِ كمال الحوت ـ دار الكتُب العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٧ م.

١٤٧ ـ **صفةُ الصّفوة**: لابن الجوزيّ ـ تحقيق محمود فاخوري ومحمد رواس قلعجي ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٧٩ م.

١٤٨ ـ **الصّلةُ**: لابن بشكوال ـ مصر ـ ١٩٦٦ م. وطبعة الخانجيّ ١٩٩٤ م.

١٤٩ ـ **صيدُ الخاطِر**: لابن الجوزيّ ـ تحقيق يوسُف بديوي ـ دار اليمامة ـ دمشق ط ١ ـ ١٩٩٩ م.

١٥٠ ـ الضّوءُ اللامع : للسّخاوي ـ مكتبة القدسيّ ـ القاهرة ـ ١٣٥٣ م.
١٥١ ـ طبقاتُ الشُّعراء : لابن المعتز ـ مصر.
١٥٢ ـ طبقاتُ فحولِ الشّعراء : لابن سلام الجمحيّ ـ قَرأَهُ وشرحه محمود محمّد شاكر ـ مطبعة المدنيّ ـ القاهرة ـ دون تاريخ.
١٥٣ ـ الطَّبقاتُ الكبرى : لابن سعد ـ تحقيق إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٥٤ ـ الطِّفْلُ في ضَوءِ القُرآنِ والسُّنَّةِ والأدبِ : لأحمد بن خليل جُمُعَة الحرستانيّ الدّمشقيّ ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٤٢١ هـ.
١٥٥ ـ العبرُ في خَبر مَنْ غبر : للذّهبيّ ـ تحقيق محمّد زغلول ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٥ م.
١٥٦ ـ العقدُ الثّمين في تاريخِ البلدِ الأمين : للفاسي ـ تحقيق فؤاد سيّد ـ القاهرة ـ ١٣٥٨ هـ.
١٥٧ ـ العِقْدُ الفريد : لابن عبد ربّه ـ تحقيق أحمد أمين ورفاقه ـ لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٦٢ م وطبعة محمّد سعيد العريان ١٩٤٩ م.
١٥٨ ـ العمدةُ : لابن رشيق ـ عدّة طبَعات.
١٥٩ ـ عنايةُ النّساءِ بالحديث النّبوي : لمشهور آل سلمان ـ دار ابن عفان ـ الخُبر ـ ط ٢ ـ ١٩٩٧ م.
١٦٠ ـ عيونُ الأثر : لابن سيّد النّاس ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ ط ٣ ١٩٨٢ م.
١٦١ ـ عيونُ الأخبار : لابن قُتيبة ـ مصوّرة عن دار الكتُب ـ مصر ـ ١٩٦٣ م.

١٦٢ ـ **الغَزَلُ عند العربِ**: لجان فاديه ـ ترجمة د. إبراهيم كيلاني ـ منشورات وزارة الثّقافة ـ دمشق ـ ط ٢ ـ ١٩٨٥ م.

١٦٣ ـ **الغزلُ في الشِّعر الجاهليّ**: د. أحمد الحوفي ـ دار القلم ـ بيروت دون تاريخ أو ذكْر رقم الطَّبْعة.

١٦٤ ـ **الغيثُ المسجم في شرحِ لاميّة العرب**: للصَّفدي ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٩٠ م.

١٦٥ ـ **فجرُ الإسلام**: لأحمد أمين ـ دار الكتاب العربيّ ـ بيروت.

١٦٦ ـ **الفرجُ بعد الشِّدّة**: للتّنوخي ـ تحقيق عبود الشّالجي ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٧٨ م.

١٦٧ ـ **فرسانٌ منَ التّاريخ**: لأحمد بن خليل جُمُعة الحرستانيّ الدّمشقيّ ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط ١ ـ ٢٠٠٠.

١٦٨ ـ **فرسانٌ منْ عَصْر النّبوة**: لأحمد بن خليل جُمُعة الحرستانيّ الدّمشقيّ ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٩ م.

١٦٩ ـ **فقْه اللغةِ وسرُّ العربيّة**: للثّعالبيّ ـ تحقيق مصطفى السّقا ـ القاهرة ـ ١٣٥٧ هـ ـ وطبعاتٌ أخرى.

١٧٠ ـ **فواتُ الوفيَات**: لابن شاكرِ الكتبيّ ـ تحقيق محيي الدّين عبد الحميد ـ مكتبة النّهضةِ المصريّةِ ـ القاهرة ـ ١٩٥١ م.

١٧١ ـ **في أصولِ تاريخِ العربِ الإسلاميّ**: لمحمد شُرّاب ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٣ م.

١٧٢ ـ **القاموسُ المحُيط**: للفيروز أبادي ـ مؤسّسةُ الرّسالة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٨٧ م.

١٧٣ ـ **قصصُ العربِ**: لمحمد أحمد جاد المولى ورفاقه ـ مطبعة البابيّ الحلبيّ ـ القاهرة ـ ١٩٥٦ م.

١٧٤ ـ **قطوفُ الرّيحان من زَهْر الأفنانِ شرح حديقة ابن الونّان**: لأحمد السّلاوي ـ دار روضة الصَّغير ـ الرّياض ـ ط ١ ـ ١٩٩٣ م.

١٧٥ ـ **الكاملُ في التَّاريخ**: لابن الأثير ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ.

١٧٦ ـ **الكاملُ في اللغةِ والأدب**: للمبرّد ـ تحقيق محمد أحمد الدّالي ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٦ م. وطبعة مصر.

١٧٧ ـ **كتابُ ألف باء**: للبلوي ـ مصوّرة عالَم الكتب ـ بيروت.

١٧٨ ـ **كتابُ منتخبات التَّواريخ لدمشق**: للحصنيّ ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٣٩٩ هـ.

١٧٩ ـ **الكشفُ والتَّنبيه على الوصفِ والتَّشبيه**: لصلاح الدّين الصّفدي ـ تحقيق: د. هلال ناجي ورفيقه ـ مجلّة الحكمة ـ بريطانيا ـ ط ١ ـ ١٩٩٩ م.

١٨٠ ـ **كنزُ العمّال**: لعلاء الدّين علي المتقي الهندي ـ بعنايةِ حيّاني والسّقا ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ٥ ـ ١٩٨٥ م.

١٨١ ـ **الكواكبُ السَّائرة في أعيانِ المئةِ العاشرة**: للغزيّ ـ حقّقه جبرائيل جبّور ـ دار الفكر ـ بيروت ـ دون تاريخ.

١٨٢ ـ **لسانُ العربِ**: لابن منظور ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٠ م.

١٨٣ ـ **لطفُ السَّمر وقَطْفُ الثَّمر**: لنجم الدِّين الغزيّ ـ حقّقه محمود الشّيخ ـ منشورات وزارة الثّقافة ـ دمشق ـ ١٩٨١ م.

١٨٤ ـ **المبسوطُ**: لشمس الدّين السّرخْسي ـ مطبعة السَّعادة ـ مصر ـ ١٣٢٤ هـ ـ وطبعة مصوّرة ببيروت.

١٨٥ ـ **مجمعُ الأمثال**: للميدانيّ ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ مصر ـ ١٩٨٧ م. وطبعةٌ أخرى بتحقيق محيي الدّين عبد الحميد ـ مطبعة السُّنّة المحمديّة ـ القاهرة ـ ١٩٥٥ م.

١٨٦ ـ **مجمعُ الزّوائد ومنبعُ الفوائد**: للهيثميّ ـ دار الكتاب العربيّ ـ بيروت ـ دون تاريخ.

١٨٧ ـ **مُجمل اللغة**: لابنِ فارس ـ حقّقه شهاب الدّين أبو عمرو ـ دار الفِكْر ـ بيروت ـ ١٩٩٤ م.

١٨٨ ـ **المحاسنُ والأضداد**: لأبي عُثمان الجاحظ ـ تحقيق محمد سويد ـ دارُ إحياء العُلوم ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩١ م.

١٨٩ ـ **المحاسنُ والمساوىء**: للبيهقيّ ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٠ م. وطبعة دار إحياء العُلوم ـ ١٩٨٨ م.

١٩٠ ـ **محاضراتُ الأُدباء**: للرّاغب الأصفهانيّ ـ دارُ مكتبة الحياة ـ بيروت ـ دون تاريخ.

١٩١ ـ **المُحبّر**: لابنِ حبيب ـ رواية السُّكري ـ صحّحه الدّكتورة إيلزه ليختن شتيتر ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ دون تاريخ.

١٩٢ ـ **مختار الصِّحاح**: للرّازي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط٣ ـ ١٩٩٨ م.

١٩٣ ـ **المختارُ من نوادرِ الأخبار**: للمقّريّ الأنباري ـ المكتبةُ العصرية ـ صيدا ـ بيروت ـ ١٩٩٤ م.

١٩٤ ـ **مختصرُ تاريخ مدينة دمشق لابن عسَاكر**: لابنِ منظور ـ تحقيق جماعة من الأساتذة ـ دار الفكْرِ ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٠ م.

١٩٥ ـ **المختصرُ في أخبارِ البشر**: لأبي الفداء ـ المطبعة الحُسينيّة المصريّة ـ ١٣٢٥ هـ. وطبعة بيروت.

١٩٦ ـ **المخصصُ**: لابنِ سيْده (علي بن إسماعيل) طبعة مصر، وطبعةُ دار الكتُب العلميّة ـ بيروت ـ دون تاريخ.

١٩٧ ـ **المدهشُ**: لأبي الفرج بن الجوزيّ ـ دار الجيل ـ بيروت ـ دون تاريخ.

١٩٨ ـ **مرآةُ الجنانِ وعبرةُ اليقظان**: لليافعيّ ـ دار الكتاب الإسلاميّ ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٩٣ م.

١٩٩ ـ **المرأةُ العربيةُ في جاهليتها وإسلامها**: لعبد الله عفيفي ـ دار الرّائد العربي ـ بيروت ـ وطبعة مصر ـ ١٩٣٣ م.

٢٠٠ ـ **المرأة في التاريخ والشَّرائع**: لمحمد جميل بيهم ـ بيروت ـ ١٩٢١م.

٢٠١ ـ **المرأةُ في الشّعر الجاهليّ**: للدكتور أحمد الحوفي ـ دار نهضة مصر ـ القاهرة ـ ط ٣ ـ ١٩٨٠ م.

٢٠٢ ـ **المرأةُ في عالمي العربِ والإسلام**: لعمر رضا كحّالة ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٧٨ م.

٢٠٣ ـ **المرأةُ في القديمِ والحديثِ**: لعمر رضا كحّالة ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٧٨ م.

٢٠٤ ـ **المرأةُ المُسلمة**: لمحمد فريد وجدي ـ مطبعة التّرقّي ـ مصر ـ ١٩٠١ م.

٢٠٥ ـ **المردفاتُ من قريش**: لأبي الحسن المدائني ـ ضمن نوادر المخطُوطات ـ مطبعة لجنة التّأليف والنّشر ـ مصر ـ ١٩٥١ م.

٢٠٦ ـ **مروجُ الذَّهب ومعادنُ الجوهر**: للمسعودي ـ تحقيق محيي الدّين عبد الحميد ـ دار المعرفةِ ـ بيروت ـ دون تاريخ.

٢٠٧ ـ **المُستجادُ من فعلاتِ الأجواد**: للتّنوخي ـ تحقيق محمّد كُرد علي ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٩٢ م. مصوّرة عن طبعة المجمعِ العلمي العربيّ بدمشق ١٩٤٦ م.

٢٠٨ ـ **المُستطرفُ في كل فَنّ مستظرف**: للأبشيهيّ ـ دار الفكر ـ طبعة مصوّرة عن طبعة مصر ١٣٠٨ هـ، وطبعة دار صادر المحقّقة.

٢٠٩ ـ **مشيخةُ ابن الجوزي**: تحقيق محمد محفوظ ـ الشّركة التّونسية للتَّوزيع ـ ١٩٧٧ م.

٢١٠ ـ **مصارعُ العشّاق**: لجعفر بن أحمد السَّراج القارىء ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٥٨ م.

٢١١ ـ **المصباحُ المنير**: للفيومي ـ طبعةٌ مصوّرة ـ بيروت ـ دون تاريخ.

٢١٢ ـ **المصنوعُ في معرفةِ الحديثِ الموضوع**: لملا علي القاري ـ تحقيق عبد الفتاح أبو غدة ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٧٨ م.

٢١٣ ـ **المصون في الأدب**: للعسكري. طبعة مصر.

٢١٤ ـ **المعارفُ**: لابن قُتيبة ـ تحقيق د. ثروت عكاشة ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط ٢ ـ ١٩٧٧ م.

٢١٥ ـ **المعاني الكبيرة في أبياتِ المعاني**: لابن قُتيبة ـ دار الكتبُ العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٤ م.

٢١٦ ـ **معاهدُ التّنصيص على شواهدِ التّلخيص**: لعبد الرحيم العبّاسي ـ تحقيق محمد محيي الدّين عبد الحميد ـ المكتبة التّجارية الكُبرى ـ مصر ـ ١٩٤٧ م.

٢١٧ ـ **معجمُ الأدباء**: لياقوت الحمويّ ـ دار المأمون ـ القاهرة ـ ١٩٣٦ م.

٢١٨ ـ معجمُ الأديباتِ الشَّواعر: للسّمّان الحمويّ ـ تحقيق أحمد يُوسف الدقاق ـ دار الثَّقافة العربيةِ ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٦ م.

٢١٩ ـ معجمُ البُلدان: لياقوت الحموي ـ دار إحياء التّراث العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.

٢٢٠ ـ معجمُ الشُّعراء: للمرزباني ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩١ م وطبعة مصر.

٢٢١ ـ معجمُ الشّيوخ (المعجم المختص بالمحدّثين): للذّهبي ـ تحقيق د. محمد الحبيب الهيلة ـ مكتبة السّعودية ـ الطّائف ـ ١٩٨٨ م.

٢٢٢ ـ معجمُ ما استعجم: للبكري الأندلسيّ ـ تحقيق مصطفى السّقا ـ عالَم الكتب ـ بيروت ـ ط ٣ ـ ١٩٨٣ م. مصورة عن طبعة القاهرة ١٩٤٥ م.

٢٢٣ ـ معجمُ المقاييس في اللغةِ: لابن فارس ـ تحقيق شهاب الدّين أبو عمرو ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٩٨ م.

٢٢٤ ـ المعجمُ الوسيط: أخرجه د. إبراهيم مُصطفى ورفاقه ـ طبعة تركيّة.

٢٢٥ ـ المعرفةُ والتّاريخ: للبسويّ ـ تحقيق د. أكرم العمريّ ـ مؤسسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٤ م.

٢٢٦ ـ المغازي: للواقدي ـ تحقيق د. مارسدن جونس ـ عالَم الكتُب ـ بيروت ـ دون تاريخ.

٢٢٧ ـ المغني: لابنِ قدامة ـ بعناية جماعة منَ العُلماء ـ دار الكتاب العربيّ ـ بيروت ـ ١٩٧٢ م.

٢٢٨ ـ المفصّلُ في تاريخِ العربِ قبل الإسلام: لجواد علي ـ مصر ـ ط ٢ ـ ١٤١٣ هـ.

٢٢٩ـ **المفضّليّات**: للمفضّل الضّبي ـ تحقيق عبد السَّلام هارون وأحمد محمد شاكر ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٨٣ م.

٢٣٠ـ **المقاصدُ الحسَنة**: للسَّخاوي ـ دار الكتبُ العلمية ـ بيروت ـ ١٩٧٩ م.

٢٣١ـ **المقاصدُ السَّنية في الأحاديث الإلهية**: لابن بلبان ـ تحقيق محمد الخطراوي ورفيقه ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ٢ ـ ١٩٩٧ م.

٢٣٢ـ **مقدمةُ ابن خلدون**: لابن خلدون ـ طبعات مختلفة.

٢٣٣ـ **مقدمةُ ابن الصَّلاح**: لابن الصّلاح ـ مكتبة المتنبي ـ القاهرة.

٢٣٤ـ **ملء العيبةِ بما جمعَ بطولِ الغيبة**: لابن رشَيْد ـ تحقيق د. محمد الحبيب الهيلة ـ دار الغرب الإسلاميّ ـ بيروت ـ ١٩٨٨ م.

٢٣٥ـ **ملحقُ البدرِ الطَّالع، مطبوع مع البدرِ الطّالع**: لابن زبارة ـ دار المعرفة ـ بيروت.

٢٣٦ـ **الممتعُ في صنعةِ الشّعر**: لعبد الكريم النّهْشَليّ القيروانيّ ـ تحقيق د. محمد زغلول سلام ـ منشأةُ المعارف ـ الإسكندريّة ـ دون تاريخ.

٢٣٧ـ **المنازلُ والدّيار**: لأسامةَ بنِ منقذ ـ تحقيق مُصطفى حجازي ـ لجنة إحياء التّراث الإسلاميّ ـ القاهرة ـ ١٩٩٤ م. وطبعة المكتب الإسلاميّ ـ دمشق ـ ١٣٨٥ هـ.

٢٣٨ـ **منتخباتُ التّواريخِ لدمشق**: لمحمد الحصني ـ منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٣٩٩ هـ.

٢٣٩ـ **المنهلُ الصَّافي والمستوفي بعد الوافي**: لابن تُغري بردي ـ تحقيق ثلّة من العُلماء ـ الهيئةُ المصريّة العامّة للكتاب ـ ١٩٨٤ م.

٢٤٠ ـ المواعظُ والاعتبار بذكر الخُطَط والآثار: للمقريزي ـ طبعة الحلبي وشركاه ـ القاهرة ـ وطبعةُ بيروت.

٢٤١ ـ المواهبُ اللدنية: للقَسْطلاني ـ تحقيق صالح أحمد الشّامي ـ المكتب الإسلاميّ ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩١ م.

٢٤٢ ـ موسوعةُ التّاريخ الإسلامي: لأحمد شلبي ـ القاهرة ـ ط ٧ ـ ١٩٨٤ م.

٢٤٣ ـ موسوعة الشّعر العربي: العَصْر الجاهليّ ـ طبعة بيروت.

٢٤٤ ـ الموشّحُ: للمرزباني ـ تحقيق محمد حسين شمس الدّين ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٤١٥ هـ. وطبعة مصر ـ ١٩٦٥ م.

٢٤٥ ـ الموشّى: لأبي الطّيّب الوشّاء ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ.

٢٤٦ ـ الموضوعاتُ: لابن الجوزي ـ تحقيق عبد الرّحمن محمد عثمان ـ المدينة المنورة ـ ١٩٦٦ م.

٢٤٧ ـ الموطّأ: للإمامِ مالك ـ صحّحه ورقّمه محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء الكتبُ العربيّة ـ القاهرة.

٢٤٨ ـ ميزانُ الاعتدالِ: للذّهبي ـ دارُ المعرفة ـ بيروت ـ ١٩٦٣ م.

٢٤٩ ـ النّجومُ الزّاهرة: لابنِ تغري بردي ـ طبعة مصوَّرة عن طبعة دار الكتُبِ المصريّة.

٢٥٠ ـ نزهةُ الجُلسَاء في أشعارِ النِّساء: للسّيوطي ـ تحقيق د. صلاح الدّين المنجّد ـ بيروت ـ ١٩٥٨ م. وطبعةُ مصر مكتبة التّراث الإسلامي.

٢٥١ ـ نساءُ أَهْلِ البيت: لأحمدّ خليل جُمُعَة الحرسْتَانيّ الدّمشقيّ ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط ٤ ـ ١٤٢٠ هـ.

٢٥٢ ـ **نساءٌ مبشراتٌ بالجنّة**: لأحمد بن خليل جُمُعة الحرسْتَاني الدّمشقيّ ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ٤ ـ ١٩٩٨ م.

٢٥٣ ـ **نساءٌ منَ الأندلسِ**: لأحمد بن خليل جُمعة الحرستانيّ الدمشقي ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٤٢١ هـ.

٢٥٤ ـ **نساءٌ من التَّاريخ**: لأحمد بن خليل جُمُعة الحرستانيّ الدّمشقيّ ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط ٢ ـ ١٩٩٩ م.

٢٥٥ ـ **نساءٌ من عَصْر التّابعين**: لأحمد بن خليل جُمُعة الحرستانيّ الدّمشقيّ ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ٣ ـ ١٩٩٨ م.

٢٥٦ ـ **نساءٌ من عَصْر النّبّوة**: لأحمد بن خليل جُمُعة الحرستانيّ الدمشقيّ ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ٣ ـ ٢٠٠٠.

٢٥٧ ـ **نَسَبُ قُريش**: لمصْعَب الزّبيري ـ تحقيق ليفي بروفنسال ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٥٣ م.

٢٥٨ ـ **نفحُ الطّيب من غُصْنِ الأندلس الرّطيب**: للمقّري ـ حقّقه يوسُف الشّيخ محمد البقاعي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٦ م.

٢٥٩ ـ **النّقائض**: لأبي عُبيدة معمر بن المثنّى ـ مكتبة المثنى ـ بغداد.

٢٦٠ ـ **نقدُ الشّعر**: لقدامةَ بن جعفر ـ طبعة مصوّرة بدار الكتب العلمية.

٢٦١ ـ **نهايةُ الأرب**: للنّويري ـ طبعة مصوّرة عن طبعة دار الكتب بمصر.

٢٦٢ ـ **نهايةُ الأربِ في معرفةِ أنساب العرب**: للقلقشندي ـ طبعة مصوّرة ببيروت.

٢٦٣ ـ **نوادرُ الخلفاءِ المسمّى (إعلام الناس بما وقعَ للبرامكةِ مع بني العبّاس)**: لمحمد بن دياب الأتليديّ ـ تحقيق أيمن البُحيري ـ دار

الآفاق العربيّة ـ القاهرة ـ ط ١ ـ ١٩٩٨ م. وطبعة دار صادر ببيروت.

٢٦٤ ـ **نوادرُ المخطوطاتِ**: تحقيق عبد السّلام هارون ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٧٢ م.

٢٦٥ ـ **نورُ الأبصار**: لمؤمن الشَّبلنجي ـ مطبعة البابي الحلبيّ ـ مصر ـ الطَّبعةُ الأخيرة ـ ١٩٤٨ م.

٢٦٦ ـ **نورُ الطَّرفِ ونورُ الظَّرف**: للحصريّ ـ تحقيق لينة أبو صالح ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٦ م.

٢٦٧ ـ **نيلُ الأوطار**: للشّوكاني ـ طبعاتٌ مختلفة.

٢٦٨ ـ **هذهِ الشّجرةُ**: لعبّاس محمود العقّاد ـ دار الكتاب العربيّ ـ بيروت ـ ط ٣ ـ ١٩٧١ م.

٢٦٩ ـ **الهفواتُ النَّادِرةُ**: لأبي الحسن الصَّابي ـ تحقيق د. صالح الأشْتَر ـ دمشق ـ ١٩٦٧ م.

٢٧٠ ـ **الوافي بالوفَيات**: لصلاح الدّين الصَّفدي ـ جمعية المستشرقين الألمانيين ـ مطابع مختلفة ـ (١٩٣١ ـ ١٩٨٤ م).

٢٧١ ـ **الوزراءُ والكتّاب**: للجهشياري ـ تحقيق مصطفى السّقا ـ ورفاقه ـ القاهرة ـ ١٩٣٨ م.

٢٧٢ ـ **الوسيطُ في الأمثالِ**: للواحديّ ـ تحقيق عفيف عبد الرحمن ـ مؤسّسة دار الكتُب الثّقافية ـ الكويت ـ ط ١.

٢٧٣ ـ **الوفَا بأحوالِ المُصطفى**: لابن الجوزي ـ تحقيق مصطفى عطا ـ دار الكتبُ العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٤٠٨ هـ.

٢٧٤ ـ **وفاءُ الوفَا**: للسّمهوري ـ تحقيق محيي الدّين عبد الحميد ـ دار إحياء التّراث العربي ـ ط ٤ ـ ١٩٨٤ م.

٢٧٥ ـ **وفياتُ الأعيَان**: لابن خلّكان ـ تحقيق د. إحسان عبّاس ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٨ م.

٢٧٦ ـ **الوفياتُ**: لابن رافع السُّلامي ـ تحقيق صالح مهدي عبّاس ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ١٩٨٢ م.

٢٧٧ ـ **وقعةُ صفّين**: لنصر بنِ مزاحم المنقري ـ تحقيق عبد السَّلام هارون ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ١٩٩٠ م.

٢٧٨ ـ **يتيمةُ الدَّهر في محاسنِ أهلِ العصر**: للثّعالبي ـ تحقيق محيي الدّين عبد الحميد ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٥٦ م.

ومصادر ومراجعُ ودواوينُ كثيرة جدّاً.

* * *

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فهرس الموضوعات

المقدمة وعرض الكتاب ٧
الباب الأول: نساء من العصر الجاهلي ٣١
بهيسة بنت أوس الطائية ٣٢
المرأة والزوج الكفء ٣٣
مشورة وذكاء ٤٠
ادعي لي بهيسة ٤٧
بهيسة العاقلة المنجبة ٤٩
عفيرة بنت عباد ٥٣
المرأة والعفة ٥٤
ملك طسم الظالم ٥٩
عفيرة تحرض قومها ليقتلوا عمليقاً ٦٠
عنبة بنت عفيف ٦٩
المرأة والسخاء ٧٠
لا أمنع سائلاً ما حييت ٧٢
عنبة وابنها حاتم ٧٥
ماوية بنت عفزر ٧٩
من نساء الكرماء ٨٠

ماوية وحاتم ٨٢
حدثيني ببعض عجائب حاتم ٨٧
طلقي حاتماً ٨٩
المتجردة امرأة النعمان ٩٨
المرأة الجميلة ٩٩
مع غزل الشعراء ١٠١
جمال المرأة عند شعراء الجاهلية ١٠٣
هل من علاقة بين المتجردة والنابغة ١٢٧
المتجردة وقصص مكذوبة ١٣٢
هل ذكرت المتجردة في شعر النابغة؟ ١٤٢
المتجردة ووقفة تصحيح ١٥١
آراء مضطربة حول المتجردة ١٥٩
الباب الثاني: نساء من عصر المخضرمين ١٦٧
الخنساء بنت عمرو ١٦٨
أميرة شاعرات عصرها ١٦٩
الخنساء وجمالها الساحر ١٧١
الخنساء وخطبة دريد بن الصمة ١٧٣
في رحاب الزواج ١٨١
الخنساء وابنتها عمرة ١٨٨
الخنساء وحسان بن ثابت وأكذوبة بلهاء ١٩٣
الخنساء وهند بنت عتبة ٢١٠
الخنساء والإسلام ٢١٥

مع الخنساء في وصية أبنائها ٢١٩
أثارة من نثرها وشعرها ٢٢٥
الخنساء في ميزان الأدباء والشعراء ٢٣٥
سفانة بنت حاتم ٢٥٨
في عداد الصحابيات السخيات ٢٥٩
من أخبار سفانة وجودها ٢٦٠
سفانة والإسلام ٢٦٣
سفانة وابن حاتم ٢٦٨
الفارعة بنت أبي الصلت ٢٧٥
المرأة العاقلة ٢٧٦
الفارعة والصحبة النبوية ٢٧٨
صور من حياة الفارعة ٢٨٦
هند بنت أثاثة ٢٨٨
من الرعيل الأول ٢٨٩
هند في غزوة أحد ٢٩١
هند والرثاء ٢٩٣
هند في أفواج المجاهدات ٣٠٢

الباب الثالث: نساء من العصر الإسلامي ٣٠٥
تقية بنت غيث الصورية ٣٠٦
ست النعم ٣٠٧
باقات من أخبارها ٣٠٨
من لطائفها الأدبية ٣١٠
تقية تمدح الحافظ السلفي ٣١٣

علمي بهذا كعلمي بهذا ٣١٦
من الفاضلات المحسنات الخالدات ٣١٧
زينب بنت أحمد المقدسية ٣٢٥
المرأة الصالحة العذراء ٣٢٢
زينب ومجالس العلم وشيوخه ٣٢٥
مكانتها وقدرها وأخلاقها ٣٢٩
أستاذة العلماء والعالمات ٣٣٠
المعمرة الدينة في سجل العظائم ٣٣٤
زينب بنت محمد الغزي ٣٣٧
من فضليات النساء ٣٣٨
زينب والأسرة الكريمة ٣٣٩
أثارة من معارفها ونظمها ٣٤١
ست الوزراء التنوخية ٣٤٥
الشجرة الطيبة ٣٤٦
مسندة عصرها ٣٤٨
ست الوزراء ورواية الحديث ٣٥٠
تلامذتها والمحدثون عنها ٣٥٢
ست الوزراء في سجل العلماء ٣٥٤
سعاد العذرية ٣٥٩
من هذه المرأة؟ ٣٦٠
طلق سعاداً ٣٦٨
ما تصلح إلا لأمير المؤمنين ٣٦٩
اردد سعاد على حيران ٣٧١

شهدة بنت أحمد الإبري ٣٧٧
فخر النساء ٣٧٨
العالمة ابنة المحدث ٣٧٩
المتعلمة الورعة ٣٨٣
تصدرها للتدريس ٣٨٤
من أحاديث ومرويات شهدة ٣٨٨
أثارة من شعرها ٣٩٠
ثناء العلماء والأكابر عليها ٣٩٣
الشيخة المعمرة ٣٩٦
فاطمة بنت إبراهيم البطائحي ٣٩٨
الخيرة أم الخير ٣٩٩
أسرتها وأولادها ٤٠٠
العالمة المتعلمة المسندة ٤٠٢
نموذج من مروياتها ٤٠٥
مع المعمرات الخالدات ٤٠٨
فاطمة بنت أحمد الحرازية ٤١٠
من أسرة علمية ٤١١
التلميذة النجيبة ٤١٤
من أخبار فاطمة ٤١٧
وفاتها والثناء عليها ٤١٩
فاطمة بنت الأقرع ٤٢١
الخطاطة الماهرة ٤٢٢
الأديبة الناثرة ٤٢٨

الشاعرة الحصيفة ٤٣٢
البليغة الكاتبة ٤٣٤
المحدثة الحافظة ٤٣٧
فاطمة بنت سعد الخير ٤٤٠
الشيخة الميمونة ٤٤١
نشأتها ومسموعاتها ٤٤٢
زوجة الواعظ ٤٤٤
حياتها العلمية وأثرها في العلماء ٤٤٦
فاطمة بنت سليمان الأنصارية ٤٤٩
من محدثات دمشق الشام ٤٥٠
في رحاب الشيوخ والشيخات ٤٥٢
الشيخة المتفرغة للعلم ٤٥٣
من فضائلها ومآثرها وبرها ٤٥٤
فضة النوبية ٤٥٧
في بيت الزهراء ٤٥٨
فضة ومرض الحسن والحسين ٤٦٠
وقفة أخيرة مع فضة ٤٧١
كريمة بنت أحمد المروزية ٤٧٥
العالمة الصالحة ٤٧٦
اهتمامها بالعلم وضبطه ٤٧٨
كريمة والآخذون عنها ٤٨٠
هل رأى إنسان مثل كريمة ٤٨٢
في ديوان العالمات المعمرات ٤٨٤

المتكلمة بالقرآن ٤٨٦
في رحاب الحق ٤٨٧
حكاية المتكلمة بالقرآن ٤٩٠
في الميزان ٥٠١
وقفات لطيفة مع الاقتباس ٥٠٣

الباب الرابع: نساء من العصر الحديث ٥٠٨
زينب بنت يوسف فواز ٥٠٩
من هذه المرأة؟ ٥١٠
نشأتها وشذرات من أخبارها ٥١٢
زينب والرحلة المصرية ٥١٧
زينب وأديب والزواج ٥٢١
مؤلفات وأعمال زينب فواز ٥٢٤
زينب وفنون الشعر ٥٣٧
أميرة النثر والبيان ٥٥٠
وداعاً درة الشرق ٥٦٤
وداد بنت محمد سكاكيني ٥٦٨
الفتاة الأديبة ٥٦٩
وداد بين الشهرة والأدب ٥٧٦
وداد في مصر ٥٨٢
وداد سكاكيني والتأليف ٥٩١
وداد والقصص ٥٩٨
وداد والروايات ٦٠٥
وداد والمقالات والتراجم والسير ٦٠٥

وداد والنقد الأدبي والفني ٦٢٩
الثناء على وداد ٦٣٦
الرحلة الأخيرة ٦٤١
من وحي الشعر ٦٤٣
المصادر والمراجع ٦٤٥
فهرس الموضوعات ٦٧١